جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

تاريخ الدعوة

IHIS2074

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008

المحتويات

الـــــــــدرس الأول :	دعوة آدم، وإدريس، عليهما السلام	٧-٤٦
الـــدرس الثـــاني :	دعوة نوح #	٤٧-٦٧
الـــدرس الثـالـث :	دعوة هود، وصالح، عليهما السلام	٦٩-٨٩
الـــدرس الرابـــع :	دعوة ابراهيم #	٩١-١١٢
الـــدرس الخـــامس :	دعوة لوط، وشعيب، وإسماعيل، عليهم الصلاة والسلام	١١٣-١٣٤
الـــدرس الـــسادس :	دعوة إسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وذي الكفل، عليهم السلام	١٣٥-١٧٨
الـــدرس الـــسابع :	دعوة يونس بن متَّى، وموسى، عليهما السلام	١٧٩-٢١٦
الـــدرس الثـــامن :	دعوة هارون، وإلياس، والْيَسَع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، عليهم السلام	٢١٧-٢٥٥
الـــدرس التـاســـع :	دعوة عيسى # ، والركائز الرئيسة في الدعوات الإلهية	٢٥٧-٣١٧
الـــدرس العاشـــر :	بعض قصص الصالحين الواردة في القرآن الكريم، وحالة العرب قبل الإسلام	٣١٩-٤٢٠
الدرس الحـادي عـشر :	نسب النبي وأسرته، وولادته، وحياته حتى البعثة، ﷺ	٤٢١-٤٦٢
الـدرس الثـاني عـشر :	بعثة النبي ﷺ: نزول الوحي، ومراحل الدعوة	٤٦٣-٤٩٩
الـدرس الثـالث عـشر :	موقف المعاندين من دعوة النبي ﷺ	٥٠١-٥٤٥

الدرس الرابع عشر :	مرحلة الدعوة الجهرية خارج مكة، وبيعتا العقبة	٥٤٧-٥٨٥
الدرس الخامس عشر :	حادثة الهجرة وما صاحبها من أحداث	٥٨٧-٦٤٣
الدرس السادس عشر :	تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، وسيطرة الدعوة في شبه الجزيرة، وتطلعاتها وبداية امتدادها للخارج	٦٤٥-٦٩٣
الدرس السابع عشر :	تعريف الجهاد وأحكامه، وموقف تلاميذ الاستشراق والفِرق الضالة الحديثة والقديمة منه	٦٩٥-٧٤٨
الدرس الثامن عشر :	الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين	٧٤٩-٨٠٢
الدرس التاسع عشر :	الدعوة الإسلامية في العهد الأموي، والعهد العباسي	٨٠٣-٨٧٥
الدرس العشرون :	الدعوة الإسلامية في العهد العثماني وما بعده، والدعوات الإسلامية المعاصرة	٨٧٧-٩٥٤
قائمة المراجع العامة :		٩٥٥-٩٥٨

دعوة آدم، وإدريس، عليهما السلام

عناصر الدرس

العنصر الأول : مقدمة في أهمية الدعوة وفضلها، وأهمية دراسة تاريخها ٩

العنصر الثاني : دعوة آدم # ٢٨

العنصر الثالث : دعوة إدريس # ٤٥

مقدمة في أهمية الدعوة وفضلها، وأهمية دراسة تاريخها

أولًا: بيان أهمية الدعوة وفضلها:

أ- تعريف بالمقرر:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ ثم أما بعد:

فهذه المادة تتناول تعريفًا بمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ﷻ وتحديدًا للركائز الأساسية في الدعوات الإلهية، كما تتناول شرحًا لحالة العرب قبل الإسلام، وتوضيحًا لملامح الدعوة في عهدها المكِّي.

وطبقًا لهذه الدروس، فإننا سنتناول -بمشيئة الله تعالى وتوفيقه- عددًا من دعوات الأنبياء والمرسلين، فنتعرف على بيئات أولئك الرسل، وعلى نشآتهم المختلفة، ونتعرف على ما جرى بينهم وبين أممهم وأقوامهم، كما نتناول أيضًا أهم هذه الركائز التي قامت عليها دعوات أنبياء الله تعالى ورسله؛ فنتناول دعوة آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وذي الكفل، ويونس، وموسى، وهارون، وإلياس، واليسع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى. ثم نردف بعد ذلك ببيان الركائز الرئيسة في الدعوات الإلهية.

كما نتناول قصة أصحاب الأخدود، وقصة مؤمن أصحاب القرية، وقصة مؤمن آل فرعون، كما نتناول قصة أصحاب الكهف.

بهذا نكون قد مررنا على دعواتٍ إسلامية إيمانية نورانية في تاريخ أمة "لا إله إلا الله"، هذه الأمة التي تمتد من لدن آدم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- وإلى نبينا محمد ﷺ.

وكتمهيدٍ لدراسة دعوة النبي ﷺ فإننا سنتناول حالَ العرب قبل الإسلام، كما نتناول نبذةً يسيرة عن نسب النبي ﷺ وأسرته، وولادته، وحياته حتى بعثته، ثم نتناول البعثة ونزول الوحي تفصيلًا، كما نتناول مرحلة الدعوة السرية في العهد المكي، ومرحلة الدعوة الجهرية في العهد المكي، وموقف المعاندين من دعوة رسول الله ﷺ.

كما نتناول دعوة النبي ﷺ في مواسم الحج، ونتناول عرض نفسه ﷺ على القبائل؛ وبيعة العقبة الأولى والثانية، ثم نردف بحادثة الهجرة -على صاحبها أفضل صلاةٍ وأزكى سلام.

كما نتحدث عن الجهاد وأحكامه، وموقف تلاميذ الاستشراق والفِرق الضالة الحديثة والقديمة منه.

كذا نتناول الدعوة الإسلامية في عهد: الخلفاء الراشدين، والعهد الأموي، والعهد العباسي، والعهد العثماني وما بعده، لنختم هذا المقرر بحديثٍ عن الدعوات الإسلامية المعاصرة.

ب- مقدمة في أهمية الدعوة وفضلها:

إن الدعوة إلى الله تعالى من أعظم القُربات وأجل المهمات، جعلها الله تعالى وظيفة أنبيائه، ومهمة أوليائه، وسبيل أصفيائه قال -جَل من قائلٍ عليمًا-: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال -جل من قائل- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

والدعوة إلى الله تعالى قولًا هي أحسن الأقوال، والدعوة إلى الله ﷻ عملًا هي أحسن الأعمال، قال -جل من قائل عليمًا- : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

وأفضل الخلق بعد المرسلين الذين يقومون مقامهم بالدعوة والتذكير في أممهم، ويخلفونهم بالبشارة والنذارة والتبليغ في أقوامهم، يصلحون من أمر الدين ما فسد، ويحيون من معالم السنن ما اندثر، هم أولى الناس بالنبيين، وأحرى الورى بدعاء إمام المصلحين ﷺ بنضارة الوجوه والفقه في الدين.

أولئك الأقلّون عددًا، والأعظمون عند الله أجرًا، فتح الله بهم قلوبًا غلفًا، وبصر الله بهم أعينًا عميًا، وأسمع الله بهم آذانًا صمًّا، يسوقون الحياة والأحياء إلى الله تعالى سوقًا رفيقًا، يوقظون نوازع الخير، ويزكون وازع التقوى، أولئك الدعاة إلى الله على بصيرة بالإسلام عقيدةً وشريعةً، علمًا وعملًا، دينًا ودولةً، على بصيرة بالناس على تنوع أصنافهم واختلاف أحوالهم، على بصيرة بالدعوة وأصولها وطرائقها وأسبابها ووسائلها ومعوقاتها.

أولئك الدعاة يقيمون بنيانَ دعوتهم على أصولٍ راسخة، ومنطلقاتٍ ثابتة، وملامح وسماتٍ بينة، يهتدون بهدي الأنبياء في الدعوة إلى الله، ويقتفون أثرَ المصطفى ﷺ ويتبعون أصحابه، يحققون توحيدًا وإخلاصًا، وينشرون علمًا وفقهًا، ويتبعون أسلافًا وآثارًا، وعلى أساسٍ من ذلك كله يربون جيلًا، ويقيمون معروفًا، ويهدمون منكرًا، ويجاهدون عدوًّا، ويجمعون الدين علمًا وعملًا.

يقول ابن القيم -عليه رحمة الله- : "إن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة؛ فالله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، كيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم: مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم، بأنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمؤمنين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين.

ولا شك أن علم الدعوة وعمَلَها هو أفضل ما اشتغل به مسلم؛ يقول نبينا ﷺ : ((أفضل الجهاد كلمة حقٍ عند سلطانٍ جائر))، وإذا كان دعاء النبي ﷺ ودعاء أهل السموات والأرض للدعاة عمومًا؛ فإن الدعاة الذين نفروا ليتفقهوا في أصول دعوتهم هم في الطليعة من هذا الخير؛ فهم أحسن الدعاة قولًا، وأصلحهم في المسلمين عملًا.

وإذا كنّا قد قدّمنا بأن جهاد الدعوة بالكلمة له فضل كبير لا يدرك أمانة الكلمة ولا فقهها مثل الدعاة العلماء بهذا العلم النفيس، قال ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ هؤلاء هم الذين ينفع الله ﷻ بهم بالبلاد، وهؤلاء الذين يرفع الله ﷻ أقدارهم بين العباد؛ قال -جل من قائل- : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

ولا شك أن مَن تلقى علم الدعوة وعمل بها واشتغل، يكون خيرًا ممن عمل بالدعوة من غير أن يتلقى علمها وأن يأخذ فقهها.

إن علم الدعوة إلى الله ﷻ ثمراته كثيرة، وتبنى هذه الثمرات على أربع حيثيات:

الحيثية الأولى: بالنسبة لهذا الدين:

فإن تعلُّم الدعوة والعمل بهذه المعلومات التي يتعلمها الإنسان عن دعوة الله ﷻ من شأنه أن يقيم الدين؛ فأول تلك الثمرات بالنسبة للدين هي إقامته، وذلك بالعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، وبسط سلطانها، واستئناف الحكم بها والتحاكم إليها، والموازنة بين مختلف المصالح في هذا السبيل. ومما يتعلق بالدين أيضًا: اتخاذ المواقف المناسبة من المنكرات القائمة دفعًا أو تقليلًا، مع النظر إلى العواقب والمآلات في ذلك كله. ومما له تعلق بإقامة الدين: تقويم الفكر إذا انحرف، ودحض العقائد والأفكار الزائفة، ومحاربة الزيغ عن الصراط المستقيم في شتى صوره.

الحيثية الثانية: فهي بالنسبة للمجتمع المسلم:

ففائدة هذا العلم وهذا العمل: العمل على استفاضة البلاغ في الأمة والمجتمعات الإسلامية، ونشر العلم بين أبنائها، وإظهار السنة وقمع البدعة، كذا ترشيد السعي لتحرير المقدسات الإسلامية، وإشعال روح الجهاد، وبعث الأمة في مواجهة أعدائها، وفي هذا أخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية، ومن ثم يعقب هذا حصول النصر المبين، وتحقق العزة والتمكين لمجتمعات المسلمين.

الحيثية الثالثة: فهي بالنسبة للدعوة في ذاتها:

فمن هذه الثمرات حماية الدعوة من إلحاق ضررٍ بها، سواءً كان هذا الضرر من داخلها، أو من خارجها، وكذا استبانة سبيل المجرمين، ورد كيد الكائدين. أيضًا إن من هذه الثمرات: اتخاذ القرارات الملائمة بشأن الأولويات في طريق الدعوة

إلى الله، والعمل على تكامل الأعمال الدعوية، والتنسيق بينها، والجمع بين مجهوداتها، والإصلاح بين أربابها من الدعاة إلى الله.

الحيثية الرابعة: هي حيثية تتعلق بالدعاة أنفسهم:

فمن ذلك تعلم أصول العمل التربوي الفردي والجماعي، وممارسة التربية والتزكية بمراحلها وخصائصها وضوابطها بما يحقق وجود الإنسان الصالح، وتحصيل البصيرة في حال المدعوين على اختلاف أصنافهم وأحوالهم، ومعاملة كل إنسانٍ بما يليق.

ومن الثمرات أيضًا: تحقيق البصيرة في كيفية الدعوة بعرض الإسلام بشموله: عقيدةً وشريعةً، دينًا ودولةً، وانضباط الدعاة بالحركة الطموحة في حدود الممكن بغير إفراطٍ أو تفريط.

وإذا كان هدف الأهداف وغاية الغايات من سعي الدعاة، هو مَرْضَاةُ رب الأرض والسموات؛ فإن الإحاطة بعلم أصول الدعوة وتاريخها وأحكامها وآدابها، وما يحل من وسائلها وأساليبها، لجدير بأن نسدد خطا العاملين، وأن يحقق ركني الصواب والاتباع في العمل ليتحقق القبول؛ ومن ثم يأتي وعد الله تعالى لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين؛ قال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

ثانيًا: بيان أهمية علم تاريخ الدعوة إلى الله تعالى:

علم التاريخ من العلوم الهامة ذات الفائدة القصوى للإنسان؛ لماذا؟

لأنه يتخذ الماضي موضوعًا لدراسته، ويعيش مع الوقائع والأحداث، ويعتمد الحياد الموضوعي، ويجمع الأحداث والوقائع من مصادرها الصحيحة، ثم يحللها

بأمانة وينسِّق بينها على أسس عقلية متكاملة ؛ لتنطق بعدئذ بكافة جوانب الحدث وتصوره أمام الناس ؛ وبذلك يعرف التاريخ بواقعه ووقائعه ، ويظهر الماضي بأشخاصه وأحداثه وأعماله وحيويته...

وكل هذا ؛ لكي يتمكن الباحث من استخلاص الدروس والعبر، وليتحقق له هدفُه المنشود من استخلاص هذه العبر التي ينتفع بها في الواقع والمستقبل على حدٍّ سواء.

وعلم تاريخ الدعوة إلى الله فرع من علم التاريخ العام ؛ ذلك أنه يهتم برصد جانبٍ معين من الأحداث والوقائع الماضية ، ألا وهو ذلك الجانب المتصل بالدين وحركته وحيويته في حياة الناس ؛ ولذلك نراه يعايش دعوات الله تعالى على طول الزمن ، فيحدد موضوعاتها التي بُلِّغها الخلق في أوقات تلك الدعوات ، ويعرفه بوسائلها في البلاغ والدعوة ، ويوضح ما دار حولها من نقاشٍ أو حوار أو نزاع ، ويبين مواقف المدعوين منها ، سواءً آمنوا بها أم لم يؤمنوا.

فعلم تاريخ الدعوة يعايش المدعوين جميعًا ، عامتهم وخاصتهم ؛ فهم جمهور الدعوة ، وهم الأمة التي جاءت الدعوة لهم.

وإذا كان الحديث عن الدعاة إلى الله ﷻ وتاريخهم ، وما يتعلق بهم ، حتى يتمكن أهل هذا العصر من الرصد والتحليل ، لينتفعوا بالرصيد الماضي في إصلاح الحاضر وتوجيه المستقبل وبيان سنن الله ﷻ في الأنفس والمجتمعات ؛ فإن أولى الدعاة بأن يُدرسوا ، وأولى الدعاة بأن تُعرف سيرهم ، وأن تدرس أخبارهم ، هُم رسلُ الله ﷻ ولعل التعريف بالرسل والدعاة على مدار التاريخ ، هو محل اهتمامٍ رئيسي لعلم تاريخ الدعوة ؛ لأنهم حملة الدعوة ، ومبرزوها ، ومبلغوها ،

والمدافعون عنها، وهم أصحاب الهَدْي الذي يُقتدَى؛ قال -جل من قائل عليمًا-: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. هكذا يجب على كل داعية أن ينظر في سير أنبياء الله تعالى ومرسَليه، وذلك من خلال هذا العلم.

هذا العلم الذي نتحدث عنه يعلم الداعية كيف يواجه الخلق، ويفهم الداعية طريقة الخطاب، ومنهج الدعوة، وطريقة البلاغ.

يقول بعض العلماء: إن تاريخ الدعوة يصور طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان في نفوس البشر، ويعرض نموذجًا مكررًا للقلوب المستعدة للإيمان، ونموذجًا مكررًا للقلوب المستعدة للكفر أيضًا؛ فالموكب الكريم من رسل البشرية واجهوا البشرية جميعًا بدعوةٍ واحدة، وعقيدةٍ واحدة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل، فكذلك مواجهة الملأ لدعوة رسل الله لم تتبدل؛ هذه حقيقة تستوقف النظر، وتسترعي الانتباه، ويجب أن يستفيد منها اللاحق؛ يستفيد من تجربة السابق ويبني عليها.

ومن عناية الله تعالى بالدعوة إلى دينه أن أنزل قصص الرسل والأنبياء وحيًا على رسولنا ﷺ لتتميز هذه القصص بخصائص القرآن الكريم الثابتة، بخصائص من الصدق، والدقة، وقصد الهداية والخير، في استقامة خالية من العوج والاضطراب، وبعد تمام الإسلام، وانقطاع الوحي، وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واصل أصحاب نبينا ﷺ ومن بعده التابعون وتابعوهم، رصدَ حركةِ انتشار الإسلام؛ فأخذوا يسجلون عمليةَ تبليغ الدعوة إلى الناس في أرجاء العالم المختلفة.

وعلى هذا يمكننا أن نقسم تاريخ الدعوة إلى ثلاثة أقسام رئيسة، لكل منها خصائص ومزايا:

القسم الأول: يتضمن تاريخ الدعوة مع رسل الله قبل نبينا -عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه- ومصدر هذا القسم هو القرآن الكريم بصورة رئيسة؛ فالقرآن يهيمن على غيره، وكل ما عداه من مصادر أهل الكتاب، أو مما يشبه ذلك من الكتابات القديمة، يجب أن يتفق مع كتاب الله وألا يتعارض معه، فإن وقع تعارض بين ما بأيدينا من كتاب ربنا، وما بأيدي أولئك القوم من كتبهم التي حُرفت، أو من أوراقهم التي غيرت وبُدلت؛ فكتاب الله ﷻ مُقَدَّمٌ.

ويتميز -على كل حال- هذا القسم من تاريخ الدعوة إلى الله ﷻ من هذه المسيرة النبوية الكريمة؛ بأن أخباره كلها صادقة، تلازم الحق وتسير مع الصواب؛ قال -جل من قائل-: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣] وقال -جل من قائل-: ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [القصص: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧] إذن خبر القرآن عن أنبياء الله تعالى، وعن الأمم السابقة هو خبر الحق والصدق، والنبأ: هو الخبر المتعلق بأمرٍ هام، وهو خبر مثير للوجدان والعواطف، والحق: هو الصدق الموافق للواقع المطابق للحدث بلا ريبٍ ولا شبهة.

كما يتميز هذا القسم بارتباط تاريخ الدعوة خلال هذا القسم بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ حيث لا دخلَ لبشرٍ في تصوير أحداثه، أو الإخبار بوقائعه من عند نفسه؛ لأنه غيب أمام البشر، ولولا القرآنُ الكريمُ لغاب تاريخ هذا القسم مع أهميته. قال -جل من قائل-: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]،

وقال -جل من قائل-: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]،

ولهذا قال -جل من قائل-: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٩].

إن قصص القرآن الكريم إخبار عن غيب الله الذي مضى لا يعلمه إلا الله أوحى الله به إلى رسوله ﷺ ليكون منهجًا يتبع، وطريقًا يسلك من الدعاة إلى الله ﷻ.

ومما يتميز به هذا القسم أيضًا: واقعية الأحداث فيه؛ فليس منها ما لا يتصوره عقل أو يتناقض مع فطرة، وطبيعة الإنسان في تصوير هذا القسم دقيقة واقعية... انظر إلى الإنسان؛ تأتيه الدعوة فيتنازع الشر والخير وينتصر هذا أو ذاك... أليس هذا هو الواقع الذي نقرؤه في سائر القصص؟! ولو جئنا بقصةٍ قرآنية وعزلناها عن ذوات أصحابها، وأبعدناها عن زمانها؛ لخيل إلينا أنها قصة من الحاضر؛ لأن الإنسان هو الإنسان؛ فكأن واقعية الماضي تصوير لما وقَعَ فعلًا، وفهم الحاضر يفيد ترابط واقع الماضي مع حوادث الحاضر مع تصورات المستقبل، وذلك أكبر برهان على الواقعية لقصص القرآن الكريم.

ومما تتميز به قصص أنبياء الله تعالى ورسله: سمو أهداف أحداث هذا القسم؛ حيث يدعو إلى الفضائل ويبتعد عن الرذائل، فهو يدعو إلى التوحيد خالصًا، وإلى طاعة الله ﷻ أبدًا، وإلى التخلق بالخلق الكريم مطلقًا، وحين يعرض السياق القرآني، أو النبوي لموقف فيه فُحش؛ فإنه يعرضه بصورة مختصرة، يعرضه بصورةٍ غير مبتذلة، يعرضه في شكلٍ يكره من يقرؤها قال -جل من قائل-: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

نعم، الآية تعرض لحظة ضعفٍ لا لحظة بطولة، ولحظة تحتاج إلى أن يفيق الإنسان منها؛ ليلتزم الواجب، ليلتزم الطهر والمحافظة على حق الله وحق الناس.

ثم -أخيرًا- فإن هذا القسم مما يميزه: الاكتفاء بالقدر المفيد من الأحداث والوقائع؛ ولذا نجد أن القصص القرآني لا يروي كل الجزئيات عن الماضي، ولا يورد ما يورده مرتبًا مسلسلًا؛ وإنما يتخير من الحدث ما يفيد، ويذكر من الوقائع ما فيه نفع الإنسان؛ فأحيانًا يورد اسم المكان، وأحيانًا يحدد الزمان، وتارة يوضح عدد الناس إن كان ذلك يفيد، وأحيانًا يترك ذلك كله ويذكر سواه في حدود الفائدة المطلوبة والنفع المقصود.

هذا هو القسم الأول من أقسام تاريخ الدعوة إلى الله، قسم يتناول سيرَ رسلِ الله ﷺ في دعوة الله ﷻ.

القسم الثاني: يتضمن تاريخ الدعوة في عصر نبينا ﷺ ولا شك أنه أهم الأقسام وأزهاها، وأجلها وأرفعها؛ بل هو أساس لكل جوانب الدعوة الإسلامية في جميع الأمكنة وسائر الأزمنة إلى يوم القيامة، مصادر هذا القسم عديدة، على رأسها كتاب ربنا، وسنة نبينا، ومرويات الصحابة والتابعين، وكتب التاريخ.

يتميز هذا القسم بمزايا عديدة، منها: أنه يشتمل على مزايا القسم السابق؛ فهو وحي منزل -لا ريب فيه- يلاءم الفطرة، وينحو نحو الكمال والرفعة؛ بل إنه يعد تاريخًا تطبيقيًّا للدعوات السابقة، أخذ منها موضوعها، وأهم قضاياها، وخبر من خلالها أسرار الحياة والأحياء؛ حتى إن رسول الله ﷺ ربما أورد أحداث الماضي؛ ليستفيد أتباعه منها، من ذلك قوله ﷺ: ((إن الرجل فيمن قبلكم، كان ينشر لحمه عن عظمه بالمناشير؛ لا يصرفه ذلك عن دين الله تعالى)).

ومن خصائص هذا القسم: أنه يستمد خصائص الدعوة من خصائص الإسلام، فبسبب كون الإسلام دينًا عالميًّا وخاتمًا لسائر الأديان، نجد الدعوة مصبوغة

بصبغة العالمية ؛ حيث تلتزم الأصول الدينية الثابتة ، وتقدم لطوائف الناس على تنوعهم واختلافاتهم بأساليب متعددة تناسب الجميع ، وحتى يستمر تناسبها مع الناس ؛ نجد القرآن الكريم يخاطب العالَم على اختلاف مذاهبه وأجناسه وطبقاته.

فبرغم أن القرآن الكريم نزل في مدةٍ محددة وخاطب أهل مكة والمدينة ، إلا أن الله ﷻ بقدرته وحكمته جعل هاتين المدينتين بوتقة جمعت كافة عناصر البشر ، وجميع الطبقات ، وسائرَ المذاهب والأديان ؛ حتى إذا ما نزل الوحي يخاطب هؤلاء الناس ، ويناقش عقائدهم ويدعوهم -كل بما يناسبه- كان كمن يخاطب البشرية جمعاء في كل مكانٍ وفي كل زمانٍ إلى يوم القيامة.

وُجِد في مكة والمدينة يومَذَاك اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والدهريون ، والذين أشركوا ، وعبدة الكواكب والأصنام ، والملاحدة... كل هؤلاء وجدوا كما وجد الأغنياء والفقراء ، السادة والعبيد ، الحكماء والحنفاء ، العامة والسفهاء... وهكذا تميزت الدعوة بالعموم والشمول ، والخلود المستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن خصائص هذا القسم أيضًا : أنه تضمن كل شيءٍ عن الإسلام والدعوة إليه ؛ حيث يوجد ذلك بتفاصيله في كتاب ربنا ، وسنة نبينا ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائـــدة : ٤٨]. ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١].

تفصيل هذه الآيات في سنة نبينا ﷺ إمام الدعاة ، وقدوة المؤمنين ، صورة بيضاء ، ناصعة واضحة بلْقاء ، يسهل الوقوف على أي جانب من جوانب هذه الصورة المشرقة في شخصية نبينا ﷺ حيث فصلت سيرته تفصيلًا ، واهتم بها كُتَّاب السير والشمائل حتى سجلوا كل شيءٍ ووثقوه.

صَوَّرَ القرآن الكريم حياة نبينا ﷺ وسلوكه مع الناس، وتعبده لربه في السر والعلن، صور خُلُقه، وعمله، وخَلقه، فمن أراد أن يرى كتاب الله مصورًا؛ فلينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ ومن أراد أن يقرأ سيرة النبي ﷺ مكتوبةً؛ فليقرأ القرآن الكريم، وذلك لشدة المطابقة بين العمل والتنزيل، ولذا تعد السيرة النبوية تسجيلًا عمليًّا للدعوة الإسلامية... لأصولها، ومناهجها، ووسائلها، وتاريخها خلال هذه الفترة المهمة.

ولا يفوتنا أن نذكر - في هذه الفترة المهمة - خير خلق الله بعد رسل الله، أولئك أصحاب محمدٍ ﷺ ورضي الله عن خير أمةٍ أخرجت للناس، تلك الأمة التي آمنت بالإسلام إيمانًا كاملًا؛ فخلعوا من قلوبهم حبَّ الدنيا، وملئوها بحب الله ورسوله، وتحملوا أمانة الدعوة إلى الله، وبلغوها للعالمين بعد أن طبقوها في أنفسهم وفي حياتهم، وقدموا من صور الحب للإسلام والتفاني في سبيله ما يعد في الطبقة العليا بلا منازع ولا منافس.

هؤلاء الصحابة } كانوا دعاة الله ﷻ في العصر الأول؛ عمليًّا بذلوا كل جهد، واستنفذوا كل وسع في نشر دين الله ﷻ؛ ليخرجوا لنا جيل التابعين، وقام التابعون من بعدهم... وهكذا؛ لكن هذا القسم اختص بأصحاب رسول الله ﷺ واختصوا بفضلٍ عظيم؛ حيث قال نبيهم ﷺ: ((خير القرون قرني)).

القسم الثالث: يبدأ بعد وفاة نبينا ﷺ وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، وتدوين أحداث هذا القسم يراد منه بيان تدين الناس، ومعرفة مدى قربهم أو بعدهم عن الله تعالى، وما يتعلق بحركة الدعوة وانتشار الإسلام، وما يتصل بذلك من أمور.

وهذا القسم ينقسم إلى أقسامٍ كثيرة متعددة؛ فعصر الخلفاء الراشدين في فترة محددة مزدهرة مشرقة من تاريخ الدعوة إلى الله، ثم يعقب ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس، هذه الفترة التي لم تشهد البشرية لها مثيلًا.

ومن مميزات دراسة هذا القسم في هذه الفترة: أن دُونت العلوم، وظهرت المذاهب الفقهية، وأصبح الإسلام مدونًا في كتبٍ متعددة مطبقًا في الواقع، ترفرف راياته على العالم بأسره...

إن الوقوف على هذه الحقائق يمكن المسلمين في العصر الحاضر من تنقية الإسلام مما شابه في الفكر، أو مما وقع من أحداث تخالف ما كان عليه حال الأسلاف، يقفون على حقائقه كما نزلت من عند الله ﷻ.

ومن مميزاته أيضًا: أنه لم تبقَ البشرية على بدايتها الأولى؛ بل شملها تطور واسع، ودخلتها أمور تمدح وتذم، دخلتها فلسفات عقلية في سائر المذاهب والفرق، ووجد لكل أمرٍ -مهما كان باطلًا- دعاته وزبانيته؛ الأمر الذي ضاعف العِبء على المسلمين؛ ليتمكنوا من مواجهة عنف الباطل بقوة الحق في كافة الجوانب، أو في الجوانب كافة، فكريةً أو عمليةً أو سلوكيةً.

ونلاحظ أنه وقعت خلال هذا التاريخ حوادث كثيرة بغى فيها أهل الباطل على أهل الحق، وما أكثرَ هذه الحوادثَ، وضعت الإسلام في محكاتٍ كثيرة، لكن قوة الإسلام ظهرت؛ حيث أذاب الإسلام أعداءَه...

يذكر التاريخ حملات هولاكو، يذكر التاريخ التتار والصليبيين، ثم يذكر أن المسلمين تغلبوا -بفضل الله- على الكل، وأن المسلمين حوَّلوا تلك الهجمات الاستعمارية وهضموها؛ حتى دخل التتر في دين الله ﷻ وانماعوا في المسلمين، واستفاد منهم الإسلام حتى صار منهم من طلبة العلم، ومن العلماء، ومن الدعاة، ومن القواد الذين انتفع بهم الإسلام.

إن تاريخ هذه المرحلة تاريخ يتميز بميزاتٍ كثيرة ؛ وتتنوع ميزاته وخصائصه بتنوع الأحداث والأحوال والثقافات والمناهج التي دخلت إلى هذه الفترة الزمنية التي تمتد إلى يوم الناس هذا.

ولقد رأينا المؤرخين منهم مَن يبرز الجانب الجهادي في حياة الأمة الإسلامية، ومنهم من يبرز الجانب الدعوي، ومنهم من يبرز الجانب العلمي، ومنهم من يشير إلى حقائق الإسلام ومزاياه وخصائصه... وهكذا تتنوع المناهج والمشارب في عرض تاريخ الدعوة إلى الله ﷻ في العصر الحديث.

ثالثًا: لماذا ندرس حياةَ ودعوات الأنبياء؟

السبب الأول: لأن الله ﷻ أمرنا بالاقتداء بهم والتأسي بهم ؛ ففي ذلك طاعة الله ﷻ وفي ذلك عبادة لله ﷻ إن الله ﷻ قَصَّ علينا خبرَ أنبيائه ورسله، ثم ختم هذه الآيات بأمر نبينا ﷺ بأن يقتدي بهديهم، والأمر له ﷺ أمرٌ لأمته ؛ قال - جل من قائل عليمًا- : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠].

أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أي: اهتدِ واقتدِ واسلكْ واتبع سبيل مَن سبقك مِن أنبياء الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. إن الله ﷻ أمر نبينا أن يقتدي وأن يهتدي، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته من بعده.

ومن الآيات التي ورد فيها أيضًا الأمر بالاقتداء بهدي الأنبياء قول الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ هذا الخطاب لأصحاب نبينا ﷺ ولمن يتأتي الخطاب لهم من بعدهم من أمة الحبيب ﷺ.

والله ﷻ أمرنا أن نسأله كل يوم الهداية إلى الصراط المستقيم في قول مَن يصلي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم هم النبيون بلا شك، هم النبيون بلا خلاف، ومن دخل في طاعة الأنبياء من الشهداء والصديقين...

السبب الثاني: أن الله أمرنا بالاقتداء بهم والتأسي بهديهم، ليس هذا فحسب؛ بل ولأن في حياتهم أكبر العظات، وأعظم العبر، سواء ما يتعلق بالإيمان بالله ﷻ والتوحيد الصادق الذي عليه أنبياء الله ﷻ أو فيما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم، أو بهديهم ومنهجهم وصبرهم في الدعوة، أو في صراعهم مع الباطل وأهله... إبراز هذه الجوانب من حياة أنبياء الله تعالى ومرسليه.

ومن أهم أغراض ورود قصص الأنبياء في القرآن الكريم ؛ حيث إن هذه القصص لم تأتِ لمجرد التسلية والمعرفة التاريخية فحسب ؛ وإنما جاءت مرةً أخرى للاقتداء وللاهتداء والائتساء بتوحيديهم والدعوة إليه والتعزي بحياتهم وصبرهم وجهادهم ؛ حتى لا تفتر عزائم الدعاة ، حتى لا يضعف صبرهم ؛ فلهم في هذا السلف المبارك أكبر عزاء وأكبر قدوة في الثبات وشحذ الهمم.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- : وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم ؛ فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك ، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك ، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم ، وكانت العاقبة إلى خير ؛ فليتيقن المرتاب ، وليتوب المذنب ، ويقوى إيمان المؤمنين ؛ فبها يصح الائتساء بالأنبياء...

وأنت إذا تأملتَ حياة أنبياء الله ورسله ؛ عرفت أنها حياة معصومة ، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة وفيما أمروا بتبليغه ؛ لأن الله تعالى اجتباهم وهداهم واصطفاهم عن علمٍ وحكمة ؛ لذا قال : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال -جل من قائل- عن إبراهيم وإسحاقَ ويعقوب -عليهم صلوات الله وسلامه- : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٦، ٤٧]، وقال عن نبيه موسى ﷺ : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]، وقال -جل من قائل- عن علمه بمن يختار من رسله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، قال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

السبب الثالث: التعرف على سنن الله تعالى في الإصلاح ، ومعرفة أسباب التمكين لهذا الدين ؛ فإن هذه الدراسة تعرف الداعية على سنن الله ﷻ في التغيير ، وعلى سننه تعالى في الدفع والمدافعة.

كما أنها تكشف للدعاة إلى الله ﷻ عن حقيقة ذلك الصراع الطويل المرير بين الحق والباطل ، وهذا كله لا يبرز بوضوح كما يبرز في حياة أنبياء الله تعالى

ومرسليه، وفي صراعهم مع أقوامهم تارةً بالحجة والبيان، وتارة بالسيف والسنان؛ حتى آتاهم الله ﷻ نصره، وحتى أنزل عليهم التمكين؛ قال -جل من قائل-: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال -جل من قائل-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال -جل من قائل-: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال سبحانه يعلمنا عن سننه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

إن في التعرف على هذه السنن الربانية فائدة عظيمة في تجنب الأخطاء، وتوقي موارد الهلكة، ومعرفة أسباب النصر والعزة والتمكين؛ ولهذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يقول: ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرةً لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في القرآن...

ومن السنن التي يمكن أن نتعرف عليها من خلال دراسة حياة الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه-: سوء عاقبة المكذبين للرسل، وما يعقب ذلك من إهلاكهم، وأن الله ﷻ ينصر عباده المؤمنين، وأنه -تبارك وتعالى- يداول الأيام بين الناس؛ لحكمة: من شدةٍ إلى رخاء، ومن عافية إلى بلاء؛ يقلبها بين عباده ليستخرج المعدن النقي من عباده المؤمنين المتقين.

ومن تلك السنن: زوال الأمم بسبب الترف والفساد، وفشوّ الظلم والتجبر على العباد. ومن هذه السنن: أن البشر يتحملون مسئوليتهم في الخير والشر، وأن انهيار الأمم وأن هلاكها يكون بأجل وإلى أجل...

وكذا يتقرر من دراسة سير الأنبياء والمرسلين أن الابتلاء سنة من الله ﷻ في عباده المؤمنين، سنة جارية، وسنة تتبعها سنة التدافع والصراع بين الحق والباطل، وهذا ما سنتبينه مفصلًا في هذه السير، وفي تلك القصص التي قص علينا ربنا ﷻ وشرح لنا نبينا من خلال سيرته ودعوته المباركة.

وأخيرًا؛ فإنه في دراسة حياة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بصدقٍ ورغبةٍ في اتباع هديهم، في ذلك كله سبيل إلى الانتظام في سِلْكهم، والسير في قافلتهم المباركة، ولعل الله ﷻ أن يلحق من هذه نيته بركبهم الميمون، وأن يحشره في زمرتهم، فيصدق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

فعن أنسٍ > : ((أن رجلًا سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال: أنت مع مَن أحببت)). قال أنس: "فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكرٍ وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالَهم".

يعلق الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله تعالى- على صفات عباد الرحمن الواردة في آخر سورة الفرقان، فيقول: "ما أعلى هذه الصفات، وأرفعَ هذه الهمم، وأجلَّ هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهرَ كل القلوب، وأصفَى هؤلاء الصفوة، وأتقَى هؤلاء السادة.

ولله مِنة على عباده أن بيَّن لهم أوصافهم، ونعتَ لهم هيئاتِهم، وبيَّن لهم هممهم، وأوضحَ لهم أجورهم؛ ليشتاقوا إلى الاتصاف بهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي مَنَّ عليهم وأكرمهم، الذي فضله في كل مكانٍ وزمانٍ، وفي كل وقتٍ وأوانٍ، أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم كما تولاهم؛ فاللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا نقدر على مثقال ذرةٍ من الخير إن لم تيسر ذلك لنا؛ فإنَّا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وكلتنا إلى ضعفٍ وعجزٍ وخطيئةٍ؛ فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا، ورزقتنا، وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة؛ فارحمنا رحمةً تغنِنا بها عن رحمة من سواك، فلا خابَ مَن سألك ورجاك". انتهى كلام الشيخ -عليه رحمة الله-.

دعـــــــــــــــوة آدم

أولًا: خلق آدم ﷺ:

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يجعل في الأرض خليفةً يعمرها ويسوسها؛ فأخبر ﷻ ملائكته الذين خلقوا قبل آدم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والخلافة مقام كريم يجعل الخليفة موصولًا بمن استخلفه، وهذه الخلافة تتطلب أن يقوم المستخلف بأعباء كثيرة، وأن يتحمل المسئولية، وأن يحفظ الأمانة؛ ولهذا لما كلف آدم وحمل آدم، أشفقت الملائكة على هذا الخلق وعلى ذريته مما سيقع بالضرورة من وجود هذا الخلق في الأرض، فقالت لربها:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ما مصدر الخوف عند الملائكة؟

مصدر الخوف: أنهم رأوا مِن فساد الجن قبل ذلك، أو لأنهم علموا أن عنصر الطين في الإنسان يغلبه فيظلم، أو يغلبه فيعصي، أو إنهم علموا بإلهام من الله تعالى لهم أن ذلك واقع، وأن مشيئة الله ﷻ جارية بذلك، وبهذا قالت الملائكة ما قالت ليس على وجه الاعتراض على ربها ولكن على وجه الإشفاق، من أن يُعصى الله -تبارك وتعالى- فكان الجواب الإلهي: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣١].

خلق الله ﷻ آدم كما ثبت في بعض الحديث عن أبي موسى الأشعري > : أن النبي ﷺ قال: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض؛ فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن، وبين ذلك)).

إذن آدم ﷺ خُلِقَ من قبضة من تراب الأرض، مصداقُ ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]؛ إذن حديث القرآن الكريم عن آدم ﷺ يؤكد هذه الحقيقة، وهو أيضًا يؤكدها في سياق آخر كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وآدم ﷺ هو أول البشر، أي: هو أول مخلوق من البشر.

وقد كان خلق آدم في يوم الجمعة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: ((خَيْرُ يوم طلعت فيه الشمس يومُ الجمعة؛ فيه خُلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها))، والحديث في (صحيح مسلم).

وعن أبي هريرة > أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: ((خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر ساعة من ساعات الجمعة؛ فيما بين العصر إلى الليل)) والحديث أيضًا في (صحيح مسلم).

لما خلقه الله ﷻ وأتم خلقته؛ جعل إبليس يدور حوله ويطوف به، وهذا ثابت في الصحيح كما في (صحيح مسلم): ((لما خلق الله آدم، تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به؛ فلما رآه أجوفَ عرَفَ أنه لا يتمالك)).

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَمَّا صور الله آدم في الجنة؛ تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر إليه...)) هذا الذي حمل إبليس: ((فلما رآه أجوف؛ عرف أنه خلق لا يتمالك)) وهذه رواية أخرى في (صحيح مسلم).

ومعنى: ((لا يتمالك)) كما قال الإمام النووي: أي: لا يملك نفسه ولا يحبسها عن الشهوات. وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه. وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب. والمراد ليس آدم فقط، بل جنس بني آدم -كما ذكر ذلك الإمام النووي -رحمه الله تعالى.

هذا يدلنا على أن العداوة مع إبليس قديمة، وإنها لا تنتهي ولن تنتهي حتى تقوم الساعة، فمنذ أول لحظة يولد فيها الإنسان وإذا بالشيطان يعلن عداوته له؛ كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ في حديث أبي هريرة الذي أخرجه الإمام مسلم وأحمد: ((ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان؛ فيستهل صارخًا من نسخة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه))، بل وتظل هذه العداوة وتبقى هذه الحرب السافرة ليس لآدم؛ وإنما لآدم ولبنيه إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

ولهذا يخطب الشيطان خطبته الشهيرة في النار ليملأ قلوب العصاة والكافرين حسرةً؛ فيزدادوا عذابًا فوق العذاب، كما أخبر بذلك العزيز الوهاب ﷻ فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

صفة خلق آدم # :

وأما عن صفة خلق آدم # فلقد أخبرنا عنه نبينا ﷺ فقال: ((خلق الله ﷻ آدمَ على صورته طوله ستون ذراعًا؛ فلما خلقه قال: اذهب فَسَلِّمْ على أولئك النفر -وهم نفر من الملائكة جلوس- فاستمع ما يحيونك به؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فذهب فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. قال: فزادوه: ورحمه الله. قال: فكل مَن يدخل الجنةَ على صورة آدم # وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)) والحديث متفق عليه.

قال بعض العلماء في قول نبينا ﷺ: ((فمررت بيوسف # إذا هو قد أعطي شطر الحسن))، قالوا: معناه: أنه كان على النصف من حسن آدم # وهذا مناسب؛ فإن الله تعالى خلق آدمَ وصوره بيده، ونفخ فيه من روحه؛ فما كان ربنا ليخلق آدم إلا على أحسن الحالات وأكمل الصور.

ثم إن الله -تبارك وتعالى- ذكر قصة آدم وسياق خلقه في كتابه ﷻ فقال -جل من قائلًا عليمًا-: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال ابن كثير: يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: اقصص يا محمد على قومك ذلك، ما هو؟ ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قومًا يخلف بعضُهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيلٍ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهذا هو الصواب في تفسير خليفة، لا قول من يقول: إن آدم خليفة الله في الأرض مستدل بقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، الملائكة قالوا هذا الكلام على وجه الاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض، ولا على وجه التنقص لبني آدم، ولا على وجه الحسد لهم.

قال القاسمي -رحمه الله-: هذا تعجب من أن يُستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها مَن يفسد فيها، واستعلام عن الحكمة في ذلك، أي: كيف تستخلف هؤلاء مع أن منهم من يفسد الأرض ويسفك الدماء؟! فإن كان المراد عبادتك فـ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: لا يصدر عنَّا شيء من ذلك؛ فهلا وقع الاقتصار علينا؟! فقال -جل من قائل- مجيبًا لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: لي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها.

وقد علمت الملائكة تلك الحقيقةَ، في قوله ﷺ ثم: ((إن الله ﷻ لما خلق آدمَ مسح ظهره؛ فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلًا منهم، فأعجبه وبيصَ ما بين عينيه -والوبيص: هو البريق واللمعان- فقال: أي رب، مَن هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داودُ. فقال: رب كَمْ جعلتَ عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر

آدم؛ جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطِها ابنك داود؛ فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذرتيه، وخطئ آدم فخطئت ذريته))، والحديث عند الترمذي والحاكم بسند صحيح.

وفي رواية أخرى لهذا الحديث: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح؛ عطَس فقال: الحمد لله. فحمد الله بإذنه. فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة -إلى ملأ منهم جلوس- فقل: السلام عليكم. قالوا: وعليك السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. فقال الله له -ويداه مقبوضتان-: اختَرْ أيهما شئتَ؟ قال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة. ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك؛ فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم -أو من أضوئهم- قال: يا رب، من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قد كتبت له عمر أربعين سنة، قال: يا رب زده في عمره. قال: ذاك الذي كتبت له. قال: أي رب؛ فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك. ثم قال: اسكن الجنة ما شاء الله. ثم اهبط منها، فكان آدم يعد لنفسه، قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلتَ، قد كتب لي ألف سنة، قال: بلى؛ ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة؛ فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، قال: فَمِنْ يومئذ أُمِرِ بالكتاب والشهود)). وهذا الحديث أيضًا عند الترمذي والحاكم بسند صحيح.

ثانيًا: بين آدم # وأوليائه من الملائكة، وعدوه من الجن:

كما قلنا: خلق الله ﷻ آدم من قبضة التراب، ومن نفخة الروح، ثم قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحِجر: ٢٩] وهذا الأمر للملائكة وهم عباد الله المكرمون: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]،

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. أطاعوا أمر ربهم وسجدوا لآدم تكريمًا واحترامًا وسلامًا؛ فلم يتخلف أحد من الملائكة عن هذا التكريم الذي كلفوا له؛ ولهذا قال -جل من قائل-: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧٣].

قال ابن كثير -رحمه الله-: وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته؛ حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم.

وقال أيضًا: فهذه أربعة تشريفات: خلقه بيده الكريمة، ونفخه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء؛ ولهذا قال له موسى الكليم -حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا، كما سيأتي-: ((أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)). وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة.

قصة تعليمه الأسماء:

هذه ذكرها ربنا في كتابه فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١] قال ابن كثير: هذا المقام ذكر فيه آدم وشرفه على الملائكة؛ لأن الله تعالى علمه ما لم يعلم الملائكة؛ فقد قال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أي: أسماء جميع المخلوقات جليلها ودقيقها، يؤيد هذا ما جاء في حديث الشفاعة العظمى من قوله ﷺ: ((فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء))؛ دل هذا على أنه علَّمه أسماء المخلوقات، وابن عباس > يقول: "هذه هي الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة،

وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها".

وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء. وكذا قال غير واحد من السلف. الصحيح: أنه علمه أسماء الذوات، علمه أفعاله مكبرها ومصغرها؛ كما أشار إليه ابن عباس } .

وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: عرض الخلق على الملائكة يسألهم: أنبئوني بأسماء من عرضتهم عليكم من المخلوقات، وكانت الملائكة تظن أن الله لا يخلق خلقًا إلا ويكونون هم أعلم منهم، فقال - جل من قائل - فإن كنتم صادقين بأنكم أعلم من كل خلقي الذي منهم آدم؛ فأنبئوني بأسماء الخلق الذين عرضتهم عليكم.

عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال: "إن كل بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، أي: في هذا القول، ولما عجز الملائكة عن ذكر هذه الأسماء، قالوا في أدب جم: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وتعليمك ومنعك، لك الحكمة التامة، ولك العدل التام".

عندما قال الله ﷻ لآدم، وقد اغترف من فيض ربه واقتبس من نور علمه، أمره الله تعالى أن ينبئهم بما عجزوا عن معرفته، وأن يخبرهم بما قصرت مداركهم عن علمه؛ بيانًا لفضله وإظهارًا لحكمة استخلافه؛ فأخبرهم آدم # بما عجزوا عنه؛ فناداهم ربهم: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ

﴿ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]؛ حينئذ تبينوا فضله، وأدركوا سر خلقه، وظهرت لهم حكمه استخلافه؛ إذن كان هذا بين آدم وبين ملائكة الرحمن.

وعن سلمان > قال: "لما خلق الله ﷻ آدم # قال: "واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، فأما التي لي: تعبدني ولا تشرك بي شيئًا، وأما التي لك: فما عملت من شيء جزيتك به، وأنا أغفر وأنا غفور رحيم، وأما التي بيني وبينك: منك المسألة والدعاء وعلي الإجابة والعطاء". وهذا عند أحمد في كتاب الزهد، موقوفًا على سلمان الفارسي > . وهذا لا يقال بالرأي؛ فله عندئذ حكم الرفع.

سجد الملائكة امتثالًا لأمر ربهم حين أمرهم بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، كان عدم سجود إبليس لآدم حسدًا منه وتكبرًا؛ بسبب أنه قاس القياس الفاسد، فقال: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فظن إبليس إنه بجوهره أفضل من آدم # .

وفي هذا قال الإمام الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسيره: وقياس إبليس هذا -لعنه الله- باطل من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه فاسد الاعتبار لمخالفة النص الصريح كما تقدم.

الثاني: أنَّا لا نسلم أن النار خير من الطين؛ بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة والنواة فيعطيكها نخلة، وإذا أردت أن تعرف قدر الطين؛ فانظر إلى الرياض الناضرة، وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة والروائح الطيبة؛ تعلم أن الطين خير من النار.

الثالث: أنَّا لو سلمنا تسليمًا جدليًّا أن النار خير من الطين؛ فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع؛ بل قد يكون الأصل رفيعًا والفرع وضيعًا كما قال الشاعر:

وإذا افتخرت بآباء لهم شرفُ ❖ قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

هل كان إبليس من الجن أم كان من الملائكة؟

ظن كثير من الناس أن إبليس كان من الملائكة؛ لأنه كان يعيش معهم، وهذا يخالف نص القرآن الكريم؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ فهذا نص صريح في أن إبليس لم يكن من الملائكة طرفة عين.

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط، ومن المعلوم أن إبليس مخلوق من النار، كما صرح بذلك القرآن، وكما حكى القرآن عنه، وأما الملائكة فخلقت من النور، كما قال نبينا ﷺ كما في (صحيح مسلم): ((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)).

امتنع إبليس عن السجود لآدم، فقال له ربه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٢ - ١٦]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٥، ٧٦]. فطرده الله سبحانه وأبعده، وأهبطه إلى الأرض طريدًا ملعونًا شيطانًا رجيمًا، قال ﷺ: ((إذا قرأ

ابن آدم السجدةَ فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار))، والعياذ بالله تعالى.

ثم أن إبليس طلب من ربه ﷻ الأنظار والإهمال فقال -كما حكى ربه عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩]، ولحكمة أرادها الله تعالى أجاب طلبه فقال له: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ص: ٨٠، ٨١] وفي آية أخرى من سورة الأعراف: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾.

وقطعًا لأعذار بني آدم، وضح الله ﷻ الحقائق التالية في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه ﷺ:

الحقيقة الأولى: أنه عرَّف آدم وبنيه بعداوة إبليس، وبيَّن ذلك أفضل بيان وأوضحه؛ حيث قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١١٧].

الحقيقة الثانية: أن الله ﷻ حذر الآدميين عمومًا من ألاعيب إبليس ومن ألاعيب جنوده؛ فقال -جل من قائل-: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

الحقيقة الثالثة: إن الله -تبارك وتعالى- أوضح لآدم وبنيه وسائل إبليس في الإضلال وهي عديدة كثيرة؛ منها: التركيز على إبعاد الناس عن الحق والصواب؛ لأنه قال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]، ومنها: أنه يضل كل ما يحيط بالإنسان، فيقول تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]، يعني: يأتي

الإنسان من كل الجهات ليضله، ثم إنه -وهذه مسألة أخرى- يبذل كل طاقة في الإضلال لأجل هذا السعي الفاسد الكاسد؛ كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

الحقيقة الرابعة: أن الله عرف آدم وبنيه: أنه لا سبيلَ لإبليس على العبد المخلص في إيمانه المطيع لربه؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، شأن المؤمن دائمًا أن يلجأ إلى الله، وأن يتوكل عليه، ويلجأ إلى جَنَابه؛ ولذا ينقذه الله ﷻ من وساوس الشيطان، ومن دسائس إبليس -عليه لعنه الله- قال -جل من قائل- وهو يصف الدواء ويبني الحصن الحصين، فيقول: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١]، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة عديدة.

إذن بان لنا ما وقع بين آدم # وأوليائه من الملائكة، وعدوه من إبليس.

خروج آدم من الجنة:

معلوم أن الله ﷻ أسكن آدم وحواء الجنة، وحواء هي زوجه التي خلقت من ضلع آدم، أباح الله تعالى لهما التمتع بخيراتها وثمراتها حيثما شاءا، وأوضح الله ﷻ أن لهذا الاستمتاع شرطًا، قال فيه: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، يلاحظ أن الله ﷻ علق النهي بالقرب من الشجرة، مع أن المقصود هو النهي عن الأكل منها ليعلم أن القرب من الشجرة مقدمة للأكل منها، فمن حام حول الحمى أوشك

أن يقع فيه، والبعيد عن العين بعيدٌ عن القلب، والإنسان إذا ما قارب الحرام؛ وقع فيه كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

أسكن الله ﷻ آدم وزوجه الجنة؛ فقال -جل من قائل-: ﴿ أَسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، وبين ما له فيها من النعيم المقيم: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

سكن آدم الجنة واستمتع بما فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، يتنقل بين أشجارها ويتفيؤ ظلالها، ويقطف من أزهارها، ويتفكه بثمارها، ويرتوي من عذب مياهها، يشاركه في هذه النعمة في تلك المتعة زوجه التي خلقت منه:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ❖ إلا أن تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضعفًا واقتدارًا على الفتى ❖ أليس عجيبًا ضعفها واقتدارها

ولكن إبليس أخذ العهدَ على نفسه ألا يترك آدم، ولا يترك ذريته؛ فجاء إلى آدم يوقظ شهوة النفس الكامنة في غريزة حب الخلود، وفي غريزة الملك والتملك، فيقول كما حكى القرآن: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، وقال: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف: ٢٠]، في آية أخرى: ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وسوس إبليس إليهما بزعم أن الأكل من الشجرة يجعلهما من الخالدين، ولم يكتفِ بهذا؛ بل أكد من الكيد باليمين، فقال كما حكى الله ﷻ: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]. "قاسمهما": يعني: أقسم لهما؛ فماذا

كان؟ كان أن وقعا في مخالفة أمر الله، يقول قَتادة: حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما؛ فأتبعاني أرشدكما.

تصور آدم أن أحدًا لا يقسم بالله كذبًا فأطاعه؛ فأكلا من الشجرة؛ فعندئذ كشف الله سترهما وظهرت عورتهما، وأخذا يسترانها بورق شجر الجنة كما قال ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] غفر الله لهما وقبل توبتهما، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وكانت هذه الواقعة سبب خروج آدم وزوجه من الجنة، وسبب إهباطهما إلى الأرض؛ حيث الكدح والعمل والمواجهة المستمرة مع إبليس وجنوده. هكذا ستمضي مسيرة الحياة بما فيها من خير وشر، وبما يتخللها من صراع ونزاع، وليحمل آدم # مسئولية الخلافة في الأرض التي خلق ليعمرها، وهي المسئولية التي خلق الله لها الإنسان ليتوارثها جيلًا بعد جيل.

ثالثًا: بين آدم وموسى عليهما السلام:

ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم # أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، قاله ابن إسحاق وسمَّاهم، وقيل: بل مائة وعشرين بطنًا في كل واحد ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته قديما، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث، ولا دليل على العدد وما ذكر معه. ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونموا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، يعنينا هنا بعض اللقطات من لقاء آدم وموسى -عليهما السلام- وأيضًا يعنينا أن نعرج على لقاء نبينا ﷺ بآدم في ليلة المعراج.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي هريرة > أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟! فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجيًّا؛ فبِكَمْ وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى)). وهذا سياق مسلم.

أما في رواية البخاري: ((احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة! فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق! فقال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى... مرتين))، وفي البخاري أيضًا: ((احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة! قال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده؛ أتلومني على أمر قدر الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! فحج آدم موسى... قالها نبينا ﷺ ثلاثًا)).

حَكَمَ نبينا ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة أن آدم حج موسى، وقد يقال: ما وجه ذلك؟ وكيف انتصر عليه في الحجاج؟

والجواب: أن موسى # لَامَ آدمَ على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم من الجنة؛ بل الله هو الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة؛ فالإخراج ليس لازمًا لو لم يرده الله -تبارك وتعالى- ويقدره؛ فإنه كان يمكن أن يغفر الله له من غير أن يخرجه من الجنة، ويمكن أن يرتب الله عليه

عقوبة غير عقوبة الإخراج ؛ ولكن اقتضت حكمته أن يخرجهم من الجنة لمصالح كثيرة وعظيمة يعلمها الله تعالى ؛ ولذا فإن آدمَ لَام مُوسَى على لَوْمه له، على أمر شاءه الله وقدره، وهو غير لازم لفعل آدم # .

وهذا الحديث يرد على المكذبين بالقدر ؛ لأنه يتضمن إثبات القدر السابق والنصوص المثبته للقدر قطعية الدلالة لا مجال فيها لتكذيب ولا إنكار ؛ فمن كذب بها لم يكن على بينة من أمره.

وأما نبينا ﷺ فقد ثبت أنه التقى بأبيه آدم ليلة المعراج ؛ ففي الحديث المتفق عليه أن نبينا ﷺ قال : ((فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة ؛ فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بِطَست من ذهب ممتلئ حكمةً وإيمانًا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعَرَج بي إلى السماء الدنيا ؛ فلما جئتُ إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء : افتَحْ. قال : مَن هذا؟ قال : هذا جبريلُ. قال : هل معك أحد؟ قال : نعم، معي محمدٌ ﷺ. فقال : أُرسل إليه؟ قال : نعم. فلما فُتِح ؛ عَلَوْنَا السماء الدنيا ؛ فإذا رجل قاعد على يمينه أسوده، وعلى يساره أسوده، إذا نظر قبل يمينه ضحك ؛ وإذا نظر قبل يساره بكَى، فقال : مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح، قلت لجبريل : من هذا؟ قال : هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه ؛ فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار ؛ فإذا نظر عن يمينه ضحك ؛ وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى)).

رابعًا : معالم من منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله :

المعلم الأول : تستقى من قصة آدم # هذه الكرامة التي كَرَّم الله ﷻ بها الإنسان ؛ فالإنسان رفع الله تعالى قدره، وأعلى منزلته بما حَبَاه من الخلافة في الأرض، وبما أعطاه من هذا التكريم الذي كرم به أصله.

ولهذا تجد أن العَلاقة بين بني آدم وبين الملائكة علاقة وطيدة، وأن أقربهم من الملائكة أكرمهم عند الله، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، فهذا تفضيل لقدر بني آدم ورفعه لمنزلتهم.

المعلم الثاني: أن هذا الإنسان الذي قد صغر في حجمه قد كبر في رسالته، أعطاه الله ﷻ من القدرات والإمكانات، وأحاطه بالحفظ والصيانة والعناية؛ ما يؤهله ليقوم برسالة عظيمة ويسلك مسلكًا في هذه الحياة يقيم به أمر الله ﷻ.

المعلم الثالث: أن هذا الإنسان قد خلق من المادة وهي التراب، ومن الروح وهي النفخة العلوية، وكل عنصر يميل بالإنسان إلى موطنه الأول؛ تجذبه المادة إلى حب المال والملك وإلى الدوام والخلود، ويأتيه الشيطان من هذا الجانب، وقد ينجح الشيطان، لكن على الإنسان أن يقاوم جذب المادة بتقوية الروح، وأن يستعلي على الشهوات، وأن يشبعها بما شرع الله، وألَّا يستمع لنزغات إبليس - والعياذ بالله- والمعركة بين الإنسان والشيطان مستمرة، وستظل إلى أن تخرج الروح إلى باريها؛ فعلى المسلم أن يعد للأمر عدته، وليعلم أن مع إبليس كثيرًا من شياطين الإنس والجن -عياذًا بالله تعالى.

المعلم الرابع: ما يزال فضل الله تعالى موصولًا بالإنسان؛ فالكون مسخر له، والخلق في خدمته، وقد كلفه الله ﷻ بأن يطبق شريعته، وأن يحيا على منهجه، وعليه أن يختار؛ فالله -تبارك وتعالى- لم يقصر الإنسان على أمر، ولم يأطره على منهج؛ وإنما جعل الخيار إليه؛ فعليه أن يختار لنفسه؛ إما أن يكون قانتًا مطيعًا -وأولئك هم المفلحون وهم خير البرية- وإما أن يخلد إلى الأرض، وأن يتبع هواه، وأن يكون من جند إبليس -وهؤلاء، والعياذ بالله، من شر البرية- فعلى العاقل أن يعي، وأن يتدبر، وأن يختار، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

دعـــــــوة إدريـــــــس

يذكر المؤرخون وكُتَّاب التاريخ أن الله أرسل رسولين في الفترة الزمنية بين آدم ونوح -عليهما السلام- هما شيث وإدريس، وكل ما ذكر عنهما يدور حول تحديد وقت رسالتيهما وثبوت الوحي إليهما، ومنزلتهما عند الله؛ أما قضايا الدعوة والمدعوين فلم يرد بيان عن ذلك؛ ولعله يرجع إلى أن ذرية آدم كانت على قرب بعهد أبيهم # فبعث الله إليهم الرسل ليذكروهم وليأخذوهم على الذي تركهم عليه آدم # .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧]، أي: اذكر يا محمد ﷺ في هذا الكتاب الجليل خبر إدريس؛ أنه كان ملازمًا للصدق في جميع أحواله موحًى إليه من الله ﷻ.

قال بعض المفسرين: إدريس هو جد نوح، وأول مرسل بعد آدم وشيث، وهو أول من خط بالقلم ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفةً. وقد ثبت عن المعصوم ﷺ أن إدريس # هو أول مَن خط بالقلم؛ ففي حديث معاوية بن الحكم السلمي: أنه لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل، فقال: ((كان نبيٌّ من الأنبياء يخط، فمَن وافق خطه فذاك؛ وكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله))، وهذا يدل على أنه كان خياطًا.

فقد جاء عن ابن عباس } أنه قال: "إنه كان خياطًا؛ فكان لا يغرز إبره إلا قال: "سبحان الله"؛ فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحدٌ أفضل منه عملًا".

وسياق الآيات يبين لنا كيف أن نبي الله إدريس # عَانَى في سبيل دعوته، وتحمل الأذى وصبر -كسائر أنبياء الله ورسله- ولذلك أثنَى الله ﷻ في الصابرين

وقال: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: ٥٦ - ٥٨].

وقد قابل نبينا ﷺ إدريسَ ليلة المعراج؛ ففي (الصحيحين) في وصف رحلة الإسراء والمعراج أخبر النبي ﷺ أنه قابل إدريس # في السماء الرابعة، فقال ﷺ: ((فأتينا السماء الرابعة، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد ﷺ. قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيت على إدريس، فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك من أخٍ ونبي...)).

بهذا نكون قد أتينا على المهم من ذكر معالم منهج آدم وإدريس -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام- في الدعوة إلى الله، وعرجنا على ما كان في قصة آدم من إشارات، وأشرنا إلى ما في قصة إدريس # من إشارات أيضًا؛ لننتقل بعد ذلك إلى قصة ذكرها الله ﷻ في كتابه كثيرًا وجعل لنبيها سورة باسْمِهِ: ألا وهي دعوة نوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

دعوة "نوح"

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : بداية الشرك في بني آدم، ودعوة نوح # ٤٩

العنـــصر الثـــاني : موقف الملإ وأهل نوح # من دعوته ٥٦

العنـــصر الثالـــث : معالم من دعوة نوح # ٦٣

بداية الشرك في بني آدم، ودعوة نوح

طال الزمن بعد آدم واستمر الناس على الحق والتوحيد لقرون طويلة، وبعدها جدّ في أمر البشرية ما لم يكن في حُسبان أحد؛ أن يخرج الناس عن عبادة الله وحده إلى عبادة الأصنام! هذا هو الحدث الجلَل الذي وقع على وجه الأرض لأول مرة، فما كان على وجه الأرض أحدٌ يشرك بالله تعالى، واستمر الناس على التوحيد بعد آدم # لعشرة قرون متتالية كما جاء ذلك في (صحيح البخاري): ((كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)).

عبد الناس أصنامًا عرفت بأسماء؛ فمنها "ود" و"سواع" و"يغوث" و"يعوق" و"نسر"، يروي البخاري بسنده عن ابن عباس } : "أن هذه أسماء رجال صالحين كانوا بين أدم ونوح -عليهما السلام- وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم ويسقون المطر بهم، فعبدوهم".

وقال ابن عباس أيضًا: "صارت الأوثان في قوم نوح في العرب بعدُ، أما "ودّ" كانت لكلب بدومة الجندل، وأما "سواع" كانت لهذيل، وأما "يغوث" فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجُرف عند سبأ، وأما "يعوق" فكانت لهمدان، وأما "نسر" فكانت لحِمير لآل ذي الكلاع- أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا- فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبدت".

قال ابن جرير: كانوا قومًا صالحين –أي: يغوث ويعوق- بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال لهم أصحابهم الذي كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم؛ فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر؛ فعبدوهم!.

عم عندئذ البلاء وانتشر الفساد وعكف الناس على عبادة الأصنام من دون الله ﷻ فكان أولَ رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض هو نوح # كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيَّان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وفيه: ((فيأتون نوحًا فيقولون -أي الخلائق- يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمَّاك الله عبدًا شكورًا، أما ترى ما نحن فيه! ألا ترى ما بلغنا! ألا تشفع لنا إلى ربك)) وهذا يعني أن نوحًا # هو أول الرسل، ويعني أنه قد سبقه آدم وإدريس وأنهما كانا من الأنبياء وأما نوح فأول المرسلين، ذكر الله ﷻ قصة نوح # في ثلاثة وأربعين موضعًا من كتاب الله الكريم وذُكرت قصته مفصلة في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح.

إذا أردنا أن نؤرِّخ لبداية الشرك في بني آدم فلا بد أن نتوقف وأن نتمهل كثيرًا عند تعظيم الرجال وعند تعظيم الصالحين بعد موتهم لنقول: إن الغلو في تعظيم الرجال كان السبب الذي أنشأ الشرك في بني آدم، ومع هذا كان اتباع خطوات الشيطان، وقد قال -جل من قائل-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

إن عبادة الشيطان هي اتباع أمره؛ قال ﷻ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠- ٦٢] إن الشيطان يدعو الإنسان شيئًا فشيئًا ليكون من أصحاب السعير كما قال -جل من قائل-: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وهكذا سول الشيطان لبعض هؤلاء أن يجعل للصالحين أصنامًا، لا لتُعبد وإنما لتذكر بالعبادة! ثم لّما عمّ الجهل ومات العلماء أصبحت أوامر الشيطان نافذة، وصارت أقواله مسموعة، ومن هنا عُبدت هذه الأصنام بين هؤلاء الأخلاف، الذين خلفوا ولم يكونوا على علم، ومن أجل هذا كانت أول آية تتنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا ﷺ هي قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١- ٥].

لم يطلب الشيطان من قوم نوح عبادة غير الله ﷻ دفعة واحدة، ولو فعل ذلك لما استجاب له أحد، ولكنه تدرج معهم حتى وصل إلى ما يريد، وفي هذا يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: وما زال الشيطانُ يُوحي إلى عُبّاد القبور، ويُلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مُستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يُقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه! فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله واتخاذ قبره وثنًا تُعلّق عليه القناديل والسُّتُور ويطاف به ويُستلَم ويُقبّل ويُحجّ إليه ويُذبح عنده، فإذا تقرر ذلك نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدًا ومنسكًا، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم، وكل هذا مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضادٌ لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد وألا يُعبد إلا الله، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى من نهى عن ذلك فقد تنقَّص أهل هذه الرُّتب العالية وحطَّهم عن منزلتهم وزعم أن لا حرمة لهم ولا

قدر! فيغضب المشركون وتشمئز قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطَّغام وكثير ممن ينتسبون إلى العلم والدين؛ حتى عادَوا أهلَ التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظَّموهم وزعموا أنهم أولياء لله وأنصار دينه ورسوله! ويأبى الله ذلك، ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولا شك أن الله ﷻ حين بعث نوحًا # بإقامة التوحيد وتجديد صُروحه يُذكِّر المسلمين في كل عصرٍ وفي كل زمان ومكان بالنهي عن التصوير، واتخاذ هذه الصورة التي كانت ذريعة للشرك بالله، وينبِّه كثيرًا ممن دخلوا في الإسلام لكنهم وقعوا في صورٍ وألوان متنوعة من ألوان التقديس والتعظيم للقبور والأضرحة، تخرج بهم عن صحيح الدين والعياذ بالله! ولهذا رأينا قبابًا تنتشر! ومزارات تكثر! وأضرحة تشيد في بلاد المسلمين! يحج إليها الناس! يطوفون حولها! وربما نحروا ودعوا واستشفعوا عندها! يطلبون من أصحاب القبور أمورًا لا تُطلب إلا من الله وحده! حتى أن الشاعر المعروف حافظ إبراهيم يذكر هذه الصور ويسخر منها فيقول:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهمٍ ❖ وبألف ألف يرزق الأموات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ❖ ووسيلة تُقضى به الحاجات
وأنا أعذب في الحياة وليس لي ❖ يا أم دَفر ما به أقتات

وقد ثبت في جملة من الأحاديث الصحيحة؛ ثبت النهي عن التصوير بأشكاله وألوانه وصوره، فهذا ابن عباس } يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من صوّر صورة في الدنيا كُلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ))،

وعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب > : "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ إلا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته".

يقول النووي -رحمه الله- بعد أن ذكر تحريم الصور: ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له، وهذا تلخيص مذهبنا في المسألة، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم، وقال بعض السلف: إنما يُنهى عن ما كان له ظل ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل، وهو مذهب باطل، فإن الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصورة فيه لا يشكُّ أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل، مع ما في هذه الأحاديث المطلقة في كل صورة.

والحديث الذي ذكره هو حديث عائشة > إنها قالت: ((دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكه وتلون وجه وقال: يا عائشة، أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله تعالى. قالت عائشة: فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين)).

دعوة نوح:

إن نوحًا # هو أبو البشرية الثاني، هو أول الرسل بعد آدم ﷺ اصطفاه الله تعالى للنبوة وهداه للحق وبالحق وكلفه بالرسالة وأثنى عليه بما هو أهله، دعا نوح # جميع من على ظهر الأرض في زمانه، ومن هنا كانت دعوته عامة بسبب ما أُحيط بها من أحداث، فلما أغرق الله ﷻ المكذبين بالطوفان كان نوحٌ # يدعو من بقي من أهل الأرض، فهو ﷺ من أولي العزم من الرسل، بل هو أولهم.

وتعد دعوته مرتكزًا رئيسًا للعلماء والدعاة ولكافة العاملين في مجال الدعوة إلى الله ؛ لما فيها من الدروس والعِبَر، ويكفينا أن الله ﷻ اختص هذه الدعوة بسورة كاملة بيانًا لأهميتها، فكانت دعوة نوح تقوم على الدعوة إلى وحدانية الله وعدم الإشراك به، ألَّا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالًا ولا طاغوتًا ولا صالحًا، قال -جل من قائل- : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣] دعوة نوح # : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وهي دعوة جميع أنبياء الله تعالى، ومع هذا كان نوح # حريصًا على نجاة قومه من الهلاك، لا يرجو لهم إلا الخير ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجرًا ؛ ولذا تلطَّف في خطابهم وسلك في دعوتهم كل سبيل، والله ﷻ سطر ذلك فقال -مدللًا على شفقته وكمال محبته- : ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي آية أخرى : ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦].

ونوح # يضع الأمور في نصابها فيقول : ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، ويُذكِّر نوحٌ قومه بأنه الرجل المعروف بينهم بالأمانة والصدق، وأنه لا يطلب منهم أجرًا أو مالًا ولا ينتظر مكافأة أو ثوابًا إلا من الله تعالى وحده، قال تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] نعم، هذه حالة نوح بين قومه ؛ لا

يسألهم الأجر على الدعوة، وكذا كل صادق من الدعاة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٥- ١٠٧].

وأحيانًا كان نوح # يلفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق، يُعدد آلاء الله على عباده لعلهم يهتدون إلى وحدانية الله وينتهون عن عبادة ما لا يضر ولا ينفع، قال -جل من قائل-: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣-٢٠].

هذا تنويعٌ وتلوين في الخطاب، وهو أيضًا ينوع ويلون في الأساليب وفي الوسائل؛ فكان لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله، يصل دعوته الليل بالنهار، والسر مع الإعلان، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥- ٩].

ألف سنة إلا خمسين عامًا قضاها نوح # في دعوته إلى الله دون كلل ولا ملل، وكلما أعرض قومه غيَّر وبدّل في أسلوبه، وهذا يعني أنه كان يحاسب نفسه، ومع هذا كان قمة في الصبر وآية في الحلم وطريقًا قاصدًا في الجد والمثابرة وطودًا شامخًا في التواضع وإنكار الذات، هل يتعظ بذلك الدعاة الذين ربما استولى اليأس على نفوسهم عند أول ردٍّ سلبي يتلقونه من أقوامهم أو يسيئون الظن بأقوامهم، فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها؟!.

موقف الملإ وأهل نوح # من دعوته

الملأ هم بطانة الحكام الظالمين، وهم أعوانهم، وهم أصحاب المصالح، وهم الأغنياء المترفون، وهم المنافقون، وهم زعماء المناطق والقبائل من غير المؤمنين. من سنن الله الثابتة في خلقة أن يكون هؤلاء جميعًا في طليعة من يتصدى لأنبياء الله ؛ لأن نفوسهم قد امتلأت بحب المال والجاه، وقلوبهم قد أشربت كره كل من يدعو إلى دين الله، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤] نعم، شنَّ الملأ حربًا شعواء على نوح # وأدبروا يسعون في الأرض فسادًا، يستخدمون كل وسيلة وكل دعاية في مواجهة أول رسل الله ﷻ إلى الأرض، فماذا كان موقفهم؟ دعاهم نوح إلى الإسلام، إلى لا إله إلا الله، فقالوا -متعللين برد هذه الدعوة بعلل واهية-: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] أراذلنا أي أقلنا منزلة وأخسنا قدرًا وأدنانا مكانة —يعنون: بهم ما دون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر ؛ يعنون: الزراع والصناع والعمال.

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ أي: أتبعوك في بادي الرأي، أي في ظاهره الذي يبدو للناظر فيه قبل أن يتأمل ويتمعَّن ويتأنى، وفي الآية الأخرى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٤] ما زال لهذه الطبقية الشاذة الهمجية جذور راسخة في عصرنا الذي يُسمَّى بعصر التقدم

والمدنية، هذه المقاييس مقاييس همجية جاهلية لا تُمتّ للمساواة ولا للعدل بأية صلة، إن المقياس الثابت الذي لا يتزعزع هو قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولذا رفع نوح # شأن أصحابه ولو كانوا شُعثًا غُبرًا لا يملكون مالًا أو جاهًا؛ فقال للملأ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤] فيكفيهم أنهم آمنوا فذلك أعظم نسبٍ وأكرم شرفٍ، فيجب أن يكون المقياس عند كل الدعاة وعند كل المجتمعات هو هذا المقياس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ثم إن الملأ تناسوا مكانة نوح # في قومه قبل الرسالة مع أنه كان صادقًا أمينًا لا يجرؤ أحد أن يطعن في عدالته واستقامته، فلما أكرمه الله بالرسالة تارة نسبوه إلى الضلالة، وتارة نسبوه إلى الكذب، وتارة نسبوه إلى الجنون، وفي هذا يقول الله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فهذه تهمة بالضلالة، وتارة أخرى يتهمونه بالكذب، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وفي غير هذه وتلك يقولون: إنه لمجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥] هكذا تنقلب الموازين وتذبذب القيم، وكل إناء ينضح بما فيه.

إن هؤلاء الملأ غاية ما يتطلعون إليه أن يكونوا سادة الناس، وأن يكونوا أهل الحل والعقد في الخلق، ومن أجل ذلك هم يتحاربون ويتنافسون ويحسبون أن غاية ما في هذه الحياة جمع مال أو تبوء منصب ونحو ذلك؛ ولهذا فهم لا يتصورون معاني إنكار الذات ولا يتصورون معنى الانقياد التام لله، ومن هنا جاء اتهامهم لنوح # بحب الزعامة، يظنون إنه إنما جاء بما جاء به يُريد الزعامة؛ لذا سطر القرآن الكريم في هذه القضية؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]

وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وفي قولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧]. فالفضل عند الملأ يعني القوة والمادة وكثرة الرجال، وهذه الصفات تتوفر عندهم وليست عند نوح ومن آمن معه، وفي قولهم: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] أي: ليس هناك من رسالة ولا رسول، بل هي مؤامرة طبقية تستهدف الإطاحة بالسادة والإشراف وتسليم شئون الحكم إلى العبيد والمنبوذين.

ومن مواقف الملأ أنهم تمسكوا في ردهم على نوح # بأنه خرج على المألوف من العادات، وخالف نهج الآباء والأجداد، وجاءهم بما لا يعرفوا فهم له منكرون، وفي هذا يقول الله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] الشاهد في هذه الآية هي قولهم: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهذا يعني أن الحق هو ما يأتيهم عن طريق الآباء، وما يأتي عن غير طريق الآباء فضَلالٌ وانحراف.

ومع كل الجهد الذي بذله نوح معهم تمسكوا بضلالهم واستمروا في عبادة أصنامهم وطلبوا منه أن يترك دعوتهم، فكان من آخر ما قالوا: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] تصوروا إن دعوة نوح لهم من الجدال لا يقصد بها الحق ولا الصواب، وطلبوا منه التوقف عنها لكثرتها ولعدم جدواها، وتحدوه بأن يأتي لهم بما خوفهم به ظنًّا منهم أنه كاذب، ولم يكتفوا بسب نوح وأتباعه ولم يكتفوا بالسخرية منهم بل كانوا يضربون نوحًا حتى يسقط على الأرض جريحًا ثم يرمونه في بيت خرب، يظنون أنه قد مات فإذا به يلقاهم في اليوم التالي يدعوهم إلى الله تعالى.

شكا نوحٌ # حال قومه لربه فعرَّفه ﷻ بأنه لن يؤمن منهم أحدٌ بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦] يعجبُ العاقل حين يعلم عدد الذين آمنوا بالله فصدقوا نوحًا في دعوته خلال هذه المدة التي بقي يدعو فيها إلى الله، كم هذه المدة؟ قال ﷻ: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] اختلفت الأقوال في عدد المؤمنين، فالُمكثِر يصل بالعدد إلى ثمانين والُمقِل يصل بالعدد إلى سبعة فقط، وقد أشار الله إلى قِلة عدد المؤمنين فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] لما علم نوحٌ أنه لن يؤمن من قومه إلا قد آمن دعا ربه أن يُهلِك الكافرين، فلا خير فيهم ولا في خير في أرض يبقى فيها هؤلاء، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧] علل # طلب إهلاكهم بأنهم يعملون على إضلال العباد ونشر الفساد، وأن كفرهم وعتوَّهم ينتقل بالوراثة إلى بنيهم، فلا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارا، عندها أمر الله ﷻ نوحًا أن يصنع سفينة، فأخذ في صناعتها وترك دعوة القوم فكان الناس يمرون عليه يستهزئون به ويقولون: هذا الذي كان يزعم أنه نبي صار نجارًا! ينادونه بصنعته الجديدة، يتعجبون منه وهو يصنع السفينة على اليابسة، وهو لا يأبه باستهزائهم، ولا يبالي بتعجبهم، يستمر في طاعة الله تعالى.

يقول عكرمة والزهري: التنور وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح # : إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض فاعلم أن مصير الكفار قد اقترب، وافعل ما تُؤمر به فتنجو ومن آمن معك، وهذا قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤٠، ٤١].

أمر الله تعالى السماء بأن تمطر وأمر الأرض بأن تتفجر عيونًا ؛ فنفذ ما أمر الله به.
قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : ١١- ١٢]. وامتلأت الأرض بالماء وعلا الطوفان حتى أشبه الأمواج في حجم الجبال، يقول تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ وعامت السفينة بِركَابها ورُكَّابها محوطة بعناية الله ﷻ قال تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٤]. وهلك الكفار بالغرق ونجا نوح # ومن كان معه في السفينة، قال تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧]، ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤]، بعد أن عامت السفينة مدة طويلة قيل : إنها ستة أشهر وكان أمر الله ﷻ أن تبقى على هذا النحو، حتى صدر الأمر الإلهي : ﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهكذا كانت عاقبة الضالين.

أما نوح # ومن معه فقد نجاهم الله تعالى ومن معه فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] وصدق وعد الله تعالى لنبيه نوح وكذا يُصدق عباد الله المرسلون.

بيّن نوح # وبعض أهله :

قد يُبتلى الداعية بقومه، وقد يُبتلى بالملأ، فيعاني من هؤلاء ما يعاني، لكنه إذا عاد إلى بيته طلب الراحة فوجدها وتلمّس الأنس فحصل عليه، وهذا الذي كان يلقاه نبينا ﷺ في كنف أم المؤمنين خديجة > ا وأرضاها- أما نوح # فقد ابتلاه الله بقومه وببعض أهل بيته ؛ قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

وكانت خيانة امرأة نوح لزوجها أنها كانت تنقل أخباره وأسراره لأعدائه، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فهذه خيانة في الدين وليست خيانة في العِرض؛ لأن نساء الأنبياء عصمهن الله ﷻ من الزنا، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا ﴾ فيه بيان أن العلاقة الزوجية لا تنفع شيئًا مع الكفر، وقد بيّن تعالى ما هو أهم من ذلك في عموم القرابات كقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨]، ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥] ولم تكن مصيبة نوح بزوجه هي آخر مصائبه في بيته؛ لقد رفض ابنه الإسلام وأعرض عن أبيه ووقف في صفوف المشركين، وأن الأب إذا كبرت سنة من أكبر ما يرجي ولده، إنه يرجو أن يقف ولده بجواره، وإنه لمن أثقل الأمور على النفس أن يفقد الأبُ ابنه ثم يراه في الصف الذي يعاديه، يحاول نوح # أن يُنقذ ابنه من الغرق عند بداية الطوفان، ولكن هيهات، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢- ٤٣] وقال ﷻ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥- ٤٧] لم يخالف نوح # أمر ربه، لكنه اجتهد في أمر ابنه، ليس غريبًا أن تتحرك عواطف الأبوة في نفس نوح وهو يرى الموت يُحدق بفلذة كبده الذي يصدق عليه قول الشاعر:

وإنما أولادنا بيننا ❖ أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ❖ لامتنعت عيني من الغمض

ولا شك أن للطوفان هول ودهشة تطير لهما الألباب، وتحار في وصفه الأفكار، وفي هذه الأجواء الرهيبة التي سبقت الطوفان بلحظات يتوجه نوح إلى رب الأرض والسموات قائلًا: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ والوعد الذي أشار إليه نوح هو قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠] والذين سبق عليهم القول من أهل نوح زوجه وولده، فهما من الذين يشملهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ومع أن نوحًا # لما يخالف أوامر ربه، وكل ما في الأمر أنه سأله ﷻ أن يُنجي ابنه بعد أن رآه في معزل عن الكافرين، ورغم ذلك كان رد الله على عبده ورسوله نوح حاسمًا واضحًا قويًّا: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦] يا نوح، إنك مؤمن وابنك كافر، فكيف يكون من أهلك؟! يا نوح، لا تسأل عن أشياء لا علم لك بها، وحذار حذار أن تكون من الجاهلين.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ [هود: ٤٦]: وهذا النهي يدل على أنه يشترط في الدعاء أن يكون بما هو جائز في شرع الله وسننه في خلقه، فلا يجوز سؤال ما هو محرم وما هو مخالف لسنن الله القطعية، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] أي: أنهاك أن تكون من الذين تحركهم شهواتهم وينقادون لأهوائهم ومنافعهم، وعندها ترتعد فرائص نوح من شدة الخوف، ويرتجف من لوم الله له، ويتوجه إلى ربه مستغفرًا وتائبًا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وقصة نوح مع ابنه تذكر باستغفار رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب بعد هلاكه وقوله ((والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك)) فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وروى أحمد عن أبي بريدة عن أبيه قال: ((كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكبٍ، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفدّاه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، ما لك؟ قال: إني سألت ربي ﷻ في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار)). على كل حال عاتب الله نبيه نوحًا؛ لأنه سأله نجاه ابنه المشرك من الغرق ولم يأذن لخاتم الأنبياء أن يستغفر لأمه، كما عاتبه لأنه كان يستغفر لأبي طالب الذي وقف مع ابن أخيه بكل ما يملك حتى توفي أبو طالب وهو يقول: والله لن يصلوا إليك حتى أوسَّد في التراب دفينًا. فهل يُدرك الدعاة إلى الله ﷻ قبل غيرهم أن آصرة العقيدة والدين هي أقوى الأواصر، قال سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

معالم من دعوة نوح

المَعْلَمُ الأول: العقيدة أساس الدعوة:

قامت دعوة نوح # على دعوة الناس إلى توحيد الله ﷻ وقصر العبادة له، وقد مر معنا ذلك، ونحن هنا نؤكد على هذه القضية، فكلمة التوحيد أولًا، نوح # استعمل كل وسيلة وأكد على هذه الحقيقة وبرهن عليها بكل سبيل ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣]، وفي هذا يقول بعض المفسرين: وعبادة الله وحده منهج كامل يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،

وتقوى الله هي الضمانة الحقيقية للاستقامة على هذا المنهج، وعدم التلفت إلى غيره بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة، وطاعة الرسول هي الوسيلة للاستقامة على المنهج وتلقي الهدى من مصدره، واستمرار هذا الاتصال ما دامت الرسالة موجودة؛ ولهذا قال نوح # : ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ لأنه رسول الله إليهم، وبلاغه هو دين الله تعالى.

ونوح # يركِّز على الإيمان باليوم الآخر، لماذا؟ لأنه جزء من العقيدة، عرفهم به نوح وهو ينذرهم به قال تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وقد اجتهد نوح # في إفهامهم أركان العقيدة وأسمعهم براهينها وناقشهم، فاتهموه بالكذب وردوا عليه، وزعموا أن الرسالة لا تكون لبشر، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونحو هذا. وقالوا: إن جازت الرسالة لبشر فيجب أن يكون من عِلية القوم ومن الوجهاء، وألا يكون من الضعفاء؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] رد نوح # مزاعمهم وبيّن لهم أن النبوة رحمة من الله يصطفي لها من يشاء من عباده، ليس لهم أن يناقشوا شخص الرسول وعليهم أن ينظروا في معجزاته وبيناته؛ ليعرفوا صدقه في دعوته وليسألوا أنفسهم عن غاية الرسول من كذبه على الله، وهو لا يطلب منهم أجرًا ولا يريد منهم رزقًا، والمؤمنون معه من الفقراء الذين لا جاه لهم لينتفع به، أو لا مال لهم ليستولي عليه، فلماذا يكذب على الله تعالى؟ ومع هذا لن يستمع الملأ لدعوه نوح، فمضت فيهم سنة الله ﷻ بالاستبدال.

المعلم الثاني: أن نوحًا كان في الذروة من صفات الدعاة:

كان نوح عالمًا بشئون الدعوة وحال المدعوين فهو يدعو الله ﷻ على بصيرة من أمره، كان حليمًا واسع الصدر، محبًّا لقومه، لا يعرف الحقد سبيلًا إلى نفسه،

ولا يأبه من استخفاف الناس به، ولا يقيم للأهواء والأمزجة وزنًا، لقد كان مؤمنًا بالله منقادًا لأمره، كان يعيش لدعوته، فمن أجلها يصل الليل بالنهار والسر بالإعلان، لا يتقاضى على ذلك أجرًا ولا ينتظر مغنمًا ولا يطمع في جاه، وكان المؤمنون بدعوته هم أهله وعشيرته وحزبه وقومه ولو كانوا لا يرتبطون معه بنسب ولا تجمعهم به مصالح من مصالح الدنيا، أما الكفار فكانوا أبعد الناس عنه، الكافرون بدعوته هم الغرباء ولو كانوا من أهله ولو كانوا من أقرب الناس إليه نسبًا، كانت عداوته للمشركين تتناسب مع طول صبره عليهم، وتتناسب مع شدة اضطهادهم له؛ ولذا دعا ربه ألا يذرَ على الأرض منهم ديّارًا، فعلى الدعاة إلى الله أن يتأسوا بنوح # في علمه وصبره وتجرده، وليعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

المعلم الثالث: استفراغ الوسع وبذل الجهد في الدعوة إلى الله تعالى:

إن نوحًا # سار على خُطة واضحة تقوم على أن يبذل كل وسع، وأن يستفرغ كل جهد، وأن يُعطي من نفسه المجهود في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ عاش نوح # واقع قومه وهو يدعوهم، ولعل ذلك أجلى في الشرح، وأدعى للفهم والإقناع. قوم نوح كانوا أصحاب زراعة ورعي وتجارة، يحتاجون للمطر للسُقْيا وللأنهار لتُروى زروعهم، وللسماء لتظلهم، وللشمس لتدفئهم، وللقمر ليُنير لهم، وهو يقطعون سبل الأرض وفجاج الصحراء، معهم الأموال ومعهم الأولاد، تلك حياتهم وهذا واقعهم، فماذا قال نوح لهم؟ قال # وهو يدعوهم: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٠- ٢٠].

ويستمر نوح في الدعوة ويُلِح في طلب الإيمان؛ ذلك لأن هذا من ضرورات الدعوة إلى الله، غاية الدعوة أن يوجد إنسان جديد ينخلع من حياته وضلاله القديم؛ ليعود إلى عبادة الله، ينطوي باطنه على قبس من نور الله، وتمتلئ جوارحه بالتقوى والطاعة والاستقامة على منهج الله، هذا لا يحتاج إلى مجرد العرض، ولا يكفيه الطلب لمرة واحدة، بل لا بد من إلحاح ومتابعة، لا بد من تربية جادة ومداومة، لا بد من استمرار ومتابعة، طبق نوح هذا تطبيقًا كاملًا، حتى قال الله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، ثم إن هذه الدعوة الإلهية تتصادم مع قوى عديدة؛ تتصادم مع الملأ ومع الوجهاء الذين يعيشون على استعباد الضعفاء واستغلالهم، تتصادم مع كل متألِّه من الناس سواء كان تألهه بالتحليل والتحريم، وهو يشرع بعقله للناس أو يحب أن يرفعه الناس إلى درجة الأُلوهية يخافونه ويرجونه ويعظمونه، كما تتصادم مع كل ضال يعبد غير الله؛ سواء كان معبودة حسيًّا أو كان معبوده معنويًّا.

هذه الصدامات تؤدي إلى مشاق ومصاعب في طريق الدعوة، مشاق ومصاعب كثيرة لقيها نوح # ولا بد من ملازمته للتحمُّل، ومن مواجهته هذه المواقف بالصبر ومقابلته السيئة بالحسنى، وهذا منهج لا بد منه لنجاح الدعوة إلى الله، كانوا يكذِّبونه، كانوا يسبونه، كانوا يسخرون منه، كانوا يرمونه بالجنون تارة وبالسفه تارة، يضربونه تارة ويؤذونه تارة، وهو متذرِّع بالصبر مُستفرغ جهده، وباذل وسعه في طريق الصبر على دعوته، وبهذا تنجح الدعوات، وبهذا يمكَّن للدعوات.

ومن المعالم أيضًا أن نوحًا # كان شديد الصلة بالله، كثير الالتجاء إليه، فليُراجع من شاء في هذه القصة العظيمة بدايتها، حين قال نوح: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ ﴾ وقد سماه الله ﷻ عبدًا شكورًا، فمن الله وحده كان نوح # ينشد النصر، وما كان وهو يواصل الليل مع النهار يُعلِّق آمالًا على أحلاف يعقِدها مع مشركين ضد مشركين، ولا كان مغرورًا بقوته أو قوة أتباعه المادية، ومن الأدلة على قوة إيمانه بالغيب أنه كان يردُّ الرد القاطع على سخرية قومه حين كانوا يسخرون منه وهو يصنع السفينة: بأنه سيسخر منهم غدًا يوم ينصره الله ﷻ وتأمل: السفينة وهي تجري في موج كالجبال، تجري بحفظ الله وحراسته وتقديره:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ❖ نم فالمخاوف كلهن أمان

وفي مواضع كثيرة بيَّن الله لنا: كيف استجاب لعبده نوح، كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥].

ونحن اليوم عندما نوثق صلتنا بالله ونكثر من الالتجاء إليه ننتظر النصر والتمكين منه وحده، فهو الناصر لعباده المؤمنين، وهو ﷻ المستعان وعليه التُّكلان، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

دعوة "هود" و "صالح" عليهما السلام

عناصر الدرس

العنــــــــصر الأول :	هود # ومعالم دعوته	٧١
العنــــصر الثــــاني :	صالح # ، ومعالم دعوته	٨٣

هــــود # ومعـــالم دعوتـــه

أولًا: التعريف بهود # وبقومه:

نبي الله تعالى هود هو: هودُ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ويقال في نسب هود: أن هود هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. ويقال: هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح # كان هود من قبيلة يقال لها: عاب بن عوص بن سام بن نوح.

سكن قوم هود -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- منطقة يقال لها: الأحقاف، فقبيلته -قبيلة عاد- كانوا عربًا يسكنون الأحقاف، والأحقاف هي: جبال الرمال، كانت بين عُمَان وحضرموت من أرض اليمن، وكانت أرضهم مُطلةً على البحر، ويقال لها: الشحر، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [الفجر: ٥، ٦] أي: عاد إرم، وهم عاد الأولى، وأما عاد الثانية فمتأخرة.

وقوم هود قد زادهم الله ﷻ في الخلق بسطة، وجعلهم أشدّ أهل زمانهم، كانوا في رغد من العيش وسعة منه؛ سطّر القرآن الكريم ذلك في مواضع، إلا أنهم لم يشكروا الله ﷻ على هذه النعم وكفروا بنعمة الله، ثم إنهم عاندوا رسولهم، فأهلكهم الله ﷻ بريح صرصر عاتية، قوم هود عبدوا الأصنام من دون الله ﷻ بل قال ابن كثير: هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: "صمدا"، و"صمودا"، و"هِرا"، وهم حين عبدوا الأصنام كانوا في ذلك

يُضاهئون قوم نوح، فقوم نوح عبدوا -كما تقدم- "ودًّا"، و"سواعًا"، و"يغوث"، و"يعوق"، و"نسرًا"، وهذا الضلال شاكلهم فيه وشاركهم قومُ هود -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- وجرت سنة الله ﷻ أن يرسل الرسل تترا، كلما وقع انحراف في هذه البشرية أرسل الله ﷻ من الرسل من يقيم عقيدة التوحيد، ويصحِّح ما وقع من انحراف فيها، هذه سنة الله -تبارك وتعالى- فأرسل الله ﷻ إلى قوم هود هودًا، أرسل الله ﷻ إلى عاد هودًا، يدعوهم إلى الله، يأمرهم بعبادته وحده دون سواه، ينهاهم عن عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

ثانيًا: عرض دعوة هود # لقومه:

دلّت نصوص القرآن الكريم أن هودًا # ابتدأ قومه بالدعوة إلى الله من نقطة الخلاف الأولى، وقد كرّر الدعوة إلى التوحيد واستخدم كثيرًا من الأساليب؛ نوّع بين الإنذار واللّوم، وجمَع إلى هذا الترغيب والحثّ، وعالج شبهات القوم، ورد على اعتراضاتهم، وساسهم بكلّ سبيل يأخذهم به إلى الله ﷻ. والقرآن الكريم يحدثنا عن أول ما ابتدأ به هود دعوته إلى قومه، فإنه أمرهم وذكّرهم وبيّن لهم وخوّفهم من عذاب الله الأليم إن هم أصرّوا على الشرك بالله ﷻ وتأمّل قولَ الله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

ثم إنه استخدم الإنذار بأسلوب عرض مشوبٍ بالتلوين مع بيان أنه لقومه رسولٌ أمين، وأتبع هذا بالدعوة إلى أن يطيعوه ويتقوا الله، دلّ على هذا قول الله ﷻ في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٦] قوله # كما حكى

القرآن: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ هذا عرضٌ لأسلوب الاستفهام، وهذا العرض مشوبٌ بالتلوين.

ثم إنه كرّر الدعوة إلى التوحيد فقال بأسلوب فيه شيء من الإنكار كما قال الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] نفهمُ شدة التلوين من إضافة الفاء العاطفة على عبارة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أأعرضتم عن دعوتي السابقة لكم: بأن تتقوا عذاب الله فلا تتقون؟.

ثم إنه كرر الدعوة إلى التوحيد مع الهجوم على عقيدتهم الشركية بأنهم يفترون فيها على الله؛ باتخاذ الشركاء من دونه -تبارك وتعالى- وأنهم يخترعونها من عند أنفسهم، ويجعلون لها أسماء دون أن تكون لهم أدلة عقلية أو تجريبية عليها، بل الأدلة العقلية والحسية تشهد بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، فليس لها أن تشارك الله ﷻ في ربوبيته، وليس لها أن تشارك الله ﷻ في إلهيته، وليس لديهم أدلة خبرية عن الله ﷻ تأمر بعبادتها، أو تأذن بها، فلم يبقَ لهم إلا أنهم في هذه العبادة مفترون. دل على هذا قول الله ﷻ في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] أي: ما أنتم إلا مفترون افتراءً يختلق الكذب ويصطنعه.

ثم إنه # استخدم سياسة الترغيب بثواب الله العاجل في الدنيا، والآجل في الآخرة، ورهبهم من عقاب الله العاجل والآجل أيضًا، وهذا أحد عناصر سياسة جميع أنبياء الله ورسله، وسياسة سائر الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- دل على ترغيب هود # في ثواب الله المُعجَّل قوله لقومه كما حكى الله عنه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ

﴿ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢] ودل على الإنذار بالعقاب المعجَّل قول قومه له كما جاء في سورة الأعراف: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] وقول الله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وأما الترغيب والترهيب بما عند الله ﷻ يوم القيامة فهما بلا شك من القواعد الأولى التي تقوم عليها الرسالات الإلهية الربانية كلها، وكل أمر بتقوى الله يشتمل على التحذير من عقابه يوم القيامة، ويتضمن لزومًا فكريًّا الترغيب في ثوابه بجنات النعيم.

ثم إن قوم هود اعترضوا على هود في دعوته، وكانت اعتراضاتهم كثيرة ومتعددة، فقام هود # بدفع تلك الاعتراضات التي أوردها قومه عليه، ورد بنفسه عن نفسه تلك الشبهات، بل وتلك الشتائم التي وجهها إليه قومه، يعترضون على بشريته وهذا اعتراضهم الأول، يدَّعون أن الله ﷻ لو شاء أن يرسل رسلًا لأنزل ملائكة، وتأمل ما في سورة فُصّلت بشأن عاد وثمود حين خوطب النبي ﷺ بمعرض الحديث عن مشركي مكة، يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] لو شاء الله ﷻ أن يُرسِل الرسل لجعل من الملائكة رسلًا، دفع هود # هذا الاعتراض بقياس نفسه على نوح # فقد سبق وأن أرسَل الله ﷻ رسولًا بشريًّا كانوا على علم به وبرسالته وبما وقَع للمكذّبين من قومه الذين كانوا بالله تعالى يُشركون، كان نوح بشرًا ولم يكن ملكًا واستنكر

عليهم أن يتعجبوا من كون الرسول بشرًا، فيجحدوا رسالته لهذه العلة، مع أنهم من سلالة الذين آمنوا بنوح ونجوا معه في السفينة وهم من ذريته، فهو يذكرهم بهذا، ويرد عليهم هذا الاعتراض، كما جاء في سورة الأعراف حكايةُ مقالتهم هذه من قول ربنا ﷻ: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ثم إنهم ما فتئوا يعترضون مرة أخرى يعترضون على هود بأن له مصالح دنيوية، يريد أن يتخذ الدعوة سُلّمًا لتحقيقها، ويتهمونه بأنه يتخذ الدعوة الدينية سِتارًا لتحقيق أغراضه ومصالحه في قومه، فكأنه يريد بدعوته مالًا أو يطلب بها سُلطانًا، وقد رد هود # على هذا الاعتراض المتكرر بمثل ما رد به سائر المرسلين؛ وهو: أنه لا يسألهم أجرًا ولا يريد منهم أجرًا ماديًّا ولا معنويًّا، لا يطلب منهم جاهًا ولا سلطانًا ولا ملكًا، ودل على هذا الرد قوله لهم كما جاء في سورة الشعراء: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وفي سورة هود ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١] هذا مَنطِق رسل الله قاطبة، وهذا أصل من أصول دعوتهم أنهم لا يطلبون على الدعوة أجرًا ولا يرجون من ورائها مغنمًا، وهود # جلّى ذلك بأوضح عبارة وبأفصح إشارة فأظهر هذا المعنى وبينه.

لكن القوم بعدُ لم تنته اعتراضاتهم، فاعتراضهم الثالث كان بأن هود # لم يأتهم ببينة لم يأتهم بآية معجزة، لم يأتهم بشيء خارق حتى يؤمنوا، وكأن الإيمان برسل الله ﷻ لا يتأتى إلا إذا جاءوا بالخوارق والمعجزات، دل على هذا الاعتراض قول الله تعالى في حكاية قولهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا

﴿نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤] وهذا ادِّعاء كاذب وجحود فقد قال الله ﷻ في سورة إبراهيم حكاية لقول موسى # لقومه بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] فهذا يدل على أن قوم عاد جاءتهم البينات، كما هو الحال في شأن قوم نوح وفي شأن قوم ثمود، والله ﷻ ذكر ذلك في سورة التوبة في معرض الحديث عن المنافقين والكافرين، قال -جل من قائل-: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠] ونبينا ﷺ يؤكد هذا المعنى فيقول كما أخرج البخاري من حديث أبي هريرة > : ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)).

وأما ادعاؤهم أنه لم يأتهم بما اقترحوا هم عليه من الخوارق فهذا ادعاءٌ قد يكون مقبولًا، وقد يكون هو المراد، ومن المعلوم من سنة الله ﷻ في الأمم أنه لا يستجيب للمقترحات التي تقترحها الأقوام بشأن المعجزات، وأن العادة أنه إذا استجاب إليهم بناء على طلبهم كما وقع بشأن ناقة صالح # أنهم يُصرون أيضًا على عنادهم ويبقون أيضًا على تكذيبهم، وعندها لا يستحقون إمهالًا؛ لأنهم حين طلبوا البينة القاهرة والمعجزة الباهرة طلبوها لأجل الإيمان، فإذا وقعت فلم يؤمنوا دل هذا على أن هؤلاء لا يؤمنون، فإن الله ﷻ عندئذ لا

يُمهلهم، بل يعجل لهم الإهلاك العام، أو يُعجل بإهلاك من طلب هذه الآية أو طلب هذه البينة من القوم إذا كانوا أفرادًا معدودين، ولم يكن توجيه الطلب من كل القوم أو من معظمهم بصورة عامة.

وهود # واجه هذه الشبهات ودفع تلك الشتائم، التي وُجِّهت له، واستعمل في ذلك أمورًا كثيرة منها الدفع بالنفي المجرد لشتمهم له؛ بأنه منغمس في سفاهة أي في نقص عقل ينتج سوء تصرف، ومن ذلك: أنه ادعى النبوة والرسالة، وأنه دعا قومه بأن يذروا آلهتهم التي يعبدون من دون الله، وأمرهم بأن يعبدوا الله وحده لا يُشركون بعبادته أحدًا، وهم أيضًا جمعوا إلى ذلك السب أن سبوه بالكذب، فاعتقدوا أنه من الكاذبين، وهذا دل عليه قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٦-٦٨].

الأمر الثاني: أنه أعرض عن شتمهم له بأنه مصاب في عقله أو في نفسه من قِبَل بعض آلهتهم التي تمرد على عبادتها، وخالف ما عليه الآباء والأجداد من الخضوع لها والتذلل لها، وإذا اكتفى هود # بالإعراض عن دفع هذه المسبة فقد رأى أن يُعلن لهم أنه يُشهد الله ويشهدهم على أنه بريء مما يُشركون؛ ليثبت لهم بأسلوب غير مباشر كمال عقله وثبات خصائصه النفسية، وأن آلهتهم لم ولن تمسّه بسوء، ولا تستطيع ذلك مع أنه يُعلن تبرؤه منها، دل على هذا قول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤].

ثم إن هودًا # جادل قومه بالتي هي أحسن فاعتمد على أمور:

الأول: أن يَدفع اعتراضات القوم بالحجج العقلية والأدلة الصحيحة الصريحة، التي ليس لديهما يبطلها.

الثاني: أن يقيم الأدلة العقلية والحجج البرهانية التي تُفحمهم وتبيّن صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وتبين فساد ما هم عليه من شرك، فاستدل على التوحيد بأن الله تعالى وحده فاطر السموات والأرض، وهذا أمرٌ ظاهر الأدلة في الظواهر الكونية، ليس فيه شك لدى العقلاء، ومن كان هو الخالق فلا بد أن يكون وحده هو الإله المعبود، وتأمل ما ورد في سورة إبراهيم من هذه المحاجَّة التي حكاها القرآن عن موسى # وقوله لقومه بني إسرائيل بشأن ما قاله رسل قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لأقوامهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] واستدل على نفي استحقاق آلهتهم أن تكون معبودة من دون الله بأنها لا تعدو أن تكون أسماء هُم سموها، فليس لها من حقيقة الربوبية أو الإلهية شيء، ولم يأتِ من عند الله أمر ولا إذن بعبادتها، فحين قالوا له متعجبين من دعوته كما جاء في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] أجابهم: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

الثالث: أن يوجِّه النصح لهم، وفعل ذلك في عدة قضايا:

القضية الأولى: أن يتركوا أعمال العبث، التي ينفقون فيها أوقاتًا وأموالًا وطاقات؛ لمجرد التفاخر والمباهاة بقدرتهم البنائية تارة والفنية أخرى، ويُشعرون

غيرهم بعظمتهم ويَشعرون هم في أنفسهم بتفوق بلادهم على غيرها من البلاد دون أن تكون فائدة في الحياة أو أن يوجهوها لما فيه نفع وخير هذه الأمة، جماهيرهم أحوج إلى ذلك منهم إلى مظاهر التكبر والتعاظم، فقد كانوا يفعلون نظير ما كانت تفعل الفراعنة من بعدهم؛ إذ بنوا الأهرامات ونحتوا أعمدة المِسلات ونصبوها كعلامات، وكانت وسيلتهم إلى ذلك سَوق الناس بالجبر والإكراه والإذلال كالجمال والحمير والبغال، دل على نصيحته لهم في هذه القضية قول الله تعالى كما في سورة الشعراء ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨] والريع: تطلق على السبيل سواء سُلك أو لم يُسلك، وعلى الطريق المنفرج بين الجبال وعلى الطريق عامة، والله ﷻ حين ساق هذا ساق استفهامًا فيه معنى النصح وفيه معنى اللوم على العبث؛ أي على ما لا فائدة منه، نصحهم هود # بترك هذه العادة التفاخرية التي تبذل فيها أموال وطاقات بغير نفع، فهي من مظاهر الإسراف والتبذير وتضييع الثروات بالعبث، وهذه العلامات التفاخرية، فهي كالأصنام التي تصنع للحكام وذوي السلطان الجبارين، وليست للناس فيها أدنى مصلحة.

القضية الثانية: أن يضعوا دائمًا نصب أعينهم وفي ذاكرتهم الدار الآخرة، وأن يتذكروا الموت، وأن يتفكروا به وبما يكون بعده وبالحساب والجزاء يوم الدين، وأن يوجِّهوا كل اهتمامهم ليوم الخلود، فإن هذا يصرفهم عن العمل للدنيا وتوجيه كل طاقة لها دون أن يسعوا سعيًا حثيثًا للآخرة، دل على نصيحته لقومه في هذه القضية قول الله ﷻ كما في سورة الشعراء: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٩] والمصانع: جمع مصنعة وجمع مصنع أيضًا، والمصانع في اللغة: تطلق على ما يُصنع من أبنية أو قصور أو حصون أو أحواض مياه ونحو ذلك، والأصمعي يقول: العرب تُسمي القرى مصانع، فهود # لم يُنكر

عليهم اتخاذ المصانع من أبنية وقصور وحصون وغير ذلك، وإنما أنكر عليهم انصرافهم الكامل لشئون الدنيا، يرجون الخلود في العز والمجد والقوة والسلطان ورفاهية العيش؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وهذا لا يكون بحال.

القضية الثالثة: ألا يستكبروا في الأرض على عباد الله، وألا يتخذوا الوسائل التي يُذلون بها الأقوام الأخرى بما آتاهم الله من قوة، ومن مظاهر استكبارهم على غيرهم من الأقوام: أنهم كانوا إذا بطشوا في حروبهم بطشوا جبارين ظالمين معتدين؛ لمجرد إظهار تفوقهم وقوتهم وإذلال غيرهم بغير حق، وكذلك إذا بطشوا في غير الحرب فيما يريدون السطو عليه بطشوا جبارين، دل على نصيحة هود # لقومه في هذه القضية قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

ثم أردف ينصحهم في أمر رابع: بأن يتقوا الله الذي أمدَّهم بنعمه الكثيرة، وأن يتقوا عذاب الله ﷻ بأن يطيعوا رسول ربهم فيما يدعوهم إليه من إيمان وإسلام وعمل صالح، كما حكى ذلك ربنا في كتابه فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣١ : ١٣٥] فماذا كان رد القوم؟ ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦- ١٣٨] إن هذا إلا خلق الأولين: أي: ما هذا الذي تستنكره علينا وتعظنا بتركه إلا سلوكٌ كان يفعله آباؤنا وأجدادنا الأولون، وهو أثر من آثار أخلاقهم ونحن على آثارهم مقتدون، وقُرئَ "إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ" بفتح الخاء وإسكان اللام، والمعنى: ما هذا الذي تنذرنا به يوم الدين إلا افتراء واختلاق مدعي البعث بعد الموت من الأولين، فتكاملت القراءتان وانتظمت هذه الآيات.

وصل كفار قوم هود # إلى شِبه ما وصل إليه كفار قوم نوح، وتعرض # لأذى قومه، فقابل أذاهم بالصبر، وأخيرًا أعلنوا إصرارهم على تكذيبه، وأعلنوا تحديهم له بأن يأتيهم بالعذاب المعجل، الذي ما زال يعدهم به؛ فأجابهم: بأن أمر إهلاكهم هو بيد الله لا بيده، وأن العلم بوقت إهلاكهم هو عند الله، عندئذ هددوه بأن يقتلوه، فتحداهم بأن يفعلوا ما يشاءون، وأعلن توكله على الله. ولما وصلوا إلى حالة ميئوس منها أهلكهم الله ﷻ قال جل وعلا على لسان هؤلاء القوم: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠- ٧٢]، ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢، ٢٣]. وفي آية أخرى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠]، ثم جاء التعقيب الرباني: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ [هود: ٥٨-٦٠].

ثالثًا: معالم من دعوة هود # :

لا شك أن هذه القصة تزخر بالآيات والعظات وتكثُر فيها الدروس والعبر، ونحن نشير إليها بإشارات موجزة:

هذه القصة بجملتها تُعلّم الدعاة:

١. أن تكون الدعوة إلى صحة المعتقد هي أول ما يُدعى إليه الناس.

٢. أن الداعية هو الذي لا يُقابل السيئة بالسيئة، بل يُقابلها بالحسنى، وهي تعلم أيضًا الثقة في نصر الله ﷻ وذلك بعد تحقيق التوكل على الله ﷻ حق التوكل، فقد قال هود كما حكى القرآن حينما اتهمه قومه وافتروا عليه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٥٤- ٥٦] هكذا أعلنها هود # وهكذا يجب أن يُعلنها الدعاة في كل زمان ومكان.

٣. أن على الدعاة -وهم يدعون الناس ويرشدونهم- أن يتصفوا ويتحلوا بما تحلّى به هود # في سعة صدره وعدم مقابلته الشر بمثله، وعليه أن يتحمل قسوة المدعوِّين وقبح ردهم، كل ذلك من أجل أن يصل إلى غايته من هدايتهم أو هداية بعضهم.

٤. ثم إن هودًا # يعلم الدنيا بأسرها أن من أراد في هذه الحياة رغدَ العيش- فإن عليه أن يطيع الله وأن يكثر الاستغفار؛ كما قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارٗا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

تعلمنا دعوة هود أيضًا أن الشكر يُديم النعم، وأن كفر النعم يؤدي إلى زوالها والقضاء عليها، فعاد إرم ذات العماد لم يخلق الله ﷻ مثلها في البلاد، أسبغ الله ﷻ عليهم النعم ظاهرة وباطنة، آتاهم المال والولد، وأمدهم بالقوة في أبدانهم، وأعطاهم السعة في أموالهم، حتى تعالوا في البنيان، ولكن القوم ما عرفوا لهذا

النعيم وذاك الترف والبذخ - ما عرفوا لذلك كله حقًّا ؛ فكان الجزاء لهم من الله أن صبّ عليهم العذاب صبًّا ، وهذا ما ذكره الله ﷻ في كتابه حين قص قصة عاد أو أشار إليها في سورة الفجر.

كذا علمتنا قصة هود # أن لكل ظالم نهاية ، وهذه النهاية نهاية أليمة ؛ لأن عذاب الله ﷻ إذا وقع يكون مروِّعًا ، يكون زاجرًا ، يكون قاسيًا ، هاهم قوم هود مع ما كانوا فيه من قوة وشدة ونعمة إلا أنهم حين استكبروا وظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم وخالقهم كان الجزاء أن أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، جعلتهم كأعجاز نخل خاوية ، وفي هذا كل العبرة لكل متكبّر جبار ، ولكل من لا يؤمن بيوم الحساب.

صالح # ومعالم دعوته

أولًا : عرض دعوة صالح # :

نبي الله صالح هو صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عافر بن إرم بن نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وقال الحافظ البغوي : إنه صالح بن عبيد بن آسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وعن وهب : أنه ابن عبيد بن جابر بن ثمود.

وبُعث سيدنا صالح # في قوم ثمود ، وهم كما يذكر ابن كثير قبيلة مشهورة ، يقال لها ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديث ، وهما ابنا عافر بن إرم بن سام بن نوح ، كان عربًا عاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين ، وقد روى البخاري بسنده

عن ابن عمر } قال: ((لمّا مر النبي ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم- إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي))، وهذا الحديث أخرج الإمام أحمد نحوه من رواية ابن عمر قال: ((لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذّبوا فقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ فلا تدخلوا عليهم)).

الإمام النووي يُعلّق على هذه الروايات في شرحه لـ(صحيح مسلم) ويقول: وفي هذا الحديث الحث على المراقبة عند المرور على ديار الظالمين ومواضع العذاب، ويقول: وينبغي للمارِّ في هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك.

وقد ذُكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة؛ فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم، فنحتوا لهم بيوتًا في الجبال، وكانت ثمود تعبد الأصنام والأوثان من دون الله ﷻ فأرسل الله إليهم صالحًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإلى نبذ عبادة الأصنام؛ فآمن به البعض وكفر جمهورهم، ونالوا منه ﷺ بالمقال تارة وبالفعال تارة، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم؛ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وكما هي العادة بدأ صالحٌ دعوته بنقطة الخلاف الأولى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣] وهو بعد

يُنذرهم عذاب الله العاجل والآجل، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر: ٢٣] و"النذر": مفردُه النذير وهو يطلق على المنذر، وهو أيضًا اسم للإنذار، ويَعرض عليهم بعدئذ عرضًا مشوبًا باللوم؛ لأنهم لم يتقوا ما خوَّفهم منه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٤١- ١٤٣] ثم ذكَّرهم بما أنزل الله ﷻ على عاد إذ أهلكهم بسبب كفرهم وطغيانهم، وذكرهم بأن الله قد جعلهم خلفاء لهم، ومكّن لهم في الأرض، يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا، ويعظهم بأن يذكروا نعمة الله وأن يشكروها، كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وأخيرًا نبههم وحذّرهم من أن الله لن يتركهم في ديارهم آمنين وهم يشركون به ويكفرون برسوله وبما جاءهم به عن ربه، بل لا بد أن تنزل بهم عقوبة إن هم أصروا على ما هم عليه من الشرك والفساد والإفساد في الأرض، فقال كما قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

ثم إنه طلبوا منه المعجزة الخارقة، وكانت معجزة عجيبة: أن يُخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها ناقة حددوا أوصافها، فما كان من صالح إلا أن دعا ربه فأخرج لهم آية الناقة التي طلبوها، وعندها حذرهم من أن يتعرضوا لها بسوء، فإذا فعلوا ذلك نزل بهم العذاب، وهذا قصّه الله ﷻ علينا بقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣] قال كما في آية

أخرى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٦، ١٥٧].

لكن أكثرهم لم يؤمنوا، على الرغم من أن الله استجاب لهم في آية الناقة فما كان منهم إلا أن ضاقوا ذرعًا بوجودها بينهم على وَفق الشروط التي وضعها الله ﷻ وبلّغهم إياها صالح # فاتفق كفارُهم على التخلص من الناقة ورضوا بأن يتولى أمر عقرها أشقاهم فعقرها؛ فأهلكهم الله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس: ١١- ١٥].

وفي آيات أخرى يقول تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧- ٧٩].

وإذا أردنا أن نتناول موقف قوم صالح من صالح وما وقع منهم من اعتراضات، بل ما وقع منهم من شتائم وتطير وما أتوا به من جدليات- فإن الوقت يطول، لكن علينا أن نستمع إلى ما سطره الله كتاب الله ﷻ حين قالوا له: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢].

هؤلاء القوم يعتبرون أن دعوة صالح لهم بترك عبادة الأوثان دليل على عدم رجاحة عقله، ولكنه رد على زعمهم هذا ورد على افترائهم هذا بلطف ولين، فبيّن منهجه في الدعوة إلى الله ﷻ وقالوا له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] يقول ابن كثير: أي من المسحورين؛ يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى

إفراد الله ﷻ بالعبادة وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. وهذا القول عليه الجمهور وهو أن المراد بـ﴿ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ : المسحورين.

ثم تعجبوا أن يكون صالح مرسل من ربه -تبارك وتعالى- وهو بشر مثلهم فقالوا له: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٥٤] يعني: فكيف يُوحى إليك من دوننا، كما قالوا في آية أخرى: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥]، توعَّدهم القرآن بقول الله تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر: ٢٦] ولذلك سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية تدل على صدقه فقالوا: ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤] اقترحوا عليه أن يأتيهم بآية ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربه، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم من هذه الصخرة ناقة عُشراء، أشاروا إلى صخرة عندهم صفتها كذا وكذا، عند ذلك أخذ عليهم نبيُّ الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك العهد، فقام نبي الله صالح صلى ثم دعا الله -تبارك وتعالى- أن يجيبهم إلى سؤالهم، فتمخّضت تلك الصخرة وانفطرت عن ناقة عُشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، ثم جاء الشرط: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥] يعني ترِد ماءكم يومًا، ويومًا تردونه أنتم، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٦] فماذا كان؟ كان أن كذبوا وكفروا وعتوا وطغوا، حتى إنهم قتلوا هذه الناقة.

واختلف العلماء في وجه كون هذه الناقة آية على وجوه:

الوجه الأول: من العلماء من قال: إنها كانت آية بسبب خروجها بكمالها من الصخرة، فهذا إن صح فهو معجز من جهات:

أحدها: خروجها من الجبل.

والثانية: كونها لا من ذكر ولا أنثى.

والثالثة: كمال خلقها من غير تدرُّج، فهي ناقة كبيرة حامل.

الوجه الثاني: أنها إنما كانت آية لأجل أن لها شِرب يوم ولجميع ثمود شرب يوم، واستفاء ناقة شُرب أمة من الأمم هذا شأنٌ عجيب!.

والوجه الثالث: أن وجه الإعجاز فيها أنهم كانوا في يوم شُربها يحلبون منها القَدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شُربهم، وهذا شيء مُعجز أيضًا، فناقة تكفي أمة من الناس لبنًا، هذا شيء عجيب! وفي اليوم الذي لا ترِد فيه الماء لا تُحلب منها قطرة، وهذا شيء عجيب أيضًا!.

الوجه الرابع: أن يوم مجيئها إلى الماء كان جميع الحيوانات تمتنع من الورود على الماء، وفي يوم امتناعها كانت الحيوانات تأتي، والقرآن دل على أن هذه الناقة كانت معجزة، فأما ذكر أنها كانت معجزة من أي وجه من الوجوه فهذا غير مذكور والعلم حاصل بأنها كانت معجزة من كل وجه لا محالة.

ثانيًا: معالم من دعوة صالح #:

١. كان إهلاك ثمود بأنواع مختلفة من العذاب: منها الرجفة، ومنها الصيحة، ومنها الصاعقة، ومنها الطاغية، ونجى الله ﷻ صالحًا ومن آمن معه من العذاب الذي حاق بقومه المتكبرين المعاندين، فقال -جل من قائل-: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

فالمسلم يتذكر عِبَر الزمان الماضي؛ ليعتبر بما فيه من أحداث ويأخذ منها الدروس والعبر، ومن هنا فقد قال صالح لقومه حينما جاء يدعوهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

٢. أن الإنسان إذا كان في نعمة فليشكر الله ﷻ عليها، وشكره إنما يكون بالعمل الصالح بعد الإقرار لله ﷻ بالوحدانية؛ ذلك أن المعاصي تُزيل النعم والشكر هو قيدها كما قال -جل من قائل-: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد قال بعض الشعراء:

إذا كنت في نعمة فارعها ❖ فإن المعاصي تزيل النعم

وقد رأينا نبينا ﷺ يتحرز من المرور أو المكث في أماكن المعذَّبين أو الذين غضب الله عليهم، وقد رأينا نبينا الله ﷺ ينهاهم عن الدخول إلى مساكن الذين ظلموا والذين عُذبوا، ويقول: ((إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم))، والله ﷻ ذكر ذلك المعنى في كتابه محذِّرًا فقال -جل من قائل-: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

دعوة "إبراهيم" ﷺ

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول :	التعريف بإبراهيم # وقومه	٩٣
العنــصر الثــاني :	دعوة إبراهيم # لأبيه	٩٨
العنــصر الثــالــث :	دعوة إبراهيم # لقومه	١٠١
العنــصر الرابــع :	هجرة إبراهيم # ، وبعض معالم دعوته	١٠٨

التعريف بإبراهيم # وقومه

يذهب بعض المؤرخين إلى أن إبراهيم # ولد بغوطة دمشق في جبل يقال له: "قسيون". والصحيح ما أورده ابن كثير، عن ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة، أنه ولد في أرض الكلدانيين -يعنون: أرض بابل- كانت ولادته بعد أن بلغ والده من العمر خمسًا وسبعين سنة، وقد وُلد له إبراهيم وناحور وهاران، وولد لهاران لوط، وإبراهيم هو الأوسط، وهاران مات في بابل في حياة أبيه.

واختلف المؤرخون في اسم أبي إبراهيم: هل هو آزر، أم تارح؟ والصحيح أن اسمه آزر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

والنبي ﷺ يقول، كما في البخاري: ((يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة...)) إلى آخر الحديث. وهذا الذي صوبه ابن جرير -رحمه الله تعالى- في تفسيره، وقال ابن كثير: وهذا الذي قاله -أي: الطبري- محتمل، والله أعلم.

وقال ابن جرير الطبري: إن ولادة إبراهيم # كانت في عهد النمرود بن كنعان، وكان حاكمًا مستبدًّا جبارًا، كانت رعيته تتقلب في دياجير الجهل والضلالة، كما كانوا يعبدون الحجارة الصماء، والتماثيل البكماء، وقد استخف النمرود بقومه فنصب نفسه إلهًا لهم، ودعا الناس إلى عبادته فأطاعوه؛ لأن الأصنام الناطقة أفضل من الأصنام الجامدة، ومن جهة أخرى؛ فطاغوت بابل ينفع ويضر، ويستطيع أن يجعل الفقير غنيًّا، والعزيز ذليلًا؛ لأنه متحكم بأرزاق جزء مهم من سكان المعمورة.

عن ابن عباس وغيره: "كانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة؛ النمرود، وسليمان بن داود، وذو القرنين، وبختنصر؛ مؤمنان وكافران".

في هذه البيئة الفاسدة وُلد خليل الرحمن إبراهيم # . قال ابن كثير: كل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا، سوى إبراهيم الخليل وامرأته، وابن أخيه لوط -عليهم الصلاة والسلام- وكان أبوه آزر من ألد أعدائه، وكذلك كان أقرباؤه وأشقاؤه، وأترابه، وهذا يعني أنه كان غريبًا بين أهله وذويه، ولما شبَّ إبراهيم تزوج بامرأة تسمى سارة، وكانت عقيمًا لا تلد، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط -كما حكاه السهيلي- فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم.

وقد رزق الله إبراهيم الرشد والعقل السليم منذ بلغ، ولذلك لم يشارك أباه وقومه في ضلالهم وإفكهم، وكان يناقشهم في أصنامهم يُبين لهم أنها لا تضر ولا تنفع، لا تسمع ولا تبصر، ويتساءل معهم متعجبًا: كيف تكون هذه آلهة تُعبد؟! فلما بلغ أربعين سنة وصار قادرًا على المواجهة، متمكنًا من الدعوة والإرشاد، كلّفه الله بتبليغ الرسالة، ودعوة قومه إلى التوحيد، ونبذ الآلهة التي يعبدونها من دون الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١] وقال ﷻ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

دعا إبراهيم # الأقرب إليه والأهم للدعوة، ولذا نراه يدعو أباه، كما يدعو النمرود بن كنعان، كما دعا عامة الناس، وكان لكل من هؤلاء معه أحداث وأحاديث، أخذ إبراهيم # في تغيير وسائله في دعوة قومه، حتى وصل إلى تكسير أصنامهم قطعًا صغيرة، وترك الصنم الكبير بعد ما وضع المِعول في رأسه، وسأله قومه وحاكموه، وأصدروا حكمًا بتحريقه في النار، وأعدوا له عدة،

ولكن الله ﷻ أخزاهم بأن جعل النار عليه بردًا وسلامًا، ونجاه الله ﷻ من التحريق؛ وبعدها تيقن إبراهيم # عدم إيمان قومه؛ فهاجر إلى حيث أمره الله تعالى مصطحبًا زوجته سارة، وابن أخيه لوطًا، وأباه آزر، وسار بركبه حتى نزل بلاد الشام، وأقام بحران التابعة للكنعانيين.

ونزل قحط ببلاد الشام؛ فخرج إبراهيم منها ومعه سارة، وذهبوا إلى مصر؛ حاول ملك مصر الاعتداء على سارة لحسنها وجمالها، إلا أن الله حفظها منه، وجعله يهبها هاجر، ويروي البخاري بسنده عن أبي هريرة: ((أن إبراهيم # لما نزل بمصر، وكان فيها جبار من الجبابرة، قيل له: ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس؛ فأرسل إلى إبراهيم وسأله عنها، وقال: من هي؟ قال إبراهيم: هي أختي، وأتى إبراهيم سارة، وقال لها: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبريه أنك أختي؛ فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك؛ فدعت الله فأطلق، وتكرر منه ذلك، وفي الثالثة دعا بعض حجابه وقال له: إنك لم تأتني بإنسان وإنما أتيتني بشيطان وأخدمها هاجر، فأتت إبراهيم وهو قائم يصلي فأومأ بيده مَهْيَا؟ قالت: رد الله كيد الكافر في نحره)). قال أبو هريرة: "تلك أمكم يا بني ماء السماء".

عاد إبراهيم بزوجته وجاريتها هاجر إلى الشام، ونزل قريبًا من مكان بيت المقدس، وكانت سارة عقيمًا، ولذا وهبت جاريتها هاجر لإبراهيم لتلد له؛ فلما حَمَلت وولدت إسماعيل، تألمت سارة وغارت منها، وطلبت من إبراهيم أن يسكنها وولدها بعيدًا عنها؛ فأخذ إبراهيم هاجر وولدها إسماعيل، وتركهما في مكان صحراوي لا شيء فيه، حدده الله له، وهو المكان الذي وجدت فيه مكة بعد ذلك.

وقد عرف إبراهيم # بأبي الأنبياء ؛ لأن الله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب، إذ انحصر النور في ذريته، وانقسم إلى قسمين :

القسم الأول: ذهب إلى هاجر، فولدت ابنه إسماعيل - عليه وعلى نبينا السلام- ومنه تناسل العرب، ومن ولد إسماعيل جاء خاتم الرسل محمد ﷺ وقد كان نبينا أشبه الخلق بجده إبراهيم # يقول ﷺ : ((رأيت ليلة أسري بي أبي إبراهيم، وأنا أشبه ولده به))، وهذا في (صحيح البخاري).

القسم الثاني: ذهب إلى سارة ؛ فولدت إسحاق # ومن إسحاق ولد يعقوب # وهو إسرائيل وذريته هم بنو إسرائيل، ومنهم كان أنبياء بنو إسرائيل جميعًا، وهكذا انحصرت النبوة في ذرية إبراهيم # ونظرًا لفضله ادَّعى كل قوم جاءوا بعده أنهم على مِلته، وأنهم أولى الناس به.

يروَى عن ابن عباس أنه قال: "اجتمع عند النبي ﷺ وَفْد نصارى نجران وعدد من أحبار اليهود ؛ فتنازعوا في إبراهيم، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا، ونحن أولى الناس به، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا، ونحن أولى الناس به، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥] " وبذلك ينكر الله على اليهود والنصارى قولهم: إن إبراهيم منهم ولهم وعرفهم، أن رسولهم جاء بعده وأن كتابهم نزل بعده، فمن أين لهم أن يجعلوه منهم؟! بيّنَ لهم الحقيقة بوضوح ؛ فقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

إن إبراهيم # كان حنيفًا مسلمًا بريئًا من الشرك والشركاء، وأولى الناس به الذين اتبعوه في دينه وعلى إسلامه، أولهم محمد ﷺ والمؤمنون معه، قال -جل من قائل-: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨] واليهود يدعون ملكية فلسطين، وبيت المقدس بدعوى أنهم ورثوها عن إبراهيم # وهي مزاعم مردودة؛ فإبراهيم # جد للعرب كما هو جد للإسرائيليين، وقد نزل في الشام ضيفًا على العرب أصحاب هذه البلاد؛ فهم أولى به -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- وهم أولى بهذه الأرض.

وقد اختار الله ﷻ إبراهيم لبعض التكاليف؛ فقام بها وأتمها فظهرت جدارته، فأثنى الله ﷻ على إبراهيم # في كتابه كثيرًا كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١] وفي آية أخرى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥] وفي آية أخرى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩] وقال مثنيًا عليه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧] ثم إنه جعله أمةً من الناس قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

ونظرًا لأهمية الدور الذي قام به إبراهيم # فقد ذُكرت قصته في خمس وعشرين سورةً، وفي ثلاث وستين آيةً من القرآن الكريم، كما ارتبطت سيرته # بسيرة ابن أخيه لوط، وبسيرة ولديه إسماعيل وإسحاق -عليهما السلام- بل ارتبطت سيرته بسيرة كل مَن جاء بعده من الأنبياء؛ لأنهم من نسله وذريته، وكان مسك الختام سيد ولد آدم محمد -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

دعوة إبراهيم # لأبيه

كان آزر يعبد الأصنام؛ بل كان ينحتها ويبيعها، وشر الأمور أن يعتقد الإنسان عقيدة باطلة، ثم تكون هذه العقيدة هي مورد رزقه، وهي محط أمله وغاية سعيه، وبدهي أن يكون والد إبراهيم أول المدعوين؛ لأنه أقرب الناس إليه، وأولاهم بالهداية، وقد أمر الله تعالى المصطفى ﷺ أن يبدأ بعشيرته الأقربين، وكذا كان منهج أنبياء الله جميعًا في الدعوة.

والحديث عن دعوة إبراهيم # لأبيه ورد في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢] وفي الآيات التي وردت في سورة مريم صورة واضحة للمناظرة التي جرت بين إبراهيم وأبيه، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢].

لقد كان إبراهيم صادقًا مع قومه قبل النبوة، كما كان صادقًا أمينًا في تبليغ الرسالة، وفي استسلامه وانقياده لأمر ربه، ولهذا استهل خليل الرحمن حواره مع أبيه بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وهي من أقوى الروابط وأوثقها، ومن ناحية أخرى يحاول إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه، حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله، ويقيم عليه حجته وهو هادئ غير ثائر، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٢، ٤٣].

لم يبدأ إبراهيم حواره مع أبيه بالحديث عن غزارة علمه، وقوة حجته، وشدة ذكائه كما أنه لم يصف أباه بالجهل، ولو قال هذا وذاك؛ لكان صادقًا. وإنما قال: "يا أبت لقد خصني الله بفضل منه فاستمع لهذا الأمر الجديد، واستجب لدعوة الحق تكن من الفائزين في الدارين، وحذار يا أبت أن تستمر على ما أنت عليه؛ فتكن بذلك عبدًا للشيطان، ولن تجتمع عبادة الرحمن وعبادة الشيطان في قلب مؤمن"، ثم يختم إبراهيم حديثه مع أبيه بقوله: "يا أبت" أي: بالنداء اللطيف الرقيق الذي بدأ به ويبدأ في تخويفه من عذاب الله ﷻ في الدنيا والآخرة: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥].

فما كان من أبيه إلا أن أنكر على ابنه أن يرغب عن آلهة قومه، ولم يقل له في حواره: يا ولدي، وإنما ناداه باسمه "إبراهيم"، ثم أخذ يهدده: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٦] فماذا كان من إبراهيم؟ ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ ﴾ [مريم: ٤٧] والجمهور على أن المراد بسلامه هنا المسالمة التي هي المتاركة لا التحية، قال الطبري: معناه أمنة مني لك.

وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق ومن ذلك قول الله: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] وقال في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وهذا مصداق قول الله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾ [لقمان: ١٥] وعندها اعتزل إبراهيم أباه وقومه، كما اعتزل ما يدعون من دون الله من أصنام وأوثان: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا

يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨- ٥٠].

في حوار إبراهيم السابق عِبَرٌ كثيرة؛ منها: أن بعض الناس -ممن ينتحلون الدعوة- يتحدثون عن أنفسهم وذواتهم أكثر مما يتحدثون عن دعوتهم، وفي مناظرتهم للآخرين يتعالون عليهم، لا يتركون لهم مجالًا لعرض مشكلاتهم، ويغضبون لأنفسهم، ويستولي الحقد على قلوبهم؛ فعلى هؤلاء أن يتأسوا بإبراهيم # في صدقه وأدبه وتواضعه وتجرده واحترامه للآخرين، وعدم انتصاره لنفسه.

وقلب آزر هذا كان كالصخر لا يلين، وإن من الحجارة لما يلين، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن من الحجارة لما يهبط من خشية الله؛ لكن آزر كان شيئًا مختلفًا، كان جادًّا فيما يؤمن ويعتقد، وكانت الأصنام والأوثان أحبَّ إليه من نفسه، ولم يكن مجرد صانع لها، بل كان أكثر من ذلك كان عابدًا محبًّا مؤمنًا، معتقدًا في هذه الأصنام، وإبراهيم # كان كذلك جادًّا فيما يؤمن به ويعتقد، وعندما أصرّ أبوه على شركه اعتزله بل ناصبه العداوة، رغم ما كان يتحلى به من حلم وعطف.

ومن المؤسف أن بعض الدعاة، يخلطون مصالحهم بالدعوة، يتوددون إلى أصحاب السلطان حتى يصلوا إلى بعض مصالحهم، والقرآن الكريم ينادي على هؤلاء قائلًا: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ولا تنتصر دعوة إلا إذا كان حاملها من المتأسين بإبراهيم، وداعيها من المتأسين بمحمد ﷺ.

لما وصل الحال بإبراهيم # إلى ما وصل من دعوة أبيه سطر القرآن الكريم ما بقي من هذه القصة؛ فقال -جل من قائل-: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

دعـــوة إبـــراهيم # لقومـــه

إن أكبر مشكلة واجهت إبراهيم # في دعوته لقومه هو التقليد والتعصب الشديد لعقيدة الآباء والأجداد، كان الإصرار على عدم التغيير والتجديد منطلق هؤلاء القوم؛ فعندما كان إبراهيم يحاول إقناع أبيه آزر ويسوق له الحجج الدامغة، والأدلة المفحمة كان الوالد المشرك قد عطل عقله، وأنكر على ابنه مخالفته لعقيدة الآباء والأجداد قائلًا: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [مريم: ٤٦] وكان رد قوم إبراهيم عن نبيهم لا يختلف عن رد أبيه قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٠- ٧٤] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥١- ٥٤].

وهذا هو نهج أعداء جميع رسل الله، وكانت تكأتهم في صد الناس عن الحق أن يزعموا أنهم وكلاء شرعيون لعقيدة الآباء والأجداد، وباسم هذه العقيدة يظلمون الناس، ويُفسدون في الأرض، ويُهلكون الحرث والنسل، وجمهور الناس اعتادوا هذه الحياة وألفوها، اعتادوا أن يكونوا كالأنعام؛ يقول أحد المفسرين: ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين، حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفروا لها

جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم.

وحسبنا في الرد على المقلدين، قول أهل النار: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠، ١١] وعبّاد الأصنام المقلدون كانوا يخوفون خليل الرحمن أن يصيبه سوء من آلهتهم، ولا غرابةَ في ذلك؛ فمن فَرْطِ سخفهم أنهم يظنون أنها تنفع، أو أنها تضر، قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

نحن اليوم نواجه ما كان يواجه إبراهيم # لأن كثيرًا من الناس لا يفكرون إلا بعقول قادتهم، لا يرون إلا ما يرونه دون نظر أو اهتمام بالدليل، وما زلنا نسمع قصصًا كثيرة يقول أصحابها: تكلم فلان في القطب الفلاني، أو في الولي الفلاني، أي: ناله بسوء، ثم إن هذا القطب جاءه في المنام؛ فضربه ضربًا شديدًا ما زالت آثاره باقيةً في جسده، بل وإذا طلبت اليمين من عباد القبور قد يحلفون بالله كاذبين؛ لكنهم لا يقبلون ولا يجرءون أن يحلفوا بأوليائهم الأموات كاذبين!!

كيف واجه إبراهيم # مشكلة التقليد والتعصب لعبادة الآباء والأجداد مع قومه؟

مكَث خليل الرحمن سنوات طويلة يدعو قومه إلى وحدانية الله، وعدم الإشراك به، جاء هذا في آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ قد ذكرنا الكثيرَ منها، ثم إن إبراهيم استطاع بما آتاه الله من حكمة أن يَحُجّ قومه بطريق الاستدراج، وأن يُقيم عليهم الحجج مرة بعد مرة؛ فيبدأ إبراهيم # بعرض أصول دعوته، وإظهار المطلوب منهم بإيجاز حين يقول لهم: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

إذن يحدد قضيته معهم في كلمات قصيرة، ويُبين لهم أنه من الخير لهم في حياتهم، وفي مستقبلهم أن يؤمنوا بالتوحيد، وأن يجردوا الله ﷻ من كل ما عبد من دونه، ثم ينتقل إلى استثارة عقولهم، وإيقاظ الجانب المعرفي لديهم، وذلك بالسؤال الذي يجعلهم يفكرون في إجابته ولو لأنفسهم، يقول لهم تارة: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]؟ وأخرى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]؟ وثالثة: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]؟ إن هذا السؤال يبحث عن معرفة حقيقة الآلهة، وقدرتها ومدى صلاحيتها؛ فلا يجدون من إجابة حتى إنهم يقولوا: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] فينتقل بهم إلى أسئلة أخرى يكشف فيها عجز الأصنام والأوثان، حتى يبعدهم عن تألهها وعبادتها؛ فيقول لهم: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]. ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣] ويقول: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٦] هذه الأسئلة تشير للإجابة البدهية التي تؤكد هوان معبوداتهم وضلال معتقداتهم، وتبين خطأهم؛ لأن ما يصنعه الإنسان بيده لا يمكن بحال أن يكون إلهًا، ولهذا فإبراهيم يقيم عليهم الحجة قوية ظاهرة جلية، هذه أصنام لا تنفع ولا تضر، جماد لا تتحرك، صماء لا تعقل، عاجزة عن فعل أي شيء ولو كان ضئيلًا؛ لكنهم يحاولون صرف إبراهيم عن قضيته، وصرفه عن رسالته، فيقولون له: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

المقلدون في مقالتهم هذه يتصورون إبراهيم # لاهيًا أو عابثًا يلعب معهم بمقالته لهم، وليس هو كذلك أبدًا، ثم إنه # ينتقل نقلة أخرى يوضح فيها أن أصنامهم لا تملك أي صفة من صفات الإلهية.

قال تعالى على لسانه # : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] يبين لهم أن هذه المصنوعات التي صنعوها ثم اتخذوها آلهة هي مجرد اختراعات وأكاذيب، لا تملك عطاءً، ولا تقدر عليه، وهي في وجودها تحتاج إلى غيرها؛ فكيف تُعبد إذًا؟! كيف؟! إن الخالق الموجد لكل موجود هو رب العالمين جل في علاه ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وهو صاحب الفضل والإنعام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠] وهكذا يستمر إبراهيم # فيقول لهم: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] وهو سبحانه إليه المرجع وإليه المآب؛ فهو سبحانه الذي يُطمع في نواله ويُرجى ثوابه، ولهذا قال: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨١- ٨٥].

ثم لجأ إبراهيم # إلى إثبات عجز الأصنام عمليًّا، عسى أن يكون العمل أجدَى من مجرد الكلام لو كانوا يعقلون، وخطط لما أراد بقول الله تعالى عن خطة إبراهيم تلك: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١- ٩٣] وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧، ٥٨] الآيات توضح ما فعله إبراهيم # أقسم للناس وأكد لهم أنه سيكيد الأصنام؛ فلما رجعوا إلى بيوتهم ذهب إبراهيم إلى

بيت أصنامهم، وجد عندها طعامًا تركه القوم للآلهة لتأكل منه، ولتباركه فقربه إليهم مستهزءًا ساخرًا، وهو يناديهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ ثم أحضر فأسًا كسَّر بها الأصنام، وقطعها جذاذًا إلا كبيرهم، فقد تركه وعلق الفأس برقبته؛ ليؤكد لهم عمليًّا فساد عقيدتهم، وهوان آلهتهم، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تعقل ولا تنطق ولا تدفع عن نفسها شيئًا.

فوجئ الناس بتكسير الآلهة وعظم هذا الفعل على هؤلاء الجبابرة، فعزموا أن ينتقموا لأصنامهم من الجاني الذي أهان دينهم، وكسر أصنامهم، ووضعهم في حال ضعف وضياع، وبدل أن يراجعوا أنفسهم ويتركوا عبادة الأصنام؛ لأنها لو كانت آلهة حقيقية لحفظت نفسها، ولهزمت هذا المعتدي، ولأخبرتهم لهذا الذي بيت لها ولهم، بدل هذه المراجعة- أخذتهم العزة بالإثم، واجتهدوا في كشف الفاعل ومعاقبته، فوقعت المحاكمة لإبراهيم # وكان ذلك بواسطة هؤلاء الضُلال، سألوا الناس عن فاعل هذه الجريمة؛ فوصلوا إلى أن هذا الذي فعل هو إبراهيم، فأحضروه أمامهم، لينال العقوبة على رءوس الأشهاد، وحتى يكون عبرة للجميع؛ فبدأت المحاكمة التي أخبر عنها ربنا في كتابه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فأجاب ﷺ وهو يشير للأصنام قائلًا: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

فحير الملأ وعجزوا عن الرد، وفقدوا الجواب أمام الجماهير المحتشدة، تداولوا في الأمر اعترفوا بهوان الأصنام؛ لكن إبليس دفعهم إلى عزة آثمة، وقوى فيهم الضلال والهوى؛ فردوا على إبراهيم بإجابة تؤكد ما ينادي به، وتعترف بدليله، ومع ذلك لم يؤمنوا، قال تعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤،

٦٥] وجد إبراهيم نفسه في موقف مواتٍ وفي فرصة مناسبة، والملأ يعترف بأن الأصنام لا تنطق، وهي لا تسمع، وبالتالي فهي لا تنفع ولا تضر، هنا أخذ إبراهيم # يعلن خطأهم، ويعلي دعوة الحق أمامهم، قال ﷺ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

لقد سقط منطقهم، وأسقط في أيديهم، ولم يتمكنوا من المواجهة، ولم يستطيعوا المقارعة، وفشلت حجتهم شأن كل ظالم جبار، فماذا كان رد فعلهم؟ قالوا كما حكى الله عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] اختاروا القتل بالتحريق ليساهم الجميع في القتل، ولأنه أكثر إيلامًا من القتل بوسائل أخرى، وحتى يكون مشاهدًا للقاصي والداني، وجندوا الرأي العام بمختلف وسائلهم، بنوا بناءً ضخمًا، جمعوا الحطب صبوا عليه الزيت، أشعلوا النار أحضروا المنجنيق، قذفوا إبراهيم بعد أن قيدوه وربطوه، وهكذا أحكموا الكيد والتدبير، والله غالب على أمره، رد كيدهم إلى نحورهم، وكشف عوارهم، قال جل من قائل: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

والنار مخلوقة مستجيبة لأمر خالقها، فكانت سلامًا على إبراهيم، لم تحرق منه إلا القيد الذي قيد به، ورأى الناسَ مكان النار، وقد اخضر زرعه، وإبراهيم يتنزه ويتنعم وسط النار، ونجّى الله ﷻ إبراهيم من كيد أعدائه، ومع ذلك بقي الناس على ضلالهم وكفرهم؛ لأن إبراهيم # لم يطلب من الله استئصالهم، ولأن حكمة الله قضت باستمرارية العمران والبشرية في الأرض، تمهيدًا لمجيء الرسالة الخاتمة التي تتجه إلى الناس في كل زمان ومكان، يحملها إلى الخلق محمد ﷺ وأتباعه من بعده إلى يوم القيامة.

لم يُغادر إبراهيم # قومه حتى حاورهم حاور جموعهم وأعيانهم، وكبراءهم بل وحاور نمروذهم كما سطر ذلك القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أن إبراهيم # يناقش النمرود فيصف ربه، ويجلي شأنه، فيقول: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ إبراهيم يقول: إنه لا يصح أن تعبد أيها النمرود؛ لأنك لا تملك جلب نفع ولا دفع ضر، لا تستطيع إحياء ولا إماتة؛ فيأتي جواب المكابر المعاند: أنا سيد الناس أحيي من أحكم عليه بالإعدام؛ فأعفو عنه، وأميت مَن شئت إماتته حين آمر بقتله، وهذا دليل على غبائه فإبراهيم # يتحدث عن الإنشاء والتكوين، لا في اتخاذ الأسباب في الشيء الذي قد كون، وعندها أقام إبراهيم # حجته ظاهرة بينة مشرقة، تحدى النمرود في قضية الخلق نفسها، ولكن كان التحدي في الشمس وليس في الإنسان، والجواب على الأمر الثاني يوضح الأمر الأول، فإن إبراهيم قال له: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾.

إن كان لك ذرة في ملك الله ﷻ إن كان لك قدرة على شيء من ملك الله ﷻ فأتِ بالشمس من المغرب؛ فإن الله ﷻ قد جرت سنته في خلقه أن يأتي بالشمس من المشرق، عندها بُهت النمرود؛ لأنه لا يأتي بالشمس من المغرب، ولا يمكن أن يُغير في خلق الله ﷻ أدركته الحيرة، ودهش من قوة حجة إبراهيم، وسكت كبرياؤه؛ لأنه لا يستطيع ردًّا، ولم يرغب عندئذ في الحق: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

هجرة إبراهيم # ، وبعض معالم دعوته

أيقن إبراهيم # أن جذور الشرك عميقة في قلوب قومه وعقولهم، أقام عليهم الحجج الدامغة، ورأوا معجزات تبهر العقول؛ فما زادهم ذلك إلا إصرارًا على الباطل وإعراضًا عن الحق؛ فلم يعد ينفع فيهم النصح أو الوعظ، فصار إبراهيم كمن يحرث في البحر أو من يزرع في أرض جرداء قاحلة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وصار يعيش بين قوم يستعجلون عذاب الله، ويزهدون برسله وأوليائه؛ فجاءه الأمر الإلهي بالهجرة ومن معه إلى الأرض المباركة كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠ - ٧٤] وقال جل وعلا: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦] هاجر خليل الرحمن كما هاجر نوح قبله، وكما هاجر محمد ﷺ بعده.

فقد أخرج البخاري في صحيحه، عن عائشة > : ((أن ورقة بن نوفل قال لرسول الله ﷺ: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أَوَمخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)).

تخلى إبراهيم # عن وطنه، وعن رفاق صباه، كما تخلى عن أقرب الناس إليه من أهله وقومه، وخرج # مع زوجه سارة ومع ابن أخيه لوط، خرج هذا

الركب المؤمن ليلقوا عصى التسيار في حران من أعمال بلاد الشام، وكان أهلها يعبدون الكواكب من دون الله جلت أسماؤه وصفاته، دعاهم إبراهيم إلى توحيد الله وعدم الإشراك به؛ فلم يستجيبوا أيضًا، وبعد أن مكث في حران ما شاء الله أن يمكث، ارتحل منها إلى أرض التيمن -أي: أرض بيت المقدس وما والاها- ثم ارتحل من أرض التيمن إلى مصر، وفيها جرت قصة سارة مع ملكها، وقد سبق ذكرها.

والقصة محنةٌ من محن إبراهيم المتتالية، وأشد الناس ابتلاءً الأنبياء، وأشد الأنبياء ابتلاءً أولو العزم من الرسل، وإبراهيم # هو من أولي العزم من الرسل، ونزل لوط من أرض التيمن، ثم نزح عنها إلى الغور بأمر من إبراهيم، وبقيت الأرض الواسعة الخصبة، والأنعام التي لا تُحصى، والمال والعبيد لخليل الرحمن وحده، ورزقه الله ذرية صالحة، فما من نبي بعث من بعد إبراهيم إلا كان من ذريته، وما من كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء بعده إلا نزل على أحد نسله وعقبه.

نِعم الله تعالى التي أنعمها الله على إبراهيم، تذكرنا بهجرة المسلمين إلى الحبشة، وما لاقوه عند النجاشي من إكرام وحرية وأمن. فما أشد حاجة الغرباء من الدعاة اليوم إلى فهم قصة إبراهيم # وإلى التأسي به في هجرته وغربته عن وطنه وأهله؛ لقد كانت الدعوة إلى الله في غربته أهم قضية عنده؛ فلم يتعلق قلبه بحب المال والأنعام التي مَنَّ الله بها عليه، ولم يشغل نفسه بكتابة الرسائل والقصائد التي تعبر عن حبه لوطنه وحنينه إليه.

ويجب أن تبقى العقيدة عند الدعاة الغرباء عن أوطانهم، أهم من التراب والطين، وأغلى من الأهل والعشيرة والقوم، وأن تكون ثقتهم بالله أقوى من أن

تزعزعها الأهواء والمحن، وما يغلق بوجوههم هنا قد يفتح هناك قال تعالى:
﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠].

أما النمرود وقومه المشركون؛ فلقد أهلكهم الله تعالى جلت قدرته، سواء كان هلاكهم عن طريق البعوض الذي أكل لحومَهم ودماءَهم، وتركهم عظامًا باديةً، كما روى ابن كثير عن زيد بن أسلم، أم كان عن طريق آخر، إنما جعلهم الله ﷻ عبرةً للمعتبرين، ونحن لا نعرف لهم نسلًا أو فضلًا، وإنما كُلُّ الذي نعرفه عنهم أنهم أعلامٌ في حزبِ الشيطان، وأئمةُ ضلالَةٍ، ورموزُ شر وغواية، والعياذ بالله تعالى.

معالم ودروس من دعوة إبراهيم # :

بين أيدينا دروس كثيرة في قصة إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- من ذلك:

المعلم الأول: أن هذا الطريق طريق الدعوة إلى الله، طريق محفوف بالأشواك، ممتلئ بالعقبات والمعوقات، نبي الله إبراهيم يُحاكم وهو مظلوم، ويصلَى النار وهو مقيد مكتوم، نبي الله إبراهيم أبو الأنبياء يتعرض لمحاكمة ظالمة، تستبيح دمه، وتقضي على حياته في محاولة آثمة لم يمكنهم الله ﷻ من نبيه إبراهيم، ومن الأنبياء من قُتل ذبحًا -والعياذ بالله- على أيدي الآثمين المجرمين، ومن الأنبياء من ناله الأذى الشديد والبلاء العظيم.

وفي هذا أسوة لكل داعية يدعو إلى عقيدة التوحيد، وينالـه في طريقه شيء من البلاء، أو شيء من اللأواء، وفي كل عصر، وفي كل مصر، صور ظاهرة للعيان؛ فمن أراد أن يعتبر فليعتبر بإبراهيم # وهو يُعرض للتقتيل وللتحريق، وهو يُعرض للكيد والتآمر، وهو يتعرض للظلم والبطش، هكذا يجب أن يأخذ الدعاة أسوة وقدوة من قصة إبراهيم # والله ﷻ يدافع عن

أنبيائه ورسله، ويدافع عن أوليائه وأصفيائه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

المعلم الثاني: إن لهذه الدعوة أهدافًا نبيلةً، ولها غاية نفيسة، وهي دعوة الله ﷻ سواء في عهد إبراهيم # أو في عهد محمد ﷺ أو في العهود التي تلت عهد نبينا ﷺ يترجم ذلك ربعي بن عامر > حين قال لرستم: "الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومِن ضِيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام". هكذا.

وهذا شيخ الإسلام وقدوة الأنام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني -رحمه الله- يقول: ما يصنع أعدائي بي؛ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول: المحبوس من حبَسَ قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه، ولما أدخل ووصل إلى قلعة وسار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ومع ما كان فيه من الشدة والتضييق والحبس؛ فهذا ابن القيم -رحمه الله- يحكي طيب عيشه فيقول: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه؛ فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، فينقلب انشراحًا وقوة، ويقينًا وطمأنينة.

من أجل هذا انتصر إبراهيم # كما انتصر خاتم الأنبياء ﷺ وانتصر أصحابه، والتابعون ومَن جاء بعدهم من رجال خير القرون، هذه العقيدة القوية، هذه

الغاية النبيلة، هذا الثبات النفسي، كل هذا إذا اجتمع فإن هذا الداعية لا يمكن أن تهزمه قوة مهما تكن، ولن تهزم أمة يقودها علماء دعاة، يعتقدون بأن السجن خلوة، والنفي سياحة، والموت شهادة، ولما فقدت أمتنا هذه النماذج من الدعاة سلَّط الله علينا أعداءنا، وصرنا هدفًا لشذاذ الآفاق، وحثالة الأمم: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

المعلم الثالث: درس الولاء والبراء من قصة إبراهيم # : ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤] هكذا يعلنها إبراهيم خليل الرحمن، يعلن العداوة والبغضاء لأبيه وقومه، براءة منه ومما يعبدون من دون الله، وهذا هو الذي ينبغي أن يُعلم عندما تقوم الدعوة بواجبها؛ فلا تجدي نفعًا، ومن الدروس أيضًا ما رأيناه من قوة جنان إبراهيم، وما شهدناه من جرأته؛ فامتازت سيرته بكثرة مناظراته، مع أبيه وقومه، والنمروذ حتى مع عبدة الكواكب الذين عبدوها.

أقام إبراهيم عليهم الحجة: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ تارة ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ تارة ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ هذه مواهب الله ﷻ لنبيه ورسوله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - فيها الدرس وفيها العبرة، وفيها المعالم الظاهرة في دعوة نبي الله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -.

بهذا نكون قد أتينا على أهم المعالم والدروس في قصة إبراهيم ﷺ، لننتقل بعد ذلك إلى عدد من رسل الله ﷻ من نسل أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ.

دعوة "لوط" و"شعيب" و"إسماعيل" عليهم الصلاة والسلام

عناصر الدرس

العنصر الأول : دعوة لوط # ١١٥
العنصر الثاني : دعوة شُعيب # ١٢١
العنصر الثالث : دعوة إسماعيل # ١٣٠

دعـــوة لـــوط

تقدم أن لوطًا # كان قريبًا لنبي الله إبراهيم ؛ فهو ابن أخيه نشأ معه في بابل، واستمع له وصدقه، وآمن به، يقول الإمام النووي -رحمه الله- عن وهب بن المنبه: "إن لوطًا # خرج من أرض بابل في العراق، مع عمه إبراهيم تابعًا له على دينه، مهاجرًا معه إلى الشام، ثم مضوا إلى مصر، ثم عادوا إلى الشام؛ فنزل إبراهيم فلسطين، ونزل لوط الأردن، واستقر لوط # بمدينة سَدوم؛ فعاش بين أهلها، وتكلم بلسانهم، واتخذ من بلدهم سكنًا له، وموطنًا عبد قوم لوط عدد من الآلهة ألا أنهم استغرقوا -والعياذ بالله- في إشباع شهوة محرمه، وملذة اخترعوها في الإشباع الجنسي، لم يعرفها أحد قبلهم.

كان أهل هذه القرية ذوي أخلاق فاسدة، ونوايا سيئة، لا يتعففون عن معصية، ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة، يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل مَن صار؛ فيجتمعون عليه من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، يسلبونه ما حمل، ثم يتركونه يندب حظه، ويبكي ضياع ماله، لا يردهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حياء، لا يرعوون لوعظِ واعظٍ، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

كانت نفوسهم الظامئة إلى الإثم لا ترويها تلك الذنوب، وأفئدتهم المتعطشة إلى الإجرام لا تكفيها تلك القبائح؛ فابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إلى اجترامها، وتعاطوا محرمًا ما كان يدور بخلد أحد اقترافه، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، ويذرون ما خلق الله من النساء؛ فلا يقربونهن، أعطى الله تعالى هؤلاء القوم نعمًا وآلاءً كثيرةً؛ فوضعوها في غير موضعها؛ حتى وصفهم الله ﷻ ووصف

حال نبيهم ؛ فقال : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤] أرسل الله ﷻ نبي الله لوط إلى هؤلاء القوم من بلاد الأردن ؛ فبدأ لوط دعوته ، كما بدأ غيره من أنبياء الله ، يستنكر استهتارهم ، ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى ، يدعوهم إلى التوحيد ، والإيمان ، والطاعة ويطمئنهم إلى أنه لِمَا يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى.

ثم واجههم بعد ذلك باستنكار شذوذهم ، الذي عرفوا به في التاريخ ؛ فقال الله تعالى على لسانه : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥] وفي موضع آخر قال لهم : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٤] وزادهم في موضع ثالث كما حكى ربنا -تبارك وتعالى- فقال : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

هكذا يواجههم لوط # بدعوته وكان # يدعوهم بكل ما أوتي من قوة ، والله -تبارك وتعالى- مدح لوطًا ، وبَيّن منزلته العالية ، وقدره السامي ، فقال تعالى : ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٥] وقال في موضع آخر : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤] إلى أن هؤلاء القوم لم يؤمنوا بلوط ، واستمروا على عِصيانهم وطُغيانهم ، وكان للوط ابنتان من زوجته ، آمنتا بدعوته ، واتبعتاه في الطاعة لله ، والانقياد لرب العالمين ، أما زوجه فلم تؤمن بدعوته ؛ كانت مع قومها تنقل لهم أخباره # وتعرفهم بمن ينزل عليه من

الضيوف ؛ ليتمكنوا منهم ويشبعوا غريزتهم المنحرفة، وشهوتهم المحرمة، ولذا كانت مع الهالكين.

لوط # يبدأ دعوته فيقول: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكيف تكون إجابتهم؟ وبأي شيء يقابلون دعوته؟ قال: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] تأمل يدعوهم إلى الله ﷻ ويأخذ بيدهم إلى الهدى، ويطلب لهم العفة والطهارة، ثم يهددونه بالإخراج، ليس هو فحسب، بل وآله معه، وفي هذا يقول ربنا ﷻ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فصار الطهر رزيلة، وصار الطهر جريمة تستوجب الإخراج، وتستوجب التنكيل، استمر لوط # في دعوة قومه أخذ يوضح ضلالهم وفساد ما هم عليه، وبيّن لهم أن ما أتوا من المنكر العظيم لم يسبقوا إليه، وأنكر عليهم هذا العدوان، حيث قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] وقال في موضع آخر: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] ولكن بما أجاب القوم مرة أخرى؟ قالوا له: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ثم حكَى القرآن الكريم قصةَ ضيف لوط # أراد الله تعالى ابتلاء قوم لوط قبل إهلاكهم، فأرسل إلى لوط # عدد من الملائكة في صورة رجال حِسان، أتوه سائرين على أقدامهم، بعد أن مرّوا على إبراهيم ﷺ فبشروه وزوجه ؛ صار بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، لما رأى لوط ضيوفه خاف عليهم، وتألم لعجزه عن صد قومه عنهم، أسرعت زوجته إلى الناس تخبرهم بمجيء ضيوف لوط،

تصف لهم محاسنهم وجمالهم؛ فجاءه الرجال مسرعين وعرض عليهم # أن يتزوجوا بناته بطريقة شرعية قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ [هود: ٧٨].

ردوا عليه بكل استهتار وتكبر، كما قال الله تعالى: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩] عندها قال لوط # : ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود: ٨٠] وكان لوط # يأوي بالفعل إلى الركن الشديد، يأوي إلى الله -تبارك وتعالى- يستسلم له، ويعتمد عليه، وعندئذٍ أعلنت الملائكة عن هويتها، وكشف له عن حقيقتها؛ فقالت كما قال ربنا: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود: ٨١].

استعجل قوم لوط العذاب، وما علموا أن العذاب صار منهم قريبًا، ولهذا صار لوط # ومَن آمَن معه في جزء من الليل، وعند الصبح جاء قوم لوط الصيحة، ورفع الله القرية فجعل عاليها سافلها، ورماهم بحجارة من سجيل؛ فأهلكهم جميعًا كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾ [هود: ٨٢] أنزل الله حجارة معلمة على كل حجر اسم هذا الاسم هو اسم من سيقتله ذلك الحجر، وكانت العقوبة مساوية لجرمهم في صيغتها وشدتها، ذلك أنهم غيروا الفطرة، وقلبوا الحقائق، وعبدوا غير الله، وأتوا الذكران، وتجاهروا وتفاخروا بالفسق؛ فكانت العقوبة أن تنقلب القرية عليهم، وأن يهلكوا وهم جلوس بواسطة أحجار صغيرة، تلقى على رءوسهم، وهي السجيل المنضود؛ ليبقوا عبرة لغيرهم. وما تزال قريتهم

"سدوم" باقية حيث كانت عند البحر الميت ؛ لتكون عبرة وآية ، ومعتبر للمعتبرين ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٥].

من دروس الدعوة في هذه القصة المباركة :

الدرس الأول : أن العَلاقة بين الدعاة يجب أن تكون وثيقة ، متينة ، فَلُوط عاش في تلك القرى التي كانت شرقي النهر ، وإبراهيم # نزل في تلك البقعة غربي النهر ؛ فكانت المسافة بينهم قريبة ، حتى إن الملائكة قطعتها مشيًا فلوط وإبراهيم -عليهما السلام- بُعِثَا في وقتٍ واحد ، وكان إبراهيم يتتبع أخبار لوط ، ويتمنى له النجاح والنصر ، ولذا حين جاءته الملائكة ؛ لتخبره بإهلاك قوم لوط ، خاف على لوط نبه الملائكة إلى وجود لوط في القرية فطمأنوه ، وقالوا له ما حكاه ربنا في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٣]. هذا يعطينا ما يجب أن يكون عليه الدعاة من تواصل ، وتناصر ، وموالاة بحيث يستفيد كل داعية بما عند أخيه من تجربة وعلم وخبره ، ولا يصح بحالٍ أن يكون التنافس سببًا للتعارض أو التضارب ، أو التهارج بين جميع الدعاة.

الدرس الثاني : منطق أعداء الحق : إن منطق أعداء الحق في كل زمان ، ومكان منطق منكوس معكوس منطق لا يقوم ولا يستند إلى حجة ولا إلى برهان ، يأتيهم لوط متطهرًا يأمرهم بالتطهر والطهارة ، فما يكون من جوابهم إلى أن قالوا : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] أعداء الدعوة يتهمون لوطًا بأنه ملازم للطهر والعفة ، وأنه يدعو إلى التمسك بهما ، وتلك جريمة منكرة ، دعوة لوط إلى التوحيد ، وعبادة الله يعدونها دعوة إلى الفساد والفرقة.

اتصال لوط بالناس، وتحريضه إياهم على نبذ الأصنام، وترك المنكرات يعد إساءة للنظام، هذا منطق أعداء الدعوة في كل زمان ومكان؛ يلبّسون الحق بالباطل، ويلبسون الباطل ثوب الحق، ويعتمدون على السلطان والقوة والبطش، وما دروا أن الله تعالى بالغ أمره، وأن الله تعالى غالب على أمره، وأنه ﷻ على كل شيء قدير، هذا يُعلم الدعاة أن يتمسكوا بقضيتهم، وأن يدعو إليها، وأن يثبتوا على أمرها، وأن يواجهوا كل سفاهة بصبر وعزيمة، وألا تتضعضع لهم قناة، ولا تلين لهم قناة في الحق الذي جاءوا به؛ ليؤدوه إلى الناس، كما أده أنبياء الله تعالى ورسله ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٨، ١٦٩].

ومن الركائز المهمة في قصة لوط: أن الداعية إلى الله ﷻ عليه أن يركز على أصول الأمراض، الموجودة في مجتمعه، وأن يعنى بعلاجها، وبيان كيفية السبيل الصحيح للتخلص منها، ونحن نرى أن هنا ارتباطًا وثيقًا بين الشذوذ الخلقي، وبين الانحراف الديني؛ فحيث وجد الشذوذ، وجد الانحراف الديني، والعكس بالعكس تمامًا في كل زمان ومكان، ولا بد من التنبه إلى خطورة تلك الفاحشة التي ابتلي بها هؤلاء القوم.

يقول ابن عباس في الحديث الصحيح: ((لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا))، وقال أيضًا: "إن اللوطي إذا مات من غير توبة؛ فإنه يمسخ قبره خنزيرًا". والنبي ﷺ يقول كما عند الترمذي، وصححه غير واحد: ((لا ينظر الله ﷻ إلى رجل أتى رجلًا أو امرأة في دبرها))، وثبت عنه ﷺ أنه قال: ((لعَن الله من عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط)). ومع خطورة جريمة الزنا إلا أن النبي ﷺ لما يجمع ثلاثة لعنات على فاعله ومرتكبه، نظرًا لفساد هذه الجريمة الشنيعة جريمة اللواط.

ومن الركائز أيضًا: ضرورة استعلاء المؤمن بما هداه الله إليه، مع التيقن بأن الحق كله معه، يستمسك به؛ ليدوم مع الصواب والخير، قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤] إن أبراز الأخطار، والأمراض الاجتماعية وإظهار ذلك أمام الناس؛ ليبتعدوا عنها مسلك من مسالك أنبياء الله ﷻ فإن قوم لوط لم يتمكنوا من جريمتهم، إلا بعد أن زينها الشيطان لهم، ولذلك ورثوها لأبنائهم، وكانوا يتسابقون إليها حبًّا واعتزازًا، وكذا حين ترتكس الفطرة وتنتكس، ترى الحق باطلًا والمعروفَ منكرًا.

دعـــــــوة شـــــــعيب

وما يزال موكب رسل الله ﷻ يتواصل؛ ليبقى الخير في الأرض، وليستمر الحق بين الناس، ويبدو أن دعوة شعيب # كانت بعد دعوة لوط بمدة وجيزة؛ لأن الله ﷻ قال في سياق ما يقصه شعيب على قومه، قال: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩].

شعيب # نبي عربي بعثه الله ﷻ لقومه من العرب العاربة، وتميز شعيب # بالفصاحة والبلاغة وحسن التوجيه والبلاغي، والبيان، يقول عنه نبينا ﷺ: ((أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر))، لكن يبدو أن عروبة شعيب المرادة في هذا الحديث، هي عروبة لسان وإقامة؛ لأن نسب شعيب -كما يرى بعض المؤرخين- ينتهي إلى الكلدانين، يقول ابن عساكر: أم شعيب بنت لوط، وكانت ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الشام، وعلى هذا تكون دعوته بعد لوط مباشرة، وفي زمن معاصر لإسماعيل وإسحاق، ولدي إبراهيم -عليهم السلام.

وهذا يؤيده التصور الجغرافي للعالم يوم ذاك ؛ فإبراهيم # في فلسطين، ولوط في "سدوم" من أرض الأردن، وشعيب في "معان" وإسماعيل في الحجاز واليمن، وبذلك تكون دعوة الله شاملة للجزيرة العربية وبلاد الشام، كان أهل "مدين" قومًا -كما قلنا- من العرب العاربة، يسكنون مدينتهم التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم كما قلنا بمدة قريبة.

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك، يعني: ملتفة غليظة، وكانوا من أسوء الناس معاملةً، يبخسون المكيال، والميزان ويطففون فيهما ؛ يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم نبيه شعيبًا ؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة، وقال لهم قولًا بليغًا، وذهب بعض المفسرين إلى أن شعيبًا # بُعث إلى أمتين إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة، والعمدة في ذلك عندهم شيئان ؛ الأول: أنه قال: ﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ ﴾ [الشعراء: ١٧٦- ١٧٧] ولم يقل: أخوهم، كما قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾ [العنكبوت: ٣٦]. فهذا يدل على أنه أرسل إلى قومين إلى أصحاب الأيكة، وإلى مدين.

وما يدل أيضًا: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة، والصواب أن "قوم مدين" هم أصحاب الأيكة، ويجاب عن الحجة الأولى: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: كذب أصحاب الأيكة المرسلين ؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة، هنا ولم نسبهم إلى القبيلة، شاع الذكر بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ؛ فإنه كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى ؛ فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصحية ، دليلًا على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يدري في هذا الشأن ، وتتبع ابن كثير -رحمه الله- الأحاديث التي استدل به القائلون بأن أصحاب الأيكة غير قوم مدين ؛ فبين ضعفها ، وذكر أنه لا يجوز الاحتجاج بها.

وقد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان ؛ فدل هذا على أنهم في الحقيقة أمة وحدة ، أُهلِكوا بأنواع من العذاب ، ولهذا قال الإمام ابن حجر بعد أن فنَّد أقوال المخالفين ، وبين بطلانها ، قال : والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة ، وهل شُعيب هو صهر موسى -عليهما السلام- ؟ معلومٌ أن بعثة شعيب إلى قومه كانت قبل زمن موسى ، ونلاحظ أن إسماعيل # كان رسولًا إلى عرب جنوب الجزيرة ، وهذا يشمل الجراهم ، وهم أهل مكة ، والعماليق ، وأهل اليمن ، بينما شعيب كان رسولًا إلى عرب شمال الجزيرة العربية حيث كانت مدين تسكن ذلك المكان المتوسط بين مكة وفلسطين ، قريبًا من تبوك الحالية ، وذلك منذ زمن بعيد.

وقد ساق ابن جرير الطبري ، أقوال الذين يقولون : بأن شعيبًا هو صِهر موسى -عليهما السلام- ثم ساق أقوال الذين يقولون : ليس شعيبًا نبي الله ، ثم قال معقبًا : وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ، ولا خبر بذلك تجب حجة ؛ فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله -جل ثناءه- والله ﷻ قال : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص : ٢٣].

وقال ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا الرجل مَن هو؟ على أقوال ؛ أحدهما : أنه شعيب النبي # الذي أرسل إلى أهل "مدين" وهذا هو المشهور عند كثير من

العلماء، وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل: هو رجل مؤمن من قوم شعيب، قال: وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى # بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل إبراهيم # وذلك بنص القرآن. قد عُلم أنه بين الخليل وموسى -عليهما السلام- مدة طويلة تزيد عن أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد.

قال: وما قيل: أن شعيبًا عاش مدة طويلة، إنما هو -والله أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب، أنه لو كان إياه؛ لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده. بهذا انتهى ما حرره الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- وما نقلناه عن ابن جرير الطبري، وهذا يقوي أن هذا الرجل الذي صاهرَ موسى # لَمْ يكن نبي الله شعيبًا.

ورد اسم نبي الله شعيب في القرآن الكريم عشر مرات، أما الآيات التي ورد فيها الحديث عن دعوته، وصراع قومه معه؛ فقد جاءت في أربع سور من سور القرآن: سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت.

بدأ شعيب دعوته؛ فخاطب قومه بالتوحيد، كما هي عادت أنبياء -الله ﷻ في كل زمان ومكان، ولما أصرَّ قومه على الكفر، رحل شعيب والمؤمنون معه إلى مكة، وأقاموا بها حتى جاءتهم مَنيتهم فدُفنوا بمكة، يذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: أن شعيبًا ومَن آمَنَ به ماتوا ودفنوا بمكة، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم.

قص الله ﷻ علينا قصة شعيب؛ فقال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن

﴿رَبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] فكان من قومه أن قابلوا الدعوة بالتكذيب والاستخفاف والسخرية، وكان # يخوفهم من بأس ربهم، ويأمرهم بتقوى وبطاعته، كما قال الله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٦- ١٧٩] وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

هكذا شعيب يبدأ بما بدأ به نوح، وبما بدأ به صالح، وإبراهيم، ولوط: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] ففي هذه الآيات، وفي غيرها تأكيد على حق الله تعالى وحده في العبادة، والتأكيد على حق الناس في المكيال والميزان، وعلى أهمية العدل في ذلك، وعلى حرمة بخس الناس أشياءَهم أو التطفيف في الميزان.

ويستمر نبي الله تعالى شعيب يدعوهم إلى تصحيح أخلاقهم، وإصلاح معاملاتهم، وينبئهم ويحذرهم إلى سوء مغبة هذا المسلك، فيقول: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦] نبههم # أنهم في غِنًى عن فعل هذه

المظالم، وارتكاب تلك الموبقات، وأنهم لا يحتاجون إلى هذا؛ فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤] أنتم أغنياء، وما آتاكم الله ﷻ يكفيكم وزيادة، وليس بكم حاجة إلى أموال الناس لكنهم لا يستمعون، ولا يرعوون، بل يستمرون في جَهالتهم وضلالتهم.

ثم هم يردون على نبي الله شعيب بأساليب كثيرة، تارةً يستميلونه بالمدح قائلين له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، لماذا؟ لأنهم يعتقدون أنه يبحث عن مجده، ويرغب في سلطان، ويطلب تعظيمًا؛ فلما لا تفلح هذه الطريقة، يعالجونه بطريقة أخرى؛ فينتقلون إلى الترهيب، كما حالوا معه بالترغيب؛ إذا بهم ينقلبوا إلى ضد ذلك، فيتهمونه بالكذب في دعوى الرسالة، وفي قوله: إن الله تعالى واحد قائلين له: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

يكذبونه في رسالته؛ لتصورهم أن الرسالة لا تكون لبشر، وتارة يتهمونه بأنه مسحور، قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وتارة يصورونه جاهلًا يمنعهم من حرية التصرف؛ فيقولون متهكمين كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فهم بقولهم هذا يهزءون بالصلاة، وكأنها هي التي أضلت شعيبًا.

وبعد كل هذه الاتهامات الضالة ينتقلون إلى تهديده؛ فقد حكى الله عنهم ما قالوه، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود: ٩١] وقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] يئس القوم من شعيب بعد تهديده؛ ولذلك لجئوا إلى قومه، لأبعادهم عن شعيب، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وجاءهم شعيب بأخلاق النبوة، وأخلاق الدعاة؛ فبين لهم عدة أمور، ببين لهم أنه رسول الله إليهم، يدعوهم بالحق وإلى الحق، ولا يريد منهم على ذلك أجرًا كعادة المرسلين: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. ثم بين أن المحيط بأحوالهم، والرقيب على أقوالهم وأفعالهم، والمحاسب لهم على انحرافهم هو الله: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢] وانظروا كيف كانت عاقبة المفسدين، ثم إنه نصحهم وبين لهم أن هذه العداوة لا ينبغي أن تكون سببًا في عدم الإيمان، وترك التفكير، وإهمال النظر، وعليهم أن يفكروا في الدعوة من كل نواحيها، وأن يتأملوا في بيناتها؛ فقد واجههم بقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ما هي هذه البينة التي جاء بها شعيب؟

جاء بمعجزة شاهدة بصحة نبوته، توجب عليهم الإيمان به، والأخذ بما أمرهم به، والانتهاء عما نهاهم عنه، لكن الله ﷻ لم يبين لنا نوع هذه المعجزة؛ لكن حسبنا أنها معجزة، وليست مجرد أدلة وبراهين عقلية، كما زعم بعض المفسرين من أهل المدرسة الإصلاحية أو العقلية، الذين أشربوا حب الحضارة الغربية. دليلنا على أنها معجزة، ما رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، عن نبينا ﷺ أنه قال: ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)).

ثم إن شعيبًا # لم يكن ليخالف إلى ما ينهاهم عنه، كان قدوة حسنة في سمو خلقه، ورجاحة عقله، وعفت نفسه، وعلو همته، وصفاء سريرته، ورباطة جأشه، فبعد أن دعاهم إلى الوحدانية، وإلى العدل والمساواة والرحمة، قال بكل صدق وثقة: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ

﴿أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] والله ﷻ ذكر ذلك عنه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ وقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

فلا مبتغى لي من وراء هذه الدعوة إلا الإصلاح، وكل الذي أريده أن يصلح الله -تبارك وتعالى- جميع أمركم في دنياكم وأخراكم، ولهذا لم يكن أحد من قومه ليهزأ من شعيب، أو ليسخر من شعيب، أو ليتهم شعيبًا اتهامًا فيه أن أعماله تخالف أقواله؛ بل أعماله كانت تطابق أقواله بلا نزاع بينهم، والله ﷻ أخبرنا في محكم كتابه أن شعيبًا وغيرَه من أنبياء الله كانوا من أحسن الناس أخلاقًا، ومن أكثرهم استقامةً: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والله تعالى ذكر أنبياءَه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧].

من دروس الدعوة في قصة شعيب # :

الدرس الأول: أنه كان يعرف قومه معرفة دقيقة، معرفة شاملة، توجه إلى قومٍ يعرف عنهم كل شيء، يعرف عقيدتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، وهو حين يواجههم يواجه فسادهم بدقة، ويبين أخطاءهم بالدليل والبرهان، ثم إنه يناقشهم بعد ذلك مناقشةً موضوعية تقصد الحق، وتصل إليه بسهولة، أما هؤلاء المفسدون؛ فكانوا يسلكون مسلكًا غوغائيًّا لا يفيد في الحوار أبدًا؛ لكن شعيبًا # كان ناصحًا ذكيًّا أريبًا، كان لهم بالمرصاد كلما شوشوا عليه، رد عليه وأخذهم إلى دعوته وقضيته.

ولا شك أن دعوة الناس إلى الله -تبارك وتعالى- تحتاج إلى حنكةٍ، وخبرةٍ ودربة، تُفيد في تحقيق الألفة، وكسب المودة، وتحييد من يمكن تحييده من الأعداء، ولهذا رأينا شعيبًا # يخاطب قومه كلما واجههم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ومن المعلوم أن الرائد لا يكذب أهله، وابن العشيرة يحميها، ويدفع

عنها الضرر، ويدافع عن مصالحها، ومن أمثال هذه الكلمات المفيدة في الخطاب: "يا أبتِ"، "يا ابنَ أم"، "يا أختَ هارونَ"، "يا بني"، ولذلك كان شعيب موفقًا حين بدأهم بقوله: "يا قوم".

وكان أيضًا # يلين الجانب لهم، ويلين العبارة معهم، حتى حين يشتدون عليه، ويتكلمون في حقه، يقولون: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦] يلاطفهم بعد ذلك فيقول: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] فهو # يرفق بهم ويلين خطابه معهم حتى أنه ليقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ولهذا استحق شعيب # لقب "خطيب الأنبياء".

الدرس الثاني: التعامل مع الناس بواقعية؛ فالناس هم الناس، وأخطاؤهم هي أخطاؤهم، ولا يصلح في التعامل مع من هذا حاله أن يواجهوا بالخطاب القاسي، أو بالعبارة الشديدة، بل لا بد من لين الجانب، لا سيما عند دعوة هؤلاء الجافلين الآفلين عن الحق، ماذا كانت عاقبة قوم شعيب؟ ذكر الله ﷻ أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٧] فماذا قال؟ ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

قال الله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، أسكن الله هبوب الهواء سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب؛ فهربوا من

محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابه اجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا في هذه السحابة أرسلها الله ﷻ ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة من السماء؛ فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح. قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢] ﴿جَـٰثِمِينَ﴾ أي: بعضهم على بعض، والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل أي: أنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب والعياذ بالله تعالى.

وهكذا شأن المُهلكين المُنذَرين، إذا أتاهم عذاب الله ﷻ وأخذهم سبحانه أخذت آسف قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: الآيات: ٩٤- ٩٥- ٩٦] وبهذه الوقفة تنتهي قصتنا مع نبي الله شعيب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

دعـــــوة إسماعيـــــل

لما بلغ نبي الله إبراهيم # من العمر ستًّا وثمانين سنة، ولم يرزق بولد، دعا ربه جل وعلا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فاستجاب الله تعالى لدعائه، وبشره بالولد عقب دعائه، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] وحتى يتحقق قدر الله، وتوجد هذه البشارة في أرض الواقع، وهبت سارة لإبراهيم أمتها هاجر المصرية فتزوجها؛ فحملت بإسماعيل، وولدته في أرض الشام بجوار بيت المقدس حيث مقام أبيه في قرية "حبرون" وهي مدينة الخليل الحالية.

لكن سارة رأت تعلق قلب إبراهيم بولده، فغارة وطلبت من إبراهيم أن يسكن هاجر وولدها بعيدًا عنها، أوحى الله لإبراهيم # أن يحقق لسارة طلبها، وعرفه بالمكان الذي يسكن فيه هاجر وولدها، رحل إبراهيم # بعدئذ بهاجر وإسماعيل صوب الجنوب، حتى وصلا إلى ذلك الوادي الذي تكلم عنه الله -تبارك وتعالى- وإبراهيم يرفع يده إلى السماء مناجيًا متضرعًا، هذا الوادي الذي لا زرع فيه ولا ضرع، لا ماء ولا نماء، لا ثمر ولا شجر، يأتي إبراهيم # بفلذة كبده وبزوجه؛ ليتركهما في هذا الوادي القفر.

وحين أراد أن يغادر ترك لهما قليلًا من الزاد والماء، فتعلقت هاجر به وهي تناديه: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا، من يحمينا؟ من يسقينا؟ مَن يطعمنا؟ وتكرر النداء، فلما لم يجب قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال إبراهيم # : نعم، عندئذٍ أجابته هاجر؛ فقالت: إذًا لا يضيعنا، انطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات بعد أن رفع يديه، فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم ٣٧].

إبراهيم انحدر من تلك الربوة، يثقله الإشفاق والخوف، ويدفعه الإيمان والثقة بالله، وكان يصعد الزفرات، ويختنق بالعبرات؛ لكنه # في مكانه من الله، وفي مكانه من النبوة لا بد أن يصبر على البلاء، وأن يستسلم للقضاء؛ لذا صار إلى وطنه، وخلف وراءه وحيده، في تلك البقعة النائية، وهو يدعو الله تعالى أن يكلأه بعنايته، وأن يحفظه برعايته، استجاب الله -تبارك وتعالى- دعاء إبراهيم # ونبعت زمزم. وجعلت أم إسماعيل ترضعه، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو يتلبط،

فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ؛ فوجدت الصفا أقرب جبلٍ في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا ؛ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي حتى أتت المروة ؛ فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا فلما ترى أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، فهذا سعي الناس بينهما.

بعدئذٍ نبعت زمزم والقصة معروفة، وجاءت أفواج من الجراهمة، وسكنوا المكان ؛ فتأسست عندئذٍ مكة المكرمة، تعلم إسماعيل العربية، وصار رجلًا يافعًا. واختبره الله ﷻ بأن أمر أباه إبراهيم # أن يذبحه ؛ فلما أخبره أبوه بذلك استسلم له قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أسلم نفسه لأبيه، لينفذ ما أمره الله به، وقال له: يا أبه، اشدد وثاقي، وحِدَّ الشفرة، وتلني للجبين، حتى لا تقع عينك على عيني ؛ فتأخذك الرحمة والشفقة دون تنفيذ أمر الله، وخذ ثيابي واقرأ على أمي مني السلام، خضع إسماعيل # صابرًا مخلصًا ؛ ففداه الله ﷻ بذبحٍ عظيم.

تزوج إسماعيل # من زوجتين ؛ زار الأولى إبراهيمُ ؛ فسمِعَ منها كلامًا، فترك لابنه رسالة يقول فيها: "غيّر عتبتَ بابك"، وكان هذا أمر لإسماعيل بطلاقها، وإلحاقها بأهلها، ثم تزوج إسماعيل بأخرى من الجراهمة أيضًا، فجاء إبراهيم فسألها عن عَيْشَتِهَا ؛ فقالت: نحن بخيرٍ وسعة والحمد لله، قال: ما طعامُك؟ قالت: اللحم، قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئي # وقولي له: "ثبت عتبت بيتك"، فلما رجع إسماعيل أخبرته زوجته بما جرى ؛ فقال لها: ذاك أبي يأمرني بالإمساك بك.

وأمسك إسماعيل بزوجته الثانية ورزق منها بالذرية، وبث الله منهما أمة العرب، ومن أمة العرب جاء سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فلئن كان إسحاق هو أبو الإسرائيليين فإن إسماعيل هو أبو العرب، والقرآن يقص علينا قصة إبراهيم مع إسماعيل في بناء الكعبة على القواعد التي وضعتها الملائكة؛ فبعد أن أتما بناءها دعوا الله ربهما قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٧٧- ١٢٨]، ثم دعوا لهذه الأمة.

فاستجاب الله تعالى الدعاء فنشأت مكة كقرية جديدة، سكنها أبناء إسماعيل الذين كونوا أمة جديدة، هي أمة العرب، وجعل الله الكعبة البيت الحرام قبلة للعالم كله؛ تتعلق به القلوب، وتقصدها الناس من كل حدب وصوب، يحجونها رُكبانًا ورجالًا، ويأتونها من كل فج عميق، كان إسماعيل # نبيًّا يدعو قومه الجراهمة والعماليق، وأهل اليمن بدين الله تعالى مخلصًا لربه حليمًا صابرًا، كما قال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤- ٥٥].

وفي نفس الوقت كان إسحاق # قد ولد في بلاد الشام، قريبًا من بيت المقدس، وهي مسكونة بأهلها الكنعانيين، وتناسل منه يعقوب # ومن يعقوب جاء يوسف # وجاءت إخوته، وقد انتقلوا جميعًا إلى مصر، وعاشوا بها إلى زمن موسى، أما إسماعيل؛ فقد نشأ في أرض صحراوية غير مملوكة لأحد، أحياها هو وبنوه بماء زمزم، وصاروا مُلَّاكها وأصحابها.

وكانت العظمة في أبناء إسماعيل أن اختار الله منهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ رسولًا إلى العالم بأسره؛ فإسماعيل هو جد نبينا ﷺ كما في الصحيح من قوله ﷺ: ((إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريش من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)). وعاش إسماعيل # عمُره في مكة؛ فلما جاءته منيته دُفن بها، ويذكر المؤرخون أن إسماعيل # دفن مع هاجر في حجر إسماعيل بمكة؛ لكن لم يثبت بذلك حديث مرفوع، ولو كان كلامه صحيحًا لاشتهر الخبر لمن له بالإسلام صلة؛ فالمسلمون يحجون إلى مكة، ويتخذون حجر إسماعيل مُصلّى تستحب بالصلاة فيه، وهذا لا يجوز إن كان قبرًا لإسماعيل # وبهذا يُعلم خطأ مَن قال: إنه يجوز اتخاذ القبور في المساجد، واتخاذ القبور مساجد، أو الصلاة إلى القبور أو عليها، بحجة أن إسماعيل مدفون في حَوْض حجره المعروف بحجر إسماعيل -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-.

وبهذا نكون قد أتينا على المهم من قصة نبي الله إسماعيل -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-.

دعوة "إسحاق" و"يعقوب" و"يوسف" و"أيوب" و"ذي الكفل" عليهم السلام

عناصر الدرس

العنصر الأول : دعوة إسحق، ويعقوب، عليهما السلام ١٣٧
العنصر الثاني : دعوة يوسف # ١٤٢
العنصر الثالث : فضل أيوب، وذي الكفل، عليهما السلام ١٦٨

دعوة "إسحاق" و"يعقوب" عليهما السلام

أ. دعوة إسحاق # :

انحصرت النبوة بعد إبراهيم ﷺ في ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. وقال ﷻ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤- ٨٦].

النبوة انحصرت في ولد إبراهيم ﷺ وذكرنا أن الذي جاء من نسل إسماعيل هو نبينا ﷺ وحده، وجاء الشطر الثاني من ذرية إسحاق؛ إذ ولد له يعقوب، ويعقوب هو المسمى بـ"إسرائيل"، ومن ذرية إسرائيل المسمى بـ"يعقوب" جاء أنبياء بني إسرائيل -عليهم السلام- وهم: يوسف، وأيوب، وذو الكفل، ويونس، وموسى، وهارون، وإلياس، واليسع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى -عليهم وعلى نبينا صلوات الله تعالى وتسليماته.

ومن أنبياء بني إسرائيل مَن أُرسل لغير الإسرائيليين: كيونس بن متّى # أرسل إلى أهل نينوى، وهم ليسوا من أبناء يعقوب؛ إلا أن أغلب الأنبياء بعد يوسف # بعثوا إلى بني إسرائيل، ويبدو أن أنبياء بني إسرائيل كان يكمِّل بعضهم بعضًا، فليس أحدهم نسخ شريعة من سبقه، وإنما كان يأتي بجديد يتمم رسالة الله لقومه، يُحيي ما نُسي، ويصحح ما حُرِّف، ويشرع لِمَا جد.

اقتضت حكمة الله تعالى بتتابع الرسل في بني إسرائيل؛ لإيقاظهم من جهة، ولإبراز الدعوة الإلهية بينهم بصفائها وصدقها وأخلاقها من جهة أخرى.

قال الرازي في تفسيره: وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة.

القرآن الكريم لم يعرض مع أنبياء بني إسرائيل جوانب الدعوة جميعًا؛ وإنما أبرز مع كل نبيٍّ جانبًا معينًا يفيد المجتمع والناس، وقد درج المؤلفون والكاتبون في دعوات الله -وهم يكتبون عن أنبياء بني إسرائيل- أن يكتفوا بأهمهم كيوسف وموسى وعيسى -عليهم الصلاة والسلام-.

وإذا أردنا أن نتحدث عن نبي الله إسحاق الذي جاء من ذريته يعقوب # فإننا نقول: إن إبراهيم حين تزوج من ابنة عمه سارة، واستقر ببيت المقدس بعد أن رحلا من بلديهما إلى حوران إلى مصر، وقد بلغ سن إبراهيم الخليل مائةً وعشرين عامًا وبلغت سارة التسعين، ولم تنجب لعقمها، وأيست من المحيض؛ فجأة جاءت الملائكة إبراهيم تبشره بولد تلده سارة، وعن هذه البشارة قال الله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

كانت سارة تقوم بخدمة ضيوف زوجها وتسمع حديثهم من وراء ستر؛ فضحكت تعجبًا من هؤلاء الضيوف الذين لا يأكلون ولا يمدون أيديهم للطعام، وقيل: إنها ضحكت سرورًا بالبشرى التي حملتها الملائكة لها؛ لأنها علمت أنها ستنجب إسحاق وستعيش حتى ترى ولده يعقوب، وقيل: ضحكت بمعنى حاضت؛ ذلك أن من أسماء الحيض الضحك، وكونها حاضت هذا يدل على تهيئها واستعدادها للحمل الذي قدره الله ﷻ بينها وبين إبراهيم ﷺ.

اصطفى الله تعالى نبيه إسحاق، وكلفه بالرسالة، واختاره ليسير على خطى أبيه إبراهيم # كما قال جل من قائل: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ [الصافات: ١٠٩- ١١٣].

هداه الله ﷻ إلى الحق المستقيم واختاره لنفسه وجعله إمامًا يدعو إلى الخير، ويهدي إلى دين الحق، ووفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والعناية بجوانب العبادة الصحيحة التي تسعده في الدنيا وتذكره بالآخرة، وبالتالي نص الله ﷻ على أنه من الأخيار الذين اصطفاهم الله -تبارك وتعالى- لقوله: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣].

يصف نبينا ﷺ إسحاق فيقول: ((الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق))، وقد رزق إسحاق # بولدين: هما يعقوب، وعيصو، ويعقوب هو المعروف بإسرائيل ومنه تناسل الإسرائيليون جميعًا؛ سواء كانوا أنبياء أم كانوا أفرادًا وشعبًا، إلا أنهم لما يستمروا في بلاد الشام؛ فقد ألفوا حياة البادية والتنقل إلى أن ولي يوسف # أمر الخزائن والمال في مصر.

جاء أخوته فعرفهم وقال لهم: ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣]، وقال: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩].

هكذا ترك الإسرائيليون الشام لأصحابها ونزلوا بمصر متمتعين بسلطان يوسف ومكانته، واستمروا على ذلك حتى هربوا منها مع موسى # إلا أن إسحاق ظل مقيمًا طوال حياته في أرض الشام بقرية حبرون، وحبرون بالفتح ثم السكون: هي اسم قرية من قرى فلسطين، وهي التي دفن فيه إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب ويوسف -عليهم جميعًا الصلاة والسلام- وهي مدينة الخليل الحالية.

إسحاق ظل مقيمًا طوال حياته في أرض الشام بحبرون التي هي من أرض كنعان، ثم إنه لقي ربه عن عمرٍ يبلغ مائة وثمانين سنة -كما ذكر ذلك ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية)، وقيل: إنه دفن مع أبيه إبراهيم # في المغارة التي دفن بها من قبل.

ب. دعوة يعقوب # :

مضى معنا أن يعقوب هو بشرى الله ﷻ لإبراهيم حين جاءته الملائكة؛ فبشرته بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

اشتهر يعقوب باسم إسرائيل، وإسرائيل في العربية معناها: عبد الله، وابن كثير -رحمه الله- يخبر أن يعقوب # اختلف مع أخيه عيصو، وعيصو هذا هو الابن الثاني لإسحاق؛ فاشتكى يعقوب إلى أمه وأبيه فنصحاه بأن يذهب إلى خاله بحران ويبقى عندهم مدة ويتزوج بإحدى بناته.

فلما قدم على خاله بحران وجد له ابنتين؛ فخطب الصغرى لجمالها، واشترط خاله أن يمهرها رعي الغنم سبع سنين؛ فلما أتمها أنكحه خاله الكبرى؛ لأن من عادتهم ألا تتزوج الصغرى قبل الكبرى، وقال له: إن أردت الصغرى؛ فاخدمني سبع سنوات أخر لتتزوجها أيضًا. -وكان الجمع بين الأختين سائغًا في ملتهم- فلما انتهت المدة الثانية تزوج الصغرى، ووهب خال يعقوب لكل من بنتيه جارية؛ فدخل يعقوب بالبنتين والجارتين، ورزقه الله منهن اثني عشرة ولدًا، منهم يوسف الذي عاش عمره في مصر بعد أن ألقاه أخوته في الجب، وقد عاد يعقوب بزوجته إلى ديار أبيه عند الكنعانيين.

كلف الله يعقوب بالرسالة وبعثه قومه، وكان يوصي أبناءه بدين الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

يعقوب # ذكره الله ﷻ في غيرما موضع ؛ لكن أكثر ما ذكر في قصته ابنه يوسف # حيث حكى الله ﷻ عن حلمه وصبره وتوكله على الله -تبارك وتعالى- وكيف قابل ما وقع من كيد أبنائه لابنه يوسف ولأخيه بنيامين ؛ كما قال -جل من قائل- : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

وهذا نوع تنويه بما كان عليه يعقوب # من صفتي الحلم والصبر اللذين بلغا الغاية في هذه القصة -قصة يوسف- ومع هذا كان يتعامل معهم برفق وأناة، ويتعامل مع أخطائهم بمنهج النبوة ؛ فهو يعلم ما في نفوسهم وما في طبائعهم من الغيرة ؛ ولذا تراه يقول ليوسف حينما أخبره برؤياه التي ذكر له فيها أنه رأى الشمس والقمر مع الكواكب الأحد عشر كلهم يسجدون له، وهذا كان إيذانًا بشرفه وعلو كعبه، وبيان عظيم منزلته على سائر أخوته عندها قال : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: ٤].

ولما جاءه بنوه بالقميص الذي لُوِّث بالدم المكذوب : ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ ﴾ [يوسف: ١٨]، ولما غاب عنه ابنه الثاني قال : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

وسوف تأتي معنا قصة يوسف # مع موقف نبي الله يعقوب، وما كان من حوار بينه وبين أبنائه، وما كان من وصايا لأبنائه حين حضرته وفاته ؛ فإنه -صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم- حضهم على التمسك بعبادة الله تعالى وحده، كما قال -جل من قائل- : ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ

﴿وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وعندها لقي ربه راضيًا مرضيًّا ومات بأرض مصر عند ابنه يوسف، ثم نقل جسده بعد ذلك ودفن مع إسحاق وإبراهيم، عليهم جميعًا السلام.

وقد ذكر المؤرخون أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يومًا، وأمر يوسف من طيبه ثم ذهب به أهله في فلسطين، ودفنوه في المغارة الكائنة بحبرون مع أبيه وجده - عليهم الصلاة والسلام.

وبهذا نكون قد أتينا على المهم من قصة يعقوب # لننتقل إلى قصة نبي الله يوسف.

دعـــــــوة يوســـــــف

الكريم ابن الكريم ابن الكريم

ذلكم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه - فيوسف نبي وأبوه نبي وجده نبي، وأبو جده نبي أيضًا؛ فهو من سلسلة كريمة مكرمة.

وعن أبي هريرة > أن النبي ﷺ سئل: من أكرم الناس؟ قال: ((أتقاهم لله)) قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: ((فأكرم الناس: يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله)) والحديث متفق عليه.

وأي كريم أكرم ممن حاز - مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين - شرف النبوة، وحسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورئاسة الدنيا، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء، كان يوسف # وهو على خزائن الأرض لا يشبع، ويقول: "أخاف أن أشبع فأنسى الجياع".

وكان جود يوسف وكرمه جود فتوه، جود صبر على شهوات النفس، وصبر عن المعصية، وهو جود سادات الرجال، كان الضحاك -رحمه الله تعالى- يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] قال: كان إحسان يوسف ﷺ: أن كل من مرض في السجن قام عليه، وكل من احتاج وسع عليه". هذا هو يوسف.

ويوسف كلمة عربية يرجع أصلها إلى الحزن والأسف، وهو اسمٌ يتناسب مع حياته التي امتلأت بالمحن والفتن والمشاق، وجاءت قصته # مفصلة في سورة باسمه هي سورة يوسف.

والقصة في هذه السورة تتحدث عنه، وعن مولده ونشأته، وحياته وأخلاقه، وموقفه من إخوته، وهكذا حتى تنتهي به عزيزًا أو وزيرًا في مصر وواليًا على خزائنها ومعه قومه إلى أن تحضره وفاته؛ فمات وهو ابن مائة وعشر سنين.

رؤيا يوسف:

وقبل أن ندخل إلى قصة يوسف # لا بد أن نشير إشارة إلى تلك الرؤيا التي رآها والتي ابتُدئت به قصته: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، رأى يوسف # وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشرة كوكبًا -وهذه أشارة إلى بقية إخوته- كما رأى الشمس والقمر -وهما إشارة إلى أبويه- قد سجدوا له فهاله ذلك؛ فلما استيقظ قصها على أبيه؛ فعرف أبوه أنه سينال هذه المنزلة العالية، وهذه الرفعة العظيمة في الدنيا والآخرة؛ بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها؛ فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته؛ كي لا يحسدوه، ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر.

المجتمع الذي عاش فيه يوسف:

وإذا أردنا أن ننتقل إلى التعريف بالمجتمع الذي عاش فيه يوسف؛ فإننا نقول: إنه لما تزوج يعقوب # ببنتي خاله وجاريتيهما، ورزقه الله ﷻ عددًا من الأبناء، ومن هؤلاء يوسف، وكان من زوجته راحيل، التي وافتها منيتها بعد ولادة يوسف بمدة وجيزة، وتطورت الأحداث مع يوسف؛ فألقاه إخوته في الجب، إلى أن أخرجته إحدى القوافل التجارية من الجب، وباعته لعزيز مصر، وقضى حياته في مصر إلى لقي ربه، وكانت مصر في هذا الوقت تحت حكم الرعاة الذين عاصروا إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب -عليهم السلام- والرعاة يسمون حاكمهم بالملك أو العزيز، وكان المصريون يسمون حاكمهم بالفرعون -كما هو معروف.

والرعاة هم الهكسوس، وكانت مدة حكمهم في مصر أكثر من قرن ونصف، ومن حديث القرآن عنهم خلال ذكره قصة يوسف # نلمح بعض خصائص ذلك المجتمع؛ فالمجتمع المصري في وقتها مجتمع غير موحد، لا يعرف الله على وجه الحقيقة؛ ولذلك لم يكن يوسف # على دينهم، وهذا مفهومٌ من قوله لأصحابه في السجن: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

وهو مجتمع أيضًا لا يعرف شيئًا عن دين الله الذي نقل إليهم من جيرانهم، وبخاصة أن الحكام لما يكونوا من الفراعنة مدعي الإلوهية؛ ولذلك تركوا الديانة المصرية القديمة وبحثوا عن دين آخر؛ فأخذوا من جيرانهم بعض ما عندهم، وهو قدرٌ لا يفيد في دين الله تعالى.

وهذا يدرك من قوله تعالى حكاية عن النسوة: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فهن يعرفن الله ويعرفن الملائكة كما يظهر هذا من قول العزيز لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]؛ فهذا مجتمع يعرف الاستغفار والتوبة، وامرأة العزيز تقول: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، وهي تعرف أن الهادي هو الله، وأن كيد الخائن إلى خسارٍ وتبابٍ.

ساعدت هذه اللمحات يوسف # في نشر دعوة الله، وتميز المجتمع المصري بنظام سياسي متقدم، ففي الوقت الذي عاش جيرانهم في بداوة؛ نجدهم يعرفون نظام الملك وولاية العهد، والوزارات، والدواوين العديدة؛ بل تولى يوسف # بعد خروجه من السجن ولاية الأموال والأقوات، والخزائن، وما يتعلق بالأرزاق والمؤن، وكان يوزعها على المصريين وعلى أهل البقاع المجاورة، وقد وقع هذا لإخوة يوسف حين أتوا إلى مصر من أرض كنعان للحصول على القوت كما قص القرآن الكريم.

وقد تميز المجتمع المصري بالسبق العلمي وبالمدنية الراقية؛ حيث عني أهل هذا المجتمع بتعبير الرؤى، وقد وقع في سورة يوسف عددٌ من الرؤى وذُكرت لها تعبيرات، فيوسف # يرى وأصحابُه في السجن والملك كل هؤلاء كانت لهم رؤى وكانت لها إشارات، وقد تحققت إشاراتها واستُفيد عمليًّا بما دلت عليه.

ثم إن المجتمع كان له تلك المدنية؛ حيث كان للنسوة اجتماعات وكان لهن آراء، وكان لهن سلوك مدني متقدم في الطعام والشراب، كما هو مفهومٌ من لقاء النسوة بامرأة العزيز، وإعداد الموائد العامرة، وتقديم السكاكين ليأكلن بها.

وعاش يوسف في هذا العصر؛ فاستفاد بإيجابياته، ونجاه الله تعالى وحفظه من سلبياته، ثم إنه ابتلي فصبر؛ فمكن الله له كما قال -جل من قائل- بعد خروجه من السجن: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

ولما جاء بنو إسرائيل إلى مصر تعاونوا مع الهكسوس، ولم يندمجوا في المجتمع المصري، وكانوا للرعاة عونًا على المصريين؛ ولذلك لما استرد الفراعنة زمام الأمور مرة أخرى في الأسرة الثامنة عشرة؛ أخذوا في مقاومة الإسرائيليين وديانتهم، وتمكنوا من طردهم من مصر في زمن موسى # هذا هو المجتمع الذي عاش فيه يوسف # حتى لقي ربه.

ويوسف # كما ذكرنا، هو الابن الثاني عشر لإخوته الأحد عشر، ويوسف # كان من راحيل، وراحيل أنجبت وليدين: يوسف، وبنيامين، هذا هما الولدان الشقيقان اللذان رزق بهم يعقوب من راحيل، ترتيب يوسف بينهم الثاني عشر.

وقد تميز منذ صغره بسعة العقل وسلامة الخَلْق، وكان محل حب أبيه لنجابته وصغره، وكان أيضًا حسن الخلق، وكان أبوه يحبه لما وقع من فقده لأمه، ومما زاد من حب أبيه لابنه تلك الرؤيا التي رآها الغلام الحدث يوسف # والتي قصها عليه أبيه، والتي ذكرنا خبرها قبل قليل.

كما كان يوسف # على الغاية من الجمال، يذكر السهيلي أنه كان على النصف من حسن آدم؛ لأن آدم بلغ نهاية الحسن، وجاء في بعض الروايات: أن أهل مصر أصابهم الجفاف في عصر يوسف؛ فكانوا ينسون جوعهم بالنظر إلى يوسف تلذذًا بجماله وحسنه، يقول النبي ﷺ: ((رأيت يوسف ليلة أسري بي في السماء الرابعة، فقيل: كيف رأيته؟ فقال: كالقمر ليلة البدر)).

تميز يوسف # بالرشد والفهم أيضًا كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وعاش # مع فتن ومحن حتى تحققت رؤياه، ومات بعدئذ بأرض مصر ودفن بها، ثم نقل جثمانه إلى فلسطين في زمن موسى # .

يدل على هذا ما رواه أحمد في مسنده: عن أبي موسى الأشعري: أن بعض الصحابة سأل رسول الله ﷺ عن عجوز بني إسرائيل، فقال ﷺ: ((إن موسى حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل عنه الطريق؛ فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ قال له علماؤهم: إن يوسف # حين حضره الموت؛ أخذ علينا موثقًا من الله ألا نخرج من أرض مصر حتى ننقل عظامه معنا. فقال موسى: أيكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما علم أحد قبره إلا عجوز بني إسرائيل؛ فأرسلوا إليها وأتوا بها وسألوها عن قبر يوسف؛ فانطلقت بهم إلى بحيرة فيها ماء، فأمرتهم أن يجففوا ماءها؛ فلما جففوها حفروا بها واستخرجوا منها عظام يوسف؛ فلما أقلوه معهم من أرض مصر؛ إذ الطريق مثل ضوء النهار)) وهذا في (مسند الإمام أحمد)، والحديث صححه الهيثمي وغيره.

نزغ الشيطان بين يوسف وإخوته:

وننتقل إلى ما كان بين يوسف وإخوته؛ فقد قص القرآن الكريم أحاسيس إخوة يوسف حين قال: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨]، لقد أنساهم الشيطان أن الحب القلبي عطاء إلهي لا يملكه الإنسان، وأن العدل العقلي والمادي هو الذي يملكه الإنسان وهو الذي يؤاخذ على تقصيره فيه.

ثم إنهم قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي: والحال أننا جماعة ذوو عدد، نقدر على النفع والضر بخلاف الصغيرين -أي يوسف وبنيامين- ثم إنهم عقبوا على هذا بتخطئة أبيهم وبإخراجه عن الصواب حين قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨]؛ فكيف لهم أن يحتلوا هذه المكانة التي احتلها يوسف وأخوه؟!.

جاء الاقتراح بقتل يوسف، ولم يكن مسلمًا لديه، لماذا؟ لأن القتل جريمة، وهم يأنفون من أن يباشروا بأنفسهم تلك الجريمة، والخلاص منها أمرٌ صعب، وفعلها لا يليق بهم؛ ولهذا كان الاقتراح الثاني هو الأقرب إلى القبول حين قالوا: ﴿ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ [يوسف: ٩]، أي: ارموه في صحراء قاحلة؛ ليموت بعيدًا عنهم، إما بالجوع أو بالعطش أو بافتراس الوحوش الضارية له.

ثم إنهم وجدوا واحدًا توسط في الرأي، واقترح رأيًا به يبعد يوسف عن أبيهم، وفي نفس الوقت يعيش هو وإخوته في سعة من أمرهم، ولا يفضى الاقتراح إلا قتل يوسف، أو إزهاق حياته؛ لذا قال تعالى -حكاية عن قائل هذا القول-: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠].

فما كان منهم إلا أن طلبوا من أبيهم أن يرسل يوسف معهم للرعي والعمل، وأن يخرج معهم؛ فلم يوافق على طلبهم لصغر سنه؛ فذكروا له أنه لن يعمل، وأنه سيخرج ليرتع ويعلب -كما قص ذلك القرآن- وليتنزه وليستأنس بأمثاله من الصغار؛ فبين لهم أنه لا يصبر على فراق الصغير، وبأن بعده يحزنه، وأيضًا هو يخاف عليه من الذئب لصغره والبرية ملأى بالذئاب.

ولما يكن يدُر بخَلَد نبي الله يعقوب أن يقع منهم ما وقع، ويبدو أنه أعطاهم الحجة والتكأة التي تحججوا بها ليقولوا أكله الذئب ونحن عنه غافلون، هكذا جرى الحوار بينهم وبين أبيهم: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١١- ١٤].

أخذوا يوسف معهم، ذهبوا به إلى بئر يرتاده السيارة من التجار للتزود بالماء، ثم عزموا على تنفيذ ما اتفقوا عليه؛ فألقوه في هذا الجب، ونزل جبريل # فحمله ووضعه في جانب من البئر؛ بحيث لا يصل إليه الماء، وبشره بالفرج وعلو الشأن، وأنه سينجو، وأن الله سيجمعه بأبيه وإخوته بعدما أن يمكن له في الأرض، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

ماذا فعلوا؟ جاءوا إلى أبيهم بقميصه الذي خلعوه، ثم لطخوا القميص ببعض الدم، وجاءوا إليه ليقولوا له: إن الذئب قد أكله، وحاولوا إخفاء هذا الجرم بأن جاءوا متأخرين ليلًا على غير عادتهم، وبالبكاء الحار على فراق أخيهم، وبالقميص الذي لوث بالدم الكاذب.

يعقوب لما يصدقهم في مقالتهم، لماذا؟ لأنه رأى من القرائن والأحوال ما يؤكد كذبهم، ومن القرائن رؤيا يوسف # وهي رؤيا حق تؤكد أنه لا يموت هكذا، ثم إنهم أخذوا يوسف ليلعب؛ فكيف يذهبون ليلعبوا ويتركونه، ثم إنهم زعموا أن الذئب أكله، والذئب لا يأكل ضحيته كلها؛ بل يأخذ أبعاضها ويكتفي بقطع منها، ثم إنه لو كان قد أكله؛ فلربما بقي من يوسف شيء يأتون به إلى أبيهم، ثم إن القميص كان سليمًا لم يكن ممزقًا ولم يكن مقطعًا، كان القميص سليمًا إلا أن عليه دم.

وقال بعض العلماء: إن هذا الدم كانت فيه إشارة وأمارة إلى أنه ليس بدم بشري؛ وإنما هو دم كبش أو ضأن أو نحو هذا، ثم إنهم كذبوا أنفسهم أمام أبيهم حين قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وعندها قال يعقوب # بعد أن سلم أمره لله صابرًا محتسبًا متوكلًا على الله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

يوسف # في الجب:

ننتقل إلى يوسف # في الجب، وقد جاءت قوافل التجار وأناخت بإبلها بجانب البئر، وأرسلوا ساقيهم لينزع لهم الماء؛ فلما أدلى الوارد دلوه تعلق يوسف بالحبل، وشده الوارد فلما رآه استبشر وقال: هذا غلام...

عرف التجار بالأمر فكتموا خبر العثور عليه، وجعلوه بعضًا من بضاعتهم التي أحضروها من بلاد الشام إلى مصر، ثم إنهم باعوا نبي الله يوسف بثمن رخيص، لماذا؟ لأنه لما يقف عليه بثمن أصلًا؛ فلم يتكلفوا فيه ثمنًا، ولم يهتموا بشأنه مخافة ظهور قومه وأن يسترجعوه منهم، ومن الذي اشتراه؟ اشتراه عزيز مصر الذي قام على تربيته وكان ما كان؛ حتى تولى يوسف # أمر الخزائن لتميزه بالحفظ والعقل وسعة النظر.

يوسف # في بيت عزيز مصر:

ثم ننتقل إلى يوسف وهو في بيت عزيز مصر: أخذ التجار يوسف صغيرًا من الجب، ذهبوا به إلى مصر، باعوه بثمن زهيد، ثم إن الله -تبارك وتعالى- آوى يوسف في بيت العزيز، ولم يكن له ولد؛ فأخذ يوسف # يعيش في هذا البيت، وقال العزيز لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، فبدل الله ﷻ يوسف بالجب قصر الملك؛ ليتمتع به فيه بكرم المنزلة، وطيب الطعام، وحسن الملبس، والاطلاع على أمور الناس وأحوال المعاش؛ وليتعلم ما يعرفه أمثاله من أبناء الملوك والأمراء.

كانت أمنية العزيز من تبني يوسف: أن يساعده في مهامه، أو أن يتخذه ولدًا يئول إليه الأمر من بعده، رحبت امرأة العزيز بهذا الصغير، وعنيت بتربيته

وبتعليمه، وسرعان ما أحبه كل من عاشره من خدم القصر؛ لما كان يتمتع به من جمال الخلقة والخلق.

وقد تأثرت زوجة العزيز بيوسف وتعلق قلبها به، وشغفت بالحياة معه؛ فكانت تتزين أمامه وتبدي مفاتنها وتظهر محاسنها ليتلفت إليها؛ لكنه كان مستمسكًا بعفة وطهارة وخلق كريم...

انتقلت امرأة العزيز من مرحلة التعريض إلى التصريح، ومن مرحلة الإخفاء إلى الإظهار والإبداء، وأعدت العدة لتنال من يوسف ما تريد وما تشتهي وما تبغي من الإثم والحرام، قال -جل من قائل-: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

لم يتأثر يوسف بهذه المغريات؛ وإنما تذكر ربه فاستعاذ به من كل سوء وشر، وتذكر فضل العزيز الذي أكرم مثواه، فقال لها من فوره: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ -يعني العزيز- ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]: أعوذ بالله معاذًا مما دعوتِني إليه، وزوجك هو سيدي وربي الذي أكرمني ورباني؛ فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين؟! وفي الاستجابة لك ظلمٌ وعدوانٌ على حق الله وحق الناس، ولا يفلح الظالم بخيرٍ أبدًا.

وقع الأمر على امرأة العزيز وقع الصاعقة: كيف يفعل هذا وهو في بيتها، وهو شاب أعزب، يعيش تحت سيف العبودية، ويجد نفسه أمام أميرة شابة جميلة تتهيأ لها وتعد المكان، وتطلب منه أن يستجيب لطلبها، وهو يأمن أن يناله أحدٌ بسوء، وها هي تكرر الطلب مرة بعد مرة؟! فما يكون من يوسف # إلا أن يخرج من عندها مسرعًا، وهي تلاحقها تجري وراءه وتلحق به؛ فتقطع ثيابه من دبر؛ حين أدركته قريبًا من الباب.

فلما استبقا الباب: أي تسابقا نحو باب القصر أو باب الغرفة؛ هو يهرب وهي تطلب، هو يخرج للهرب وهي تلاحقه للطلب، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: شقت قميصه من خلف، لأنها كانت تلاحقه.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: وجدا العزيز واقفًا عند باب القصر، وقد حضر في غير أوانه حضوره، وبمهارة فائقة أدارت الأمر بشكل عجيب وقلبت الأمر بشكل غريب؛ فأصبح الظالم مظلومًا والبريء متهمًا: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: ما جزاؤه إلا أن يسجن أو يضرب ضربًا مؤلمًا وجيعًا، لماذا؟ لأنه أراد أهلك بسوء؛ فقال يوسف # : ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦] أي: قال يوسف مكذبًا لها يدفع عن نفسه هذه التهمة: هي التي دعتني مقارفة الفاحشة لا أنا الذي أراد بها السوء.

ثم إن الله ﷻ قال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦] ما هو هذا الشاهد؟ ومن هو هذا الشاهد؟ قال ابن عباس: كان طفلًا في المهد أنطقه الله، وكان ابن خالها، وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة التي ألصقت به من غير حق ولا برهان.

قال الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧] نظر الملك إلى القميص؛ فلما رآه قُدَّ من دبرٍ علم الحقيقة وتأكد من صدق يوسف ومن براءته؛ فقال ليوسف ولزوجته ما حكاه الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٨، ٢٩].

هكذا يجلِّي القرآن هذه الحقيقة: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾؛ فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق، وهو التلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله فيما يشبه الثناء؛ فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها: ﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾؛ فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم.

والتفاتة إلى يوسف البريء: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: أهمله ولا تعره اهتمامًا ولا تتحدث به، وهذا هو المهم: المحافظة على الظواهر في تلك المجتمعات الخاوية، في تلك الجاهلية، قبل ألف السنين.

ثم عظة إلى المرأة التي راودت الفتى عن نفسه، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٩].

هذا حال هذه الطبقة الأرستقراطية من رجال الحاشية في كل جاهلية، وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة؛ حيث لما ينتقم ممن أرادت خيانته وتدنيس فراشه بالإثم والفجور، قال ابن كثير: كان زوجه لين العريكة سهلًا؛ أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه.

وشاع هذا الخبر في المدينة، ومضت الأمور في طريقها؛ فهكذا تمضي الأمور في القصور؛ ولكن للقصور جدران، وفيها خدم وحشم، وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستورًا، وبخاصة في هذا الوسط الأرستقراطي الذي ليس نساؤه من هم إلا الحديث عما يجري في محيطهن، وإلا تدول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات؛ ولهذا حكى الله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٠].

حكى القرآن الكريم قصتها مع أولئك النسوة اللائي ما فتئن يتحدثن عن شغفها بحب يوسف ؛ فقامت وأعدت العدة لتقطع هذه الألسنة ؛ فجمعت أولئك النسوة ، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١]، عندها أبدت عذرها قائلة : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢].

رأى يوسف نفسه في هذا الموقف مستضعفًا فقال : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣]: إن السجن عافية بالنسبة للوقوع في الفاحشة ؛ فهو يسأل الله ﷻ أن يصرف عنه كيد النسوة ؛ ليبقى طاهرًا نظيفًا.

يوسف # في السجن :

بعدما ظهرت براءة يوسف ؛ رأى العزيز أن يسجنه مدة ليقطع القائلة ، ليقطع ألسنة الناس ؛ ليتصور الناس بهذا الفعل من العزيز أن يوسف مدان ، وأن يوسف أودع السجن بعد أن أدين في التهمة التي ألصقت به ، والتقى يوسف # في السجن بصنوف من الناس ، تعامل معهم بخلقه وطهارته ، واشتهر بينهم بالأمانة وصدق الحديث وحسن السمت ، وكثرة العبادة ، وظهر علمه في تعبير الرؤى ، وظهر إحسانه إلى المسجونين بعيادة مرضاهم والقيام بحاجاتهم ؛ فأحبوه وأخذوا برأيه ومشورته ، وهذا شأن الداعية حين تحل به نقمة ؛ يحولها -بإذن الله ، ﷻ إلى نعمة ، وحين تحل بساحته محنة ؛ يحولها بفضل الله ﷻ إلى منحة.

عندها دخل السجن فتيان : أحدهما : ساقي الملك ، والثاني : خبازه ؛ لأنهما اتُّهما بمحاولة دس السم للملك في طعامه وشرابه ، ولما لقيا يوسف تعارفا عليه وتعلقا به كسائر النزلاء ، ثم إن كلًّا منهما رأى منامًا وجاء إلى يوسف ليؤوله له.

أوَّلَ يوسف لهذين النزيلين لكل واحد منهما رؤياه؛ لكنه ما ترك الفرصة لتفوت؛ فإنه جعل يحدث الجميع عن دينه ودين آبائه الذي يقوم على التوحيد وعلى إبطال الشرك، الذي يقوم على عبادة الله تعالى وحده؛ لأنه لا يليق بعاقل أن يعبد آلهة يتخذها من حجر أو شجر أو معدن أو غير ذلك... ولهذا قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

أخذ يوسف يسرد أدلة التوحيد ويبطل الشرك بجميع صوره، ويقارن مقارنة سهلة واضحة حين يقول: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]: الله وحده هو صاحب السلطان، وهو صاحب القدرة والبرهان، والبراهين كثيرة تشهد لوحدانية الله ﷻ بينما آلهة القوم هي من اختراعاتهم؛ بل هي من أكاذيبهم وأضاليلهم، وعليهم أن يعلموا أن القضاء والتصرف والحكم بيد الله تعالى، وأن الملك كله لله يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد، وعليهم أن يعملوا بضرورة التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وذلك يقضي بتوجه العبد لله بالعبادة والرجاء إلى الله وحده؛ لأنه النافع الضار، وليس للآلهة المزعومة شيئًا من ذلك أبدًا؛ فكيف تكون آلهة مع الله -تبارك وتعالى؟!.

وبذلك ختم دعوته مبينًا أن الدين الذي يعرفهم به هو الدين الحق وهو الصراط المستقيم الخالي عن العوج، وهو الدين الذي يسعد صاحبه ويكتب له الخير في الدنيا وفي الآخرة.

ويظهر أن يوسف # كان يعمل في السجن بجد في دعوته ؛ ولذلك رأينا تحول المجتمع إلى دين يوسف # ويدل على ذلك قول امرأة العزيز قبيل خروج يوسف من السجن -كما حكاه الله- : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٢، ٥٣] ؛ فهذه المرأة بعد أن كانت آثمة جانية إذا بها تسير مؤمنة ؛ تصور الله بصفاته ؛ فهو الذي يهدي، وهو الرحمن، وهو الغفور الرحيم، وهذه صفات يقر بها المؤمنون بالله ؛ فهذا يدل على أن ليوسف أثرًا في سجنه على دعوة الناس في هذه المدينة.

ويوسف # بعد أن عرض على أصحابه دعوته، وعبر لهما الرؤيا، ودلهما على ما تشير إليه، ودعاهم إلى توحيد الله ﷻ قال يوسف للفتى الذي ظن أنه ناجٍ من الموت: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: عند الملك، وحدثه عن براءتي عسى أن يتذكر ويصدر قررًا بالإفراج عني ؛ لكن الملك لما يتذكر والفتى الناجي لم يذكر ؛ فلبث يوسف بأمر الله ﷻ في السجن بضع سنين ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢].

ثم إن الله -تبارك وتعالى- أذن بإخراج يوسف # من سجنه لحكمة بالغة ؛ فأجرى الله -تبارك وتعالى- أحداثًا لتكون سببًا في خروجه # من سجنه وانتقاله من حال الاستضعاف إلى التمكين، ومن حال البلاء في الشدة والبأساء إلى الابتلاء بالنعمة والرخاء ؛ ليرى أن هؤلاء الأنبياء لا يتأثرون حال بلائهم بضراء أو بلائهم بنعماء ؛ وإنما هم مع الشكر والصبر في كل حال من الأحوال...

يوسف # مع الملِك:

يوسف # لَبِثَ في السجن بضع سنين، والضمير في قوله: ﴿فَلَبِثَ﴾ [يوسف: ٤٢] عائد على يوسف، حيث شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها، وكيف يستمسك بسبب الله تعالى وحده، فَلَمْ يجعل قضاء حاجته على يد عبد، ولا سبب يرتبط بعبد، وكان هذا من اصطفائه وإكرامه. إن عباد الله المخلصين ينبغي أن يخلصوا لله تعالى، وأن يدعوا الله ﷻ وحده قيادهم، وأن يتركوا الله ﷻ أن يوجه خُطاهم، وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله تعالى عليهم فيحملهم عليه؛ حتى يعرفوه، ويتذوقوه، ويلتزموه بعد ذلك؛ طاعةً ورضًا وحبًّا وشوقًا، فيتم عليهم فضله بهذا كله، جل في عُلاه.

ولما أراد الله تعالى الفرج ليوسف # وأراد أن يخرجه، هيأ الأسباب لذلك، فأرَى الله ﷻ ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، فجمع السحرة والكهنة، وجمع المنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة، فأعجزهم جميعًا أن يأتوا بشيء مقنع في تأويلها، وهذه الرؤيا قص الله ﷻ خبرها في كتابه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

قال ابن كثير -رحمه الله-: قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن في روضة هناك، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن، ثم مِلْنَ عليهن فأكلنهن، فاستيقظ الرجل مذعورًا، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة، وإذا سبع

أخر دقاق يابسات، فأكلنهن، فاستيقظ مذعورًا، فذهب إلى أرباب التأويل في بلاده، فقالوا: إنها أضغاث أحلام، أي: أخلاط مضطربة ليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]. عند ذلك ادكر الذي نسي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. أي: بعد مدة من الزمان وهي بضع سنين، قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]. إلى مَنْ؟ إلى يوسف # .

قال ابن عباس: "لم يكن السجن في المدينة، ولهذا قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾". ثم إن السياق القرآني يخبرنا أنهم أعدوا له العدة، وأرسلوه إلى يوسف في سجنه، وسهلوا له مقابلته، وجاء الساقي إلى يوسف، وطلب منه متلطفًا قائلًا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]. ناداه باسمه العلم، وبالصفة التي عرف بها بين كل من عامله، وهي الصدق، ثم طلب منه تعبير رؤيا الملك، وقصها عليه بالتفصيل، ففسرها له يوسف # وعرَّفه أن البقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر عبارة عن سبع سنوات متصلة يعملون فيها بجد واجتهاد، ويرزقون خلالها ثمرًا طيبًا، وقَمْحًا وفيرًا، وأن عليهم أن يأخذوا ما يكفيهم، وأن يدخروا الباقي في سنبله؛ حتى لا يُصاب بالسوس، لينفعهم خلال سبع سنوات تعقب السبع الأولى، حيث فيها تجدب الأرض، وينقطع المطر، ويشتد الأمر على الناس، فيأكلوا مما ادخر لهم في السنوات السبع الأولى، ثم بعد ذلك تأتي سنة يعم خيرها، ويتنوع ثمرها، ويفيض ماؤها، ويكثر نتاج الزرع والضرع فيها، فيعودون إلى ما كانوا عليه من سالف العهد، لكن الأمر يحتاج إلى إدارة حكيمة، وتعامل دقيق، ورعاية طوال هذه المدة.

قال الزمخشري: تأوَّل # البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا كثيرَ الخير، غزير النعم، قال: وذلك من جهة الوحي.

فلما بلغ الملك هذا التأويل طلب أن يقابل يوسف، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠]. لم يقبل يوسف # أن يخرج من سجنه؛ حتى يُعلن الجميع براءته، وحتى يعرف الجمع براءته؛ ليعيش معهم نظيفَ السمعة، طاهرَ اليد والذيل كما كان # أحضر الملك النسوة وأحضر معهن زوجة العزيز، ثم سألهن: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف: ٥١] شهادة النسوة يعلنَّ فيها براءة يوسف من أي سوء، أما زوجة العزيز فقد اعترفت أمام الجميع اعترافًا تفصيليًّا، أظهر الله فيه الحق، وأبان فيه براءة يوسف، وأقرت بذنبها، وتابت إلى ربها، وعللت سبب اعترافها المفصل بأمور:

أما الأمر الأول: فهي أنها تخاف من عقوبة الله تعالى إن كذبت عليه؛ لأن الحقائق التي تؤمن بها أن الله لا يهدي كيد الخائنين.

والأمر الثاني: أنها أظهرت ضعف نفسها، وبينت أن النفس أمارة بالسوء، وهي بذلك الإعلان تردع النفس وتؤدبها، وتوجهها نحو الأخلاق الفاضلة؛ لتكون متمتعة برحمة الله.

والأمر الثالث: أنها تطمع بتوبتها، وتطمع في غفران الله ﷻ وفي رحمته؛ لأنه تعالى غفور رحيم: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

ويبدو أن الملك -وكذا زوجة العزيز- قد دخلا في دين يوسف على نحو ما ذكرت هي قبل ذلك، وكما يظهر من الألفاظ التي لا ينطق بها إلا موحد يعرف الله تعالى، وبعد ظهور براءة يوسف # جاءه الرسول وأخرجه من السجن إلى

عالم الحرية الواسعة بعد هذا الاعتراف من هؤلاء النسوة ومن زوجة العزيز، وإقرارهن الواضح لبراءته # أرسل الملك مرةً أخرى رسولًا من قبله؛ ليحضر يوسف، لماذا؟ لغاية حددها حين كلف رجاله بالإتيان به كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ [يوسف: ٥٤]. أي: يريد أن يجعله مستشاره، ووزيره الأول، لما رأى فيه من النجابة، ولمس فيه من حسن التخطيط والإدارة، وسمو الخلق والطهارة، وشدة الإخلاص والأمانة.

جاء يوسف إلى الملك وجلس معه: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] كلمه في ماذا؟ كلمه في كل شأن مهم في السياسة، الاقتصاد، التجارة، الزراعة، في التموين، في الأخلاق، كلمه فأعجب به الملك، فأصدر قراره: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي: لك من المكانة العالية الراقية، وأنت محل الثقة والأمانة على أسرار الحُكم والسياسة، وإدارة شئون الناس وحياتهم ومعاشهم.

لكن يوسف # طلب عملًا محددًا واضحًا يقدر عليه، فهو حافظ للأمانة، عليم بشئون الحياة والدين، ولذا قال يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]. سأل يوسف # ولاية الخزائن والإشراف عليها؛ ليدخر في هذه السنوات الطيبات ما يكفي للسنوات العجاف التي أخبرهم بشأنها في تأويل الرؤيا، وليتصرف بالأحوط والأصلح والأرشد، وقد أراد الله ليوسف ذلك، فَمَكَّنَ له في مصر، ووضعه على خزائن الأرض ليكون مقصد الناس وقت الجدب، يطلبون منه، ويعطيهم، ويدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى- ويتمكن يوسف من دعوته بتمكين الله له في هذه الأرض، فلا يمكن أن نتصور أن يوسف ترك أمر الدعوة؛ لأنه لم يتركها وهو في أحلك الأوقات وفي أصعب الظروف، وهو في غياهب السجون، فكيف يتركها بعد أن صار مُمَكَّنًا ذا سلطان وجَاه؟

وقبل أن نغادر هذه النقطة، لا بد أن نذكر ثناء نبينا ﷺ على يوسف حين قال كما في حديث أبي هريرة: ((يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي، لأجبته)). قال الحافظ ابن حجر: أي: لأسرعت الإجابة في الخروج من السجن، ولَمَا قدمت طلب البراءة، فوصفه بشدة الصبر حيث لم يبادر بالخروج، وإنما قاله ﷺ تواضعًا، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير، بل يزيده رفعةً وجلالًا.

ما كان بين يوسف وبني إسرائيل:

بعد أن خرج يوسف من السجن صار محل ثقة الملك. وبين ابن كثير: أن هذا الملك كان يُسمَّى الريان بن الوليد، وأن وزيره الأول هو "أُطفير" الذي اشترى يوسف ورباه، وهو زوج مَن راودة يوسف # عن نفسه، أراد يوسف أن يصلح الناس في معاشهم، وفي أديانهم، فطلب من الملك أن يوليه الخزائن، فاستحسن الملك ما طلب، وعزل "أطفير"، وولى يوسف مكانه، وبعدها هلك "أطفير" بمدة وجيزة، فزوَّج الملك يوسف زوجة العزيز، فلما دخل بها قال لها: "أليس ذلك خيرًا مما كنت تريدين، فقالت: أيها الصديق، لا تَلُمْنِي، فإني كنت امرأة جميلة، ناعمة في مُلك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيأتك على ما رأيت ورأى النسوة". ولما تزوجها # وجدها عذراء، فولدت له أولادًا، وقد اشتهر يوسف بالعدل، والإنصاف، والصدق، وإعانة الضعفاء، فأحبه الجميع، ويقال: إن الملك آمن بدعوة يوسف، وسَلَّمَ الأمر له، فصار كل شيء في مصر تحت حكمه يتبوأ منها حيث يشاء، والملك راضٍ عنه.

ومما يدل على أنه # صار متمكنًا في كل جوانب الحياة في مصر، أنه تعامل مع إخوته حين وَرَدوا عليه تعاملًا منفردًا، لم يرجع لرئيس معه في محاكمة أخيه، أو في مناقشة إخوته، أو في إحضار أهله جميعًا إلى مصر.

يروي الفضل بن عياض مصورًا سلطان يوسف # كما أخرج ذلك ابن كثير، ورواه في تفسيره: أن امرأة العزيز وقفت على ظهر الطريق حتى مر يوسف بسلطانه، فقالت: الحمد لله الذي جعل الضعفاء ملوكًا بطاعته، وجعل الملوك صغارًا بمعصيته.

مضت السنوات الأولى، وجاء الجَدْب والقحط، فورد الناس على يوسف من سائر الأقاليم، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان # لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك والجنود إلا أكلةً واحدةً، في وسط النهار حتى يتكافأ الجميع، كان يوسف # رحمةً من الله على أهل مصر وعلى مَن جاورهم، وكان أبناء يعقوب # أعرابًا، يعيشون في البادية، ويتنقلون حيث العشب والماء، فلَمَّا نزل القحط بالناس حل الجدب ببني إسرائيل، ولذلك جاء أبناء يعقوب يمتارون من مصر أي: يطلبون الميرة، وكان ما كان بين يوسف # وإخوته على نحو ما ذكر القرآن الكريم، حتى أفضَى الأمر إلى أنه أعطاهم قميصه، وقال لهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وقد مضى السياق القرآني بخبر أن يعقوب # قد كفَّ بصره؛ لكثرة ما بكى على فراق يوسف وبنيامين، وكان دائمًا يذكرهما، فلما غادرت القافلة ومعها ذلك القميص أرض مصر، هاجت ريح حملت رائحة القميص إلى يعقوب، أو إن الله -تبارك وتعالى- أوحى إليه أن ساعة اللقيا قريبة، فقال لمن معه: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٤-٩٥].

عَرَفَ نبي الله يعقوب ريح يوسف وشعر به، لكنه لم يقطع حتى لا يتهم من بنيه وقومه بالجري وراء الأماني والأحلام. وجاء حامل القميص فألقاه على وجهه، فارتد بصيرًا، وهنا قال لإخوة يوسف: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]. عندها سُقط في أيديهم، وطلبوا من أبيهم أن يغفر لهم، واعترفوا بخطئهم، فسامحهم وأخبرهم بأنه سيدعو الله تعالى لهم، وأنه سيستغفر لهم الغفور الرحيم ﷻ: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٧-٩٨]. وجاءوا جميعًا إلى مصر مع أبيهم يعقوب، وكان عدد الإسرائيليين وقتها يقترب من أربعمائة رجل وامرأة عاشوا بمصر مكرمين.

ويذكر ابن كثير: أن إخوة يوسف حملوا أهلهم جميعًا، ورحلوا بهم من بلاد كنعان قاصدين أرض مصر، فلما علم يوسف باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف؛ لتلقي نبي الله يعقوب # وتلقي أهله معه، ويقال: إن الملك خرج بنفسه مع يوسف للترحيب بالركب القادم، ولما وصلوا إلى البلدة قال لهم يوسف # : ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]. وعاش الإسرائيليون في مصر متمتعين بقوة السلطان، وعزة يوسف # قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

معالم دعوية من قصة يوسف # :

هذه القصة العظيمة الجليلة التي استوعبت سورة من سور القرآن الكريم، قال الله -تبارك وتعالى- عنها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ

حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وفي هذه القصة يجب أن نقِفَ أولَ وقفةٍ مع التربية، كيف كان للتربية أثرها في نفس يوسف # ؟!

لا شك أن الذي نشأ في بيت النبوة، وتعلق به قلب أبيه وبخاصة بعدما أدرك ما سيكون عليه شأنه من منزلة دينية واجتماعية، وكان يهتم به كثيرًا، ويوجهه نحو معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويعرفه بالله تعالى، ولهذا قال له: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

ونحن نلمس في هذه القصة أن الأب حذَّرَ ابنه من أسباب الضرر، فقال: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥]. وهذا أمر له أهميته في التربية، وعلى الآباء أن يولوا هذا الجانب العناية الخاصة.

كما رأينا نبي الله يعقوب يدعو ولده إلى الاستقامة في الخلق والسلوك، عسى أن يختاره الله، وأن يوفقه لاكتساب المعارف والعلوم، وقد دعا يعقوب # يوسف إلى ذلك قائلًا له: إن الله سبحانه كما أراك مستقبلك، قادر على اصطفائك واختيارك وتعليمك وإتمام نعمته عليك، وقد وجَّه يعقوب # يوسف الصغير إلى الله، وبين له أن الله كما أراه الرؤيا الصالحة، فإنه يديم خيره وفضله عليه بالعلم والطاعة والنبوة، وقد تم له ما عمِل له، فتفوق يوسف في العلوم وبخاصة في تأويل الرؤيا، وتنظيم أمور المعاش، وإقامة العدل، والالتزام بالصدق والأمانة، والمحافظة على حق الله وحق الناس.

ومن دروس الدعوة في هذه القصة المباركة، ما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الرسول الداعية، ما ينبغي أن تكون عليه أخلاق كل داعية، لقد تميز يوسف # بهذا الخلق الكريم، وتلك الطهارة والعفة التي رأيناه يومَ أن راودته التي هو في بيتها عن نفسه، وهيأت نفسها لها، وكررت ذلك معه، وبذلت كل ما أمكنها، ورغم أنه شاب له طاقته وقوته، لم يضعف أمام سيدة تميزت بالجمال والجاه، وإنما لازم الطهارة والعفة، بل ووعظها وأوقظ فيها وازع العقل والدين، وهو يقول لها ما حكاه الله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فهو # يستعين بالاستعاذة بالله واللجؤ إليه، ويستعين أيضًا بمراعاة حق الرب إن أراد به الله، أو حق السيد إن أراد به ذلك الزوج، والسبب الثالث: هو أنه يعترف بالفضل اعترافًا يقتضي عدم الإساءة لصاحبه، والسبب الأخير: هو أن حقائق الوجود البشري تؤكد أن المعتدي على حق غيره، يبوء بالإثم والخُسران، وهذا واقع لا محالة. وهكذا واجه يوسف دواعي الغواية التي كانت من المرأة، وهي المراودة، وتغليق الأبواب، والتهيؤ بدواعيه إلى العفة، وهي خوف الله تعالى والمحافظة على عِرض سيده الذي أكرمه، ومخافةَ الخسران والبوار، وظل متمسكًا بطهارته بعد أن اجتمعت النسوة واشتركن مع زوجة العزيز في المراودة، وهددنه بالسجن والهوان والإذلال، عندها قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣]. وفي هذا تذكير؛ لأن اختلاط الرجال بالنساء اختلاطًا مستهترًا، وأن الخلوةَ بالأجنبية من أكبر عوامل الفساد ونشر الفاحشة، ولهذا كان نبينا ﷺ ينهى عن ذلك نهيًا قاطعًا، فيقول: ((إياكم والدخولَ على النساء، فقال رجلٌ من الأنصار: أفرأيت الحَمْوَ؟ قال - ﷺ: الحمو الموتُ)). يعني: أقارب الزوج هم بمثابة الموت.

ومن المعالم المهمة: حِرص الداعية على دعوته في كل حال، في كل زمان، في كل مكان، في كل ظرف أَلَمَّ بهذا الإنسان. عاش يوسف في السجن مدة، ومع

ذلك لم ينسَ أنه صاحب عقيدة صحيحة، وأن عليه أن يوصلها للناس؛ ليؤمنوا بها، وأن يتحولوا إلى الالتزام بتعاليمها، هذا مسلك الداعية دائمًا مع دعوته، يقول: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]. إن معرفته بالله أسلمته لقدرته ﷻ فالحكم كله له، وعلى الإنسان أن يستسلم لجلاله، والحكم والتشريع كله لله فقط، ولا يجوز مطلقًا أن يقوم غيره بهذا الأمر سواء كان فردًا أو جماعةً؛ حتى لا يكون لله ﷻ شريك في ألوهيته وعبوديته لخلقه.

وأخيرًا، فإن هذه القصة تقدم منهجية عالية في الدعوة إلى الله تعالى حيث تقوم على أمرين:

الأمر الأول: التدرج في الوصول إلى الغاية، والتدرج يختلف عن المجاراة، ذلك أن التغيير الكلي لا يتم دفعةً واحدةً، ولذلك يرى علماء التربية ضرورة التدرج ،بل يرون من خصائص التربية الصحيحة أنها تقع متدرجة في التعليم، وفي حَمْل الإنسان على التغيير مع تقديم السهل على الصعب، ولهذا كانت الدعوة الناشئة تقدم السهل من قضاياها على غيرها، وتنتقل من البديهيات والمسلمات إلى ما يحتاج إلى دليل وبرهان، اتبع يوسف هذا مع مَنْ التقى بهم.

وقد اشتملت قصته على نماذج لهذا التدرج، فهو # حين عرَضَ عليه صاحباه ما رَأيا وطلبَا منه تفسيرًا لِمَا رأيا، أخذ يدخل إلى قلبيهما مدخلًا لطيفًا رفيقًا متدرجًا، حيث بدأ بتأكيد الثقة في علمه، وأخذ ينبئهما بالطعام الذي سيأتيهما قبل إتيانه، وبعدما بين لهم أن هذا العلم جاءه من ربه الذي يعبده ويؤمن به، وبالضرورة سيتساءل صاحباه: ما دينه؟ وما ربه؟ فهو على الفور يوضح لهما أنه ليس على دين الناس، إن دين الناس باطل، هم يكفرون بالله ولا يؤمنون باليوم

الآخر، أما دينه فهو دين إبراهيم وإسحاق -عليهما السلام- وهو دين يقوم على التوحيد الخالص لله: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]. يخاطب فيهما هذا العقل الراشد، وهذه العاطفة الجَياشة، ويسألهما السؤال الذي لا يحتاج إلى جواب؛ لأنه أجاب عنه في حديثه الذي سبقه مباشرةً، وإنما يقصد بالسؤال أن يفكروا في عقيدتهم، وأن يعودوا إلى فطرتهم، وأن يتجاوبوا مع أصالتها.

والأمر الثاني: أن القصة وسيلة من وسائل الدعوة الفعالة، القصة عَمَلٌ فني متكامل يقصد به التأثير في القارئ والمستمع بعدما ينجذب إلى أحداثها وشخوصها، وقصة يوسف # نموذج كامل للقصة القرآنية، حيث تضم القصةُ ثروةً من الحقائق والمعارف، وقدرًا كبيرًا من الإيحاءات والتوجيهات، وتنوعًا واسعًا في الأدلة والبراهين التي تثبت حقائق الدين، إن مجرد تذكر يوسف # يجعل العقل يسبح في الصورة من أولها إلى آخرها، وهو يتصوره طفلاً تارةً، وسجينًا أخرى، وواليًا على خزائن الأرض ثالثة، وهو بين إخوته وأهله، وهو مع النسوة، وهو مع الملك. إن القصة تجمع كافة العناصر بحيوياتها ونشاطاتها، فهي تصور المكان مع تنوعه وتغيره تارةً في الجُب، وأخرى في السجن، وثالثة في القصر والعرش، وهكذا قصة مؤثرة تحمل معاني كثيرةً، وإشارات بليغة، كانت هذه القصة من أفعل وسائل التأثير في نفوس المدعوين وما تزال.

على الدعاة أن يستفيدوا بقصص القرآن الكريم من ناحيتين:

الأولى: أن يستشهدوا بمقاطعَ من القصة في دعوتهم الناس، كمقطع العفة في حياة يوسف؛ لأن هذا الاستشهاد يعد دليلًا عمليًّا عاشه الناس في عالم الواقع، ولذا فهو بعيد عن الخيال والأحلام.

الثانية : أن يستفيدوا بالقصة القرآنية كرمز يساعد على توضيح المراد ومعالجة الواقع ، من غير حساسية أو تجريح ؛ لأن ربطها بالقرآن الكريم يعد إبرازًا لمبدأ مقرر شرعًا.

والقصة القرآنية حين تخرج من جو القرآن الكريم يكون لها من السحر وقوة التأثير وسرعة التصديق ، ما ليس لغيرها من كلام الناس ، وهذه القصة العظيمة ملأى بالتوجيهات المعبرة ، والدروس المفيدة ، وعلى الدعاة أن يستفيدوا من منهجيتها ، وأن يسلكوا مسلكها في الدعوة والتوجيه. وبهذا نكون قد أتينا على المهم من ركائز الدعوة ، ومعالمها في قصة يوسف # وفي دعوته التي انتفع بها المصريون والإسرائيليون معًا وعلى حد سواء.

فضل "أيوب" و"ذي الكفل" عليهما السلام

أولًا : دعوة نبي الله أيوب # :

إن أيوب # من ذرية إبراهيم ، فهو أيوب بن موص بن زَرَاح بن إسحاق ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٤]. وأيوب نبي أوحى الله إليه ؛ لقول الله : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ [النساء : ١٦٣]. وأيوب يقال : إنه اسم عربي أو عبري ، وهو بمعنى : الأوبة والعودة إلى الله ﷻ.

تزوج أيوب ابنة عمه وقيل : إن اسمها رحمة بنت يوسف بن يعقوب ، وكان مبعثه # بحَران ، وقيل : إن زوجه هي لِيَا بنت يعقوب ، وقيل : ليا بنت منشى بن يعقوب.

وقد أخبرنا الله ﷻ عن قصته في موضعين من كتابه:

الموضع الأول: في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

والموضع الثاني: في سورة ص، في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

أيوب # كما تحدث عنه القرآن كان في نَعمة من العيش، وكان أحد الأغنياء الأنبياء كما ورد في بعض المصادر، وكانت كذا زوجه التي آمنت به وبدعوته، وقد التزم # مقام العبودية، وأسلم أمره لله تعالى، وابتُلي بتغير الحال، فصبر، وكان كثير التسبيح لله رغم ما كان فيه من البلاء، وقد استمر أيوب في دعوته للناس سبعين عامًا، كان فيها عظيم التقوى رحيمًا بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام، يكرم الضيف وينصح بالحق في رفق ولين، ومن رفقه بقومه وشدة تقواه، أنه كان يمر بالرجلين يتنازعان، فيرجع إلى بيته يكفر عنهما؛ كراهيةَ أن يذكرَا الله إلا في حق، ومخافةَ أن يكبهما الله في النار.

استمر أيوب في دعوته إلى الله حتى بعد أن ابتلاه الله ﷻ في جسده بأنواع من البلاء، فرفضه الناس إلا امرأته. ذات يوم بعد أن نزل به ذلك البلاء، ففقد ماله وأهله وولده، ولم يبقَ معه إلا زوجه، وأصيب بعد ذلك في بدنه حتى لم يبقَ في جسده عضو سليم، وقد عاش أيوب # في البلاء مدةً طويلةً، اختلف العلماء في تحديدها، أقلها في أقوالهم: أنه عاش ثلاث سنين، وأكثرها أنه عاش ثماني

عشرة سنةً. وقد قابل أيوب هذا البلاء بالصبر والاستسلام لله تعالى عبوديةً وخضوعًا، قالت له زوجته: يا أيوب، لو دعوت ربك لفرَّج عنك، فقال لها: لقد عشت سبعين سنةً صحيحًا، فهل قليل أن أصبر على البلاء سبعين سنةً؟!.

وكما اختلف العلماء في تحديد مدة البلاء، اختلفوا في صوره وأنواعه، وبخاصة ما كان في بدنه، ويذهبون في ذلك إلى آراء كثيرة، أوصلها القرطبي إلى خمسة عشر صورةً، والذي يبدو أن الله تعالى ابتلى أيوب، فصبر حتى صار يُضرب بصبره المثل.

وكان مما ابتلي به المرض، ولكن هذا المرض لا يكون مرضًا منفرًا، ولا يلحق به نقصًا في شخصه، فهو رسول مكلف بدعوة الناس، ولو كان به نقص ذاتي أو مرض منفر، لاعتذر الناس به عند الله، ولهذا لا يسوغ أن يقال: إنه كان مريضًا مرضًا ينفر الناس منه، ولذا فهو مرض لا يمكن أن يُوصف إلا بأنه يسبب ضعفًا عامًّا، أو يمنعه العافية في بدنه من غير أن يكون مؤذيًا لأحد من الخلق. والابتلاء متحقق في حق أيوب # بهذا المرض الشديد الذي طال عليه، # .

وعليه، فإنه ما قيل من أن أيوب # أُلقي في مكان، وعزل عن الناس، أو إنه امتلأ جسده بالدود، أو تقيح جسده، أو عبثت الدواب به... إلى آخر هذا، فهذا مما ينبغي أن تُصان عنه أنبياء الله، وأن يُصان عنه رسل الله الذين هم عند الله بمنزلة، لكنه كان في بلاء يضعف بدنه، ويذهب بعافيته وقدرته، هذا الذي يتقرر.

انصرف الناس عن أيوب فلم يبق معه إلا زوجته، استمرت تخدمه وتساعده، وتعمل لدى الناس؛ لتنفق عليه من أجرها، واستمرت على ذلك حتى انصرف الناس عنها؛ خوفًا من انتقال مرض زوجها إليهم، فعمِدت إلى إحدى ضفيرتيها فباعتها لإحدى بنات الأشراف بطعام طيب وفير، ثم باعت الضفيرة الثانية وأنفقت ثمنها على أيوب وأطعمته.

ومرة أخرى يجب علينا أن نؤكد، أن ما جاء من الإسرائيليات الضعيفة التي تخالف ما جاء في القرآن وصحيح السنة المطهرة، هي من الروايات التي يجب اطراحها، ولا يجوز النظر إليها أو الاعتماد عليها.

وأصح ما ورد في قصة أيوب # ما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جريج وصححه، وابن حبان، والحاكم، من طريق نافع بن يزيد، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس: أن أيوب ابتلي، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنةً، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه، فكانَا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب -يعني: فحزن- ودَعَا الله حينئذٍ، فخرج لحاجته، وأمسكت امرأته بيده، فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى اللهُ إليه أن: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢]. وضرب برجله الأرض، فنبعت عين فاغتسل منها، فرجع صحيحًا، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب، فقال: إني أنا هو، وكان له أندران؛ أحدهما: للقمح، والآخر: للشعير، فبعث الله سَحابةً فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض.

وأما ما ذكره بعض المفسرين من محاولات عديدة لإبليس مع أيوب، منها: أن الله كلم إبليس، وأنه مكن له في السماء السابعة، أو أن إبليس جاء إلى أيوب، فوسوس له وأخبره بأن زوجته بغت بمال أنفقته عليه، فتألم وأقسم ليضربنها مائةَ سوط، فلما جاءته سألها عن مصدر المال الذي تأتي به، فكشفت له عن رأسها وأخبرته بأنها باعت ضفيرتيها؛ لتنفق ثمنها وتطعمه منها، فهذا كله مما لا دليلَ عليه، وكثير من هذه الروايات لا يتصور وقوعها في حق أنبياء الله تعالى ورسله.

على كل حال تألم أيوب # لحال زوجته حينما رأى رأسها ورَقّ لها، فسأل الله أن يكشف عنه الضر والأذى؛ رحمةً بزوجته، فلما تم الأجل الذي قدره الله، واتجه أيوب إلى ربه، وسأله كشف الضر، قال ما حكاه الله عنه: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وقال -جل من قائل-: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾. والمراد بالنصب الضر الذي أصابه في بدنه، والمراد بالعذاب الضر الذي أصابه في ماله وولده، وقيل: النصب هو الشر والبلاء ماديًّا كان أو معنويًّا، كالوسوسة والشك، وأما العذاب فهو البلاء والشر المادي فقط، واستجاب الله تعالى لأيوبَ # فانفرجت غُمته، وتنفست كربته، وذهب بلاؤه، وقال الله له: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢].

أمره ﷻ أن يضرب الأرض برجله، فضربها # ضربةً، فنبعت عين، فأمره الله أن يغتسل منها فاغتسل، فذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فنبعت منه عين أخرى، وأمره أن يشرب منها، فلما شرب ذهب جميع ما كان في باطنه من السوء.

وتكاملت العافية ظاهرةً وباطنةً بعدما اغتسل من عين، وشرب من الأخرى، وكافأه الله تعالى على صبره الجميل، بأن أعاد له أهله ومثلهم معه، كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وللعلماء في إعادة أهله له أقوال متعددة؛ منها: أن الله أحياهم بأعيانهم، وينسب هذا القول إلى ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد { والقول الثاني: أن الله خيره بين إحضارهم بذواتهم أو تركهم في الجنة على أن يُؤتى له بأمثالهم، فاختار بقاءهم في الجنة، وإحضار أمثالهم له في الدنيا، والثالث: أنه أوتي

أجـرهم في الآخـرة، وأعطـي أمثـالهم في الـدنيا. ومـع الآراء الثلاثـة فقـد أوتـي بأمثالهم، وضاعف الله له في نعمه، ومن عجيب قدر الله أن زوجته لما جاءته بعد أن اغتسل، وألبسه الله حُلةً من الجنة، لم تعرفه، فقالـت لـه: يا عبد الله، أيـن ذهب هذا المبتلى الذي كان ها هنا؟ فوالله مـا رأيـت رجلًا أشبه بـه منك إذ كـان صحيحًا، فقال لها: فإني أنا هو، وأعاد الله لزوجته شبابها، وأنجبت له عددًا من الأولاد.

وأما بالنسبة لِقَسمه الذي حلف ليضربنها، فقد علمـه الله تعـالى مـا يـبر بـه في هـذا القسم من غير أن يؤذيها؛ رحمةً بها وبه، قـال تعـالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ ﴾ فأخذ بيده حزمة من الحشيش الأخضر اللين بها مائة عـود صـغير، وضربها به مرةً واحدةً خفيفةً، وبذلك بَرَّ قسمه ولم يؤذِ زوجته.

وهكذا انتهت محنة أيوب بعودة ما كان فيه من خير، وبمضاعفة الله ﷻ لـه العطاء؛ تكريمًا له، وإحسانًا إليه. وفي البخاري من حـديث أبـي هريـرة، أن النـبي ﷺ قـال: ((بينما أيوب يغتسل عريانًا، خَرَّ عليه رجل جراد من ذهـب، فجعـل يحثـي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك)). فنزل عليه الـذهب في شكل جماعات الجـراد، فأخـذ يجمعهـا، ويلتقطهـا في ثوبـه، فلمـا سـأله الله عـن عطائـه إيـاه، أقـر لـه # بأنـه أغناه، لكنه مع ذلك لا يستغني عن الزيادة في رحمة الله وبركته وإنعامه.

وهكذا عاش أيوب في النعم الوافرة وخيرات الله الكثيرة حتى لقـي ربـه عـن عمـر يزيد على تسعين عامًا، فصلى الله عليـه وعلـى نبينـا وآلـه وسـلم. ثـم ننتقـل إلى الركائز والمعالم الأساسية في الدعوة إلى الله مـن وحـي قـصة أيـوب، عليـه وعلـى نبينا الصلاة والسلام.

لا شك أن من أهم الدروس التي ينبغي أن يأخذها الدعاة من هذه القصة: هي عاقبة الصبر، فلا شك أن نبي الله أيوب ابتلاه الله تعالى في هذا الباب بلاءً عظيمًا، حتى قص خبره علينا في كتابه، ثم إنه حُمدت عاقبة الصبر، فإن عاقبة الصبر محمودة ولا شك.

ولقد رأينا أيوب # يبتلى في نفسه وماله وأهله وولده، فلا يجزع، ويظل على حسن الظن بالله ﷻ وعلى جميل الصبر مدةً طويلةً، راضيًا بقضاء الله تعالى وقدره، والدعاة أحوج الناس إلى الصبر؛ لأنهم هم الذين يجابهون أعداء الله في الأرض، وكثيرًا ما يتمكن الأعداء منهم، وحينئذٍ يكون الصبر ملاذهم ومأواهم، والله -تبارك وتعالى- يوجه إلى هذا في كتابه العزيز، فيقول لنبيه ﷺ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢]. فهو اصطبار على هذه الدعوة، وما يقع فيها، وهذا أيوب # لَمَّا أقسم على أن يضرب زوجته مائةَ سوط، علَّمه الله أن يبر بقسمه ولا يؤذي زوجته؛ ليتعلم كيف يكون رفيقًا رقيقًا معها، ولم يأمر الله تعالى أيوب بترك الضرب بالكلية، ليعلم أن من حق الزوج أن يؤدب زوجه في حدود الرفق والمودة والرحمة.

ومن الدروس أيضًا: الثقة المطلقة في الله -تبارك وتعالى- والداعية أحوج الناس إلى هذا، إن الثقة في الله تملأ القلب قوة، والدعاة إلى الله ﷻ يواجهون ما يواجهون وهم يحتسبون في هذا عند الله -تبارك وتعالى- أجرًا، ولذا لم يكن عجيب عند العقلاء ما نراه من أنبياء الله تعالى وهم يستمرون في الدعوة إلى الله، بلا أتباع وبلا أنصار من الناس، فقد مر معنا في قصة أيوب أنه رفضه الناس جميعًا إلا رجلان مع زوجه، فكان هذان يختلفان إلى أيوب ويذهبان إليه، ويسمعان منه، وأيوب # يضرب المثل الأعلى في الثقة المطلقة بالله ﷻ لم يذهب إلى طبيب يعالجه، ولم يلتمس طريقًا يشفيه، فلما أراد الله له النجاة

والشفاء، أخذه إليه فناداه قائلًا: إني مسني الضر. يعني: ينادي ربه ﷻ أنه مسه الضر، وأن الله - تبارك وتعالى - هو أرحم الراحمين بعبارة رقيقة وإشارة رفيقة إلى حاله، حينئذٍ جاءه الأمر من الله ﷻ بالاغتسال في الماء الذي نبَعَ له بعد أن ضرب الأرض بقدمه، وأعاد له ما أخذ منه، وزاده فوق ذلك من أهل ومال، ومثل ذلك من ثواب الله ﷻ كثيرٌ وكثير.

ومن الدروس التي تستفاد من هذه القصة: أنه لا بد من الأخذ بالأسباب المشروعة، فلم يكن بعيدًا على الله تعالى أن يشفي أيوب بلا عمل ولا دعاء، ولكن الله تعالى أمره أن يضرب الأرض بقدمه؛ لينبع الماء، فيغتسل منه وليشرب، وبذلك يزول ما ببدنه وباطنه من الأذى، أمره الله تعالى بذلك؛ ليعلِّمَ الناس من بعده أن الأمور إنما تجري وفق أقدار الله، والأقدار ترتبط بالأسباب التي يقوم بها الناس حتى لا يتكلوا، والنبي ﷺ قال: ((يا عباد الله، تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضَعَ له شفاءً)).

ومن الأخذ بالأسباب قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]. والنبي ﷺ في دعوته آخذٌ بالأسباب في كل وقت وعلى كل حال، ومن الأخذ بالأسباب ومراعاة الواقع: أن يلهج اللسانُ بالدعاء، فإن الدعاء من هذه الأسباب التي يعجِّل الله تعالى بها النصر، ويرفع الله تعالى بها الضراء، ويحول بها البأساء. فالدعاء الخالص عبادة حقيقية، وهو من أقرب الأسباب التي يتحول بها الحال، ويتغير بها الأمر. ولهذا الدعاةُ إلى الله تعالى أحوجُ الناس إلى هذا السبيل، وعليهم أن يلجئوا إلى الله في السراء والضراء؛ ليدوم لهم العطاء، وليتحقق لهم النصر، وليتمكنوا من نشر دين الله، وليبقوا مع العافية إلى أن يصلوا إلى مبتغاهم من دعوتهم بين الناس وعند الله تبارك وتعالى.

بهذا نكون قد أتينا على المهم من هذه الدروس التي يستفيدها الدعاة إلى الله ﷿ من قصة أيوب، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ثانيًا: دعوة ذي الكفل # :

وَرَدَ ذكر نبي الله ذي الكفل في آيتين من كتاب الله تعالى في سورتي "الأنبياء" و"ص"، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨].

والظاهر من ذكره # في القرآن بالثناء والإكرام، مع كونه ورد اسمه مقرونًا بأسماء ثلة من أنبياء الله تعالى بلا خلاف، كإسماعيل وإدريس واليسع، هذا كله يدل على أنه من أنبياء الله تعالى، وهذا هو المشهور. وإن ورد عن بعض العلماء أن ذا الكفل ليس نبيًّا، ولكنه عبد صالح، تكفل ببني قومه بأن يكفيهم أمرهم، فيقضي لهم حاجتهم، ويحكم بينهم بالعدل وبالحق، ففعل ذلك، فسمي بذي الكفل.

وقيل: إنما سمي كذلك؛ لأنه تكفل بأمرٍ فوفَّاه، وقيل: لأنه تحمل ضعف غيره في العمل، وثوابه ضعف ثواب غيره أيضًا، وينسب هذا الرأي لمجاهد، وقَتادة.

ويذهب آخرون منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره: إلى أن ذا الكفل نبي من الأنبياء، وقد استدلوا بأن الكفل اسم مفيد ومعناه: النصيب، وسماه الله بذلك على سبيل التعظيم والإكرام، فوجب أن يكون الكفل هو كفل الثواب أي: نصيب الثواب؛ لأن الله تعالى جعل عمله ضعف عمل غيره، وجعل ثواب عمله ضعف ثواب غيره، وكان في زمانه أنبياء، وهذا يرجح كونه من الأنبياء؛ لأنه لا يجوز أن يكون ثواب الرجل الصالح -إن قلنا بعدم ثبوت نبوته- أفضل من ثواب النبي مهما كان العمل الذي كُلف به.

ثم إن الله -تبارك وتعالى- كرم اسمه كما قدمنا، وذكره مع إسماعيل وإدريس، وهؤلاء -كما قلنا- أنبياء، فهو نبي مثلهم، والسورة أيضًا ملقبة بسورة الأنبياء، فكل مَن ذكره الله ﷻ فيها فهو نبي.

يذكر الترمذي: أن ذا الكفل من أنبياء بني إسرائيل، وبرغم أن الآيات لم تفصِّل في حركته بالدعوة، إلا أن الأوصاف التي أوردتها السورة عنه # تدل على ملامح دعوته. وقد روى ابن جرير، وابن حاتم، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلًا على الناس يعمل عليهم في حياتي؛ حتى أنظر كيف يعمل، فجمع الناس، فقال: مَن يتقبل لي بثلاث أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب؟ قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فقال: أنتَ تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليومَ الآخر، فسكَت الناس، وقام ذلك الرجل، فقال: أنا، فاستخلفه، فسماه الله تعالى ذا الكفل؛ لأنه تكلف بأمرٍ، فوفَّى به، وهذا ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية).

فمن وفَّى لله وفى الله له، وألبسه رداءَ عمله، والجزاء من جنس العمل، ومن غلَب عليه ما وفى به سماه الله تعالى به؛ ولأجل هذا جعل الله ﷻ اسمه ذا الكفل، وجعله قرآنًا يُتلَى، فأيُّ شرفٍ وأي جزاء فوق هذا؟! هذا جزاء المتهجدين، والصائمين، والمقسطين في حكمهم.

إذا أردنا أن نتبين ملامح دعوة ذي الكفل # فإنها كما هي ظاهرة مما قصها الله تعالى أنه تكفل بما عهد إليه، ووفى بكل ما كلف به، وذلك دليل على قيامه بأمر الدعوة والبلاغ؛ لأنها موضوع رسالته التي كُلف بها، والقضية التي بُعِثَ لها،

وكان # يتكفل لكل إنسان بحاجته، فقصده أصحاب الحاجات، وبهذا سهُل أمامه الاتصال بهم، وسهل أمامه أن يدعوهم إلى الله تعالى.

ثم إن ذا الكفل # كان من الصابرين، وهي صفة أساسية في نبوته، فبها يؤدي حق الله تعالى وحق الناس، ويتحمل ما يعارضه وما يعاديه، ويتحمل ما يوجه إلى شخصه الكريم؛ لكونه رسولًا، أو لدعوته، أو نحو ذلك، وهو أيضًا من الأخيار، وخيرية الرسول دائمًا تكون لنفسه وللناس، فهو يحمل خيرية في ذاته، يحمل خيرية في دينه، يحمل خيرية في عقيدته، يحمل خيرية في شريعته وعبادته، يحمل خيرية للناس بنصحه وإرشاده، يحاول إصلاح حياتهم، ويحاول إصلاح آخرتهم، يبصرهم بما يجب لهم على الله، وبما يجب عليهم لله تعالى.

هذه الملامح مستفادة من الصفات الذي ذكرنا. وأما بيان الوقائع التي تدل عليها، فهذا مما لم ينته إليه علمنا، ولم يتكلم عليه المفسرون والمؤرخون، وكل ما فصل فيه فلا دليلَ عليه، ولذلك كان الاكتفاء بما ورد في كتاب الله أولى من الدخول فيما لا تحمد عقباه.

دعوة "يونس بن متى" و"موسى" عليهما السلام

عناصر الدرس

العنصر الأول	: دعوة يونس #	١٨١
العنصر الثاني	: موسى # نشأته، وخروجه إلى مدين	١٩٠
العنصر الثالث	: رسالة موسى # ومعالم دعوته	٢٠٣

دعـــــوة يـــــونس

نحن في قرية يقال لها: "نينوى" عاش أهلُها في ظلمات الجهل والشرك زمانًا طويلًا، فأرسل الله عَجَلّ إليهم رجلًا من أبناء يعقوبَ # بعثه الله تعالى إلى غير الإسرائيليين، وهو يونس # حمَلَ إليهم مِشعل الإيمان، ورفع لهم عَلَم التوحيد، دعاهم إلى الله عَجَلّ ولكن القوم -كعادة المشركين والمكذبين في كل زمان- أَبَوْا أن يسلكوا طريق الهدية، وآثروا أن يسلكوا طريق الشر والغِواية.

فهذه قصة يونس، تظهر أمامنا عَيَانًا؛ لنستفيد منها التجربة الماضية، والسنة التي جرت في عباد الله تعالى المؤمنين والمكذبين على حد سواء.

قوم يونس هم من الآشوريين الذين أسسوا حضارة عُرفت باسمهم، ونُسبت إليهم، وموطنهم حول نهر دجلة وروافده من بلاد العراق. أشهر مدنهم: آشور، ونينوى، وتقع هذه المدن في الجهة المقابلة لمدينة الموصل الحالية. والآشوريون نشئوا في البادية، إلا أنهم تغلبوا على أهل المدينة، وأسسوا دولتهم وحضارتهم، وكانت لهم عاصمتان؛ الأولى: آشور وهي عاصمة فصل الشتاء، ونينوى وهي عاصمة فصل الصيف.

عبدوا الآشوريون أصنامًا لهم سموها بأسماء مدنهم، وجعلوا إلههم الأكبر هو آشور، وبه يسمَّى مِلِكهم، وكانوا يتوجهون بالعبادة لآشور -أي: للملك- ويتقربون إليه بالعطايا، يسيرون على أمره ونهيه.

دعوة يونس # للآشوريين انطلقت من نينوى، يدل على ذلك ما حدث مع نبينا ﷺ يومَ أن ذهب إلى الطائف، حين التقى بعداس غلام بني ربيعة

النصراني، وحين قدَّم عدَّاس للنبي ﷺ قطفَ عنبٍ، مد النبي يديه إليه قائلًا: ((بسم الله)) وذلك قبل أن يأكل، فقال عدَّاس: إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال له النبي ﷺ: ((مِن أي البلاد أنت؟)) فقال: أنا من نينوى، فقال له النبي ﷺ: ((أَمِنْ قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟)) قال له عدَّاس: وما يدريك ما يونسُ؟ فقال له النبي ﷺ: ((ذلك أخي، كان نبيًّا، وأنا نبيٌّ)).

نبي الله يونس دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وأمرهم بنبذِ ما هم عليه من عبادة غير الله، ومن خُلق سيء وظلم وعدوان على الناس، ومن البديهي أن الله ﷻ يمده بالمعجزات وينزل عليه الوحي، لكن القوم أسرُّوا على ضلالهم وفسادهم، وتمسكوا بعبادة ملوكهم وأوثانهم، فلما طال الزمن وهم على ضلالهم، غضِبَ يونس # من عنادهم، فأنذرهم عذاب الله الذي سينزل عليهم إن هم أسروا على ما هم عليه من الكفر والضلال، فلما ظهر العذاب فوق الرءوس، فَرَّ # من بلدهم، واتجه إلى الشرق حيث البحر والسفن؛ ليتمكن من السفر بعيدًا عنهم.

لكن القوم بعد أن تركهم يونس # خافوا من نزول ما خَوَّفهم منه، وقذف الله في قلوبهم التوبة والرجوع إلى الله، فلبسوا مسوح الرهبان، وقاموا بالتوبة إلى الله، وأخذوا يستغيثون ويتضرعون إلى الله؛ ليكشف عنهم غضبه، وينزل عليهم رحمته، فاستجاب الله لهم، ورفع العذاب بعد أن كان قد اقترب منهم، وأظلهم.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: بعث الله يونس # إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله ﷻ فكذبوه، وتمردوا، وظلوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليهم من أمرهم، خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول

العذاب بهم بعد ثلاث، فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله ﷻ وصرخوا، وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فَرَغَتِ الإبل وفصلانها، وخارت البقرة وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذابَ الذي كان قد اتصل بهم سببه، ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقال عن قومه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

أي: هَلَّا وجدْتَ فيما سلف من القرون قرية آمنت بكاملها، فدل على أنه لم يقع ذلك، بل الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

مضت الأيام الثلاثة التي وعد بها يونس قومَه، ثم جاء ينظر موعودَ الله فيهم، ولعله كان معتزلًا لهم، لم يدرِ بما فعلوه ولا ما أحدثوه من التوبة والإنابة، فوجدهم لَمَّا أطَلَّ عليهم سالمين، فأغضبه ذلك، وكان جزاء الكاذب عندهم أن يُقتل، فخرج هاربًا من قومه؛ خشيةَ أن يُقتل، وسار حتى أتى شاطئ البحر، ويبدو من التأمل في نصوص القرآن الكريم في السنة، أن خروجه لم يكن بإذن

من الله تعالى، ولذا وصفه الله ﷻ في حاله تلك، بأنه كان آبقًا، والآبق: هو العبد الهارب من سيده كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [الصافات: ٣٩، ٤٠]. وفي آية أخرى قال: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فالآية. تشير إلى غضب يونس # من قومه، كما تشير إلى فراره منهم، وأن القوم آمنوا بعد فراره، فنفعهم إيمانهم، ورفع الله ﷻ عنهم عذاب الخِزي الذي كاد أن يحل بهم، ومتعهم الله تعالى في الدنيا، وسوف يُمتعون في الآخرة بإذنه تعالى؛ لإيمانهم وتقواهم.

يقول ابن كثير: وقد اختلف المفسرين في انتفاعهم بهذا الإيمان في الدار الآخرة على قولين، والأظهر من السياق انتفاعهم به لإطلاق مسمى الإيمان عليهم، والإيمان يُنقذ من عذاب الأخيرة.

ويفسر العلماء ذهاب يونس مغاضبًا بما يليق بمقام النبوة بعدة أوجه:

الوجه الأول: أنه ذهب مغاضبًا من أجل ربه، والمؤمن يغضب لله إذا عُصي أمرُ ربه ﷻ وتركت طاعته.

والأمر الثاني: أنه غضِبَ على قومه من أجل كفرهم، واشتد عليهم، وفر منهم، ولم يصبر على أذاهم.

والثالث: أنه ترك الناس وذهب مغاضبًا للملك الذي يتولّى أمور الناس؛ لأنه لم يكن معه في دعوته لهم، ووقف منه موقفًا سلبيًّا.

وهذه الأقوال لعل مِن أرجحها الرأي الأول، وهذا الرأي يدل على أن المغاضبة أيًّا كان المراد بها على: ضيق صدر يونس، تدل على أن يونس ضاق بهم ذرعًا، وأنه لما تحمل أمر النبوة قام به بمشقةٍ وعُسرٍ، ولذا لم يصبر على قومه، وكان يتوعدهم بالعذاب ينزل بهم، فلما أظلهم العذاب تركهم، لكنهم تابوا، فرفع

الله عنهم العذاب، وعاتب الله يونس؛ لأنه تعجل بتركهم، أو لأنه لم يكن له أن يتركهم إلا بإذن الله تعالى.

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها، وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقًّا، لكنه في الحقيقة بعض تكاليف الرسالة، فلا بد لمن يكلفون بحمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا، ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدءوا فيها ويُعيدوا، لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب مهما واجهوا من إنكارٍ وتكذيبٍ، أو عُتو وجحود، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب، فلعل المرة الوحدة بعد المائة هي التي تصل، أو لعل الواحدة بعد الألف، ولو صبروا هذه المرة، وحاولوا، ولم يقنطوا، لتفتحت لهم أرصاد القلوب.

طريق الدعوة ليس طريقًا هينًا ولا لينًا، واستجابة نفوس للدعوات ليست قريبةً ولا يسيرةً، فهناك رُكام من الباطل والضلال، والتقاليد والعادات، والنُّظم والأوضاع، كل هذا يَجْثِمُ على القلوب، فلا بد من إزالة هذا الركام.

نبي الله يونس ذهب مغاضبًا، والله ﷻ نَبَّه نبيه ﷺ ووعظه قائلًا: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]. يأمر الله تعالى محمدًا ﷺ ألا يكون كأخيه يونس في الغضب، والضجر، والعجلة، ويوم أن دَعَا ربه وهو في بطن الحوت، كان مكظومًا.

يقول ابن عباس ومجاهد أي: مملوءًا غمًّا. ويقول عطاء وغيره أي: مملوءًا كَربًا، والفرق بينهما أن الغم في القلب والعقل، والكرب في النفس، وهذه من العواطف، ولا مانعَ من إرادة المعنيين معًا.

نبي الله يونس خرج من عند قومه، ذهب إلى البحر واستقل سفينة؛ لتأخذه بعيدًا عن قومه، وجد السفينة مملوءة، فركبها وصارت السفينة، ودخلت بركابها في البحر، فلما جاءها المَوْج من كل مكان، ثقلت بمن فيها، وتوقفت في عرض البحر، فتشاور الركاب فيما بينهم، واتفقوا على أن يقترعوا، فَمَنْ أصابته القرعة أَلْقَوْه في البحر، ليتخففوا منهم، وتنجو سفينتهم، فلما اقترعوا وقَعَ السهم على نبي الله يونس، فلم يجروا القرعةَ عليه؛ لصلاحه، لخُلقه، ثم أعادوا القرعة ثانيةً، وثالثةً، وفي كل مرة تأتي عليه، فألقوه في الماء حيث لا مناصَّ من ذلك، وجرى قدر الله -تبارك وتعالى- فأتى حوت عظيم، فالتقمه في الحال، إلا أن الله ﷻ أمر الحوت ألا يأكل لحمه، أو يكسر عظمه، ابتلعه الحوت واستقر يونس في بطنه حيًّا، فماذا فعل في هذه الظلمات؟

أخذ يسبح ربه، ويعبده، واتخذ من بطن الحوت مسجدًا، واستغرق في الذكر والدعاء، نادى ربه أن ينقذه من هذه الظلمات، وتاب عما كان منهم بعدما رأى أنه تضايق في ساعة الدنيا فضيق الله عليه في بطن الحوت، صور الله ذلك بقوله: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] مَحَّصَ الله تعالى نبيه، وأدبه، وسمع صوته، ورأى ما عليه من الإخبات، وخرج صوته بالتسبيح والتهليل لله ﷻ فأمر الحوت أن يقذفه على الساحل، فقذفه عندئذٍ ضعيفًا نحيلًا هزيلًا، كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] نجاه الله تعالى، إلا أنه كان عاريًا، يحتاج إلى ستر وظل وطعام وشراب، فأتم الله تعالى عليه فضله، وأنزل الله ﷻ عليه نعمه، قال تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦]. الآية تشير إلى أنه أُلقي في العراء وهو ضعيف نحيلٌ، إلا أن الله ﷻ تداركه بنعمه، كما قال: ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴾ [القلم: ٤٩].

أنبت الله -تبارك وتعالى- عليه الشجرة من يقطين، وابن عباس > يقول: "هو القَرْعُ". فإن قيل: ما الفائدةُ في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟ فالجواب: أنه خرج كالفرخ -على ما وُصِفَ- قد ذاب جِلْدُه، فأدنى شيء يضر به يهزيه، وفي ورق اليقطين خاصيةٌ، وهو أنه إذا ترك على شيء لم يقربه ذباب، فأنبته الله عليه؛ ليغطيه ورقها، وليمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه.

قال ابن كثير -رحمه الله-: وذكر بعضهم في القرع فوائد؛ منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره نيئًا ومطبوخًا، وقشره أيضًا، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتتبعه من نواحي القصعة.

الخلاصة: أنه بقي على هذا الحال حتى أصبح سليمًا معافًى قويًّا.

أتم الله على يونس نعمته، فكلفه بالرسالة مرةً أخرى، وأرسله لقوم صدقوا به وأطاعوه. قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٨]. ولا مانع أن يكون هم قومه السابقون، وحينئذٍ تكون دعوتهم من قبيل التذكير، ومن الممكن أن يكون هؤلاء قوم آخرون مع قومه، وهو الأَوْلَى، والله أعلم.

وما نزل بيونس # تمحيص وتأديب، ولذلك كانت رحمة الله معه، وجرت أقدار الله لتحقق مراده ﷻ في إعادته لدعوة الناس بعدما عاش هذه المدة سجينًا في بطن الحوت. ولا ينبغي لأحد أن يتصور نقصًا بيونس # لأنه رسول الله، يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عنه ابن عباس > : ((لا ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى)). وابنُ حجر يقول: خص يونس بالذكر؛ لِمَا يخشَى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكر فضله؛ لسد هذه الذريعة.

دروس مستفادة من قصة يونس # وما تقوم عليه الدعوة من ركائز في هذه القصة:

المعلم الأول: مَعْلَمَ الصبر من أعظم وأهم هذه المعالم من هذه الدروس، ذلك أن طريق الدعوة إلى الله ﻷ طريق محفوف بالمخاطر والصعوبات، يلقى الداعية إلى الله ﻷ في طريق دعوته ما تشيب له رءوس الوجدان، ويعاني في هذا الطريق من الصعوبات والأهوال ما الله ﻷ به عليم.

وعلى الداعية ألا يكون ضجرًا إذا وجد السدود من الناس، وألا يفقد صبره إذا وجد من الناس الإعراض، فإنها سنة ماضية، أن يبذل الداعية أسبابه، وأن يلقى من العَنَت والضيق والمشقة ما الله ﻷ به عليم في طريق هذه الدعوة المباركة، فهي سنة الأنبياء إذن، ملة أول أنبياء الله ﻷ إلى آخرهم وهو نبينا، ﷺ.

المعلم الثاني: أهمية الإخلاص في العبادة والعبودية، فإن الدعوة إلى الله لا يعين على تحمل مشقاتها، ولا بلوغ غايتها مثل الإخلاص في طاعة الله ﻷ فإن القوة التي تعين على أداء مهام الدعوة، وعلى القيام بمشاقها، والتي تساعد في الوصول إلى القلوب والعقول، هو هذه القوة الكاملة في طاعة الله تعالى، وفي التعبد له، وفي التقرب إليه، وفي التذلل له، فهو سبحانه العليم بالقلوب، وهو سبحانه القادر على تسخير كل قوى هذا الوجود؛ ليكون في عَوْن عبده وفي طاعته، إذا كانت حالة الدعاة إلى الله أمس حاجة، ولا يتم لهم نوال ما أرادوا إلا بإخلاص العبودية لله، ولا يتم لهم ذلك إلا بالالتزام بحق المعبود في كل قولٍ وفعلٍ وعملٍ، وهذا الذي يمكِّن من القيام بواجب الدعوة من جهة، وتنتصر بها الدعوات من جهة أخرى.

لذلك الصلة بالله -تبارك وتعالى- هي من أعظم ما يثبِّت قلب الداعية، وإخلاص العبادة لله ﷻ هو من أنجح ما يستعمله الداعية لنصرة دينه ودعوته، وتأمل ذا النون # وهو في أشد حالاته من الكرب ينادي ربه، ويناجيه، يستغفره ويسبحه، ويذكره، ويدعوه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وفي الحديث من حديث سعد بن أبي وقاص، أن النبي ﷺ قال: ((دعاء ذي النون في بَطْن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَن يدعو به رجل مسلم في شيء قط، إلا استجيب له)).

وقد جَمَعَ في دعائه هذا بين التوحيد والتنزيه، والاعتراف بالتقصير، فالتوحيد لا إله إلا أنت، والتنزيه قوله: سبحانك، والاعتراف بالتقصير في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إذن، ذكر الله عدة الداعية، ذكر الله هو من أعظم ما يُعِدُّ الداعية في مواجهة المحن والفتن، وما يلاقيه في دعوته، وهذا الذي -كما قلنا- يثبت القلوب من جهة، وينصر الداعية من جهة أخرى، والنبي ﷺ يبين لنا فضل العبودية والعبادة، لا سيما في أوقات الفتن والمحن والكروب، فيقول كما في حديث مَعقل بن يسار > في (صحيح مسلم): ((العبادة في الهَرْج كهجرة إليَّ)). هكذا يقول النبي ﷺ والهرج: هو زمان الافتتان، أو زمان الاقتتال، واضطراب الأحوال، واختلاط الحابل بالنابل.

إذن، الإخلاص في العبادة والاجتهاد فيها هو من أعظم ما يحتاجه الداعية، وتمس حاجته إليه.

وبهذا قد نكون قد أتينا على المهم من هذه الركائز وهذه الأسس التي تقوم عليها دعوة ذي النون، عليه وعلى نبيا الصلاة والسلام.

موسى # نشأته، وخروجه إلى مدين

نبي الله موسى # من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله تعالى لقومه وللمصريين، وهو من أولي العزم، أي: ممن خصهم الله ﷻ بالعزم القوي، والصبر الجميل، والتحمل الشديد، ولذا تقررت قصته في القرآن طويلًا، وأعيد ذكره في القرآن كثيرًا، وكانت قصته من أكثر القصص القرآني ورودًا.

وقصة موسى # تبدأ بيوسف # فيوسف # كما مر معنا، جمع بني إسرائيل في مصر، وجاء بهم مع أبيهم يعقوب # ليعيشوا على أرض مصر، جاء بهم من البادية ليقيموا في الحاضرة -حاضرة مصر، وغيرها من المدن- وعاشوا معه وقتئذٍ منعمين، ممتعين بسلطانه وعِزته، وكان الرعاة -وهم الهكسوس- ملوك مصر يوم أن جاء آل يعقوب، فتعاون الإسرائيليون مع الرعاة، ولم يختلطوا بالمصريين، وعاشوا في عزلة بعيدًا عن المصريين. إلا أن المصريين تمكنوا من طرد الهكسوس مع بداية حكم الأسرة الثامنة عشر، فتغير حال الإسرائيليين، وانقلب وضعهم في المجتمع، وأخذ الفراعنة يتعاملون معهم كدخلاء ومتعاونين مع الأعداء، وكان من نتيجة ذلك الصنيع أن جعل فراعنة هذه الأسرة في تكليف بني إسرائيل بالشاق من الأعمال، وأرهقوهم، وأتعبوهم، فجعلوا منهم من يبني، ومنهم من يحرث، ومنهم من يزرع، ومنهم ما لم يكن له عمل، ففرضوا عليه الجزية. وهكذا ساموا بني إسرائيل سوء العذاب.

وقد أصدر فرعون ذلك الزمان قرارًا فيه: أنه لا يُولد ولد ذكر للإسرائيليين إلا قُتل، وأما الإناث فإنهن يتركن، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ [القصص: ٤]. وقال أيضًا: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]. فهو تارة يقسِّم بني إسرائيل إلى فئات متعددة، ففئة للزرع والحرث، وفئة للبناء والتشييد، وفئة للأعمال الشاقة، وهكذا. ثم إنه أضاف إلى هذا كما قال الله: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

كان الحامل على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يؤثرونه عن أبيهم إبراهيم # من أنه سيخرج من ذريته غلام، يكون هلاك مَلِك مصر على يديه، وذلك -والله أعلم- حين جرى على "سارة" امرأة الخليل # من ملك مصر من إرادته إياها على السوء، ومن عصمة الله تعالى لها، فكانت هذه البِشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها المِصريون فيما بينهم، فوصلت إلى فرعون، فذكره له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده، فأحسَّ هذا الطاغية بالخطر على عرشه ومُلكه من وجود هذه الطائفة في مصر، ولم يكن ليطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد بمئات الألوف، وقد يصبحون إلبًا عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب، عندئذٍ ابتكر هذه الطريقة الخبيثة؛ للقضاء على هذا الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده، ولا تعتقد بإلوهيته.

فماذا كان من أمره؟ أن سخرهم في الشاق الخطر من الأعمال، واستزلهم بشتى أنواع العذاب، وبعد ذلك يذبح الذكور من الأطفال عند الولادة، ويستبقي الإناث؛ كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم، وهذا يُضعف قوتَهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث فوق ما يُصب عليهم -والعِياذ بالله تعالى- من العذاب والنكال.

وقيل: إن سبب هذا القرار الظالم الغاشم، أن الكهنة والمنجمين أخبروا فرعونَ بأن مولودًا قد أظل زمانه من بني إسرائيل سوف يسلبه المُلك، ويبدِّل الدين، ويخرجه من مصر. وقيل: إن السبب رؤية رآها الملك من أن نارًا أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دورَ مصر جميعًا، وأحرقت سكانها، ولم تضر بني إسرائيل، فأوَّلها المعبرون بغلام إسرائيلي يولد، يدمر ملكَ فرعون أو ملك مصر التي يملكها فرعون.

وقد ورد أنه قيل لفرعون: أفنيتَ النسل، وهؤلاء خَوَلُك وعمالك، فكان من أمره أن أمر بقتل الغِلمان عامًّا، وباستحيائهم عامًّا، فوُلد هارون # في السنة التي يُستَحْيَا فيها الغلمان، وأما موسى # فقد كان ولادته في السنة التي كان يؤمر فيها بقتل الغلمان.

يصور القرآن الكريم فرعون ذلك الزمان، فيقول: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

وعليه، فإن المجتمع المصري -وقتها- كان منقسمًا إلى قسمين؛ قسم هو القسم الإسرائيلي وهم أبناء يعقوب، والقسم الثاني هم الأقباط، وهم سكان مصر الأصليون، عليهم يقوم نظام المُلك، قد خضعوا لجبروت فرعون الذي ادعى الألوهية، واتخذ المصريون منه إلهًا. كان الإسرائيليون وقتئذٍ على دين يوسف # إلا أنهم غيروا فيها وبدلوا، وأدخلوا فيهم بعضًا من ضلالات المصرين، وتشوهت عقيدة التوحيد لديهم، فأصبح خليطًا من الشرك والتجسيد، ولم يبقَ معهم من دين آبائهم إلا مسماه فقط، أما المِصريون فكانوا عبدةَ أصنام وأوثان وحيوان، ويتخذون فرعونَ إلهًا أكبرَ، ولذا كانوا جميعًا يحتاجون إلى رسول

يدعوهم إلى دين الله الحق، وقد جاءهم موسى # بهذا الدين ومعه أخوه هارون.

وفي ولادة موسى # وقعت عجائب، تدل على عظيم قدرة الله تعالى وعنايته، وكما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] لما أصدر فرعون قراره بقتل مَن يولد للإسرائيليين من الذكور وضَعَ كل المحاذير؛ حتى لا يُفلت أحدٌ من القتل، فماذا كان من أمر الله ﷻ والله -تبارك وتعالى- هو الغالب على أمره، وهو الذي يبلغ أمره ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣]. حتى يتحقق قدر الله نرى الحوادث تسير على نحو عجيب مدهش غريب، ينطق بقدرة الله تعالى وحكمته، ذلك أن أم موسى حين حمَلت به أنكرت حملها على الناس، فلم يكتشفها أحد من زبانية ذلك الطاغوت، فلما وضعتْهُ ألهمها الله تعالى أن تتخذ تابوتًا، وتضع غلامها الرضيع فيه، فكانت ترضعه ثم تضعه في التابوت؛ مخافةَ أن يكتشفه أحد، وألهمها الله تعالى أن تضع التابوت في البحر أمام بيتها، وأن تربط التابوت بحبل تمسك بطرفه؛ للتمكن من إرضاعه، وفي نفس الوقت تحميه من جند فرعون ومن عيونه، إلا أن الله ﷻ شاء أن ينقطع الحبل، وأن تتقاذف الأمواج التابوتَ، وأن تأخذه بعيدًا، لكنها إنما أخذته إلى جوار قصر فرعون.

ألهم الله ﷻ أم موسى بأمرين؛ ألهمها أن ترضعه عقبَ ولادته وأن تشبعه، ولا تفعل كما تفعل الإسرائيلياتُ: إذا ولدنا ذكرًا؛ لأنهن كُنَّ يقتلن أولادهن بأيديهن، أو يسلمنه إلى جنود فرعون ليذبحوه. وألهمها إذا خافت عليه من جنود فرعون، أن تلقيه في البحر بعد أن تضعه في تابوت، وأخبره الوحي والإلهام بأنه لن يُصاب بأذى، وأن الله سيعيده إليها، وأن الله تعالى جاعل له شأنًا، وأن الله -

تبارك وتعالى- راده إليها، وأنه سيكون رسول الله إلى الناس في زمانه، وعليها ألا تخاف من أي أذى كالضياع أو المَوْت، وألا تحزن لبعده عنها، أو لا تخاف عليه من القتل.

تُشير الآيات إلى أن التقاط آل فرعونَ لموسى من البحر، وتربيته في بيتهم، كان ذلك رغبةً في أن يكون قرة عين لهم وهم لا يشعرون كما قال الله، لا يشعرون أنه سيكون لهم عدوًّا وحزنًا، وهذا مصداق قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [القصص: ٢١]. وصل الوليد إلى بيت فرعون، وأصبح مكفولًا برعاية المَلك وزوجته، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. ﴿لِيَكُونَ﴾ اللام هنا لام العاقبة، ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرةَ عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدوًّا وحزنًا، فذكر الحال بالمآل، كما الشاعر:

وللمنايا تربي كلُّ مرضعةٍ ❖ ودورنا لخرابِ الدهر نبنيها

التقطه آل فرعون، نعم، التقطه جنده حتى وصل الوليد إلى بيته.

تدخلت آسية بنت مُزاحم زوجة فرعون؛ لتحتفظ بهذا الغلام الوليد، فوافق فرعون على المحافظة على الرضيع، فبدأت فالبحث عمن ترضعه بنفقة، لكنه لم يقبل ثديًا، ولم يأخذ طعامًا، فحاروا في أمره، واجتهدوا على تغذيته بكل سبيل، فلم يمكن. أرسلوه إلى السوق لعرضه على النساء، عسى أن ترضعه إحداهن، وكانت أم موسى كلفت أختَه بتتبع آثاره ومعرفة أخباره من بُعد؛ حتى لا يكتشف أمرَه أحدٌ، فلما رأته في السوق، وشاهدت إعراضه على النساء، قالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يهتمون به، ويكفلونه، ويرضعونه، وهم له ناصحون، فلما وصفتهم وهم له ناصحون، سألوها: وما يدريك بذلك؟

لعلكِ تعرفين أهلَه؟ فقالت: لا، ولكن أردْتُ وَهُمْ للملك ناصحون، فدلتهم على أم موسى -عليها السلام- فكلفوها بإحضارها، فأحضرتها لهم، والصبي يبكي في يدي الفرعون من الجوع، فدفعه إليها، فقبِلَ الصبي ثديها، ورضَعَ منها، فسألوها: لِمَ ارتضع منك ولَمْ يرتضع من غيرك؟ قالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أُوتَى بصبيٍّ إلا ارتضعَ مني.

طلب فرعون من أم موسى أن تبقى في القصر؛ لترضعه، فرفضت لحاجة زوجها وأولادها، فأعطَوْها الصبي بأجر تأخذه.

وهكذا عاد موسى # إلى أمه، واستقر أمرها، وسعِدت بوليدها، وفي ذلك يقول الحق: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٠ - ١٣].

أتم موسى مدةَ الرضاع عند أمه، وبعدها انتقل إلى بيت فرعون؛ لتشرف آسية على تربيته، وتقوم بعدئذٍ على شئونه، وصار معروفًا بين المصريين أنه ابنُ فرعون، وكان يسمونه موسى بن فرعون، ويعرفون أن الإسرائيليين أخواله من الرضاعة. وحدث وهو صغير أن كانت آسية تداعبه وتلاعبه، فناوله فرعون، فلما حملَه أخذ الغلام بلحيته، فنتفها، فَهَمَّ بقتله؛ لأنه تصور أنه هو هو، قالت آسية: إنما هو صبي لا يعقل، ووضعت أمامه ياقوتة حمراءَ وجمرة نار، وقدمته لموسى الصغير، فَمَدَّ يده وأخذ الجمرةَ، فحدثت عقدة لسانه، فدرأت عن موسى القتل بذلك.

كَبُر موسى # وصار له شأن في مصر، وكأن يأكل مما يأكل فرعون، ويلبس من مَلبسه، ويركب مركبه، إلا أنه كان يحب العدل وينفر من الظلم، ولذلك عز به بنو إسرائيل وأحبوه، وامتنع القِبط عن إذلالهم وتسخيرهم.

وفي يوم ذهب موسى إلى أطراف مدينة منف، ووصلها بعد نصف النهار، وقد أغلقت الأسواق، ورجع الناس إلى بيوتهم، فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما من شيعته، والآخر من عدوه. والمراد بالشيعة هنا: الأتباع وأصحاب المذهب؛ لأن الإسرائيليين كانوا على شيء من دين يوسف # وأما عدوه فهو الذي يعبد الأصنام؛ لأن الجميع كانوا يتصورون موسى ابنًا لفرعونَ، ويفسرون تعاطفه مع الإسرائيليين بسبب رَضاعه منهم.

واقتتل هذان الرجلان، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، ورأى موسى أن القبطي قد اعتدى، فهو معتدٍ سبَّاب، شتم الإسرائيليين جميعًا، فجاء إليه وضربه ضربةً بقبضة يده، فقضى عليه، يقول قَتادة: أراد القبطيُّ أن يسخر الإسرائيلي؛ ليحمل حطبًا، فأبَى، فشتمه، فاستغاث الإسرائيلي بموسى # ومن المعلوم: أن إغاثة المظلوم دين في المِلل كلها، ولم يكن موسى مريدًا لقتله، ولذا ندِمَ على فعله، وتاب لربه، وطلب منه المغفرة، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٤، ١٥].

يتحدث المفسرون والمؤرخون عن عمر موسى في هذا الوقت، ويوردون آراءً كثيرةً تَبعًا لاختلافهم في المراد بالحُكم والعلم؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ

﴿ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤]. بعض المفسرين يقول: إنه قد بلغ مبلغَ النبوة، أي: بلغ أربعين سنةً. والبعض الآخر يقول: بل بلغ سنًّا من السن الذي يكتمل فيه فَهمه وإدراكه، ولم يكن قد بلغ مبلغ الأربعين، بل كان موسى # وقتها لا يجاوز عُمُره الثلاثين، وهذا هو الصحيح؛ لأنه عاش صغيرًا عند مدينَ، عشر سنواتٍ على الأقل، وتزوج وعاد إلى مصر مرةً أخرى، فأتاه الوحي عند عودته بسيْناء في الوادي المقدس. وإذا علمنا أن سنة الله ﷻ أن يُنبَّأ النبي عند الأربعين، فإننا نعلم بهذا أنه وقتَ أن قتل القبطيَّ، لم يكن قد بلغ الثلاثين عامًا.

فعل موسى فعلته، وفي صباح اليوم التالي أصبح خائفًا، يسير بين الناس يترقب الأخبار والحوادث، وبينما هو كذلك إذًا بالرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه، يستغيث به مرةً ثانيةً؛ لينصره على قبطي آخر يقاتله، فرد عليه موسى غاضبًا: إنك سيء التفكير، لا تقدر الأمور كما ينبغي، عندها سَمِعَ الإسرائيلي هذا اللوم العنيف من موسى، فاهتم في قتل القبطي، وخاف القبطي من وجود موسى، فحذَّره من مساعدة الإسرائيلي؛ حتى لا يقتله كما قتل نفسًا أخرى بالأمس، وصوَّر القرآن الكريم هذا بقوله تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٨، ١٩].

فالآيات توضح أن الإسرائيلي استغاث بموسى، وأن موسى عنَّفه، ويجب أن نعلم أن الذي أراد البطش بالقبطي هو الإسرائيلي وليس موسى، وإنما وجه القبطي كلامَه لموسى؛ مخافةَ أن يساعد الذي هو من شيعته؛ لأن حادثة الأمس صارت حديثَ المدينة، والملأ علموا أن موسى هو القاتل، وأنهم يجِدُّون في البحث عنه في كل أرجاء المدينة؛ للقبض عليه، وقتله.

ومن البعيد أن يقابل موسى الرجلَ الذي يستنصره في المرة الثانية ويعنفه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. ثم يساعده مرةً أخرى. إذن مرجع الضمير في: ﴿أَرَادَ﴾ للإسرائيلي، والضمير في: ﴿قَالَ﴾ للقبطي، وهذا على الراجح من أقوال أهل العلم في التفسير.

أنقذ الله موسى من فرعون وملئه بعدما جَدُّوا في البحث عنه؛ ليقتلوه. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١]. هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، قيل: إنه ابن عم فرعون، لَمَّا علم بما قرره الملأ بحث عن موسى، وجاءه من مكانٍ بعيدٍ مسرعًا، وأخبره بأن الملأ يبحثون عنه؛ ليقتلوه على قتله القبطي، وعندها نصحه بترك المدينة، وأن يخرجَ من مصر بالكلية؛ حتى لا يقع في أيدي أعدائه، واستمع موسى لنصيحة الرجل، وخرج من المدينة إلى جهة المشرق؛ لينتقل السياق بموسى إلى بلدةٍ جديدةٍ، ومكانٍ جديد، وصفحةٍ جديدة، من صفحات قصة موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- عندما خرج من المدينة متوجهًا تِلْقَاءَ مَدْيَن.

قصة موسى # في مدين:

سبقَ أن علمنا أن موسى # خرج من المدينة خائفًا يترقب، ولم يكن يعرف وِجهةً، وإنما سار تلقاء وجهه، وفي هذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. ومدين: اسم مدينة على البحر الأحمر، وتقع تجاه تبوك بين وادي القرى والشام، وسميت القبيلة باسم

المدينة. وقيل: إن اسم مدين اسم قبيلة سكنت هذا المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [العنكبوت: ٣٦]. وليس هو شعيب الذي وُجد في زمن موسى # على ما سبق ترجيحه.

قال ابن عباس > كما في (تفسير ابن كثير): "سار من مصر إلى مدين، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا، فسقطت نعلَا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لتُرَى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة".

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود > قال: "حففت على جمل ليلتين حتى صبَّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي آوَى إليها موسى، فإذا شجرة خضراء، فأهوى إليها جملي وكان جائعًا، فأخذها جملي، فَعَلَجَها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى # ثم انصرفت".

توجه موسى ناحية مدين وجَدَّ في السير حتى وصل إلى منطقة فيها بئر ماء، توقف عندها ليستريح من هذا السفر الشاق الطويل، وجلس تحت ظل شجرة، ينظر الناس، ويشاهد أحوالهم، فإذا هم عدد من رعاة الغنم والماشية جاءوا بقطعانهم لتشرب الماء الذي تريد، ورأى موسى # فتاتين تقفان بعيدًا عن البئر، وتمنعان غنمهما من الاقتراب نحو الماء، أو نحو أغنام الآخرين، ولاحظ موسى # أن الرجال يسقون غنمهم الماء صافيًا، وما بقي من ماء البئر فهو لغنم الفتاتين، ولاحظ أيضًا أنهما تتأخران في العودة؛ لأنهما تذودان غنمهما عن الماء؛ انتظارًا لانتهاء الرجال والشباب من السقي.

كان هذا مثيرًا لانتباهه، فبدأ # وهو مجبول على الرحمة بالناس، والإحسان إلى من لا يعرف وعلى من يعرف، تقدم # بسؤاله لهما: ما خطبكما؟ ما

شأنكما؟ لماذا تدفعان ماشيتكما وتحبسانها عن الماء؟ فقالتا: لا نستطيع أن نزاحم الرجال والرعاة، ولهذا السبب فإننا نتأخر عن السقي، قال موسى: ولِمَ ترعيان؟ قالتا: إن أبانا شيخ كبير، لا يستطيع أن يأتي هو ليرعى، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة؛ لضعفه، ووهن عظمه، وكِبر سنه، وعندما سمع موسى ما قالتا، لم يتوانَ في تقديم المساعدة لهما، وقال: سأسقي لكما إن أحببتما.

وفي هذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

نظر موسى فوجد أن الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ثقيلة لا يقدر على رفعها إلا بضعة رجال، فرفع موسى تلك الصخرة، ثم سقى لهما غنمهما، ورد الصخرة كما كانت. وبعد أن سقى لهما أوى إلى ظل تلك الشجرة التي حدث القرآن عنها، ثم أنشأ يدعو ربه -تبارك وتعالى-: ربي إني في هذه الهاجرة، ربي إني فقير، ربي إني وحيد ضعيف، ربي إني إلى فضلك وكرمك وجُودك فقير محتاج.

استجاب الله -تبارك وتعالى- لدعائه على الفور؛ وذلك لأن موسى # كان على هذه الحالة من الجَهد والتعب والإعياء، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٤، ٢٥].

استجاب الله تعالى لعبده ونبيه موسى، ونحن نرى ونسمع من خلال هذا التعبير رفرفة هذا القلب، والتجاءَه إلى الحِمى الآمن، وإلى الركن الركين، وإلى الظل

الظليل، نسمع همس هذه المناجاة، وهمس هذا الاتصال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

لا شك أن هذه الاستجابة أخذت وقتًا؛ لأن المرأتين عادتَا بالغنم إلى أبيهما، وهذا يستغرق بلا شك وقتًا، ولكن كان الله ﷻ مستجيبًا لموسى # من فوره بمجرد أن دعا استجاب الله، لكن تحقيق مقصود موسى هذا كان بأوانٍ قضاه الله تعالى وقدَّره.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: كيف كانت؟ كانت تغطي وجهها بثوبها، تستر وجهها بكم دِرعها، جاءت إليه في غير تبذر، ولا تبرج، ولا إغواء، تستر وجهها، وتمشي مِشية الطاهرة الفاضلة، العفيفة التقية النقية حين تلقى الرجال: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ في عبارة مختصرة، وفي لفظ واضح، فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجلج، ولا التعثر، وذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحيي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الاضطرابَ الذي يُطمع ويُغري، وإنما تتحدث في وضوح بقَدْر لا زيادة فيه.

قال لها موسى # : كوني من ورائي، ودُليني على الطريق يَمينًا أو يسارًا، فإني لا أنظر أدبار النساء، فتيقنت من أمانته، كما رأت من قبل من قوته وشهامته. سار موسى حتى وصل إلى شُعيب، جلس معه وحدثه في كل شئونه، وروى له تلك الأحداث التي وقعت له في مصر، فبادر ذلك الرجل الصالح بإزالة الخوف عن موسى، وأخبره بأنه أصبح في مأمن من أن تطاله يد فرعون، أو يناله أحد من أعوانه بسوء، ذلك أن بلاد مدين ليست في سلطان فرعون، وإنما هي تابعة لملك الكنعانيين، وهم على كل حال أهل قوة ونجدة، وأولو بأس شديد.

هدأت نفس موسى في منزل ذلك الشيخ الكريم، وسكنت إلى صحبته، فنور الإيمان يتلألأ في قلبيهما، وفيض الإخلاص يتفجر من جميعهما، ولقد كان موسى كريمًا، فتيًّا، أثار في نفس الشيخ وابنتيه عوامل الإكبار والإعجاب، بما زانه الله به من الطبع القويم، والخلق الكريم، فبادرت إحداهما إلى أبيها قائلةً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. فعرض شعيب رؤيته عليه، واقترح عليه أن يتزوج واحدةً من بناته، بعد أن يعمل لديه أجيرًا مدة ثماني سنوات، فإن زادها إلى عشر فالزيادة تبرع محض، له أن يقبلها أو يرفضها منعًا للحرج والمشقة.

ومن فوره وافق موسى على اقتراح شعيب على أن يترك تحديد أي الأجلين الذي سيقضيه لوقته، وله أن يختار أي الأجلين بلا لوم أو عتاب، وهذا ما قصه القرآن: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨]. أتم موسى # المدة ودخل بأهله.

يروي ابن عباس: "أن النبي ﷺ سأل جبريل: ((أي الأجلين قضى موسى؟)) فأخبره أنه قضى عشر سنين". وهذا نقله القرطبي في تفسيره.

وعن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حَبر العرب فأسأله، قال: فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: "قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فَعَلَ". وهذا عند البخاري وغيره.

ثم لما أتم موسى الأجل، أراد أن ينتقل إلى أهله وبلده -وقبل أن نغادر هذه القطعة من القصة علينا أن نتذكر أنه ما من نبي بعثه الله إلا رعى الغنم، والنبي ﷺ قال كما

في الصحيحين: ((ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة)).

لما اشتاق موسى # إلى أهله وأسرته، بَثَّ ما بنفسه من الشوق إلى زوجه، فقال: إني اشتقت إلى أمي وأختي وأخي هارون، وأود أن تستعدي للرحيل إلى مصر، فإن أهلي وشيعتي هنالك، استجابت زوجته من فورها، فأعدت عدتها للسفر، وخرجت إلى مصر وكانت حاملًا كما ذكر ذلك المفسرون، وكانت قد ولدت لموسى ولدين. وعن أنس > قال: "لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها، فلك ولدها، فعمد موسى فوضع حبالًا على الماء، فلما رأت الحبال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهن بُلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام".

رسالة موسى # ومعالم دعوته

تكليف موسى # بالرسالة:

سار موسى بأهله متجهًا إلى مصر، وبينما هم في الطريق، نزلوا بوادي طوًى في طور سيناء، جاء الليل بظلامه الدامس وبرده القارس، وجاء زوجتَه المخاضُ، فأصبحوا في حاجة ماسة إلى النار؛ لأنهما يحتاجونها في إعداد طعامهم، وبخاصة لتلك الأم التي ولدت، ويحتاجون للنار لتضيء لهم المكان ليعرفوا أين هم، ويحتاجونها للتدفئة من برد الشتاء، ويحتاجون النار ليعلم المارة أن ناسًا هنا، فيأتون إليهم، فيستعينون بهم على معرفة الطريق إلى مصر. وفي هذا قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ

ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩] والجَذوة: الجمرة الملتهبة، و﴿ تَصۡطَلُونَ ﴾: أي: تستدفئون، وكانت هذه النار وسيلة ربانية لجلبه إليها؛ حتى يكلمه الله، ويصطفيه بالنبوة، ويحمله أعباء رسالة عظمى؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة النمل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [النمل: ٨، ٩].

موسى # توجه تلقاء النار واقترب منها، فإذا النار في شجرة، فوقف متعجبًا من حسن ذلك الضوء، ومن شدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة تلك الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة ولا قوة الخضرة تغيران حسن ضوء النار: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١١ - ١٣]. وأبان الله له أصول الدين الأولى، فقال له كما جاء عقب النص السابق: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه: ١٤- ١٦]. ﴿ فَتَرۡدَىٰ ﴾ أي: فتسقط في مهاوي الضلال والشر والعذاب، وفي سورة القصص: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

وقبل أن يكلفه الله ﷻ حمل الرسالة إلى فرعون وملئه وقومه، أجرى له آيات نبوته ورسالته بتجربة عملية مرئية؛ ليكون على استعداد لإجرائها عند الحاجة إليها إذا واجه فرعون وملأه. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ

أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٧- ٢٠]. فلما ألقاها ورآها قد انقلبت حيةً خاف منها، وولى مدبرًا ولم يرجع، فناداه الله وقال له: لا تخف، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠] ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١]. ولفظ الجان يطلق على الحية سواء كانت بيضاء أو زرقاء، وهو نوع من الحيات سريع الحركة والاهتزاز.

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] ﴿ سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي: هيئتها، أي: سنعيدها إلى حالتها الأولى التي كانت عليها حين كانت عصا، وبعد آية العصا دربَّه الله ﷻ على آية أخرى، وهي أن يدخل يده في جيبه -والجيب: هو الشق الذي في ثوبه من مكان صدره- فإذا أخرجها بعد أن يدخلها فيه، خرجت يده بيضاءَ متلألئةَ مضيئةً من غير سُوء، أي: من غير علة مرضية كالبَرَص، فكانت يده تضيء كشعاع الشمس بإذن الله. قال تعالى: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه: ٢٢، ٢٣]. ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ ﴾ أي: اليد اليمنى. ﴿ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ أي: إلى إبطك الأيسر بإدخال يدك في جيبك، ووضع كفك تحت إبطك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص: ٣٢].

هذه النصوص التي وردت حول قضية واحدة في ثلاثة سور متكاملة، بينها دلالات تجتمع وتبرز هذا التكاملَ فيما بينها بحيث لا يحتاج إلى كبيرِ شرح.

هكذا تلقى موسى # النبوة والرسالة من ربه -تبارك وتعالى- وقد بدأ توجيه الله ﷻ لموسى بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، فعرَف موسى # أن مهمته مهمة جليلة عظيمة محفوفة بالمخاطر، فقد سبق أن قتل من المصريين رجلًا، فلهم عليه ذنب، فكيف يواجههم بدعوة تنسف كل عقائدهم وعبادتهم نسفًا؟ لكن الله ﷻ وجه له الأمر الجازم بأن يذهب إلى فرعون، فأبان له أنه طغى، وجعل هذا الأمر مسبوقًا بنداء مع أنه يخاطبه من قرب، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٥ - ١٧] في الآية الأخرى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

عرض موسى مشكلته صراحةً، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]. فأعاد الله تعالى الأمر الجازم دون نداء: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. عندها أعلن موسى انصياعه الكامل بالتكليف، ثم دعا الله ﷻ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٥ - ٣٥]. أضاف موسى تأكيدًا حول ترشيحه لأخيه هارون؛ ليشاركه في أمره ما أبان الله ﷻ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]. عندها قال الله له: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

ثم امتن عليه، وذكّره بما منّ به تعالى عليه من قديم حين قال له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. هذه طمأنة من الله ﷻ لموسى وأخيه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ

﴿وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ [طه: ٤٢] أي: لا تضعفا، ولا تكلّا، واجتهدا في هذا الأمر، وأوحى الله إلى هارون، وجعله مع أخيه موسى نبيًّا ورسولًا.

ودخل موسى # وأهله معه إلى مصر، فاجتمع بأخيه هارون، وتشاورا في الوسيلة التي يدخلان بها على فرعون، وعنده من عنده من الحاشية والوزراء والملأ، وهما يعلمان ما لفرعون وما لرجال دولته من الجبروت والسلطان، ولا سيما بالنسبة إلى المضطهدين من بني إسرائيل، فعرَضَ هذه المشكلة على ربهما ﷻ فقالَا كما حكى القرآن عنهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]. ﴿أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ أي: أن يسبقنا بالقول، فيقطع علينا طريق المخاطبة، ولا يسمح لنا بها مهما تلطفنا بالخطاب، وواجهناه بلين القول، عندها كان الجواب من الله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٦]. وليس هذا فحسب، بل وجاء ما يقطع عليهما كل تخوف أو كل شك: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. فسكب هذا في قلبيهما من الطمأنينة ومن اليقين بالنصر والتأييد ما ثبَّت القلوبَ، وجرَّأها على حمل الرسالة بقوةٍ وثباتٍ.

دخل موسى # ومعه أخوه هارون، وتلطفَا في الدخول على فرعون؛ ليؤديَا رسالتهما برفقٍ ولينٍ كما أمر الله ﷻ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: ٤٤]. ويظهر أن الله ﷻ يسر له الدخول، فبدأ موسى # مخاطبة فرعون، فقال كما أمره الله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. ذلك أن الله ﷻ علَّمَ موسى كيف يدعو فرعون: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨]. وبقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤ - ١٠٦].

سياسة موسى # في أداء رسالته:

انحصرت مهمة موسى # مع فرعون في أمرين:

الأمر الأول: دعوته إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى، والتوجه بالعبادة الخالصة له وحده.

والأمر الثاني: إنقاذ الإسرائيليين، وفك أسرهم، وتركهم يعودون مع موسى # إلى بيت المقدس؛ ليسكنوه، ويرجعوا إلى تلك الديار التي غابوا عنها طويلًا.

أخبر موسى وهارون -عليهما السلام- فرعون بأن معهما آيتين من معجزات الله، وذلك لإثبات صدقهما فيما دعوا إليه، وقد قام موسى وهارون بإظهار هذه المعجزة: معجزة العصا، ومعجزة اليد، والتي تدرب عليهما موسى في طور سيناء يوم أن كلمه الله -تبارك وتعالى- فما كان من فرعون إلا أن واجههما بالتكذيب تارةً، وبالجدال الذي لا نفع فيه تارةً أخرى، حكى الله تعالى، قال فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩].

أي: من الجاحدين للنعمة التي أنعمنا بها عليك، فأجاب موسى من فوره: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي: من الجاهلين: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي -أي: رب العالمين- حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾. أي: إن الذي ألجأ أمي إلى أن تضعني وأنا مولود في صندوق، فترمي بي في النهر، وأنك جعلت بني إسرائيل الأحرارَ عبيدًا لك، فجعلت تقتل الأبناء من المواليد، وتستحي البنات، فلا تقتلهن لتسخرهن في الخدمة متى صرنا نساءً قادراتٍ على الخدمة، ولولا رغبة أهلك في أن أنفعهم أو

أن يتخذوني ولدًا، لذبحتموني مع سائر مَن ذبحتم من مواليد بني إسرائيل، أفهذه تصلح لأن تكون نعمة تمنوا بها عليَّ؟

ثم أعاد موسى القضية مرة أخرى، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾. ﴿حَقِيقٌ﴾ بمعنى: مصدق ومؤيد ومثبت من قِبل الله تعالى، فأنا رسولُ حق وصدق على ألا أقول على الله إلا الحق، عندها تحول فرعون إلى لون آخر من ألوان المناقشة، وهو يحاول فيه أن يظهر موضوعيًّا، فجعل يسأل قال: من ربكما يا موسى؟ فأجاب موسى من فوره: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: خلق كل شيء في هذا الكون، ومن بديع خلقه تعالى أنه أعطى كل شيء صفات خلقه في ذراته الأولى، وغرسها في فطرته، ثم هداه للسير في حركات وجوده على مقتضاها بدقة متناهية، ثم سأله عما حذره منه، وهي الدينونة والجزاء بعد الموت والبعث إلى يوم الحساب والجزاء، فسأله عن أحوال أهل القرون الأولى الذين ماتوا، وتعرضوا للفناء، واختلطت أجسادهم في التراب، فقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]. وسواء كان هذا سؤال استفهام حقيقي، أو لون من ألوان الهرب من النقاش، وتشتيت ذهن موسى في هذا الحوار، فإن موسى # سدده ربه بأن قال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

ثم عاد موسى إلى قضيته سريعًا، فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَـٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٣- ٥٥]. فألجأ هذا البيان النبوي فرعون لِأَن يسأل السؤال الذي يتعلق بالإله مرةً أخرى، قال فرعون: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فجعل

موسى يبين رب السماوات والأرض وما بينهما، يبين أنه رب المشارق والمغارب وما بينهما، ولكن فرعون قبل ذلك المنطق السديد بغير منطق، فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وفي سياق آخر: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٥، ٢٦]. ثم: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. هذا تعبير يوحي بسخريته من موسى # ومن رسالته، وأشعر فرعون بها مَن حوله بأن هذا الذي يدعي أنه رسول من رب العالمين، إنما هو إنسان مجنون.

فما كان من موسى إلا أن أقام الحجة: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]. أصيب فرعونُ وملؤه بالدهشة، فأسرع فرعون ليتدارك الموقف، وتحدث بما جاء في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]. وردد الملأ في مجلسه مقالته، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥] وهذا يدلك على قدرته على الاستخفاف بالعقول الجماعية، عقول الجماهير، ويدل أيضًا على فساد عقول هؤلاء القوم، قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]. ثم حاول أن يبدو حكيمًا، فقال لقومه وملئه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]. فهو يشاورهم ويداول الرأي معهم، فكان منهم أن: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧]. وفي آية الأعراف: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١١- ١١٢].

ووقع التحدي، وضُرب الموعد: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ وجاء السحرة كل يمنِّي نفسه بنوال فرعون: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا

إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣- ١١٤].

علم موسى # بحضور السحرة؛ استعدادًا ليوم المباراة والمبارزة، فرأى أن من واجبه أن يدعوهم إلى دين الله، وأن يحذرهم من عذاب الله قبل أن يهلكوا أنفسهم بتحدي آية الله الربانية، فقال -أي: موسى #: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ [طه: ٦١]. يسحتكم أي: يستأصلكم بعذاب متلاحق.

اختلف السحرة فيما بينهم بعد أن وجه موسى # عبارات النصح والتحذير، وبعد التنازع في مجلس كان بينهم، انتصر الرأي القائل: إن موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجا المصريين من أرضهم؛ ليكون بني إسرائيل هم أصحاب الحكم والسلطان، واتفقوا على أن يعملوا مجتمعين، قال تعالى ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٢- ٦٤].

وجرت المبارزة، ووقعت المباراة، وكان الجمع في ذلك المكان المحدد، فقالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥- ١١٩]. وصف الله تعالى ذلك في سورة طه، فقال: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: الآيات: ٦٦- ٦٩].

لما وقعت المعجزة، وجاء أمر الله، وحق الحق، ما كان من السحرة إلا أن

ألقوا أنفسهم ساجدين لله: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]. ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٧٠].
هذا التحول في موقف السحرة من عدوٍ مناوئٍ منافسٍ، إلى وليٍّ مؤمن متابع لموسى وهارون.

أغضب ذلك فرعون أشدَّ الغضب، وأسقط في يده، إلا أنه كان واسع الحيلة، وأسعفته حيلته أن يتدارك الموقف أمام الجمهور، بأن يتهم السحرة بأنهم تلاميذ لموسى في السحر، وأنه كبيرهم، وأن بينهم تواطئًا على أن يفتعلوا هذا الهزيمة؛ ليكونوا شركاءه في حكم مصر، وعندها توعَّد هذا الفرعون أولياءَ الله تعالى من السحرة، فقال: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]. كان إيمان السحرة قد بدأ قويًّا في عمق أفئدتهم، وقد سطعت أنواره في قلوبهم بعد أن رأوا آية الله، آية الله الحقيقية وليست الخداع البصري الذي يتقنه السحرة، ولهذا قالوا بلا تلعثم: ﴿ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

ونفَّذ فرعون في السحرة ما توعدهم به؛ لتبقى المَهابة له في مصر، ويظهر أنه قادر على إنفاذ ما يريد، يقول بعض السلف: إنما سجد السحرة بعد ما رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة، وقد تهيأت لهم، وازينت لقدومهم، ولذا لم يلتفتوا إلى تهديد فرعون ووعيده، وفي هذا قال ابن عباس } : "كانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة". وكان من آخر دعائهم: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾.

لم يؤمن فرعون ولم يؤمن قومه بموسى # بعد وقوع تلك الآية العظيمة، فأجرى الله تعالى آيات أخرى كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وذكرها الله -تبارك وتعالى- ووصفها بأنها آيات مفصلات، إلا أنهم استكبروا جميعًا كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]. وجعلوا يروجون على موسى الأكاذيب، فتارةً يقولون: ساحر، وتارةً يقولون: كذاب، وتارةً يقولون: صاحب أغراض، وهكذا.

ومع استمرار موسى في دعوته وإرسال الله ﷻ الآيات بيناتٍ ظاهراتٍ، وإصرار فرعون واستخفافه بعقول أهل مصر، واستعباده لهم، ودعائهم إلى عبادته من دون الله، واتخاذهم له إلهًا رغم وضوح الطريق وظهور الحجة، إلا أنه لم يكن ليرعوي، ولم يكن قومه ليهتدوا، وعندما أصر فرعون وقومه على الكفر، فلم يأبهوا بالآيات بعدما عاينوها ولمسوها، إذًا بالله ﷻ يأذن لموسى أن يخرج هو وبنو إسرائيل من هذه الأرض، وهو يَعِدُهُم بالنصر والتمكين، ولهذا نجد الله ﷻ يقول: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

أمر الله تعالى موسى وهارون أن يأخذَا قومهما، فيرحلَا إلى برية سيناء، فخرجوا جميعًا تجاه البحر الأحمر، فأتبعهم فرعون بجنوده، يريد القبض عليهم، يريد الفتك بهم، وعند البحر حيث الأمواج عالية، ألقى موسى عصاه، فانفلق البحر وانشق،

وظهر فيه طريق جاف يابس، يربط الشاطئين، عبَرَه موسى وقومه، وتبعهم فرعون وجنوده، فلما كانوا في وسط البحر، انطبق عليهم، فالتقى الماء من الجهتين، وغرق فرعون وعامة جنده، كما قال الله تعالى يحكي دعاء موسى على فرعون: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٨٩- ٩٢].

لم يقبل الله توبة فرعون في وقت الغرق؛ لأن التوبة لا تُقبل إذا جاءت عند معاينة الحقائق، عند بلوغ الروح الحُلقوم.

طافت جثة فرعون على الماء، فأخرجها المصريون، وحنطوها، لتبقى عبرةً للمعتبرين، وذكرَى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

معالم وركائز من دعوة موسى # :

وكما هي العادة -عادة أنبياء الله تعالى ورسله- فإن التوحيد هو أول ما يدعون إليه، فقام موسى # بهذا أكملَ قيام، واستمر يناظر ويناف عن عقيدة التوحيد، ويدافع أمام متألِّهٍ متجبر، ادعى الربوبية والألوهية في تبجح ظاهر، لا يُعرف له مثيل ولا نظير في التاريخ.

إن موسى # الذي واجه ادعاء فرعون الألوهية، واستعلاء هامان وقارون بالقوة والمال، واجه كل ذلك بعقيدة التوحيد الخالص، بحقيقته وشموله، وبين

لهم أن هذا التوحيد يتضمن أركان العقيدة، وجوانب والشريعة، وكافة القيم النبيلة. وعلى الداعية في كل زمان ومكان أن يعلم أن كلمة التوحيد هي أول ما يُدعى الناس إليه.

وأما الركيزة الثانية فلا شك أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى عُدة وإلى واستعداد، ذلك أنها تغيير شامل للحياة، وصناعة ربانية للأفراد والجماعات، ذلك أنها لا تترك شخصًا لهواه، ولا تدع جماعة تفسد في الأرض، وتعمل على هزيمة إبليس وبنيه، وتزيد وساوسهم وغوايتهم من القلوب والعقول. إن القائمين على أمر الدعوة يحتاجون قوة العقيدة، ويجب أن يتملكوا صفات القيادة والرياده من قوة القلب والشجاعة، وهذا ما نراه في قصة موسى، بل وقوة البدن والجرأة، وهذا أيضًا يتجلى في قصة موسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ومن الدروس المستفادة أيضًا: بذل الوِسع، واستفراغ الجهد، بذل أقصى الطاقة في إبلاغ الدعوة إلى الله، إذ الدعوة ليست شعارًا يرفع، أو عملًا يُباهى به، أو راحةً وتشريفًا، وإنما هي عَناء وتكليف، يحتاج إلى سعي متواصل، وإلى عمل دءوب. فعلى الداعية أن يستفيد من فنون البلاغة المتعددة في عَرْضِ موضوع الدعوة بتصوير المعنى تارةً، وبتغيير أساليبه تارةً، وتحسينها بالجمال والإبداع ما أمكن، وفي البلاغة سحر يشد العقول، وتألفه العواطف، وتميل إليه النفوس. ويحتاج الدعاة بشكل خاص إلى معرفة الحياة الدنيا والحياة الأخرى معرفةً يقينيةً؛ ليتصرفوا وهم في الحياة الدنيا على ضَوْءِ هذا اليقين بما يفيدهم، ويحقق مصالحهم في الدنيا والآخرة.

نصح العقلاء قارون -وهذا مما كان من قوم موسى- بأن يستخدم النعمَ التي أنعم الله بها عليه، وأن يقصد بها تحقيق الخير في الآخرة، إلا أنه نسي الدار الآخرة،

نسيها وادعى أن الدنيا هي دار الممر والمقر معًا، وأما الآخرة فلا تكون كذلك، وعندها ضرَبَ الله ﷻ من قارون هذا المثلَ، وجعله عبرةَ المعتبر، كما قال - تبارك وتعالى- : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١].

وفي هذه القصة أيضًا نجد سَحرة فرعونَ يدركون الحقائق، فيعزفون عن الدنيا، ويرجون الآخرة، ويقولون له: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾. وامرأته كذلك: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

وهذا شأن كل مؤمن يعلم حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشتُه شِغافَ القلوب، يتحول الإنسان إلى كائن جديد، كائن يتحرك وفق اعتبارات تختلف عن اعتبارات غيره، هذا ظهر جليًّا في قصة موسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

بهذا نكون قد أتينا على المهم من هذه العبر، وقصة موسى مَلأى بالعِبر لمن اعتبر وادَّكَرَ.

دعوة "هارون" و "إلياس" و "اليسع" و "داود" و "سليمان" و "زكريا"، و "يحيى" عليهم السلام

عناصر الدرس

العنصر الأول : دعوة هارون # ٢١٩
العنصر الثاني : دعوة إلياس، والْيَسَع، عليهما السلام ٢٢١
العنصر الثالث : دعوة داود # ٢٢٦
العنصر الرابع : دعوة سليمان # ٢٣٧
العنصر الخامس : دعوة زكريا، ويحيى، عليهما السلام ٢٤٨

دعـــــوة "هــــــارون"

مَرَّ ذكرُ هارون -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- في ثنايا قصة موسى # وهارون هو الشقيق الأكبر لموسى، وُلِدَ في السنة التي كان فرعون يدع القتل فيها، وقد قال المؤرخون: إن هارون أكبر من موسى بثلاث سنوات، كما ذكروا أيضًا: أنه تُوفِّيَ قبل موسى # بثلاث سنين، واسمه معرَّبُ من العبرية، وينطق فيها بالهمزة بدل الهاء، فيقولون: آرون، بمعنى: النشاط.

وهارون كلفه الله ﷻ بالرسالة استجابة لشفاعة موسى # ولذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًّا. وهذا نقله ابن كثير في (تفسيره) وقد قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- على لسان موسى: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤] وقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٩- ٣٢].

قال ابن كثير: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه؛ فجعلناه نبيًّا، كما طلب في هذه الآية. فقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] ونبي الله هارون عاش في مصر فلم يخرج منها إلا مع الإسرائيليين، يوم أن خرجوا جميعًا فرحلوا إلى سيناء.

ولا شك أن هارون # اتصف بصفاتٍ وتحلى بميزاتٍ جعلت من موسى # يدعو الله تعالى أن يشركه في الرسالة، وأن يصحبه في رحلة الدعوة إلى الله؛ فقد كان هارون يتميز بالهدوء واللين، ويتمكن بذلك من مواجهة الصلف والعنت الذي كان يلقاه موسى # من بني إسرائيل. هذا مع رباطة جأشه، وقوة ثباته بلا ضيقٍ ولا انفعالٍ ولا ترددٍ وذلا تلعثم.

وكان هارون # كما قال موسى في تعليله لطلب الله تعالى أن يرسله معه قال: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ١٣] فهارون # تميز مع هذا بشدة بأسه وقوته، وكان أيضًا سديد الرأي له مع موسى # مشاركة بوجهة نظره؛ ولهذا رأينا من هارون # أنه يوم أن عبد قومه العجل، وجاءه موسى فأخذ برأسه ولحيته؛ وجدناه يقنع موسى بوجهة نظره ويبين له حجته؛ فيعيد موسى إلى لينه وإلى هدوئه، عندها دعا له موسى # .

وقد استخلف موسى # هارون يوم أن ذهب لملاقاة ربه ليقوم على حال الناس فيدعوهم إلى الحق، ويبعدهم عن الهوى، والله ﷻ يحكي ذلك فيقول -وقال موسى لأخيه هارون-: ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وقد علمنا أن بني إسرائيل انتهزوا فرصة غياب موسى # فانطلقوا يعمهون عبادةً للعجل، واستجابةً للسامري، واستهانوا بهارون لطيب خلقه ولين طبعه، فلما رجع موسى إليهم اعتذروا له وعادوا مرة أخرى إلى دين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كان هارون # ردءًا لموسى يصدقه، ووزيرًا يخلفه، وداعية بالحق في وجوده، وقد توفِّي -كما ذكرنا- قبل أخيه، ولهذه الوفاة قصة ذكرها المفسرون، ومن كتبوا في قصص القرآن، ومن ذلك أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أوحى إلى موسى أني متوفٍّ أخاكَ هارون؛ فأتِ به إلى جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون نحو هذا الجبل فإذا هم بشجرة لم تُرَ شجرة قبلها، وإذا هم ببيت مبني، وإذا هم بسرير عليه فرش؛ فإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك البيت والجبل وما فيه أعجبه؛ فقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، فلما نام قبض الله روحه؛ فلما قُبِضَ رُفِعَ ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء.

فلما رجع موسى # إلى قومه، وليس معه هارون؛ عاد بني إسرائيل إلى سيرتهم الأولى؛ فبهتوا موسى حين قالوا: إن موسى قَتَلَ هارون؛ فلما سمع

موسى # بهذا البهتان، قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير وعليه هارون حتى نظروا إليه بين السماء والأرض؛ فعلموا أن هارون قبضه الله إليه، وبرأ الله ﷻ موسى من اتهام بني إسرائيل له بهذه التهمة الشنيعة.

إن هارون # بقصته في صحبته لأخيه ومؤازرته له في الدعوة يعلم الدعاة فائدة عظيمة منها: أن على الداعية أن يستعين بمن يعينه في القيام بواجبه، وأن يستنصر بمن يثق به من أهل الثقة والديانة والأمانة، وأن على الدعاة أن يبحثوا عمّا في موطنهم، وبيئتهم من العناصر التي يمكن أن تكون دعمًا لدعوتهم من يدعم بالمال بالمال، ومن يدعم بالجاه بالجاه، ومن يدعم بنفسه وقوة بدنه فبذلك، وهذا فيه جري على عادة البشر في الاستعمال للأسباب المتاحة في الزمان والمكان؛ لنصرة القضية وإعانة الدعوة على تخطي صعابها.

وهذه القصة أيضًا توضح لنا أهمية الدعاة: فإن هارون # ما كان نبيًّا إلا بدعوة موسى # والطلب من الله ﷻ والالتجاء إلى الله؛ إذ هو القادر على كل شيء، المتصرف في كل أمر سبحانه لا شريك له ولا ند له.

دعوة "إلياس" و"اليسع" عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

أولًا: دعوة "إلياس" #:

إلياس # هو واحد من أنبياء بني إسرائيل، ذكر الله ﷻ قصته في كتابه فقال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٣- ١٣٢].

كان إلياس بعد موسى # بوقتٍ قصيرٍ، وهو من أهل مدينة بعلبك، الذين كانوا يعبدون صنمًا يسمى بعلًا، كما ورد ذلك في كتاب الله تعالى، دعاهم إلى التوحيد مستنكرًا عبادتهم لبعضٍ، ومستنكرًا تركَهُم أحسن الخالقين، تركهم الله ربهم ورب آبائهم الأولين، وفي هذا استنان بسنة الأنبياء والمرسلين في دعوتهم إلى التوحيد، كما استنكر إبراهيم عبادة أبيه وقومه للأصنام، وكما استنكر كل رسولٍ عبادة قومه الوثنيين.

ولكن كان إرسال إلياس في وقتٍ ظهرَ فيه غلو بني إسرائيل في المادية وظهر فيه إفراطهم في التجسيد؛ فجاءتهم المعجزات الحسية؛ لتحقيق شيء من التوازن النفسي بين طلبات الطبع اليهودي المادي، وبين متطلبات الإيمان والرسالة.

يقول النووي: كان إلياس على صورة موسى # وقوته، وقد نشأ في بيئةٍ حسنةٍ، وكان الإسرائيليون يحبونه ويقولون: إنه بشرى إليعازر لهم، وسيهلك الله بهم الملوك والجبابرة. حفظ إلياس ما عندهم من التوراة، وأظهر لهم المعجزات، وصاح فيهم مرةً بعد مرةٍ، ومن ذلك أنه صاح فيهم مرة صيحةً أرعبتهم وكادت أن تقتلهم، فقالوا: هو ساحر، ونسوا كل ما قالوه فيه، وهموا بقتله؛ فهرب منهم، وساروا وراءه؛ فانفلق الجبل ودخله إلياسين أو ألياسين أو ياسين، وكلها أسماء متعددة له - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

عاش في الجبل حتى بلغ أربعين سنة، ثم بعثه الله ﷻ نبيًّا، وكَلَّفَهُ بالرسالة إلى قومه، وأمره أن يتوجه إلى الجبابرة والملوك؛ يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، أجرى الله على يد إلياس # عددًا من المعجزات، فهو تارة يدعو النارَ ألا تحرق امرأة الملك التي آمنت به فيستجيب الله تعالى له. ويأمر النار أن تخمد بأمره؛ فيستجيب الله تعالى لدعائه، ويحبس الماء عن القوم، حيث أنذرهم إن لم يؤمنوا

أن يحبس عنهم الماء، فيصرون على الكفر فينحبس المطر، وتجف الأنهار وتغور العيون، ويموت الشجر لعلهم يؤمنون، لعلهم يرجعون، لكنهم لا يرجعون ولا يرعوون.

وتارة يدعو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فينزل الغيث، وتجري الأنهار، وتتفجر العيون، وحديث أهل التاريخ عن معجزات إلياس كثيرة، وإن كنا لا نقطع بها لورودها عن طريق أدلة ظنية إلا أنها معجزات حسية، أظهرها الله ﷻ لبني إسرائيل؛ بدءًا بنبي الله تعالى يوسف، وانتهاءً بعيسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

أرسل الله ﷻ إلياس إلى قومه من بني إسرائيل الذين أقاموا في مدينة بعلبك في أقصى الشمال، فنسوا عهد الله، وعبدوا الأوثان من دون الله، جاء ليذكرهم التوحيد، لكنهم استمروا على الضلال المبين، واتخذوا صنمًا من حجرٍ فعبدوه من دون الله تعالى، فما كان منه # إلا أن قام يدعوهم بما أنزل الله ﷻ عليه من الرسالة، وبما جدد الله تعالى على يديه من دعوة التوحيد؛ فناداهم بما بينهم من قربى ونسب وقال لهم: يا قوم -ليعلموا أنه حريص عليهم، وأنه ساعٍ لمصلحتهم-: ألا تتقون ألا تخافون الله في عبادتكم غيره: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

يقول القرطبي: "بعل" اسم صنمهم الذي كانوا يعبدونه، وبذلك سميت مدينتهم، والمعنى: أتدعون ربًّا اختلقتموه وهو هذا الصنم، وتتركون أحسن من يقال له خالق وهو الله، ربكم ورب آبائكم الأولين؟!.

قرن إلياس # لقومه بين ذلك الصنم وبين الله، بَيَّنَ أن الصنم حجر لا ينفع ولا يضر، لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا، بينما الله تعالى هو خالقهم ورازقهم، وربهم ورب الناس أجمعين، لكنهم لا يلقون إلى دعوة الحق بالًا:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٧، ١٢٨]، أي: لكن عباد الله المؤمنين هؤلاء قد نجوا من العذاب: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٩] أي: على إلياس من الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠] أي: سلام منا عليه وعلى آل ياسين.

والمفسرون يقولون: إن: ﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ هو إلياس، ومن آمن معه جمعوا معه تغليبًا، كما قالوا للمهلب وقومه: المهلبون، واختار الإمام الطبري: أنه اسم لإلياس، فقال: إلياس وإلياسين، مثل: ميكال وميكائيل.

ويقال: إنه # تُوفِّيَ على سفح جبلٍ قريبٍ من مدينة حيفا، وهنالك قبره - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ثانيًا: دعوة اليسع # :

اليسع هو أحد أنبياء بني إسرائيل، ذكر الله ﷻ نبوته مع ذكر الأنبياء بقوله: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٦]، وقال جَلَّ مِنْ قَائِل: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨].

اليسع نبي كريم من أنبياء الله تعالى لم يذكر القرآن شيئًا عن حياته، وكذلك لم نجد في السنة المطهرة شيئًا صحيحًا ثابتًا نعرف من خلاله كيف كانت حياته # لكن حسبه أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خلد ذكره بين تلك الكوكبة المباركة من أنبيائه ورسله.

عن الحسن: كان بعد إلياس اليسع -عليهما السلام- فمكث ما شاء الله أن يمكث، يدعوهم إلى الله مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله ﷻ إليه، ثم خلف فيهم الخلوف، وعظم فيهم الأحداث والخطايا، وكثرت

الجبابرة، وقتلوا الأنبياء، وقد وَهِمَ البعض؛ فذكروا أن اليسع هو إلياس وليس الأمر كذلك؛ لأن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أفرد كل واحد منهما بالذكر، وهناك من يزعم أن اليسع هو إدريس وليس كذلك؛ لأن إدريس # هو جد نوح # بينما اليسع من أبناء يعقوب.

وقد قيل: إن اليسع ابن عم إلياس أو ابن أخيه، ولعله أقرب من غيره، وقد تميز اليسع منذ صغره بالرشد والحفظ، وكان ينصح قومه ويبين لهم خطأهم وضلالهم؛ فكرهوه وطارده اليهود ليقتلوه، فآوته أم إلياس # وكان اليسع مريضًا فدعا له إلياس بالشفاء فشفاه الله تعالى. ثم إن إلياس دعاه إلى دينه فآمن به ولازمه أينما ذهب، ثم إن بني إسرائيل ألفوا المعصية فكثرت أنبياؤهم، وتتابعوا عليهم وترادفوا؛ لكنهم في كل مرةٍ ينكصون، هذا حالهم بعد اليسع أيضًا، فإنهم ظلوا يؤمنون بدعوته ويعظمونه حتى قبضه الله تعالى فما إن قبض حتى عادوا إلى الكفر والضلال.

يقول ابن جرير: ثم مرج أمر بنو إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكًا جبارين يظلمونهم، ويسفكون دماءهم، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم، وكانوا إذا قاتلوا أحدًا من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان فيه قبة الزمان - كما تقدم ذكره- فكانوا ينصرون ببركته، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية، مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان في بعض حروبهم من أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم؛ فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان؛ مالت عنقه فمات كمدًا.

وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله فيهم نبيًّا من الأنبياء، يقال له شموئيل؛ فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله تعالى في كتابه.

قال ابن جرير: فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله ﷻ شموئيل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة.

دعـــــــــــوة "داود"

ذكرنا فيما مضى أنه بعد اليسع وإلياس بقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله ﷻ نبيًّا من الأنبياء، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا ليقاتلوا معه الأعداء، وفي هذا يقول ابن كثير: كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدةً من الزمان ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا؛ فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وأسروا خلقًا كثيرًا، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة.

وكان لا يقاتلهم أحد إلا غلبوه؛ ذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم ﷺ فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب. وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط "لاوي" الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها، وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًّا لهم.

ولم تزل المرأة تدعو الله ﷻ أن يرزقها غلامًا، فسمع الله لها ووهبها غلامًا فسمته شموئيل، أي: سمع الله دعائي، ومنهم مَن يسميه "شمعون" وهو بمعناه، فأنبته الله تعالى نباتًا حسنًا، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا، وتفوا بما التزمتم من القتال معه، قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي: وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي: ما وفَّوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

وكما تمرد اليهود على وحي الله مع موسى # تمردوا عليه بعده، وكثر فيهما كثر من الفتن والعياذ بالله تعالى، ثم قال الله ﷻ يحكي هذه القصة؛ قصةَ أولئك: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦- ٢٤٨].

قال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت أي: أن يَرُدَّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم، وهو -كما قال الزمخشري- صندوق التوراة الذي كان موسى # إذا قاتل قَدَّمَهُ؛ فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: في ذلك التابوت سكون وطمأنينةٍ ووقارٍ. وفيه أيضًا بقية من آثار، وهي عصا موسى وثيابه، وبعض الألواح التي كُتِبَتْ فيها التوراة تحمله الملائكة.

يقول ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال فآمنوا بنبوة شموئيل أو شمعون، وأطاعوا لطالوت، ثم قصَّ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- علينا قصةَ القتال والاقتتال الذي كان بين هؤلاء وبين أعدائهم، وما قَدَّرَ اللهُ ﷻ من النصر لهم حين قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ابن كثير يقول: طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر، أي: يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى، والدعاء إلى النزال، فسألوا التثبيت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه؛ فأجابهم العظيم القدير، السميع البصير، الحكيم الخبير إلى ما سألوا، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي: هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده؛ إجابة لدعائهم، وانكسر عدوهم رغم كثرته وكثرة عدده، ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي: وقتل داود

-وكان في جيش المؤمنين مع طالوت- رأس الطغيان جالوت، واندحر جيشه وهنا يَردُ ذكر داود # لأول مرة في السياق؛ كان داود فتًى صغيرًا من بني إسرائيل، وكان جالوت ملكًا قويًّا قائدًا يخافه الناس ويرهبونه، ولكن شاء الله ﷻ أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها. والحقائق يعلمها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ولهذا قال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أتى الله ﷻ داودَ الملك والنبوة، وعلمه مما يشاء من علمٍ نافعٍ أفاضه عليه.

قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، وأن يشاطره نعمته، وأن يشركه في أمره؛ فوفَّى له، ثم آل الملك إلى داود # مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة.

وداود # من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم جميعًا الصلاة والسلام- تميز بالشجاعة منذ صغره، واشترك -كما قدمنا- في جيش طالوت، وفقه الله تعالى وأسبغ عليه نعمته؛ فقتل جالوت، وكان عاملًا أساسيًّا في هزيمة جيش العماليق، والقضاء على سلطانهم في بيت المقدس، وأعاد للإسرائيليين وطنهم المفقود؛ ولذا أحبوه، واتخذه طالوت مستشارًا له؛ فكان لا يقضي أمرًا دونه، زوجه ابنته كما وعده مع أنه ليس إسرائيليًّا، وصار في عونه في كل ما قام به؛ فلما مات طالوت انتقل الملك إلى داود، وقدر الله له هذا القدر الطيب، وهو أن يجمع له بين الملك والنبوة.

وداود # هو أول من جمع بين الملك والنبوة، يقول تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ وقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] وكان الأمر قبل ذلك

أن النبوة في بيت، وأن الملك في بيت آخر، لكن الله ﷻ أكرم داود فجعل له الأمرين معًا، وضمَّ لهما القضاء والفصل بين الناس، واختار الله تعالى داود # رسولًا إلى بني إسرائيل فأنزل عليه الزبور.

قال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

أيدَ الله تعالى نبيه داود بالمعجزات العديدة؛ لتكون دليل صدقه أمام قومه، ونوه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بذكره في كتابه، فقال -جَلَّ مِنْ قَائِل- بعد أن ذكر نعمه على عبده ومصطفاه داود # قال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧] الأيد: أي القوة في الطاعة، يعني كان ذا قوةٍ في العبادة والعمل الصالح، وهذا مصداق قول الله ﷻ في سياق آخر: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

قال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله ﷻ شكر، وأفضل الشكر الحمد. وقال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني: قال كان داود # قد جَزَّأَ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، كان # يقوم الليل ويصوم نصف الدهر كما أخبر بذلك نبينا ﷺ فقال: ((أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ كان يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ)). وقال ﷺ فيما رواه الترمذي، والحاكم عن أبي الدرداء: ((كانَ داودُ أعبدَ البَشرِ)) سخر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الجبال تسبح مع داود فقال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٨، ١٩] وقال -جَلَّ مِنْ قَائِل-:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

كان الله تعالى وهب لداود # من الصوت الحسن؛ بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه؛ يقف الطير في الهواء؛ يُرجِّعُ بترجيعه ويردد ويسبح بتسبيحه، وكذا الجبال تجيبه وتتجاوب معه، وتسبح معه كلما سبح بكرةً وعشيًّا. أُعْطِيَ داود من حُسن الصوت ما لم يعط أحدٌ قط.

وكان مما أعطى الله ﷻ لداود أن ألان له الحديد، فكان يفتله بيده كحبل القطن؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] وقال ﷻ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أي: كان داود # يصنع الدروع من الحديد؛ ليحصن المقاتلة من الأعداء، فأرشده الله إلى صنعها وكيفية ذلك، فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، أي: لا تدق المسمار فيغلق، ولا تغلظه فينفصم.

قال الحسن البصري، وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نارٍ ولا مطرقةٍ. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زَرْدٍ وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. وقد ثبت في الحديث: ((إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده)).

قال ابن كثير: وكان يستغني بثمن الدروع التي يصنعها عن الراتب من بيت مال المسلمين؛ فقيل: إنه كان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم يتصدق بثلثها، ويشري بثلثها ما يكفيه وعياله، ويمسك الثلث يتصدق به يوميًّا إلى أن يعمل غيرها، وأن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أعطاه شيئًا لم يعطه لأحدٍ من قبله كما قال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، شددنا ملكه: أي قويناه بوفرة

العدد والعُدَدِ ونفوذ السلطان وإمداده بالتأييد والنصر، وفصل الخطاب: أي فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ورفع الشبهة وإقامة الأدلة، وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق، لا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب.

تميز داود بالحكمة والقضاء بين المتخاصمين، وبأنهم كانوا يقصدونه لشدة عدله ودقة فهمه، حتى إنه # اعتبر نفسه ظالمًا يوم أن حكم على صاحب الغنم قبل أن يناقش حجته الحقيقية، كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥] تحدثنا الآيات عن معجزاته # وعن مزاياه، وتبلور لنا دعوته أيضًا، وتحدد لنا ملامح هذه الدعوة نعم، دعا قومه إلى التوحيد، وجدد لهم دعوة موسى، وكان الوحي ينزل عليه بتعاليم الله أبقاه لقومه في كتابه المنزل من عند الله، وهو الزبور.

دعاهم أيضًا إلى الشريعة والعمل الصالح، كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١١] وعلمهم ضرورة الشكل لله عز وجل بالقول والفعل، كما هو بالقلب والجَنَان: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وكان شديد الإنكار على كل مخالفٍ لحكم الله، معتد على حدوده، ظالم لنفسه بشرك أو بفسق أو ببغي، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

ثم إن الله عز وجل وهب لداود ولده سليمان؛ لتستمر النبوة وليبقى الملك في ولده كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

ثم إن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أراد أن يختار داودَ؛ فعنِ أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((كان داود # فيه غيرةٌ شديدةٌ؛ فكان إذا خرج أغلقت الأبواب؛ فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تتطلع إلى الدار، فإذا رجلٌ قائمٌ وسطَ الدارِ؛ فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لتفضحن بداود؛ فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت؛ مرحبًا بأمر الله، ثم مكث حتى قبضَ روحه؛ فلما غُسِّلَ وكُفن، وفُرغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحًا -قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير- وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذ المضرحية)) وهذه المضرحية هي الصقور الطوال الأجنحة، واحدها مضرحي.

قال الجوهري: هو الصقر الطويل الجناح. ويقال: إنه # دُفِنَ في بيت لحم - والله تعالى أعلم.

وقفات مع داود # :

إن هذه الوقفات تتضمن صورًا من القضاء الذي قضاه داود، كما تتضمن دروسًا يستفيدها الدعاة، وينتفع بها الهداة في كل زمانٍ ومكانٍ، كان داود # يباشر القضاء بنفسه، ويقسم أيامه أربعة أقسام، يومًا للعبادة في المحراب، ويومًا يجلس في الديوان للحكم والقضاء، ويومًا للدعوة والإرشاد، ويومًا يخدم فيه نفسه، وكان # متميزًا كما ذكرنا في قضائه بالعدل والإنصاف.

وهنا حوادث قصَّ بعضها علينا كتاب الله ﷻ نحن نريد إشارة إلى ثلاث من تلك القضايا التي أصدر فيها داود حكمًا ثم عدل عنه بعد أن أظهر الله له الحق، وبان له وجه الصواب:

الحادثة الأولى: حادثة الغنم في يوم عبادة داود فوجئ وهو في المحراب برجلين يدخلان عليه؛ متسورين المحراب ليلًا؛ فزع منهم لأنه تصورهم جاءا لأذيته أو قتله؛ هَمَّ بالدفاع والقتال هدءا من روعه وعرفاه بأنهما خصمان، وأن الخصومة بينهما في غنم، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] عندها هدأت نفس داود، ذهب عنه روعه، فقال المُدَّعِي: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] قال المُدَّعِي: أراد أخذ نعجتي وغلبني ببلاغته وسلطانه، ويبدو أن المُدَّعَى عليه أقره على ما ادعى فأصدر داود حكمه بعد أن عرف الدعوى، وسمع إقرار المدعى عليه، وكان على داود # أن يستقصي في البحث، وأن يتابع السؤال من أين له هذه النعجة الواحدة؛ فلربما أخذها من المدعى عليه، وهذا الذي كان بالفعل حكم داود # بعد إقرار المدعى عليه وشعر بأنه تعجل وأدرك أن هذا ابتلاء من الله فاستغفر وخر ساجدًا واستمر على سجوده حتى غفر الله له.

ظهر أن الثاني سرق هذه النعجة من أخيه الأول؛ فأراد الأول أن يأخذ نعجته بحيلة؛ ولذا أقر بالدعوى التي عرضها صاحب النعجة الواحدة، ولم يشر إلى سرقة أخيه للنعجة؛ حياء وخلقًا، تَعَلَّمَ داود من هذا ضرورة الاستقصاء في أمر الدعوة، وهو ما يعرف بالتحري، وسماع الشهود، وأخذ رأي الخُبَرَاء؛ ولذا استغفر ربه على تعجله وتاب إلى ربه.

الحادثة الثانية: أنه أقبلت غنم ليلًا على مزرعة ليس معها راعيها فأفسدت الزرع، وأتت عليه؛ فاحتكم أصحاب الزراعة إلى داود # يا نبي الله، إنا حرثنا

أرضنا وزرعناها وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها، جاءت غنم هؤلاء القوم ليلًا فانتشرت في زرعنا، وأكلته حتى لم يبقَ منه شيء؛ فقال داود لأصحاب الغنم: أحقًّا ما يقول هؤلاء؟ قالوا: نعم، فقال لأصحاب المزرعة: كم تقدرون ثمنًا لزرعكم؟ فذكروا له الثمن، فقال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمنًا لغنمكم؟ فذكروا له الثمن؛ رأى داود # أن الثمنين متقاربان؛ فقال لأصحاب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضًا لهم عن زرعهم، وهذا الحكم يؤدي إلى فقدان أصحاب الغنم لكل شيء، وإلى حصول أصحاب الزرع على الأرض وعلى الغنم معًا.

وعندها ألهم الله سليمان بن داود الحكم الصحيح، كما ذكر الله: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] قضى سليمان بأن يقوم أصحاب الأرض برعي الغنم، ويقوم أصحاب الغنم بزراعة الأرض، فإذا ما جاء وقت الحصاد تسلم أصحاب الأرض أرضهم بزرعها، وتسلم أصحاب الغنم غنمهم بتمامها؛ وبذا يأخذ كل طرف حقه كاملًا.

فإن قيل: فما بال أصحاب الأرض يرعون الغنم لأصحابها، نقول: يرعونها ويأخذون صوفها ولبنها ونتاجها؛ جزاء عملهم، وعندها رضي الجميع بهذا الحكم وسعد به داود # وحكم به وعاد عن حكمه الأول.

الحادثة الثالثة: وهي حادثة التنازع حول الولد حيث كان لامرأتين ولدان؛ فجاء الذئب وأخذ أحدهما فتنازعا حول الثاني، كلًّا منهما تريده لنفسها فاحتكما إلى داود # فحكم به للكبرى؛ فاستأذن سليمان أباه وأتى بالمرأتين، وقال لهما: هاتوا سكينًا أشقه بينكما نصفين؛ فوافقت الكبرى ورفضت الصغرى وانزعجت، وقالت: يرحمك الله هو ابنها اعطه لها، لا تشقه؛ فحكم به للصغرى؛ لأنه عرف أنها أمه؛ فرجع داود عن حكمه، وحكم بما رآه ولده سليمان.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((كانت امرأتان معهما ابناهما؛ جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك؛ فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى؛ فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها؛ فقضى به للصغرى)).

حكم داود للكبرى؛ لأن الولد كان في يدها، وليس مع الصغرى بينة وهذا جاء على القواعد الشرعية، أما سليمان: فقد احتال بحيلة لطيفة أظهرت ما في نفس كل منهما، وهذا يعلم الحاكم والقاضي ألا يتسرع في حكمه وأن يحافظ على الحقوق، وأن يكون فطنًا ليكتشف الحقيقة بالأسئلة المتعددة؛ ليتمكن من الوصول إلى الحق، وليعلم الجميع أن العدل أساس الملك، وبه تدوم السعادة ويتحقق الرشاد للجميع.

ومن ركائز الدعوة في قصة داود ما رأيناه من شجاعته وبسالته وإقدامه على القتال تارة، وعلى الرجوع عن الخطأ تارة أخرى؛ فلا شك أن البسالة والشجاعة في أرض المعارك والجهاد لا تقل عنها بحال الشجاعة في رد الخطأ، وإصلاح الخلل، والتنازل عن القول، ورد الحكم إذا لم يوافق الصواب، هذا داود # يعلم الداعية أن يكون شجاعًا؛ إذا أخطأ أن يرجع وإذا تهور أن يستعتب، وألا يندفع اندفاعًا لا يظهر فيه مصلحة، ولا تتحقق منه فائدة.

ومن دروس الدعوة في هذه القصة: ألا يتعجل الدعاة نتائج سعيهم، بل عليهم أن يخلصوا في الدعوة، وأن يتركوا النتائج لله ﷻ وأن يتركوا الجدال؛ فإن الجدال لا يفضي إلى خير، ولا يحقق مصلحة، وأن يتعاونوا على تبليغ دعوة الله، لماذا؟ لأن داود وسليمان -عليهما السلام- قد تعاونا في أمر الحكم، وفي أمر القضاء، ووصلا إلى مراد الله ﷻ وإلى حكم صحيح.

وعلى الدعاة أن يتجنبوا تنافسًا وتنازعًا يسبب لهم الضرر، ويقضي على دعوتهم، ويبعدهم عن الجادة. وعليهم أيضًا أن يتدارسوا وأن يتناقشوا، وأن يتحاوروا في مسائل الخلاف؛ ليصلوا إلى حكم يرتضيه الجميع، أو ليصلوا إلى قناعة مشتركة بشيء بين الجميع من هذا الخلاف؛ وحينئذٍ يتحقق لكل اجتهاده، وتتحقق الألفة أيضًا بين القلوب، وتتحقق المودة بين النفوس من غير تدابرٍ ولا افتراق.

الدروس من قصة داود # كثيرة ومتعددة ونافعة لمن تدبر ولمن تأمل، ومن أعظم ذلك وبه نختم قوة العبادة، وضرورة العبادة، وحتمية الإحسان والإتقان في العبادة لمن حمل هم الدعوة، ولمن تكلف عبئًا ثقيلًا من مواجهة الناس، ونفعهم ودعوتهم إلى الله تعالى؛ فإنه لا يتمكن من الصبر إلا بصبر طويل على الطاعة، ولا يتمكن من الثبات في موقف الدعوة إلى الله إلا بثبات طويل في محرابه، وهو يتبتل إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

دعـــــوة سـلـيمان

سليمان هو: سليمان بن داود من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]

سليمان هو ابن نبي الله تعالى داود، وهو ناشئ في بيت نبوة، ورث عن أبيه مع النبوة الشجاعة مع الحكمة.

وقد سبق لنا في قصة داود: أن سليمان كان يشارك أباه، ويعاونه في تدبير أمر الدولة، بل كان يُوَفَّقُ في الحكم في بعض ما يقضي فيه أبوه كما بان لنا في قضية الزرع والغنم، وقضية التنازع حول الولد، وكان داود # يرجع لحكمه إذا ظهر له صوابه، وبانت له دقته.

يُعدُّ عصر سليمان # أزهى عصور بني إسرائيل ؛ إذ أسس لهم مملكةً بحضارةٍ راقيةٍ، وكان له # من الأحداث ما سَطَّرَهَا كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- توفِّي داود وعُمْرُ سليمان اثنان وعشرون عامًا ؛ فوهبه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مواهب عظيمة وأعطاه عطايا كبيرة، وكان سليمان جديرًا بأن يتولى الملك بعد أبيه ؛ لما حباه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- به وبما فضله الله ﷻ به، وبما مَلَّكَهُ الله تعالى من الملك ؛ ولهذا ازدهرت الحياة في عصره، وظهر كمال فهمه، وظهرت حكمته ؛ فأكمل ما ابتدأه داود، وشرع في عمارة المسجد كما أوصاه، وبنى مدينة "تَدْمُر"، وأقام على بناء الهيكل سبع سنوات ؛ بنى بيتًا للجند، وأنشأ للسلاح مصنعًا، وأسس أسطولًا تجاريًّا كبيرًا، يجوب الشرق والغرب ؛ فازدهرت على يديه الحضارة، ليست حضارة مادية بل هي حضارة نبوية، حضارة ربانية.

عاش الإسرائيليون مجدها، وتقلبوا في ظلالها، فلم يروا في مرحلة من مراحل تاريخهم سعةً ولا رغدًا كما في مرحلة سليمان # جمع الله تعالى له الملك والقضاء والنبوة، وَفَّى سليمانُ # بما كلفه الله تعالى به، ودعا قومه إليه، وكان لله ﷻ دائمَ الشكر، دائمَ السؤال، دائمَ اللَّهَجِ بطاعة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حتى قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

ومدحه ربه فقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

قال مجاهد: ملك الدنيا أربعة، مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن كنعان، وبختنصر، كانت وراثة سليمان لأبيه داود في الملك والحكمة، كما كانت في النبوة، ولم تكن هذه الوراثة

لكل ولده ؛ فالله ﷻ اختص من بني داودَ سليمان # فآتاه النبوة. قال ابن العربي : فلو كانت وراثةَ مالٍ ؛ لانقسمت على العدد ، فخص الله تعالى سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة ، وزاده من فضله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، ولا يجوز القول : بأن الوراثة كانت في المال بالنسبة لنبي الله سليمان أو غيره من الأنبياء - عليهم السلام - لأن النبي ﷺ قال : ((إنا معشر الأنبياء لا نورث)).

والقرآن يقصُّ علينا قصصَ سليمان مع جنده من الجن والإنس والطير، ويحكي لنا خبر مروره على وادي النمل ؛ فيقول - جَلَّ مِنْ قَائِلٍ - : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٧] جمعت له جيوشه وعساكره، وأحضرت في مسيرة عظيمة ، وتقدمهم سليمان ؛ فجعل ينظر إليهم ويتأمل فيهم.

قال ابن عباس : جعل على كل صنفٍ مَن يَرُدُّ أُولاَهَا على أُخْرَاهَا ؛ لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾. وها هو # يمر على وادي النمل ومعه موكبه العظيم وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨]، ولا شكَّ أن الله ﷻ عَلَّمَ سليمان منطق الطير كما قال - جَلَّ مِنْ قَائِلٍ - : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٦] والآية تتضمن مقالة سليمان # لبني إسرائيل يعرفهم بفضل الله عليهم ليشكروا هذه النعم.

وسليمان عَلَّمَهُ الله تعالى كلام من لا يتكلم ، سواءً كانوا من الطير أو الحشرات أو النبات أو الجماد ، وإنما خص الطير بالذكر ؛ لأنه كان من جنوده فكان يحتاجه كثيرًا ؛ يظله من الشمس بجسمه ، ويلطف الهواء بجناحيه ويحمل البريد ، ويأتيه

بأخبار المناطق البعيدة. ولا شك أن سليمان كانت له مع الهدهد قصة عظيمة مسطورة في كتاب الله تعالى، وبهذه المعجزات تمكن سليمان # من إقامة هذه الحضارة الواسعة التي شملت البر والبحر والجو، وصدق في قوله الذي حكاه الله عنه: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

لم تكن هذه هي المعجزة الوحيدة، بل سخر الله تعالى له الريح، كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢] هذا كله يدل على أن الريح كانت تتحرك بأمره، وتتجه إلى حيث يريد، وتستمر في طاعتها وخضوعها لسليمان طيلة حياته كلها كانت الريح تجري في كل الأرض التي باركها الله، وهي تلك المملكة التي بسط سليمان عليها سلطانه، كانت الريح تسوق الماء إلى الجهة التي يشاؤها سليمان، وهذا له دوره أيضًا في توجيه السفن إلى الموانئ التي يريدها سليمان، ولكن ما هي هذه الفائدة التي قدمتها الريح مسخرةً في مملكة سليمان، وهل استفاد بها الإسرائيليون، وما دور هذه الريح في تلك الحضارة؟.

يقول القرطبي: كان سليمان لا يقعد عن الغزو، فإذا علم قومًا يعادون الله في الأرض؛ أرسل إليهم واستعدَّ لهم، وصار إليهم غازيًا تحمله الريح إلى حيث يريد، كان إذا أراد وجهةً ما؛ أَحْضَرَ فراشًا، وجعل عليه الناس والدواب وآلة الحرب ثم يأمر الريح فتحمل الجميع إلى حيث يريد.

ويرى المؤرخون: أن سليمان # كان يركب الريح ويمر على البلاد والقرى، وينزل حيث يريد بلا مطار يعد أو استقبالات تجهز، أو نفقات تبذل، وبذا استراح الناس ونهض المجتمع، يتجول في أرجاء مملكته يطمئن على رعيته فيمر

بكل واحد يعلمه، ويذكره، وينصحه، ويعطيه ويوسع عليه؛ مر بحَرَّاث، وقد حملت الريح إليه كلامه، وهو يقول: لقد أوتي آل داود ملكًا عظيمًا فنزل وأتى ذلك الحراث، وقال له: إني سمعت قولك، وإني جئت إليك؛ لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله منك خير مما أوتي آل داود؛ فقال الحراث: أذهب الله همك كما أذهبت همي.

ومن هذه المعجزات العظيمة التي أيدَ اللهُ بها نبيه سليمانَ: تسخيرُ الجنِّ، قال -جل من قائل-: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] يقول تعالى أيضًا: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، هذا كله فضل الله تعالى على سليمان، نعمة الله تعالى على آل داود.

وفي هذا التسخير للجنِّ معونةٌ عظيمةٌ لسليمانَ، وبيانٌ بأن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قد أعطاه ما لم يعط أحدًا من أنبياء الله تعالى ورسله من هذه المعجزات الباهرة؛ ولهذا كان ذلك كله استجابة لما دعا به سليمان حين سأل الله ﷻ أن يهب له ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده؛ فاستجاب الله تعالى دعاءه وآتاه من فضله.

احتاج سليمان # إلى مادةٍ يصنع بها سلاحه، ويهيئ بها أمره ويقوي بها ملكه، فأسال الله تعالى له النحاس الأصفر، كما يسيل الماء واستمر سيلان تلك العين ثلاثة أيام، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢] كان الجن يأخذون النحاس السائل فيشكلونه كما يريد سليمان، فيجمد ويصير مصنوعًا جديدًا مفيدًا ينفع الله تعالى به.

أقام سليمان # مملكةً عظيمةً مترامية الأطرافِ، ذات حضارة إنسانية عظيمة، لكنه أقامها يوم أقامها على العقيدة الصحيحة؛ ولهذا كان إنما يطلب المددَ من الله، والعونَ من الله، ويسأل الله ﷻ في كل أمره، وفي هذا يقول الله تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]، وهو حين يعلمه الله ﷻ منطق الطير فيسمع ما تذكره تلك النملة الصغيرة؛ فيتبسم كما قال الله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩]، ثم إنه رد النعمة إلى مُسْدِيْهَا، وشكَرَ اللهَ تعَالَى، الذي أعطاه عطاءً عظيمًا، ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

وما أن بلغه أن قومًا يعبدون مع الله ﷻ غيره، وأن قومًا يشركون بالله تعالى سواه؛ هُرِعَ سليمان إلى دعوتهم، كما أخبر ربنا -تَبَارَكَ وَتعَالَى- عن ذلك في كتابه، والقصة تبدأ بتفقده الطير، فَفَقَدَ الهدهُدَ فسأل عنه، وتوعده حيث تخلف عن هذا العرض الذي كان يتفقده سليمان فقال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢١- ٢٦].

ما كان من سليمان إلا أن قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين؛ وبادر فكتب هذه الرسالة التي ابتدأها بقوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وجعل يأمرهم وينهاهم، ويدعوهم إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ويحذرهم مغبةَ الشركِ

وسوءَ عاقِبَتِهِ حتى قالت تلك الملكة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ [النمل: ٢٩: ٣٢].

كان سليمان قد بلغ ذكره الآفاق، وطبقت سمعته الطباق، ولم يكن لأولئك القوم به من قِبَلٍ؛ ولهذا كانت تلك المرأة حكيمةً حين قالت: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥] إنها تريد أن تصانع سليمان؛ لأنها تريد أن تتحاشى مواجهته، وتخشى أن يأتي إليها بما لا قِبَلَ لها به؛ فلما أرسلت تلك الهدية، وكانت تظنه من ملوك الدنيا الذين يريدون فيها علوًّا، أو يرجون من وراء ذلك طغيانًا وفسادًا، لما جاءت تلك الهدية وذلك الخبر؛ قال سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ۝٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧] عاد الوفد إليها ليعلموها أن ذلك الرجل القوي ما هو إلا نبي يدعو لله ﷻ والله تعالى هو الذي أيَّدَهُ، والله تعالى هو الذي أعطاه، ووهب له وحباه.

ثم إن سليمان # لما علم بتحركها وقرب مجيئها؛ جمع جنوده من الجن والإنس؛ فطلب منهم أن يحضروا عرشها قبل أن تصل وتفد إليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]. أجابه عفريت من الجن بأنه يحضر لها عرشها قبل أن يقوم من مقامه الذي هو فيه، رأى سليمان أن المدة طويلة، فقال رجل من علماء بني إسرائيل يدعو الله تعالى باسمه العظيم: أنا آتيك به قبل أن تغمض عينك، وقال يا نبي الله، امدد بصرك فمد بصره نحو اليمن؛ فإذا بالعرش، فما رد بصره إلا وهو عنده.

ونظر سليمان فرأى العرش ثابتًا مستقرًّا عنده، فرأى فضل الله تعالى عليه يتواتر، وأقرَّ بفضله الذي أعطاه، وهبته التي منحه؛ فطلب من الله عَجَلّ أن يرزقه الشكر، وأن يعينه عليه. قال الله تعالى في هذا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

سليمان يأمر القومَ بأن يغيروا لها من عرشها؛ فيزيدوا فيه وينقصوا ويجعلوا تحت ذلك العرش ماءً، وفوق الماء زجاجًا، فلما وصلت تلك الملكة بلقيس سألوها: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وقد علمت أن سليمان كان على الحق منذ أن راسلها؛ فمنذ ذلك الحين أسلمت؛ قال الله تعالى عن هذا: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٢، ٤٣].

فلما دخلت الصرح الذي بناه الجن رأته فحسبته ماءً؛ كشفت عن ساقيها فنوديت: أنه قصر من زجاجٍ لا ماءَ به؛ فأقرت بواقعها، وأعلنت إسلامها ورجعت عن ذنبها، ودخلت في دين الله عَجَلّ وآمنت مع سليمان لله رب العالمين، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهكذا يقص القرآن علينا قصةَ سليمانَ يُعَلِّمُ أتباعَ الرسل كيف تكون الدعوة إلى الله، وهكذا يمضي سليمان في دعوته إلى أن يوافيه أجله المحتوم، الذي حدث الله تعالى عنه في كتابه فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] والآية تشير إلى وفاة سليمان وكانت وفاته غريبة كحياته # توفي حين توفي فلم تعلم الجن بوفاته إلا بعد مدة طويلة، كانت تعمل خلالها في إتمام بناء بيت المقدس.

يقول المفسرون: إن سليمان # كان في محرابه فأدركه الموت وهو متكئ على عصاه، واستمر على ذلك حتى جاءت الأرضة فأكلت طرف العصا وهي المنسأة؛ فاختل توازنه فسقط على الأرض # هنا علمت الجن بموته علم أهله بموته؛ فأقبلوا عليه فغسلوه ودفنوه.

ركائز دعوة سليمان # :

إن دعوة سليمان -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- دعوة لها أهميتها ذلك أن الله ﷻ جعل تلك الفترة التي عاش فيها سليمان داعيًا إلى الله نبيًّا رسولًا ملكًا مؤيدًا من قِبَلِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إن الله ﷻ أقام تلك الحضارة العظيمة على دين الله تعالى مؤسسة، وبشرعه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ملتزمة، واتضح فيها أن هذه السلطة الشرعية المنتسبة إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هي التي تصلح الحياة والأحياء، وهي التي تَصْلُحُ للناس جميعًا في كل زمان، وفي كل مكان:

فإن أول الركائز التي أقيمت عليها هذه الدعوة، وأهم الدروس التي تظهر من قصةِ سليمان -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: أن الدين يُقِيمُ الحضارة، أن الدين ينمي ويثمر الحضارة، أن الدين يحفظ الحضارة أن تنحرف، يحفظها أن تزيغ، يحفظها أن تكون حضارة مادية لا نفع فيها ولا خير إلا للمادة وما تعلق بها.

- ومن الركائز في هذه الدعوة: القدوة التي يكون عليها القائد، والتي يقتدي فيها به أتباعه، فعندما يصلح تصلح الرعية؛ ولذا كان اهتمام النبي ﷺ بوجهاء القوم واعتناؤه بأن يسلموا؛ لأنه بإسلامهم يسلم من يتبعهم في قبيلتهم في سيادتهم في ملكهم وشرفهم؛ ولأجل هذا كان الملأ دائمًا يتصدون للدعوة؛ فيحاربون رسل الله، ويصدون الناس عن سبيل الله، وهذا مسطور في قصص

الرسل وأنبياء الله تعالى جميعًا. فكانت الدعوة إذا اتجهت إلى الرأس فنفع الله تعالى بها وانتفع كان من وراء ذلك الخير العظيم.

وهنا كانت المفارقة عجيبة أن الرأس هو ذلك النبي الذي يوحى إليه، وذلك الملك الذي مكنه الله تعالى بالوحي وبالحكمة وبالقوة؛ فآتاه من القوة ما لم يؤت أحدًا ممن سبقه، ولا ممن لحقه من أنبياء الله تعالى، ولا من الملوك فما سخرت الريح إلا لسليمان، وما أعطي منطق الطير إلا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ونحن نتعلم في هذه الدعوة مسألةً أخرى: وهي أن الدعاة إلى الله إنما يرجون من دعوتهم الأجر والثواب من الله، لا يطلبون على ذلك جزاءً من أحد ولا شكورًا، فهذا سليمان يواجه أولئك القوم بتلك الرسالة التي يدعوهم فيها إلى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يبدؤها بـ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٢٩، ٣٠].

ثم يعتقد أولئك القوم أنه كغيره من الملوك يطلب حظًّا من الدنيا، لكنه # يكشف لهم عن الحقيقة، أنه ما يريد منهم إلا أن يأتوا إلى الله ﷻ مسلمين مذعنين لا يريد من دعوته مالًا ولا جاهًا، فلما أرسلت إليه الهدية، قال: بل أنتم بهديتكم تفرحون، هذه الهدية التي تسوقونها إلي إنما هي إسلامكم لا غير؛ ولهذا أثمرت هذه الطريقة الحصيفة أن أسلمت بلقيس حين عاينت الحقائقَ بعقلٍ ورويةٍ؛ فأعلنت إسلامها لله رب العالمين.

وهذه القصة من فوائدها أيضًا: تلك الإشارة الظاهرة الواضحة لوجود عالم الجن، ولوجود ما يقوم به الجن من أعمال، ذكر الله تعالى الجن فَبَيَّنَ أنهم مخلوقين من مارجٍ من نارٍ، وأن الجن يتصورون ويتشكلون، وأنهم يوجدون

وأنهم يحيون ويموتون، ونبه القرآن الكريم إلى أن الجن ليس لهم سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وأن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أقام المعركة بين الإنسان والشيطان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] يتخبطه، يعني: يتخبله الشيطان، فيصرعه من المس، يعني: من الجنون.

وقد ورد أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ومعها صبيٌّ به لَممٌ فقال النبي ﷺ: ((اخرج عدو الله، أنا رسول الله))؛ فبرأ ذلك الصبي، واللمم: طرف من الجنون، قد يلم بالإنسان، وهذا يؤكد على هذه العداوة القديمة بين الجن الشيطان وبين الإنسان، كما بين ذلك النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري بسنده، عن أبي هريرة: ((ما من مولود يولدُ إلا نخسه الشيطان؛ فيستهِلُّ صارخًا من نخسةِ الشيطانِ إلا ابن مريم وأمه)).

وقد عَلَّمَ الله ﷻ الإنسان كيف يقطع طرق الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تتواصل عهوده في كتاب الله يعهد إلى بني آدم ألا يعبدوا الشيطان؛ إنه لهم عدو مبين، يعهد إليهم ألا يتبعوا خطوات الشيطان؛ لأن هذه الخطوات تهدي الإنسان إلى النار والعياذ بالله، وتؤكد على أهمية الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] وعند الصلاة، وحال الغضب، وعند دخول الخلاء، وعندما يرى الإنسان رؤيا يكرهها؛ فإنه يستعيذ بالله من الشيطان، ويتحصن بالله من فتنته وشره.

ولا شك أن ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هو مطردة للشيطان ؛ فإن الإنسان إذا خرج من بيته فقال : "بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، قيل له : هديت وكفيت ووقيت ؛ فتتنحى عنه الشياطين ، فيقول شيطان لآخر : كيف لك برجل قد هُدي وكُفِيَ ووقي". وقراءة القرآن أيضًا مَطْرَدَةٌ للشيطان ؛ فإن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- جعل للقرآن سرًّا عظيمًا في طرد الشياطين ، وقد علم الشيطان نفسه أبا هريرة قراءة آية الكرسي ؛ فإنه إن قرأها في ليلةٍ لم يزل عليه من الله حافظ ، ولم يقربه شيطان حتى يصبح ، فلما أخبر أبو هريرة رسول الله ﷺ بذلك ؛ قال : ((أما أنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ، قال : قلت : لا ، قال : ذاك شيطان)).

والنبي ﷺ يخبر عن ميزة عظيمة بسورة البقرة فيقول : ((سورة البقرة فيها آية سيدةُ آي القرآنِ ، لا تقرأ في بيتٍ وفيه شيطان إلا خرج منه : آية الكرسي)). بهذا نكون قد أتينا على المهم من الدروس والعبر من دعوة سليمان -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

دعوة "زكريا" و"يحيى" عَلَيْهِمَا السَّلَام

أولًا : دعوة "زكريا" # :

بعد نبي الله تعالى سليمان تشرذم بنو إسرائيل وتفرقوا ، وتوزعوا في البلاد المجاورة كمصر والحجاز والعراق واليمن ، وبلاد آسيا الوسطى وجهاتٍ عديدة ، تفككت دولتهم واستعبدهم البابليون والآشوريون والمقدونيون ، وظهرت فيهم مذاهب متعارضة ، ثم إن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أراد أن يعيد لهم مجدهم الذي ضاع ، وملكهم الذي فقدوه ، وأن يبطل المزاعم التي كانت حولهم ؛ فاختار من ذريتهم آخر أنبيائهم ، وهم زكريا ويحيى وعيسى -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-

وثلاثتهم من آل عمران هذه الثلة من أنبياء الله تعالى اصطفاها الله تعالى، وفضلها كما قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

ذلك أن امرأة عمران أنجبت ابنتين الأولى تزوجها زكريا فولدت له يحيى والثانية هي مريم، وقد وهبتها لخدمة الهيكل؛ فحملت وولدت عيسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- فيحيى وعيسى -على هذا النحو- ابنا خالة، وزكريا صِهْرٌ لمريم -عليهم جميعًا السلام- وقد جعل الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- زكريا كافلًا لمريم، وجعل ذلك لتقتبس منه علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا؛ فقد كان زكريا نبيًّا كريمًا، كان زوج أختها، وكان يعمل نجارًا كما قال نبينا ﷺ كما في (صحيح مسلم): ((كان زكريا نجارًا))، وكان يذهب إلى حانوته ساعة من نهار؛ فإذا أصاب بعض مال مسح به دمعة البائس، وقضى به حاجة السائل ثم رجع إلى داره فارغًا إلا من فضل الله صامتًا إلا عن ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أخذ زكريا # بعد أن كفل مريم ابنة عمران يلاحظ تلك العناية الربانية لمريم، ويرى كرامة الله لها، كرامة الله لمريم التي تقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا؛ فقد كانت كريمةً على الله ﷻ كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] كان زكريا يزورها في محرابها، وهذا أمر طبيعي، لكن الذي لفت نظره وشد انتباهه -كما قال ذلك المفسرون- أنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ويجد فاكهة الصيف في الشتاء. لم ير ذلك مرة واحدة بل تكرر

مرات ومرات؛ وعندها سأل من أين يأتيك هذا الرزق؟ فتجيب من عند الله، وهذا ما قص الله تعالى علينا خبره، وذكر لنا في كتابه أمره.

تحركت في نفس زكريا ذلك الشيخ الذي لم يوهب ذرية، تحركت رغبة فطرية قوية، رغبة في الذرية في الامتداد في البقاء، في أن يبقى بعد موته في الحياة رسمه، وأن لا ينمحي من الوجود اسمه، تلك الرغبة لا تموت في نفوس البشر، ولو كانوا عُبَّادًا أو زهادًا، ولو كانوا أنبياء نعم فطرة فطر الله الخلق عليها، أن تبقى أسماؤهم في الحياة مذكورة، وأن يبقى أثرهم في الوجود منشورًا، عندها دعا زكريا ربه، وكانت زوجته عقيم لا تلد و زكريا قد شاخ وكبر، ولم يرزق بولد، ونظر حوله فرأى أن الموالي ليسوا بأمناء على دين الله، فتمنى في نفسه ولدًا من صلبه يرث النبوة ويكون امتدادًا لآل يعقوب، ويكون محل توفيق الله ورضاه فلم يجد إلا الله ليحقق له هذه الأمنية، وبخاصة أنه رأى مريم تتمتع بالرزق الوفير بكرم الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وفضله.

ولهذا نادى ربه نداء خفيًّا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٤- ٦] آيات واضحات في أن الله تعالى أنزل رحمته على زكريا، فحين دعاه دعاه وحيدًا فريدًا لا يسمعه إلا الله الذي يعلم السر وأخفى.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨] نادى ربه: ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، زكريا نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين فجاءت الاستجابة، استجابة لا تتقيد بسن، ولا تتقيد بمألوف؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي

تفعل ما تريد؛ ولهذا وهب الله تعالى يحيى لزكريا، وهبه منه رحمةً وجعله له خلفًا لخير سلف.

يقول قتادة: إن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي، وقد قام زكريا من الليل ينادي نداءً لا يسمعه أحد، ومعنى وهن العظم مني، أي: ضعف العظم بسبب الكبر، وظهر الكبر على الشعر فابيضّ، واشتعل الرأس شيبًا. والمراد بهذا الإرث النبوة؛ لأن الأنبياء لا يورث لهم مال، والدنيا كلها لا تستحق أن يهتم بها نبي؛ ولهذا تمنى زكريا إرثَ النبوةِ.

ومن مجمل هذه الآيات نعلم وندرك استجابة الله تعالى لدعاء نبيه زكريا بغلام لم يسبق أن سمي به أحد؛ فسماه الله تعالى يحيى، وأصلح زوجته، وهيأها على عقمها أن تحمل، وأن تحيض بعد كبرها وشيخوخة زوجها، طلب زكريا من ربه آية وعلامة يعرف بها وقت حمل زوجته بهذا الولد، فقال الله له: آيتك أن يعتريك صمت وسكوت لمدة ثلاثة أيام لا تستطيع أن تتحدث خلالها إلا بالرمز والإشارة؛ فلما جاء وقت الحمل كان زكريا يقرأ ويسبح، ولا يستطيع التكلم مع أحد، ويولد له يحيى كما ذكره الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وعاش زكريا حتى لقيَ ربه # وقيل: إنه مات مقتولًا قتلته يهود.

ثانيًا: دعوة يحيى # :

تمت كلمة الله ﷻ وولدت زوج زكريا ابنها يحيى، فكان ميلادُ يحيى معجزةً جاء لأبوين كبيرين بعد عمر طويل يأس فيه أبوه وأمه من الذرية جاء بعد دعوةٍ نقيةٍ تقيةٍ، تحركَ بها قلب نبي الله زكريا، فجاء هذا الغلام سرورًا ونورًا، وخاطبه الله تَبَارَكَ

وَتَعَالَى- بقوله: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢] فكان هذا استجابةً لطلبِ زكريا من اللهِ أن يُولَدَ له من يرثه في علمه وحكمته ونبوته، بشر الله تعالى زكريا بيحيى، وسماه بهذا الاسم بشرى لوالديه بأنه يعمر، وأنه يحيى طويلًا، وللدلالة على أن قلبه حيٌّ بمحبةِ الله ﷻ وأن جسمه حيٌّ بطاعة الله تعالى، وأن لسانه حيٌّ بذكرِ الله، وأن باطنه حي بمراقبة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وُلِدَ يحيى # قبل ميلاد عيسى بستةِ أشهرٍ على الراجح يقول كعب: كان يحيى حسن الصورة والوجه لينَ الجناحِ، قليل الشعر قصير الأصابع، طويل الأنف، مقرون الحاجبين، رقيقَ الصوتِ، كثير العبادة قويًّا في طاعة الله تعالى، قيل: إن أتراب يحيى قالوا له وهو صغير: اذهب معنا نلعب قال لهم: ما للعبِ خُلِقْتُ، كان يعظ الناس ويقف لهم في أعيادهم ومجامعهم يدعوهم إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ويذكرهم بالله، قال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ والكتاب هنا التوراة التي أنزلها الله ﷻ على موسى # والقوة هي ذلك الجِدُّ والعزمُ والثبات في حمل رسالة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وفي قيامه بالأمانة.

وقد زوده الله تعالى بمؤهلاتٍ؛ ليحمل تلك الأمانة، ولينهض بعبء الوراثة، قال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٢، ١٣] تلك هي المؤهلات التي زوده الله بها، وأعده لها، وأعانه على احتمالها، وآتيناه الحكم صبيًّا، وكان تقيًّا كل هذا ليكون قلبه موصولًا بالله متحرجًا من مخالفة أمر الله مراقبًا له يخشاه، ويستشعر رقابته في سره ونجواه؛ ولهذا ذكره الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فقال: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥] هذه الأوقات أشدُّ ما تكونُ على الإنسان، ينتقل في كل

مرحلةٍ من هذه المراحل من عالمٍ إلى عالمٍ فيفقد الأول بعد ما كان قد ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه؛ ولذا يستهل الصبي صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء، وفارق لينها وضمها، ثم ينتقل إلى هذه الدار ليكابد عناءها وهمومها وغمومها، ثم ينتقل منها إلى دار البرزخ، وهي بين هذه الدنيا وبين دار القرار.

من مناقب يحيى # : أن نبي الله ﷺ قال: ((خلق اللهُ يحيى بن زكريا في بطنِ أمهِ مؤمنًا، وخلق فرعونَ في بطنِ أمهِ كافرًا)) وهذا عند الهيثمي في (المجمع) وعند الطبراني بإسناد جيد، صحح ذلك الشيخ الألباني -عليه رحمة الله.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من أحدٍ من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئةٍ، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى #)).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ((الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهل الجنة إلا ابْنَي الخالة يحيى وعيسى -عليهما السلام)).

وكان يحيى زاهدًا في الدنيا عابدًا لله، قال ابن كثير: وقد ذكروا أن يحيى # كان كثير الانفراد من الناس؛ كان يأنس إلى البراري، ويأكل من ورق الأشجار ويَرِدُ ماء الأنهار، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أنعمُ منك يا يحيى، روى ابن عساكر: أن أبواه خرجا في طلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا؛ لما هو فيه من العبادة والخوف من الله ﷻ.

عاش # فقيرًا عطوفًا طاهرًا، وقتل شهيدًا على يد هيرودس الطاغية الذي حكم بلده؛ ذلك أنه أراد أن يتزوج من ابنةِ أخٍ له، فَبَيَّنَ يحيى # أن ذلك لا

يحل؛ لأنها من محارمه إلا أن هيرودس تزوجها وحقد على يحيى، وأمر بإحضار رأسه فدخل جنده عليه، وهو قائم يصلي في المحراب فذبحوه وقطعوا رأسه، وأحضروها إلى الطاغية فأمر بدفنها في دمشق الحالية، والقبر الآن موجود بدمشق حتى إن ابن عساكر قال: رأيت رأسَ يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء المسجد؛ حيث أخرجوه من تحت ركن من أركان القبلة مما يلي المحراب جهة الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير كأنما قتل الساعة.

تقول بعض الروايات: إن يحيى قتل في حياة أبيه زكريا، وقد ثبت في (الصحيح) أن رسول الله ﷺ التقى بيحيى ليلة الإسراء حيث قال: ((ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل؛ ففتح له، وإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، فرحبا بي ودعوا لي بخير)) عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

إنه -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- قام بدعوته إلى الله، وقد ورد عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَن، وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا فَقَالَ عِيسَى -عليه والسلام-: إنك قد أمرت بخمس كلماتٍ أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أنا أبلغهن، فَقَالَ: يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي، قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ؛ فَقَعِدَ عَلَى الشُّرَفِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:

أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا؛ إن مثل ذلك مثل من اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ؛ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِه، فَأَيُّكُمْ يَسُرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟! وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ؛ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا

بِهِ شَيْئًا. وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ؛ فإن الله ينصب وجهه قِبَلَ عَبْدِهِ مَا لَم يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَه صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ وَمَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِي نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ.

وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ كَثِيرًا وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ)) قال: وقَالَ رسول الله ﷺ: ((وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: بِالْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فإنه مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَن دَعَا بِدَعْوَى الجاهلية فهو من جثاء جهنم، قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى، وزعم أنه مسلم؛ فادعوا بدعوة الله التي سَمَّاكُمْ بِهَا: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ ﷻ)) هذا حديث رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم، وصححه الألباني في (صحيح الجامع).

دعوة عيسى # والركائز الرئيسة في الدعوات الإلهية

عناصر الدرس

العنصر الأول : ولادة عيسى # ورسالته ٢٥٩
العنصر الثاني : معجزات عيسى # والدروس المستفادة من قصته ٢٧٠
العنصر الثالث : الركائز الرئيسة في الدعوات الإلهية ٢٧٨

ولادة عيسى # ورسالته

أولًا: ولادة عيسى # :

إننا إذا تجاوزنا حادثة خلق الإنسان، وإنشائه على هذه الصورة، فإن ولادة عيسى # من غير أبٍ سيكون من أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، ويكون وجوده حادثًا فذًّا لا نظير له من قبله ولا من بعده فالبشرية لم تشهد خلق نفسها، ولم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب أو أم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث، فشاء الله تعالى أن تبرز هذه العجيبة الثانية، في مولد عيسى # من غير أبٍ على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان نفسه على هذه الأرض، ثم تبقى في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة، تتلفت إليها الأجيال، لقد جرت بسنة الله التي وضعها الامتداد الحياتي بالتناسل من ذكرٍ وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان، تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث جرت هذه السنة أحقابًا طويلة حتى استقر في وجدان البشر، أن هذه الطريقة الوحيدة هي الطريقة التي عنها يتناسل الناس، ونسوا الحادث الأول، حادث وجود الإنسان من غير أبٍ أو أم؛ لأنه خارج عن القياس.

أراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم # ليذكرهم بطلاقة قدرته وإرادته، وإنها لا تحتبس داخل نواميس ولا تحتبس داخل ما يألفه الناس.

وإذا أردنا أن نتحدث عن ولادة عيسى # فإننا نبدأ القصة من أولها، تلك القصة التي ذكرها الله ﷻ في سورة آل عمران، كان قد قدم وفد نجران منهم على

رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطلِ من التثليثِ، ويدَّعُون بزعمهم أن الله تعالى ثالث ثلاثة، وأن هؤلاء الثلاثة هم هذه الذات المقدسة، وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم في هذه العقيدة؛ فأنزل الله ﷻ صدر هذه السورة المباركة ليبين فيها أن عيسى عبدٌ من عبادِ الله، أن الله تعالى خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من خلقه، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، فقال له: كن فكان. وبين الله أصل ميلاد أمه، وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها.

وكذلك بسط ذلك في سورة مريم، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٧].

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم # والخُلَّصَ من ذريتِهِ، المتبعين لشريعته، الملازمين لطاعته ثم خصص فقال: "وآل إبراهيم" فدخل فيهم بنو إسماعيل، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب، وهم آل عمران والمراد بعمران هذا: والد عمران -عليها السلام- فلا خلاف أنها من سلالة داود، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنا بنت فاقود من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشعياء.

وفي قول قيل: إنه زوج خالتها أشياع، والراجح -والله أعلم-: أنه كان زوج أختها؛ بدليل حديث الإسراء كما في رواية مسلم أن النبي ﷺ قال: ((ففتح لنا؛ فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا)).

ترعرعت مريم أم المسيح عيسى في بيت الله، ونشأت عابدة متبتلة، واصطفاها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وفضلها على نساء العالمين، وعاشت > حصيفة حصينة رزان حصان، معتزلة الرجال عاشت لله ﷻ فجعلها الله تعالى مثلًا للمؤمنات القانتات، التائبات العابدات الصادقات، وذكر الله تعالى قصتها، وأعلى ذكرها، ورفع قدرها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

ثم ذكرها في آية أخرى فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

حملت الملائكة بشرى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بأنها ستلد غلامًا، وأن هذا الغلام لا أبَ له، وأنه منسوب إليها، وأنهم معظم في الدنيا وفي الآخرة وأنه عند الله ﷻ من المقربين، وهو في الدنيا من الصالحين، ومن الصادقين، وهو ممن يتكلم في المهد بعد مولده، وهذه بشرى عجبت لها مريم -عليها السلام- فكيف يكون لها الولد من غير أن تكون ذاتَ زوجٍ، ومن غير أن تكون في نكاح، ومن غير أن يقع منها والعياذ بالله تعالى سفاح؟! قال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وبين هي في حيرتها ودهشتها، إذ جاءها الملك فقال لها: أنا رسول ربك جئت لأهب لك غلامًا طاهرًا نقيًّا، ووقع منها التساؤل، ووقع منها العجب وذكرت

ذلك؛ فأجابها الرسول بأن ذلك قضاء الله تعالى وقدره، وأن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أراد أن يجعل هذا آية للناس، وفي ذلك الرحمة منه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قص الله تعالى الخبر، فقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٨- ٢١].

النبي ﷺ يخبرنا عن فضلها وقدرها، كما ثبت ذلك في حديث النبي ﷺ الذي فيه: ((خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)) ﷺ.

وقال أيضًا -في المتفق عليه-: ((كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)).

لما قضى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أن يقع الحمل فحملت مريم، وانتبذت بذلك الحمل الذي كان في أثناء هذا الحوار بين الروح الأمين ومريم، انتبذت به مكانًا قصيًّا، قال المفسرون: إن جبريل نفخ في جيب درعها؛ فدخلت النفخة في جوفها فحملت به، وتنحت إلى مكانٍ بعيدٍ؛ قال الله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢، ٢٣].

لا شكَّ أنها تخيلت ما سيقوله الخلق عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها زوج، أو يكون لها بعل، وقد أفزعتها تلك الأفكار، وهي الحصان الرزان، التي تفرغت لعبادة الله؛ فصارت قلقة مضطربة؛ إذ قد بدت تفطن إلى الريبة التي

سوف تخامر قلوب الناس، والشكوك التي ستراود عقولهم فأصبحت تحب العزلة، وتميل إلى الانفراد، واستحوذ عليها الحزن، وغلب عليها الخوف؛ وصارت تقاسي تلك الآلام النفسية المبرحة، تتعاورها الأحزان، وتنتابها الوساوس حتى حلت تلك الفتاة المثقلة بالهموم في الناصرة في منبتها ومسقط رأسها، أقامت في بيت ريفي خلا من كل بهجة ورواء.

وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنَّةً؛ تتستر فيه عن أعين الخلق، وتتعبد ربها وتسأله أن يُثَبِّتَهَا، وأن يحفظها، وبينا هي كذلك جاءها المخاض، وهي جالسة عند جذع نخلة، حزنت من لوم الناس ومن عتابهم، وتمنت أن تكون قد ماتت قبل هذا اليوم، وفي هذا يقص القرآن الكريم علينا هذه القصة: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣، ٢٤].

ما لبثت أن سمعت صوتًا يأتي من أسفلها: لا تحزني قد وهب الله لك رجلًا عظيمًا وسيدًا مطاعًا في الناس، ثم هذا الصوت أردف يأمرها بأن تهز النخلة؛ لتسقط عليها الرطب لتأكل منها وتعيش، وأمَرَهَا كذلك ألا تكلم أحدًا من الناس، وأن تنذر في يومها الصوم فلا تتكلم صومًا عن الكلام لله رب العالمين.

وقيل: إن الذي ناداها في هذه الحالة هو عيسى # عقب مولده، وفي هذا شيء من التسرية عنها: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا ﴾ [مريم: ٢٥]: كُلِي من هذا الرطب لتعود إليك بعض قوتك التي فقدتيها في هذا الحمل، واشربي وقري عينًا، واطمئني قلبًا لما ترينَّ من قدرة الله التي اخضر بها جذع النخلة اليابسة، طيبي نفسًا بما حباك الله من جريان الماء في تلك البقعة المقفرة، إنه ولدٌ وطفلٌ في لحظة ثم طفق يكلمها، يطمئن قلبها، ويصله بربها، ويرشده إلى طعامها وشرابها.

لا شك أنها كانت دهشة عظيمة، ولكن هذه الدهشة ما لبثت أن تسرت وتسلت بها مريم -عليها السلام- وهي ترى أن الله ﷻ أكرمها، وأنه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لن يُسلِمها، وأنه ﷻ تفضل عليها بخلق عيسى # من غير أبٍ، وأنه رفع قدرها وفضلها على نساء العالمين وجعلها أمًّا لنبيه عيسى # ثم إنه أعطى عيسى هذه الآية الظاهرة؛ فتكلم في المهد، وأثبت براءة أمه من أي اتهام، وعاش عيسى # وعاشت أمه في معجزات خارقة منذ اللحظة الأولى؛ ليردوا كذب الكاذبين، وافتراءات المفترين.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٧- ٢٩].

نطق بالعبودية أول ما نطق: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠- ٣٣] هذا أول ما نطق به عيسى #: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا إشارة إلى الذين ضلوا من النصارى، الذين عبدوه مع الله إن أول كلمة نطق بها فاه، هو إني عبد الله، فكيف بهم عبدوه مع الله، ولا شك أن ولادة عيسى # من غير أبٍ أثارت عند النصارى جدلًا واسعًا، وقالوا بكلمات لا تليق ولا تصح، ولا تجوز بحال، قال النصارى: إن المسيح هو ابن الله تعالى، لماذا؟ لأنه خُلِقَ من غير أب فالله أبوه وهو ابنه، وهذا كلام لا يصح؛ لأن ولادة عيسى إنما هي معجزة إلهية داخلة في إطار قدرة الله الذي هو على كل شيء قدير، ويهب ما يشاء لمن يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإن وفد نصارى نجران لما أتوا النبي ﷺ قالوا لرسول الله: مالك تشتم صاحبنا؟ فقال لهم ﷺ: ((وما أقول؟)) قالوا: تقول: إنه عبد الله، فقال نبينا ﷺ: ((أجل؛ إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول))؛ فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط بلا أبٍ؛ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

واضح من هذه الآية أن الرد عليهم كان ظاهرًا؛ لأننا لو قلنا ببنوة عيسى لله ﷻ لعدم وجود الأب، فمن باب أولى أن ينسب آدم إلى أنه ولد من أولاد الله، ولم يقل بهذا أحد من الخلق قط، وما المانع أن يخلق الله إنسانًا من دم امرأة فقط، وقد خلق إنسانًا من تراب جامد، وعيسى لما نطق نطق بعبوديته لله، وختم بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٦].

ومن دعاوى النصارى قولهم: إن المسيح هو كلمة الله تعالى، كما جاء في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥] إلا أنهم يقولون: إن الكلمة جزء من الذات الإلهية، ولهم تصورات في التقاء كلمة الله بجسد الإنسان؛ حيث يزعمون إن الكلمة والجسد اتحدتا في ذات واحدة، لماذا يقال هذا الكلام، والله تعالى كان قبل أن يكون هنا زمان أو مكان، قبل أن يوجد خلقٌ أو إنسان، فكيف اتحدت ذات الله أو كلمة الله بذات بعض خلقه؟! لا يصح هذا فالله تعالى ليس مركبًا من أجزاء، ولا ينقسم إلى أجزاء وأبعاض، وهذا كلامٌ والعياذ بالله فيه من الضلال ما فيه، فإن الكلمة التي حملها جبريل هي كلمة "كن" فكان نبي الله عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ثم إنهم يقولون: إن المسيح هو روح الله؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يريد بالروح أنه جزء من الله وهذا لا يتأتى؛ لأن الروح تعني النفخة التي نفخها جبريل في درع مريم، أو التي نفخها جبريل في جيب درعها، وتأتي هذا النفخة لتكون سببًا في إضافة هذا الولد إليها إلى أن تكون سببًا في أن تحمل مريم بهذا الولد؛ فالصديقة العذراء قال عنها ربنا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في هذا السياق: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وإذا أكلا الطعام فهما من البشر، وإذا أكلا الطعام؛ احتاجا إلى إخراج فضلاته، فكيف يكون هذا الذي يأكل إذا جاع، ويخرج إذا امتلأ، كيف يكون إلهًا؟! ولهذا قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي الدالة على وحدانية الله وتفرده، وألا شريك له في ذاته، وفي خلقه وفي ملكه وفي أسمائه وفي صفاته، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ولا شك أن عيسى # قد نشأ كما ينشأ أقرانه وأترابه إلا أن بواد نبوته وملامح فضله قد بدت سريعًا ومبكرًا ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وهو إذ يذهب إلى معلم القرية ويجلس إليه لا ينهج منهج غيره، ولا يسلك سبيل أنداده وأصحابه، بل هو يسمع حديثه في جدٍّ واهتمامٍ، ويصغي إلى درس في شوقه ولهفة ثم هو لا يعلمه شيئًا إلا بدره إليه وساءله عنه، فلا تغيب عنه شاردة، ولا تنبو عن ذهنه مسألة.

ثم يرحل عيسى # إلى بيت المقدس مع أمه، ولم تعدُ سنه الثانية عشرة من عمره؛ فلا يبهره ما يرى من جماعات مختلفة، وألوان من الناس متباينة، ولا يفتنه ما يقع عليه بصره من زخرف هذه الحياة، وتلك المدنية التي لهت عن دين

الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يغضي عن كل ذلك، ويلقي بنفسه في ميدان العلم، يستقي من مورده، ويرتوي من منهله، يلزم حلقة الدرس، ويصغي لمن اتخذوا لأنفسهم سمت العلماء، وهم يزخرفون للناس أحاديثهم.

وكان # يسمع وينصت، ويرى ما يقال، ويسمع ثم إنه يتساءل عن الحق، ويبحث عنه، فينقم عليه بعض الناس، ينقمون عليه جرأته في السؤال، وينكرون عليه أسئلته لكنهم لا يعبأ بما قالوا ولا بما كالوا، ولا يصرفه ذلك عن سؤاله وبحثه، بل يستمر يسأل ويمطرهم بأسئلة، ويسد المسالك أمامهم بمحاجته، ولما أراد الله ﷻ بعثة عيسى # ونزل عليه الناموس الذي ينزل على أنبياء الله تعالى ورسله؛ طفق ينكر عليهم ما كانوا عليه من الضلال حيث حرفوا شريعة موسى، وجعلوا همهم جمع المال؛ فصاروا يحرضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل ما استطاعوا من نذور، ويؤثروه بما ملكت أيمانهم من هبات؛ ليسيل الذهب إلى جيوبهم، يتدفق في خزائنهم وإن كان من يحرضونهم في أمس الحاجة إلى المال.

كان من اليهود طائفة أنكروا القيامة، واستبعدوا الحشر، وكذبوا بالحساب والعقاب، وطائفة ألهتهم الحياة الدنيا، وغيرتهم؛ فانغمسوا في ملاذها وأقبلوا على شهواتها، يستسرون بها ويتسترون عن أعين الناس، وهم يقترفونها، يراءون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلًا؛ عندها قام عيسى يدعو إلى الله ﷻ ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وعندها شعروا بما في رسالته من التيار الجارف من الحق؛ أحسوا بالخطر يدهمهم؛ فإذا هو ينهاهم عما هم عليه من الشهوات، وينهاهم عن تالكهم وتهاويهم في اللذات، وتسابقهم إلى جمع المال، ها هو يفضح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم، ويظهر ما هم عليه من الكذب، لم يبالِ بجمعهم، ولم تثنه مناوئتهم، بل صمد في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق وكانت دعوته # خاصة ببني إسرائيل.

ثانيًا: رسالة عيسى # :

أُرسل عيسى # كما أخبرنا نبي الله ﷺ في رمضان؛ فقال: ((أُنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراة لستٍّ مضت من رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأُنزل الزبور لثماني عشرة خلت من رمضان، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)).

جاء عيسى # بدعوته، وكانت دعوته خاصة لبني إسرائيل، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الصف: ٦] ولم تتحول دعوته إلى دعوة عالمية إلا في عصور متأخرة على يد قسطنطين وبولس، وبهما تغيرت ملامح دعوة عيسى # .

وكانت دعوته خالصة في التوحيد، تدعو إلى منابذة الشرك والشركاء وتنهى عن الشرك والإشراك بالله ﷻ وهو يشهد بهذا بين يدي الله ﷻ قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ- وهو يجيب على سؤال الله، قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. فماذا يكون منه؟ ينزه الله ﷻ أن يقع منه شيء من هذا: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وعليه، فإن كل كلام يَرِدُ عن بنوة عيسى، ومشاركته لله ﷻ في الألوهية بأيِّ وجهٍ من الوجوه لا يكون مقبولًا، وإنما يكون ضرب من العبث الذي يقوله الضلال من النصارى.

ولقد قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ

ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣].

المسيح # رسول الله تعالى، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ولا يصح مطلقًا أن نخرجه من إطار البشرية تحت أي مسمى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧٢] هكذا، والله تعالى يقول: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

وهو # يقول عن نفسه: "الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية" ويقول: "إني لا أجلب مشيئتي بل مشيئة الرب الذي أرسلني" وجاء في إنجيل يوحنا: "فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلًا: تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آتِ، بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه أنا أعرفه، وهو أرسلني"، هذه النصوص تشهد ببشريته، وأنه رسول الله تعالى، وأنه أتى لقومه بشرائع جديدة، تناسب ما يحتاجون إليه، كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ثم إن المسيح عيسى ابن مريم دعا إلى التصديق بالكتب التي سبقته كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]. وأخيرًا فإن عيسى # بشر برسالة نبينا محمد ﷺ وهو الذي يأتي من بعده كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي

﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

معجزات عيسى # والدروس المستفادة من قصته

أولًا: معجزات عيسى # :

لقد جرت سنة الله تعالى في أنبيائه ومرسليه أنه ما من نبيٍّ ولا رسولٍ أرسله الله تعالى إلى أهل زمانٍ إلا وآتاه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- على مثله ما يؤمن الخلق، بعث بآيات تبهر الأبصار، وتخضع لها الرقاب، وتذل لها الأعناق ولما كانوا السحرة خبيرين بفنون السحر، وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن أن ينكروه؛ أسلموا لما رأوا معجزة موسى # .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء؛ فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم أن يبرئ الأكمه الذي هو أسوأ حالًا من الأعمى، وأنى له أن يشفي الأبرص، والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحدٌ من الخلقِ إلى أن يقيم الميت من قبره وأن يحييه، هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به، وعلى قدرة من أرسله.

ولما بعث نبينا في زمن الفصحاء البلغاء؛ أنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ جاء باللفظ المعجز الذي تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بَعُشْرِ معشار سوره، أو

بآية من آياته، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، وما ذاك إلا لأنه كلام الله الكبير المتعال.

وعيسى نبي الله آتاه الله تعالى معجزات ظاهرات بينات، أول ذلك أنه ولد من غير أب وهذا أمر خارق للعادات، ومن ذلك أنه نطق في المهد حيث تكلم بالكلام الذي دافع فيه عن أمه، وأظهر فيه براءتها، وكشف لهم عن حقيقته حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠]، ثم إن الله ﷻ أمكن عيسى من أن ينفخ في تمثال مصنوع من الطين على هيئة الطير؛ فصار طيرًا بإذن الله. أبرأ الأعمى والأبرص -بإذن الله- وأحيى الموتى بإذن الله.

كان عيسى ينبئ أصحابه بالطعام والشراب الذي يأكلونه أو يدخرونه في بيوتهم بإذن الله، أنزل الله المائدة من السماء كطلب هؤلاء القوم؛ لتكون لهم آية بإذن الله ﷻ وقد سطر الله تعالى هذه المعجزات في كتابه العزيز، كما في سورة المائدة، وسورة آل عمران قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] إلى آخر هذه الآيات البينات الظاهرات الدالات على معجزة عيسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وما خبر المائدة التي سألها الحواريون عنا ببعيدٍ؛ مضمون ذلك أن عيسى أمرهم بصيام ثلاثين يومًا، فلما أتموها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء ليأكلوا منها، وتطمئن بذلك قلوبهم أن تقبل الله صيامهم، وأجابهم إلى دعائهم تكون لهم

عيدًا يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكفي أولهم وآخرهم، وتغني غنيهم وفقيرهم فوعظهم عيسى بالله، وذكرهم وخوفهم ألا يقوموا بشكرها، وألا يؤدوا حقها؛ أبَوْا عليه إلا أن يسأل ربه هذه المائدة فلما لم يقلعوا عن دعواهم، ولم ينزعوا عن طلبهم؛ قام إلى مصلاه لبس مسحًا من شعر، وصف بين قدميه، وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى طلبهم؛ فأنزل الله تعالى المائدة من السماء، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، فجعلت تدنوا قليلًا قليلًا، وكلما دنت سأل عيسى ربه ﷻ أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة وسلامًا، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي نبي الله عيسى، وهي مغطاة بمنديل؛ فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين، فإذا عليها سبعة من الحيتان، وسبعة أرغفة ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا: لا نأكل حتى تأكل فقالوا: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى، وكانوا قريبًا من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن.

ندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك، ثم قيل: إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم، حتى قيل: إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف، ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يومًا بعد يوم، ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء؛ فشقَّ ذلك على كثيرٍ من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك فرفعت بالكلية، ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير كما يذكر ذلك ابن كثير في كتابه (قصص الأنبياء).

هذا الحوار يكشف عن طبيعة قوم عيسى الخُلَّصُ منهم، وهم الحواريون فإذا بينهم وبين أصحاب نبينا ﷺ الفرق الشاسع والبون الواسع ثم لما أراد الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-

ما أراد بنبيه عيسى # من الحفظ والإكرام قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ- : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٤، ٥٥].

قال ابن كثير: وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه: أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشهدوا طيرانه بإذن الله إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها، وأجراها على يديه، ومع ذلك كذبوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنه حتى جعل نبي الله عيسى لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه -عليهما السلام.

لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك ذلك الزمان في دمشق، وكان رجلًا مشركًا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان، وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلًا يفتن الناس ويضلهم، ويفسد على الملك رعاياه غضب الملك من هذا وكتب لنائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه، ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس؛ فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى # وهو في جماعة من أصحابه اثنا عشر أو ثلاثة عشر، وقيل: بل سبعة عشر وكان ذلك يوم جمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك؛ فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة، فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة كل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى

الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى # سنة من النوم فرفع إلى السماء، وهو كذلك كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ- : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾.

فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأوا أولئك ذلك الشاب؛ ظنوا أنه عيسى # فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلَّمَ لهم طوائف من النصارى في ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، وقد قال ربنا: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

وافترق النصارى بعده إلى ثلاثِ فرقٍ، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان ابن الله ما شاء ثم رفعه الله، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون؛ فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

ويبقى أن عيسى # له كرة ورجعة إلى هذه الدنيا؛ فإن الله تعالى لما توفَّاه ورفعه بالنوم، فالمقصود بالوفاة هنا النوم كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] وذهب بعض أهل العلم: إلى أن الله ﷻ رفع عيسى # من غير وفاة ولا نوم، كما قاله الحسن وابن زيد، واختاره الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس > ومن المعلوم المسلم به الذي يعتقده المسلمون أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يأذن في آخر الزمان بنزول عيسى ليقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير ثم يمكث في الأرض مدة، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه، فلو كان الله أماته فإنه

لا يعقل أن يميته موتة أخرى فتجتمع عليه موتتان، وقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠].

ونزول عيسى في آخر الزمان، أمر كما قلنا مذكور مشهور وفي حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدجال علامة على ذلك؛ حيث قال نبينا ﷺ والحديث في (صحيح مسلم): ((إذ بعث الله المسيح ابن مريم؛ فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين -والمهرودتين أي: لابسٌ مهرودتين، أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران- واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات، ونَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه -أي: يطلب الدجال- حتى يدركه بباب لُد، فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة)).

ثانيًا: الدروس المستفادة من دعوة عيسى # :

أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يفعل ما يشاء فهو لا يسأل عما يفعل، والخلق جميعًا يسألون. وله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الحكمة البالغة يعلمها من يشاء، ويطوي علمها عمن يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أن الابتلاء من سنن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- التي تمضي في خلقه، وقد بَيَّنَ لنا نبينا ﷺ: ((أن أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل))، وأيُّ بلاء هذا الذي وقع لعيسى وأمه، إنه بلاء عظيم، ومع ذلك صبر وصبرت، وسجل الله صبرهم في كتاب يتلى إلى يوم الدين، صارت لمريم تلك المكانة العظمى حيث سُجِّلَتْ في القرآن سورة باسمها بل هي المرأة الوحيدة التي سميت سورة باسمها، وفي هذا دلالة كبرى على عظمة هذه المرأة وعظم البلاء الذي وقع لها.

وقد مر معنا أن النبي ﷺ قد عَدَّهَا فيمن كَمُلَ من الناس، بل جعلها على رأس من كمل من النساء؛ لعظم ما وقع بها من البلاء، ولعظم صبرها وثباتها، ثم إن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لما أذن بأن يولد عيسى # من غيرِ أبٍ؛ هيأ لذلك الأسباب؛ فأرسل الرسول وخاطبها ووجهها ونبهها، فلما ولدت خاطبها من تحتها، وأمرها بأن تهز بجذع النخلة مع أنها ضعيفة، وضعفها في حال ولادتها أشد، وهز النخل ليس بالأمر السهل ولا باليسير، ومع ذلك أمرت بأن تفعل وأن تبذل، وأن تستفرغ جهدها، وهذا درس أن من أراد ثمرة فلا بد له من أن يبذل الجهد.

من أراد من دعوته نتيجة لا بد أن يبذل من حبات العرق، ومن دقائق العمر ومن راحته حتى يصل إلى مقصوده؛ فإن ديننا يدعو إلى البذل والعطاء والتضحية والفداء، يدعو بعد هذا إلى التوكل لا التواكل، ولو كان أمر الرزق يسيرًا هينًا يأتي بغير سبب، لكن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الذي كان يأتيها بالثمر والتمر، والفاكهة التي لا تكون إلا شتاءً يأتي بها صيفًا، والتي لا تكون إلا في الصيف يأتي بها في الشتاء رزقًا من عنده -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لما احتاجت وضعفت أمرها بأن تهز بجذع النخلة، ومن قبل كانت تأتيها هذه الفواكه لا تدري من أين، المهم أن الله تعالى كان يرزقها. والإشارة إلى الرطب قد تعطي بعض الفائدة من أن هذه التمرة المباركة فيها تلك المادة التي تنفع النساء بعد الولادة، فيها من الطاقة ما يعوضها عن الجهد الذي بذلته، وعن الدم الذي فقدته.

أن عيسى # مخلوق لله تعالى، وليس ابنًا له؛ ولأنه مخلوق فسوف يموت، كما قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣]، إن عيسى # قد حاربه اليهود واتهموا أمه بالزنا، وقالوا عنه: إنه

ابن زنا ولم يغير اليهود موقفهم من عيسى حتى يوم الناس هذا، وهذا يظهر عوار موقفهم، وسوء مقصدهم، وجرأتهم على أنبياء الله تعالى، بخلاف موقف المسلمين الذين يؤمنون بأن الله تعالى كرمه وشرفه؛ فجعله من النبيين وأكرم أمه وجعلها من الصالحين، وهي شريفة عذراء طاهرة، وهذا أمر يجب أن يظهر فيه الفرق بين اليهود وبين المسلمين في موقفهم من عيسى، وأن يتعرف إليه النصارى؛ لعل ذلك يدعوهم إلى مجانبة يهود وإلى البراءة من مسلكهم.

أن الله تعالى -وهو درسنا ودرس كل الدعاة- معهم يدافع عنهم ويرفع عنهم كل بلاء: ويدفع عنهم كل فتنة، وأن اليهود الذين يحاربون الأنبياء وأتباع الأنبياء إلى يوم الدين هذا هو موقفهم المُشِين من عيسى # .

أننا رأينا الطفل يدافع بالحق عن أمه، وعلى دعاة الإسلام أن يقفوا مدافعين عن شريعتهم، أن يقفوا مدافعين عن عقيدتهم، أن يقفوا مدافعين عن المتهم المظلوم بالحجة والمنطق والبرهان؛ إذ لا يجوز أن تترك التهم لِتُكَال إلى المسلمين وإلى دينهم، وإلى عقيدتهم، ولا يكون من بين المسلمين من ينصر دين الله، ومن يقوم على الدفع عن دين الله -تبارك وتعالى.

العناية بشأن الأم في المجتمع؛ فإن الأم يرتبط بها طفلها وترتبط هي بطفلها، ونرى هذه العلاقة وطيدة بين مريم العذراء البتول وبين ابنها عيسى، وبين أم موسى وموسى -عليهم جميعًا السلام- هذه العلاقة علاقة قوية؛ فعلى دعاة الإسلام أن يعتنوا بالأمهات؛ لأن ذلك يعني في النهاية العناية بالمجتمعات التي يقوم فيها أطفال اليوم بقيادة الغد، وحمله إلى مستقبل سعيد مشرق بإذن الله تعالى.

الركائز الرئيسة في الدعوات الإلهية

أولًا: الدعوة إلى التوحيد:

إن الدعوات الإلهية جميعًا جاءت لتبليغ دين الله تعالى لكماله وتمامه؛ إذ توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة هو غاية خلق العالمين، وهو أصل ومحور دعوة الرسل أجمعين، وفي كل زمانٍ ومكانٍ، كان أول ما يخاطب به الناس من أمور الدين هو التوحيد؛ ولأجل ذلك فهو سبب العصمة في الدنيا وسبب النجاة يوم القيامة، وقد جعله الله تعالى شرطًا لصحة وقبول سائر الطاعات والعبادات، قال -جَلَّ مِنْ قَائِل عليمًا- في بيان وحدة هذه الدعوة إلى التوحيد عبر أنبياء الله تعالى ومرسليه جميعًا؛ فقال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال -جَلَّ مِنْ قَائِل-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

إذًا التوحيد هو حق الله تعالى على العبيد، وهو أول ما يبتدئ به النبي دعوته، وهو أول ما يخاطب به الرسول به أمته؛ ولهذا رأينا نبينا ﷺ يقول لمعاذ حين يرسله إلى اليمن داعيًا: ((إِنَّكَ تقدم على قومٍ أهلِ كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادةَ الله ﷻ فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم...)) إلى آخر الحديث.

ومصطلح الدعوة إلى التوحيد والاعتقاد الصحيح، يطلق ويراد به ما يتعلق بـ"لا إله إلا الله"، وهذا يشمل ما يتعلق بإفراد الله ﷻ بربوبيته وكذا ما يتعلق بأمر الناس بعبادة الله تعالى وحده، يجب أن يدعى الناس إلى إفراد الله ﷻ بالعبادة

بكل شمولها، وأن يعلم أن البدء بغير التوحيد مخالف لأمر الله تعالى، وهو العليم بما يصلح عباده، وهو الحكيم فيما يأمر به وينهى وفيما يقضيه ويقدره.

وإذا تأملنا دعوات رسل الله تعالى جميعًا؛ لوجدنا أن أول شيء دعوا إليه هو توحيد الله وإفراده بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر وغير ذلك مما قص الله علينا في كتابه قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال عن نبي الله تعالى هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ونقل ربنا -تبارك وتعالى- قول إمام الأنبياء وأبي الأنبياء إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦]. ونقل عن المسيح عيسى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

إذًا هذا أمر مطرد لا يتخلف ولا يتأخر ولا يتغير، وهذا فيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده بغير شريك، وترك عبادة ما سواه هو أول واجب، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه- أول

واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد؛ إذ هو من كل الواجبات أعظم، وهو نوعان أيا من يفهم، توحيد علمي خبري، وتوحيد قصدي إرادي طلبي.

وحين نتحدث عن التوحيد نرى أن القرآن الكريم كان طيلة الفترة المكية يتحدث عن العقيدة علمًا وعملًا، مرة من خلال ما قصَّ على نبينا ﷺ من قصص الأنبياء، ودعوة أقوامهم إلى التوحيد، ومرة من خلال المحاجة المباشرة مع المشركين، وهلهلة عقيدتهم، وبيان ضلالهم فيما اعتقدوا، فإذا كان هذا هو شأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهو شغلهم الشاغل في الدعوة إلى العقيدة بادئ ذي بدء؛ فليكن إذًا هو شاغل كل الدعاة من بعد، أن يقفوا مع هذا المَعْلَم من معالم الدعوة مع هذه الركيزة من ركائز دعوات الأنبياء والمرسلين؛ ليقتدوا بهم وليهتدوا بهديهم، كما قال الله ﷻ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ونحن نرى: أن الطريق إلى دعوة الناس عبر تقرير العقيدة الصحيحة ليس طريقًا سهلًا ولا ميسورًا، وإنما هو طريق تعترضه صعوبات وتعوق به الداعية إلى الله تعالى معوقات، وهذه المعوقات تطيل على الداعية دعوته، وتعيقه أحيانًا عن طريقه، وعن الوصول إلى غايته، لكنها أي العقيدة هي مفتاح القلوب، وهي الطريق الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده ومرسليه، فلما تقررت العقيدة بعد الجهد الشاق، وتقررت تلك السلطة التي تركن إليها العقيدة؛ عرف الناس ربهم وعبدوه ووحدوه وتحرروا من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات، ولم يبقَ في القلوب إلا لا إله إلا الله، عندها وعندها فقط صنع الله تعالى بأهل التوحيد كل شيء مما يطلبه الناس من تمكينٍ في الدنيا، وتوسعةٍ وصلاحِ حالٍ، ونمو اجتماعي وبشري وعمراني، عندما بقية لا إله إلا الله وحدها في القلوب.

وعندها تطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح، ولم تعد هنا حاجة إلى كثير من حدودٍ وتعازيرَ، يعني يُحْتاجُ إلى تطبيقها إلا في ما قل وندر، ارتفعت البشرية في أخلاقها وسلوكها، وفي حياتها إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل هذا المنهج الرباني الكريم.

التوحيد هو أول ما يتعلمه الداعية وأول ما يدعو الناس إليه، هو عمدة الأصول التي يبني الداعية عليها دعوته، هو عمدة هذه الثوابت التي ينطلق منها الداعية في دعوته وفي بلاغ رسالته، وهو أصل كل صلاح في هذه الحياة، كما أن الشرك ومعصية الرسول أصل كل فساد. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : فأصل الصلاح التوحيد والإيمان، وأصل الفساد الشرك والكفر.

ونحن نرى أن الخلل الواقع في جانب التوحيد أعظم خطرًا، وكذا فإن فساد العقيدة سبب مباشر في حدوث الخلاف والتفرق، والتنازع بين طوائف الأمة، فتحقيق كلمة التوحيد هو السبيل لوحدة الكلمة، والداعية الحق يجعل الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والتوحيد الخالص أولًا ودائمًا، وقبل كل شيء ومع كل شيء. ونحن نلحظ أن الإيمان يرتبط عند الإطلاق في الكتاب والسنة؛ فلا يقتصر على اعتقاد القلب، بل يشمل إقرار اللسان وعمل الأركان، كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

وأن جميع المخالفات سواء كانت تركًا أم فعلًا، إما أن تقدح في أصل الدين وتنقض الإيمان كالشرك الأكبر، وكالبدع المكفرة، وإما تقدح في كماله الواجب، وإن لم يكفر مرتكبها كالشرك الأصغر، وسائر المعاصي والموبقات فَحَرِيٌّ بالدعاة أن يوجهوا جهودهم إلى تبصير الناس كيف يوحدون ربهم، كيف يخلصون

دينهم لله، وعليهم أن يجعلوا ذلك هو الأصل والأساس، كما كان الرسل من قبل، وانطلاق الدعوة من الدين الخالص، والعقيدة الصحيحة التي حملها أهل السنة عن سلف الأمة يشمل جوانب عديدة يشمل أثرية هذه العقيدة، كما يشمل إيجابية هذه العقيدة، كما يشمل شمولية هذه العقيدة.

هذه العقيدة إنما تتلقى عن النصوص بالتسليم والتعظيم، كما قال - جَلَّ مِنْ قَائِلٍ - : ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]. ومن التسليم والتعظيم مجانبة الجدال والمراء في نصوص العقيدة وقواعدها الكلية؛ إذ هي عقيدة سهلة واضحة ميسرة بيسر هذا الدين، إن هذا الدين يسر.

ومن أثريتها: توحيد مصدر التلقي، وذلك بتجريده عن كل شوب كلامي مردود، أو فلسفي مذموم، أو مسلكي مبتدع، بالاعتماد على الكتاب والسنة في تلقي العقيدة والدين كله، بفهم الصحابة المرضيين، والثقات الأثبات من علماء خير القرون } والتعويل على إجماعهم واتفاقهم في هذا الباب؛ فهم أعمق علمًا بمعانيها، وأدق فهما لمراميها، وهم أقل تكلفًا في العمل بما فيها، وأبعد عن الخلاف الذي يورث الاختلاف والافتراء بحمد الله تعالى.

ومن أثرية هذه العقيدة: أن يعتني الداعية إلى الله ﷻ بتحقيق توحيد العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأن ينبه الناس جميعًا إلى قطع ذرائع الشرك كافة؛ فيذكر قول النبي ﷺ: "مَن تعلق تميمة، فلا أتمَّ الله له، ومن أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاةُ أربعينَ يومًا"، ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) كما ثبت النهي عن قبور الناس والأنبياء والصالحين مساجدَ ونهى نبينا ﷺ عن التطير والتصوير، وغير ذلك من أسباب الشرك وذرائعه.

ومن تحقيق توحيد العبادة: أن يعتقد الناس تفرد الله ﷻ بالحكم والأمر كما قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فمن التوحيد أن يُوحَدَ الله ﷻ في أمره ونهيه إن الحكم إلا الله وقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

ومن أثرية العقيدة أيضًا: الاعتناء بتوقيفية العبادة، وذلك على أساس من قول نبينا ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) فجماع الدين أصلان: أن نعبد الله تعالى وحده، وألا نعبد الله ﷻ إلا بما شرع لا نعبده بالبدع؛ إذ كل بدعةٍ ضلالة، والأسوة الصالحة الحسنة لهذه الأمة هو رسولها ﷺ فإذا صحت سنة نبينا بلا معارض فلا يحل لأحد ردها لقول أحد من الخلق كائنًا من كان قال ﷻ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

نعم لا بد من العناية بالعقيدة، ومن عقيدتنا محبةُ أسلافِنَا الصالحين أجمعين، من صحابة نبينا ﷺ ومن أنبياء الله تعالى ومرسليه قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] إذ شعار أهل السنة والجماعة الترضي عن أصحاب نبينا أجمعين، ومحبة علماء السلف من السابقين وتابعيهم من أهل العلم والفضل والدين؛ لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل. قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومن جوانب تحقيق العقيدة كما يحب الله ﷻ ويرضى الشمولية. فإن الشمولية تعني عدم الاقتصار على طلب علمها، وممارسة أعمالها والتحقق بمقتضياتها في بابٍ دون باب أو في أصل دون أصل؛ إذ لا يصح هجر شيء من العقيدة، فالجمع بين علمها ومقتضياتها وآثارها في القلب والجوارح، وفي سائر جوانب الحياة هو تحقيق للعبودية في أكمل صورها وأجلى معانيها.

والعقيدة حين يبدأ بها الداعية يجمع فيها بين البيان والرد، بين بيان عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة تأصيلًا وتقريرًا، بالأدلة النقلية والعقلية، ورد الشبهات من جهة أخرى، والتنبيه على البدع والضلالات وبيان فسادها وبعدها. ومن شمولية هذه العقيدة أن نعلم هذا التلازم، وأن ندعو إليه بين نوعي التوحيد، نجمع بين توحيد الربوبية والألوهية في العناية والعرض والتعليم. وبيان تتضمن الألوهية للربوبية، واستلزام الربوبية للألوهية، وإحياء عبادة التفكر والتدبر، وهي التي تحقق توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتهدي إلى توحيد الألوهية، وإفراده ﷻ بالعبودية.

لا نريد من تعلم العقيدة وتعليمها وفهمها ذلك العلم النظري، والفهم العقلي فحسب؛ كلا، وإنما نريد ترجمة هذا الفهم وهذا العلم إلى صورة حية يسير عليها تعليم العقيدة في بلاد المسلمين؛ إننا نريد هذه العقيدة بإيجابيتها، وهذا هو الجانب الثالث، هذا الجانب الذي يحقق عقيدة الولاء والبراء، تأصيل عقيدة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين كل بحسبه، وبتخليص الولاء بين الأتباع والمتبوعين من الموافقة على المخالفة، أو ترك التذكير والمناصحة، أو اعتقاد التقديس والعصمة، أو ترك التأييد والنصرة، والحذر كل الحذر من الوقوع في ولاءٍ لغير المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

من شمولية العقيدة وإيجابيتها: أن يتسع الفهم وأن تتسع المواجهة للانحرافات كافة، يقصد بذلك أن لا نفرق بين انحراف وشرك حضاري وآخر بدائي، وأن نعنى بمواجهة تلك الانحرافات العقدية المعاصرة، سواء أكانت عند الأضرحة والقبور، أو كانت لدى أرباب الحكم والقصور، وأن تواجه تيارات الإلحاد والتغريب والعلمنة في الأدب والفكر والثقافة، وشتى العلوم الإنسانية، كل ذلك مع عناية بجانب الأخلاق والسلوك، وتخليص لذلك كله من الآفات والموبقات التي تنشئها الغفلة عن مدلولات أسماء الله تعالى وصفاته.وهذا جانب عملي لا يقل في أهميته عن تخليص العقل والفكر من الشبهات والأهواء والبدع في هذا الباب من التوحيد، وهذا هو الجانب العلمي.

ومن إيجابية هذه العقيدة: أن ترتبط بآثارها العملية يظهر هذا من خلال العناية بشعائر التعبد واستقامة الأخلاق، وازدياد الأدب، ونبل المشاعر كما قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] فيتعين أن تظهر آثارها على مسلك الداعية بحيث يظهر أثرها على فكره فترى في أهدافه وتسمع في أقواله، وتقرأ في كتاباته وتتقد جذوة التضحية في سبيلها قال -جلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] هذه الآية هي لسان كل داعية صادق يبذل لعقيدته في كل وقت، وعلى كل حال؛ فلأجلها يسالم، ولأجلها يقاوم، ومن أجلها يسعى ويتحرك، ينفق ماله ويبذل جهده، ويستفرغ وسعه بل ويزهق روحه؛ لتنتصر وتسود ويمكن لها ولأهلها في الأرض، وبهذا يتحقق أن الدعوة إلى التوحيد هو أصل الأصول الذي انطلقت منه دعوات أنبياء الله تعالى ومرسليه كافة، وكان على ذلك الدعاة في هذا الدين العظيم المبارك من لدن نبينا ﷺ وإلى يوم الناس هذا.

ثانيًا: العلم بالله تعالى:

إن من هدي الأنبياء والمرسلين قوة العلم بالله ﷻ إن من أعظم الركائز التي قامت عليها دعوات الله وأنبيائه ومرسليه هي العلم بالله وقوته، وحسن معرفة الله ﷻ وذلك يؤثِّرُ بالضرورة في صدق الإيمان وكمال التوحيد.

العلم بالله تعالى وبأمره أعظم من أن يحاط بفضله، أو أن يدركه جليل قدره؛ إذ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، هو الأُنس في الوحشة، وهو الصاحب في الغربة، وهو المحدث في الخلوة، وهو معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الإسلام، قال -جلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

ما عُبِدَ الله ﷻ بشيءٍ أفضل من العلم، وأعلم الناس بالله ﷻ هم أنبياؤه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- وهذا العلم به سبحانه وبأسمائه وصفاته هو الذي أثر هذه الخشية العظيمة، وأورثها هذا الإيمان الصادق والتوحيد الكامل لله ﷻ لأنه كلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه؛ كان أشد خوفًا وتعظيمًا وعبادةً ومحبةً وإخلاصًا والعكس بالعكس.

واختص الله تعالى رسله، ومَنَّ عليهم بهذا العلم النفيس حتى زكت نفوسهم وارتفعت أقدارهم، والمسلم مطالب بطلب هذا العلم قدر استطاعته؛ اقتداء بأنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام- وإرساءً لهذا المبدأ في الدعوة إلى الله، ولو أن الإنسان لن يصل إلى علم أنبياء الله، ولا إلى إيمانهم، لكنه بذلك يحاول ويطاول، يقترب منهم ويسعد بثمار هذا العلم العظيم في قلبه وسلوكه وحياته.

ومن الأدلة على شرف هذا العلم، وأن أولى الناس به الأنبياء والمرسلين: قوله تعالى عن إبراهيم # في دعوته لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٣].

وقال عن يعقوب ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨] وإذا كانت الدعوة أشرف مقامات العبد وأجلَّها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم بالله ﷻ الذي يدعو إليه الإنسان والذي يدعو به أيضًا، فالعلم كما هو مطلوب لأن تدعو إليه، أي العلم بالله هو مطلوب أيضًا؛ لكي تدعو به، ولا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى أقصى حدٍّ يمكن أن يصل إليه الداعية إلى الله ﷻ.

وإذا استكملنا مسيرتنا مع أنبياء الله ومرسليه؛ فإننا نجد نبي الله يعقوب يقول لبنيه: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٩٦].

وهذا نوح يقول لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢] وهكذا يستمر نوح يقرر لقومه فيقول: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨].

وهذا صالح أيضًا يقول: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ [هود: ٦٣] هذه هي البينة هذا هو العلم.

وهذا شعيب: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ [هود: ٨٨].

هذا كله تقرير للعلم بالله ﷻ وموسى # يضرب المثل والقدوة في البحث عن العلم وطلبه وقصة سفره مع الخضر # معلومة مشهورة، قصها الله علينا في كتابه الكريم، والشاهد منها قول الله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ [الكهف: ٦٦].

والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]. والنبي ﷺ يؤكد على هذا المعنى عندما تنزَّهَ بعض أصحابه عن شيء رخصَ فيه نبينا؛ فخطب الله فحمده ثم قال: ((ما بالُ أقوامٍ يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله، إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)).

ومرة أخرى، فإن أهم العلم وأعظم العلم وأنفع العلم أن يعلم العبد أن لا إله إلا الله، والعلم قبل القول والعمل؛ فالعلم إمام العمل، وهو أيضًا أمام العمل؛ ذلك أن العلم شجرة، والدعوة ثمرة؛ فالدعوة بلا علم سعي بلا هدي.

فيتعين على كل داعية أن يتعلم من دينه ما تصح به عقيدته أولًا، وما تصح به دعوته ثانيًا، وما يؤهله لإظهار الحق، ودحض شبهات الباطل؛ فالعلم يجب أن يكون سمت الدعوة الراشدة، وإذا أراد الله بدعوة خيرًا؛ فقه رجالاتها في العلم الشرعي، والعلم يجب أن يتقدم الرأي الشخصي؛ لأن الدعوة إلى الله في هذا الزمان تعالج أمورًا عظيمةً، وقضايا كبيرةً، ونوازلَ في مختلفِ الجوانب التي يجب أن تنالها يد الإصلاح، ومن لم يكن من أهل الدعوة أو لو علم واجتهاد وبصيرة؛ فإن الدعوة ستسير إلى غير هدف وستقاتل، ولكن في غير ميدان فتضطرب في آرائها، وتخطئ في مواقفها، فقد تعادي من ينبغي أن تصالحه، وقد تهادن من يجب أن تنابذه، ولن يغني عنها حماس أتباعها شيئًا، كما لم تغن آراء القادة من قبل قليلًا أو كثيرًا.

والواقع المعاصر: يشهد بتحولِ المواقف والرؤى في قضايا كثيرة من الضد إلى الضد؛ ومن أسباب هذه الحالة ضعف العناية بالعلم الشرعي ولا شك عمر > يقول: "تعلموا قبل أن تسودوا". قال البخاري: وبعد أن تسودوا، وقد تعلم

الصحابة وهم كبار، إذًا العلم هو سبيل وحدة وائتلاف الدعاة إلى الله ﷻ وهو طريق الخشية من الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ- وهو يصف المبلغين عنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقد قال ربنا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا قال الشعبي -رحمه الله-: "إنما الفقيه من ورع عن محارم، الله والعالم من خاف الله" فإذا ملأت خشية الله قلب داعية، وطالب علم نفذ قوله، وقبلت دعوته، وإذا قل حظه من التقوى لم يُجْدِهِ شيئًا فصلُ البيان، ولا شقشقة اللسان.

ومن أولويات العلم بالنسبة للدعاة إلى الله ﷻ: العلم بالسنن الإلهية في التغيير؛ فيجب أن يكون في سلم أولوياتي الداعية حين يطلب العلم أن يدرس سنن الله في المجتمعات، سنن الله في التغيير، الأسباب الشرعية التي تمضي على وفقها أقدار الله في التمكين، والاستخلاف، وأسباب الضعف والهلاك، وأن يدرس سنن الاستبدال، وأن يدرس واقع أمته، وجوانب الضعف والقوة، وعلى القادة وعلى العلماء، وعلى الكبار أن يوجهوا ناشئة الدعوة وطلبة العلم إلى حمل هم الإسلام، وقضايا المسلمين على أن هذا النوع من فقه السياسة الشرعية ليس نافلة من العلم، بل هو داخل ضمن واجبات الوقت، وهذا يفضي إلى الحديث عن أهمية التأصيل لفقه النوازل، فالدعاة الفقهاء أحرص الناس على التأصيل الشرعي لما ينزل بساحة الدعوة من نوازل، وفي مسائل السياسية الشرعية المعاصرة خاصة، وقد كانت همة أكابر العلماء إلى العناية بالتأصيل مصروفة.

ومن ذلك قول شيخ الإسلام -عليه رحمة الله- في مجلس للتفقه: أما بعد فقد كنا في مجلس التفقه في الدين والنظر في مدارك الأحكام الشرعية تصويرًا وتقريرًا،

وتأصيلًا وتفصيلًا فوقع الكلام في كذا وكذا ثم يقول: فأقول: لا حول ولا قوة إلى بالله، هذا مبني على أصل وفصلين.

وعلى الدعاة أن يتدرجوا في سلم التعلم، وقد كان أسلافنا يعلمون بصغار العلم قبل كباره، ويحرصون على الترقي في العلوم الشرعية كافة، بقدرٍ من التوازن بينها، وتأسيس برنامج عملي في طلب العلم، يعني بالأصول والكليات مع الفروع والجزئيات، ويهتم بعلوم الغايات، ولا يغفل عن علوم الوسائل والآلات، يبدأ بالتقليد وينتهي بالاجتهاد وبالإبداع، ويمر برتبه الابتداع.

ومما يتعين على الداعية: أن يهتم به مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، وأن يعنى بضبط التخريجات، والتطبيقات الدعوية على القواعد الشرعية الفقهية والأصولية على حدٍّ سواء؛ فإن مثل قواعد الاجتهاد لا مساغ للاجتهاد في مورد النص، أو الاجتهاد لا ينقض بمثله، أو لا ينكر تغير الأحكام الاجتهادية بتغير الأزمان، يمكن أن نستخرج بدلالتها ضوابط دعوية عديدة، وكذا قواعد المصالح والمفاسد بجملتها، كما ينتفع الداعية بالقواعد الفقهية في نفس الصدد، مثل: "الميسور لا يسقط بالمعسور" "من استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه" ونحو هذا.

ومن المعالم المهمة: الالتفاف حول علماء الآخرة، والارتباط بهم، وتوثيق الصلة بهم، بدايةً من أن يتعلم الداعية كيف يوقر العلماء المتبعين، وكيف يتأدب معهم، وكيف يرعى حقوقهم بالغيب والشهادة، ويتواصى معهم بالحق ويتواصى معهم بالصبر، وانتهاءً بتفويض أمر الملمات، والقضايا المهمات إليهم، وأن يقف من ورائهم، وأن يصدر عن فتاواهم، وأن يجمع القلوب عليهم.

والحذر الحذر مما اتخذوا الدين حرفة وصنعة لا عقيدة وقربة، الحذر الحذر من علماء السوء الذين يأمرون بالخير فلا يفعلونه، وينهون عن المنكر فينتهكونه،

ويعظون فلا يتعظون، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويكتمون الحق ويلبسون الحق بالباطل، وهؤلاء -والعياذ بالله- ضُرِبَ لهم مثل السوء، قال -جَلَّ مِنْ قائِل-: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، رضي الله عمن قال: لا يكون الرجل عالمًا حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحتقر من دونه، ولا يبتغي بعمله ثمنًا، وهذا من كلام ابن عمر } .

وهذا يؤكد علينا أهمية التخلي عن الآفات، والتنبه إلى خطورة المزالق في طريق طالب العلم، كالكبر والعزلة والانفراد، والتعصب للرأي، وازدراء المخالف، والسطحية والتعالم، والجدال المذموم، والرياء وقوادح الإخلاص كافة، كما يحذر من التصدر قبل التأهل، والاعتناء بالصورة والمظهر دون الحقيقة والجوهر، كما يحذر من الميل إلى التعسير، وترك التيسير، وأن يحذر فتنة النساء، فما يأس الشيطان من عبد إلا أتاه من قبل النساء، وهكذا ينبغي أن تكون العناية بالعلم مَعْلَمًا من أعظم المعالم الدعاة إلى الله، وركيزة من أكبر الركائز التي تقام عليها صروح الدعوة إلى الله ﷻ في كل زمان ومكان.

ثالثًا: الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده وحسن الاتباع:

تأكد لدينا من خلال دراسة دعوات الأنبياء جميعًا، ومن خلال التعرف على مناهجهم في الدعوة إلى الله: أنهم دعوا إلى عبادة الله وحده، وأن الدعوة إلى عبادة الله جاءت متلازمة مع الدعوة إلى التوحيد؛ لأن التوحيد النظري بلا عبادة عبث لا يجوز في دين الله تعالى ليس التوحيد أن يقتصر الداعية في دعوة على

إثبات وجود الله تعالى؛ فالأدلة على ذلك بعدد مخلوقاته لكن الدعوة إلى التوحيد تعني في أصلها إفراد الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بالعبادة؛ العبادة تشعر الإنسان باحتياجه إلى الله ﷻ وهذه العبادة إنما تقوم على منهج الاتباع، ولا تقوم على شيء من الابتداع، والنجاة في هذه الدنيا في العبادة على قدم الاتباع: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

النجاة في هذه الدنيا من الاتباع والافتراق وفي الآخر من النار والعذاب إنما تكون بحسن الاتباع في عبادة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وقد حكى نبينا ﷺ افتراق بني إسرائيل؛ فعن عبد الله بن عمرو } أن نبينا ﷺ قال: ((إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) فالاتباع في العبادة يكون للكتاب المنزل، ويكون للنبي المرسل، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. فكل أمة أمرت بأن تتبع كتابها، والنبي المرسل في زمانه هو قدوة هؤلاء الناس جميعًا، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ فهذا يقوله كل نبيٍّ لأمته؛ إن اتباع النبي يعني اتباعًا لكتابه الذي أنزل عليه، ويعني: اتباعًا للشرع المطهر الذي جاء به، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية: ١٨].

وشأن الاتباع أن يكون أول ما يكون في الاعتقاد، وقد ضل فيه أهل الأهواء كما يكون أيضًا في السلوك، وقد ضل فيه أهل الرهبانية، والاتباع في شأن الدعوة إلى الله أمر واجب وحتم لازم، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالمخالفة لسبيل المؤمنين تعرض للفتنة، أو تعرض للعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] ولن يصلح هذه الأمة في آخرها إلا ما صلح به أمر أولها.

سبيل البدع والشبهات والضلالات من أخطر ما يتهدد الحركات الإسلامية والدعوات الإصلاحية، فلا يملك الدعاة في منهج الدعوة وفي أصولها وركائزها ومسالكها إلا أن يأخذوا بسنن الهدى، وأن يتجنبوا سبل الردى البدعة اتهام لمقام الأنبياء بالخيانة في أداء الأمانة، هي تستدرك على الشريعة المنزلة، وهي تتهمها أو تضادها، وهي في ذلك كله قول على الله بغير علم، فكانت بذلك شرًّا من المعصية، وغدت ذنبًا لا يتاب منه، وكيف يتوب من يعتقد نفسه بزعمه متبعًا؟!.

ونحن حين ننظر في مناهج الأنبياء، وفي دعواتهم نقف على منزلة العبادة، فهذا إبراهيم # يدعو ربه أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة فيقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ومن الأوصاف التي استحق بها إسماعيل # أن يمدح في كتاب الله قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وحين كَلَّفَ الله ﷻ موسى بالرسالة كان من أول ما أمره به الصلاة؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] وأمره الله ﷻ وأمر أخاه فقال: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

ومن وصايا لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

الصلاة والزكاة أول ما نطق به عيسى # وهو صبي في المهد حيث قال: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] نحن نقف من وراء ذلك كله على أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- جعل العبادة أصلًا عظيمًا وبابًا كريمًا، ومعلمًا

واضحًا بينًا في دعوات الأنبياء والمرسلين، العناية بشعائر التعبد من الصلاة والصيام والزكاة ونحو ذلك مما أوجب الله على الأنبياء، وعلى أتباع الأنبياء، هكذا كان نبينا ﷺ وكان أسلافنا في الدعوات إلى -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وكانوا في هذه العبادة من أحذر الناس أن يقعوا في بدعة، أو أن يفتحوا باب فتنة؛ فكان تمام الموافقة للسلف الصالح في العلم والعمل، والدعوة.

فقد أمرنا أن نقتدي ولا نبتدي، وأن نتبع ولا نبتدع، كما قال ابن مسعود > والدعاة إلى الله في هذا الميدان يندبون إلى الإقدام حيث أقدم السلف، ويحجمون حيث أحجموا، ويسكتون حيث سكتوا، كما قال الأول: قف حيث وقف القوم، وقل كما قال القوم، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم.

رابعًا: الدعوة إلى مكارم الأخلاق:

إن الأخلاق من أهم الجوانب التي عني المرسلون بتأصيلها، وتكميلها وتوضيحها وإظهارها بالقدوة والسلوك، كما كان شأنهم في توحيدهم وإيمانهم، ومعرفتهم بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إن الفكر ليكل، وإن القلم ليعجز عندما يحاول أن يحيط بأخلاق وسلوكيات صفوة عباد الله عَزَّ وَجَلَّ سواء كانت الإحاطة من جهة الكم أو كانت من جهة الكيف؛ فالأنبياء الذين ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فضلهم، وبَيَّنَ منزلتهم، قال عنهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ونبينا ﷺ قال: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) هو متمم لهذه المكارم، ومتمم لرسالة من سبقه من الرسل؛ فكان من أهدافه في رسالته نشر هذه الجوانب الرسالية الأخلاقية لهذه الرسالة الخاتمة.

وإننا إذا حاولنا أن نتأمل هذه الدعوة -دعوة أنبياء الله ومرسليه إلى مكارم الأخلاق- نجدها تمضي من خلال أخلاق عظيمة، اتسموا بها واتصفوا بها وتمضي من خلال الدعوة إلى الأخلاق مع بدءِ الدعوةِ إلى التوحيد، بدأ الرسل في دعوتهم إلى الأخلاق متزامنًا ذلك مع دعوتهم إلى التوحيد حين يصنعوا بالأخلاق حاجزًا بين الأخلاق وشهوتها، وبين القلوب وأهوائها.

نوح # يبعثه الله تعالى في قوم فسدت أخلاقهم، انحرفت عقائدهم، ولقنوا ناشئتهم هذه المبادئ الباطلة، وهذه الأخلاق الفاسدة ومع هذا نجده يدعوهم إلى التوحيد ويأمرهم به، ويأمرهم بأن تحسن أخلاقهم، وأن تستقيم طرائقهم، ونحن نلمس مع الدعوة إلى الأخلاق دعوة إلى التوحيد، وارتباطًا بذلك. وهذا نوح # يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ [الأعراف: ٦١] بعد أن نسبوه إلى الضلال؛ يرد عليهم برفقٍ، يرد عليهم بنصح، يرد عليهم بشفقة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢] فخلق النصح بَيِّنٌ في دعوة نوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وكذا نبي الله هود، وكذا صالح، وكذا شعيب، فيقول الله على لسان نبي الله هود: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] فالدعوة إلى التوحيد مرتبطة بالنصح والشفقة، والخلق الحسن. وهذا صالح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- يحكي الله عنه فيقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].
وعن شعيب يقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وخُلُقُ الصبر خُلُقٌ عظيم من الله تعالى به على أنبياء الله، وآتاهم منه القدح المُعَلَّى؛ فحازوا قصب السبق في هذا الصبر، الذي كتب الله تعالى لهم به الأجور، قال الله تعالى مسليًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى عن بعض أنبيائه: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهكذا نجد الأخلاق تترى في الدعوة إلى الله ﷻ وتسير جنبًا إلى جنب مع الدعوة إلى التوحيد.

ومن الركائز أو من الاتجاهات الأساسية في إصلاح الأخلاق: تركيز أنبياء الله تعالى على الرذائل المتفشية؛ فإن أنبياء الله تعالى ما كانوا ليغضوا الطرف عن تلك الفضائح الأخلاقية، سواء تعلقت بأمور مالية أو أمور اجتماعية كانت فيها أو كان فيها أولئك القوم؛ ولهذا نرى شعيبًا # يقول لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥] فهو لا يتركهم وشأنهم يطففون في المكيال والميزان، ويبخسون الناس ما آتاهم الله تعالى.

وكذا نرى لوطًا # ينكر على قومه أشد النكير تلك الفعلة الشنعاء فيقول: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١] فلم يكن رسل الله ﷻ ليتغاضوا عن تلك المفاسد الضارة بالمجتمع والناس، وإنما كانوا يبادئون الناس بالدعوة إلى التوحيد، ويجمعون إلى ذلك النهي عن المفاسد الأخلاقية، ويتجهون اتجاهًا ثالثًا ببيان عاقبة الأخلاق؛ ولهذا نجد رسل الله -

تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يتوجهون بالدعوة؛ فيستجيب قوم ويكذب قوم، فنرى عاقبة المكذبين وعاقبة الناجين مسطورة في كتاب رب العالمين.

قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ- عن نوح # وعن قومه وعن من آمن به: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وهذا أيضًا هود # يأتي قومه بالدعوة فيكذبوه؛ فتقع فيهم سنةُ الله ﷻ وكذا قوم صالح يهلكون بتكذيبهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، وقوم لوط حل ما كانوا يستحقون قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وقوم فرعون يهلكهم الله تعالى بالطاغية قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أهلك الله تعالى الفاسد أخلاقهم، وأرانا جزاءهم وضلالهم، وأرانا ما آل إليه مآلهم في كتاب الله تعالى.

وبهذا يتقرر لدينا أن أنبياء الله تعالى ومرسليه دعوا إلى مكارم الأخلاق وضموا الدعوة إلى التوحيد بجانب الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وظهر لنا في طريق دعوتهم ما اتسموا به من الصبر والتقوى، وما تحلوا به من الحلم والصفح، وما كانوا عليه من حسن المنطق، ومن لين الجانب مع موافقيهم ومخالفيهم، وما كانوا عليه من الوقوف سدًّا منيعًا أمام المفاسد الأخلاقية، وما بينوه وحذروه من سوء عاقبة الفساد في الأخلاق؛ بهذا تكون الدعوة إلى الأخلاق من أعظم الركائز التي أقام الأنبياء عليها منهج الدعوة، وعلى هذا يجب على كل داعية أن يأخذ في طريقه بهذا المَعْلَم، وأن يظهر هذا في مسلكه قبل أن يبدو في منطقه. والله تعالى الموفق. وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

خامسًا: إثبات رسالة المرسلين والبعث بعد الموت:

ما من نبي أرسله الله ﷻ إلا وأرسله مؤيدًا لمعجزات باهرة تثبت رسالته، وتؤكد أنه مِن عند رب العالمين، وكل رسول أرسله الله ﷻ إلى قومه جاءهم بهذه الآيات التي يتلوها من رب الأرض والسماوات.

وكان الرسل في رسالتهم يركزون على جملة قضايا، كل ما تتعلق بالدين الذي به أرسلوا، يدللون عليه تارةً، يعظون أخرى، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكما هي عادة المكذبين المعاندين، أخَذَ الناس في مواجهة الرسل بطرق غوغائية لا تقوم على موضوعية، بل تقول على إلقاء التهم جُزافًا، والإكثار من اتهام شخص الرسول في قوله وفي عمله، وكان أكبر ما وُجه لأنبياء الله تعالى ومرسليه، الاعتراض على رسالتهم، لماذا؟ لأن الاعتراض على الرسالة وعلى ثبوتها هو أقوم طريق بالنسبة للمعاندين؛ ليقوموا بإلغاء الدعوة بالكلية، لأنهم لو تمكنوا من إلغاء الرسالة لم يبقَ شيء ليناقش، ولذلك حاولوا مرارًا أن يضعوا هذه الدعاوَى موضع الدعاوى العلمية المنظمة التي ينتظمها الدليل.

فقالوا تارةً: لا يصح أن يكون الرسول بَشَرًا، لماذا؟ لأن البشر يتصفون بأمور تحول بينهم وبين أداء الرسالة، البشر مكون من مادةٍ وروحٍ، ولذلك فيه هذه الغريزة - غريزة الشهوة تارةً، والغريزة الغضبية تارةً أخرى- وهذا يعقب فسادًا واختلافًا، ويعقب انشغالًا بإشباع نفسه، فهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وتشغله الحياة بملهياتها ومشكلاتها وحاجاتها.

قص الله تعالى ذلك علينا في كتابه العزيز مرارًا، وبَيَّنَ هذه المقولات كثيرًا، وتولى بنفسه ﷻ الرد على هؤلاء من جهة، وإثبات رسالة المرسلين من جهة أخرى، فقال - جل من قائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]

فهذا نفي لأن يكون الله ﷻ قد أنزل على بشر رسالةً، وهذه الدعوة عامة لجميع المعاندين والمكذبين من الملأ المستكبرين، ونقل الله -تبارك وتعالى- عن بعضهم قوله: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا تمضي آيات الكتاب العزيز تحكي لنا هذه الدعوة الشنيعة التي استوجبت أن يعتني كل رسول في دعوته أول ما يعتني بإثبات رسالته، وإظهار الأدلة والبراهين على صدق دعوته، لماذا؟ لأن الله ﷻ قال: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال -جل من قائل: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

إذن، قصَّ الله -تبارك وتعالى- هذا علينا في كتابه العزيز مرارًا: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ: ١- ٣]، تارةً يوردون الأسئلة المشككة، وتارةً يواجهون الرسول بالتكذيب والعناد المستكبر، وتارةً يزعمون أن الله تعالى ما أنزل على أحد من شيء يُتلى، ولا يُسطر، ولا ينقل للبشر، فهي دعوة جاحدة لجميع ما أرسل الله تعالى به رسله، وأنزله من كتبه.

وقد رَدَّ الله -تبارك وتعالى- عليهم أولًا: بأن هذا الإنسان الذي استبعدوا أن يكون متصلًا باللهﷻ برسالة سماوية إلهية علوية إن هذا الإنسان يسمو على سائر

الخلائق بهذه الخِلقة المتميزة، ويُفضل بل يفضل على الملائكة إذا سادت روحه، وقادت الجسد، وطهَّرت نفسَه، كما قال الشهرستاني:

"إن للبشر نفسين؛ نفس حيوانيه لها قوتان: قوة الغضب وقوة الشهوة، ونفس إنسانية لها قوتان: قوة علمية وقوة عملية، وبقواها الحيوانية لها أن تجمع وتمنع، وبقواها الإنسانية لها أن تقسم الأمور وتفصِّل الأحوال، ثم تَعرِض الأقسام والأحوال على العقل، فيختار العقل الذي هو كالبصر النافذ من العقائد الحقَّ دون الباطل، ومن الأقوال الصدقَ دون الكذب.

ومن الأفعال الخيرَ دون الشر، ويختار بقوته العملية من لوازم القوة الغضبية الشدةَ والشجاعةَ والحميةَ دون الذلة والجبن والنذالة، ويختار بها أيضًا من لوازم القوة الشهوية التآلفَ والتوددَ، والرفعةَ دون الشره، والمهانة والخَساسة، فيكون من أشد الناس حَميةً على خَصمه وعدوه، ومن أرحم الناس تذللًا وتواضعًا لوليه وصديقه، وإذا بلغ هذا الكمال فقد استخدم القوتين، واستعملهما في جانب الخير، ثم ترقَّى منها إلى إرشاد الخلائق في تزكية النفوس عن العلائق، وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب، وإبلاغها إلى حد الكمال.

ومن المعلوم: أن كل نفس شريفة عالية زكية هذا حالُها، لا تكون كنفس لا تنازعها قوة أخرى على خلاف طِباعها، وحُكم العِنين العاجز في امتناعه عن تنفيذ الشهوة لا يكون كحكم المتصون الزاهد المتورع في إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه، فإن الأول مضطر عاجز، والثاني مختار قادر، حسن الاختيار، جميل التصرف، وليس الكمال والشرف في فقدان القوتين، وإنما الكمال كله في استخدام القوتين". انتهى كلامه من كتابه (الملل والنحل).

وفي الرد أيضًا على دعواهم: امتناع أن يرسل الله تعالى بشرًا، وزعمهم أن الملائكة أولى بالرسالة من البشر؛ لأن الملائكة أبدعت إبداعًا لا من شيء، وهي نورانية محضة، ديدنها الطاعة، وطبيعتها العبودية والذلة لله ﷻ فلا يكدر صفاء عبوديتها بنوع من أنواع المعاصي، وهي متصلة في ذلك بالله ﷻ وبالملأ الأعلى:

فإن الرد على هؤلاء يأتي من جهتين:

الأول: إن هؤلاء الملائكة كَمالهم كمال مطلق، وهذا الكمال لا منازعة فيه بين مادي وروحاني، فَعَقْدُ المقارنة بين الروحاني والمادي فيه قصور، وإنما المقارنة الصحيحة بين الروحاني المجرد والجسماني الروحاني المجتمِع، وحينئذٍ يُفضل الإنسان، وَيَفْضُلُ الإنسان الملائكةَ؛ لأن الجسد حينئذٍ تجميل وتحسين للروح، والشخص الجميل يحسنه الثوب الحسن، والمعنى الراقي يزينه اللفظ البليغ.

ثم إنهم زعموا أن الملائكة على ما هي عليه، مخلوقات علوية لها قوة في تصريف الأجسام وتقليب الأفلاك فرد الله عليهم بأنه قادر على كل شيء، يعطي لبعض خلقه ما يريد من تأثير، فهو سبحانه هو الذي أعطى الملائكة القدرةَ التي بها يؤثرون، والقدرةَ على التشكل في أشكال طيبة، وهو الذي يعطي الإنسان أيضًا ما يريد من القوى والقدرة، وليس الكمال في المخلوقات العلوية فقط، بل هو في السفلية أيضًا، فالله -تبارك وتعالى- يقدر لكل خلق كمالَه، يقدر ﷻ للإنسان كماله كما يقدر للملائكة كمالَها، والإنسان ببدنه وعقله يحس ويتخيل، يتوهم ويتفكر، ويحفظ ويتذكر، وهذا كافٍ ليقوم الإنسان بما كُلف به من لَدُنْ ربه ﷻ وكافٍ في أن يكون الرسول مختارًا من الله، وكافٍ في أن يكون البشر مختارين فيما يأتون ويذرون من أفعالهم.

ثم إنهم زعموا أيضًا: إذا كانت الرسالة لبشر فلِمَ لا يكون هذا البشر غنيًّا؟ ولِمَ لا تكون له عَصَبَة من الناس، وعُصْبَة من الناس يحمونه ويحفظونه، ويقومون معه بدعوته، ويعينونه، بل لِمَ لا يكون له من الملائكة معينون؟.

والرد عليهم: أن النبوة اختيار إلهي محض، فهو محض فضل الله ﷻ ومحض مِنته، لا يكتسبها إنسان بقدرة أو رياضة أو محاولة منه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، رد الله -تبارك وتعالى- عليهم بأن النبوة اصطفاء من الله تعالى، وهو الذي يقسم الأرزاق، ويقسم الأخلاق، ويهب ما يشاء لمن يشاء، وله في اختيار كل نبي حكمة، وله في اختيار الأنبياء من البشر حكمة، وهو ﷻ أولًا وآخرًا مع هؤلاء جميعًا بمعونته، ونصرته، وتأييده، فالنبي لا يحتاج بعدئذٍ إلى نصرة أحد: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] سبحانه وجل في علاه.

ولهذا لم يكن لأنبياء الله ﷻ الحاجة في أن يكونوا من ذوي المال والثراء والغِنى -غالبًا- وإلا فقد آتى الله ﷻ بعض أنبيائه ومرسليه آتاه إلى الحكمة الغنى والمُلك، والطاقة والقدرة والقوة في ماله، وفي جاهه، كما رأينا ذلك عند سليمان بن داود، عليهما جميعًا صلاة الله تعالى وتسليماته.

فيكفي أن الله -تبارك وتعالى- مع عبده ومصطفاه الذي أرسله إلى قوم من البشر، ولهذا كان ربنا -تبارك وتعالى- يثبِّت قلوب أنبيائه كلما وقعوا في ضائقة، أو اشتد عليهم كرب، بأنه -تبارك وتعالى- معهم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وهكذا يثبت الله تعالى قلوب أنبيائه بقوته وقدرته، وبما يسكبه في قلوبهم من الطمأنينة والسكينة.

وقد سلك أنبياء الله ومرسلوه طرقًا عِدةً في إثبات رسالتهم، وبينوا للناس صلاحيتهم لهذه الرسالة بطرق علمية وبطرق عملية، وجعل الوحي يوضح ذلك أتم توضيح، ويبينه أكمل بيان، قال الله تعالى في رد دعواهم أن الملائكة أولَى بالرسالة من البشر، قال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥] فالمناسبة بين الإنسان والمَلَك بعيدة، فإما أن يرسل الملك إلى الملائكة، أو أن يرسل البشر إلى البشر، وحينئذٍ يكون هذا الذي جعلوه اعتراضًا غيرَ مقبول: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩]، إن المَلَك لا يتمكن التعامل مع البشر كما ينبغي، لماذا؟ لأن الملائكة لهم طبيعة تخالف طبيعة البشر، ولأن البشر طبيعتهم تفارق طبيعة الملائكة، فأين تكون عندئذٍ قدوة؟ وأين تكون عندئذ أسوة؟ وقد رُكِّبَ في البشر ما لم يركب في الملائكة.

الثاني: سلك الأنبياء والمرسلون في دعوتهم: إظهار هذه المعجزات الباهرة الظاهرة، وقد مر معنا ذكر معجزات كثيرة، فأحيا الله تعالى أمام عيني إبراهيم # الطير حيًّا بعد أن قطعه ومزَّعه، وأظهر الله تعالى برهان صدق صالح # بهذه الناقة التي حكَى الله تعالى قصتها، ومعجزات موسى ﷺ كثيرة شهيرة، ذكرها الله تعالى في كتابه مرارًا، وكذا ما آتى داود وسليمان، وما وهب عيسى وزكريا ويحيى، وما آتى نبينا ﷺ فالمعجزة بُرهان صدق كلِّ نبي، أن الله تعالى أرسله، وأن الله تعالى أيده، وأن الله تعالى وصَله وأمده بهذه الرسالة الإلهية.

ومن الطُّرق التي سلكت أيضًا: بيان بشرية الرسل السابقين؛ لأن الأمر إذا تقرر وقوعه مرة جاز أن يقع مرة أخرى، فلا يمتنع إذًا إذا كان الله ﷻ قد أرسل نوحًا أن يرسل صالحًا، وإذا أرسل صالحًا أن يرسل من بعده طوائفَ من الأنبياء والمرسلين؛ لأن الأمر قد وقع، وإذا وقع وتقرر تكرر، وإذا تكرر كان هذا برهانًا

دالًّا على صِدق أنبياء الله تعالى ومرسليه، ولهذا قال الله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، هذا على لسان مَنْ؟ على لسان صالح، ولهذا قال أيضًا: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، قال هذا على لسان هود، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

الثالث: بيان أن النبوة عَطاء من الله تعالى، رحمة، ونعمة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وقال على لسان صالح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، وقال على لسان شعيب: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]، فالمراد بالرزق الحسن: هو الرحمة المؤتاة من عند الله لهذه النبوة التي بُعثوا بها، وهذه الرسالة التي أُنزلت عليهم، ولذا أقام الأنبياء الدليلَ على صدق دعواهم ظاهرًا بينًا واضحًا، نظريًّا وعمليًّا.

الرابع: ويجب أن نشير إلى أن رسل الله تعالى كافةً وهم يثبتون الإلهية والرسالة، أثبتوا مع ذلك أيضًا ركنين آخرين؛ إثبات هذا الوحي المنزل من عند الله، وهذه الكتب التي نزل بها وحي الله تعالى، وإثبات الملائكة؛ لأن الملائكة هم نقلة الله وحي الله غالبًا، فالوحي يتم في أغلبه بواسطة الملَك الذي يحمل وحي الله إلى نبيه ومصطفاه، فإذا ثبت التوحيد، وثبتت الرسالة، وثبت الوحي، وثبت وجود الملائكة، تمهَّد طريق الإيمان بأن ما جاء به الرسول من عند ربه، وليس بعد ذلك من مكلَّف من الناس أن يدعي منهجًا علمانيًّا، أو أن يدعي مَسْلَكًا عقلانيًّا، أو أن يدعي دعوَى فيها من المعصية والضلال ما فيها، لقد أرسل الله تعالى الرسل لإرشاد الناس إلى المنهج الإلهي الصحيح في عقيدة وعبادة، وجعل هذا من أعظم نعمه عليهم كما قال القائل:

ومن عظيم مِنة السلام ❖ ولطفه بسائر الأنام
أن أرشد الخلق إلى الوصول ❖ مبيِّنًا للحق بالرسول

هذا منهج الله -تبارك وتعالى- الذي ظهر وبان واستبان من خلال دعوة أنبياء الله تعالى ومرسليه، ولهذا وجب على هؤلاء الأقوام جميعًا أن يطيعوا رسلَ الله، قال جل من قائل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

الخامس: ومما اعتنى به أنبياء الله ومرسلوه إثبات البعث -أي: يوم القيامة- وما يقع فيه، والإنسان بفطرته وإن أدرك ضرورةَ البعث والجزاء والحساب، وضرورة أن هذه الحياة ليست آخر المطاف، وإنما هناك حياة أخرى، هذه الحياة يجازَى المحسن فيها بإحسانه، والمسيء على إساءته، ولكن لما انطمست البصائر، وغشيها ما غشيها من غين الشرك والإلحاد، فقد احتاج كل نبي أن يجعل من ركائز دعوته أن يثبت البعث بعد الموت؛ لأن كثيرًا من هؤلاء كذبوا تارةً، وشككوا أخرى بأن الله -تبارك وتعالى- يبعث مَن في القبور. وقد رأينا في كتاب الله الأدلة العقلية قبل النقلية على إثبات البعث، والحياة الآخرة، والدار الآخرة، رأينا ذلك في أمور كثيرة، بعضها عملي، وبعضها نظري، وبعضها إشارة إلى ما يقع كل يوم من إنبات الزرع، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، والإشارة إلى وقوع هذا اليوم وما فيه من أهوال، الإشارة إلى أن هذا واقع لا محالة: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [النحل: ١].

السادس: ونجد أيضًا أن أنبياء الله -تبارك وتعالى- حذَّروا أقوامهم وأنذروهم، فقال نوح #: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الشعراء: ١٣٥] وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴾ [هود: ٢٦]، وهكذا وجدنا هذا كثيرًا على ألسنة رسل الله وأنبيائه في محاججتهم لأقوامهم.

فهذا سيدنا إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - يدعو إلى البعث في لين، لا يصطدم بعتو القوم وجبروتهم، وإنما كان يلجأ إلى التمثيل حيث كان يمثل بنفسه، فيقول لهم مشيرًا إلى قدرة الله: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: ٨١]، ليكون إيمانهم بالله مشتملًا على التسليم بقدرته الشاملة: الإحياء والإماتة، والمراد بالموت: الإماتة في الدنيا، والمراد بالإحياء: المجازاة على الأعمال، ثم إنه عاد فمثَّل بنفسه وهو يذكِّر بالآخرة، فيقول: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]، قال: ﴿ أَطْمَعُ ﴾ بينما هو ﷺ يقطع بالمغفرة، ويسند إلى نفسه الخطيئة، وهذا منه فيه تعليم لأتباعه ولأعدائه معًا، أن البعث حق وأنه واقع لا محالة، وأن المؤمنين يُسلمون باليوم الآخر، ويصدقون بالبعث، ويعملون الصالحات، ينتظرون النجاة في الآخرة، وهم لا يؤثرون أي عمل على طاعة الله، تبارك وتعالى.

تعلَّم هذا سحرة فرعون فقالوا - حين قال لهم فرعون ما قال، مؤنبًا على إيمانهم وإسلامهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢]، وقالوا أيضًا: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٤].

هكذا تتضح هذه العقيدة، عقيدة البعث والجزاء والحساب على ألسن الأنبياء، وعلى ألسن أتباعهم، وهذا ذلك الرجل المؤمن الذي كان من قوم فرعون الذي قال الله ﷻ على لسانه وهو يعظهم ويذكرهم، يقول: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢]، ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ هو يوم القيامة، حيث ينادي بعضهم بعضًا، يستعين بعضهم ببعض، يتصايحون بالويل والثبور، ويدعون بعظائم الأمور، أو يتنادَى أصحاب النار وأصحاب الجنة، كلٌّ وجد ما وعده ربه حقًّا، وهكذا.

وإذا تأملنا في أول ما نطق به عيسى ﷺ وهو في المهد، فإننا نجد قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم: ٣٣]، وكان يقول للذين ينكرون البعث: وأما من جهة قيامة الموات، فما قرأت لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، ليس الله بإله أموات، بل إله أحياء، فلما سمعوه بهتوا من تعليمه، وهذا وارد من "إنجيل متى" في الإصحاح الثاني والعشرين، في الفقرات الحادية والثلاثين إلى الثالثة والثلاثين.

وبهذا يظهر لنا جليًّا ويتضح لنا بشكل واضح، أن الدعوة إلى إثبات عقيدة البعث كانت مَعْلَمًا أساسيًّا، ومرتكزًا ضروريًّا في دعوة كل نبي أرسله الله تعالى إلى أهل هذه البسيطة.

سادسًا: التدرج في الدعوة، ومراعاة المصالح والمفاسد:

إن المتأمل في دعوات الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- يلحظ ملحظًا ظاهرًا بيِّنًا، وهي أن دعوة كل نبي مرت بمراحل، وهذه المراحل كانت إحداها تسلم للتي تليها، وكان لكل مرحلة سمات، ولكل مرحلة ضوابط، ولكل مرحلة محاذير، ظهر ذلك جليًّا والوحي يوجه خطواتِ أنبياء الله تعالى ومرسليه.

ولهذا وجدنا ابن القيم -عليه رحمة الله- يعقد في كتابه (زاد الميعاد) فصلًا بعنوان: "ترتيب سياق هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين من حين بُعث إلى أن لقي الله ﷻ" من حين بُعث النبي ﷺ إلى أن لقي الله كان له ترتيب متدرج، وأسلوب متنوع مع هؤلاء الكفار، وأولئك المنافقين. وهذا الذي عرَضَه ابن القيم- عليه رحمة الله- هو عرض ملخص لهديه ﷺ في التدرج والمرحلية التي هي مَعْلم بارز من معالم أنبياء الله تعالى ومرسليه، لم يكن الأمر من أول رسالة نزلت إلى هذه

الأرض يتضمن أمرًا بالجهاد، ولا أمرًا بالقتال، بل ما شرع هذا إلا متأخرًا نسبيًّا في مسيرة أنبياء الله تعالى ومرسليه.

ولهذا نجد ابن القيم -رحمه الله- يلخص ذلك فيقول: أول ما أوحى إليه ربه -تبارك وتعالى- أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١، ٢]، فنبأه بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، وأرسله بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبةً، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته، ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أُذِنَ له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل مَن قاتل، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد على أقسام ثلاثة: أهل صلح وهُدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم بما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يُعلِمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل مَن نقض عهده، ولما نزلت سورة "براءة" نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها ﷺ بأن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يُعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، أمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة والبيان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك على أقسام ثلاثة:

قسم أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له.

وقسم لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

وقسم لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر النبي ﷺ أن يؤجّلوا أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم هو وأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم- وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢].

هذا هو خط سير دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله تعالى إلى أن مكن له في الأرض ونصره.

ويهمنا من هذا أن هناك فترة ما قبل هجرته، وأخرى ما قبل أن يؤذن له بالقتال، وثالثة بعد أن أذن له بذلك، وهذا واقع في سيرته ﷺ وهو واقع في سير الأنبياء والمرسلين، فإنهم كانوا يُؤمرون بالصبر والكف والصفح، وكف الأذى، ولم يؤمروا بقتال إلا متأخرًا.

والدعوة إلى الله -تبارك تعالى- في هذه الزمان عليها أن تلتزم أحكام الدين كلها، وأن تتأسى بهدي الأنبياء -عليهم الصلوات والسلام- ولا شك أن في مراحل الاستضعاف سماتٍ يجب أن تراعى وأن تلحظ، قد فصلت هذه السمات، وعرفت هذه الملامح في سير الأنبياء من رسل الله تعالى الذين قاموا بالدعوة إلى الله. ومن هذه: نشر عقيدة التوحيد، وأحكام الإسلام، والانقطاع إليها بكل جهد وطاقة، وهذا ما قام به أنبياء الله تعالى -عليهم الصلاة والسلام- في دعواتهم لأقوامهم، واستمروا على ذلك يصلون الليل بالنهار حتى وفقهم الله -تبارك وتعالى- وأظهر دينهم، وأتم عليهم نعمته، فهذا نبينا ﷺ ومعه جميع رسل الله يعنون بهذا، فأول مرحلة يدعو فيها النبي هي مرحلة، نشر عقيدة

التوحيد، والاستعلام بها، والدعوة إليها، والتركيز عليها، ومحاربة أضدادها من البدع الشركية، والمخالفات الردية.

وقد بينا من قبل أن العقيدة أولًا في منهج كل نبي، وفي دعوة كل رسول، ثم رأينا الأنبياء بعد أن يستجيب لهم بعض الأتباع، يُعنون بتربيتهم، يعنون ببنائهم، يعنون بتزكيتهم، فإن هذه التربية وتلك التزكية تَتحقق مع المستجيبين الذين استجابوا لدعوات الأنبياء والمرسلين، وفيها التواصي بالحق، وفيها التواصي بالصبر، وفيها الاحتساب والتأسي بأنبياء الله في الصبر على البأساء والبلاء، وفي هذا يبتلي الله ﷻ هذه الثلةَ المؤمنةَ التي تؤهَّل لمثل هذا البلاء؛ لتقود الأمة بعد ذلك، ولتكون بمثابة أئمة الهُدى للناس في العلم والعمل والدعوة والصبر، وهذا ما يلمس من دعوة الأنبياء والمصلحين، فإن كل نبي قام به ومعه مجموعة من الحواريين والأصحاب الذين يأخذون بسنته، ويبحثون عن تعاليمه، يقتدون به في ذلك كله ويعملون معه؛ لأجل تحقيق هذا كله.

وقد رأينا أنبياء الله تعالى تحيط بهم هذه الكوكبة وإن كانت قليلة في بعض الأحيان، وإن كانت يسيرة في عددها، إلا أنه قامت على أكتافها بناءُ الدعوة بعد ذلك، ففتح الله بهم الدنيا، وأنار الله ﷻ بهم دروب الحياة، فزكت نفوسهم بتقوية صلتهم بربهم ﷻ وبإكثارهم من ذكره ودعائه وعبادته، والاستعانة به وحده، وهذا أمر واضح تشهد به وله التوجيهات القرآنية في تلك المرحلة، تشهد به آيات كثيرة قَصت علينا هذا في سير الأنبياء عامةً، وفي سيرة نبينا ﷺ على وجه الخصوص.

وقد رأينا أيضًا: أن من هذه المعالم معلم الصفح والصبر، والكف عن الذين يُعنِتُون الدعاة في سبيل الله، ذلك أنه ما قام داعية قط يدعو إلى الله إلا أوذي، ما

قام داعية قط يدعو إلى توحيد الله إلا عُودي، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، سنة الله في أنبيائه ورسله، هذه السنة تجري، وإذا جرت فلا بد من أن يُقابل ذلك الاعتداء بصفح وصبر وكف أذى، وكف يد، وهذا من أعظم وأظهر الملامح في فترات الاستضعاف التي مر بها أتباع الرسل أنبياء الله نوح وهود وصالح، والذين من بعدهم -عليهم الصلاة والسلام- هددهم أقوامهم بالقتل تارةً، وبالإخراج من الأرض والنفي تارةً، فما كان منهم إلا أن صبروا، وصفحوا، واستعانوا بالله ﷻ وتوكلوا عليه، وعَلَّموا أتباعَهم هذا المعلمَ، كما قال الله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

شعيب # هدده قومُه بالإخراج، أو أن يرجع إلى ملتهم، فقال: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وموسى # لما هدد فرعون قومه بقتل الأبناء واستحياء النساء، قال لهم: ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ونبينا ﷺ آذاه الكفار بأن يقتلوه، أو يخرجوه، أو يثبتوه، ومع هذا صبر وصفح، وكان النبي ﷺ القدوةَ في هذا، وعَلَّمَ أصحابه من بعد في مكة أن يكفوا أيديهم، فقال جل من قائل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء: ٧٧]، فلم يؤذن لهم في قتال، ولم يؤذن لهم في مواجهة، بل أمروا بالصفح ما داموا في مكة، حتى إذا انتقلوا إلى المدينة، وانتقلت الدعوة إلى مرحلة جديدة، وإلى طَوْر جديد، أذن لهم في أن يردوا الكيدَ الذي كِيد لهم، وأن يعتدوا بمثل ما اعتُدي به عليهم، ثم فُتِحَ لهم الباب بعد ذلك؛ ليجاهدوا في سبيل الله.

وبهذا يتأصل لدينا من ركائز دعوات الأنبياء والمرسلين التدرج في الدعوة، ومراعاة المصالح والمفاسد.

سابعًا: مراعاة السنن الربانية في التغيير:

قال ربنا -جل من قائل-: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وقال ﷻ: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]، أوجب الله ﷻ على دعاته من الأنبياء والمرسلين، وممن يَقْفو أثَرَهم من الدعاة والصالحين، أن يقفوا عند السنن الربانية التي تُتلمس من دعوات الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- لأن هذه السنن تمضي في خلق الله جميعًا، تمضي لا تحابي أحدًا، تمضي لتحقق موعود الله ﷻ لأنبيائه ورسله، وهذا الموعود إنما يتأتى بالنظر في سير هؤلاء الأنبياء وأولئك الصالحين والمصلحين.

ذلك أن التاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة، والمواقف المتماثلة، يساعد على كشف تلك السنن، ويظهرها، وإدراك هذه السنن يترتب عليه من الفوائد العظيمة ما يقوي موقفَ الدعاة في كل زمان ومكان، ويحمي دعواتهم مما قد يطرأ في ثَنَايا الطريق من شُبهة، أو شهوة، أو منعطف من منعطفات هذه الإغراءات التي قد تلوح للداعية هنا أو هناك.

إن سنن الله -تبارك وتعالى- تمضي لا تحابي ولا تجامل أحدًا، وهذه السنن تعلمنا أن الله -تبارك وتعالى- لا يجمع بين المختلفين، كما قال -جل من قائل: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]، كما لم يكن المسلمون كالمجرمين عملًا، فإنهم لا يكونون جزاء، نعم من هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرةً

للمعتبرين، والله -تبارك وتعالى- ضرب الأمثال في القرآن؛ لنعتبر، والله -تبارك وتعالى- لا يخلف وعده وتلك سننه، قال -جل من قائل-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] وقال -جل من قائل-: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

إن هذا التمكين إنما يتم بمشيئة الله ﷻ يبتلي به عباده، فيقومون بعهد الله وشرطه من العبودية له وحده، فيتلقون عن الله أم يخالفون ذلك، فينحرفون عن حقوق الله ﷻ وينحرفون عن عهده، ويمضون على غير سنته، وعندئذٍ لا بد أن يقع الفساد رويدًا رويدًا حتى ينزلق الناس في حمأة الشرك -والعياذ بالله- وهو ما يستوجب نذارة الله -تبارك وتعالى- فإن لم يرتدع القوم، فإنهم يؤخذون -والعياذ بالله- أخذة عزيز قادر قاهر، فمرة يكون هذا بعذاب الاستئصال، ومرة بإرسال العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، كما وقع لكثير من الخلق، وتارة يذيقهم الله تعالى بأسهم، ويجعل بأسهم بينهم، ويذيق بعضهم شيئًا من نقص الأنفس والثمرات، وغير ذلك لعلهم يرجعون، لعلهم يرتدعون.

وعليه، فإن على الداعية إلى الله أن يفقه سنن الله -تبارك وتعالى- التي مضت في دعوات أنبياء الله ورسله، إن هذه السنن يجب أن يُتعرف إليها وعليها من خلال دعوات أنبياء الله تعالى، وهي كثيرة عديدة، نذكر أبرزها لننبه الداعية إليها.

من ذلك: أن الله -تبارك وتعالى- جعل السنة ماضية؛ لأن العاقبة للمتقين، وأن الهلاك للمكذبين المعاندين المستكبرين، وشواهد ذلك من قَصص الأنبياء لا تُحصى ولا تعد، قال الله ﷻ عقب ذكر قصة نوح # : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ

﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، وقال عن وصية موسى ﷺ لقومه: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال -جل من قائل عن هود ﷺ مع قومه: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقال -جل من قائل في قصة صالح # : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧].

وقال -جل من قائل في بيان هذه السنة، وأنها مطردة، لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتغير، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، ونصر المؤمنين سنة جارية لا تتخلف ولا تتغير ولا تتبدل، نصر المؤمنين سنة الله ﷻ لماذا ينصرهم؟ لأنهم مؤمنون، فالإيمان يستوجب النصر من الله، ﷻ.

وحتى يؤتي الإيمان ثماره لا بد أن نعلم أن الإيمان يحتاج إلى عمل، والعمل سعي وإصلاح، دعوة وتغيير، والله -تبارك وتعالى- لا يكتب هذا النصر لمؤمن لا يسعى ولا يعمل: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٥٥]، هكذا تمضي سنة الله ﷻ: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

وهذا يفضي بنا إلى الكلام على السنة الآتية، وهي أن الله -تبارك وتعالى- لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فهذه سنة الله الخالدة التي يتحمل البشر في

ضوئها مسئوليتهم فيما يقع لهم من خير أو شر، فإن ربنا لَمَّا ذكر الفساد قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فالتغيير سواء إلى الخير أو إلى الشر موكول إلى جُهد البشر، والله تعالى من وراء ذلك بعلمه وحكمته ومشيئته، والله -تبارك وتعالى- ذكر هذه السنة في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

جدير بالدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- أن يفقهوا هذا وأن يعلموه لأتباعهم وللدعاة الذين يسعون معهم إلى التغيير، إن التغيير مرهون بجهد البشر، هكذا قضى الله -تبارك وتعالى- هذه السنة لا تتخلف ولا تتبدل، وهي باقية إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، وحتى يتحقق هذا التغيير فإن الله ﷻ يبتلي بعضَ الناس ببعض، يبتلي المؤمنين بالكافرين، يبتلي العادلين بالظالمين، يبتلي المصلحين بالجائرين المفسدين، سنة الله -تبارك وتعالى- في خلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، هذه السنة سنة الابتلاء، سنة جارية للمؤمنين، تمضي الأمور على سَننها لا تتخلف، فأشد الناس ابتلاءً وبلاءً الأنبياءُ، كما في حديث مصعب بن سعد، عن أبيه، أنه قال: ((قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلبًا، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فلا يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)).

وهذا مِصداق قول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ويكفينا في ذلك أيضًا أن نتلوا قول الله تعالى أيضًا: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١- ٣]، حكمة هذا الابتلاء عظيمة، وفوائده في التربية وتمحيص القلوب وتمييز الصفوف معروفة، وعلى هذا ينبغي أن توطن النفوس على هذه السنة مع سؤال الله ﷻ العافية والثبات، فإن العافية أوسع لكل، داعية ثم الله -تبارك وتعالى- يرزق من يشاء الثبات، ويعافي من يشاء من الابتلاء والمحن إلا أن هذا هو الكثير الغالب، فكل أنبياء الله ﷻ ابتلوا بما عاداهم بهم أقوامهم، ابتلوا بما وقع في أبدانهم من العذاب والنكال، وابتلوا بما صبروا عليه من التكذيب والشدة والعنَت، بل وابتلي بعضُهم بالقتل في سبيل الله، فصبروا ابتغاءَ وجه الله، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومن تلك السنن: أن انهيار السنن الظالمة وزوالها يكون بأجل موقوت، كما قال جل من قائل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال -جل من قائل-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، وهذا الموعد مضروب لا يتغير ولا يتبدل، محدود لا يتقدم ولا يتأخر.

ومن السنن الجارية أيضًا في دعوات الأنبياء والمرسلين: تدافع بين الحق والباطل، وصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل، كل ذلك مما قصه الله -تبارك وتعالى- علينا من قصص القرآن، ومما قص الله ﷻ علينا مما كان في دعوات الأنبياء: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، إن هذه المدافعة وهذه

المقاتلة وتلك المحاجة سنة من سنن الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذه السنة تفرض على أهل الحق أن يبذلوا الجهدَ الجهيدَ في دفع الباطل ومدافعته، وإحقاق الحق والتمكين لأهله، ورد البشرية التي شَرَدت عن الله ﷻ إلى الله، وإنقاذها من الشرك ومفاسده، ودفعها دفعًا إلى واحة التوحيد التي أراد الله -تبارك وتعالى- لها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ونحن نشهد صراع الملأ الذين استكبروا مع رسل الله ﷻ ومع أولياء الله -تبارك وتعالى- الذين صدقوا ما عاهدوا الله ﷻ عليه، فقضوا نحبهم في الطريق من غير ما تبديل ولا تغيير، ومنهم من ينتظر نصر الله ﷻ ووعده الذي لا يتخلف: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

هذه سنة الله -تبارك وتعالى- التي قضى أنها لا تتغير وأنها لا تتبدل، وأن النصر والعاقبة في الأولى والآخرة للمؤمنين، وإذا كان الكفار والملأ يغلبون تارةً، أو يغلبون ساعةً، فإن الغَلَبة النهائية وإن النصر العظيم المظفر، هو لأولياء الله تعالى ورسله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، هكذا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا لاستلهام تلك الركائز، والاعتبار بتلك الدروس العظيمة التي تُستفاد من سِير الأنبياء ومن دَعواتهم المباركة، وصَدَقَ الله ﷻ إذ يقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

بعض قصص الصالحين الواردة في القرآن الكريم، وحالة العرب قبل الإسلام

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	أصحاب الأخدود	٣٢١
العنصر الثاني	:	لقمان الحكيم	٣٤١
العنصر الثالث	:	مؤمن أصحاب القرية، ومؤمن آل فرعون	٣٥٢
العنصر الرابع	:	أصحاب الكهف	٣٦٨
العنصر الخامس	:	حال بلاد العرب قبل الإسلام: الجغرافية والسياسية	٣٨٨
العنصر السادس	:	عقيدة العرب قبل الإسلام، وحالتهم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية	٤٠١

أصحاب الأخدود

١. الأحداث التي جرت بين الغلام والراهب والملك:

بين يدينا قصة من قصص القرآن الكريم، وهي تلك القصة العظيمة التي قص الله علينا خبرها في كتابه، فقال -جل من قائل عليمًا-: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ١- ٩].

تحمل هذه الآيات الكريمات قصة أصحاب الأخدود، هؤلاء الذين فتنوا في دنيهم، هؤلاء الذين أحرقوا في خنادق النار مع نسائهم وأطفالهم، وما نقموا منهم إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، وكان النكال نكالًا دنيويًّا بالغ القسوة، وكانت جريمة نكراء عندما اقتيد أولئك المؤمنون الأطهار إلى خنادق النار، وحفرت وأضرمت فيها النار هم ونساؤهم وأطفالهم؛ ليلقَوْا فيها لا لشيء، إلا لأنهم آمنوا بالله -جل في علاه- حتى أتت المرأة مع طفلها الرضيع تحمله، حتى إذا وقفت على شفير الحفرة والنار تضطرم فيها، كأنها خافت لا خوفًا من النار ولكن رحمةً بطفلها ووليدها، فأنطق الله تعالى طفلها الرضيع ليقول لها مؤيدًا ومثبتًا ومصبرًا: ((يا أمه اصبري؛ فإنك على الحق))، فتقتحم المرأة الضعيفة والطفل الرضيع يقتحمان هذه النار، مشهد مريع، وجريمة نكراء، قص القرآن خبرها، وذكَّرنا بها، فإذا بها قصة تمتلئ بالدروس، وتمتلئ هذه القصة بالعِبر؛ فهل من مدكر؟! وهل من معتبر؟!:

بدأت قصة هذه الأمة من الناس بقَسَم عظيم من الله -جل في علاه- ألا وهو قول الله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾، وقد اختلف أهل التأويل في معنى "البروج" في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُني بذلك والسماء ذات القصور، قالوا: والبروج القصور، ومنهم من ذهب: إلى أن البروج بمعنى ذات الرمل والماء، ومنهم من قال: بل البروج النجوم، فالنجوم هي تلك البروج التي ذكر الله ﷻ أو هي الكواكب، وهذه معاني كلها متقاربة.

ثم إن الله -تبارك وتعالى- أقسم بعد هذا باليوم الموعود، وما هو هذا اليوم الموعود؟ قيل: إن هذا اليوم الموعود هو يوم القيامة، وهذا منقول عن السلف الصالح -رضوان الله تعالى عليهم- فهو قسم بالسماء وبروجها ونجومها وآياتها، وما بثَّ الله ﷻ فيها، وبعد ذلك هو قسم بيوم القيامة وما يقع فيه؛ لأنه يوم عظيم، ولهذا ناسب أن يقول بعده: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ و"الشاهد": مَن يحضر في ذلك اليوم من الخلائق، و"المشهود": هو ما في ذلك اليوم من العجائب والأهوال، والله -تبارك وتعالى- وصَفَ يوم القيامة بكونه مشهودًا بقوله -جل من قائل-: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧] وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٥٢].

إذًا الناس يومئذٍ شهود في ذلك اليوم العظيم، يوم الفصل، يوم يقوم الأشهاد، يومٌ هو يومُ الجمعة الذي تقوم فيه الساعة، ويكون فيه ذلك المحشر العظيم؛ ولهذا كان بعض السلف يقول: اليوم المشهود هو يوم الجمعة؛ لأن النبي ﷺ أمر بإكثار الصلاة عليه في يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة. وقيل: الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم القيامة.

وقوله -تبارك وتعالى- : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ فهذا جواب هذا القسم، فإن الواو هي واو القسم، والسماء، واليوم الموعود، والشاهد والمشهود، هو ما أقسم الله -تبارك وتعالى- به، على ماذا؟ على قوله -جل من قائل- : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي: لُعِنَ أصحاب الأخدود، و﴿ الْأُخْدُودِ ﴾ : هو الشق والحفر في الأرض، ويجمع على: أخاديد، والأخاديد: هي الحفر التي تحفر في الأرض، وفي هذا خبر عن قوم من الكفار عمَدوا إلى مَن عندهم من المؤمنين بالله ﷻ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأَبَوْا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدودًا، وأججوا فيه نارًا، وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، ثم أرادوهم على أن يتركوا دينهم إلى الكفر، فلم يقبلوا، فقذفوهم فيها، ولهذا قال -جل من قائل- : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في أصحاب الأخدود، من هم؟:

فقال بعضهم: قوم كانوا أهل كتاب من بقايا المجوس، وكان بعضهم على هذه المِلة حتى أرسل الله -تبارك وتعالى- إليهم مَن استنقذهم، والله -تبارك وتعالى- قال: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ المشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا أنهم آمنوا بالله تعالى الذي لا يُضام مَن لَاذَ بِجَنَابِهِ، إلا إيمانهم بالله -تبارك وتعالى- الذي إليه يلجأ العباد على كل حال، فإن كان قد قُدر على هؤلاء الذين وقع بهم هذا البلاء على أيدي الكفار، فإنه ﷻ ما وقع ذلك إلا بعلمه، وما وقع ذلك إلا بنظره، جل في علاه.

وقد ثبت قصة أصحاب الأخدود في (صحيح مسلم) وغيره، في باب: "قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام". والحديث من رواية صُهيب < أن رسول الله ﷺ قال:

((كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبُر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا؛ أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر، مَرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتَى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلَك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حَبست الناسَ، فقال: اليوم أعلم الساحر أم الراهب أفضل؟ فأخذ حَجَرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلَى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمِعَ جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَن رد عليك بصرك؟ قال: ربي، وَلك رب غيري! قال: ربي وربك الله، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه،

فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل: ارجع عن دينك، فأبَى، فدَعَا بالمئشار فوضع المئشار في مِفْرَقِ رأسه، فشقه حتى وقع شِقاه.

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجِع عن دينك، فأبَى، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبَى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كِنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمِني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صِدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأُتي الملك، فقيل له: أرأيتَ ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدت، وأضرم النار، وقال: من لم يرجع عن دينه فاحموه

فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري، فإنك على الحق)).

هذه قصة مبدوءة بقوله ﷺ: ((كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر))، و"من كان قبلنا" اسم يجمع من سبقنا من الأمم، وقد سبق أن بعض المفسرين أفاد: أن هؤلاء كانوا بقايا من المجوس، وعند بعضهم: أنهم من بني إسرائيل، وهو منقول عن ابن عباس، } .

وقول النبي ﷺ: ((فيمن كان قبلكم)) يريد به فيما مضى، لكن المقصود من هذا الماضي أن يرتبط بحاضر الدعوة في عهده، فقال: ((قبلكم)) وبذلك أضيفت أحداث هذه القصة بعد تجريدها إلى واقع الدعوة القائم الآن، حيث إن هذا الواقع القائم الآن هو الامتداد الصحيح لواقع الدعوة منذ ابتدأت مع بداية الزمان. والمعنى الثاني: هو أن هذه البداية حددت باللفظة الأولى: ((كان ملك)) وهذا الملك يمثل أولئك الملأ الذين تمالئوا على الدعوة، يمثل تلك السطوة والسلطة الكافرة التي تسيطر على واقع الناس؛ لتحقق فيهم مرادهم، ولتبعدهم عن غاية الدعوة فيهم، ولهذا برز ضرورة المواجهة بين الدعوة إلى الحق وبين الحكم الباطل، وبين الملأ الكافر، بصورة واضحة جدًّا في دعوات النبيين، فالله ﷻ قال لموسى بني إسرائيل # : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤]، ذلك أن الرسالة لم تكن أصلًا إلى فرعون؛ لأن موسى كان مرسلًا إلى بني إسرائيل، وكان كل ما يريده هو أن يخرج بهم -أي: ببني إسرائيل- من مصر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

ورغم هذا فقد كانت المواجهة مع فرعون باعتباره حاكمًا متسلطًا مسيطرًا على واقع الناس الذين كانت الرسالة إليهم، وكانت مواجهة عَقَدية مرتبطة بتصور الدعوة

ومنهجها، تؤكد على كل حقائق الرسالة وقضاياها، وبهذا يكون موسى # قد بدأ بدعوته إلى بني إسرائيل البداية الطبيعية عندما واجه فرعون وملأه.

وبذلك نفهم أن هناك عداء بين الدعاة إلى الحق وبين المبطلين، وأن هذه العداوة أمر بَدَهي؛ لأن ما جاء به المرسلون هو الحق المحض، ومع عليه هؤلاء الملأ هو الطغيان المحض، وعلى هذا فإن أي دعوة إلى الحق تظهر في الواقع، لا بد أن تُواجه الباطلَ أو أن يواجهها الباطلُ ولا بد، ولهذا كان نبينا ﷺ حريصًا في بداية دعوته على أن يعلنها على الملأ، وأن يجهر بأنها دعوة إلى جميع الناس، فكان يبعث إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وهو لا يزال في مرحلة الاستضعاف؛ تأكيدًا لأبعاد هذه الدعوة منذ بدايتها، ودون اعتبار لتلك الإمكانيات أو مراعاة لميزان القوة بينه وبين هؤلاء أولئك الملوك، فمن الملوك من كان يفهم قصد نبيناﷺ مثل "هِرَقل" الذي وصلت رسالة الرسول ﷺ بدعوته إلى الإسلام، فناقش أبا سفيان الذي كان حاضرًا في بلاد الروم عندما أراد "هرقل" بحث أمر الرسالة، وتم حوار رائع حول الدعوة بين "هرقل" وبين أبي سفيان، انتهى بقول "هرقل": والله لو كان ما تقول حقًّا، فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو كنت أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت -أي: لتمنيت لقاءه- ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدمه، وهذا عند البخاري وغيره.

ثم يواصل تأكيد فَهمه لطبيعة الدعوة الصحيحة، فيوجه نصحه إلى الروم قائلًا: يا معشر الروم، هل لكم في أن يثبت ملككم، فتُبايعوا هذا النبي؟.

ومن الملوك من كان لا يفهم قصد نبينا ﷺ وكان تأخذه العزة بالإثم مثل "كسرى" الذي كان على الفرس، حيث ذهل لجرأة الرسول ﷺ في بعثه برسالة يدعوه فيها إلى الله، ويأمره فيها بالإسلام، فما كان منه إلا أن مَزَّقَ الرسالة التي

بعثها نبينا ﷺ فدَعَا عليه بأن يمزق الله مُلكه كلَّ ممزقٍ، فقال ﷺ: ((اللهم مزق مُلكه كل ممزق)).

ولقد كانت قريش من الذين لم يفهموا قصد النبي ﷺ فظنته أنه لا يريد بهذه الدعوة إلَّا أن يكون ملَكًا أو أن يكون حاكمًا، فعرض عليه سادتها أن يكون سيدًا عليهم، فقالوا له: إن كنت تريد سيادة سوَّدناك علينا، فرفض نبينا ﷺ تلك السيادة.

فالحكم ضرورة في تصور الدعوة، ولكنه لن يأتي منحة من المغتصبين له، ولن يتحقق بالمساومات الرخيصة، بل يجب أن يكون استرداده بالدعوة إلى الله، وبالعمل الدءوب؛ ليكون ولاية شرعية حقيقية، وليس مجرد تسلط شخصي، أو سيادة فردية دون إمكانية القيام بأمر الحكم والاستمرار فيه بعد الوصول إليه.

وفي الحديث: ((وكان له ساحرٌ...)) وتفيد هذه العبارة أن الساحر للملك، والسحر للحكم، ولم يكن السحر مجرد ظاهرة موجودة في المجتمع، بل إنه اتجاه يحكم هذا المجتمع، وعندما يحكم السحر نفهم طبيعة الواقع الخاضع، فلا بد أنه واقع فاسد قائم بالظلم، محكوم بالهوى، فعلى رأسه ملك مبدؤه السحر وسلطانه القهر، فلا بد أن يكون هذا المنهج منهجًا فاسدًا، وأن القيادة فيه قيادة قهرية، وأن الفكر فيه خرافة، وأن الواقع فيه ضياع، وعندئذٍ يكون الإنسان إما متكبرًا لا يعجبه إلا نفسه، أو مقهورًا لا يشعر بكرامة نفسه.

والسحر باعتباره توهم وكذب يحقق أغراض الحاكم الظالم، وأي منهج ليس من عند الله يخضع له الناس يحقق نتائجَ السحر، وليس هناك فارق بينهما إلا في الشكل والاسم، فالمهم أن يكون في المجتمع قوة عاقلة أو عقل قوي، وهذا ما يتحقق بالسحر ولا بأي منهج بشري مهما كان؛ لأن أي منهج غير إسلامي يتفق

في خصائصه مع السحر؛ لأن السحر تخيل بتأثير عامل الخوف، وباستغلال حالة الجهل، وأي منهج يتخيل الإنسان أنه سليم بتأثير الإرهاب الذي يُفرض به ذلك المنهج من خلال الجهل والضعف، يحقق نتائج السحر، والعياذ بالله.

((فلما كبر قال للملك: إني قد كبرتُ، فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر...))، من هذا نجد نموذجًا لبطانة السوء، التي يهمها أن تبقى الأوضاع التي يستفيدون منها، وينعمون فيها، ومَثَلُهم الواضح سَحَرَةُ فرعونَ الذين جاءوا إلى المدائن لمواجهة موسى، فكان أول ما قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]، لم يسألوا عمن سيواجهون؟ ولا ما هي قضيته؟ فهذا لا يهم، لكن كان الذي يهمهم هو الأجر. غير أننا نلحظ أن الساحر في طلبه للغلام لم يكن يريد منفعة شخصية؛ لأن الطلب جاء لما أحس الساحر بدنو أجله، فلم يكن يريد بهذا الطلب شيئًا شخصيًّا له، وهذا يبرز معنًى جديدًا، وهو أن الساحر لما كبر وعاش عمره في تهيئة الواقع للملك، مستفيدًا ومنعمًا، لَمْ يصبح الأمر بالنسبة له منفعة ذاتية، بل أصبح هذا ذاته نفسها التي أحب أن تستمر في شخص الغلام، قضَى عمره ساحرًا، ولا بد من امتدادٍ لهذا العمر بعُمُر جديد، فكان طلبه للغلام.

ولكن لا يجب أن يُتوقف عند هذا الحد في تفسير طلب الساحر للغلام، إذ أننا نرى الدافع إلى هذا الطلب هو ذلك الشيطان القائم على أمر هذه الجاهلية بأجيالها الممتدة، إن الشيطان يملك تجربة الوجود الإنساني، ويتعرف عليها من بدايتها، ويستطيع بها ربط الأجيال كلها جيلًا بعد جيلٍ، وبهذا يجب أن ندرك خطورة ذلك الواقع المخالف لِمنهاج الله -تبارك وتعالى- فليس الامتداد تعاطفًا بين الأجيال؛ لأن ذلك الجيل الضال مفتت ومشتت لا يمكن أن يتعاطف حتى مع

نفسه، وحينما نرى هذا نعرف أن هنا حتمية تاريخية مفروضة على الواقع الإنساني لا سبيلَ إلى إنهائها أو تغييرها؛ لأن التاريخ وأحداثه لا يتحقق إلا بقدر الله وحده، والمسلمون وحدهم هم الذين يملكون بعقيدتهم وتصورهم سُنن هذا القدر، وأسباب تحقيقه، وهم وحدهم القادرون على إنهاء هذا الوجود المخالف لدين الله تعالى وشرعه إذا التزموا بتلك السنن، وأخذوا بهذه الأسباب.

وحينما يقرأ الإنسان قوله: ((فأتاه بغلام)) يود أن لو استطاع أن يمد ذراعه ليأخذ ذلك الغلام وينجيه من هؤلاء الناس، فإنه لا يُحزن لشيء أكثر من الحزن على ضياع الفطرة، وإفسادها في مناخ مجتمعات ظالمة، فماذا لو نرى إنسانًا يضيع، وفطرةً تفسد، ثم لا يتقدم أحد لحماية هذه الفطرة، ولا يبذل أحد أي جهد أو أي عمل؟ وماذا لو نرى إنسانًا قد مات على الكفر بعد أن ولد على الفطرة، ولم نكن قدمنا له أسباب الهداية، ولا أعنَّاه بما يدفع به عن نفسه طرقَ الغواية؟

إن الداعية الحقيقي هو الذي يشعر بمسئوليته تُجاه الفطرة الإنسانية وحمايتها من أي تأثير يدخل عليها، أو يعمل على انحرافها يحس الداعية إحساسًا عميقًا بقيمة تلك الفطرة في واقع دعوته، فالفطرة هي رصيد الدعوة في الواقع المخالف، وحينما تفسد فلن يكون للدعوة أي وجود أو امتداد، وهذا ما قصده نوح عندما دعا بهلاك قومه لَمَّا رأى وجودهم في ضلال، ورأى امتدادهم في فجر وكفر - والعياذ بالله- فقال -جل من قائل-: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

((وكان ذلك الغلام في طريقه إذا سَلَك راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه))، بقدر الله التقى الغلام بالراهب وهو في طريقه إلى الساحر، فسمِعَ منه، فأعجبه، ولم يكن هذا سهلًا على نفس الغلام، لولا أن تلك النفس كانت

على الفطرة بعدُ، لم تتغير ولم تتبدل، ذلك أن السحر يناقض الفِطرةَ، وأن السحر يبطل هذه الفطرةَ، ويحرف هذه الفطرةَ.

((فكان ذلك الغلام إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب))، ويلمح من هذا النص: أن ذلك الغلام كان على إصرار في أن يقعد إلى الراهب، أنه يقعد إليه كل ما أتى الساحر، رغم أن الساحر كان يضربه كل ما تأخر عنه، وهذا الضرب يمثل بالنسبة لهذا الصغير بلاءً واختبارًا إذا راعينا أنه غلام صغير، ولكن الله ﷻ يشاء أن يتربَّى هذا الغلام تربيةً حقيقةً كاملةً، وأن يكون ارتباطه بالدعوة متفقًا مع طبيعتها؛ لأن هذا الغلام سيكون منطلقًا أساسيًّا لتلك الدعوة، وسيكون دليلًا إليها فيما بعد، وهذا لا بد له أن تتكامل شخصيته، وأن يستعد لذلك البلاء، وأن يصبر عليها عندما يقع، ذلك أن طبيعة التلقي لهذا الدين هي التي تحدد طبيعة اعتناقه والالتزام به، والدعوة إليه، والذين يأخذون هذا الدين على أنه اختبار وامتحان وَهُم فيه ومعه في بلاء وشِدة وعَناء، هم الذين يبقون إلى النهاية -بإذن الله- وَأَخْذُ هذا الدين بقوة هو ضمان الاستمرار عليه، ولذلك أراد ربنا -تبارك وتعالى- أن يتفق تكوين هذا الغلام مع طبيعة الدعوة ومع شدة البلاء والأذى الذي كان يناله من ذلك الساحر إذا تأخر، تظهر الآيات التي تعينه على الصبر، وتطمئن النفوس.

((فبينما هو كذلك، إذ أتَى على دابة عظيمة قد حبست الناسَ، فقال: اليومَ أعلم الساحر أفضل أم الراهب؟ فأخذ حَجَرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس، فقتلها، ومضى الناس)):

كان الغلام قلقًا لتلقيه من الراهب والساحر في وقت واحد، ولقد كان من الممكن أن يستمر الغلام في تلقيه للدين والسحر دون قلق إذا كان يسمع للراهب

والساحر بدون شعور أو تفكير؛ لأن السماع حينئذٍ سيكون مجردًا، وإنما كان الغلام يتلقى هذا كله بتأثر عميق، فيتأثر بكلام الراهب، ويدرك معاني الدين إدراكًا سليمًا، ومن هنا كان الأمر صعبًا عليه أن يستمع إلى الحق المحض وأن يستمع بعد ذلك إلى الباطل الصِّرف، ولهذا كان يجب أن يطمئن إلى سلامة ما هو عليه من الحق، فبمجرد أن وقعت هذه الواقعة، قال: ((اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر))، وهذا يُفهم معه أنه كان أقربَ إلى الراهب، وأحب إليه أمر الراهب قبل الساحر، يعني: أنه يريد أن يرتبط إيمانه بالراهب، كذلك وجدنا أن الغلام قال: ((اللهم)) وهذا يدل على عمق تأثره بالإيمان، لكنه كان يطلب اليقين من خلال الواقع، فقال هذه المقولة: ((إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر))، وهذا نوع اختيار، إنه يختار أمر الإيمان على أمر الكفر.

ولقد أحسن الغلام في طلبه لليقين لَمَّا اختار حادثة الدابة التي تسد على الناس طريقهم، فإن هذا الحادث وما تم فيه يعتبر بحق تجربة كاملة في الدعوة بجوهرها وأبعادها، كما تتضمنه التجربة من خلال القصة كلها.

((ورجع الغلام إلى الراهب فأخبره، فقال له: أي بني، أنت اليوم أفضل مني))، ولم يكن الموقف الذي وقفه الراهب موقفًا عاديًّا عندما قال للغلام ذلك، ولكنه موقف فاصل في حياة كل داعية، فقد تخفي الدعوة في الإنسان الذي يمارسها حبًّا خفيًّا للتميز، باعتبار أن هذه هي الممارسة صورة من صور تميزه على الناس، هذه العورة النفسية القبيحة تنكشف حتمًا إذا واجه الإنسان موقفًا يشعر فيه أن هناك من هو أفضل منه في فهم الدعوة، وأقدر منه على تحقيق مصلحتها، لم يكن ذلك الراهب من هذا النوع، بل كان تقيًّا نقيًّا، فقال له:

((أي بني، أنت اليوم أفضل مني)) كلمات تفوح منها رائحة الإخلاص، وتتنسم الأجيال منها رائحة التجرد لله ﷻ كان هذا الراهب أمينًا أصيلًا، إذ أخبر الغلام أنه أصبح أفضل منه بلا حرج، ومن أين سيأتيه الحرج إذا خلصت نفسُه لله، تبارك وتعالى.

وهذا الغلام كان صغيرَ السن، لكنه كان عظيم الشأن، والراهب ما التقَى به إلا منذ وقت قريب، فهذا يدلك على مدى الفَهم الصحيح عند الراهب للدعوة، فالدعوة ليست بالعمر الذي يعيشه الإنسان، ولكنه بالإيمان وبالكفاءة وبالأثر وباليقين، ونرى أن ذلك الراهب أنشأ علاقة إنسانية رفيعة حين قال للمتعلم منه: ((أي بني)) هذه عَلاقة إنسانية رفيعة تفوح منها رائحة التجرد، وتظهر فيها الوجدانية التي تربي تربيةً صحيحةً، فالراهب يحنو على غلامه هذا، ويرفع قدره فوق قدر نفسه، ويهيئه لمعارك أكبر، ولاختبارات أعظم، وينبئه أنه قد يرِد عليه البلاء فعليه أن يحفظ سِره، وأن يكتم خبره، ذلك أن الغلام كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، وكأن هذا إيذان لهذا الغلام بأنه سينكشف أمره، وسيظهر خبره، ويتسامع الناس بأمره، حتى إذا سمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ((ما هاهنا لك أجمع إن أنتَ شفيتني))، وتلك كانت فرصته أن يَبْلُغَ بالدعوة إلى غاياتها، وأن يسلك بالدعوة إلى قلب هذا الرجل الذي كان جليسًا للملك.

فَبَدَرَ من فَوْره قائلًا: ((أنا لا أشفي ولكن الله هو الذي يشفي))، يتجاهل الغلام الفكرة التي عرضها الجليسُ -فكرة الهدايا- فلم تنل من إحساسه شيئًا، ثم يقول له: ((إن أنت آمنت بالله دعوت الله، فشفاك))، وهنا يرتفع قيمة الأمر بالإيمان الذي طلبه الغلام في تصور الجليس؛ لأن شفاءه سيكون بهذا الإيمان، ولأن الأمر بالإيمان كان بديلًا للهدايا والمادة التي تنال من نفوس الناس تقديرًا

واعتبارًا، فانعكس هذا التقدير والاعتبار على الأمر الذي طلبه الغلام، فآمَن الجليس، فشفاه الله تعالى.

الغلام حين قال له: ((لا أشفي أحدًا، ولكن الله هو الذي يشفي))، أكد بذلك عقيدته من خلال تلك المنفعة وتلك المصلحة التي قدمها لجليسه، هذا هو الأساس الذي تقوم عليه فكرة تأليف القلوب في الدعوة إلى الله، إذ يجب أن ترتبط المنفعة المقدمة بالعقيدة المعروضة، وهذا الارتباط هو الذي سيعطي لتلك العقيدة قيمتَها في نفوس الناس ابتداءً، فهناك فارق بين تقديم المنفعة لمجرد المنفعةِ، والمنفعة لتأكيد عقيدة، وهذا موقف لرسول الله ﷺ يوضح لنا هذا الفارق، حين جاء إليه رجل يطلب مالًا، فقال له: ((خذ ما بين هذا الوادي، فقال الرجل: أتهزأ بي؟ قال: لا))، فأخذ الرجل كلَّ الإبل التي كانت عند رسول الله ﷺ ولم يترك شيئًا دون أن يمنعه أحد، فلما اقترب من قبيلته، قال: "يا قوم، أسلموا، فقد جئتم من عند من لا يخشَى الفقر" ﷺ.

يعود ذلك الجليس إلى الملك فيجلس إليه كما كان يجلس إليه من قبل، فيعجب الملكُ من حاله قائلًا: ((مَن رد إليك بصرك، قال: ربي، قال: أوَلك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله))، عَجَبًا لهذا المتسلط الطاغية، يدعي لنفسه الربوبية، وكيف يكون له هذا وهذا لا يتأتى في بادئ الرأي، ولا في ظاهر الأمر؟! إنه يكفر ثم يبالغ في الكفر، ويمعن فيه على حد قول من قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، المؤمن لا يبالي بمثل هؤلاء الطغاة، فيواجههم بقوة وصراحة كما فعل الجليس مع الملك، فقال له: ((ربي وربك الله))، فنجد في رده نفيًا لربوبية الملك المدَّعَى من خلال إثبات ربوبية الله ﷻ على الملك وعلى غيره، إذ ليس له ولا لغيره رب سوى الله -جل في علاه- وعندئذٍ يطيش صوابه، ويبدي الغضب كل الغضب، فيأخذ

ذلك الجليس للعذاب حتى يدل على الغلام، ويأخذ الغلام بالعذاب حتى يدل على ذلك الراهب، ويأخذ ذلك الراهب بالعذاب حتى يرجع عن دينه، فيأبى.

وهنا تبدأ المحنة، محنة جديدة، محنة لذلك الراهب، ومحنة لذلك الجليس، كل منهما يجود بنفسه حتى يلقَى اللهَ -تبارك وتعالى- يموت مِيتةً عجيبةً، يُفرق بالمنشار من مفرِق رأسه حتى يقع شِقاه، يا لها من حالة تدعو إلى الإعجاب، تلك حالة الثبات التي كان عليها أولياء الله ذلك الراهب وذلك الجليس اللذان توكلَا على الله، فشعرًا أن الله -تبارك وتعالى- كافيهما، وأن الله ﷻ هو حافظهما، وأن الله -تبارك وتعالى- هو ناصرهما، لكنهما فهمَا وعلمَا أن النصر الحقيقي هو انتصار العقيدة على غريزة حب الحياة، وانتصار هذه العقيدة على هذا الطاغوت المتجبر من طواغيت البشر -والعياذ بالله- هو انتصار الثبات في وجه هذه الفتن، كل ذلك كان في قصة ذلك الجليس الذي أبَى أن يعود إلى الكفر، وأن يرجع عن دينه، وقصة ذلك الراهب الذي بقي على الحق ثابتًا كالطَّوْد الأشم حتى لقي الله، تبارك وتعالى.

وهذا يذكرنا بحديث خباب بن الأرت > حين شَكَا إلى النبي ﷺ وهو متوسد بُردةً في ظل الكعبة، فقالوا: ((ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: قد كان ما قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتَى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يبعده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون))، هكذا يذكِّر النبي ﷺ الصحابةَ بهذا الموقف العظيم، وهو في شِدةٍ من أهل مكةَ وبلاءٍ ولَأْوَاءٍ، لكن الأمر لا يقاس ببرهة من برهات الزمن، وإنما ينظر فيه إلى طول هذا الطريق الممتد، طريق النصر لأولياء الله ﷻ ولمرسليه.

ولهذا رأينا حرصَ ذلك الملك الشديد على ارتداد الغلام حتى لا يسبب قتله حَرَجًا للملك، وبلبلةً في عقول الناس؛ لأن الغلام كان معروفًا لدى الناس بأعماله الطيبة، وبحبه للخير، وببذله الخير لكل أحد، فحاول الملك محاولاتٍ شتى؛ لينهي قصة هذا الغلام، وليقطع الطريق على الناس أن يؤمنوا برب هذا الغلام، فيحاول محاولاتٍ متكررةً؛ ليقتل هذا الغلام ولينهي قصته، ولكن هيهاتَ هيهاتَ.

٢- الفتنة والثبات على الحق:

اتسعت رقعة التحدي بين الغلام والملك، فهذا يريد أن يقتل الغلام حتى يقطع الطريقَ على الناس أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فيرسل الغلام من طائفة من زبانيته وجلاوزته؛ ليلقوه من شاهق، فما يكون منه إلا أن يدعو الله فوق الجبل: ((اللهم اكفنيهم بما شئت))، بأي كيفية يرضاها الله تعالى، وبأي سبب يختاره ﷻ فالتوكل على الله -تبارك وتعالى- يكفي الغلام بإذن الله -تبارك وتعالى- فما كان من الجبل إلا أن اهتز فسقطوا، وعاد سالمًا.

ثم جاء يمشي مرةً أخرى إلى الملك لا يريد النجاة، وإنما يريد أن يبلغ دعوة الله، ليست الحياة هدفًا يحرص عليه الدعاة إلا من خلال كونها ضرورةً من ضرورات الدعوة إلى الله، سواء أكان تحقيق هذه الضرورة يتطلب الحرص على الحياة، أو يتطلب الحرص على الموت، والذين يفسرون مصلحة الدعوة للحرص على حياة الدعاة ورفاهيتهم فحسب، هم أصحاب التصور الناقص الذي لا يعدو أن يكون فلسفةً للجبن أو للتخاذل عن نصرة دين الله، والمندفعون إلى الموت برغبتهم النفسية دون اعتبار لمصلحة الدعوة، إنما يبددون بذلك الاندفاع والتهور طاقةَ الدعوة، وإمكاناتها، إن مصلحة الدعوة هي ذلك الحد الفاصل بين الجبن

والشجاعة، فهي أيضًا الحد الفاصل بين الشجاعة والتهور، فالجبن هو عدم الاستعداد للتضحية، والتهور هو التضحية بلا ضرورة أو منفعة، والشجاعة هي التضحية الضرورية النافعة، وعلى هذا لم يكن طلب الغلام للنجاة جبنًا، ولم تكن عودته إلى الملك تهورًا، بل كان في كِلا الموقفين شجاعًا حكيمًا.

يعود إليه مرة أخرى فيرسل الملك به في طائفة جديد؛ ليغرقوه في الماء، فيكفيه الله ﷻ شأنَ هؤلاء المجرمين، يكفيه الله تعالى أمرهم ويغرقهم ﷻ في اليم، ويرجع ذلك الغلام مبرأً سليمًا معافًى؛ ليتم منهجه، وليقيم دعوته، وليظهر حجته على ذلك الملك، وليعلي شأن راية التوحيد بين الناس أجمعين.

ثم إنه يقول للملك: ((إنك لن تستطيع قتلي إلا إذا فعلتَ ما آمرك به)) نرى في كلمات هذا الغلام أمرين؛ نرى إثبات عجز ذلك الملك، ونرى أيضًا حرص الغلام على إنهاء هذا الادعاء الذي يدعيه ذلك الملك، وهو ادعاء الربوبية بإثبات عجزه واضطراره في ذلك الموقف؛ لأنه الموقف الأخير الذي يجب أن ينتهي معه هذا الادعاء الفظيع، ويكون الأمر على ما قال له: ((إنك لن تستطيع قتلي إلا إذا فعلتَ ما آمرك به))، وينتشر الخبر في الناس: ((أن تجمع الناس في صعيد واحد))، حتى يشهدوا الأحداث، وتظهر الآيات، فيفهموا معناها ويبدو لهم مغزاها، بدأ الغلام أوامره بهذا الأمر؛ لأنه يعلم أن مثل هؤلاء الحكام يخفون الحقائق التي تفيد الناس وتساعدهم على الإيمان ومعرفة الحق، وهذا هو ما قصده موسى # حين قال للطاغية في مواجهةٍ ظالمة بينه وبين السحرة، أمره بأن يكون ذلك في يوم اجتماع الناس في يوم الزينة: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٩].

يستمر الغلام في إصدار أوامره إلى الملك الذي بدًا عاجزًا: ((وتصلبني في جذع شجرة))، حتى يكتمل ضعف الغلام في إحساس الناس، فيكون غلامًا صغيرًا مصلوبًا في جذع شجرة حتى يسهل على الناس أن ينطلقوا بأحاسيسهم نحو

الإيمان بالله، بتلك القوة التي قهرت الملك وأذلته في سلطانه؛ لتقف مع ذلك الغلام الصغير المصلوب قوةُ الله رب الغلام.

((ثم تأخذ سهمًا من كِنانتي)) واشتراط أن يكون السهم من كنانته هو، فيكون سبب القتل من عنده، وتتأكد رغبته في القتل: ((ثم تضع السهم في كَبَدِ القَوْس، ثم قُلْ: بسم الله رب الغلام)) وبهذا يكون الغلام أعطى للناس تفسيرًا للموقف، فيكون قتله رغبةً منه وسببًا من عنده، يتحقق بقدر الله بعد أن عجز ذلك الملك، يستجيب لأوامر الغلام استجابةَ الضعيف المضطر، فيجمع الناس في صعيد واحد، ثم يصلبه على جذع، ثم يأخذ سهمًا من كنانته، ثم يضع السهم في كبد القوس قائلًا: ((بسم الله رب الغلام))، فيقع ما كان يريد، وما كان يريد هو ما كان يحذر، يقع السهم في صدغ الغلام، فيموت من ذلك، فتكون آيةَ صدق وبرهانًا ظاهرًا على أن هذا ما كان لولا أن ذلك الغلام أراد أن يموت ليظهر للناس عجزَ هذا الطاغية، فما كان منهم إلا أن قالوا في لحظة واحدة: ((آمنا برب الغلام))، في لحظة الانطلاق من قيود الوهم والجهل، في لحظة العزة بعد القهر والذل، في لحظة القوة بعد الوهن والضعف، يؤمن الناس.

فأُتِي الملك فقيل له: ((أرأيت ما كنت تحذر، قد وقع والله بك حذرك))، وتغيرت ملامح المجتمع، وأنهت الجماهير ادعاء الحاكم الكاذب، فجاء إلى الملك من يقسم له بالله على هزيمته وعجزه، ويقول له: ((قد وقع والله بك حذرك))، فيأمر بالأخاديد في أفواه السكك فتُخد، ويضرم فيها النار ولا يتوقف اندفاع الناس من كل طريق، وفي كل السكك، حتى واصلوا الاندفاع إلى أخاديد النار: ((من لم يرجع عن دينه، فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم)) كل إنسان يحب البقاء، لكن هؤلاء الذين رأَوْا الآيةَ ظاهرةَ، والحجةَ باهرة، ما كانوا

ليتلكئوا، أو ليتراجعوا عن نصرة دين الله ﷻ فاندفع الجميع، حتى كانت آخر الناس امرأة جاءت تحمل صبيًّا لها متقاعسًا؛ خشيةً على غلامها، فأنطق الله لها هذا الغلام ليكون لها آية وبرهانًا وبينةَ نجاةِ هؤلاء القوم، وصحة ما هم عليه من العقيدة، قال لها ذلك الغلام الرضيع: ((يا أمه، اصبري إنك على الحق))، جاءت بولدها متمسكة به إلى النهاية، لم تفصلها أهوال الأحداث عنه حتى جاءت إلى حافة الأخدود، فاشتعلت مشاعر الأمومة في قلبها، وكرهت الموت، فترددت أن تقع بابنها، لكن الطفل أطفأ في إحساس أمه لهيبَ النار ذات الوقود، لتلقي بنفسها، وتنجو من الضعف والتقاعس.

وكان حديث هذا الصبي هو آخر كلمات القصة عند حافة الأخدود؛ لتعلن قصة انتصار الحق، لتعلن قصة انتصار أصحاب الأخدود -رحمهم الله، ورضي عنهم- وتبقى عبرةً باقيةً للأجيال، وذكرى على مر العصور وكر الدهور، بإذن الله تبارك وتعالى.

٣- عِبر وركائز دعوية في قصة أصحاب الأخدود:

إن قصة أصحاب الأخدود بأسرها توجيهُ للدعاة، تعليم للدعاة، تربية للدعاة، وفيها وقفات، نَمُرُّ عليها سريعًا:

الوقفة الأولى: فإنا إذا رأينا أن الله قد أملى للظالمين، ومكن للمجرمين، فينبغي أن نعلم باليقين وإلا فنحن نعلم بالإيمان أن الجزاء مدخر هناك، ولذا فلا داعي للبحث عن كوارث دنيوية تحل بهم، إنك تشفق على بعض الناس حينما يَجهدون في البحث عن عقوبة دنيوية حلت بهذا الظالم أو بذاك المجرم، لقد مات الأطهار والأبرار والرسل الكرام، لكن عند الله -تبارك وتعالى- تجتمع الخصوم،

والعبرة هناك في دار الجزاء، ويكفي الأبرار أنهم صمَدوا أمام حَر النار، وأنهم بقوا ثابتين في فتنة شديدة شنيعة لا تتحملها القلوب إلا قلوبٌ صبرت لله ﷻ وضحت لأجله، تبارك وتعالى.

الوقفة الثانية: أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بأي مظهر من مظاهر القوة أوتيها، فمظاهر القوة في الدنيا نسبية، ولكنها كلها على تفاوتها تتعطل حينما يوقف العبد بين الله ﷻ إن هذه القوة وإن كثرت وقويت، فهي تنتهي سريعًا، وتمضي جميعًا، والعبرة بالمثول بين يدي ربٍّ تنتهي كل موازين القوى أمامه -جل وتقدَّس وتعالى- والمظلوم عليه أن يتذكر أن الله ناصره لا محالة؛ لأنه سبحانه حَرَّمَ الظلم على نفسه، وحرمه بين عباده، وسينتهي الخلق إلى يوم يَقتص الله فيه للشاة الجماء من القَرْناء، فكيف بأهل الإيمان: ألا يقتصون من أهل الفجور والفسوق والكفور والطغيان؟! لن يفوت شيء من حق الدعاة في الآخرة وإن فاتهم ذلك في الدنيا.

الوقفة الثالثة: إن هذا الانتظار للجزاء الأُخروي كما هو دافع رهبة فهو دافع رغبة، تُوفي زين العابدين علي بن الحسين، فلما وضع لِيُغَسَّل وجد المغسلون في أكتافه نُدُوبًا سوداءَ، فتفكروا من أين أتت تلك الندوب في ظهر ذلك الرجل الصالح؟ ثم اكتشف الأمر لقد كان هذا العابد يستتر بظلمة الليل وحُلكة الظلام، حتى ينقل أكياس الطعام إلى أسر فقيرة، لا يدرون من الذي كان يأتيهم بها، فلما مات زين العابدين، عُلِمَ أن تلك الصدقة كانت صدقته لَمَّا انقطعت عن أولئك الفقراء.

والوقفة الأخيرة -وما هي بأخيرة- أن في استحضار هذا الأمر مدد للسائلين في طريق العمل للدين والدعوة إلى الله، إن الذي يشخص ببصرة إلى الجزاء

الأخروي ينظر إلى العوائق، فإذا هي يسيرة، وإلى الصعوبات فإذا هي هينة، وإلى الضيق فإذا هو سَعة؛ لأنه ينتظر جزاء أتم وأوفى، قُتل مصعبُ بنُ عمير، وقتل حمزةُ بنُ عبد المطلب، فلم يوجد ما يُوارَى به أحدهم إلا بردة إن غطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت بها رجلاه بدا رأسه، وعند الله -تبارك وتعالى- الجزاء الأوفى الأتم الأكمل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لقمان الحكيم

١- المعالم المستنبطة من سيرة لقمان الحكيم:

قال -جل من قائل عليمًا-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٢-١٥]. ولقمانُ: هو ابن عنقاء بن سدون. ويُقال: لقمان بن ثاران.

قال السهيلي: كان نوبيًّا من أهل أيلة. وكان رجلًا صالحًا ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة. وقيل: إنه كان قاضيًا زمنَ داود # عن ابن عباس قال: "كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا"، وقال عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: "ما انتهى إليكم في شأن لقمان؟ قال: كان قصيرًا أفطسَ من النوبة".

وعن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة، وجاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان؛ بلال، ومِهجع مولى عمر، ولقمان الحكيم كان أسودَ نوبيًّا ذا مشافر، وهذا منقول في (تفسير الطبري).

والمقصود بقوله: "ذا مشافر" أي: كان عظيم الشفتين، وكان أيضًا مشقق القدمين، وكان عبدًا أسودَ غليظَ الشفتين.

حدث الأعمش عن مجاهد: أنه أتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم -أي: أتى لقمانَ رجلٌ وهو في مجلس أناس يحدثهم- فقال له: ألستَ الذي كنت ترعَى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صِدق الحديث، والصمت عما لا يَعنيني.

وعن يزيد بن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال: ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعنيني.

وعن أبي الدرداء أنه قال يومًا -وذكر لقمان الحكيم- فقال: "ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلًا صَمْصَامَةً -والصمصامة أي: المصمم، وهو الشديد الصُّلب- سِكيتًا طويلَ التفكر، عميقَ النظر، لم ينم نهارًا قط، ولم يره أحد يبزق ولا يتنخع، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقًا نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج ووُلد له أولاد فماتوا، فلم يبكِ

عليهم، وكان يخشى السلطان، ويأتي الحكام؛ لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي.

ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة، فخاف ألا يقوم بأعبائها، فاختار الحكمة؛ لأنها أسهل عليه. وفي هذا بلا شك نظر، والله تعالى أعلى وأعلم.

وقد ذهب بعض أهل العلم: إلى أن لقمان كان نبيًّا، وهذا لا يصح إسناده. إذًا المشهور عن جماهير أهل العلم بالتفسير أنه كان حكيمًا وليًّا ولم يكن نبيًّا، وقد ذكره ربنا -تبارك وتعالى- في القرآن، فأثنى عليه، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه، وهو أشفق الناس عليه، فكان من أول ما وعظه به أن قال له: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾.

وقد قال البخاري -رحمه الله تعالى- فيما رواه عن عبد الله بن مسعود، قال: "لما أنزل الله ﷻ قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إنه ليس بذاك، ألم تسمع إلى قول لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾؟))".

٢- الركائز الدعوية لدعوة لقمان #:

ذكر الله -تبارك وتعالى- طرفًا من وصاياه، تظهر الأسس التي أقام عليه، وتظهر بنيان تلك الدعوة قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا

مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ
وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن
صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٢ - ١٩].

هذه الوصية افتتحها لقمان -عليه رحمه الله تعالى ورضاه- بقوله: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ والخطاب هنا إلى أحب الناس إليه وهو ابنه، ولذا نجده أنه كثيرًا ما يذكر هذا في مفتتح تلك الوصايا التي يلقيها الآباء والدعاة والمربون وأصحاب الشفقة والحنان على مَن يدعونهم إلى الله -تبارك وتعالى-: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، ثم إنه عاد فنصح ولده في قضية مهمة، وهو يأمره بأن يرعَى حق والديه، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ ﴾، وهذا يشعر بأن هذه الوصية مما أنزله الله -تبارك وتعالى- على آدم، على الإنسان الأول؛ ليبلغه إلى ذريته، فكل إنسان منذ بدء وجود الناس في الأرض قد وجهت له هذه الوصية الربانية.

وقد اشتملت وصية لقمان لابنه على عدد من القضايا، عند عَدِّها -على وجه الحصر- نرى أنها بلغت أربعة عشر قضية:

القضية الأولى: هي قضية كل داعية إلى الله، هي قضية كل مبلغ عن الله، ألا وهي الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك:

النهي عن أعظم الظلم، ألا وهو الإشراك بالله ﷻ وهو يشمل الإشراك بربوبيته -تبارك وتعالى- ودعوى أن مع الله مَن يخلق، ودعوى أن مع الله من يرزق،

وهذا من أعظم الظلم في حق الله تعالى، إذ لا رب في الوجود غيره، ويشمل الإشراك في إلهية الله ﷻ وإشراك في إلهية الله أظلم وأطغى وأنكى، ذلك أن الإله هو الرب المعبود، فلا يستحق العبادة إلا الله -جل في علاه- فالإلهية والألوهية -وهي استحقاق العبادة- لا تكون إلا لله الذي أمد العبد بعطاءات الربوبية، فخلقه، ورزقه، وأحيى، ودبَّر، وأعان، وإذا كان الإنسان يقر أن لا رب في الوجود سواه، فإنه عليه أن يقر ألا مستحق للعبادة في الوجود دونه -جل في علاه- عبادة غيره معه إشراك به فيما هو من حقه وحده، لا إله إلا هو.

ومعنى: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ": لا معبود بحقه سواه، والله -تبارك وتعالى- لا يغفر أن يشرك به سواء كان الشرك في الربوبية أو كان الشرك في الألوهية. قال -جل من قائل عليمًا-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

ولقمان # ما ابتدأ دعواه ولا دعوته إلا بهذه المسألة؛ بيانًا، وتحذيرًا. بيانًا لأن قضية التوحيد هي أول القضايا وأعظمها وأولاها، وتحذيرًا من ضده، ألا وهو الشرك بالله ﷻ في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، وقد دل على هذه القضية قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

القضية الثانية: توصية الإنسان بوالديه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾.

القضية الثالثة: هي الأمر بالشكر لله ﷻ على نعمه التي لا يحصيها العباد، وفي الشكر معنى مقابلة الفعل الجميل بفعلٍ جميلٍ، ويدخل في الشكر لله -تبارك وتعالى- أن يُعبد ﷻ بما شرع لعباده، فمن الشكر صرف هذه النعم في عبادة الله ﷻ وفي طلب رضاه، في التقرب إلى الله بمراضيه، وحمده والثناء عليه، والتوجه له بالعبادة وحده دون سواه، هذا هو حقيقة شكر الله، ﷻ.

وفي الشكر معنى مقابلة المِنة الحسنة بما يرضي موليها، أما الحمد فهو أعم من الشكر؛ لأنه مطلق الثناء على المحمود بصفاته الحسنة، ولو لم يكن له على الحامد مِنة، ولو لم يكن له على الحامد يد يستصنع بها حَمْده أو شكْرَه، والله -تبارك وتعالى- قص على لسان هذا العبد الحكيم الأمر بالشكر: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾.

الله -تبارك وتعالى- أمر الخلق جميعًا كما أمرهم أن يعبدوه ويفردوه بالعباده دون شريك، فقد أمرهم أيضًا أن يفردوه بالشكر ﷻ وإذا كان الإنسان قد أُمر بشكر الله -تبارك وتعالى- فهو مأمور أيضًا بشكر كل من أسدَى إليه معروفًا، وأحسن إليه في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو ولده، ونحن نلحظ أن الشكر -بعد شكر الله ﷻ مصروفٌ للوالدين على ما قدمَا وبذلَا، وأحسنَا وأعطيَا، وربيَا، وقدَّمَا لذلك الوليد الصغير وقد تكرر في كتاب الله ﷻ الأمر بشكر الله تعالى، والأمر بالشكر للوالدين جميعًا، ودل على هذا النص الذي بين أيدينا، فإن الله تعالى وصى الإنسان بهذا، جعل ذلك من الوصية التي أمر الله -تبارك وتعالى- بها عباده، ومع الوصية بالشكر لله وللوالدين.

القضية الرابعة: التنبيه على الجزاء يوم الدين بإشارة قول الله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فهو تعالى الذي يثيب على الطاعة، وهو تعالى الذي يعاقب على المعصية، والله -تبارك وتعالى- قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

وقد تضمنت الآيات نهيًا عن طاعة الوالدين الكافرين إذا جاهدَا الولدَ على أن يشرك بالله شيئًا، إذا جاهداه على أن يلحق بكل ما فيه معصية لله -تبارك وتعالى-: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾. وصاحبهما في الدنيا مصاحبة حسنة، قدم لهما المعروف، وابذل

لهما بكل سخاء، وقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ ضمن معنى فعل قَدم، فنُصب هذا اللفظ، لفظ: ﴿مَعْرُوفًا﴾، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: نصب لفظ معروفًا على أنه مفعول به أي: وقدم لهما معروفًا في مصاحبتك لهما، أو يكون التقدير: وصاحبهما في الدنيا اصطحابًا معروفًا، فيكون لفظ: ﴿مَعْرُوفًا﴾ صفة لمفعول مطلق محذوف فهو نائب مفعول مطلق.

القضية الخامسة: أنه أمره بأن يتبع سبيل من أناب إلى الله أي: سبيل من رجع إلى الله، وسبيل من سلك طريق الإيمان والطاعة، وسلك صراط: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. دل على هذه القصة قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾. وقد تكرر في كتاب الله وجوب اتباع سبيل جماعة المؤمنين؛ لأن المؤمنين إذا كانت لهم جماعة فإن سبيلها العام الذي أجمعوا عليه سيكون سبيلًا صالحًا منجيًا عند الله، تبارك وتعالى.

القضية السادسة: أنه أمره ووصاه بأن يلاحظ اليوم الآخر، يوم الحساب والجزاء، يوم أن يُفصل في القضاء بين الناس، دل على ذلك قول الله في هذا النص: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

القضية السابعة: بيان أن الله -تبارك وتعالى- له عِلم شامل، وله إحصاء وإحاطة، مهما كان هذا الشيء صغيرًا أو دقيقًا، فإنه داخل في شمول علم الله وقدرته، داخل في قدرة الله ﷻ التي أحاطت بكل شيء، وقَدرَت على كل شيء، دل على هذه القضية قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

القضية الثامنة: هي الأمر بإقامة الصلاة دل على هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

القضية التاسعة: فتوصية لقمان لابنه بأن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، فدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التكاليف التي اشتملت عليها الرسالات الربانية السابقة للإسلام.

القضية العاشرة: وصية لقمان لابنه بأن يصبر على كل مكروه أصابه، سواء أكان من المصائب التي تنزل من عند الله بالأنفس أو الأموال، أو الأهل أو الأولاد، أو من المصائب التي يواجهها من الناس حامل رسالة الهداية، وصاحب مشعل الدعوة والتذكير، أو كان من المصائب التي يواجهها من الناس حامل هذه الرسالة في مجال أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ودعوته إلى دين الله -تبارك وتعالى- وقد أبان لقمان لابنه أن الصبر على المصائب من عزم الأمور، فمن الأمور التي تحتاج إلى قوة إرادة قوية من مستوي العزم، ودل على هذه القضية قول لقمان لابنه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

والقضية الحادية عشرة: انتقل السياق بعد ذلك إلى جملة وصايا وصَّى بها لقمان، فوصى لقمان ابنه بأن لا يصعر خده للناس، أي: لا يستكبر عليهم بأية حركة تدل على كِبر أو تعالٍ على الخلق، وهذا كما يشمل الفعل يشمل القول أيضًا، يقال لغةً: صعَّر خده، إذا أماله كِبْرًا، وقد علمنا أن النبي ﷺ قال: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) وتصعير الخد كناية عن الكبر على عباد الله؛ لأن عادة المستكبرين أن يميلوا رءوسهم إلى جانب، فيظهر أحد الخدين مائلًا، وقد قال الله تعالى في هذه الوصية: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾.

القضية الثانية عشرة: توصية لقمان لابنه بألا يمشي في الأرض مَرحًا، أي: لا يمشي في الأرض مِشية الفرحين المستكبرين باختيال وتبختر، والمرح في المشي: هو

الاختيال والتبختر، وأصل المرح: شدة الفرح، وتجاوز الحد في الحركات عما يتحلى به الناس عادةً من سَمت واعتدال، ويكون هذا التجاوز عن فرح أخرج النفس عن اعتدالها وسوائها، وبسبب ذلك يتكبر ويتبختر هذا الفرِح الذي تجاوز الحد، دل على هذه القضية قول لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والقضية الثالثة عشرة: هي توصية لقمان لابنه بأن يقصد في مشيه أي: بأن يكون مشيه قصدًا مستويًا متوسطًا بين التكاسل والتضاعف، وبين الإفراط وبين السرعة. فالتباطؤ والتضاعف كسل مذموم، والسرعة الزائدة خفة وطيش، أما الاستواء والعدل مع التوسط بين التباطؤ والسرعة، فهو الذي يدل على الرزانة والعقل، وسلامة الفهم والنفس، دل على هذه القضية قول لقمان لابنه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.

القضية الرابعة عشرة: فإننا وجدنا توصية لقمان لابنه بأن يغض من صوته أي: بأن يخفض، ويُكتفى منه بقدر حاجة المستمعين، وهذا من آداب الصوت للحاجات، أي: من آداب استخدام الصوت لتحصيل للحاجات، وقد أبان له أن رفع الصوت من غير حاجة أمر مستنكر مستهجن، وضَرَب لهم مثلًا بصوت الحمير مبينًا له أنه أنكر الأصوات، ودل على هذه القضية قول لقمان لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. وأصل الغض: النقص من الشيء، ولو لم يفضِ هذا إلى استئصاله، وقد ثبت في الحديث: ((بينما رجل يمشي في بردته يتبختر فيها، إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)) وهذا في (صحيح مسلم) من حديث أبي هريرة > وفي الحديث الآخر: ((إياك وإسبالَ الإزار، فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله جل في علاه)).

كان هذا مما قصه الله تعالى عن لقمان # في كتابه الكريم من الحكم والمواعظ والوصايا، النافعة الجامعة للخير، المانعة من الشر، وقد وردت آثار كثيرة في أخباره ومواعظه، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بـ(حكمة لقمان] ونحن نذكر من ذلك بعضَ ما تيسر من حكمته، أو من أطراف حكمته، أو من منثورات وصاياه:

في حديث الإمام أحمد، عن ابن عمر، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ فقال: ((إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئًا حفظه)).

وعند ابن أبي حاتم: أن رسول الله ﷺ قال: ((قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، إياك والتقنع، فإنه مَخُوفة بالليل، مذلة بالنهار)).

وقال أيضًا: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا ضمرة، حدثنا السري بن يحيى، قال: قال لقمان لابنه: "يا بني، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك"، وكان من وصية لقمان إنه قال لابنه: يا بني،اتق الله ولا تري الناس أنك تخشى الله؛ ليكرموك بذلك وقلبك فاجر.

وأيضًا كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، فقال له سيده: اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال له: ائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، فقال: أَمَا كان فيها شيء أطيب من هذين؟ قال: لا، قال: فسكت عنه ما شاء الله أن يسكت، ثم قال له: اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال له: ألقِ أخبثها مضغتين، فرمى باللسان والقلب، فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين، فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين، فألقيتَ اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابَا، ولا أخبث منهما إذا خبثَا.

وكان من كلمات لقمان لابنه: لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضَى عمله، ولا تهاون بمقت الحكيم، فيزهد فيك.

وقال أيضًا: ألا إن يد الله على أفواه الحكماء، لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له.

وكان -أي: لقمان- يحدث فيقول: يا بني، ما ندمت على الصمت قط، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وعند الإمام أحمد من حديث عبيد بن عمير، قال: قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، اختر المجالس على عينك، فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم، فإنك إن تك عالمًا ينفعك علمك، وإن تك غبيًّا يعلموك، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم. يا بني، لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه، فإنك إن تك عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تك غبيًّا يزيدوك غباء، وإن يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخطٍ، يصيبك معهم، يا بني، لا تغبطنَّ امرأً رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين، فإن له عند الله قاتلًا لا يموت.

وكان يقول أيضًا: لتكن كلمتك طيبةً، وليكن وجهك بسطًا، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء. وقال أيضًا: مكتوب في الحكمة أو في التوراة: "الرفق رأس الحكمة"، وقال: مكتوب في التوراة: "كما تَرحمون تُرحمون"، وقال: مكتوب في الحكمة: "كما تزرعون تحصدون"، وقال: مكتوب في الحكمة: "أحب خليلك وخليل أبيك".

وعن أبي قِلابة قال: "قيل للقمان أي: الناس أصبر؟ قال: صبر لا يتبعه أذًى. قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: من ازداد من علم الناس إلى علمه. قيل: فأي الناس خير؟ قال: الغني. قيل: الغني من المال؟ قال: لا، ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وُجد، وإلا أغنَى نفسَه عن الناس.

وهكذا نرى أن كلمات لقمان الحكيم لابنه ولغيره تأخذ هذا الطابع المشرق، فهو يقول: يا بني، لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.

وفي الحديث عند ابن أبي حاتم: "أنه أتاه جبريل وهو نائم، فَذَرَّ عليه الحكمة، قال: فأصبح ينطق بها".

قال سعيد: سمعت قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عزمةً لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكن خيرني، فخِفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليَّ. وهذا أيضًا فيه نظر؛ لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، قالوا: يعني الفقه في الإسلام، ولم يكن نبيًّا ولم يوحَ إليه. وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف الصالح -رضوان الله تعالى عليهم- منهم مجاهد، وسعيد بن المسيب، وابن عباس -رحمهم الله جميعًا.

مؤمن أصحاب القرية، ومؤمن آل فرعون

أولًا: دعوة مؤمن أصحاب القرية:

أ. أصحاب القرية:

قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم
مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ
أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ

﴿أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن
دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ١٣- ٣٠].

هذا النص العظيم اشتمل على تعليمٍ من الله تعالى لنبيه ﷺ وهو يفيده في معالجة قومه، بأن يقدم لهم صورةً من صور الإقناع الذي يحمل عصَا الإنذار بالعقاب المعجل للذين لم يؤمنوا به رسولًا، ولم يؤمنوا بما جاء به عن ربه من كفارِ مكةَ إبَّان نزول هذه السورة في مراحل الدعوة.

وهذه السورة هي ضرب مثل لِمَا هم فيه من عنادٍ وإصرارٍ على الكفر، بما كان عليه أصحاب قريةٍ وثنيةٍ جاءها مرسلون من غير أهلها، فدَعَوْهم إلى الله ﷻ وإلى التوحيد والإيمان، وإلى نبذ ما كانوا يعبدون من الأوثان، فما كان منهم إلا أن كذبوهم في كونهم رسلَ ربهم، وأكدوا لهم أنهم صادقون مرسلون حقًّا، وأنهم ليسوا مطالبين من ربهم إلا بالبلاغ المبين الموضح لقضايا الإيمان الحق، ولشرائع الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنهم ليسوا مكلفين أن يُلزموا القومَ بأن يؤمنوا بهم، ويتبعوهم إلزامًا جبريًّا وهم كارهون غير راغبين، فالاستجابة لدعوة الرسل ينبغي أن تكون استجابةً اختياريةً إراديةً وطَواعية، لا استجابة جبرية، ولا إكراهًا يشوبها، أصحاب القرية يصرون على تكذيب رسل ربهم، بل ويهددونهم بالقتل رجمًا بالحجارة، وبإنزال عذاب أليم فيهم.

ب- مؤمن أصحاب القرية جاء من أقصى المدينة يسعى:

ونصر هؤلاء الثلاثة رجل من أصحاب القرية جاء هذا الرجل من أقصى المدينة يسعى، وكان هذا في آخر موقف من مواقف دعوة المرسلين الثلاثة لهم، دعاهم هذا الرجل -وهو منهم- إلى الإيمان برسل ربهم إليهم، وإلى أتباعهم، حاورهم، وناظرهم، وأخيرًا رفع عقيرته معلنًا إيمانه بربهم الحق، عندئذٍ التهبت نيران غيظهم منه، وثاروا عليه ثورة الغضب، ولم يجدوا بُدًّا من قتله فقتلوه، فماذا كان له عند ربه؟ كانت المغفرة، وكان الكرم والإكرام، تمَنَّى أن يعلم قومه بما ناله من الكرامة، وبما وصل إليه من الشرف، وبما انتهى إليه من رحمة ربه، فيؤمنوا برسل ربهم ويتبعوهم، لكن الله -تبارك وتعالى- لم يُنْظِرْ أصحاب القرية، ولم يمهل هؤلاء الظلمة بعد أن قتلوا ذلك الرجل الذي نصحهم، وتمنى لهم الخير، حتى بعد موته فإنه لَمَّا نَالَ من ربه الكرامة، دعا اللهَ -تبارك وتعالى- أن يصل ما وصل إليه إلى قومه لعلهم يؤمنون، لكن قد عاجلهم اللهُ تعالى بإهلاكٍ شاملٍ، بصيحةٍ جعلتهم خامدين كنارٍ ثائرةٍ هائجةٍ انطفأت وخمدت فجأةً بلحظة واحدة، قال الله ﷻ: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾. وهذا يدل على اقتران هلاكهم بلهيب ثورتهم، فما إن ثاروا على ذلك الرجل الذي قتلوه، والداعية الصادق الذي أهانوه، حتى نالهم من العذاب المهين ما نالهم، وهذا إنما يكون عَقِبَ قتلهم له مباشرةً، ويظهر أن الرسل الثلاثة انسحبوا لما وجدوا الرجل ينصح قومه ويناظرهم.

جاء التعقيب على قصة أصحاب هذه القرية بعبارة تتضمن التحسر والتفجع على العباد الذين يهلكون أنفسهم في العاجلة، ويعرضونها للخلود في عذاب النار يوم القيامة بكفرهم وعنادهم، وتكذيبهم لرسل ربهم.

ج- منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله:

إن هذا المنهج يدور على ركائز يجب أن يدركها الدعاة، ويمكن أن يتلخص ذلك فيما يلي:

الأمر الأول: أن هذا الداعية بدأ باستعطاف مدعويه إليه، فناداهم بقوله: ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ باعتباره واحدًا منهم، والمنتمي إلى قوم تكون عاطفته القومية ذات حرص على خيرهم، وشفقة عليهم، ورغبة صادقة في نجاتهم وسعادتهم، وجلب كل نفع لهم، ودفع كل ضر عنهم.

والأمر الثاني: أنه وجه نصيحته لهم بأن يتبعوا المرسلين، الذين لم يأتوا ليأخذوا منهم أجرًا، ولا ليحصلوا عندهم على منفعة، بل جاءوا ليبلغوهم رسالة ربهم، وليهدوهم إلى صراطه المستقيم؛ رغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وفوزهم بجنات النعيم يوم الدين، فقَرَنَ النصيحة بالدليل على صحتها من خلال بيان سلامة الرسل الدعاة من المصالح الشخصية الدنيوية لدى المدعوين.

والأمر الثالث: أنه أكّد لقومه صدق دعوة هؤلاء الرسل، واستدل على صدقهم بأنهم مهتدون في أنفسهم، صالحون مصلحون، صادقون في أقوالهم وأعمالهم، منصاعون لِمَا يأمرون به الخلق، فَهُم يطبقون ما يدعون إليه من إيمان وعمل صالح، فلا مآخذ تؤخذ عليهم، ولا مثالب تشكك في نواياهم، أو تتهمهم بسلوك شائن.

الأمر الرابع: تعرض لمحاجة قومه له. فسألوه: هل أنت مؤمن بصدق دعوتهم، تعبد الله وحده كما يقولون، وتنبذ عبادة آلهتنا التي نعبد من دون الله؟

فأجابهم بكلِّ قوةٍ وثباتٍ، بأنه قد آمن فعلًا بما دعوا إليه، وبأنه آمن بالله -تبارك وتعالى- لم يقف عند هذا الحد إيمانه، وإنما أخذ يقيم لهم الحجج البرهانية على

الذي آمن به، أَبَان لهم أنهم يجب عليم أن يؤمنوا بالله ربًّا واحدًا، لا شريك له في ربوبيته، وآلهًا واحدًا لا شريك له في ألوهيته، وإنه لا يصح عقلًا أن يتخذ من دون الله آلهة أخرى، والدليل على ذلك أن كل ما يعبد من دون الله الرب الخالق معبودات باطلة، لا تدفع ضرًّا ولا تجلب نفعًا، ولا تُقبل لها شفاعة عند الله، فمن استحق عذاب الله بسبب كفره وشركه وعصيانه، لم تستطع أن تستنقذه منه، أَبَان لهم أنه إن اتخذ آلهة من دون الله، فإنه يكون منغمسًا في الضلال المبين بعد وضوح الأدلة البرهانية على أن لا إله إلا الله وحده.

والأمر الخامس: إنه لما غضب قومه منه؛ بسبب خروجه عن ملتهم، واتِّباعه للمرسلين، هُدِّدَ بالقتلِ إن هو لم يعد إلى ملتهم، ويصر الرجل هنا بشجاعة وصبر وثبات على موقفه، ورأى أن يبقى معلنًا إسلامه لله، مجاهدًا في سبيله، مناديًا في القوم بأعلى صوته أمام الجمهور: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾، وعندها يفعل القوم فِعلتهم الشنعاء، فيقتلوه، فيغفر الله له ويرحمه ويكرمه، فلما شهد هذه الكرامة من الله ﷻ وهذه المغفرة وهذا النعيم، جعل يقول: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾.

د. الآيات تضمنت ثلاثة عناوين لثلاثة موضوعات:

الأول: دعوة قومه إلى الإيمان بهؤلاء الرسل الثلاثة، مثبتًا أنهم رسل صادقون، ليسوا بكذابين.

الثاني: تأكيد الدليل على صدق هؤلاء الرسل الثلاث، بأنهم ليسوا بأصحاب مصالح شخصية، ولا مطامع دنيوية، وإنما هم دعاة إلى الله، ينبذون الشرك بالله، ويدعون إلى وحدانية الله، وإفراده تعالى بالعبادة، لا يسألون القوم أجرًا، ولا يطلبون منهم مالًا، وهم غير متهمين في دعوتهم.

الثالث: تأكيد صدق هؤلاء الرسل في دعوتهم؛ لأنهم في ذواتهم على الحق مهتدون، وهم في أخلاقهم ومعاملتهم وعباداتهم ملتزمون، بالصدق والعدل والعفة والزهد والشجاعة، وكل ذلك من صفات هؤلاء المرسلين، ولهذا قال: ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

ويبدو أن القوم فوجئوا بمداهمة رجل منهم لمجامعهم ومحافلهم؛ بُغيةَ أن ينصر الرسل الثلاثة الذين لم ينتهوا عن دعوتهم.

هـ- الذين قُتلوا في سبيل الله عند ربهم يُرزقون:

يظهر للمتأمل من إيحاءات النص: أن ملأ أصحاب القرية قالوا لرجلهم: إذن فقد آمنت بهؤلاء الرسل وتركت دين قومك؟ قال: نعم، ويُتْبِعُ هذا الاعتراف بإقامة الحجة العقلية البرهانية على صحة ما آمن به، فقال لهم: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾.

فما كان منهم إلا أن قتلوه، وقضَى نحبه سعيدًا شهيدًا حميدًا. وقد صح عن نبينا ﷺ كما روى مسلم والترمذي في حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أرواح الشهداء في جوف طير خُضر، لها قناديل معلقة تحت العرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد إلينا أرواحنا في أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا، فنُقتل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة، تُركوا)).

وهذا المعنى يفسر ما ثبت في كتاب الله تعالى من كون الذين قتلوا في سبيل الله عند ربهم يُرزقون.

وبهذا نكون قد أتينا على المهم من هاتين القصتين العظيمتين من قَصص القرآن الكريم ؛ قصة لقمان الحكيم ، وقصة مؤمن آل ياسين.

ثانيًا : دعوة مؤمن آل فرعون :

أ- من هو مؤمن آل فرعون؟

قال الله -تبارك وتعالى- في محكم تنزيله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن
يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن
يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا
عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ
إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ

ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ
هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن
ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ
حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ
إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ
وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا
مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ
وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٢٨ - ٤٦].

ساق القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون مَساقًا عجيبًا عظيمًا مدهشًا يحير الألبابَ، المشهور: أن هذا الرجل المؤمن كان قِبطيًّا من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى ﷺ وقد اختار هذا القول ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليًّا؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمع، وكف عن قتل موسى، ولو كان إسرائيليًّا لربما عاجله بالعقوبة؛ لأنه منهم.

وقال ابن جرير أيضًا: عن ابن عباس } : "لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ ﴾ [القصص: ٢٠]، وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر لهم إيمانه إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ

مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، فأخذت الرجل غضبة في الله، فقال هذه الكلمة: ((وأفضل الجهاد، كلمةُ حقٍّ عدلٍ عند سلطان جائر)).

ب- سبب إظهار إيمانه، ومنطقه السديد في الدعوة:

في هذا النص الذي قرأناه يظهر من خلاله فحوى دعوته، هذا النص عرض لتلك الدعوة التي قام بها ذلك الرجل المؤمن، والذي كتم إيمانه مدةً من الزمان، ويظهر أنه كان له صلة بمجلس شورى فرعون؛ لأنه وُصف في كتاب الله بأنه من آل فرعون، والآل من الأسرة: هم أشرافها وأعيانها وكبراؤها -وكما قدمنا- أن السبب الذي دعاه إلى أن يكشف عن إيمانه، هو أنهم أرادوا أن يقتلوا موسى # فقام غضبانَ قائلًا: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾. وهذه الكلمة منه أظهرت إيمانه، وعندئذٍ صار هذا الرجل يدعو قومه دعوةً مباشرةً ظاهرةً، كشَفت عنها آيات كتاب الله العزيز في هذه القصة العظيمة.

رأينا أن نصح هذا الرجل كان معتمدًا على عقلٍ راجحٍ، ومنطقٍ سديدٍ، فإنه قال لهم: إن العقل يقضي بأنه لا يخلو أمر موسى من أن يكون كاذبًا أو صادقًا، فهذان احتمالان لا ثالث لهما.

أما عن الاحتمال الأول -وهو أن يكون موسى كاذبًا- فإن إبقائه حيًّا وعدم التعرض لقتله، لا يضر بشيء؛ لأنهم أصحاب القوة والسلطان، وموسى ومن معه قوم عاجزون ضعفاء مستضعفون.

وأما عن الاحتمال الثاني -وهو أن يكون صادقًا، وأن يكون رسولًا مبعوثًا من عند الله حقًّا- فإن أقل ما يتوقع أن يصيب آل فرعون بعض الذي توعدهم به إذا تعرضوا لقتله.

وهنا نرى أن فرعون أراد أن يحسم الأمر، ولا يدع مجالًا لذلك الرجل أن يزايدَ عليه في هذه الدعوة، فما كان منه إلا أن قال: ﴿أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾، وهذا الرأي الذي أراه هو الذي أراه لنفسي، وما أهديكم في عرضي عليكم أن أقتل موسى إلا سبيل الرشاد؛ لأن في ذلك الحماية لكم ولُملككم مما سيحدثه هذا الرجل من الفتنة. وطبعًا كان هذا من فرعون من غاية المكر، والعِياذ بالله.

ج. اغتنام الفرصة لبذل النصيحة ومجادلة قومه له:

الرجل المؤمن من آل فرعون شعرَ بأنَّ الفرصةَ قد واتته، وأنه قد تهيأ الوضع لِأَن ينصح فرعون، وأن ينصح مجلسه ووزراءه ومستشاريه، وكان لهذه النصيحة أثرها، فإنه كان سببًا في منع إصدار ذلك القرار الظالم بقتل موسى، وتحول من وقته داعيًا إلى الله، منذرًا عقوبته، ومحذرًا مما سينزل بقومه، ومذكرًا بسنة الله في إهلاك السابقين من المعاندين والمكذبين، ثم بعد هذا انتقل إلى تحذيرهم من عذاب الله ﷻ يوم القيامة، وأظهر أن عقيدة البعث بعد الموت للحساب والجزاء كانت من العقائد المعروفة عندهم والمتوارثة لديهم، وأن الله -تبارك وتعالى- هو الحَكم يحكم بين عباده يومئذٍ، فَمَن يحكم الله تعالى عليه بالضلالة فلن يجد من يحكم له بالهداية.

وقد ذكرهم في سياق ما ذكرهم به بقصة يوسف # وأن يوسف كان في مصر، وأن يوسف # الذي نشر دعوة التوحيد، ما زالوا متشككين هل هو مرسل من عند الله أم لا؟ حتى إذا ما تحققوا من هذا، ولكنهم قالوا: إن الله تعالى لن يبعث من بعده رسولًا، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الآثام والطغيان، وهذا كان فيه من إقامة الحجة عليهم، ومن اشتداد الساعد في دعوتهم، ما جعلهم يتألبون عليه ويجادلونه بالباطل، لَمَّا كشف عن إيمانه وعقيدته جعلوا يناقشونه نقاشَ المبطلين،

وخشي فرعون أن يتأثر بعض الملأ بمجادلته، فجعل يعلق الأمر على ما لا يمكن أن يتعلق به، عَلَّقَ الأمر على أنه لا بد من وجود وسيلة نتعرف بها على صدق هذا الدعي -يعني: موسى- فماذا كان: طرح وسيلة يطول أمد تحقيقها، فقال لوزيره الأول: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ أي: قصرًا عاليًا، لعلي أبلغ إلى أسباب علوية، أصِلُ بواسطتها إلى السموات، فأعرف عندما أطلع: هل هناك إله في السموات أم لا؟!.

وطبعًا كانت هذه حيلة من حيل الشيطان حين علق هذا الأمر على شيء يتعذر تحقيقه، وهذا فيه من استخفاف قومه ما فيه؛ لأنهم إما سُذج، يرَوْن أن لفرعون قدرات تمكنه إذا بنَى الصرح العالي من اتخاذ أسباب توصله إلى السماء، وهنالك سيطلع إلى إله موسى، وإما شياطين مثله يواطئونه على ضلاله؛ إما أنهم سذج أو أنهم من الشياطين الموافقين الذين يعرفون حيله وأكاذيبه، ويعملون معه على ترويجها.

والظاهر الثاني بأن الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، عندئذٍ رأى رجل من آل فرعون -وقد انكشف أمره- أن ينطلق داعيًا إلى سبيل ربه، وإلى دينه الذي جاء به موسى وهارون بين المِصريين، بعد أن وجد أن دعوته داخل القصر قد صارت غيرَ مُجْدِيَةٍ، وأن فرعون قد أبعدها إلى أجل لن يأتي بعد، فجعل ينادي في قومه: يا قوم، يا قوم! كل ذلك يستعطفهم ويلين العبارة لهم؛ عسى أن ينتفعوا بدعوته، يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فجعل قومه يجادلونه بالباطل، ويدعونه إلى ترك الدين الذي فارق به دين آبائه وأجداده وقومه، وإلى أن يعود إلى دين الشرك الذي هم عليه، فجعل يقول لهم: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، يا قوم، إنكم تدعونني لأكفر بالله الحق، وأشرك به ما ليس لي به علم، يا قومي، لا ريبَ في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة حقيقية ذات أثر في الدنيا ولا في الآخرة، يا قوم، إن مردنا ومصيرنا ومآلنا إلى الله ﷻ هو الذي يبعثنا بعد موتنا، وهو الذي يقضي بيننا إذا حاسبنا وجازانا، يا قوم إن الإسراف لا يُعْقِبُ إلا النار -والعياذ بالله- إن المسرفين على أنفسهم بالكفر والمعصية هم أصحاب النار.

ثم ينتهي إلى تذكيرهم وخوفه عليهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠- ٣١]، إنه يحذرهم وينذرهم ويبين لهم الخطر الذي هم مقدمون عليه، لكنه يجد القوم معاندين رافضين مستكبرين فاسقين، فلما وصل إلى ما وصل إليه، علِم أنهم لا ينتفعون ولا يرعوون، فقال لهم: قد قدمت لكم غاية ما عندي من النصح، فأبيتم واستكبرتم، ثم أنتم تعملون على أن تتخلصوا مني، فلا مسئولية عليَّ عند ربي تجاهكم، فقد قمت بواجبي، وبذلت وسعي، واستفرغت جهدي، ولم يبقَ إلا أن أفوض أمري إلى الله بشأن ما تدبرون ضدي، إن الله بصير بالعباد، فهو الذي يقي ويحمي.

د- أراد قومه به الكيدَ، فنجاه الله تعالى:

كانت هذه دعوة ذلك المؤمن، دعوة مؤمن جاهد في الله ببيان قوي وحجج ظاهرة، وصابر وصبر، وتابع ولم يخف، وأقبل على الدعوة إلى الله في عزم واجتهاد، في توكل على الله وصبر ومضاء، في تفويض كامل، ونية صحيحة، وهِمة وعزيمة وعمل، استحق أن ينزله الله -تبارك وتعالى- في خاتمة كتب المنزلةَ

اللائقةَ به حين عرَضَ لقصته، فنوَّه بذكره، وأشاد بفعله، وأثنى عليه، والظاهر أنه قد مكر به آله وأصحابه، وعزموا على أن يوقعوا به سيئات متعددات من سَجن وتعذيب ومصادرة ممتلكات وقتل، ونحو ذلك، أو جميع ذلك، لماذا؟ لأنه أعلن خروجه عن مِلتهم، وأعلن متابعته لدين الله الحق، وأعلن التزامه بنصرة هذا الدين، وبالدعوة إليه بين شَعب قومه؛ نصحًا، وأمرًا بالمعروف، وجدالًا بالتي هي أحسن، أرادوا به الكيد، فنجاه الله تعالى، فوقاه سيئات ما مكروا، وأنزل بفرعون وآله سوء العذاب، فأغرقهم في اليم بما كانوا يظلمون ويفسقون، وهذا يدل على أن الحادثة قد كانت قرب ملاحقة فرعون لموسى، وأنها كانت في الحلقة الأخيرة من حلقات هذه القصة.

وهذه سنة الله في معظم دعاته سواء كانوا من الأنبياء، أو من الصالحين المصلحين، أو من الحكماء الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- بحكمة وموعظة حسنة، كما قال سبحانه عن هؤلاء وعن عاقبتهم من نصرة الله -تبارك وتعالى- لهم: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

ثالثًا: تبلور فكرة حول منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله:

أ- منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله:

إن هذا المنهج يدور على ركائز يجب أن يدركها الدعاة، وهي التدرج في الدعوة، وذلك على النحو التالي:

١- الدعوة العامة:

بدأ هذا الداعية الناصح أول ما بدأ بدعوة قومه دعوةً عامةً، على اعتبار أنه واحد منهم، وأنه إنما يحمله على ذلك أنه ينفعه ما ينفعهم، ويضره ما يضرهم، وأنه

يحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، فهو يتقدم إليهم بنصح محض؛ لأنه يريد بهم الخير، ويطرح نصحه في قالب فكري عقلي واضح، مبينًا الاختيارات التي أمامهم، وما هي الخيارات الأنسب، وما الذي ينبغي أن يأخذوا به.

٢. التحذير من الجزاء المعجَّل في الدنيا:

ثم ينتقل تدريجيًّا إلى تحذير قومه أن ينزل بهم عقوبة مثل عقوبات الأولين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾.

٣. التحذير من الجزاء المؤجل يوم القيامة:

ثم ينتقل من التحذير من الجزاء المعجل لهم في الدنيا إلى التحذير من الجزاء المؤجل يوم القيامة؛ لأن هنا ارتباطًا، فالقضية الإيمانية قضية واحدة، والجزاء عليها كما يكون في الدنيا يكون في الآخرة، فحذَّرهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة، هذا أيضًا من القضايا التي لديهم حولها اعتقاد موروث عما تلقَّوْه من يوسفَ # الذي كان ذا سلطان في قصر فرعون.

٤. تذكيرهم برسالة يوسف # :

حيث كانوا في شك من رسالة يوسف # فلما مات عرفوا رسالته، والهدف من هذا التأكيد على قضية النبوة والرسالة التي هي إحدى قضايا الإيمان الكبرى، فلما قابلوه بالمجادلة المبطلة، جادلهم هو بالتي هي أحسن، فأقام الحجج ظاهرة، وهنا حاول فرعون أن يقطع المناظرة بدهائه وخبثه، حيث اقترح وسيلة للتحقق من نبوة موسى # ببناء صرح عالٍ يرتقي فيه؛ ليطلع إلى أسباب السموات،

فيعلم هل هنا من إله أم لا؟! وهذه وسيلة لا تتحقق إلا بعد أمد طويل تغرق في بحره هذه القضية التي قامت من أجلها المناظرة.

٥- توجيه الدعوة إلى جمهور الناس:

بعد أن دعا هذا الداعية بين هؤلاء الملأ، رأى أن ينتقل إلى أن يواجه جمهور الناس إذا كان الملأ لا يستجيبون، فلا شك أن في القاعدة -التي هي قاعدة المجتمع الواسعة- مَن قد يقبل أو من يسمع أو من يفهم ويستفيد الإيمان، فوجه الخطاب للشعب المصري عمومًا، يبشر بأسس الإيمان، ويؤكد على قضية الدينونة والجزاء، والإيمان باليوم الآخر وما يقع فيه من حساب.

النتيجة: أن يجادله قومه كما جادله أولئك الملأ، فلا شك أن في القوم كبراء، وأن فيهم أيضًا أصحاب عقل، فجعلوا يجادلونه بالباطل أيضًا؛ ليثنوه عن دعوته، وليعيدوه إلى ملتهم، فجادلهم بالحق وقذف بحجج البينات على شُبهات الباطل فبددها، ثم إنه كان في دعوته إياهم داعيًا إلى الخير، داعيًا إلى النجاة، وبين لهم أنما يدعونهم إليه إنما هو إلى الشر والنكال والبوار، وعذاب النار -والعياذ بالله تعالى-. هذه هي خلاصة منهجه الدعوي.

حاصل القول: يدرك المتأمل أن مؤمن آل فرعون سار على منهج رسلِ الله تعالى في دعوتِهِم إلى اللهِ؛ حين كانوا يدعون أهل الكفر والشرك بالله، وهو منهج يعتمد المزاوجة، والجمع بين خطاب العقل والوجدان، ويعتمد على البدء بالرفق والإقناع، ويعتمد على محاولة اكتساب الثقة، والاعتماد على المسلمات المشتركة التي هي من الأسس الفكرية العامة، وهو يركز على قضايا الاعتقاد بالدرجة الأولى ومسائل الإيمان، ثم ينتقل شيئًا فشيئًا إلى مواطن الخلاف، وتقديم الحجج الصحيحة التي تفيد في الإقناع والهداية.

ب. نجاة مؤمن آل فرعون، ومآل قومه الذين كذبوه:

بين الله -تبارك وتعالى- عاقبة مؤمن آل فرعون وعاقبة آل فرعون بعد أن مكروا به، قال -جل من قائل-: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

جعل الله تعالى بينه وبين سيئات ما مكروا وقاية؛ أي: جعل الله -تبارك وتعالى- له الحفظ والعناية، فلم يصبه من مكرهم شيء، ويظهر -كما قدمنا- أن هذا كان قرب خروج موسى ببني إسرائيل من مصر في اتجاه سيناء، وملاحقة فرعون وآله وجنوده لهم، وانتهى الأمر -كما هي النهاية المحتومة لكل ظالم- أن ينتقم الله ﷻ منه، قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾. ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي: أحاط وأصاب آل فرعون سوء العذاب أي: عذاب السوء -والعياذ بالله تعالى- ما هو؟ غرقوا في هذه الدنيا، فأدخلوا في برزخهم النار، غرقوا في الدنيا، ثم لَمَّا آلوا إلى حياة البرزخ، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ ﴾. وأما الآخرة فدل على سوء عذابهم فيها قولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ﴾.

وهذه آية تصلح كدليل على ثبوت عذاب القبر والبرزخ، وفرعون يوم القيامة هو مقدم قومه إلى النار -والعياذ بالله- كما كان في مقدمتهم في الدنيا فهو في مقدمتهم إلى جهنم -والعياذ بالله- كما قدمهم إلى الشر، وأقدمهم على الفساد والعصيان والكفر والطغيان في دار الدنيا، فإنه أيضًا يوردهم النار -والعياذ بالله- كما قال -جل من قائل عليمًا- في سورة هود: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨ ﴾ [هود: ٩٦- ٩٩].

أصحاب الكهف

أولًا: سورة الكهف:

احتوت سورة الكهف على عدد من القصص؛ منها:

أ. قصة أصحاب الكهف.

ب. قصة أصحاب الجنتين.

ج. قصة موسى # مع العبد الصالح.

د. قصة ذي القرنين.

ثانيًا. قصة أصحاب الكهف:

١. سرد أحداث القصة، وبيان ما فيها من عبر وأحكام:

أ. شعاع من النور في بحر الظلمات:

هي قصة بيئة وثنية تمكَّن منها الكفر، وسيطر على قلوب أهلها، وساروا جميعًا في طريق الباطل، واتفقوا عليه، وتعاهدوا، وتعاقدوا، وكان هذا الضلال هو الذي لا يُسمع غيره، ولا يعلو صوت إلا صوته.

في خِضمِّ هذه البيئة اهتدى فِئةٌ من الشباب إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، فامتلأت القلوب بحقيقة التوحيد ونور الإيمان، وأدركوا أن ما حولهم زخرف باطل، لا حقيقة له، ولا ثبات ولا دوام له، وأن هذا الباطل لا يمكن بحالٍ أن

يكون له الدوام أو البقاء، ثم إنه على هذه الحالة كانوا شيئًا عجيبًا في وَسَطِ هذه البيئة الوثنية، ولذلك قال -جل من قائل-: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٩، ١٠].

ب- القصة مع ما فيها من إعجاز من آيات الله ما هو أعجبُ منها:

فالله تعالى يخبر عن هؤلاء على سبيل الإجمال وهو يخاطب نبيه ﷺ فيقول: أم حسبت يا محمد، أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا أمرًا عجيبًا في قدرتنا وسلطاننا، إن قدرة الله التي خلقت السموات والأرض، وبها اختلف الليل والنهار، ومن أجلها وقع تسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة التي تدل على طلاقة هذه القدرة، لا يكون فيها شيء يُستغرب أو يكون من آياتها شيء لا ينقضي منه عجب، لماذا؟

لأن هؤلاء لم يكونوا بأعجبَ من خلق هذه السموات والأرض، ولهذا قال -جل من قائل عليمًا-: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾. أي: في آيات الله ما هو أعجب من ذلك وأغرب.

وذهب بعض أهل العلم: إلى أن المعنى أي: أن الله تعالى يقول للنبي ﷺ: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال بعض المؤرخين: إن ما أظهر الله -تبارك وتعالى- من الحُجج والعباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

ج- الكهف والرقيم:

والكهف: هو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفِتية الذين ذكر الله تعالى خبرهم في كتابه.

وقد قيل: إن الرقيم هو وادٍ قريبٍ من "أيلة". وقيل: إن الرقيم اسم الوادي.

وقال مجاهد: الرقيم هو كتاب بنيانهم. وبعضُهم يزعم أنه الوادي الذي فيه كهفهم، أو الجبل الذي فيه ذلك الكهف.

هناك أقوال كثيرة؛ حتى أنه روي عن ابن عباس أنه قال: "ما أدري ما الرقيم؟ كتاب أم بنيان؟"، وإن كان قد نقل عنه أن الرقيم هو: الكتاب. وأن هذا الرقيم: لوح من حجارة كُتب فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضع على باب الكهف.

على كل حالٍ الرقيم لا يعدو أن يكون رقيمًا بمعنى: مرقوم، أي: "فَعيل" بمعنى: "مفعُول" كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح.

د- بذل النصيحة، ثم الفرار بالدين خشية الهلاك:

وهؤلاء الفتية آووا إلى الكهف فقالوا: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، هذا يدل على أنهم فروا بدينهم من قومهم؛ لئلا يفتونهم عن دينهم، هربوا إلى ملجأ يلتجئون فيه، إلى غارٍ في جبل ليختفوا عن قومهم، ذلك أنهم حينما أظهروا ما أظهروا من الإيمان، وأنكروا ما أنكروا من الكفر والعصيان، وقع عليهم ما يخشون، وخافوا وحذروا من قومهم أن يبطشوا وأن ينكلوا، ففروا منهم لَمَّا خافوهم، وعندما دخلوا هذا الكهف، قالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى الرحمةَ واللطفَ والإيناسَ من الوحشة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾. أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا بها عن أعين قومنا: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. أي: وقدر لنا في أمرنا الذي خرجنا لأجله وبسببه، وهو أمر الإيمان، اجعل لنا فيه رشدًا أي: اجعل عاقبتنا إلى الرشاد وإلى الهداية، وكان نبينا ﷺ يدعو،

فيقول: ((اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة)).

يقول الله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]، أي: ألقى الله ﷻ عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين طويلة، ثم بعثهم الله من رقدتهم، وأخرج أحدهم ليشتري لهم طعامًا يأكلونه -كما سيأتي بيانه- وهذا كما قال الله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢]، المختلفين فيهم أي: الحزبين اللذين اختلفا فيهم: ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢] أي: عددًا.

والله -تبارك وتعالى- أيقظهم من نومتهم الطويلة، فهو أمر يشبه بعث الموت، وعلم الله تعالى لا يحده زمان ولا مكان، فهو خالق الزمان والمكان، ولا يُقارن بعلم المخلوق المحدود مهما بلغ، وعلم الله ﷻ الذي أحاط بكل شيء علمًا، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولذا نجد أهل الإيمان يستخيرون الله في كل شأنهم، ويرجعون الأمر إلى الله تعالى في كل حالهم.

هـ- من هم الحزبان؟

وإذا كان لسائل أن يقول: مَن هم الحزبان؟ أيُّ الحزبين؟ نقول: هل حزب الكفر وهو الذي يتمثل في الملك وشيعته، وهؤلاء الفتية هم الحزب الثاني؟ لكن هذا قد لا يكون مقبولًا؛ لكون من شاهدوا ذهاب هؤلاء الفتية عن أرضهم قد توفاهم الله، أم هل الحزبان فريقان داخل الفتية أنفسهم؟ أم أن المقصود بذلك قوم آخرون اختلفوا في شأن هؤلاء أي: في شأن أصحاب الكهف؟ المهم أن الله -تبارك وتعالى- ذكر هذه القصة فقال: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣] والقَصص القرآني حق كله.

و- الشباب ودوره في إقامة الدين:

لكنه أخبر أنهم فتية، وهذا يدل على أن سن الشباب هو سن القوة والفتوة، وهو سن الاهتمام بإقامةِ دينِ اللهِ ﷻ واجتناب المحارم، واستعجال المكارم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم فتية آمنوا بربهم، فالإيمان مِفتاح كل خير، والهادي إلى كل رشد، وزادهم الله تعالى على إيمانهم هدًى، فَيسَّرَ لهم العمل الصالح، ويسرهم لصالح الأعمال، وباعدهم من الدنيا، وزهدهم فيها، وهذا يدل على زيادة الإيمان، فهذا يدل على أن الله -تبارك وتعالى- كما هداهم للإيمان وفقهم للعمل الصالح وزادهم هدًى.

ز- الربط على قلوب الفتية بالإيمان:

ثم إنه أكرمهم بكرامة أخرى، فقال: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ [الكهف: ١٤]، والربط على القلب يكون بنور البصيرة التي لا تَعرف إلا الحق، وقد فعل الله تعالى ذلك لأم موسى، كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠]، ونحن نرى ونلمس أن كثيرًا ما يتنزل على قلب المؤمن من السكينة والرحمة ما يربط على قلبه في شدةٍ تصيبه، أو في أمر يهدده، أو في وَحشة تفزعه، ينزل على قلبه من السكينة والرضا ما يربط الله به تعالى على قلبه، ويحفظ الله تعالى به عليه إيمانَه ويقينَه.

ح- قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل معانٍ ثلاث:

أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبتَه.

الثاني: أنهم أولادُ عظماء تلك المدينة، خرجوا واجتمعوا ورائها من غير ميعاد، فقاموا جميعًا فقالوا ما أثبته القرآن: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الثالث: يعبر عن القيام بدعوتهم إلى الله ﷻ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، إلى آخر ما تلا ذلك. فواجههم قومهم بما يكرهون، فعزموا على الهروب إلى الله تعالى، ومنابذة الناس والخروج من بين ظهرانيهم؛ خشيةَ أن يُفتنوا في دينهم، وهذا المعنى معنًى مقبول لا غبارَ عليه، وأنهم خرجوا لما خافوا الفتنة في دينهم، خرجوا بعد أن قاموا بواجب الدعوة إلى الله تعالى، قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهذا جمع بين الربوبية والألوهية، فكل الخلق لله -تبارك وتعالى- هو وحده الخالق، وهو وحده الرازق المدبر، وهو وحده المعبود، ولذا جمعوا بين الربوبية والألوهية، فقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، أي: لا نعبد ولا نقر بالعبودية لأحدٍ سوى الله، فهو وحده الإله المستحق للعبودية، وحده مالك كل شيء، وحده المتصرف في كل شيء، وحده الذي يُصلَّى له ويركع له ويسجد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ولهذا كان العجب لا ينقضي كما قال الله: ﴿وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، فهؤلاء الفتية قاموا فقالوا هذا القول الذي يرضي الله ﷻ.

ثم إنهم نظروا إلى حال قومهم، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، هذا وصف لحال المجتمع من حولهم، والكفر الذي كان عليه قومهم، وما كانوا عليه من التعاسة والبآسة التي كان سببها ظلمهم وافتراءهم على الله ﷻ الكذب.

ط- قومهم أشركوا مع الله غيره بلا برهان ولا حجة:

لم تبين الآيات معبوداتهم من دون الله، ما هي؟ لكن الذي يعنينا أنهم عبدوا مع الله غيرَه، وأنهم أشركوا بالله تعالى سواه، ولم يكن لهؤلاء القوم من بينة ولا من حجة، ولهذا قال هؤلاء الفتية: ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ لولا يأتون على عبادتهم غير الله بسلطان أو بحجة بينة ظاهرة، والمراد أنهم لا حجة لهم فيما أشركوا به، ولا حجة لهم فيما عبدوا معه، وقد وردت آيات كثيرةٌ تدل على ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقال -جل من قائل-: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٥]، ولهذا رأى هؤلاء الفتية: أن يعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله.

ي- اعتزال قومهم والإيواء إلى الكهف فرارًا بالدِّين:

ثم ظهرت لهم فكرة هذا الكهف، فأووا إلى هذا الكهف يسألون الله -تبارك وتعالى- أن ينشر لهم من رحمته، وأن يفيض عليهم من بركته، وأن يهيأ لهم من أمره رشدًا، فدخلوا ذلك الكهف، وهذه الآية تفيد أنهم آثروا العزلة عن الفتنة في دينهم، فلما دخلوا الكهف وقع ما وقع من الله -تبارك وتعالى- فقد ضرب على آذانهم، فناموا نومةً طويلةً في ذلك الكهف، حتى قصَّ الله تعالى خبرهم، بل قَصَّ الله تعالى كرامتهم التي أجراها لهم، وقال -جل من قائل-: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن

يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، اقتضت حكمته -تبارك وتعالى- أن يكرم هؤلاء بإجراء الأمور غير العادية لهم؛ حتى تكون آية مضروبة في حال هؤلاء الذين اعتزلوا عبادة غير الله، وأعلنوا توحيدهم لله، وأنكروا على أقوامهم، وهداهم الله تعالى وزادهم هدًى.

ك- الحكمة من تقليبهم يمينًا وشمالًا:

وقد وصف الله تعالى حالهم، فقالوا: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: ١٨]، نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال؛ كي لا تأكل الأرض أجسادهم، أو يحدث لهم- ما يعرف طِبيًّا- بقُرح الفراش، وهذا التقليب فيه حفظهم، وفيه العناية بهم.

ل- الحكمة من وجود الكلب وذكره في القصة:

قال: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾، يتكلم العلماء في شأن هذا الكلب كلام له معناه، حيث قال ابن كثير: وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن بأنه صحِبَ هؤلاء الأبرار.

قال القرطبي: وهذا الذي تمسك به أنس -يعني: حديث: ((...أنت مع مَن أحببتَ)) يشمل من المسلمين كل ذي نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين. كَلْبٌ أحب قومًا فذكره الله معهم، فكيف بنا وعندنا عقيدة الإيمان، وكلمة الإسلام، وحب النبي ، ﷺ.

وجود ذلك الكلب على هذه الهيئة أمام باب الغار أو في فِناء ذلك الكهف، يجعل الأنظار تبتعد عنه، فبذلك تُحفظ نفوسهم، ويتغير اتجاه الشمس فيتقلبون يمنةً ويسرةً، ويحفظون بهذا التقلب والتقليب، وتدخل إليهم الشمس، فتطهر أجسادهم مما عساه أن يكون سببًا في فساد أجسادهم، ويبدو أنهم أُلقي عليهم ما يخيف، كما قال الله تعالى: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾، حتى لا يدخل عليهم أحد، ولا يفكر أحد في أن يقترب منهم حتى ينفذ قدر الله، ويبلغ الكتاب أجله، وتنتهي تلك المدة التي أراد الله ﷻ أن تمضي عليهم.

م- من حكمة بعثهم: التساؤل عن مدة نومهم:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩].

﴿ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي: كما ضربنا على آذانهم، وكان من أمرنا نومتهم هذه التي عجب لها الناس، أيقظناهم من رقدتهم على ما كانوا عليه من هيئة لم يفقدوا شيئًا، وقد بين قدر هذه المدة في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥]. ابن كثير- رحمه الله- يقول: وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وهم حال بعثهم لم يشعروا بأن زمنًا طويلًا قد مضَى، فَلَمَّا سَأَلَ سائل منهم: كم لبثنا في هذه النومة؟ ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فإن هذه أكثر مدة ينامها إنسان، إما أن ينام يومًا أو أن ينام أقل من ذلك، فَهُم بذلك اجتهدوا وتكلموا بغالب ظنهم، وهذا الاجتهاد منهم لِمَا اعتقدوا وفهموه. ثم إنهم رأوا أن ذلك لا طائل منه ف﴿ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾.

ن. طلب أزكى الطعام بتلطُّفٍ وتخفٍّ:

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]

أراد الفتية أن يأكلوا، فرأوا أن يرسلوا واحدًا منهم بشيءٍ من السرعةِ والخِفةِ؛ ليخرج إلى المدينة فيأتي لهم بشيء من الطعام: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾، فهم يبحثون عن الطعام الطيب الطاهر الزكي، وهذا شأنُ أهلِ الصلاح دائمًا: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾، يعني: يتخفَّى، وأن يشتري، وأن يبتاع بشيء من الاستتار: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾، أي: لا يخبر أحدًا بشأنكم، ولا يكون بسبب أسلوبه ومعاملته سببًا في معرفة شأنكم.

ثم بينوا علة هذا التلطف والتخفي، أنهم يخشون إن ظهروا عليهم أي: عرفوا مكانهم، أن يرجموهم، أو يفتنوهم في دينهم فيعيدوهم إلى ملتهم، ولن يكون في هذا فلاح لهم أبدًا. وهذا حال كل من كفر وأعرض واستكبر مع كل مَن آمَن وأصلح واهتدى.

س. من حكمة بعثهم: تقرير حقيقة أن وعد الله حق:

ثم إن الله -تبارك وتعالى- أعثر عليهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]، كما بعثهم بعد نومهم أو موتهم بيقظة، وكذلك أعثر عليهم أي: جعل أهل من المدينة يطلعون عليهم ويعرفونهم؛ ليظهر العلم للمنكرين أن وعد الله حق في إكرام أوليائه، وفي نصرة من ينصر دينه، وفي تولي المؤمنين، ووعد الله -تبارك وتعالى- حق لا يتخلف، وقد ظهر هذا الحق في هذه القصة، كما ظهر من قبلُ في سورة البقرة لَمَّا تكلم الله

-تبارك وتعالى- على ذلك الذي مَرَّ على القرية وهي خاوية على عروشها، فعجِبَ، واستبعد أن يحيي الله ﷻ هذه القرية بعد موتها: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِأْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، إلى آخر القصة.

ع- التنازع في أمر الفتية:

ثم إن هؤلاء الذين تنازعوا بينهم من أهل تلك المدينة لَمَّا رأوا الآية الباهرة -آية هؤلاء القوم، أهل الكهف- تنازعوا فيما بينهم: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، ذهب الناس فيهم مذاهب؛ فمنهم: من رغِبَ في بناء بنيان عليهم أي: على باب الكهف، ولكنَّ فريقًا آخر وصفوا في كتاب الله بأنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أرباب الغَلَبة، رأوا بناء مسجد عليهم يُصلى فيه، ويتبارك بهم؛ لِمَا رأوا من العجائب والكرامات التي أجراها الله لهم، وقد وردت الأحاديث تَنهى عن ذلك في ديننا، قال نبينا ﷺ كما في حديث عائشة > : ((لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ))، وهذا يدل على النهي عن ذلك، ويدل على النهي على إطراء الأنبياء فَمَنْ دونهم من الصالحين.

ف- الاختلاف في عدد أهل الكهف:

ثم نقل القرآن الكريم اختلاف الناس في عدتهم؛ هم ثلاثة رابعهم كلبهم؟ أم خمسة سادسهم كلهم؟ أم سبعة ثامنهم كلبهم؟

كل ذلك يُرد علمه إلى الله، فإن البشر ليس لديهم مرجعية يرجعون إليها في الأمور التي غيبت عنهم، وإنما هو الحَدْس والتخمين، وهذا يعقب خلافًا أو

اختلافًا، وهذا الاختلاف حين يقع يقعُ مذمومًا؛ لأنه يقوم على الهوى والمعاندة والكِبر، ويقع ضد الأدلة القطعية الواضحة الدلالة، ومنه المقبول: وهو ما بُني على دليل وفَهمٍ صحيح؛ ولهذا كان التعقيب: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [الكهف: ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٢]، تعليم قرآني يرشد الأمة إلى عدم الركون إلى أهل الكتاب، فلا خير فيما عندهم من حكايات تذهب بمقاصد الحديث، وتُدخل السامعَ في جدالٍ لا ينتهي، ولا فائدة تعود من وراء ذلك.

ص. أهمية تعليق الفعل المستقبلي بالمشيئة:

ثم خُتمت هذه الآيات بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ٢٣- ٢٤].

فنُهي النبي ﷺ أن يقول: إني سأفعل ذلك في المستقبل إلا إذا علقه على مشيئة الله تعالى؛ لأن الأمر كله بيَدِ اللهِ، وهذا يذكر بما في [صحيح البخاري] من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئًا إلا واحدًا، ساقطًا إحدى شِقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله))، وقد روي هذا الحديث بأنه قال: ((لأطوفن الليلة على تسعين))، بدلًا من: ((سبعين)). وعلى كل حال فإن الاستثناء بين يدي ما يريده الإنسان سُنة مرضية في كتاب الله تعالى وفي حديث المصطفى ﷺ.

٢ـ الفوائد الدعوية من قصة أصحاب الكهف:

لا شك أن القَصَصَ في كتابِ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ارتبطت بأحداثٍ ومواقفَ كثيرةٍ، وهذه الحوادث وإن كانت مرتبطة بأسبابها إلا أنه يتخللها من العبر الشيء الكثير، والسامع يحب استماع القصص، وتهفو نفسه لاستطلاع ما حدث؛ فإذا كانت هذه الأحداث وتلك الوقائع مقرونة بالصدق؛ كان ذلك من أبلغ العبرة في نفوس الناس؛ لأنهم يدركون بذلك أن تلك القصص تفيدهم عظةً صادقةً وعبرةً حقيقيةً؛ ولهذا كانت قصص القرآن العظيم من الحق ولهذا قال الله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وقال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وبلاغة القرآن الكريم ساقت هذه القصص سياقات شتى، وفي كل مساقٍ يكتشف القارئ لهذه القصة أن في هذا السياق جديد، وإن هذا الجديد لا بد وأن يكون فيه من المفيد ما يمتع السامع، ويجلب له العبرة في قالبٍ محببٍ مقبولٍ.

أـ للإيمان آثار وثمار، وهو يزيد وينقص:

إذا أردنا أن نتأمل ما في أصحاب الكهف من العبر، وما في قصتهم وسيرتهم من الخبر؛ فإننا نلمح أول ما نلمح جانب الإيمان، وأهمية هذا الجانب في حياة المسلم، إذا تأملنا قول الله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] وجدنا أن الإيمان هو الذي حركهم، وهو الذي دفعهم إلى دخول في هذا الكهف، وهو الذي جعلهم يعرضون حياتهم إلى شيء من الخطر، أو أنفسهم لشيءٍ من الخوفِ في سبيلِ حفظِ هذا الإيمان الذي عنوا

بحفظه، واهتموا بشأنه، وفي بدء التفصيل نجد قول الله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، فهذا الإيمان وتلك آثاره.

ومن آثار الإيمان:

أ. أن زادهم الله تعالى هدى.

ب.أن ربط الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- على قلوبهم، والربط على القلوب هذا يرتبط دائمًا بالإيمان.

وقد قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في هذه الآية: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]، وقال في آية أخرى في حق المؤمنين: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

الإيمان يزيد وينقص:

ولنتأمل من قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ ما استقرت عليه عقيدة أهل السنة والجماعة من زيادة الإيمان ونقصانه؛ فإن الإيمان كما يزيد بالطاعات ينقص بالمعاصي والسيئات.

وقد ظهرت حقائق الإيمان بينهم حين تحاوروا قبل دخول هذا الكهف، حينما قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، ثم أنهم نَعوْا على قومهم أن قالوا في حق الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- شططًا حين قالوا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

﴿كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، علماء بما آمنوا به، علماء بمدى الجهل الذي خبط فيه أقوامهم، هذا هو الجانب الإيماني الظاهر في حقيقة مواجهتهم لأقوامهم وللمكهم؛ حين قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ فآثروا عندئذ العزلة فقالوا: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

ب- أهمية الاهتمام بالشباب:

فإن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حين ذكر أصحاب الكهف ذكرهم بسنهم؛ فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾، والفتية هؤلاء في أول شبابهم؛ فعلى الدعاة أن يكثروا من سعيهم مع الشباب، ودعوتهم للشباب، ويحرصوا على إيصال صحيح الدين إليهم، وبذل الجهد المستمر معهم؛ لجلبهم إلى طريق الدعوة إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هم رجال المستقبل، هم عدة الأمم، هم هذه الذخيرة التي إن صلحت؛ صلح المجتمع بَأَسْرِهِ؛ وإذا فسدت فسد المجتمع بأسره؛ ولهذا ذكر الله تعالى أنهم فتية، وذكر عددًا من المواقف والقصص ظهر فيها ما للشباب من أهمية، وما لهم من قدرة واستعداد لنصرة دِينِ اللهِ ﷻ فكما كانوا هؤلاء فتية؛ فإن إبراهيم # لما وُصِفَ: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

إذًا هذا السن ينبغي أن تقع به العناية العظمى، والرعاية القصوى؛ فهو سنٌّ تحصيل العلوم، وهو سن الحفظ والإدراك، وهو سن القدرة على الحركة والتصرف والنشاط، ومن الخسارة أن يضيع عمر الشباب في نومٍ وسهرٍ وبطالةٍ وعطالةٍ وتبلدٍ وسلبيةٍ ومعاصٍ؛ نعوذ بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- منها، ونعيذ شبابنا وأبناءنا من أن يكونوا ضحية هذه المفسدات.

ج- حفظ الله لأوليائه:

إن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يرعى أولياءه ويحفظهم، وهو ﷻ لا يخليهم لأحد؛ فهو ﷻ يكرمهم بما يظهر لهم من دلائل الإعانة، ومن أسباب الهداية، ثم إنه ﷻ يتولى بنفسه حفظ هؤلاء الفتية الذين قص علينا خبرهم في قصة أصحاب الكهف، الشمس تتغير حركتها؛ لتحقق الحماية لهم، وتبعد الأذى عنهم أجسادهم تتحرك داخل الكهف حتى لا تُؤْذَى هذه الأجساد؛ بسبب قلة الحركة والنشاط؛ من رآهم ونظر إليهم شعر أنهم يقظانين وليسوا بنائمين، الكلب الذي بسط ذراعيه بالوصيد، هذا يخيف من يحاول الدخول ويحذر من يحاول الاقتراب، ثم إن الله يضرب على آذانهم المدة الطويلة بل القرون المتعاقبة، ثم يبعثهم من بعد موتهم هذه الموتة الأولى، يبعثهم بعد هذه الفترة الطويلة على سبيل الكرامة لهؤلاء والكرامة، هذا الخارق الذي يجريه الله تعالى لبعض أوليائه الصالحين، لكنها لا تصحب بدعوى رسالة ولا بدعوى الكرامة.

د- رفقة الصالحين سبب ومدعاة لجلب الخير:

فقد جعلت رفقة الصالحين هؤلاء يجتمعون في هذا الكهف، وأعانتهم على الاهتداء إلى هذه الفكرة، ورفقة الصالحين كانت فيها المشاورة للاهتداء إلى ما فيه صلاح دينهم، ودنياهم، بل إن رفقة ذلك الكلب الذي تبعهم فدخل معهم إلى الغار جعلت له اسمًا في كتاب الله تعالى، وجعلت له ذكرًا في القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، وقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

القرطبي -رحمه الله تعالى- يقول: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصالحين والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه ﷻ ما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسلية، وأُنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال؛ المحبين للنبي ﷺ ولا يغيب عن أذهاننا قصة ذلك الرجل الذي أتى النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ قائلًا له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: ((وما أعددت لها؟ أو قال: ماذا أعددت لها؟ فكأن الرجل استكان، ثم أنه قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كثير صلاة، ولا صيام، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله؛ فقال ﷺ: فأنت مع من أحببت)).

قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قوله النبي ﷺ: ((فأنت مع من أحببت)) قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وأن لم أعمل بعملهم.

هـ- من ترك شيئًا لله؛ عوَّضه اللهُ خيرًا منه:

فقد خرج هؤلاء الفتية من ظهراني قومهم؛ فتركوا نعيم المعيشة بين الأهل والأحباب والأصحاب، وتركوا إلفَهُم وعادتهم، خرجوا من ذلك كله يبتغون وجهَ الله ﷻ فكانت النتيجة أن نشرَ الله تعالى لهم من رحمته، وجعل لهم من أسباب الراحة والسعادة، وخرق لهم نواميس الكون، وجعلهم سببًا وبرهانًا لهداية الضالين، وخلد ذكرهم في القرآن العظيم، ولك أن تشعر بهذه المنزلة، وأن تتأمل في هذه المنقبة منقبة هؤلاء القوم الذين عاشوا قبل المسلمين بقرونٍ تطاولت، ثم يأتي خبرهم وتقص قصتهم، وتحكى سيرتهم في كتاب الله ﷻ.

هذه من ثمرات من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. ومن ثمرات القاعدة المستقرة الجزاء من جنس العمل، ولماذا هذا؟

لأنهم صدعوا للحق، ووقفوا في وجه الطغيان، وهذا درس آخر يعلمنا أصحاب الكهف حين صدعوا للحق أمام أقوامهم فتصدى لهم طغاتها؛ فإن هذا الصدع كان سببًا أيضًا من أسباب تخليد ذكرهم؛ فعلى العاملين بالإسلام وللإسلام أن يصدعوا بالحق، وأن يأخذوا بجميع أطرافه، ولا يتمسكوا بجزء ويتركوا بقية الأجزاء ولا يهتموا بشأن، ويدعوا بقية الشئون.

إن هذه الأمة لا بد أن تحكم بكتاب الله، وأن تستن بسنة رسول الله، وأن تأخذ بهدي خير خلق الله بعد رسول الله أصحاب نبينا ﷺ.

و- العناية بالأسباب، وأخذ الحذر؛ لا ينافي حقائق الإيمان:

فإن أصحاب الكهف لما أرسلوا من أرسلوا ليأتيهم بالطعام، قالوا: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩] فأخذهم للحذر هذا كان من جملة الأسباب التي أمر الله تعالى بها، قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، فهذا أمر منه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- للداعية أن يكون حذرًا كيسًا فطنًا، وأن لا يكون مسترسلًا في كل أمره، وأن يتبصر بمواقع أقدامه وعواقب أمره.

ز- سبب الحذر: الخوف من بطش أهل الباطل:

الحذر الذي طلب من المؤمنين؛ سببه أن أهل الباطل لا يناقشون بل يبطشون، أن أهل الباطل لا يمهلون أهل الحق بل يعاجلونهم؛ فلأنهم على باطل فإنهم ليس لديهم حجة؛ ولأنهم على باطل عندهم دليل، ولأنهم على باطل فإنه لا يقبلون

الحق؛ ولهذا كان مما تناجى به أصحاب الكهف أن قالوا: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٢٠].

ح- العزلة قد تكون علاجًا لبعض المشكلات:

العزلةَ قد تكون علاجًا لبعض المواقف وفي بعض الأحوال، لكنها ليست علاجًا بالإطلاق لأن المعتزل قد ترك الساحة وأخلاها لمن يقاومه، له أن يفرح ويمرح ويعربد في هذه الحياة كيف شاء، والحالات التي تجوز فيها العزلة حالات محدودة، وليس كون أصحاب الكهف لجئوا إلى هذه الوسيلة أو هذه الطريقة يعني أنها مشروعة لمن بعدهم بإطلاق؛ وإلا فإن العزلة لا تكون إلا علاجًا أخيرًا ونهائيًّا حين لا يجد الإنسان طريقًا، ولا يصل الإنسان إلى سبيلٍ يفتح له ولدعوته بابًا إلى القلوب.

وقد وردت أحاديث مع هذه الآيات التي وردت معنا في هذه السورة، قد ورد قول الله: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ [الكهف: ١٦]، وورد في غير سورة الكهف في سورة مريم ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٤٨].

وعن أبي سعيد الخدري > قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: ((رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه، ويدع الناس من شره))، وهذا عند البخاري وغيره، وأيضًا من حديث أبي سعيد أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم، يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن))، والحديث في مسلم وغيره، وفي رواية أنه قال ﷺ: ((يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم الذي يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر؛ يفر بدينه من الفتن)).

وقد اختلف العلماء في حكم العزلة، فانتهوا أن الاختلاط أو ما في من اكتساب الفوائد الدينية، والقيام بشعائر الإسلام، وتكثير سواد المسلمين وإيصال الخير إليهم بالأمر بالمعروف، وبالنهي عن المنكر، وبالدعوة إلى الله وبإعانة المحتاج، وبإغاثة الملهوف، وعيادة المريض، واتباع الجنائزوغير ذلك، فالمختار كما قاله النووي ورجحه ابن حجر وغيرهما من الأئمة تفضيل المخالطة على العزلة، وذلك لمن يغلب على ظنه أنه لا يقع في المعصية.

ولا شك أن الإسلام أمرنا بالاجتهاد في دعوة الخلق، والعمل معهم، ومن خلالهم، وجعل هذا العمل من أسباب الوصول إلى مرضاة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وطاعته، لكن إذا استحكم الفساد، وعم البلاء ولم يُجْدِ النصح نفعًا، ولم يُجْدِ العلم أثرًا؛ عندئذٍ قد يقال: إن الضعيف من الناس له أن يعتزل، أو إن الذي يخشى على دينه له أن يعتزل، أو إن العزلة إنما تقيد بآخر الزمان؛ حيث لا يوجد في الناس نفع، ولا يرجى منهم خير، أو حتى لا يقال في الأرض الله الله؛ عندئذٍ على المسلم أن يعتزل الخلق، وأن يجتهد في إصابة الحق، وأن يعمل على أن يعض على دينه، وألا يترك هذا الدين لمجرد أن يخالط الناس على ما هم عليه؛ فعندئذ يشرع ويسوغ للمسلم أن يعتزل، أما قبل هذا فلا، والله أعلم.

ط- لا يجوز بناء المساجد على القبور:

استدل قوم بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوٓاْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١]، على مشروعية بناء القبور على المساجد، وهؤلاء يرد عليهم الإمام الألوسي فيقول: "هذا، واستدل بالآية -وهي قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾- على جواز البناء على قبور الصلحاء، واتخاذ المساجد عليهم، وجواز الصلاة في ذلك وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي، وهو قولٌ باطلٌ عاطلٌ فاسدٌ كاسدٌ".

قال الإمام القرطبي: "قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد".

ويكفينا في هذا قول نبينا ﷺ كما في حديث أم سلمة أنه ذكرت له ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية؛ فذكرت لها ما رأت فيها من الصور؛ فقال ﷺ: ((أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنو على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله)). وفي الحديث الآخر: أن النبي ﷺ لما نزل به -يعني: موته- طفق يطرح خميصة له على وجه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ﷺ فقال وهو كذلك: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر من صنعوا. وفي رواية أبو هريرة أنه قال: ((قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). ومعنى أن النبي ﷺ لعن ولعن الله ﷻ اليهود والنصارى على فعلهم هذا أن هذا ليس من شرعهم، وليس من شرعنا أيضًا، فهذا ليس من شرع اليهود، ولا من شرع النصارى، ولا من شرع المسلمين، وإلا لَمَا استحقوا اللعن على هذا الفعل والعياذ بالله تعالى.

حال بلاد العرب قبل الإسلام؛ الجغرافية والسياسية

أ- جغرافية بلاد العرب، وصفة الجزيرة العربية:

أن أصل الإنسان واحد وهو آدم ﷺ قال -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وكان آدم # من أول أن خلقه الله ﷻ يجيد النطق ويحسن الكلام ويعرف التعبير، ويدرك أسماء الأشياء، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، وقد وجد آدم # عند نزوله إلى الأرض في أغلب

الظن في جنوبي غربي آسيا، وفي جزيرة العرب على أكبر احتمال، وإن كانت هناك آراء أخرى، تقول: إنه نزل إلى الهند، وأخرى تقول: إنه كان في أول أمره في شمالي العراق، هذه أقوال على كل حال لا يقوم عليها دليل قاطع للنزاع.

لكن البشر بدءوا يتكاثرون في منطقة الخلق الأول، ويزداد عددهم بسرعة فعمرت بقاع الجزيرة العربية، ومنها اتجهت جماعات فعمرت بلاد الرافدين والشام ومصر وغيرها من هذه البلاد، وكما أن البشر انطلقوا من الجزيرة ليعمروا الأرض انطلقت أيضًا رسالة الإسلام انطلقت دعوتهم من هذه الجزيرة لتنقذ البشرية من وهدتها، وتقيمها من كبوتها، ولما كان التاريخ لا يمكن أن يتحقق إلا بمعرفة إطاريه الزماني والمكاني؛ وجب أن نعرف صفة البقاع التي ظهرت فيها هذه الرسالة؛ متممةً للرسالات، وخاتمة لها؛ ولهذا يعنينا أن نتعرف على العرب، وعلى بلاد العرب وصفة جزيرة العرب.

ولا شك أن العرب أمةٌ قديمةٌ غلبت عليها البداوة، ولم تنغمس في حمأة المدنيات المعاصرة، وقت أن بعث نبينا ﷺ ولذا بقيت فيهم بقايا من الخصال الحميدة، كعلو النفس، والشجاعة، قوة البيان والفصاحة، والحرية، والفروسية، وأنواع منوعة من هذه الصفات الطيبة إضافة إلى ما منحهم الله تعالى من قوة الذاكرة، وجودة الحافظة، وخلق الوفاء بالعهد، ومع ذلك ابتلوا مثل غيرهم بالوثنية الطامسة، وبالانحطاط الديني، وبألوان من التخلف الاجتماعي والحضاري؛ فإن سيطرة الوثنية عليهم كانت سببًا في انتشار أدواء خلقية واجتماعية، وأن تعمهم جهالة وأن تسيطر عليهم عماية وضلالة، وعادات سيئة كشرب الخمر، وسبي النساء، ووئد البنات، وإثارة الحروب لأتفه الأسباب.

وجزيرة العرب في حقيقتها إنما هي شبه جزيرة، وهي تعتبر موطن للعرب الذين ينتسبون إلى الجنس السامي -وكما قلنا-: فإن العرب من أبناء إسماعيل #

نشئوا في مكة أولًا، وبعدها انتشروا في شبه جزيرة العرب، وهاجروا إلى البلدان المجاورة. والجزيرة العربية تنقسم إلى خمسة أقاليم؛ تبعًا لجغرافية الأرض وطبيعة المكان؛ ذلك أن جبال السروات -أو جبال السراة- تبدأ من اليمن جنوبًا، وتمتد حتى تبلغ أطراف الشام شمالًا، وهذا الإقليم يسمى عندئذٍ بإقليم الحجاز، لماذا؟ لأنه يحجز إقليم تهامة الواقع في غربه على ساحل البحر الأحمر عن إقليم نجد الذي يقع شرقه.

وتسمى المنطقة الواقعة جنوب جبال السراة بإقليم اليمن، والمنطقة الواقعة شرق نجد بإقليم العروب، وهذه الأقاليم تتمايز عن بعضها، ويعنينا أن نعرف هنا أن مساحة هذه الجزيرة تزيد على ثلاثة ملايين من الكيلو مترات المربعة، وأنه يحدها من الشرق خليج العرب وخليج عمان، ومن الجنوب بحر العرب والمحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر، أما من الشمال فتحدها بادية الشام التي تصلها بالهلال الخصيب، الذي يضم بلاد الرافدين العراق وبلاد الشام.

وقد رأى العرب في بادية الشام بحرًا من الرمال؛ فأطلقوا على شبه جزيرتهم تجوزًا اسم جزيرة العرب، ولهذا فإن الجزيرة على الحقيقة؛ إنما هي شبة جزيرة من جهتها الشرقية والغربية والجنوبية تحدها المياه، وأما من الجهة الشمالية فيحدها بحر آخر، ولكنه بحر من الرمال واليابسة؛ لذا أطلق عليها اسم جزيرة العرب.

وجزيرة العرب في مجملها هضبة واسعة تنحدر تدريجيًّا وبامتداد كبير إلى الجنوب والجنوب الشرقي، باستثناء الجبل الأخضر في عُمَان الذي يبرز بارتفاع يصل إلى تسعة آلاف وتسعمائة قدم؛ مشكلًا بذلك استثناء واضحًا للاتجاه الشرقي المتدرج لسطح شبه الجزيرة العربية.

قلنا: إن هذه الأقاليم التي تقع فوق جزيرة العرب يمكن أن نعدها خمسة أقاليم، وأن الإقليم الأول هو إقليم تهامة، ويشمل الأرض المنخفضة الساحلية التي تحاذي البحر الأحمر؛ بدءًا من يَنْبُع في الشمال إلى نجران في جنوب المملكة العربية السعودية، وسميت تهامة بتهامة؛ لشدة حرِّهَا وركود ريحها، كما تسمى الغور لانخفاض أرضها بالنسبة لغيرها، وأما الحجاز فيتكون من عدد من الوديان التي تتخلل جبال السراة الممتدة من الشام شمالًا إلى نجران جنوبًا، وسميت بالحجاز كما قلنا؛ لأنها تحجز تهامة عن نجد، وفي هذا الإقليم تقع مدينة مكة والمدينة، ويرتبط هذا الإقليم بالبحر الأحمر بعدة طرق عرضية، كما يرتبط بسائر الجهات.

أما نجد فتمتد من اليمن جنوبًا، وبادية السماوة والعروض، والعراق شمالًا والخليج العربي شرقًا، والحجاز غربًا، وسميت نجدُ نجدًا لارتفاع أرضه ولا شك أن هذا الارتفاع هو ارتفاع هذه الهضبة، وليس ارتفاع جبال، ثم يأتي إقليم اليمن ويمتد من نجد شمالًا إلى المحيط الهندي جنوبًا، ومن إلى البحر الأحمر غربًا إلى حضرموت شرقًا، وقد أقيم باليمن سدُّ مأرب وغيره من الآثار التي لا يزال منها شيئًا باقي إلى يوم الناس هذا.

أما الإقليم الخامس: فهو إقليم العروض، ويشمل اليمامة وعمان والبحرين والإمارات العربية وقطر، وسمي بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق، وبلاد العرب في الجملة بلاد صحراوية، مياهها قليلة، زرعها قليل إلا في بعض المناطق الجنوبية، كالطائف واليمن؛ ولذا اتجه غالب الناس في هذه البلاد إلى الرعي والتنقل والتجارة؛ طلبًا للرزق والمعاش، ساعد على ذلك تعدد الطرق المهدة التي تربط الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب، وهذه طرق ومسالك

تعددت، وكانت الجزيرة قبيل البعثة معبر التجارات المختلفة الآتية من وإلى الهند، وروما والحبشة ومصر، وغيرها من البلاد.

ومن الجدير بالذكر: أن بلاد العرب تنعدم الأنهار فيها؛ فجزيرة العرب اليوم لا أنهار بها، وأن احتوت على أودية كثيرة منها وادي الدواسر، ووادي السرحان، ووادي نجران، ووادي حضرموت ووادي القرى، كما تكثر الحَرّار أو الحِرَات في شبه الجزيرة العربية، وأشهرها حرة تبوك، وحرة النار قرب خيبر، وحرة واقم، ونحو ذلك من الحرار، وهي قريبة من المدينة المنورة. وهذا التنوع في طبيعة شبه الجزيرة العربية أثر في معيشة سكانها.

ب- الحكم والإمارة في بلاد العرب:

حينما نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام، من المناسب أن نتعرف على تاريخ الحكومة والإمارة، والمِلَلِ والأديان في بلاد العرب حتى يسهل فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام، قد كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام على قسمين: قسم منهم ملوك متوجون، والثاني: هم رؤساء القبائل والعشائر، لم يكن لهم ما للملوك من الامتيازات، ومعظمهم كانوا على تمام الاستقلال، وربما لكان لبعضهم تبعية لملك متوج.

والملوك المتوجون كانوا هم ملوك اليمن، وملوك غسان وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة، فلم تكن لهم تيجان، ونحن نضرب المثل على ذلك بملوك اليمن، وملوك الحيرة، وملوك الشام، والإمارة بالحجاز، ثم نستطرد في البعد التاريخي لإمارة الحجاز، زمن إسماعيل ثم جرهم، ثم ما وقع من استبداد خزاعة بأمر مكة ونحو ذلك من الأحداث والأخبار التي يعني تعلقت ببلاد

الحرم، ثم الحرب التي وقعت بين قريش وخزاعة ثم مظاهر الرياسة والتشريف لقصي من لواء حجابة وسقاية ورفادة.

الملك باليمن كان قديمًا ذلك أن من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات، وظهر ازدهار حضارتهم، وبُسِطَ سلطانُهُم بمدة طويلة قبل الميلاد، حتى أن ذلك عُدَّ بأحد عشر قرنًا قبل الميلاد، ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

القرون التي خلت قبل سنة ٥٦٠ قبل الميلاد، كان ملوكهم يلقبون في ذلك الزمان بـ"مكرب سبأ" وكانت عاصمتهم بلدة صرواح التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة مأرب، ولا شك أن مأرب هذه هي تلك البلد التي بين فيها السد المشهور، الذي عرف بسد مأرب، والذي كان له شأن كبير في تاريخ اليمن.

ومنذ سنة ستمائة وخمسين إلى سنة مائة وخمسة عشر قبل الميلاد في هذا الزمن تركوا هذا اللقب لقب "مكرب" وعرفوا بملوك سبأ، واتخذوا مأرب عاصمة لهم بدل صرواح، وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلًا من صنعاء إلى جانبها الشرقي، ومن سنة خمسة عشر ومائة إلى سنة ثلاثمائة غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ، واتخذت بلدة ريدان عاصمة لها بدل مأرب، ثم سميت بلدة ريدان باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل بالقرب من تريم. وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط؛ فشلت تجارتهم إلى حد كبير ثم تقلصت هذه المملكة.

وهذه الأسباب سببت في تفرق آل قحطان، وفي هجرتهم إلى بلاد شاسعة، ومنذ سنة ثلاثمائة بعد الميلاد إلى أن دخل الإسلام في اليمن توالت عليهم اضطرابات، ووقعت فيهم حوادث وتتابعت فيهم وعليهم انقلابات وحروب أهلية؛ جعلتهم

عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم، ففي هذا العهد دخلت الرومان في عدن وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة أربعين وثلاثمائة بعد الميلاد، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ميلادية، ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلومات في سد مأرب، حتى وقع ذلك السيل الذي ذكره القرآن "بسيل العرم" في سنة خمسين وأربعمائة ميلادية، أو أحدى وخمسين وأربعمائة. وكانت حادثة أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة قام ذو نواس اليهودي بحملةٍ منكرةٍ على المسيحيين من أهل نجران، وحاول أن يصرفهم عن المسيحية قهرًا فلما أبوا؛ خدَّ لهم الأخدود، وألقاهم في النيران، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج: ٤]. وكان من جراء ذلك وقوع حروبٍ وإشكالاتٍ كثيرةٍ، وذلك على أرض العرب، وقد حرض ما وقع الأحباش على أن ينزلوا إلى اليمن مرة أخرى وأن يحتلوها؛ فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة إلى أرض اليمن مرة ثانية، بقيادة أرياط سنة خمسة وعشرين وخمسمائة قبل الميلاد. وذلك انتقامًا لما وقع بالنصارى من المحنة العظيمة.

ظل أرياط حاكمًا من قِبَلِ ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة، وأبرهة هذا كان أحد قواد جيشه، وقد حكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة، وأبرهة هذا هو الذي جَنَّدَ الجنودَ؛ لهدم الكعبة، وعرفوا بعدئذ في التاريخ بأصحاب الفيل.

بعد وقعة الفيل استنجد اليمنيون بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال سنة خمس وسبعين وخمسمائة بقيادة "معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري، فاتخذوه ملكًا لهم، وكان معد يكرب أبقى معه جمع

من الحبشة يخدمونه، ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولّى كسرى عاملًا فارسيًّا على صنعاء، وجعل اليمن ولايةً فارسيةً؛ فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم بَاذَانَ الذي اعتنق الإسلام سنة ثمان وثلاثين وستمائة من الميلاد، وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن. بهذا نكون قد تناولنا الملك باليمن.

وأما المُلْكُ بالحيرة؛ فإنها كانت من جملة بلاد العراق، وكانت الفرس تحكم العراق وما جاورها، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ست وعشرين وثلاثمائة قبل الميلاد؛ فهزم ملكَ الفرس وكسر شوكتهم، حتى تجزأت البلاد وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف، واستمروا يحكمون البلاد مجزئة إلى سنة ثلاثين ومائتين من الميلاد، وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون؛ فاحتلوا جزءًا من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنايين، فزاحموهم حتى سكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس سنة ست وعشرين ومائتين ميلادية على يد أردشير، الذي جمع شمل الفرس، واستولى على العرب الذين أقاموا في تخوم ملكه، وكان هذا سببًا في رحيل قضاعة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، وفي عهد أردشير هذا تولى جذيمة الوضاح ملك تلك البلاد -بلاد الحيرة- وما جاورها، وأقام عليها، وبقي كذلك، ولكن لم يدُمِ الأمر كثيرًا.

بعد موت جذيمة، وَلِيَ الحيرةَ عمرو بن عدي اللخمي، فهو أول ملوك اللخميين في عهد كسرى، وهو سابور بن أردشير، ثم لم تزل الملوك من اللخميين تتوالى على الحيرة حتى ولَّى الفرس قباذة بن فيروز، وفي عهده ظهر مزدك، وقام بالدعوة إلى الإباحية؛ فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل إلى ملك

الحيرة، وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه إلى أن يختار هذا الدين ويدين به. فأبى عليه ذلك حميةً وآنفةً؛ فعزله قباذ وولّى بدله الحارث بن عمر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي.

وخَلَفَ قباذ كسرى أنوشروان، وكان يكره هذا المذهب جدًّا؛ فقتل المزدك وكثيرًا ممن دان بمذهبة، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو لكي يقتله، لكنه أفلت إلى دار كلب فلم يزل فيهم حتى مات، واستمر المُلْكُ بعد المنذر بن ماء السماء في عَقِبِهِ حتى كان النعمان بن المنذر، وهذا الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه؛ فخرج النعمان حتى نزل سرًّا على هانئ بن مسعود سيد بني شيبان، فاستودعه أهله وماله، ثم توجه إلى كسرى فحبسه كسرى حتى مات، وولَّى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده؛ فأبى ذلك هانئ حميةً، وآذن الملك بالحرب، ولم تلبث أن جاءت مرازبة كسرى وكتائبه في موكب إياس، وكانت بين الفريقين، موقعة هائلة عند "ذي قار" انتصر فيها بنو شيبان، وانهزمت الفرس هزيمة منكرة، وهذا أول يوم تنتصر فيه العرب على العجم، وكان هذا بعد ميلاد نبينا ﷺ بقليل.

فإنه # ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة، وولّى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكمًا فارسيًّا، وفي سنة ثنتين وثلاثين وستمائة عاد المُلْكُ إلى آل لخم؛ فتولى منهم المنذر الملقب بالمعرور، فلم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين.

وأما الملك في الشام: فإنه في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل؛ صارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت به. وكانوا من بني سليح بن

حلوان الذي منهم بنو ضجعم بن سليح، المعروفون باسم الضجاعنة؛ فصنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدةً ضد الفرس؛ فولوا منهم ملكًا ثم تعاقب الملك فيهم سنين، فمن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة، ويقدَّرُ زمنهم من أوائل القرن الثاني ميلادي إلى نهايته تقريبًا، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان الذين غلبوا الضجاعنة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكًا على عرب الشام، وكانت قاعدتهم دومة الجندل، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالًا لملوك الروم حتى كانت واقعة اليرموك سنة ثلاثة عشرة، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > .

وأما الإمارة في الحجاز: فقد كانت في عهد إسماعيل # له فكان # زعيمًا لمكة، وواليًا للبيت طوال حياته، توفي وله سبع وثلاثون ومائة سنة، ثم ولي اثنان من أبنائه "نابت" ثم "قيدار" ويقال العكس، ثم ولي أمر مكة بعدهما جدهما مضاد بن عمر الجرهمي فانتقلت زعامة مكة إلى جدهم، وظلت في أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم بما لأبيهم من بناء هذه البنية العظيمة وهي الكعبة، ومضت الدهور والأيام، ولم يزل أمر أولاد إسماعيل # لا ملك لهم، ولا وزن كبير لهم في الملك حتى ضعف أمر جرهم، قبيل ظهور بختنصر فأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق مكة، منذ ذلك العصر.

بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في "ذات عِرْقٍ" فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهميًّا؛ تفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية سنة سبع وثمانين وخمسمائة قبل الميلاد، وذهب نبيهم في ذلك الوقت واسمه "برمياه" بـ"مَعْدِن" إلى الشام، فلم انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جَرْشَم بن جلهمة، فتزوج بابنته مُعانة فولدت له نزارًا.

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك؛ فضاقت أحوالهم، وظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة إلى آخر مما وقع؛ مما أغاظ العدنانيين، وأثار حفيظتهم، فلما نزلت خزاعة بمر الظهران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة، استغلت ذلك فقامت بمعونة من بطون عدنان، وهم بنو بكر ابن عبد مناف، بمحاربة جرهم حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها في أواسط القرن الثاني للميلاد، ولما لجأت جرهم إلى الجلاء؛ سدُّوا بئرَ زمزم، ودرسوا موضعها ودفنوا فيها عدة أشياء.

ويقدر زمن إسماعيل # بعشرين قرنًا قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم في مكة واحد وعشرين قرنًا تقريبًا، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنًا، واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر إلا أنه كان إلى قبائل مُضر ثلاث خلال؛ الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منًى؛ والثانية: الإفاضة من جمع غداة النحر إلى مِنًى، كان ذلك في بني عدوان، والثالثة: إنساء الأشهر الحرم، وكان ذلك إلى بني تميم بن عدي من بني كنانة، واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة، وفي وقت حكمهم؛ انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراف مكة بطونٌ من قريش وهم حلول وحرم، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة ليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب.

ويذكر من أمر قصي إن أباه مات وهو في حضن أمه، ونكحت أمه رجلًا من بني عذرة، وهو ربيعة بن حَرَام، فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شبَّ قصي رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك رجل من خزاعة؛ فخطب قُصَي إلى ذلك الرجل واسمه حُلَيّ ابنته "حُبَّا" فرغب فيه حلي وزوجه إياها، فلما مات قامت حرب بين خزاعة وقريش؛ أدت أخيرًا إلى تغلب قصيٍّ على أمر مكة والبيت.

وأيامًا كان فقد انتهى الأمر وحسم لصالح قريش، وكان مما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطَّعَها رباعًا بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها، وأقر النسئة، وآل صفوان وعَدْوَانَ ومُرَّةَ بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه دينًا في نفسه لا ينبغي تغييره.

ومن مآثره: أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام الأمور ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماعات الكلمة، وفض المشاكل بالحسنى. وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف شيئًا كثيرًا؛ فكان رئيسًا لدار الندوة، وكان صاحب اللواء، فلا تعقد رايةُ الحرب إلا بيده، وكانت له الحجابة وهي حجابة الكعبة؛ فلا يفتح بابها إلا من جهته ولا يفتح بابها إلا هو. وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدنتها، وهو الذي يلي أمر الحاج وسقايته، ونحو هذا من الأعمال العظيمة التي تشرف بها قصي.

وكان أيضًا يصنع الطعام للحاج على طريقة الضيافة، فكانت رفادة الحاج إلى قصي، وكان قصي قد فرض على قريش خرجًا تخرجه في الموسم من أموالها إليه؛ فيضع به طعامًا للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، كل ذلك كان ذلك لقصي، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته وكان على منهج أبيه؛ ولذلك قال له قصي: لأُلْحِقَنَّكَ بالقوم، وأن شرفوا عليه، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش؛ فأعطاه دار الندوة والحجابة، واللواء، والسقاية، والرفادة، وكان قصي لا يُخَالَفُ ولا يرد عليه شيء صنعه.

وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع في بني قومه؛ فلما مات أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم، ولكن لما مات عبد مناف، نافس أبنائه بني عمهم عبد الدار

في هذه المناصب، فافترقت قريش إلى فرقتين، وكاد يكون بينهم قتال إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا تلك المناصب فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار.

ثم حكم بنو عبد مناف فيما أصابهم، فخرجت لهاشم بن عبد مناف، فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، ووَلِّيَ بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسولنا ﷺ وجاء من بعده أبنائه، حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس بن عبد المطلب.

وكانت لقريش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم، وكونوا بها دويلة، بل شبه دويلة، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشابه ما في عصرنا اليوم.

أما الحكم في سائر العرب وباقي العرب، فقد سبق أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية، وأن البلاد العربية قد اقْتُسِمَتْ فيما بين هذه القبائل، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعًا لملك العرب بالحيرة، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعًا للغساسنة، إلا أن هذه التبعية كانت تبعية اسمية لا فعلية، وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة؛ فكانت حرة طليقة.

وفي الحقيقة: كانت لهذه القبائل رؤساء؛ رؤساء تسودهم القبلية، وكانت القبيلة حكومة مصغرة، أساس كيانها السياسي الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها، كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعًا لرأي سيدها في السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون بديكتاتوري قوي في عصرنا، حتى كان بعضهم إذا غضب غضبت له ألوف من السيوف، لا تسأله

فيما غضب، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس من بذل الندى، وإكرام الضيف والكرم، والحلم، وإظهار الشجاعة، وذلك حتى يكسبوا المحامد في أعين الناس؛ ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان، وحتى تسموا درجتهم على مستوى المنافسة.

وكان للسادة والرؤساء حقوقٌ خاصة؛ فكانوا يأخذون من الغنيمة المِرْبَاع والصفي والنشيطة والفضول، فالمرباع ربع الغنيمة، والصفي ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم، والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحو ذلك.

عقيدة العرب قبل الإسلام، وحالتهم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية

أ- ديانات العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام:

يشير ذلك الحشد الهائل للأصنام التي شيدها العرب وأقاموها حول الكعبة، بل وفي جوفها إلى وجود عقيدةٍ دينيةٍ منحرفةٍ، وانتشار أفكار ضالة عند العرب جميعًا؛ فلقد وجد النبي ﷺ يوم فتح مكة حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا.

وفي الأصل كان معظم العرب على دعوة إسماعيل # حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم؛ فكانت العرب تعبد الله وحده وتوحده، وتدين بدين إبراهيم حتى طال عليهم الأمد؛ فنسوا حظًّا مما ذكروا به، إلا أنه بقي فيهم التوحيد، وبقيت فيهم شعائر من دين إبراهيم، حتى جاء رجل يقال له: عمرو بن لحي، وكان رئيس خزاعة، وقد نشأ على أمر عظيمٍ من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين؛ فأحبه الناس، ودانوا له ظنًّا منهم من أكابر العلماء، وأفاضل

الأولياء، ثم إنه سافر إلى بلاد الشام فرآهم يعبدون الأوثان فاستحسن ذلك، وظنه دينًا، لماذا؟ لأن الشام كانت محل الرسل والكتب، فقدم معه بصنمٍ يقال له: هُبل.

وهُبل هو أول صنم أقيم في الكعبة، فجعله في جوفها، ودعا أهل مكة إلى عبادته فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن اتبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وحماته، وهم أهل الحرم، ومنذ ذلك الحين اشتهر العرب بتقديسهم لما اتُّخِذَ من حجر أيًّا كان شكله، فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومنهم من كان يعجز عن بناء بيتٍ واتخاذ الصنم؛ فينصب حجرًا في مكان يستحسنه ثم يطوف به ويسميه النُّصُب.

ومن أقدم أصنامهم "مناة" وكانت على ساحل البحر الأحمر، بالقرب من قديد، ثم اتخذوا "اللات" في الطائف، ثم اتخذوا "العزى" بوادي نخلة، وهذه الثلاث هي أكبر الأوثان، وكثر بعدئذٍ الشرك، وكثرت الأصنام في كل بقعة من أرض الحجاز.

ويَذْكَرُ: أن عمرو بن لحي كان له رِئْيٌ من الجن؛ فأخبره بأن أصنام قوم نوح - وَدًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا- كانت مدفونة بجدة؛ فأتاها فاستثارها ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها حتى صار لكل قبيلة صنم، في كل بيت يُعْبَد من دون الله ﷻ.

وهكذا صار الشرك مظهرًا دينيًا، وصارت عبادة الأصنام من أكبر ملامح دين أهل الجاهلية الذين زعموا أنهم كانوا على دين إبراهيم # كانت لهم تقاليد، وكانت لهم مراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه من البدعة الحسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم # وكان من

مراسم عبادتهم لتلك الأصنام أنهم كانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها، يهتفون باسمها ويستغيثون بها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم؛ يعتقدون أنها تشفع لهم عند الله، وأنها تحقق لهما ما يريدون من الله، كما كانوا يحجون إليها، ويطوفون حولها ويتذللون عندها، ويسجدون لها، وربما تقربوا إليها بأنواع من القرابين.

فكانوا يذبحون وينذرون لها وبأسمائها؛ ولذا كان النهي عن ذلك عظيمًا في كتاب الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١] وفي قوله: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الأصنام كانوا يتقربون إليها بتخصيصِ شيءٍ من مآكلهم ومشاربهم لها، ومن أجلها، وكانوا يخصونها بنصيب من حرثهم وأنعامهم، ويعتقدون أن ذلك من القُرَبِ إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام أن ينذر لها في الحرث والأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٨] كان منها: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

قال ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة، وهي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر؛ سُيِّبَتْ فلم يركب ذكرها، ولم يُجَز وبرُهَا، ولم يشرب لبنها إلا

ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أُذُنُها ثم خُلِّيَ سَبِيلُها مع أمها؛ فلم يُرْكَب ظهرها، ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا أن يكون ضيفًا، كما فعل بأمها، فهذه البحيرة بنت السائبة.

وأما الوصيلة: فالشاة إذا أتت بعد عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر؛ جعلت وصيلة، فقالوا: قد وصلت، فكان ما وُلِدَ بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء؛ فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم.

والحامي: هو الفحل إذا نُتِجَ له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حُمِيَ ظهره فلم يُركب، ولم يجز وبُرُهُ، وخُلِّيَ في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣] وقالوا: وقال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقد صرح سعيد بن المسيب: أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم، وفي الصحيح مرفوعًا: ((أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب)) وكانت العرب تفعل ذلك معتقدةً أن هذا مما يقرب إلى الله، كما ذكر ذلك كتاب الله عنهم من قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى عنهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وكان من جهلهم أيضًا أن يهتموا بالتمسح بها، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح بالصنم، وإذا رجع كان تمسحه بالصنم أول ما

يفعل، وكانت الحائض لا تقربه، ولا تتمسح به بل تقف بعيدًا عنه حتى ينتهي حيضها، وكانوا يحلقون رءوسهم عنده، ويلقون حوله شعرهم، ومعه كمية من دقيق، وكانوا يحلفون بتلك الأصنام، ومن ذلك قول أوس بن حجر:

باللات والعزى ومن دان دونها ❖ وبالله إن الله منهن أكبر

وكانوا يصطحبون أصنامهم معهم في الحروب؛ فنرى العربي في يوم أحد يستغيث، ويستنصر بهبل، وكان أبو سفيان في هذه الغزوة يحمل اللات والعزى معه، وكانوا يستهمون عند الصنم، ويضربون الأقداح لديه في شئون كثيرة، وقد مَرَّ مَعَنَا خبر عبد المطلب لما خرجت القداح على ابنه عبد الله، وهذا من إيمانهم بالكهنة والعرافين والمنجمين، ومدعي علم الغيب، وكانت فيهم الطيرة وهي التشاؤم بالشيء، وربما أتوا إلى الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وإن أخذ إلى ذات الشمال تشاءموا، وتركوا.

وكانوا يعتقدون أيضًا في العدوى، ويعتقدون شيئًا يقال له الهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره؛ فتصير روحه هامة أي: بومة طائر تطير في الفلوات، وتقول: صَدًى صدًى، أو اسقوني اسقوني، فإذا أُخِذَ بثأره سكن واستراح. وكانت العرب تعتقد بوجود الله تعالى في الجملة، من ذلك أنهم كانوا يحلفون بالله، كما كانوا يحلفون بآلهتهم وأصنامهم، وقد مر قول أوس بن حجر.

باللات والعزى ومن دان دونها ❖ وبالله إن الله منهن أكبر

وامرؤ القيس كان يقول في معلقته:

فقالت: يمين الله ما لك حيلةٌ ❖ وما أن أرى عنك الغواية تنجلي

وقال عبيد بن الأبرص:

حلفت بالله إن الله ذو نعم ❖ لمن يشاء وذو عفوٍ وتَصْفَاحِ

وزهير بن أبي سُلمى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسي كَرِيْبَةً ❖ وليس وراء الله للمرء مذهبُ

بل هذا عبد المطلب لَّما أمَرَ قريشًا بالخروج من مكة، يوم أن أوشك أبرهة أن يدخلها، وقف متعلقًا بحلقة باب الكعبة، وهو يقول: اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك. إذًا كانوا ينادون الله ﷻ ويدعونه مع دعائهم هذه الأصنام.

وكانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان والاعتقاد بالخرافات - هي ديانة معظم العرب، وإن وُجِدَتْ اليهودية والنصرانية، والمجوسية، والصابئية عند العرب؛ فلليهود دوران على الأقل، مثلوهما في جزيرة العرب، الأول: هجرتهم في عهد الفتوح البابلية، والآشورية في فلسطين، فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل الميلاد، وسَبْيٌ أكثرهم إلى بابل؛ كان من نتيجة ذلك أن قسمًا منهم هجر بلاد فلسطين إلى الحجاز، وتوطن في ربوعها الشمالية؛ فَوُجِدَ اليهود في شمال الجزيرة العربية من أرض الحجاز.

والدور الثاني يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين سنة سبعين ميلادية حيث نشأ عن ضغط الرومان على اليهود، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن رحلت قبائل عديدة من اليهود إلى بلاد الحجاز؛ فاستقرت في يثرب، وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت ديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأنٌ يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام.

وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة، هي: خيبر، والنضير، والمصطلق، وقريظة، وقينقاع. وقد ذكر بعض المؤرخين: أن عدد القبائل اليهودية زاد على عشرين، كما دخلت اليهودية إلى اليمن، من قِبَل تُبَّان أسعد؛ فإنه ذهب مقاتلًا إلى يثرب؛ فاعتنق هناك اليهودية، وجاء بحبرين من بني قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار في بلاد اليمن. ولما تولى على اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من أهل نجران، ودعاهم إلى اعتناق اليهودية؛ فلما أبوا خَدَّ لهم الأخاديد وأحرقهم بالنار.

فلم يفرق بين الرجل والمرأة، والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، حتى قيل إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفًا إلى أربعين ألفًا؛ وقع ذلك سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ميلادية، وقد وردت هذه القصة في كتاب الله في سورة البروج.

أما الديانة النصرانية: فجاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة أربعين وثلاثمائة ميلادية، واستمر إلى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وفي ذلك الزمن دخلت المسيحية إلى ربوع اليمن، ولما احتلت الأحباش اليمن كردٍّ فعلٍ لما أتاه ذو نواس، وتمكن أبرهة من حكمها؛ أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، حتى بلغ أنه بنى كعبة باليمن؛ أراد أن يصرف حج العرب إلى تلك البنية، ويهدم بيت الله الذي بمكة؛ فأخذه الله ﷻ أخذًا وبيلًا.

وقد مر أن النصرانية اعتنقها بعض العرب الغساسنة، وقبائل من تغلب وطيئ وغيرهما؛ لمجاورتهم للرومان، بل قد اعتنق النصرانية بعض ملوك الحيرة. أما المجوسية: فكان معظمها في العرب الذين كانوا بجوار الفرس أيضًا؛ فكانت في عراق العرب، وفي البحرين، والأحساء، وفي هجر، وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي.

وأما الصابئة: فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية؛ تضعضع بنيان الصابئة، وخمد نشاطها، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس، أو مجاورين لهم في عراق العرب وعلى شواطئ الخليج.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن اليهودية قد انقلبت رياءً وتحكمًا؛ وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، وأما النصرانية: فقد عادت وثنيةً عسرة الفهم وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بها ذلك التأثير. وأما سائر أديان العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

ب- أسباب انحراف العقيدة عند العرب قبل الإسلام:

ذكرنا سالفًا أن العرب كانوا في الأصل على دين إبراهيم الخليل، ودين ابنه إسماعيل -عليهما السلام- ثم وقع ما وقع من عبادة الأصنام، ودخل الجزيرة ما دخلها من ديانة اليهودية والنصرانية والمجوسية بطرق شتى؛ إلا أن بعض عقلاء العرب ساءهم ما كان عليه أهل الجاهلية من فساد ديني؛ فأخذوا يتلمسون الطرق للإصلاح، فاتجهوا للدراسة والبحث؛ لعلهم يهتدون إلى الحنيفية التي كانت قد اندثرت لما ران عليها من طقوس وثنية؛ جردتها من حقيقتها، وكان هؤلاء من قبائل مختلفة لم تجمع بينهم رابطة، وإنما التقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام، وفي الدعوة إلى الإصلاح.

قرءوا اليهودية والنصرانية وتفهموها، لكن لم يتجهوا إلى إحداها، بل اتجهوا إلى دين إبراهيم، من هؤلاء: ورقة بن نوفل الذي قرأ التوراة والإنجيل، وكتب

العبرانية، وأصبح أعلم رجال مكة، وشاركته في ذلك قُتَيلة بنت نوفل وتنبأ بقرب ظهور نبي جديد يعيد إلى الحنيفية أصالتها؛ فهو لم يكن نصرانيًّا وإنما كان عالمًا بها، ولم يكن يهوديًّا إنما كان عالمًا بها، وعلى منواله صار عثمان بن الحويرث، لكنه غلبت عليه النصرانية لسفره إلى الشام، واتصاله بالقياصرة.

ومن هؤلاء: زيد بن عمرو بن نفيل الذي بحث في هذه الأديان الموجودة في زمانه، ثم عاد إلى قومه رافعًا يده إلى السماء قائلًا: "اللهم إني على دين إبراهيم" وقال لقريش: "والذي نفسي بيده ما أصبح على دين إبراهيم غيري.

ومنهم: أمية بن أبي الصلت ظهر في الطائف، ونظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح، وحرم الخمر وتجنب الأوثان، وطمع في أن يكون نبيًّا فلما ظهر محمد ﷺ حسده ولم يسلم.

ومنهم: أبو قيس بن الأسلت الأوسي الذي كان يقال له بيثرب: الحنيفي، وكان قد سأل يهود يثرب عن الدين فدعوه إلى دينهم؛ فكاد يقاربهم ثم أبى ذلك فخرج إلى الشام إلى آل جفنة، فسأل الأحبار والرهبان؛ فدعوه إلى دينهم فلم يرده، وتوصل إلى التوحيد، وقال: أنا على دين إبراهيم، وأنا أدين به حتى أموت عليه.

ومنهم: أبو قيس من بني النجار، فارق الأوثان وهَمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له، فاتخذه مسجدًا لا يدخل عليه طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم؛ فلما قدم الرسول ﷺ المدينة أسلم من فوره.

يرى معظم المؤرخين: أن العرب من قديمٍ كانوا على هذه الديانة إلا أنها اندثرت للأسباب التي سيأتي ذكرها، لكنَّ السببَ العام في أصل ذلك هو إغواء الشيطان لهم، وما تبع ذلك من الوساوس والدسائس، كما ورد في كتاب الله تعالى،

ابتدأت هذه الوساوس من إخراج أبينا آدم وزوجه من الجنة، وفي هذا يعلل ابن القيم -رحمه الله- كيف أغوى الشيطان أولئك المشركين؛ فيقول: وتَلاَعُب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام، وتعدد عقائدهم له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم.

ويقول ابن الجوزي أيضًا في هذا السياق: كل محنة لَبَّسَ بها إبليسُ على الناس، فسببها الميل إلى الحس، والإعراض عن مقتضى العقل، ولما كان الحس يأنس بالمثل؛ دعا إبليس لعنه الله خلقًا كثيرًا إلى عبادة الصور وأبطل هؤلاء عمل العقل بالمرة؛ فمنهم من حسن له أنها الآلهة وحدها ومنهم من وجد فيه قليل فطنة؛ فعلم أنه لا يوافقه على هذا؛ فزين له أن عبادة هذه الأصنام تقرب إلى الخالق؛ فقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].وفي كتاب (تلبيس إبليس) عقد فصلًا بعنوان: "ذكر بداية تلبيسه على عبادة الأصنام" وذكر ابن الجوزي فيه قصة عمرو بن لحي الخزاعي، وجلبه الأصنام إلى بلاد العرب، وأنه أول من غير دين إسماعيل، ونصب الأوثان وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح، يؤيد ذلك ما جاء عن ابن عباس > في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] وهذه أسماء أصنامهم التي عبدوها من دون الله.

وفي الصحيح عن ابن عباس أيضًا أنه قال: "سرتِ الأوثانُ التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. أما "وَدٌّ" فكانت لكلبٍ بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لـ"مراد ثم لبني غطيف" بالجوف عند سبأ باليمن. وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم؛

ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، ونسخ العلم؛ عبدت والحديث في البخاري.

وقد قال العلماء: معنى قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي: لا تتركوا عبادة الآلهة، وهي الأصنام، والصور التي كانت لهم ثم عبدتها العرب بعدهم، وبهذا قال الجمهور، وهذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح؛ فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، قال لهم إبليس: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتدأت عبادة الأوثان، وكان هذا من ذلك الوقت، وسميت الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوروهم على صورة أولئك القوم.

والدارس لعقائد العرب، ولسبب انحرافهم قبل الإسلام؛ يجد اختلافًا حول الأسباب المباشرة لانحرافهم، وإن كان السبب الأصلي -كما قدمنا هو إغواء الشيطان- لكن لا يمنع هذا من أن نذكر بعض الأسباب الأخرى؛ فمن ذلك التقليد باتباع الزعماء والآباء والأجداد، فإنهم لمَّا فعل ذلك عمرو بن لحي الخزاعي الذي كان أول من جلب الأصنام إلى بلاد العرب؛ تبعوه على ذلك مقلدين.وفي الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ))

وهذا في (صحيح البخاري) قال الله تعالى عن حال أولئك: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ومن أسباب هذا الانحراف: تعلقهم بالحرم؛ لكونه بيت الله، ومتعبد إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- بقوا على دين إبراهيم يعظمون الحرم، ومع مرور

الزمن وبُعْدِهِم عن عصر النبوة أوصلهم هذا التعلق إلى عبادة أحجار الحرم، ثم انتقلت العدوى إلى غيره من الأحجار.

وفي هذا يقول أبو المنذر الكلبي: كان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة: أنه لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرًا من الحرم تعظيمًا للحرم، وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة؛ تيمنًا منهم بها وصبابة بالحرم وحبًّا له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم.

ومن الأسباب أيضًا: الشفاعة والقربى: لقد كان العرب يعتقدون في الله أنه إله أعظم، وأنه خالق الأكوان، وبيده ملكوت كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي البعيدة العهد بالرسالة والنبوة، والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعا أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى، ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة؛ قياسًا على عاداتهم وأوضاعهم الفاسدة؛ فبحثوا لهم عن وسطاء، يتوسطون بهم إلى الله، ويشركوهم في الدعاء، ويقومون تجاهها ببعض العبادات، وينحون إياها ببعض العبادات.

رسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة، تصوروا بها قدرة الشفعاء على النفع والضر، حتى ترقوا فاتخذوا من دون الله آلهة، قال من -جل من قائل-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

ويرى بعض المؤرخين: أن سبب عبادة العرب للأصنام هو اتخاذهم إسافًا ونائلةَ، وهما صنمان على موضع زمزم، كانت العرب تعبدهما، وتنحر عندهما، وقد نُقِلَ ذلك عن ابن عباس } وقال ابن إسحاق: اتخذوا إسافًا ونائلة على موضع زمزم، ينحرون عندهما، وكان إساف ونائلة رجلًا وامرأة من جُرهُم، وهو إساف بن بقي، ونائلة بنت ديه فوقع إساف على نائلة في الكعبة، فمسخهما الله حجرين، وأخرجوهما من البيت، ووضعوهما فعبدتهما خزاعة وقريش، ومن حج البيت بعد من العرب.

ونقل ابن إسحاق عن أم المؤمنين عائشة > أنها قالت: ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جُرْهُم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين.

ومهما تعددت هذه الأسباب؛ فإنه يبقى أن عمرو بن لحي الخزاعي، هو أول من جَلَبَ عبادةَ الأصنام إلى بلاد العرب، وقد ثبت بذلك الحديث الصحيح، والأسباب الأخرى إنما هي نتائج لما أحدث عمرو بن لحي الخزاعي الذي جاء بعبادة الأصنام إلى بلاد العرب، وهذا هو الصحيح الذي لا عدول عنه؛ لثبوته في الحديث الصحيح الصريح. بهذا نكون قد ألقينا شيئًا من الضوء على أسباب انحراف العقيدة عند العرب قبل الإسلام.

جـ- الحالة الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية عند العرب قبل الإسلام:

انقسم العرب في الجاهلية من الناحية الاجتماعية إلى قسمين: عرب البادية، وعرب الحاضرة؛ ويشترك القسمان في صفات اجتماعية تبدو وكأنها تشد المجتمع إلى بعضه أو تفرقه، ومنها العصبية، وهي التي تنتج عن تصور حقيقي أو مفترض لرابطة القرابة أو الدم، وكانت وسيلة التكتل الأساسية بين الأفراد هي

القبيلة التي ينتمون إليها، وكانت هذه القبيلة يسعها السعي وراء الكلأ إلى التنقل فكان العربي فردًا في قبيلة يتحرك معها دون أن يسأل لماذا حتى قال قائلهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ❖ في النائبات على ما قال برهانا

وهذه العصبية جعلت من العرب محافظين على أنسابهم، معتزِّين بتلك الأنساب، وقد وقع هذا التمسك إلى درجة كبيرة حتى لم يدخل في نسب العرب اختلاط كمضر وكنانة وثقيف وغيرها من القبائل، وكان من النادر أن يتزوج هؤلاء من أولئك، ولم يكن أمر الزواج عندهم إلى الفتاة أو إلى المرأة بل كان إلى أهلها؛ فكان جمهور أهل الجاهلية يقترن بالزوجة بعد موافقة أهلِهَا على مهرٍ معين يأخذه الولي، ولا تأخذ الفتاة منه شيئًا، وربما أكرهت على أن تتزوج بمن تكره، وهذا لا يعني أنهم كانوا يتركون استشارة البنات مطلقًا، بل منهم من كان يستشير المرأة وأمها.

وانتشرت بينهم عادات في الزواج غريبة، من ذلك:

زواج الأَسْرِ:

وقد أطلق على المرأة المأسورة اسم النزيعة، أي: التي انتزعت من أهلها كرهًا، ولا يشترط في زواج المأسورة أن توافق هي أو أن يوافق أهلها.

زواج المشاركة:

حيث كان عدد من الأخوة يتزوجون امرأة واحدة، أو تكون امرأة لعدة رجال في وقت واحد؛ بحيث لا يزيد عددهم على عشرة، وهذه عادة دخيلة على العرب، لم تكن شائعة بل كانت نادرة؛ فإذا حملت تلك المرأة في هذا الزواج ووضعت،

ومر عليها ليال بعد أن تضع -أي ما في بطنها- أرسلت إلى هؤلاء الرجال فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

زواج الشغار:

وكان يتم بين الأسر المتساوية الحسب والنسب، فيزوج هذا ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته.

زواج الميراث:

وهو زواج المقت، فقد كان يرث المرأة أقرب الرجال إلى زوجها، وهذا من أعظم ما كان عليه أهل الجاهلية من الفساد الاجتماعي حتى يرث الابن أمه التي ولدته.

زواج المتعة:

وهو عقد بين رجل وامرأة على أن ينتفعا بِبُضْعِهَا لأجلٍ مسمى بمبلغ معين، ينتهي هذا الزواج بانتهاء المدة المشروطة.

زواج الاستبضاع:

وكان يتم من الأكابر؛ ابتغاء نجابة الولد، وهو من مساوئ أهل الجاهلية كالمخادنة والمسافحة والعياذ بالله، ولم يكن أهل الجاهلية يتقيدون في الزواج بعدد معين، ولا يتقيدون بعدد أيضًا في الطلاق، وهذا غيلان الثقفي لما أسلم؛ أسلم وتحته عشر نسوة؛ فأمره النبي ﷺ أن يمسك منهن أربعة يتخيرنهن ويسرح الباقيان. وكانوا يكرهون الأنثى، ويغضبون إذا ولدت لهم الأنثى، كما قال الله:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

من عوامل الانقسام والتفكك، الثأر والحروب:

وغلبت على أهل الجاهلية فكرة الثأر التي كانت في نفس الوقت من عوامل الانقسام، وأما العلاقة بين القبائل المختلفة؛ فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا، وكانت قواهم متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة، ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها في بعض الحالات كانت الموالاة، والحلف، والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة المتنافرة، وربما كانت الأشهر الحرم رحمةً وعونًا لهم على حياتهم، وحصول معايشهم.

وأد البنات:

ولا شك أنه شاع في أهل الجاهلية وأد البنات؛ خشية العار تارة، وخشية الإنفاق والفقر تارة أخرى، ولا نستطيع أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا من أشد الناس حاجة إلى البنين؛ ليتقووا بهم، ويتقوا بهم العدو.

الكرم إلى حد الإسراف، والشجاعة إلى حد التهور:

ولا شك أن العرب كانت فيهم الشجاعة والكرم، بل وصلت الشجاعة إلى حد التهور أحيانًا، ووصل الكرم إلى حد الإسراف والتبذير أحيانًا أخرى، وقد كانوا بهذا يفتخرون، ويجدون سرورًا في المنح والإعطاء، وفتح الباب لكل طارق، وإشعال النار للضيفان، وكانوا يعظمون الحُرَم؛ لا سيما في الأشهر الحرم،

ويتمسكون بالشرف الذي ينتج الوفاء والولاء، والإقدام والجود والمروءة، وهكذا كان للعرب ما كان من الصفات الحسنة، وإن وقعت هذه المخازي التي ذكرنا بعضها. ولا شك أن وجود هذه الإيجابيات في حياة العرب أَهَّلَتْهُم فيما بعد؛ لِأَنْ يتلقوا رسالة الإسلام.

وقصارى الكلام: أن الحالة الاجتماعية بالنسبة للعرب في الجاهلية كانت في الحضيض من الضعف والعماية؛ إذ الجهل يضرب بأطنابه، والخرافات له جولة وصولة، والناس يعيشون في تلك الجاهلية كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى، وتعامل معاملة الحيوان، والعلاقة بين الأمة مقطعة، وما كان من حكومات ورياسات وزعامات؛ فَجُلُّ هَمِّهَا في امتلاء الخزائن من الأموال التي تؤخذ من الرعية، أو من جر الحروب على مناوئيها.

يعبر عن ذلك الحال كتاب ربنا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] ولقد تفشى في المجتمع الجاهلي كثير من الأدواء الخلقية التي ألفوها وشاعت بينهم، حتى وإن رفضها العقل السليم؛ فشربوا الخمر، وعاقروها إلى حد الإدمان، وفاخروا بشربها، وتفننوا فيها، ووصفوها في أشعارهم التي كانت بالنسبة لهم ديوان حياتهم.

تَعَاطِي القِمَار والميسر وما يلحقها من: إضاعة الأوقات، وإهدار الأموال:

قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله؛ فأيهما قَمَرَ صاحبه ذهب بماله وأهله، والعياذ بالله. وقال القرطبي: الميسر قمار العرب بالأزلام.

وقال الزهري: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار، حتى إنهم كانوا يعدون من العيب والنقيصة ألا يلعب الرجل القمار.

الربا وأكل الأموال بالباطل:

وشاع بينهم تعاطي الربا، والتعامل فيه إلى حد الإجحاف والقسوة والظلم وأكل المال بالباطل، وهذا يدل على أن الحالة الاقتصادية كانت متردية أيضًا وكان الربا في الجاهلية في التضعيف، وفي السنين، وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل؛ فإذا حَلَّ طلبه من صاحبه؛ فيقول الذي عليه المال: أَخِّر عني دينك، وأزيدك عليَّ فيفعلان. قال الله تعالى في التحذير من حالهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

التجارة والصناعة:

أما التجارة: فهي أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والتجارة لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقودًا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه الشهور هي التي كانت تعقد فيها العرب أسواقها في عكاظ، وذي المجاز ومِجَنَّة وغيرها من أوقات وأسواق العرب.

وأما الصناعات: فكانوا بعيدين عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد عند العرب من حياكة ودباغةٍ، وغير ذلك كانت في أهل اليمن والحيرة، ومشارف بلاد الشام، وهذا لا يمنع أنه كانت في داخل الجزيرة الزراعة والحرث والرعي، واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الجوع والعري عامًّا في المجتمع.

ظهر في جزيرة طبقات متعددة:

أهمها: الصرحاء، وهؤلاء يتكونون من أبناء القبائل المعروفين بانتسابهم إلى آبائهم الموالين لهم، ولقبيلتهم ووجدت طائفة العبيد والموالي، وهم الأسرى الذين ملكتهم القبائل، أو الرقيق المشترون بالأموال، أو الموالي الذين لجئوا إلى

القبيلة أو المحرر من العبيد. ثم كانت طائفة الصعاليك، وهم الأحرار الذين فروا من قبائلهم، واجتمعوا في الصحاري، وكوَّنوا مجتمعاتٍ جديدةً معارضةً لقبائلهم الأولى، وهم يعتمدون على السلب والنهب.

التجارة وسيلة تعليم:

استفاد أهل مكة من الحركة التجارية كثيرًا؛ لأن التجارة مدرسة تعلم السياسة والكياسة، وحسن الجوار، وعمق الفهم؛ فتعلموا من الحيرة القراءة والكتابة؛ وأخذوا من الروم السياسة ونقلوا من الفرس ما للسلطة من سيادة وطاعة، وفي يثرب كانت الآبار والأشجار، واعتدال الريح، ومن نزل فيها من اليهود، ومن بقي معهم من الأوس والخزرج، وكان اليهود منطوين على أنفسهم، مهتمين بالزراعة والتجارة وتحصين مساكنهم، خاصةً وقد رأوا الأوس والخزرج في قتالٍ دائمٍ.

يثرب والطائف وسكان المناطق الصحراوية:

أما يثرب: فقد أدت الحروب إلى اضطراب الحياة فيها؛ فاقتصادها مهلهل وأفراد القبائل يحارب بعضهم بعضًا، ورؤساء القبائل لا يعدون عدة إلا للحرب وطالت الأيام بين الأوس والخزرج؛ مما جعلهم ينتظرون خلاصًا من هذا التنافس، وقد حاولوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي الخزرجي ملكًا عليهم يخضع له الجميع، لكن بعثة النبي ﷺ بددت آماله في ذلك.

وأما الطائف: فتمتعت بخصوبة التربة، وبجودة المناخ، وحسن الثمر، وجمال الموقع، وارتبطت بمكة وبالمدينة لأكثر من طريق، ونشأت بها صناعات، وإن كانت بدائية؛ كل هذا جعل أبناء الطائف يتمتعون بما فيها؛ فعاشوا في رغد ورفاهية مع تمسكهم ببداوتهم؛ فكانوا يرعون الإبل والغنم، ويهتمون بالزراعة، وكانت القبيلة هي النظام السائد فيها؛ حيث يدير شئونها رؤساء القبائل بالتشاور فيما بينهم.

وأما سكان المناطق الصحراوية في وسط الجزيرة: فهم مجموعة من القبائل الرُّحْل يتولى شئونهم مشايخهم بلا دولة أو جند أو حصون، وعاشت هذه المناطق الجدب والحر، وقلة المطر، وكان أهلها دائمًا في تنقل وراء رعيهم، ومعايشهم؛ وبالجملة فقد عاش أهل هذه البوادي حياة فقيرة؛ لبعدهم عن رحلات التجارة، وخلو بلادهم من الأنهار، والممرات المائية العذبة.

وكان مجال العمل أمام البدوي ضيقًا؛ لأن الخير فوق رمال الصحراء القاحلة نادر، ومن هنا لم يكن أمامه إلا أن يعمل للأغنياء في رعي الإبل، أو في خدمته، فإن أبت ذلك نفسه تحول إلى الغزو والإغارة. وقد رأينا أن كثيرًا من الحروب كانت تقوم لأسباب تافهة؛ فتسفك فيها الدماء بلا مبرر، وكثيرًا ما كانت هذه المنازعات بسبب دفاع البدوي عن خلق كريم، أو لردِّ ظلمٍ واضح.

حرب البسوس:

وتعتبر حربُ البسوس -وهي أطول حروبهم- صورةً رائعةً لاحترام البدوي لواجب الضيافة المقدس عند العرب، ودفاعه عن الأضياف، وقد اشتهر البدوي بالشجاعة والكبرياء، وقد أكسبته الصحراء بما فيها من مخاطر صفات جعلت البدوي أشجع من الحضري، وعوَّدَتْهُ الاعتماد على نفسه، وكان سخاؤه وكرمه مضرب المثل، -كما ذكرنا.

نسب النبي وأسرته، وولادته، وحياته حتى البعثة، ﷺ

عناصر الدرس

العنصر الأول	: النسب النبوي الشريف	٤٢٣
العنصر الثاني	: ميلاده ويُتمه ﷺ	٤٣٨
العنصر الثالث	: مرحلة نشأته وصباه ﷺ	٤٤٣
العنصر الرابع	: عمله بالتجارة، وزواجه من خديجة، وحادثة بناء الكعبة	٤٥١
العنصر الخامس	: مقدمات بعثته ﷺ	٤٥٧

النسب النبوي الشريف

ولد سيد ولد آدم ﷺ بشِعِبِ بني هاشم بمكة صبيحة يوم الاثنين، التاسع من شهر ربيع الأول، لأولِ عامٍ من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان، يوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر إبريل، سنة إحدى وسبعين وخمسمائة من الميلاد، وهذا حسب ما حققه العالم محمد بن سليمان المنصورفوري، والمحقق الفلكي محمود باشا، على اختلاف بينهم في تعيين تاريخ إبريل، وهذا فرع عن الاختلاف في التقويمات الميلادية.

روى ابن سعد: أن أمَّ رسول الله ﷺ قالت: لَّما ولدْتُهُ خرج من فرجي نورٌ، أضاءت له قصور الشام. وروي عن النبي ﷺ من حديث العرباض بن سارية ما يقارب هذا المعنى.

نشأته:

وقد ولد نبينا ﷺ بمكةَ، ونشأ وتربى ببادية العرب، جاءه الوحي من الله ﷻ على رأس الأربعين، وعاش رسالته ﷺ داعيًا إلى الله تعالى بمكة قبل الهجرة، وبالمدينة بعدها. وبلغ ما كُلِّفَ به نبيُّنا ﷺ العالَمَ بأسره، بلَّغَ النبيُّ ﷺ الرسالة وأدى الأمانة، فلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله ﷻ على هذه الأمة الدينَ، وأتم عليها النعمة.

نسبه:

ونبينا ﷺ ونحن ندرس تاريخه وسيرته ﷺ نذكر في مقدمة ذلك ما يتعلق بنسبه ﷺ وفي مبتدأ ذكر النسب الشريف: نُذَكِّرُ أن نبينا ﷺ سيد ولد آدم يوم القيامة ولا

فخر، ونذكر أنه ﷺ خيارٌ من خيارٍ من خيار، ورسولنا ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

أمه آمنة بنت وهب:

وأمه ﷺ تلتقي مع أبيه في كُلاب، فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فنسبه عند الأب والأم يلتقيان في كلاب، وكلابٌ هذا هو ابن مُرة بن كعب بن لؤي، بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مضر بن عدنان. ونسبه ﷺ من جهة أبيه وأمه مُجْمَعٌ عليه إلى عدنان، وما فوق عدنان وقع فيه الخلاف، والكل يتفق على أن نبينا ﷺ من ولد إسماعيل بن إبراهيم -عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

أبوه عبد الله:

فإذا أردنا أن نتحدث شيئًا عن والدِهِ ﷺ فهو عبد الله، أصغر أبناء عبد المطلب، وكان يكنى بأبي القُثَم، وأبي محمد، وأبي أحمد، ولقِّب بالذبيح؛ سبب هذا اللقب أن أباه لم يكن يولد له، وأن أحدَ قريشٍ قال له: يا عبد المطلب أتستطيل علينا، وأنت فذٌّ لا ولد لك، فقال عبد المطلب: أبالقِلة تُعَيِّرُنِي، فوالله لئن أتاني الله عشرةً من الذكور، أو عشرة من الولد ذكورًا؛ لأنحرنَّ أحدهم عند الكعبة. فلما تكامل بنو عبد المطلب، فصاروا عشرةً، وعرف أنهم سيمنعونه جَمَعَهُم، ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله ﷻ بذلك فأطاعوه، وقالوا: أَوْفِ بنذرك وافعل ما شئت، فقال لهم: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم قدحًا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني، ففعلوا، فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بنيّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذي نذر، وأعطاه كل رجل منهم قدحه

الذي فيه اسمه ؛ فخرج السهم على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده ، وحد الشفرة ليذبحه ؛ فقامت إليه قريش من أنديتها وهي تقول : والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعْذَرَ فيه ؛ فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه ، فذهبوا به إلى عرافة خيبر ، فقالت لهم : كم الدية فيكم؟ قالوا : عشرة من الإبل. قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرًا من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ؛ فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه ، فقد رضي ربكم ، ونجا صاحبكم ، ففعلوا ذلك حتى بلغت الإبل مائة. فقالت قريش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب ، فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة وعبد المطلب قائمٌ يدعو الله فخرج القدح في كلتيهما على الإبل ؛ فنحرت ثم تركت لا يُصَدُّ عنها إنسان ولا يُمْنع. فهذا رواه ابن هشام في سيرته.

الباويروي ابن كثير بسنده : أن أعرابيًّا قال للنبي ﷺ : "يا ابن الذبيحين ؛ فتبسم رسول الله ولم ينكر عليه". فقيل لمعاوية : ومن الذبيحان؟ قال : إسماعيل ، وعبد الله.

وقد تميز عبد الله بالعفة والطهر وحسن الخلق ، رووا أن كاهنة بمكة يقال لها : فاطمة بنت مُر الخثعمية ، مرَّ بها عبد المطلب ، ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب ، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله ؛ فقالت : هل لك أن تغشاني ، وتأخذ مائة من الإبل ؛ فعصمه الله تعالى من إجابتها ، وقال لها :

أمَّا الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ ❖ والحِلُّ لا حِلَّ فأستبينه
فكيف بالأمرِ الذي تبغينه ❖ يحمي الكريمُ عِرْضَهُ ودِينَهُ

فلمَّا تزوجت آمنة عبد الله، وحملت برسول الله ﷺ مرَّ على الكاهنة مرةً أخرى، وقال لها: هل لك فيما طلبت؟ فنظرت إليه فلم ترَ ذلك في وجهه، فقالت: قد كان ذلك أولَ مرةٍ أما اليوم لا، ماذا صنعت؟ فقال: زوجني أبي آمنة بنت وهب الزهرية، فقالت: قد أخذت النور الذي كان في وجهك، وأنشأت تقول الآن:

الآن قد ضيعت ما كان ظاهرًا ❖ عليك وفارقت الضياءَ المبارَكَ
غدوت عليَّ خاليًا فبذلته ❖ لغيري هنيئًا فَالْحَقَنْ بِنِسَائِكَ
ولا تحسبن اليوم أمْسِي وَلَيْتَنِي ❖ رُزِقْتُ غلامًا منك في مثل حالكَ

وداخلها الأسف على ما فاتها، وداخلتها الحسرة على ما تولى عنها.

عبد المطلب:

فاسمه شيبة الحمد، واشتهر بعبد المطلب؛ لأن عمه المطلب أحضره من المدينة حين نشأ عند أخواله، فلما سأله أهل مكة من هذا؟ قال لهم: هذا عبدي؛ فثبت معه اسمه هذا، وترك شيبة، وإلا فأصله أو فأصل اسمه شيبة الحمد، كان عبد المطلب شديد الوفاء بوعده، وقد ظهر ذلك من فعله حين نذر أن يذبح أحد أبنائه إذا بلغوا عشرًا.

وهو شيخ مكة، وهو زعيمها يوم أن كان قَدِمَهَا أبرهة، وكان عبد المطلب جسيمًا وسيمًا طوالًا فصيحًا ما رآه أحد قط إلا وقدَّرَهُ حقَّ قدرِهِ، صارت إليه السقاية والرفادة، وشرف في قومه، وعظم في شأنه، وكان يعرف فيه قوة الحق، وتعرف منه هيبة الملك، ومكارمه كثيرة جليلة، فقد كان سيدَ قريشٍ، لا يدافع السيادة، وكان فيهم من الصدارة بمكان، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأول من جعل دية القتيل مائة من الإبل بعد فداء ابنه عبد الله.

ومن أعماله الجليلة: أن حفر بئر زمزم بعدما أمر به في المنام، ووُصِفَ لَهُ موضعها، ولذا كانت السقاية معه، فلما حاولت قريش أن تنازعه فيها -أي في زمزم- وفي السقاية أراهم الله ما دلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم.

وله موقف آخر لما قدم أبرهة يريد هدم الكعبة، وخافت قريش وتفرقت وعزم أبرهة على ما عزم، وأراد أن يدخل مكة؛ ففر أهل قريش، وتركوا الإبل والغنم، فاستولى أبرهة عليها، فذهب إليه عبد المطلب، فاستقبله ذلك الرجل يسأله ماذا جاء بك؟ فإذا به إنما جاء يسأل الإبل والغنم ويطلب منه أن يردها إليه، فلما سمع أبرهة بذلك، قال له: أكبرتك حين رأيتك، وزهدتني فيك حين كلمتك، تسألني عن الإبل، وتترك البيت الذي هو دينك، ودين آبائك؟ عندها قال عبد المطلب تلك الكلمة التي ذهبت في الناس مثلًا: أما الإبل فهي لي، وأما البيت فله رب يحميه، أو قال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه. وكان جوادًا كريمًا فياضًا، هو أول مَنْ طَلَا الكعبة بالذهب، وكان يأمر بالعدل، وترك الظلم، ويحث على مكارم الأخلاق، ويقول: "لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة.

هاشم:

وأما هاشم: فاسمه عمرو، وهو والد عبد المطلب، ولقب عمرو العُلَا بهاشم؛ لأنه هشم الثريد لقومه بمكة، أي فتته وكسره وأطعمهم؛ وذلك أنهم أصيبوا بجهد وشدة؛ فرحل هاشم إلى فلسطين؛ فاشترى منها دقيقًا كثيرًا، وقدم به إلى مكة، فأمر به فخبز، ثم نحر جزورًا، وجعلها ثريدًا عَمَّ به أهل مكة، ولا زال يفعل ذلك معهم حتى استَكْفَوْا.

وهو من سنَّ الرحلتين، رحلةَ الشتاء إلى اليمن، ورحلةَ الصيف إلى الشام، وكان تُجَّارُ مكة قبل ذلك لا يغادرون ولا يسافرون، فركب هاشم إلى الشام، ونزل بقيصر، فلما علم به قيصرهم سأل عنه وكلمه؛ فَأُعْجِبَ به، فجعل يرسل إليه، ويدخل عليه، وجعل هاشم يتوسط عند الملك لتجار قومه من العرب؛ حتى يؤمنهم إذا دخلوا بلاده، ويقوموا بتجارتهم ويعطيهم هذه السعة حتى يستغنوا.

واشتهر هاشم بالدقة والحكمة ومكارم الأخلاق، وله وصايا حكيمة وهو يخطب في قومه، من ذلك أنه قال:

"أيها الناس نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي بن كلاب وأرباب مكة، وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد، ولكلٍّ في كلِّ حلفٍ يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة، وقطع رحم، يا بني قصي أنت كغصنيْ شجرة، أيهما كسر أوحش صاحبه، والسيف لا يصان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج خرج إلى البغي.

أيها الناس، الحلم شرف، والصبر ظَفَر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غِيَرٌ، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول يجانبكم السفهاء، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم، وحاموا الخليط يرغب في جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشرف وتهدم المجد، ألا وإن نهنهة الجاهل أهون من حزيرته، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به". وكان من أجمل الناس

وأحسنهم صورة، النور يتلألأ في وجهه كالهلال يتوقد، لم يَرَهُ أحدٌ إلا أحبه وأقبل عليه.

عبد مناف:

وأما عبد مناف: فهو والد هاشم الذي اشتهر بأفعال الخير، وكان شديدًا على الأعداء قويًّا، سمي بالمغيرة لأجل ذلك، كما كان حسنًا جميل الوجه حتى لقب بالقمر، ساد في حياة أبيه، وبرَّز بآرائه في دار الندوة وسُرَّ به والده قصي، وهو الذي سماه عبد مناف، واستبدله بعبد مناه، كما سمته أمه. قام بعد أبيه قصي بالسقاية والرفادة، واشتهر بالحكمة، وحسن السياسة.

قصي:

وأما قصي: فهو والد عبد مناف، وهو اسم مصغر من قَصِي، أي: بعيد؛ لأنه بَعُدَ عن قومه في بلاد قضاعة؛ ذلك مع أمه حين تزوجت بعد أبيه في بني عذرة، وكان له فضل في أن يعود الأمر إلى قريش بعد أن أخذته خزاعة وبنو بكر، فقاتلهم قصي ومن معه حتى تصالحوا بعد ذلك على أن يكون الأمر لقصي وبنيه؛ لأنهم الأحق والأولى، وعندها قالت قريش لقصي: أنت سيدنا، ورأينا تبع لرأيك، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة، وبنوا بيوتهم مجاورة للكعبة، وكانوا من قبل يبنونها بعيدًا في الشعاب.

وأمرهم قصي أن يجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة على أن يتركوا بين كل بيتين طريقًا يؤدي إليها، وفي نهاية هذه الطرق تأسست أبواب الحرم بعد ذلك، وقد جمع قصي لنفسه أمر الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، وبذلك حاز الشرف في مكة كلها، وبنى دارًا سماها دار الندوة جعلها مكانًا للاجتماع

والتشاور في كافة أمورهم، وقد فرض على قريش ما لم يدفعونه إليه، وهو الذي يعرف بالرفادة، يصرفه على حجاج بيت الله. ومن أقوال قصي الحكيمة التي علمها أولاده: "من عظم لئيمًا شركه في لؤمه، ومن استحسن مستقبحًا كان معه". وقد قَسَّمَ قصيٌّ المهامَ الرئيسية في أولاده؛ فأعطى عبد مناف السقاية والندوة، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة أيام منى... وهكذا.

كلاب:

وأما كلاب: فهو والد قصي، وكلاب جمع كلب، وهو مجمع نسب عبد الله وآمنة، أبوي النبي ﷺ سمي بذلك من المكالبة وهي المسارعة في التجمع على الكسب، أو جريًا على عادة العرب في تسمية أبنائهم بأسماء موحشة، كـ: ذئب، وأسد، وضبع؛ وهذا لأنهم يسمون أبناءهم لأعدائهم، ويسمون عبيدهم لأنفسهم، فيسمون العبيد بأسماء طيبة، كـ: رباح، ومرزوق، ... وغير ذلك.

ومن أسماء كلاب: الحكيم، والمهذب، ويكنى بأبي زُهرة. وزُهرةٌ هو جدُّ النبي ﷺ من قبل أمه، وأما مُرَّةٌ فهو والد كلاب، وهو اسم منقول من وصف الحنظلة والعلقمة. وقيل: منقول من وصف الرجل بالمرارة، وقيل: هو مأخوذ من القوة، ومنه قول الله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٦] أي: قوة، وكنيته أبو يقْظَة. وهذه المعاني تفيد ما كان له من قوة في الحق، وشدة وقسوة على أهل الباطل.

كعب:

وكعب هو والد مُرة، ومعناه العلو في الشرف والسؤدد، والثبات والمنزلة، وهو أول من جمع الناس، وخطبهم في يوم مُعَيَّنٍ، وهو يوم العَرُوبَة، وهو اليوم المسمى في الإسلام بيوم الجمعة، وله خطب مشهورة في قومه، منها قوله:

"أما بعد، فاسمعوا وعوا، وافهموا وتعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام؛ لم تخلق عبثًا فتضربوا عنها صفحًا، الآخرون كالأولين، والذكر كالأنثى، والزوج والفرد إلى بِلَى؛ فصلوا أرحامكم، وأوفوا بعهودكم، واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم فإنها قوام مروءتكم؛ فهل رأيتم من هالك راجع، أو ميت نشر، الدار أمامكم واليقين غير ما تظنون، حرمكم زينوه وعظموه وتمسكوا به؛ فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، لذلك جاء موسى وعيسى -صلى الله عليهما وسلم- والله لو كنا ذا سمع وبصر، ويدٍ ورجلٍ؛ لتنصبت فيها تنصب الجمل، ولأرقلت فيها إرقال الفحل".

لؤي:

وأما لؤي: فيكنى باسم ابنه كعب، واشتهر بالحكمة والحلم من صغره وكان مطاعًا محبوبًا، وغالب من الغلبة والفوز، وكان يكنى بأبي تيم، وفهر كان رئيس أهل مكة، قيل: إنه سمي بقريش، يعني أن فهرًا هذا هو قريش الذي ترجع إليه هذه البطن من بطون العرب.

مالك بن كنانة:

ومالك يكنى باسم ولده فهر، ولم ينجب سواه، والنضر هو ابن كنانة وكنانة هي ستر السيف، سمي بذلك؛ لأنه كان سترًا على قومه، ويكنى بأبي النضر، يقول عامر العدواني لابنه في وصيته: "يا بني أدركت كنانة بن خزيمة، وكان شيخًا مسنًّا عظيم القدر، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله، ومن أقواله لهم: إنه قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد، يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفًا وعزًّا إلى عزكم".

قال أبو الربيع -رحمه الله- : إن كنانة رُئِيَ وهو نائم في الحجر، فقيل له: تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر، وعمارة الجدر، وعز الدهر، فقال: كلٌّ يا ربِّي. فصار هذا كله في قريش.

خزيمة ومدركة:

وخزيمة يكنى بأبي أسد، يروى أنه مات على دين إبراهيم # وهو أول من أهدى البُدْنَ للبيت، ومدركة اسمه عمرو على الصحيح، وإلياس كان رجلًا عاقلًا أريبًا؛ يقول ابن الزبير: لما أدرك إلياس وبلغ، أي: بلغ مبلغ الرجال أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم وسيرهم؛ فبان فضله عليهم، وجمعهم على رأيه، فرضوا به فردهم إلى سنن آبائهم. ولم تزل العرب تعظمه تعظيمَ أهل الحكمة. ويذكر أنه كان يبشر بنبيٍّ من صلبه، يصلح الله به شئون الناس.

مضر

أما مضر: فاسمه عمرو، ويكنى بأبي إلياس، وكان على دين إبراهيم # اشتهر بالحكمة، وسداد الرأي. ومن أقواله: "خير الخير أعجله، واحملوا أنفسكم على مكروهها فيما يصلحكم، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبغ فواق".

نزار:

ونزار اسمه كذلك؛ لأن أباه نظر في وجهه فرأى نور النبوة، الذي كان يتنقل في الأصلاب، فلما رأى ذلك فرح ونحر وأطعم، وقال: هذا نزر يسير فسمي

بـ"نزار"، ويكنى بأبي إياد، ومعد يضرب به المثل في الخلق، يقول عمر بن الخطاب: "اخشوشنوا وتمعددوا" أي: كونوا على خلق معدٍ.

عدنان:

وعدنان هو أول من كسا الكعبة، وكان الناس يعرفون أن نبيًّا يخرج من صلبه، ويكنى بأبي معد، وقد سبقت الإشارة إلى إجماع النسابين على معرفة نسبه ﷺ إلى عدنان، واتفاقهم أيضًا أن عدنان من نسل إسماعيل # إلا أنهم يختلفون في عدد آباء عدنان إلى إسماعيل؛ ولذلك اكتُفِيَ هنا بذكر نسبه ﷺ إلى عدنان مع التأكيد على أن عدنان من ولد إسماعيل.

روى ابن سعد: أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه عدنان ثم يمسك: ثم يقول: "كذب النسابون" ويرى السهيلي: أن هذا الحديث من قول ابن مسعود. ويقول عمر بن الخطاب: إنما ننتسب إلى عدنان، وما فوق ذلك لا ندري ما هو.

كرم نسبه وعلو محتده:

وإذا تأملنا في هذا الإيجاز؛ فإننا نرى شرف النبي ﷺ في نسبه المبارك وعلو مَحْتِدِهِ، فجميع آبائه كرام ذوو شأن، يلمح في سيرتهم الخير، ويعرف فيهم الفضل، حماة البيت، والمقربون من الناس، والمؤسسون دار الندوة لأهل مكة. وقد رأينا فيهم معاني العلو والثبات والقوة، والأناة، والسيادة، والسؤدد والحسن، والجمال كل ذلك تقلب فيه ﷺ وهو نطفة في صلب آبائه، هذا نسبه من جهة أبيه.

أما نسبه من جهة أمه فهو إلى كلاب، وعند كلاب يلتقي نسبها مع أبيه فنسبه من جهة أمه عَالٍ هو الآخر، يصفه ابن هشام فيقول: إن آباء آمنة من فضلاء قريش،

وسادة بني زهرة، ولم يكن للنبي ﷺ أخ ولا أخت من أمه وأبيه.يقول الماوردي: لم يشْرَكه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت؛ لانتهاء صفوتهما إليه وقصور نسبهما عليه؛ ليكون مختصًّا بنسبٍ جعله الله للنبوة غاية، ولتفرده بها آية، فيزول عنه أن يشارك فيه، ويماثل به. وهذا يصدقه نبينا ﷺ في حديثه الذي قال فيه: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)).

إذن نبينا ﷺ خرج من نكاح، ولم يكن من سفاح، وكان ﷺ بموضع الشرف، والسؤدد والسيادة في النسب، ومكارم الخلق، وفي الحديث الآخر: ((تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه))، فأصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا فهم خيار الناس.

قال ابن حجر في (الفتح): وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه، فلا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفًا في الجاهلية، فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: ((أنا ابن العواتك)) والعاتك هو الكار الشجاع في القتال، والمرأة العاتك هي الشريفة الكريمة.

وقد ثبت أن أصول النبي ﷺ وآباءه الكرام كانوا في الذروة من الشرف والسؤدد والمنزلة، والكرامة والمكانة، فإذا أردنا أن ندرك صلة بني هاشم، بسائر بطون العرب؛ فإن هذه الأسرة الهاشمية المنتسبة إلى هاشم بن عبد مناف، وهي كما عرفنا أسرة عربية يمتد نسبها إلى إبراهيم ﷺ ورسول الله ﷺ واحد من العرب

يتصل مع كل عربي بنسب وصلة؛ لأنهم جميعًا من أبناء إسماعيل، فعروبته ﷺ ثابتة بموطنه وجنسه ولغته.والإسلام حين ذكر النبي ﷺ ذكر عربيةَ لسانِهِ وذكر عربية الكتاب الذي أنزل عليه فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] وقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم: ٩٧] أي: باللسان العربي. بهذا نكون قد أتينا على ما يتعلق بذكر النسب النبوي الشريف، ودلالات هذا النسب المبارك.

إرهاصات الميلاد:

الإرهاصات هي تلك الأمور التي أجراها الله ﷻ قبيل مبعث النبي ﷺ وهي خارقة للعادة، يظهر الله تعالى بها أن الذي سَيُرْسَلُ أو سيبعثُ هو نبي من أنبيائه، وقد ذكر مؤرخو السيرة عددًا من الإرهاصات، من ذلك:

أن سعدًا أخبر أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدْته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وكذا روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية ما يقارب ذلك، وهي إرهاصات كثيرة، ذكرها علماء السير والتاريخ؛ فحسان بن ثابت أخرج عنه محمد بن إسحاق قوله: "والله، إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت؛ إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به" وهذا في صحيح السيرة النبوية.

وعن أسامة بن زيد، قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: قال لي حبر من أحبار الشام: قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه، واتبعه. ورُئِيَ أن إرهاصات البعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة

من إيوان كسرى. وخمدت النار التي عبدها المجوس. وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوه، بعد أن غاضت. أخرج ذلك البيهقي وإن لم يقرّه بعض علماء السير.

وقد روى ابن سعد أيضًا عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به -تعني رسول الله- فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع على الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء.

وقالت أيضًا: لما ولدته خرج مني نور أضاء له قصور الشام؛ فولدته نظيفًا، وولدته كما يولد السخل ما به قذر، ووقع إلى الأرض، وهو جالس على الأرض بيده. هذه الإرهاصات كثيرة عديدة كلها تشير إلى حدوثِ أمرٍ جديدٍ يتأثر به العالم كله، فيصلوا إلى هذا العالم من الأمر خير كثير، ونفع عميم، أدرك من شاهد هذه الإرهاصات أو بعضها حدوث هذا التغيير، لكنه لم يرتبط في أذهانهم بالمولود الجديد، اللهم إلا هذا النفر القليل من أهل الكتاب الذين كانوا يقرءون الكتاب، ويروون صفة رسول الله ﷺ ويقرءونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

الموقف من هذه الإرهاصات:

صار العلماء القدامى على تصديق كلِّ أثرٍ صح سنده؛ فلم يبحثوا عن علته أو غايته، إلا أننا رأينا في العصر الحديث عددًا من المستشرقين، بل وعددًا أيضًا من المسلمين الذين كتبوا في السيرة، يناقشون تلك الإرهاصات؛ فتارةً يوجد من يرفض تلك الإرهاصات باسم العلم والعقل من غير نظر إلى السند، أو مصدر رواية الحديث، ومنهم من يقبلها بأسرها على علاتها، ومنهم من رفض هذه

الإرهاصات؛ بحجة أن الإسلام لا يحتاج في حركته وانتشاره إلى هذه الإرهاصات، كما أنها لا تؤدي إلى إسلام أحد، ولم تكن دليلًا على صدق الرسالة يوم بعث النبي ﷺ ومع ولادة المصطفى ﷺ فقد ولد في يوم مولده أيضًا مواليد أخر وكثر؛ إذن يرون أن هذه الإرهاصات، وهذه الأخبار لا تصح؛ لأن العقل يرفضها والعقل يردها.

يقابل هؤلاء طائفة من المؤرخين يجهدون أقلامهم غايةَ الجهد في استقصاء هذه الإرهاصات، وتلك البشائر يسردون ما وقع تحت أيديهم من غير تمحيص ولا تثبت، ولا شك أن هذا كما هو منهج غير معروف عند المحدثين، والفقهاء الضابطين؛ فهو أيضًا يجمع هذه الأخبار من غير تثبت ولا تأنٍّ في هذه الروايات، وهذا خطأٌ لا يقبل، كما أن رد هذا بالعقل المجرد خطأ أيضًا لا يكون مقبولًا، ولم يقل أحد إن هذه الإرهاصات عليها يتوقف ثبوت الإسلام.

والحق: أن هذه الإرهاصات إذا ثبتت وتأكدت وصحت بالسند عن نبينا ﷺ فإن هذا لا يكون إلا بشرى، وذكرى وتهيئة وتوطئة، وإشارة إلى إرادة الله ﷻ بهذه البشرية الخير، وأن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قد أذن في هذا اليوم بتغيير أحوال وأوضاع ذلك العالم الذي مقته الله ﷻ حين نظر إلى عربه وعجمه؛ فوجدهم على غير الجادة الصحيحة؛ عندها فإنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أذِنَ باصطفاء محمد ﷺ وأذن باختياره رسولًا، وهذا الاصطفاء وذلك الاختيار الرباني لا يدرك سره إلا الله - جل في علاه- وهو سبحانه وتعالى أعلم بخلقه، وأعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بما يصلح خلقه، وما ينفعهم.

فإذا وجدت بعض المبشرات والمذكرات والعبر يوم مولده ﷺ وقد صح بذلك السند في روايتها، فلماذا تُرَدُّ، ولماذا ترفض؟ نعم، إنما يرفض الضعيف والشاذ،

والذي لا يصح إسنادًا، والذي لا يثبت روايةً، أما ما صح وثبت فلا حرج في قبوله، بل إن هذا نوع إيذان بابتداء هذا النور، والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- شقَّ القمرَ لنبينا ﷺ وأفاض الماء من بين أصابعه الشريفة، وجعل الشجر والحجر يحدثانه في جملة من معجزاته ﷺ البينة الظاهرة التي تشعر الإنسان بأن هذا رسول من عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذه الكائنات مدركة عابدة لربها -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تسبح وتذكر، وتعلم وتتكلم، وقد مر معنا في قصة سليمان حديث الطير معه، ورأينا وسمعنا كلام النمل حين أمرت نملة بأن يدخل النمل مساكنهم، ونحو ذلك حتى أنه ﷺ قال: ((أُحدٌ جبلٌ يحبنا ونحبه)) ونحن في إطار الدعوة ندرك ضرورة وجود هذه المنبهات الموقظة من قبيل عرض الشيء الهام؛ ليتنبه الغافلون، ويستيقظ النائمون فهذه قضية علمية معاصرة لا حرج في ذكرها، ولا في بيانها، وتصحيح ما صح منها، وتضعيف ما لم يثبت عن رسول الله ﷺ بسندٍ صحيحٍ.

ميلاده ويتمه ﷺ

ذكرنا أن نبينا ﷺ وُلِدَ في شهر ربيعٍ الأول من عام الفيل بمكة المكرمة، وكان ذلك في دار أبيه التي كانت موجودة بشِعْبِ بني هاشم. وقيل: إنه ولد بدار عند الصفا كانت لمحمد بن يوسف أخو الحجاج واشترتها زبيدة زوجة هارون الرشيد، وبنت مكانها مسجدًا، وهي اليوم بناءٌ صغير موجود بجوار الساحة الجنوبية للحرم، وبها مكتبة صغيرة عامة تعرف بمكتبة الحرم المكي.

ومما يدل على ثبوت أنه ولد يوم الاثنين: ما ورد أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ قال ﷺ: ((ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت، أو

أنزل علي فيه)) وقد ثبت أيضًا أن نبينا ولد عام الفيل كما في حديث قيس بن مخرمة الذي قال فيه: "ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل".

وعليه فإن جمهور المؤرخين وعلماء السيرة يتفقون على أن نبينا ﷺ ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل حين طلع الفجر، وهم متفقون أيضًا على أن أباه عبد الله مات وهو حمل في بطن أمه، وكانت وفاة عبد الله بالمدينة عند أخواله من بني النجار؛ حيث دفن بدار عدي النابغة، يقول في ذلك ابن كثير: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير من عيران قريش يحملون تجاراتهم، فلما فرغوا من تجارتهم مروا بالمدينة وعبد الله يومئذ مريض، فقال: أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار فأقام عندهم مريضًا شهرًا، ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله في المدينة، وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي، ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه فأخبره.

كان وقع وفاته على أبيه وقعًا شديدًا، وكذا كان الأمر على إخوته، وكان عمر عبد الله خمسًا وعشرين سنة على الصحيح.

ولد نبينا ﷺ يتيمًا؛ ذلك أن عبد الله لم يترك مالًا يورثه لزوجه وولده، اللهم إلا جاريته أم أيمن، وخمسة جمال وقطعة من غنم، ولذلك ولد النبي الكريم ﷺ يتيمًا فقيرًا لحكمة أرادها الله تعالى.

ولا شك أن اليتم في مجتمع مكة في حدِّ ذاتِهِ منقصة للوليد، وبخاصة في مجتمع يفتخر بالنسب والحسب والقبيلة والجماعة.

واليتيم في تلك البيئة ينشأ منعزلًا لا يحسن معاملة الناس ينمو ضعيفًا في بدنه وسلوكه، لا يتمكن من مواجهة مصاعب الحياة، فإذا وُجِدَ مع اليتم فقر فإن

الصغير يعيش مهملًا لا يهتم به أحد، ولهذا وجدنا القرآن المكي ينبه أهل مكة على خصلة من خصال الشر عندهم، وهم أنهم لا يتحاضون، ولا ينبعثون لإكرام اليتيم، وإطعامه، والإحسان إليه؛ فاليتيم ضعيف مهمل منعزل، تؤثر معيشته في خلقه وفي سلوكه، ولهذا وجدنا القرآن الكريم يقرر ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: 9] ويحذر ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر: 17، 18]. وينبه ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الماعون: 1، 2].

وفي ولادته ﷺ يتيمًا فقيرًا إشارة إلى بعض الحكم الإلهية التي يمكن أن نستفيدها، وأن نستنبطها في العصر الحديث، ومن أهم تلك الحكم: أن الله ﷻ أراد أن ينشأ نبيه ﷺ محوطًا بعناية الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مرعيًا بعينه ﷻ منذ اللحظة الأولى؛ لوجوده في الدنيا حتى لا تفسر هبات الله تعالى لنبيه بسبب من أبيه أو من أمه أو بتأثير من ماله أو غناه، فلو فكر عقلاء هذا الزمان في تميز هذا اليتيم عن أقرانه؛ لأدركوا أن هذا من العناية الإلهية بنبينا ﷺ.

وفي هذا أيضًا ردٌّ لشبهة يلقيها أفاكون آثمون حين يمكن أن يقولوا: إنه درس على يد أبيه: أو تلقى عن أمه لم يكن له أب يحيا في ولادته حتى يعلمه، ولم تكن له أمه لتمتد حياته حتى تربيه وتعلمه أيضًا؛ ولهذا لما أفلس كفار مكة؛ جعلوا يقولون -كما حكى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عنهم- قولهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: 4، 5].

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 103].

إن ولادة النبي ﷺ يتيمة تؤكد حقيقة قد تغيب عن بعض الناس، وهي أن الأمور كلها بقدرة الله، وليس للإنسان في عمله إلا أن يبذل السبب في فعله أو اكتسابه، والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يخلق ما يشاء، وأن الإنسان لا يعلم الظواهر ولا البواطن، وأن ذلك كله إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فنبينا ﷺ بظواهر الحياة والأسباب، والأشياء لم يكن مؤهلًا لئن يصل إلى ما وصل إليه؛ فلم يبقَ إلا أن نعمة الله ورحمة الله، وعناية الله هي التي أحاطته من كل جانب واحتفت به من كل كنف؛ فجعلت النبي ﷺ ينعم في حياته بالأمن والإيمان، وبالعافية والصحة، وباليُمْنِ والبركة.

وكان ﷺ مباركًا في ولادته، مباركًا في رضاعته مباركًا في نشأته وتربيته، وهذا ظاهر في سيرته -كما ستتبين ذلك- ظاهر في تسميته، كما رأينا قصة ذلك.

قال السهيلي: سئل عبد المطلب ما سميت ابنك؟ فقال: محمدًا. فقيل له: كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم؛ وكان هذا لهذا لرؤيا رآها في منامه، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في الأرض، طرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها فقص تلك الرؤيا؛ فعبرت له بمولود يكون من صلبه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، يحمده أهل السماء والأرض؛ فلذا سماه محمدًا.

وكان النبي ﷺ يذكر فضل تسميته محمدًا فيقول: ((ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؛ يشتمون مذممًا، وأنا محمد)) يقول القاضي عياض: سماه الله تعالى في كتابه محمدًا وأحمد، فمن خصائصه التي جعلها الله له أن

ضمن أسماءه ثناءه فطوى أثناء ذكره عظيم شكره، فأما اسمه أحمد، فأفعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مُفَعَّل، وهي أيضًا مبالغة من كثرة الحمد.

فهو ﷺ أجل من حمد، وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمدًا، فهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة، ليتم له كمال الحمد، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته، وهو أن الله ﷻ حمى اسمه أن يسمى بهما أحد قبل زمانه.

أما أحمد الذي أتى في الكتب، وبشرت به الأنبياء، فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك، وكذلك محمد أيضًا لم يسمَ به أحد من العرب إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبيًّا يبعث اسمه محمد.

شاع قبيل وجوده ﷺ وقبيل أن يولد أن نبيًّا يبعث اسمه محمد، فسمى قوم من العرب أبناءهم بذلك؛ رجاء أن يكون أحدهم، وهم محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعة السلمي لا سابع لهم ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدِّعي النبوة أو يدعيها أحد له أو أن يظهر عليه سبب يشكك معه أحد في أمره حتى تحققت السمتان الحمد والثناء له ﷺ فلم ينازع فيهما.

وأخيرًا: فإن العالم كله قبيل بعثته ﷺ وقبيل مولده كانوا في انتظاره ﷺ وعلى هذا فإن حدوث الميلاد محاطًا بتلك الحكم والإرهاصات يمثل عوامل تصديق لرسالة الرسول بعد مبعثه، ويعد الدوافع الإيمانية التي يقرها العقلاء، ويعتبرها

العلماء لتكون تمهيدًا وبيانًا، وتوضيحًا أن النبي ﷺ مرسل من عند ربه؛ ليظهر أن النبوة صناعة ربانية، ولا مانع من جريان الأحداث معها على نحوٍ خارقٍ لعادة الناس، كما وقع ذلك لنبينا ﷺ في مواطن كثيرة من سيرته، والله أعلم حيث يجعل رسالته اللهم صل على محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

مرحلة نشأته وصباه ﷺ

كانت عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم؛ ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، التمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ الرضعاء واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب، وكانت ذات زوج، كان زوجها الحارث بن عبد العزى، المكنى بأبي كبشة، وهو من نفس القبيلة، وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة، عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة، أو جزامة بنت الحارث، وهي الشيماء التي غلب لقبها على اسمها.

وكانت مرضعته تحضن رسول الله ﷺ كما تحضن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وكان حمزة عم نبينا ﷺ مسترضعًا أيضًا في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يومًا، وهو عند أمه حليمة، فكان حمزة رضيعَ رسول الله ﷺ من وجهين: من جهة ثويبة، ومن جهة هذه المرأة السعدية.

بركة النبي ﷺ في بني سعد:

ولقد رأت حليمة من بركة النبي ﷺ ما لم ينقضِ منه العجب، حكت ذلك في مواضع كثيرة، كما نقل ابن إسحاق عنها، فكانت تحدث: أنها خرجت من

بلدها مع زوجها، ومعها ابن لها صغيرٌ ترضعه في نسوةٍ من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء، لم تبقِ لنا شيئًا -أي: سنة شديدة- قالت: فخرجت على أتانٍ لي قمراء، معنا شارفٌ لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائِهِ من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم، وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعن الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي، ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل -أي: امتلأ ضرعها- قالت: فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعًا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم،

حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها شأنًا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعدٍ، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسانٌ قطرة لبن، ولا يجدها في ضرعٍ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبَضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلْتُه.

وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا، قالت: فقدمنا به إلى أمه، ونحن أحرص على مكثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركتي ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا.

حادثة شق الصدر:

بقيﷺ في بني سعد حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة من مولده، وقع حادث شق صدره، وهو حادث ثابت في السنة الصحيحة من حديث أنس "أن رسول الله ﷺ: ((أتاه جبريل وهو يلعب من الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظُّ الشيطانِ منك، ثم غسله في طست من ذهبٍ بماءِ زمزم)) ثم لأمه -يعني: أعاده إلى مكانه- وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني: مرضعته- فقالوا: إن محمدًا قد قُتِلَ، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون ﷺ وعندها خشيت حليمة بعد هذه الواقعة على ابنها محمد، فردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين".

أمُّ النبي ﷺ تزور قبر زوجها وفاءً له:

ثم إن آمنة رأت أن من الوفاء لزوجها أن تزور قبره بالمدينة، فخرجت من مكة قاطعة الرحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترًا، ومعها اليتيم محمدٌ ﷺ ومعها خادمتها أم أيمن، ومعها قيمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا، ثم قفلت، وبينا هي راجعة لاحقها المرض، وألح عليها في أوائل الطريق، فماتت بالأبواء، بين مكة والمدينة.

النبي ﷺ يعود إلى حضانة جده عبد المطلب:

ورجعت القافلة مرة أخرى بلا آمنة استقبلها عبد المطلب، فضم حفيده إليه، وكفل محمدًا ﷺ ومعه حاضنته أم أيمن تخدمه، وبقيت ذكريات تلك الرحلة في عقلِهِ ﷺ ويظهر هذا حين هاجر في الإسلام إلى المدينة بعد سبعٍ وأربعين سنة من تلك الحادثة، فنظر إلى أُطِمٍ -أي: إلى حصون في بني النجار- وقال: كنت ألاعب أنيسة، وهي جارية من الأنصار على هذه الأُطُمِ، وكنت مع الغلمان أبناء أخوالي نطير طائرًا كان يقع علينا. وأحسنت العوم في بني عدي بن النجار، وقال: وفي دار بني عدي نزلتُ مع أمي، وفيها قبر أبي، ذكريات باقية يصورها ﷺ وكان يذكر حاضنته أم أيمن، فيقول: ((أم أيمن أمي بعد أمي))، ((وقد زار النبي ﷺ بعد البعثة قبر أمه آمنة، فبكى وأبكى، فلما سئل ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: تذكرت رحمتها فبكيت)).

كانت مشاعر العاطفة في فؤاد عبد المطلب تربو نحو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصابٍ جديد نكأ الجروح القديمة، فرقَّ عليه رقةً لم يرقها على أحدٍ من أولاده أو أحفاده، فكان لا يدع محمدًا لوحدته المفروضة عليه، بل يؤثره على أولاده.

قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراشٌ في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا

له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسر بما يراه، ويسره ما يراه ويصنع محمد ﷺ.ولثمان سنواتٍ وشهرين وعشرة أيامٍ من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيدة إلى ابنه أو إلى عم النبي ﷺ أبي طالب، وهو شقيقُ أبيه، قام عمه الشقيق، فنهض برعاية محمدٍ ﷺ وجعله في موضع التقدير، وضمه إلى ولده، بل قدمه عليهم، واختصه بمزيد التفضيل، والتوقير، والاحترام، وظل فوق أربعين سنة يدافع عنه، ويعززه في قومه، ويبسط عليه حمايته، يصادق ويخاصم من أجله، وسيأتي ذلك في ذلك سيرته ﷺ.

رحلته ﷺ إلى الشام:

ولما بلغ نبينا ﷺ اثنتي عشرة سنة، ارتحل به أبو طالب متاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بُصْرَىَ، وهي معدودة من الشام، وكانت في ذلك الوقت تحت حكم الرومان، وكان في ذلك البلد راهب عرف باسم بحيرة، واسمه جرجيس، فلما نزل الركب، خرج إليهم، فأكرمهم بالضيافة، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، وعرف رسول الله ﷺ بصفته، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

لما نظرَ صاحبُ ذلك الدير لمحمدٍ ﷺ قال لأبي طالبٍ: ما هذا الغلام منك؟ فقال أبو طالب: هو ابني، قال الراهب: ما هو ابنك، وما ينبغي أن يكون له أب حي، قال أبو طالب: ولم؟ قال الراهب: لأن وجهه وجه نبي؛ ولأن عينه عين

نبي، فقال أبو طالب: وما النبي؟ فقال له الراهب: الذي يوحى إليه من السماء، فينبئ أهل الأرض، فاتقِ عليه من اليهود.

وفي بعض السير: أنه قال: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين، فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق حجرٌ ولا شجر إلا وخَرَّ ساجدًا، ولا تسجد إلا لنبيٍّ، وإني لأعرفه بخاتم النبوة، في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفًا عليه من اليهود فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة.

حرب الفجار:

فلما بلغ نبينا ﷺ الخامسةَ عشرةَ من عمره كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين قيس، وكان قائد قريشٍ وكنانة حرب بن أمية؛ لمكانته فيهم سنًّا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس، وسميت بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي.

النبي ﷺ يرعى الغنم:

وقد رعى نبينا ﷺ صغيرًا الغنم؛ فعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ)). وعن أبي سعيد الخدري قال: افتخر أهل الإبل والشاة، فقال رسول الله ﷺ: ((بُعِثَ موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم، أرعاها لأهلي بأجياد)).

وما الحكمة في أن يرعاها نبينا ﷺ وأن يقدِّر الله ﷻ ذلك لأنبيائه جميعًا؟!!!

لعل رعيَ الغنم يُعَوِّدُ على المسئولية؛ ذلك أنه عمل شاق، يكفي في تصور مشقته أن الراعي يعيش واقفًا متحركًا طوال وقته؛ حيث تسرح الغنم وتمرح، وهذه أعمال في حد ذاتها تحتاج إلى قوةٍ وطاقةٍ، تُعَلِّمُ أيضًا الصبر والتحمل، فهذا يحتاجه النبي إلى أن يتخلق بهذا الخلق، خلق الصبر والحلم.

وهو أيضًا يعلم الشفقة؛ لأن النبي ﷺ إذا صبر على رعيها وعلى جمعها بعد تفرقها، وعلى نقلها من مسرحٍ إلى مسرح، وأن يدفع عنها عدوها، من سبُع، ومن سارقٍ، ... وغير ذلك؛ فإنه سيألف الصبر على هذه الأمة، ويتحمل اختلاف الطباع عليه، وتفاوت العقولِ عنده، ويكون تحمله لمشقة ذلك أسهل بعد أن تدرب عليه.

وهذا أيضًا يعلم شمول الرعاية، كما يعلم التسوية والعدل بين الناس، إنها مسئوليات عديدة تحتاج رعاية مستمرة، وتحتاجُ إلى تسويةٍ وعدالة في كل أمرٍ بين الناس والرعية.

ولا شك أن السرح بهذه الأغنام يربي في الإنسان ملكة التأمل والتفكر والتدبر؛ لأنه يعيش عامة نهاره في فسحة الجو الطلق أثناء النهار يعيش يتنفس هواء الحرية؛ هواءً نظيفًا تحييه أشعة الشمس، ويغمره ضياء القمر، يتصل هذا الراعي في وجوده بالأفلاك والعوالم جميعًا، فهو يتأمل، ويتدبر، فمدرسة الرعي تقوي البدن، وتقوي العزم، وتقوي العقل والفكر.

ولا شك أن الراعي يكتسب الشجاعة أيضًا؛ فإنه يعمل على حماية غنمه من الذئاب واللصوص، فهو يحتاج إلى شجاعةٍ تعينه على هذه الحماية ليلًا ونهارًا، والأنبياء وهم يقومون بالدعوة يتصدى لهم الأعداء من شياطين الإنس والجن،

فهم محتاجون للشجاعة والجرأة، حتى يقوموا بهذا الواجب، وهم يتعلمون في أثناء هذا الرعي التواضع أيضًا ، وترك الكبر؛ لأن رعاية الغنم، والحرص عليها عمل يحتاج إلى جهدٍ دءوبٍ، بعيد عن الخيلاء حيث لا فخر، وحيث لا مُرَاءَاة بعملٍ كله تعب، وكله مشقة، يكون تحت حر الشمس، أو في برد الشتاء. والنبوة في حاجةٍ إلى هذا التواضع الذي يحمل، ويجعل الأنبياء يتعاملون بذلك الخلق الكريم مع الناس كافة.

ولا شك أن رعي الغنم دون غيرها من الأنعام؛ لكثرة عددها، وسرعة حركتها، وسهولة تفرقها، لعدم ربطها أو تقييدها، أما الإبل والبقر والخيل عددها قليل، وربطها وتقييدها بالحبال أمر عادي، كأن الله تعالى يعلم رسله -عليهم السلام- حسن التعامل مع الناس أحرارًا، وأن لا ينتهكوا حريتهم، ولا حقوقهم، ولا يسلبونهم شيئًا من خصائصهم التي خلقهم الله ﷻ عليها.

حلف الفضول:

على إثر ما وقع من حرب الفجار تداعت قريش وقبائلها من بني هاشم، وبني المطلب، وبني زهرة، وغيرها إلى ما سمي بحلف الفضول، وكان هذا في ذي القعدة في شهرٍ حرام، تداعت هذه القبائل، فاجتمعت في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسنه وشرفه، تعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها، وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته.

وشهد نبينا ﷺ هذا الحلف، وقيل: إنه كان قبل البعثة بعشرين عامًا، وهذا الحلف أو ذلك العهد، قال النبي ﷺ عنه بعد أن أكرمه الله بالرسالة: ((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمرْ النَّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبته))، هذا الحلف روحه تنافي حمية الجاهلية وعصبيتها.

قيل في سببه: أن رجلًا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الأحلاف، عبد الدار ومخزومًا، وجمحًا، وسهمًا وعديًّا، فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعارٍ يصف فيها مظلمته، ويرفع بها صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك، حتى اجتمع الذي مضى ذكرهم في حلف الفضول، فقاموا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه حقَّ ذلك الرجل وبعدها أبرموا ذلك الحلف.

والسر في تسميته بالفضول: أن العرب بعدما تحالف هؤلاء قالت: لقد دخل هؤلاء في فضلٍ من الأمر -أي: قاموا بعملٍ فاضل- وقيل: سُمِّيَ حلف الفضول؛ لأن الذين تحالفوا اتفقوا على إخراج فضول أموالهم للأضياف، وعلى التأسي في المعاش. بهذا نكون قد أتينا على ما يتعلق برضاعه في بني سعد، وحادثة شق صدره الشريف ﷺ وعناية عبد المطلب بحفيدة، وعناية أبي طالبٍ بابن أخيه، وما يعني تبع ذلك من بعض أعمال ﷺ في نشأته وصباه، من رعي الغنم، ومن شهوده حرب الفجار، وحلف الفضول.

عمله بالتجارة، وزواجه من خديجة، وحادثة بناء الكعبة

النبي ﷺ يتاجر بمال السيدة خديجة:

لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، وكان -كما قدمنا- يهتم بأحوال عمه أبي طالب، وبكثرة عياله، لما بلغ هذا السن؛ وجد أن رعي الغنم لم يعد يناسبه، وأن دخله من الرعي قليل لا يفي بحاجته، ولا يعين عمه، فأخذ يفكر في عملٍ آخرَ يحقق له ما يتمنى، لم يطل به البحث؛ إذ قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليست لنا مادةٌ ولا تجارةٌ، وهذا عير قومك قد حضر أوان خروجها إلى

الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالًا من قومك في عيرانها فيتجرون لها في مالها، ويصيبون منافعَ، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها؛ لأسرعت إليك، وفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها عنك من طهارتك، فقال الرسول ﷺ يا عمي فلعلها ترسل إليَّ في ذلك.

وكانت خديجة < قرشيةً كثيرة المال، عريقة الأصل، تتجر بمالها، وترسل عيرانها مع القوافل برجالٍ تستأجرهم، وتشاركهم في هذه التجارة بجزءٍ من الربح، ومكة كانت مشتهرة بالتجارة؛ حيث لا زرعَ فيها، ولا صناعة، وما يدخلها من بضاعةٍ فهو مستورد من الشام أو اليمن، وعادة التجار أن يبحثوا على الرجل الأمين الصادق، يتعاملون معه؛ لأنه يصون أموالهم ويحفظها من الضياع.

وقد رغب أبو طالب من نبينا ﷺ أن يتجر في مال خديجة لشدة ثقته في ابن أخيه، ولما اشتهر به في مكة من الأمانة، ثم إن الأمر جرى على هذا؛ فإن نبينا ﷺ عمل مع خديجة في مالها، فرأت من الأمانةِ والبركةِ ما لم ترَ قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى في النبي ﷺ من خِلالٍ طيبةٍ، ومن صدقٍ وأمانة، ومن شمائلَ كريمةٍ، وفكر راجح، ومنطقٍ صادق، ونهجٍ أمين، فوجدت ضالتها المنشودة.

النبي ﷺ يتزوج السيدة خديجة:

وكان السادات من قومها والرؤساء يحرصون على زواجها، فَتَأْبَى عليهم ذلك، فتحدثت فيما تريد، وكلمت صديقتها في ذلك، وهذه المرأة ذهبت إلى النبي ﷺ لتفَاتحه في أن يتزوج خديجة، فرضي نبينا بذلك، وكلَّم أعمامه فذهبوا إلى عم خديجة، فخطبوها إليه على إثر ذلك تم الزواج.

وحضر العقدَ بنو هاشم ورؤساء مُضَر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها نبينا ﷺ عشرين بكْرةً، وكان سنها > إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذٍ أفضل نساء قومها نسبًا، وحسبًا، وغنًى، وثروةً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج غيرها حتى ماتت > وكانت قد تزوجت قبل نبينا ﷺ برجلين مخزوميين هما عتيق بن عبد الله بن عامر بن مخزوم، وولدت له عبد مناف وهند، والثاني هو أبو هالة، وهو زرارة بن النباش من بني عدي، وولدت له هالة وهندًا والطاهر، ثم إنها ترملت > بوفاة زوجها الثاني، ورفضت الزواج، فلها أولادها. فلما بلغت الأربعين رأت في نبينا ﷺ ذلك الرجل الطيب الطاهر النقي الذي يعرف بالصدق والأمانة، فلا هو في مطمعٍ من مالها، ولا هو في رغبةٍ من شيءٍ فيما بين يديها؛ عند ذلك رغبت هي في زواجه ﷺ فرزق منها الولد، رزق منها ﷺ جميع أولاده إلا إبراهيم، فولدت له القاسم، وبه كان يكنى، ثم زينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر.

ومات بنوه ﷺ كلهم في صغرهم، أما البنات: فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن، وهاجرن إلا أنهن أدركهن الوفاة في حياته ﷺ ما عدا فاطمة > فقد تأخَّرَ موتها بعد نبينا ﷺ فلحقت به بعد ستة أشهر.

بناء الكعبة:

وبعد خمسٍ وثلاثين سنة من مولد النبي ﷺ وبعد مرور عشر سنين بعد زواجه قامت قريش ببناء الكعبة؛ وذلك لأن الكعبة المشرفة، هي ذلك البناء المربع المجوف، المقام وسط المسجد الحرام، وهي تتوسط العالم كله، وهي أول بناءٍ وضعَ في الأرض بنتها الملائكة بصورة بسيطة، وكثيرًا ما كانت تتأثر بالنار،

فتحترق، وبالسيول فتتصدع، وبغير ذلك من عدوان الناس، ولذا تكرر بناؤها قبل الإسلام، وبعده:

بنتها الملائكة أولًا، كما في الحديث أن النبي ﷺ سئل أي مسجد وضع في الأرض أولًا؟ قال: ((المسجد الحرام. قال السائل: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قال: كم بينهما؟ قال ﷺ: أربعون سنة))، والحديث في [البخاري] من رواية أبي ذرٍ > .

توالى البناء، فبلغ عددًا ذكر المؤرخون على اختلافٍ بينهم أن هذه الكعبة بنيت مرات، فمرة هي بناء إبراهيم # وأخرى هي بناء قريش، وثالثة هي بناء عبد الله بن الزبير } . ولا شك أن هذا البناء لم يكن بناءً وإنما هو ترميم، وإصلاح، وتجديد، والبناءات التي ذكرها المؤرخون للكعبة كثيرة، فمنهم من قال: بناء آدم، وبناء أولاده، وبناء العمالقة، وبناء جُرْهُم، وبناء قُصي بن كلاب، وبناء قريش، وبناء عبد الله بن الزبير، وبناء الحجاج بن يوسف، وهذا كله مذكور في كتب السير، الذي يعنينا أن الكعبة كانت مبنيةً بناءٍ قصيرٍ فوقَ القامةِ ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت للعوادي التي أدهت بنيانها، وصدعت أركانها وجدرانها، وكان هذا كما قلنا قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين.

ثم إن الأمر ازداد بسيلٍ جرفَ مكةَ، وكان سيلًا شديدًا انحدر إلى البيت الحرام، أوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصًا على مكانتها، واتفقوا على ألا يدخلوا في بنائها إلا طَيبًا، فلا يدخلوا فيها مهر بغيٍ، ولا يدخلوا فيها ربًا، ولا مظلمة لأحدٍ من الناس، وكانوا يهابون أن يهدموها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، وتبعه الناس، لما رأوا أنه لم

يصبه شيء، ولما شرعوا في هذا الهدم جعلوا يتابعون الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم # ثم أرادوا أخذ الهدم في البناء، فجزءوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولَّى البناءَ بَنَّاءٌ رومي اسمه "باقوم".

فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع بينهم لعدة ليالٍ، واشتد الأمر حتى كاد يتحول إلى حربٍ ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أولَ داخلٍ عليهم من باب المسجد، فارتضوا ذلك الرأي، وشاء الله ﷻ أن يكون ذلك الداخل هو نبينا ﷺ فلما رأوه هتفوا مرحبين هذا الأمين: رضيناه؛ هذا محمد. فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فطلب ﷺ رداءً، فوضع الحجر وسط ذلك الرداء، وطلبَ من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا بجميع أطرافه، أو أن يمسكوا جميعًا بأطراف ذلك الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه، أخذه بيده فوضعه في مكان وهذا حلٌّ حصيف طيب مبارك رضي به القوم.

ثم إن النفقة قصرت بهم، فلم يتمكنوا من بنائها على قواعد إبراهيم، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوًا من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا، سقفوه على ستةِ أعمدة، وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكلٍ مربعٍ تقريبًا، يبلغ ارتفاعه خمسةَ عشرَ مترًا، وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود، وما يقابله عشرة أمتار، والحَجَرُ موضوع على ارتفاع مترٍ ونصف من أرضية المطاف، والضلع الذي فيه الباب والمقابل له طوله اثني عشر مترًا، وباب الكعبة على ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها

متوسط ارتفاعها نحو من ربع متر، ومتوسط عرضها نحوًا من ثلاثين سنتيمترًا، ويسمى بالشاذوران، وهي من أصل البيت.

لكن قريشًا تركتها لما قصرت بها النفقة، وجعلت قريش للكعبة بابًا واحدًا وهو الباب الشرقي، وهو الموجود الآن، وسدوا الباب الغربي، وقاموا أيضًا بتسقيف الكعبة حيث كرهوا أن تكون بغير سقف، ولعلهم لحظوا أهمية السقف في حمايتها من الأتربة والفضلات التي تحملها الرياح إلى جوفها، وأقاموا داخل الكعبة ستَّ دعائم في صفين يجاوران الجانب الشرقي والجانب الغربي؛ لتكون أساسًا يقومُ عليه السقف.

وقد بنيت هذه الدعائم من الحجر والخشب، وأقاموا داخل الكعبة من ناحية شرق الحجر سلمًا حلزونيًّا يمكن بواسطته الصعود إلى سطح الكعبة، وجعلوا ذلك السطح مستويًا يميل نحو الحِجر، وأحاط السطح بسورٍ يبلغ ارتفاعه ذراع، وجعلوا فيه ميزابًا يصب ماء المطر في الحجر.

وقد أخبر النبي ﷺ عائشة > بأن قومها لم يقيموا الكعبة على قواعد إبراهيم # فعن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((ألم تري إلى قومك حين بنو الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم # قلت: يا رسول، الله أفلا تردها إلى قواعد إبراهيم)).

وفي روايةٍ أنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال لها: ((لولا أن قومك حديث عهدٍ بشرك أو بجاهلية؛ لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين؛ بابًا شرقيًّا، وبابًا غربيًّا، وزدت فيها من الحجر ستة أذرع، فإن قريشًا اقتصروا عليها حين بنت الكعبة)).

بهذا نكون قد أتينا أيضًا على ما يتعلق بزواج نبينا ﷺ من خديجة وبناء الكعبة في زمن قريشٍ قبل بعثة النبي ﷺ.

مقـــــدمات بعثتـــــه ﷺ

من مقدمات بعثة النبي ﷺ كثرة المبشرات التي أحاطت به ﷺ قبل أن يبعث.

ومن ذلك أن نبينا ﷺ رزق من حسن الفطنة، وأصالة الفكرة، وسداد الوسيلة والرأي، ما استعان به على النظر والتدبر والتفكير، وما حبب إليه من الخلوة والعزلة؛ مما جعله يطالع بعقله الخصب، ويتأمل بفطرته الصافية، صحائفَ الحياةِ، وشئون الناس، وأحوال الجماعات، فعرف الخرافة ونأى عنها وعاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد من خيرٍ شارك فيه، وما وجد من منكرٍ اعتزله وابتعد عنه؛ فكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا، ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وكان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى.

لا شك أن الله ﷻ أحاطه بحفظ، وأعانه برعاية، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، كانت العناية الربانية تتدخل؛ للحيلولة بينه وبينها.

روى ابن الأثير: أن النبي ﷺ قال: ((ما هممت بشيءٍ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قال: قلت ليلةً للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دارٍ بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ عرس فلان ابن بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي فسألني فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة، فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بسوءٍ)) -أي: بعد ذلك.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله > قال: ((لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فلما أراد النبي ﷺ أن يفعل ذلك خر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره. وفي رواية، فما رُئِيَتْ له عورة بعد ذلك)).وكان ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة، وأخلاقٍ فاضلة، وشمائل كريمة، وكان أفضل قومهم مروءة، وكان أحسنهم خلقًا وأعزهم جوارًا، وكان أعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسًا، وكان أكرمهم خيرًا، وأبرهم عملًا، وأوفاهم عهدًا، حتى سمي بالأمين؛ لما اجتمع له من هذه الأحوال الصادقة الصالحة، ومن هذه الخصال المرضية، كما قالت أم المؤمنين خديجة يوم أن رجع إليها يرجف فؤاده، قالت: "إنك لتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم، وتُقْرِي الضيف وتعين على نوائب الحق" تعدد خلاله وخصاله العظيمة المرضية ﷺ.

وكان ﷺ إذا خرج إلى ظاهر مكة، يعرف حَجَرًا يسلم عليه بالنبوة، وهذه من المبشرات التي ساقها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إليه.

ومن مقدمات البعثة: أن نبينا ﷺ تمتع بعلاماتٍ عرفت بخاتم النبوة، وقد رآها أهل الكتاب، ورآها غيرهم قبل مبعثه، وأكثروا الحديث عنها، وخاتم النبوة، عبارة عن قطعةِ لحمٍ مرتفعةٍ عن الجسد، وجدت هذه القطعة في ظهره الشريف عند أسفل عظم كتفه اليسرى.

وقد تكلم العلماء عن الحكمة في وضعه مع الخاتم خلف ظهره، وفي هذا المكان الذي يواجه القلب. يقول ابن دحية: الحكمةُ في وضع الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ أن هذا فيه إشارة إلى أنه لا نبي بعده يأتي من ورائه.

وقال في (الفتح): السر في ذلك أن القلب في تلك الجهة، وقيل: بل الحكمة في ذلك أن هذه المنطقة منطقة النغض من الكتف اليسرى جعلت النبي ﷺ بوضع الخاتم فيه معصومًا من الشيطان؛ لأن هذا الموضع الذي يدخل منه الشيطان بالوسوسة، فكان ذلك حفظًا له من الشيطان الرجيم.

روى ابن عبد البر بسنده إلى ميمون بن مهران، عن عمر بن عبد العزيز: أن رجلًا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن أدم؛ فَأُرِيَ جسده ممهي -أي: يرى داخله من خارجه- وأُرِيَ الشيطان في صورةِ ضفدع عند كتفه، حذاء فيه خرطوم كخرطوم البعوضة، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى العبد خنس.

والنبي ﷺ اختلف العلماء في موعد ختمه ﷺ بخاتم النبوة، فذكروا أوقاتًا تتفق مع الأوقات التي ذكروها لشقِّ صدْرِهِ، فمنهم من قال: ختم حين مولده، ومنهم من قال: ختم يوم شق صدره عند حليمة، ومنهم من قال: عند البعثة أو قبلها، ومنهم من قال: ليلة الإسراء والمعراج، والراجح عند كثيرٍ من العلماء: أن الختم كان يوم شق صدره عند حليمة، وقطع بذلك القاضي عياض، ورجحه ابن حجر، وغيره من العلماء.

والأحاديث التي تثبت وجود خاتم النبوة عند نبينا ﷺ كثيرة، من ذلك: حديث السائب بن يزيدٍ، قال: ((ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إن ابن أختي وَجِعَ فمسح النبي ﷺ رأسي ودعا لي بالبركة وتوضأ، فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره، فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه، فإذا هو مثل زر الحجلة)).

وقال سماك: حدثني جابر بن سمرة قال: رأيت خاتمًا في ظهر رسول الله كأنه بيضة حمام، وللعلماء في وصف خاتم النبوة أقوال، فمن قائل: بأنها شعر مجتمع، ومن قائل: بأنها قطعةُ لحمٍ ناشزة، وصفها بعضهم بأنها مثل البندقة، ومنهم من قال: بل هي كالتفاحة، وفي بعض الكتب: أنها شامة خضراء محتفرة في اللحم، وهكذا نجد شيئًا من الاختلاف اليسير بين من وصف تلك العلامة بين كتفي رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة: إنه كتينةٍ صغيرة تضرب إلى الدهمة -يعني: إلى اللون الذي يتغير من لون الجلد- وهذا على كل حال من العلماء في وصف خاتم النبوة، ليس من قبيل التنافي والتضاد، وإنما هو باعتبار أن كلًّا منهم شبه هذا الخاتم بما سنح له، أو بما ظهر أمامه أو بما وقع له، ووجود الخاتم النبوي مندرج في خوارق العادات التي أحاط الله بها النبوات، فيجب التسليم بها.

ومن المقدمات العملية: أن النبي ﷺ قبل أن يبعث مُنِعَ الجن من استماع خبر السماء، ومن استراق السمع، كما الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] تقول عائشة > ((سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان، فقال لهم: ليسوا بشيء، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون أحيانًا بالشيء يكون حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيُّ، فيقرها في أذن وليه قَرَّ الزجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة)) ويروي البخاري بسنده عن عائشة > قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الملائكة تنزل في العنان -أي: في السحاب- فتذكر الأمر الذي يقضى في السماء، أو قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان، فيتحدثون به)).

وقد عرفنا الله ﷻ ما كانت تقوم به الجن، كاستماع حديث الملائكة، وحديث الله ﷻ حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩]، وذلك حين كان يمكن للجن أن تجلس في السماء في مكان يسمعون فيه، ففجأة تغيرت الحال وتبدلت، ونظرت الجن إلى السماء التي كانوا يتحركون خلالها للتنصت والاستماع بلا عائق، أو مانع، فوجدوها على غير ما كانت عليه.

قال الله تعالى يحكي عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، امتلأت السماء بالحرس القوي من الملائكة تمنع الجن من الاقتراب، وصار من اقترب يرمى بالشهب، حتى قال قائلهم ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ

﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٩]، وعندئذٍ علمت الجن بأن أمرًا جللًا سوف يقع، حتى قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] إنهم لم يدروا ماذا سيحل بالناس، وهل هو أمر فيه خير لهم، أم فيه إيقاع بهم. ومن المبشرات العملية، والمقدمات للبعثة النبوية: أن نبينا ﷺ حبب إليه الخلاء، فكان ﷺ يخلو في غار حراء يمكث فيه وحيدًا، معه زاده وعدته، مدة تضم الليالي ذوات العدد، حيث يقضي شهر رمضان في تلك الخلوة، ينقطع عن الناس.

يقول الخطابي: والخلوة يكون معها فراغ القلب، وهي معينة على الفكر، وقاطعة لدعوى الشغل الفطري، والبشر لا ينفك عن طباعه، ولا يترك مألوفه من عاداته إلا بالرياضة البليغة، والمعالجة الشديدة، فلطف الله تعالى بنبينا ﷺ في بداية أمره، فحبب إليه الخلوة، وقطعه عن مخالطة البشر؛ ليتناسى المألوف من عاداتهم، ويستمر على هجران ما لا يحمد من أخلاقهم.وألزمه الله ﷻ شعارَ التَّقْوَى، وأقامه في مقامِ التَّعبُّدِ بين يديه؛ ليخشع قلبه ولتلين عريكته، فيجد الوحي منه حين وروده مرادًا سهلًا، فلا يصادفه حزنًا وعرًا، فجعلت هذه الأسباب كالمقدمات لما أرصد الله تعالى له نبينا ﷺ من الشأن العظيم، واستعدادًا لما انتدبه إليه من الأمر الكريم، ثم جاءه التوفيق والرفق والتبشير، ووقع ما أراد الله -تبارك تعالى- على نحو ما أراد -جل في علاه.

تقول أم المؤمنين عائشة > : ثم حبب إليه الخلاء، كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، وجاء تعبير الحديث بلفظ "حُبِّبَ" المبني للمجهول؛ إشارة إلى أن حُبَّ محمدٍ ﷺ للخلاء لم يكن من بواعثه البشرية، إنما كان نوعًا من الإلهام الرباني. وابن هشام قال: كان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذاك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الذهاب إلى الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، ويطوف بها سبعًا أو ما شاء الله له من ذلك،

ثم يرجع بعدئذٍ إلى بيت، وكان ﷺ يتأمل أهل مكة، والحياة تشغلهم، ويتأمل في أحوالهم، وهم يطوفون بالبيت، والأصنام أمامهم، يتأمل في كل ذلك وفي غيره يلتمس معرفة سر هذا الوجود، ويقلب ناظريه في هذا الكون لعله أن يصل إلى ربه -جل في علاه.

فإن قال قائل: بأي نسكٍ كان يتعبد رسول الله ﷺ؟ فالجواب: هذا أمر قد وقع فيه خلاف طويل بين العلماء، فمن قائل: بأنه كان يتعبد بشريعة نوح، ومن قائل: بأنه كان يتعبد بشريعة إبراهيم، ومن قائل بأنه كان يتعبد بشرع موسى، ومن قائل: بأنه كان يتعبد بشرع عيسى -عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه- ومن قائل بأن كل ما ثبت عنده أنه شرع اتبعه، وعمل به، ولعل هذا أرجح، والقول الآخر الذي فيه أنه كان على دين إبراهيم هذان القولان هما أقوى ما في الباب ذلك أن الحنفاء كان لهم بقية باقية في هذه الجزيرة العربية.

ولا شك أيضًا أن كثيرًا من الشعائر والشرائع التي أنزلها الله كانت دارسة في الزمن والوقت والمكان الذي كان فيه رسول الله ﷺ لهذا هداه الله تعالى إلى التعبد والتحنث في غار حراء، وامتن عليه بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧] -أي: غافلًا عما يراد بك من أمر النبوة، غافلًا عن معرفة الدين والشرع الحق، فهداك الله للإسلام وشريعته، وهذه المعاني على كثرتها تلتقي في معنى عام واحد هو أن النبي ﷺ كان يبحث عن طريق الحق والهدى وسط قومه الغافلين.

ولم يكن يتصور ﷺ أن النبوة ستأتيه، وأن الرسالة ستنزل عليه، لكنه ﷺ عاش في حياته كلها وبأسرها في سمو من خلق كريم فاضلٍ، وفي أدب جم رفيع، كما كان ﷺ في الذروة من جمال الخلقة وحسن المظهر والهيئة.

بعثة النبي ﷺ: نزول الوحي، ومراحل الدعوة

عناصر الدرس

العنصر الأول	: مرحلة ما قبل الوحي	٤٦٥
العنصر الثاني	: بداية الوحي، وصوَره	٤٧٢
العنصر الثالث	: القيام بالدعوة، ومراحله	٤٨٢

مرحلة ما قبل الوحي

لما تقاربت سِنُّ النبيِّ ﷺ وشارفت على الأربعين؛ حبَّبَ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إليه العزلة، وكان هذا من تدبير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حيث حُبِّبَ إليه الخلاء ﷺ فكان يتأمل تلك التأملات التي وسَّعَت الشُّقة بينه وبين قومه؛ فإذا به يستنكر ما عليه القوم من عبادة غير الله تعالى؛ فكان ﷺ يتزود، فيأخذ السويق والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مقرُبة ميلين من مكة، وهو غار طوله أربع أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع الذراع.

وكان ﷺ يقيم في هذا الغار شهرًا، فيقيم فيه شهر رمضان يطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في التأمل والتفكر والتعبد والتحنث. لقد حاول النبي ﷺ أن يصل إلى هذه الحقيقة التي لا تُوْصَلُ إلا بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إنه يسمع عن دين الله، وعن أنبياء الله، لكنه بعدُ لا يعرف حقيقة الألوهية وحقوقها بعد ﷺ يجهل ما يتصل بالنبوة والرسالة، وإدراكه لما يتعلق بتلك القضايا لا يزال إدراكًا بسيطًا.

والأسرار من حوله في هذا الكون تتكاثر؛ فهو يحاول أن يَكْتَنِهَ هذه الأسرار، وأن يتعرف على هذه الغايات، ولكنَّ العقلَ مهما سمى إدراكه ودق فكره، وتعمقت تأملاته لا يمكنه أن يصل إلى شيء من حقائق هذا الوجود المغيبة إلا بنور وحي الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هو الذي يكشف الأسرار ويوضح ما ورائها من الحكم.

والنبي ﷺ لم يكن مطمئنًا يومًا لما عليه قومه من عقائد الشرك البالية، وتصوراته المهلهلة، ولكن لم يكن هنا ثمة طريقٍ واضحٍ ولا منهجٍ محددٍ يقصد إليه ويطمئن إليه ويرضاه؛ لذا كانت العزلة طرفًا من تدبير الله تعالى له، وإعدادًا لما ينتظره من

الأمر العظيم وهذه الروح تحتاج إلى تربية وتأهيل، وإعدادٍ وعزلةٍ بعضَ الوقتِ، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة.

وهكذا دُبِّرَتْ له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنين، ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان، يتدبر ما وراء الوجود من هذه الإسرار إلى أن يحين موعدٌ ضربه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- للتعامل مع هذا الغيب؛ عندها يأذن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بنزول الوحي على نبينا ﷺ. لما تكاملت عدة سنينه أربعين سنة.

وروى البخاري عن ابن عباس } أنه قال: قال نبينا ﷺ: ((أُنْزِلَ الوحي عَلَيَّ وأنا ابن أربعين سنة))، يقول ابن عباس: أُنْزِلَ الوحيُ على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، ونبينا ﷺ بعد أن تهيأ بهذه العزلة التي كانت في غار حراء لمدة ثلاث سنين متتابعات؛ تهيأ ﷺ بأمورٍ أخرى، أراد الله ﷻ أن يهيئه ليتعامل مع الملائكة، وليتعامل مع البشر.

فالرسول بشرٌ يتصل بالله تعالى عن طريق الرسول الملكي، ويتصل بالناس، ولا بد له أن يتصف بصفات ترتقي به إلى درجة الكمال البشري والسمو الروحي؛ ليسهل عليه الاتصال بالملأ الأعلى بجانبه الروحي والتعامل مع الناس بجانبه البشري، وذلك كله في توازنٍ وانسجامٍ.

والنبي ﷺ أولُ ما بُدِئَ به بُدِئَ بالرؤيا الصادقة بالرؤيا الصالحة، وهذه أولُ درجة من درجاتِ النبوة، وبعض العلماء يقول: إن بَدْءَ الوحي إنما بدء بصورة متدرجة؛ ليهدِّأَ القلب ويطمئن النفس.

يقول القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: وإنما بدأ الوحي مع رسول الله ﷺ بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك، ويأتيه بصريح النبوة بغتة؛ فلا تتحمله قواه البشرية، فَبُدِئَ بأوائل النبوة، وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا، وما جاء من رؤيةِ الضوءِ

وسماع الصوت، وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة حتى يستشرف عظيم ما يراد به، ويستعد لما ينتظره؛ فلم يأْتِهِ المَلَكُ إلا بأمرٍ عنده مقدماته.

فالرؤيا الصادقة كانت أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ وكانت تتضمن أفكارًا وأحداثًا لا يمكنه له أن يتصور حدوثها حال اليقظة، وإنما كانت تقع على نحو ما رآه في عالم اللإدراك واللاشعور، وهذا كان فيه إيناس لقلبه ﷺ وتطمينٌ لنفسه، وإعدادٌ لها لاستقبال أمر الوحي.

وفي هذا تقول السيدة عائشة > أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، يعني: تحققت على نفس الوضع الذي رآها عليه، وبذلك كان الوحي يُعَلِّمُ النبي ﷺ ويُعْلِمُهُ، يُعَلِّمُهُ عن الله، ويُعْلِمُهُ بما يريده الله في رؤيا صادقةٍ صالحةٍ لا ضَغْثَ ولا وهم فيها.

وقد جاء في (فتح الباري): أنه ثبت في مراسيل عبيد بن عمير أن النبي ﷺ أوحي إليه أولًا في المنام حتى أتاه الملك بعد ذلك في اليقظة على الصورة التي أتاه بها في المنام، وكان النبي ﷺ يندهش لتعدد تلك الرؤى المنامية.

ومن ذلك: أنه رأى أنه قد أتاه آتٍ، ومع صاحبان له فنظروا إليه، فقالوا: هُوَ هُوَ ثم ذهبوا فهاله ذلك، وتساءل عما رأى، وعند حديثه أمامة فقال عمه أبو طالب: يا ابن أخي ليس بشيءٍ، وأتاه هذا الآتي مرةً أخرى، فجاء لعمه وقال له: يا عم سطا بي الرجل الذي ذكرت لك؛ فأدخل يده في جوفي حتى إني أجد بردها؛ فخرج به عمه إلى رجلٍ من أهلِ الكتابِ يتطبب بمكة، فحدَّثَهُ حديثه، وقال: عالجه، فصَوَّبَ به، وصَعَّدَ، وكشف عن قدميه، ونظر بين كتفيه؛ وقال: يا ابن عبد مناف، ابنك هذا طيبٌ صيبٌ، للخير فيه علامات. إن ظفرت

به يهودٌ قتلته، وليس الرائي شيطانًا، ولكنه من النواميس الذين يتحسسون بها القلوب للنبوة فرجع به.

ورأى أيضًا ﷺ أن سقفَ بيته نُزِعَت منه خشبة، وأدخل فيه سُلَّمٌ من فضة، ثم نزل إليه رجلان؛ فأرادَ أن يستغيث؛ فَمُنِعَ من الكلام، فقعد أحدهما إليه، والآخر إلى رجليه، وأدخلا أحدهما يده في جنبه، فنزع ضلعين منه، وأدخل يده في جوفه ورسول الله ﷺ يجد بردها فأخرج قلبه فوضعه على كفه، وقال لصاحبه: نِعْمَ القلبُ قلبُ رجلٍ صالحٍ؛ فطَهَّرَ قلبه وغسله، ثم أدخل القلب مكانه ورد الضلعين ثم ارتفعا ورفعا سلمهما، فإذا السقف كما هو؛ فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد، فقالت له: أبشر؛ فإن الله لا يصنع بك إلا خيرًا، هذا خير فأبشر.

ونحو هذا: أنه رأى في منامه جبريل، ومع نمط من ديباج فيه كتاب، فقال له: "اقرأ، فقال: له ما أقرأ" وهذا على نحو ما وقع له في الغار عند نزول الوحي جهارًا نهارًا من غير منام، وهكذا تعددت الرؤى، وركزت هذه الرؤى على إعلام النبي ﷺ بنبوته وتطهيره وتهيئته وإعداده لما ينتظره من الأحمال والأعمال والخطوب الجسام حتى لا يفجأه الملك على صورته الحقيقية؛ فيناله من ذلك الخوف والاضطراب.

والخلاصة: أن الرؤيا التي ابتدئ بها رسول الله ﷺ كانت قبل أن ينبأ ﷺ بستة أشهر، وإذا تأملت عرفت أن مدة النبوة كانت ثلاث وعشرين سنة، فهذه الرؤيا التي جعلت تترى على قلب المصطفى ﷺ مدتها ستة أشهر، فهي جزء من ستةٍ وأربعينَ جزءًا من النبوة، وهذا ما قاله ابن حجر.

وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده، وهو ربيع الأول بعد إكماله الأربعين وابتداء وحي اليقظة

كان في رمضان بعد ستة أشهر. ومن صور التهيئة التي كانت لرسول الله ﷺ نداءات الملائكة له، وإعلامهم إياه، وتسليمهم عليهم بالنبوة، وهو لا يعرف المنادي، ولا يمكنه أن يحدد مصدر النداء.

من ذلك ما رواه ابن كثير أن النبي ﷺ قال: ((إني إذا خلوت وحدي سمعت النداء، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر)) قالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانةَ، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر قالت له خديجة: يا عتيق اذهب مع محمدٍ إلى ورقة -تعني ورقة بن نوفل- وهو ابن عم خديجة > وهو آمن بالنبي ﷺ يومَ أن جاءه يسأله عن ذلك.

والنبي ﷺ أخبر أن ورقة- في الجنة حتى أنه قال: ((لقد رأيت القَسَّ في الجنة، عليه ثيابٌ بيضٌ؛ لأنه آمن بي وصدقني)) وكان يقول: ((لا تسبوا ورقة -يعني ابن نوفل- فإني رأيته في جنتين)) أو كما قال ﷺ.

دخل رسول الله ﷺ وأخذ أبو بكر بيده، فقال: أنطلق بنا إلى ورقة، قال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقال رسول الله له: "إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي، يا محمد، يا محمد؛ فأنطلق هاربًا في الأرض، فقال له: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني فأخبرني، فلمَّا خلا ناداه يا محمد، قل: "بسم الله الرحمن الحمد الله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين"

قل: لا إله إلا الله، فأتى محمدٌ ورقةَ فذكر له ذلك، فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر بك ابن مريم، وإنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل". وهذا ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية).

ومرة أخرى: يقول رسول الله ﷺ: ((خرجت مرةً حتى إذا كنت في وسْطِ الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت

رأسي إلى السماء أنظر ؛ فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء ، فرفعت أنظر إليه ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحيةٍ منها إلا رأيته كذلك ؛ فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي ، وما أتأخر ورائي حتى بعثت خديجة رُسُلَهَا في طلبي ، فبلغوا مكة ورجعوا إليها ، وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرفت راجعًا إلى أهلي)).

حتى أتيت خديجة فجلست إليها ؛ فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت؟ فو الله لقد بعثت رُسُلِي في طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إليَّ ، قال ﷺ : ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ؛ فو الذي نفسي بيده إني أرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت > فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة فأخبرته بما أخبرته به ؛ فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت ، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة.

وفي مرة تالية : قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف يصنع كما كان يصنع ؛ حيث بدأ بالكعبة فطاف ، فلقيه ورقة عند الكعبة ، فقال له : يا ابن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت ، فلما أخبره ؛ قال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولَتُكَذَّبَنَّ ولَتُقَاتَلَنَّ ولَتُؤْذَيَنَّ ؛ ولئن أدركتُ ذلك ؛ لأنصرن الله نصرًا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه.

ويقول ﷺ لخديجة : ((لما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئًا ، فنظرت عن شمالي فلما أرَ شيئًا ، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا بين السماء

والأرض، فقلت: دثروني دثروني، وصبوا عليَّ ماءًا باردًا)). وكانت > خيرَ مُعِيْنٍ لرسول الله ﷺ تسمع منه، وتجتهد في معرفة أسباب ذلك، وتسأل أهل الكتاب عن خبر ما يسمع، وتخبر زوجها رسول الله ﷺ بما يُسَرِّي عنه ويطمئنه.

وكانت تبحث عن أسرار ما يرى لتطمئن عليه وتطمْئِنُهُ > قالت له مرة: يا ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل # فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني، فقالت: قم يا ابن عمي فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول، فاقعد على فخذي اليمنى؛ فتحوَّلَ رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فحسرت فألقت خمارها ورسول الله جالس في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم أثبت وأبشر فو الله أنه لملك ما هذا شيطان. وقد أخرج هذه الرواية ابن كثير في (البداية والنهاية).

ومن تهيئة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لنبيه ﷺ في بدءِ الوحي أن كَلَّمَهُ الشجر والحجر، فقد روى ابن سعد بسنده: أن النبي ﷺ حين أراد الله كرامته، وأذن له بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيته، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله، وخلفه فلا يرى أحدًا.

وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنِّي أَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ)) وروى ابن سعد عن هشام بن عروة، عن أبيه -رحمهما الله تعالى-: أن النبي ﷺ قال: ((يا خديجة إني أرى ضوئًا، وأسمع صوتًا؛ لقد خشيت أن أكون كاهنًا))

فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله؛ إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة وتصل الرحم.

وبهذا تَهَيَّأَ رسولُ الله ﷺ عبر الرؤيا الصالحة وعبر نداءات الملائكة، وعبر كلام الشجر والحجر، وعبر ما أرسل الله تعالى وبعث، ويسر على لسان ورقة بن نوفل من إخباره ﷺ بأنه على الحق، وإنه قد جاءه الناموس الذي أتى أنبياء الله من قبل، وأنه يؤمن به ويصدقه. كان هذا هو التمهيد الذي كان بين يدي بدء وحي الله تعالى لنبيه ﷺ.

بداية الوحي، وصوره

استمر الوحي بمقدماته مع نبينا ﷺ على النحو الذي بيناه فأدرك النبي ﷺ أن أمرًا عظيمًا ينتظره وسمع من زوجته ومن ورقه ومن غيرهما: أن الذي يراه ويسمعه هو ذلك الناموس الذي كان يأتي موسى وعيسى، وكان يأتي الأنبياءَ جميعًا من قبله -عليهم صلوات الله وسلامه- فشيئًا فشيئًا بدأ يطمئن لما يرى، ويثق فيما يسمع، حتى أذنَ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- باتصال السماء بالأرض؛ فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل # بآياتٍ من القرآن الكريم.

وكان اتفاق العلماء: على أن ذلك التنزل كان بعد أن تمَّ لنبينا ﷺ أربعون سنة قمرية وستة أشهر وأيام. وهذا موضع خلاف بعد ذلك، هل كان التنزل لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان، أم كان التنزل لسبعة عشر مضت أو لثماني عشرة ليلة مضت من شهر رمضان؟ هذا على خلاف بين المؤرخين فيه، لكن يكفينا أن نعلم أنه نزل يوم الاثنين، وأن هذا كان في شهر رمضان، فهذا قدر متفق عليه.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال -جل من قائل-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ومعلوم أن ليلة القدر من شهر رمضان، وهي المرادة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣] ولأنه ﷺ يجاور بحراء في شهر رمضان وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف؛ إذًا تنزل الوحي على نبينا ﷺ وهو بحراء، وكان قد بلغ الأربعين من عمره.

فما هي تفاصيل تنزل الوحي، وما هي تفاصيل لقاء الملائكة، ومجيء جبريل بالقرآن؟ هذا ما تنقله لنا عائشة > فتقول: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إليه إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ فقال ﷺ: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئٍ فأخذني فغطَّنِي الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وكان نزول هذه الآيات كما علمنا نبينا ﷺ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. تقول عائشة > فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: "زملوني زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: مالي؟ وأخبرها الخبر، لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا أنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى -ابن عم خديجة- وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان

يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى يا ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

وروى الطبري وابن هشام ما يفيد: أنه خرج من غارِ حراء بعد ما فوجئ بالوحي، ثم رجع وأتم جواره، وبعد ذلك رجع إلى مكة. ورواية الطبري تلقي ضوءًا على سبب خروجه وهذا نصها: قال ﷺ بعد ذكر مجيء الوحي: "ولم يكن من خلق الله أبغض عليَّ من شاعرٍ أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت: إن الأبعد -يعني نفسه- شاعر أو مجنون لا تحدث بها عني قريش أبدًا، لَأَعْمَدَنَّ إلى حالق من الجبل، فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن، قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه، وشغلني ذلك عما أردت؛ فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رُسُلَهَا في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي.

ثم انصرف عني، وانصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إليها فخذها مضيفًا -إي ملتصقًا بها مائلاً إليها- فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فو

الله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليَّ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا بن عم، واثبت، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فانطلقت إلى ورقة فأخبرته، فقال: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، فرجعت خديجة، وأخبرته بقول ورقة.

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره، وانصرف إلى مكة لقيه ورقة، وقال -بعد أن سمع منه خبره-: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى. وإن كان من تعليقٍ على بداية الوحي وبدئه؛ فإننا نلحظ في لقاء جبريل # بنبينا ﷺ وإقرائه له أول سورة العلق نلحظ بعض الملاحظات:

أولها: غَطَّ جبريل # نبينا ﷺ ثلاث مرات؛ ليجعل التفاته وفكره إليه وحده دون الانشغال بغيره، ويعرِّفَهُ ثقل الرسالة وضخامة المسئولية، ويتعود من خلال ذلك على التلقي عن جبريل، والتلقي من الوحي فقط؛ وليكون صبورًا عندما يؤمر بالبلاغ، ويعلم أن تكرار الطلب منهج في نشر دين الله تعالى. وليتأكد ﷺ بتكرار الغطِّ أن ما يحدث له هو حقيقة واقعة ملموسة، ليست خيالًا ولا وهمًا.

وقد كان جبريل # في أشدِّ الاشتياقِ للقاء محمد ﷺ والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بعد أن أهَّلَ نبيه بالمنام، والرؤى والنداءات، وشاهد الجمادات وهي تناديه، وعاش الخلوة بفكره؛ أراد له بعد ذلك أن يعوده على صور الوحي التي ستستمر به ومعه؛ فكان لقاءُ جبريل، وكان أول ما بدئ به سورة العلق.

الثانية: بدء الوحي بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ يكشف النقاب عن موقف الإسلام من العلم، وبيان لطريقة التعلم ألا وهي القراءة. فالقراءة أساس العلم والتعلم؛

بها يحفظ القرآن وتصان السنة، وتفهم الشريعة، وينقل العلم، وتكون الدعوة، ويحمى الدين، وبالعلم تحيا الأمة وتحفظ الضرورات الشرعية جميعًا، وتنتظم جوانب الحياة؛ بإذن الله ﷻ.

الثالثة: خديجة > تلك المرأة العظيمة التي وقفت بجوار زوجها تدعمه وتحوطه وتحفظه، أعطتها مالها فأغنته ﷺ به، وأبعدته عن متاعب الفقر ومشاغله، وجعلت عقلها الكامل > في خدمه نبيها ﷺ ودعوته، وكانت خيرَ مُعِيْنٍ لرسول الله، ولذلك بشرها الله تعالى ببيتٍ في الجنة.

ونرى أن النبي ﷺ يقول عنها: ((خَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ)) > والحديث في (صحيح مسلم) في كتاب فضائل خديجة > ونرى النبي ﷺ يقول: ((إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا)) > .

ثم إن هذا الوحي الذي نزل على نبينا ﷺ فتر عنه؛ فلم يعد يحصل له ﷺ وقد ورد خلافٌ بين جمع من العلماء من المفسرين والمؤرخين في مدة فتور الوحي، وتلبثه على نبينا ﷺ فمِن قائل: بأنه دام ثلاث سنين ومن قائلٍ: بأنه بلغ سنتين ونصف. والحقيقة: أن هذه المدة الطويلة -يعني تحتاج إلى دليل ظاهر.

ويرى ابن كثير: أنها كانت مدةً طويلةً، لكنَّ ابن عباس > يرى: أنها كانت أربعين يومًا، ويذهب غيره إلى أنها كانت خمسة عشر يومًا، ويرى مقاتل من أئمة التفسير: أنها كانت ثلاثة أيام. والرأي الأولى بالاعتبار هو في تقصير مدة الانقطاع؛ لمناسبته مَقَامَ النبي ﷺ عند ربه؛ ولأن هذا من الأمور التي إذا طالت انتشرت وعُرِفَت واشتُهِرَتْ، كما أن الانقطاع مدة طويلة قد يؤدي إلى ضياع كثير مما تم بناؤه في دنيا الناس، وحياة النبي ﷺ.

لذا الذي يترجح أن هذه المدة التي انقطع فيها الوحي كانت أيامًا، ومع هذا فقد بقي النبي ﷺ كئيبًا محزونًا في تلك الفترة، حتى أن البخاري -رحمه الله تعالى- روى في كتاب (التعبير) في ذلك حديثًا، يقول فيه: "وفتر الوحي فترةً حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنًا عدى منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل؛ لكي يلقي نفسه؛ تبدَّى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًّا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه؛ فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل؛ تبدَّى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وقد يتساءل البعض:

كيف يجوز للنبي ﷺ أن يفكر في إلقاء نفسه من ذروة جبل؟

وقد يقال: إن هذا كان من هَمِّهِ لا من قراره ﷺ وقد يكون لاعتقاده أنه عاجز عن تحمل ما يتوقع من أعباء النبوة والرسالة، أو خوفًا مما قد يحصل له ﷺ من أذى الخلق، واشتدادهم في عدواتهم له، وذلك كما يطلب الرجل راحةً من غمٍّ يكون في هذه الحياة، بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى ذلك إلى إهلاك نفسه.

وعلى كلِّ حالٍ: فإن هذه المسألة لم تدم طويلًا على الراجح من أقوال أهل العلم، وابن حجر يرجح أن هذا الانقطاع كان أيامًا؛ ليذهب ما كان بالنبي ﷺ من الفزع والروع، وليحصل له التشوف إلى العود ﷺ فلما تقلصت ظلال الحيرة، وثبتت أعلام الحقيقة، وعرف رسول الله ﷺ معرفة اليقين أنه أضحى نبيًّا لله ﷻ وإن ما جاءه من الوحي ينقلُ إليه خبر السماء؛ صار تشوفه وترقبه لمجيء الوحي سببًا في ثباته واحتماله عندما يعود.

فَلَمَّا عَادَ جبريلُ للمرة الثانية ؛ كان النبي ﷺ أثبت وأرسخ، وأفْقَه عن الوحي ما يقول، وما يكون.

ونبينا ﷺ يتحدث عن نفسه فيقول: ((فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ؛ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ؛ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَثَثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي)) فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع.

وهذا يفيد: أن النبي ﷺ عاد إليه الوحي بعد مدة انقطاع فاصلٍ بين النبوةِ والرسالةِ؛ فقد نُبِّأَ النبي ﷺ في رمضان -كما ذكرنا- سنَةَ أربعين من عمره ﷺ وتتابع الوحي بعد ذلك على نبينا ﷺ.

صور الوحي:

ثم إن هذا الوحي الذي تتابع كانت له صور، وكانت له أقسام، وكانت له ألوان ذكرها ربنا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في كتابه، وأخبر عنها النبي ﷺ في حديثه:

الصورة الأولى: الرؤيا الصادقة، وكان ذلك مبدأُ وحيه ﷺ ومثال ذلك ما وقع لإبراهيم # كما قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ فدلَّ هذا على أن الوحي كان يأتيهم في المنام، كما كان يأتيهم في اليقظة. وأن هذا الوحي المنامي حقٌّ من الحق، كما كان النبي ﷺ يقول في الصحيح: ((رؤيا الأنبياء وحي)).

الصورة الثانية: أن ينفث المَلَكُ في روعِ وقلبِ النبيِّ من غير أن يراه، كما قال ﷺ: ((أن روحَ القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا

الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزقِ عن أن تطلبوه بمعصيةِ اللهِ؛ فإن ما عند الله لا يُنَالُ إلا بطاعَتِهِ)).

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا ﴾ هو أن ينفث في روعه بالوحي الذي يخص القلب دون السمع.

الصورة الثالثة: أن يأتيه الوحي في صورةِ صلصلةِ الجرسِ، وهو أشده على رسول الله، فيتلبس به الملك حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد؛ وحتى إن راحلته ﷺ لَتَبْرُكُ على الأرض.

روت عائشة > : أن الحارث ابن هشام سأل النبي ﷺ كيف يأتيك الوحي، فقال ﷺ: ((أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ؛ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا؛ فيكلمني فأعي ما يقول)). وروى ابن سعدٍ بسند رجاله ثقات: أن النبي ﷺ كان يقول: ((كان الوحي يأتيني على نحوين، يأتيني به جبريل فيلقيه عليَّ كما يلقي الرجل الرجل، فذلك يتفلت مني، ويأتيني في شيءٍ مثل صلصلة الجرس حتى يخالط قلبي، فذاك لا يتفلت مني)).

الصورة الرابعة: فإن يكلمه الله تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة كما وقع ذلك في ليلة الإسراء على القول: بأن النبي ﷺ لم يرَ ربه.

الصورة الخامسة: أن يكلمه الله تعالى كفاحًا بغيرِ حجابٍ، على القول: بأنه رأى ربه ليلة الإسراء. ومعلوم: أن أهل السنة والجماعة اختلفوا في هذه المسألة، هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلةَ عُرِجَ بِهِ إلى السماء السابعة، أم أنه رأى نورًا؟ اختلف الصحابة فَمَن دونهم في هذه المسألة، فقالت عائشة > : من قال: إن محمدًا ﷺ رأى ربه -أي ليلة المعراج- فقد أعظم على الله الفرية.

وقال ابن عباس >: بأنه رأى ربه ليلة أسري به، وقد اختلف في ضبط قوله ﷺ: ((نورٌ إني أرى)) أو ((نور أنى أراه)) ومن هنا وقع اختلاف، هل المقصود بقوله: ((إني أراه)) أي أنه رأى النور، أو رأى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أو ((أنى أراه)) أي: كيف يحصل ذلك لي فهذا استبعاد منه لرؤيته لربه ﷺ ليلة الإسراء.

على كلٍّ بهذا قيل وبذاك قيل، والراجح عند الجمهور: أنه ﷺ أنه لم يرَ ربه بعيني رأسه ليلة عرج به إلى السماء السابعة.

الصورة السادسة: أن يكلمه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في النوم، كما في حديث معاذ عن الترمذي أنه قال: ((أتاني ربي في أحسنِ صورةٍ، فقال: فيمَ يختصم الملأ الأعلى)) وهذا النوع يختلف عن الرؤيا المنامية؛ لأن هذا هو كلام الله تعالى.

وذكر بعض أهل العلم: أن من هذا النوع نزول سورة الكوثر؛ فإن سورة الكوثر نزلت كما رواه مسلم عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا؛ إذ أغفَى إغفَاءَةً، ثم رفع بصره مبتسمًا، فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ وكانت قد نزلت عليه قبل ذلك على الأصح، وهذه مرة أخرى تتنزل فيها السورة؛ لأن القرآن الكريم نزل كله في اليقظة.

الصورة السابعة: فهو مجيئه كدوي النحل. روى الإمام أحمد والحاكم عن عمر بن الخطاب > قال: كان رسول الله ﷺ: ((إذا أُنْزِلَ عليه يُسْمَعُ عند وجهِهِ دويٌّ كدويِّ النحل)).

الصورة الثامنة: العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه، وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام؛ لأنه اتُّفِقَ على أن النبي ﷺ إذا اجتهد أصاب، وكان النبي ﷺ في ذلك معصومًا من الخطأ وهذا خرق للعادة في حقِّهِ ﷺ دون الأمة، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه.

ولقد كان الوحي ثقيلًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، ولا شك أن مسألة اجتهاد النبي ﷺ هي مسألة أصولية بحثها أهل الأصول ودرسوها، ومنهم من قال: إن النبي ﷺ إذا اجتهد فأخطأ؛ فإن الوحي لا يقره بل يصحح له؛ ولهذا عُوْتِبَ نبي ﷺ في أمور؛ فَأُنْزِلَ في القرآن قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فلامَهُ الوحي على هذا الاجتهاد، حين أقبل على السادة والكبراء، وترك ابن أم مكتوم، وهو يسأله عن دينه، ويتفقه فيه.

ونزل قول الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في لومه ﷺ أو في عتابه ﷺ عن إذنه لهؤلاء المنافقين، وهكذا مضى فقهائنا وأصوليونا على القول: بأن اجتهاد النبي ﷺ يصيب؛ فإن وقع منه شيء من الخطأِ؛ فإنه يصحح من قبل الوحي؛ فلا يكون اجتهاده عندئذ إلا اجتهادًا معصومًا.

الوحي: كان نبينا ﷺ يلقى منه شدة؛ ولذلك قال الله له: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ما سبب شدته؟ سبب شدته أنه يتضمن كثيرًا مما يثقل على النفس البشرية؛ فإن التباس الملك بالرسول -الملك الخلق الملكي بالخلق البشري- فيه ثقل على الطبيعة البشرية؛ ولذلك رأينا النبي ﷺ تتغير حالته عند نزول الوحي عليه من شدته وثقله. والنبي ﷺ يخبر أن أشده عليه ما كان كذا حتى أننا ذكرنا أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان يتلبس المَلَكُ به حتى أن جبين النبي ﷺ ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وراحلته تبرك به إلى الأرض إذا كان يركبها.

ولهذا يقول زيد بن ثابت فيما رواه عن عائشة > أنها قالت: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت فخذه ترد فخذي -يعني تكسر فخذي- لأنه ثقل جدًّا ﷺ والراحلة بركت به؛ لأنه ثقل جدًّا فلم تستطع أن تتحمل ثقله.

وقالت عائشة > : إنْ كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرَّى عنه.

ويقول أبو أروى الدوسي > : رأيت الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وأنه على راحلته فترغو، وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها تنقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدةً يديها حتى يُسَرَّى عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان، أي: مثل حبات اللؤلؤ من العرق.

ويقول عبادة بن الصامت > : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك، وتربَّدَ وجهه، وغمض عينيه ﷺ. وأبو هريرة يقول: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه لم يكن واحد منهم يستطيع أن يُحِدَّ النظرَ إلى رسول الله حتى يقضى الوحي خشوعًا وسكونًا وسكينة ورهبة. وتقول عائشة > : ولقد رأيته يتنزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد؛ فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا. ونحو هذا كثير، مما جاء النقل به صحيحًا عن نبينا ﷺ ومن لسان أصحابه { .

القيام بالدعوة، ومراحله

أولًا: أمر القيام بالدعوة:

تلقَّى رسولنا ﷺ أوامرَ عديدةً جاءته في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: الآيات: ١ - ٧] هذه الأوامر جاءت بعد فترة انقطاع، وكنا قد ذكرنا أن هذه الفترة لم تكن طويلة بل كانت أيامًا، وهذه الآيات في سورة المدثر أجملَت ما يتعلق بالرسالة؛ ففي الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وفي هذا بيان لعظم قدر النبي ﷺ عند ربه فإنه تعالى قد أسماه بالمدثر، وهذه تفيد مؤانسةً وملاطفةً للنبي ﷺ وذلك يقوي قلبَهُ ﷺ ويؤنس نفسه، ويهيئه للقيام بالمهمة التي أوكلها الله ﷻ إليه.

يقول القرطبي: وفي خطابِهِ بهذا الاسم فائدتان:

الفائدة الأولى: الملاطفة: فإن العرب إذا قصدت ملاطفةَ المُخَاطب، وقصدت ترك المعاتبة سموه باسم المشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعليٍّ حين غاضب فاطمة { قال له -وقد أتاه وهو نائم- التصق جنبه بالتراب، فقال له: ((قم يا أبا تراب)) إشعارًا له أنه غير عاتب عليه، وهو بذلك يلاطفه.

وكما قال نبينا ﷺ لحذيفة، وقد أخذته سنةٌ من النوم: ((قم يا نومان)) وكان نائمًا، وهذا فيه إشعار بأنه يترك معاتبته أو تأنيبه، فقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فيه تأنيس وملاطفة؛ ليشعَر النبي ﷺ أن ربه غير عاتبٍ عليه؛ لا سيما وقد نزلت الآيات بعد شيءٍ من تلبث الوحي وفترته.

الفائدة الثانية: تنبيه كل متدثرٍ خائفٍ أن يقوم بأمر الله، وأن ينهض بما كلفه الله تعالى به؛ فالقيام بالواجب أولى بالإنسان الجاد، وهو أحسن له من التدثر، والتلفف بالثياب أو الركون أو القعود، والتوكل على الله ﷻ يعين على النشاط والعمل وإدراك الحاجة.

وفي الآية الثانية: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ هذا تصريح بإيجاب القيام والنهوض، والدعوة إلى الله ﷻ بقوةٍ وعزمٍ، وأخْذِ هذا الدين بقوةٍ وتصميمٍ وفيه السعي المستمر في الدعوة لدين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وأولُ هذه الدعوة إنذار، وليكن الإنذارُ أولَ الأمر مع الناس وهو مناسب لهم؛ تنبيهًا لعقولهم وتعريفًا لهم بالخطر الذي يترصدهم، وهذا الإنذار في حقيقته رحمه من الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يظهر هذا في أن هذا الإنذار إنما جاء على لسانِ رسولٍ من عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يدعو إلى الله، ويبين، يكرر الدعوة ويصبر يواظب على الدعوة ولا يستحسر.

وغاية القيام بالإنذار ألا يترك الداعي أحدًا ممن خالف مرضاة الله ﷻ في هذه الحياة وإلا أنذره العواقب الوخيمة التي تقع بسبب إعراضه واستكباره عن دين الله، وهذا الإنذار من شأنه أن يزلزل القلوب وأن يأخذ بمجامع النفوس. والنبي ﷺ كما هو منذر فهو مبشر إلا أن المقام اكتفى بالإنذار؛ رعايةً لأحوالِ المُخَاطَبِين الذين كانوا في الغفلة سادرين.

ثم جاء قول الله في الآية الثالثة: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وهذا؛ لأن غاية تكبير الربِّ إلا يُتْرَكَ لأحدٍ في الأرض كبرياء، ألا يبقى لأحدٍ في الأرض كبرياءٌ ولا في السماء؛ فإن تكبير الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يعني إلا يَرَى الداعيةُ إلى الله ﷻ أحدًا أكبر من الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وأن يرى كلَّ القوى والقُدَرِ متصاغرة أمام الكبير المتعالي.

فالكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجب أن يُكبَّرَ، وإذا ما كُبِّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يبقَ لأحدٍ في هذا الوجود دعوى ألوهية أو عبودية يشارك بها الله، فتكبير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أمرٌ يؤكد على حقيقة هذه الدعوة، وهو أمر يعين الداعية إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

يقول بعض العلماء: أن هذا التكبير يبدأ من النفس، ثم لا يترك شيئًا إلا ورفع راية التكبير فوقه، وهذا التكبير يقوي قلب الداعية أمامَ ما يواجهه من أهوالٍ ومتاعب وأثقال في هذا الطريق؛ فهو يستصغر كلَّ كيدٍ وكل قوة، وكل عقبة، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة هو الكبير المتعال، وأن مشاقَّ الدعوة وأهوالها في حاجةٍ دائمةٍ إلى استحضارِ هذا التصور، ومعايشة هذا الشعور.

وتأتي الآية الرابعة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ لتوجِّهَ النبي ﷺ للمحافظة على طهارة الظاهر والباطن؛ فطهارة الظاهر متلازمة مع طهارة الباطن؛ فإن الباطن الذي أَعْلَنَ التوحيد لله ﷻ والقلب الذي لم يتدنس بعبادة غير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تشرق صورته على الظاهر؛ فتنتظف الثياب، وتتطهر الأيدي والوجوه بماء الطهارة الإيمانية؛ لأن التلقي عن الملأ الأعلى يتناسب مع هذه الطهارة.

وطهارة الثوب هي كناية عن طهارة القلب، وطهارة اليد، وطهارة العمل والسلوك، والمحبُّ للطهارة يأنف من كل رجسٍ، ومن كل نجسٍ، ومن كل وسخٍ فهو حريص كل الحرص على المبالغة في تطهير النفس من جميع الشوائب، وما يلوثها إلى حدٍّ أن تبلغ النفس البشرية كمالها تحت رحمة الله، وفي حفظه وكلئه وهدايته ونوره.

ثم تأتي الآية الأخرى بعد قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فأنت مأمور بهجران الأصنام والأوثان، وأنت مأمور بهجران الذنوب والمعاصي أبدًا، والرجز والرجس وكلُّ ما يشار إليه بأنه على خلاف معنى الطهارة، وعلى خلاف معنى النزاهة، فأنت مأمور بمعاداته، والابتعاد عنه وبلوغ الغاية في هجرانه ليطهر الظاهر والباطن؛ حتى يكون الداعية إلى الله أعلى مثلٍ في المجتمع البشري؛ فيجذب إليه القلوب السليمة وتحس بهيبته وفخامته القلوب المستقيمة حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقًا أو خلافًا.

والرِّجْزُ من معانيه العذاب، وقد أُطْلِقَ على ما يسببه؛ للإشارة إلى أن العقوبة ملازمة للمعصية، والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أمر نبيه بالهجر، وهو أبلغ من أمره بالترك؛ لأن الهجر مما يلازم معناه النفور والكراهية، والتباعد من الذنوب والمعاصي.

ثم جاء في الآية السادسة قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ وفي ذلك توجيه إلى النبي ﷺ وهو الداعيةُ الأولُ إلى ترك المَنِّ على الخلق، وعدم استكثار ما سوف يعطيه إياهم؛ فهو مكلف بالعطاء، والعطاء والعطاء، وسيعطي الكثير في إصلاح الحياة للناس أجمعين؛ فعليه أن يبذل وأن يُعطيَ بلى مَنٍّ، وبلى عددٍ، وبذلك يعظم العطاء، ويعظم صاحبه.

والمؤمن مهما بذل وأنفق وأعطى، ومهما سخت نفسه بعلمه وعمله وماله؛ فإنه لا يرى ذلك كله عظيمًا بل لا يزال يجتهد في عمل بعد عمل، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والفناء والعطاء، وينسى ذلك كله في ذات الله ﷻ ولا شك أن عطاءَ النبوةِ الذي وهبه الله تعالى لمحمدٍ ﷺ فوق كل عطاء؛ فوق عطاء الدعوة وغيرها؛ ذلك أن النبوة فضلٌ إلهي، وهذا يوجب على الرسول أن يكون دومًا شاكرًا عابدًا متحليًا بمكارم الأخلاق، وليس المَنُّ بشيءٍ يقدمه الداعية إلى الناس من الخلق الكريم في قليلٍ أو كثير.

ثم يأتي قول الله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ وهذا فيه إشارة إلى ما سيلقاه ﷺ من أذى المعاندين من المخالفة، والاستهزاء والسخرية، ومن محاولة إسكات صوته بالسجن تارة، وبالقتل تارة أخرى وكذا ما سيلقاه أصحابه من العنت والبلاء من الشدة التي أحاطت به وأطبقت عليهم في مكة، حتى وصل ذلك إلى قتلِ بعض أصحابِهِ من الرجال والنساء، وإبادةِ كلِّ من التفَّ حوله ممن دعا إلى الله ﷻ يأمره الله تعالى أن يصبر على كل ذلك بقوةٍ وجلدٍ لا لينال حظًّا من حظوظ نفسه بل يرضي ربه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والصبر لابد منه للداعية ولغيرة على كلٍّ أن يصبر مع نفسه، وأن يقاوم شهواتها، وأن يصبر على تكاليف الوحي وهو يسمعه ويحفظه، وأن يصبر على تبليغه للناس وهو يُعَلِّمُهُم، وأن يصبر على الأعداء وهو يقاومهم؛ ذلك أن المعركة طويلة، وزادُهَا الصبرُ ولا شك وهو الذي به تحمد العاقبة وهذه الآيات السبعة في سورة المدثر، والتي نزلت في صدرها هي من أوائل الوحي بالرسالة بعد فتوره -كما بينا- وهي تتضمن الأسس رئيسة للحركة بدين الله تعالى؛ ولذلك جاءت إعلانًا واضحًا عن أساسيات القيام بالرسالة، وبيانًا ظاهرًا لأهم ما يجب أن يتحلى به الرسول والدعاة.

وأما أول سورة العلق: فقد نزل في مرحلة الوحي بالنبوة، والتي استمرت عدة أشهر؛ ليعرف النبي ﷺ ربه، وليقف على كمال صفاته وليتعلم عن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ومن الله، وليألف لقاء الملائكة وتلقي الوحي من ربه. وإن كان بعض العلماء يذهب إلى أن أول المدثر نزل أولًا؛ استنادًا إلى حديث البخاري الذي فيه: أن أبا سلمة بن عبد الرحمن لما سُئِلَ عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فقال له سائله: يقولون: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله < عن ذلك، وقلت مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: ((جاورت بحراء فلما قضيت جِوَارِي هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أرَ شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئًا، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئًا، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبوا عليَّ ماءً باردًا)) قال ﷺ: ((فدثروني، وصبوا عَلَيَّ ماءًا باردًا، قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾)).

وعند مسلمٍ حديث آخر يشير كذلك إلى أن أول المدثر نزل أولًا، وهو حديث جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله -صلى عليه وآله وسلم- يحدث عن فترة الوحي فقال في الحديث: ((بينما أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسي قِبَلَ السماء؛ فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، فجثثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني زملوني؛ فدثروني)) فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾)).

قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي بعد ذلك وتتابع. يعلق ابن كثيرٍ في (تفسيره) على هذا؛ فيقول: والأولى القول: بأن جبريل نزل

بأول سورةِ العلق في بداية النبوة، وأن نزول أول سورة المدثر كان في بداية الرسالة؛ لأن في حديث نزول أول سورة المدثر الذي رواه مسلم وغيره يشار إلى المجيء السابق لجبريل؛ حيث يقول: ((فإذا الملك الذي جاءني بحراء)) يوم أن جاءه بأول سورة العلق، وهذا يفيد أن أول سورة نزلت بعد فتور الوحي هي المدثر، وهي أول وحي الرسالة وعلى هذا فأولية نزول أول العلق أولية مطلقة، وأولية أول سورة المدثر مقيدة بما بعد فتور الوحي وبدء الرسالة.

ومنهم من ذهب إلى: أن أول سورة المزمل نزلت قبل المدثر؛ لكن هذا الرأي مردود؛ لأن أول سورة المدثر فيه أمر بالإنذار، وهذا يكون في أول المبعث. أما في سورة المزمل ففيها أمر بقيام الليل وترتيل القرآن، وهذا يقتضي تقدم تشريع الصلاة، ونزول كثير من آيات القرآن الكريم التي يتلوها النبي ﷺ في الصلاة، وفي غير الصلاة؛ حيث أنذر بذلك.

وبعضهم يرى أن سورة الضحى هي التي نزلت أولًا بعد فترة الوحي استدلالًا بقول الله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: الآية: ٣]، حيث إن أم جميل امرأة أبي لهب لما تباطأ الوحي عن رسول الله ﷺ ليلتين أو ثلاثة، قالت للنبي ﷺ ودَّعَكَ ربك وَقَلَاكَ فنزل الآيات.

ويرد الحافظ ابن حجر على هذا الرأي فيقول: الحق أن الفترة المذكورة في سببِ نزولِ "والضحى" غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي؛ فإن تلك دامت أيامًا، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثة، فاختلطتا على بعض الرواة.

وقد ثبت أن الوحي كان يفتر عن النبي ﷺ أحيانًا، كما حدث قبل نزول سورة الكهف؛ فإنه لم سئل عن أصحاب الكهف، قال سأحدثكم بها غدًا ولم يستثنِ، أي: لم يقل إن شاء الله، ففتر عنه الوحي خمسة عشر يومًا؛ فقال الله

له: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣- ٢٤]،

فدل ذلك على أن القول بالأولية فيه اختلافٌ كبيرٌ بين العلماء؛ بسبب اختلافهم في اعتبار كلِّ قولٍ، وبعد نزول أوائل المدثر تتابع الوحي، واستمر في مكة والمدينة حتى لقي النبي ﷺ ربه.

ونحن نلحظ أن هذه الآيات التي تناولت أمر النبي ﷺ بالقيام بالدعوة هي في ذاتها تشتمل على مواد الدعوة والبلاغ فالإنذار يقتضي أن هناك أعمالًا لها عاقبة سيلقاها أصحابها؛ ونظرًا لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يعمل الناس، بل ربما لا تمكن المجازاة فيها بجميع الأعمال؛ فالإنذار يقتضي يومًا للمجازاة غير أيام الدنيا، وهذا اليوم هو يوم القيامة، وهو يوم الجزاء، وهو يوم الدين وهذا يستلزم حياةً أخرى غير الحياة التي نعيشها في هذه الدنيا.

وسائر الآيات تطلب من العباد التوحيدَ الصريحَ، تطلب من العباد تفويض الأمور إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إذًا مواد هذه الآيات هي مادة التوحيد، مادة الإيمان باليوم الآخر مادة تزكية النفس بأن تتناهى عن المنكرات والفواحش، وأن تقوم باكتساب الكمالات والفضائل، وفي هذه كلِّهِ تفوض أمرها إلى الله؛ فعن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تصدر، وعنه تتلقى، وكل ذلك لا يجدي نفعًا إلا بعد الإيمان برسالة النبي ﷺ والسير تحت لوائه.

ومن يومها وقد هجر النبي ﷺ دفء الفراش وهجرُ النبي ﷺ مع ذلك الدعة والراحة؛ فقام ﷺ في أمر ربه؛ فظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا لم يسترح ولم يسكن، ولم يهدأ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله، بل ظل قائمًا يدعو إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يحمل على عاتقه عبءَ الدعوة الثقيل الباهظ، فلا ينوء به، ولا

يتثاقل عنه، يحمل عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء الهداية، عبء العقيدة، يذبُّ عنها، ويدفع عن حماها، ويكافح ويجاهد في سبيلها، وذلك في ميادين شتى.

عاش معركة دائبة مستمرة أكثر من عشرين عامًا، لم يهدأ، ولم يسترح ولم يتلهى بشأن عن شأن في خلال تلك المودة المتطاولة منذ أن قرع سمعه النداء العلوي الجليل وتلقى من ربه التكليف الرهيب فبلغ النبي ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لهذه الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فجزاه عنا وعن البشرية بأسرها خير الجزاء.

ونحن نشرع في بيان مراحل هذه الدعوة، ونتأمل في مرحلتيها السرية والجهرية، نحاول أن نتلمَّسَ هذه السمات، وتلك العلامات الفارقة في دعوة النبي ﷺ ذلك أن هذه الدعوة هي النموذج الذي يجب على كل داعية إلى الله أن يحتذيه في دعوته إلى ربه، وأن يستفيد بكلِّ ما يتعلق بهذه الدعوة في سيرته وطريقته وعمله، وهو يقوم بواجب البلاغ والنصح لهذه الأمة.

ثانيًا: مراحل القيام بالدعوة:

١- مرحلة الدعوة السرية:

إن الدعوة في عهد نبينا ﷺ يمكن أن تنقسم إلى طورين: يمتاز أحدهما عن الآخر، فالطور الأول: هو الطور المكي، وقد بلغ ثلاثة عشر سنة على وجه التقريب، والطور الثاني: هو عشر سنوات كاملة، ثم يشتمل الطوران على مراحل، لكل منها خصائص امتازت بها عن غيرها. يظهر ذلك جليًّا بعد النظر والتدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال ذينك الطورين.

ويمكن تقسيم الطور المكي إلى ثلاث مراحل:

- مرحلة الدعوة السرية، وهي مرحلة امتدت لنحو ثلاث سنين.
- ومرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة، وهذا يبدأ من السنة الرابعة إلى أواخر السنة العاشرة من نبوته ﷺ.
- ثم تأتي مرحلة ثالثة، وهي مرحلة الدعوة خارج مكة، والانتقال بها من مكة إلى خارجها، وهي تبدأ من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة.

والمرحلة الأولى: هي مرحلة الدعوة السرية، أو لنقُلْ: هي المرحلة السرية في الدعوة إلى الله، وقد ظهر جليًّا أن أول من آمن بنبينا ﷺ هي خديجة زوجه > لأن النبي حين رجع يرجف فؤاده، وترتعد فرائصه؛ قصَّ الخبر على خديجة، وقد سبق أنه سبقت هذا إرهاصات، جعلت خديجة > تحمل النبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل؛ كان قريبًا لها، فلما قصت على ورقة الخبر، وسأل ورقة النبي ﷺ بشره وطمأنه.

يقول ابن إسحاق: وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاء به من الله، وآزرته على أمره؛ فكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع بشيء يكرهه من ردٍّ عليه أو تكذيبٍ له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس -يرحمها الله تعالى- وكانت > عاقلة دينه صَيِّنَةً حكيمة تكون حيث يكون، وتحب ما يحب وتتمنى ما يتمنى، آمنت بالدعوة، وعبدت ربها كما عبد النبي ﷺ في صدقٍ وإخلاص.

ولما جاء جبريل # إلى نبينا ﷺ يعلمه الوضوء والصلاة بطريقة عملية -كما في الخبر-: أن جبريل أتى محمدًا ﷺ وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقِبِهِ في ناحية

الوادي؛ فانفجرت له منه عينٌ؛ فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر إليه، ليريه كيفية الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول ﷺ كما رأى جبريلَ يتوضأ، ثم أقام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، فلما انصرف جبريل جاء رسول الله ﷺ إلى خديجة، فتوضأ أمامها؛ يريها كيفية الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى لها كما صلى به جبريل، فصلَّتْ بصلاته > ثم إن عليًّا > رأى رسول الله وخديجة يصليان، فقال: ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: ((دين الله الذي اصطفى لنفسهِ، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى)) فقال عليٌّ هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمرًا حتى أحدث به أبا طالب؛ ليأذن لي فيه.

وكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليٌّ سرَّهُ قبل أن يستعلن أمره، فقال له: ((يا علي إذا لم تسلم فاكتم هذا)) فمكث عليٌّ تلك الليلة، ثم إن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أوقع في قلب علي الإسلامَ فأصبح غاديًا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه ماذا عرضت عليَّ يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ: ((تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد)) قال: ففعل علي > وأسلم.

وأما زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، فقد كان مع النبي ﷺ منذ صغره، وكان مولاه؛ لأن خديجة > اشترته ثم وهبته لرسول الله ﷺ وكان عمره إذ ذاك ثماني سنوات، وهو من أوائل من أسلم، حتى قال بعضهم: إنه أسلم قبل علي بن أبي طالب. وبقي في كنف رسول الله ﷺ ونزل القرآن باسمه في قصة زواجهِ بزينب بنت جحش، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا

يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: الآية: ٣٧].

وهكذا تآلفت هذه الجماعة بالإسلام، وعلى الإسلام توحد عملها، وانتظم هدفها؛ مما جعلت الدعوة في مرحلتها السرية الأولى التي بلغت نحوًا من ثلاث سنين؛ جعلت هذه الدعوة دعوةً هادئةً مستقرةً مستمرةً ولا ننسى أن أبا بكر كان صديق النبي ﷺ الحميم، وهذا عَرَضَ عليه النبي ﷺ الدعوة في أول ما عرض، فإذا به يسلم من فوره، ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجل تألفه القلوب وتحبه، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه بأنسابهم، ولتجارته الواسعة، ولحسن خلقه وتعامله الذي يأتمنونه فيه.

فطفق أبو بكر > يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه، ويجلس إليه، فأسلم بدعوته > عددٌ كبير منهم عثمان بن عفان > والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فكان هؤلاء نفر الذين سبقوا الناس إلى الإسلام، وكانوا هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.ونلحظ أن عثمان والزبير وعبد الرحمن وسعد وطلحة كل هؤلاء من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة.

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي > ثم جاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، من بني الحارث بن فهر، وجاء أبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامه وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، ثم جاء سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومعه امرأته أخت عمر فاطمة بنت الخطاب العدوية، ثم جاء خباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وخَلْقٌ كثير، وهؤلاء هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش، وقد عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا.

ونلحظ أن النبي ﷺ دعا أعمامه إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وتجمع أعمامه حوله ﷺ وكانوا جميعًا يحبونه، ويرون فيه أخاهم عبد الله الذي مات ومحمدٌ حَمْلٌ في بطن أمه حتى إن أبا لهب أعتق جاريته ثويبة؛ فرحًا بمولده ﷺ وتقدم أن جده أنزله منزلةً خاصةً، فلما مات كفله عمه الشقيق أبو طالب، وكان أعمامه جميعًا يهتمون بشأنه، فإذا رحل للتجارة أوصوا القافلة به، وفي يوم زواجه من خديجة كانوا معه شاركوه ودعموه، وآزروه حتى أن أبا لهب خطب لولديه عتبة وعتيبة بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم.

وبعد أن أعلن النبي ﷺ عن دعوته ظل عمه أبو طالب على دين قومه، فلم يدخل في الإسلام، وبقي مدافعًا عن نبينا ﷺ ولم يَلِنْ لقريش حين أرادت البطش بالنبي ﷺ أو حين طالبت بدمه أو حين طالبت بني هاشم بتسليم النبي ﷺ إليهم، وقد اجتمع الأعمام كلهم على حماية النبي عدا أبي لهب، فقد أعماه اله تعالى عن الحق، فشرع في عداوة النبي ﷺ والصدِّ عن دينه حتى أنه أمر ولديه بتطليق بنات رسول الله ﷺ وأخذت امرأته في وضع الشوك والحطب والقذر أمام بيت رسول الله ﷺ.

وبقي أعمامه معه يحفظونه ويحمونه، وإن فعلوا ذلك عصبيةً حتى أن عمه حمزة أسلم؛ بسبب دفاعه عن النبي ﷺ فلقد حدثوا أن أبا جهلٍ مَرَّ على النبي ﷺ وهو عند الصفا فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يرد عليه رسول الله ﷺ ولم يكلمه.

وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكنٍ له تسمع ما قاله أبو جهل فشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعًا من قنصًا له -يعني من صيدٍ كان يخرج في طلبه- متوشحًا قوسه، فقالت له المرأة: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمدٍ آنفًا من أبي الحكم عمرو بن هشام، وجده هنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما

يكره، ثم انصرف، ولم يكلمه محمدٌ ﷺ فاحتمل حمزة الغضبُ، فخرج يسعى ولم يلتفت إلى أحدًا حتى أتى أبا جهل وهو جالس في نادي القوم حول المسجد، فضربه بالقوس فشج رأسه شجةً منكرة، أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول. فرد ذلك عليَّ أن استطعت؛ فقام رجالٌ من بني مخزوم؛ لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

وثبت حمزة من ساعتها على ما قال فأسلم وحسن إسلامه بفضل الله تعالى، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز، وأن المسلمين معه بإسلام حمزة قد صاروا أعزة، وهكذا دافع عنه أمامه لمنزلته بينهم ولحسن تعامله وكرم خلقه معهم، ولو كان غير ذلك لهجروه، وتركوه، والذين أسلموا مع النبي ﷺ من الرجال والنساء فشا ذكرهم بين الناس بمكة، وتحدث بأمرهم وهم أن أسلموا سرًّا إلا أن النبي ﷺ كان يجتمع بهم ليرشدهم ويعلمهم، وكانت الدعوة وقتئذٍ فردية وسرية.

كان الوحي يتتابع في نزوله حتى أنزل الله ﷻ مقاطع سور كثيرة، وآيات قصيرة ذات فواصل رائعة، وإيقاعات هادئة، تأخذ بالقلوب، وتتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تُعْنَى بتحسين النفوس وتزكية القلوب، وتقبيح الذنوب، وتصف الجنة والنار، وتقربهما للسامعين تسير بالمؤمنين في جوٍّ آخر غير ذلك الجو الذي عرفته مكة - جو الشرك والأوثان والمنكرات والقبائح.

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة. قال مقاتل بن سليمان: فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعًا، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل فرض شيءٌ قبل الصلوات الخمس

من الصلوات أم لا؟ فقيل: إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، انتهى حديثه.

وروى الحارث بن أسامة، من طريق ابن لهيعة موصولًا عن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ في أول ما أُوحِيَ إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفةً من ماءٍ فنضح بها فرجه. وقد روى ابن ماجه معناه. وروي نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس وكان ذلك من أو الفريضة.

وقد ذكر ابن هشام: أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبا طالب النبي ﷺ وعليًّا يصليان مرة فكلمهما في ذلك فلما عرف جلية الأمر أمرهم بالثبات.

٢. مرحلة الجهر بالدعوة:

لا شك أن قريشًا بلغها خبر رسول الله ﷺ فجعلت تُرقُبُ عن كثب ما يكون من أمره، وهي تعتقد أن حاله سيئول إلى حال أمثال أمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل وأشباههم إلا أنها توجست خيفةً من ذيوعِ خبرِهِ، وامتدادِ أثرِهِ، وأخذت تترقب على الأيام مصيره ودعوته.

وأولُ ما نزل لهذا الصدد من الدعوة إلى الله ﷻ جهارًا قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] والسورة التي وقعت فيها هذه الآية هي سورة الشعراء، ذُكِرَ فيها أولًا قصة موسى # من أول نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، وذُكِرَتْ نجاته من فرعون وقومه. وذكر إغراق آل فرعون معه. وقد اشتملت القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى # خلال دعوته لفرعون وقومه إلى الله تعالى.

وهذا التفصيل جيء به في هذه السورة التي جاء فيها الأمر للجهر بالدعوة؛ ليكون كالتمهيد للنبي ﷺ وليقف شاخصًا أمام رسول الله ﷺ كالنموذج الذي يُعْرَضُ لِمَا سيلقاه النبي ودعوته، ولِمَا سيلقاه النبي وأصحابه من التكذيب والاضطهاد حين يجهرون بالدعوة إلى الله، وليكونوا على بصيرةٍ من أمرهم من بداية دعوتهم، لماذا؟ لأن سنة الله في خلقه لا تحول ولا تزول، وهي سنة جارية على سننٍ لا يتغير ولا يتبدل.

ومن ناحية أخرى: اشتملت هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، علاوة على ما ذكر من أمر فرعون وقومه؛ ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم، وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب، وليعرف المؤمنون أن حسنَ العاقبةِ لهم لا للمكذبين.

وأول ما فعل النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية: أنه دعى بني هاشم فحضروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلًا، فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك، وبنو عمك فتكلم، ودع الصُّبَاه، يعني بذلك المسلمين الذين دخلوا في دين الله يقول أبو لهب: واعلم أنه ليس لقومك للعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه، فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشرٍّ مما جئت به؛ فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم إن النبي ﷺ دعاهم ثانيةً، فقال: ((الحمد الله أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال: إن الرَّائِدَ لَا

يَكْذِبُ أَهْلَهُ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعلمون، وإنها الجنة أبدًا، أو النار أبدًا)) فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبَلَنا لنصحك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب فأمضي لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب؛ فقال أبو لهب: هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا.

وبعدما أن تأكد النبيﷺ من تَعَهُّدِ أبي طالب بحمايته وقيامه برعايته؛ شرع يبلغ عن ربه، فقام يومًا على الصفا فصرخ يا صباحاه، فاجتمع إليه بطون قريش فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته، والإيمان باليوم الآخر.

وقد أخرج البخاري طرفًا من هذه القصة عن ابن عباس } قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ((صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا- فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾)) [المسد: الآية: ١].

وروى مسلم طرفًا آخَرَ من هذه القصة، عن أبي هريرة > قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعَمَّ وخصَّ؛ فقال: ((يَا مَعْشَرَ قريشٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يا معشرَ بَنِي كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ

النَّار، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ؛ فإني والله لا أملك لكم من الأمر شيئًا إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا)) هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ حيث أوضح النبي ﷺ لأقربيه أن التصديق بهذه الرسالة هو الحياة، وهو حياة الصلة بينه وبينهم. وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأن النبي ﷺ بهذا البلاغ العام شرع في هذه المرحلة الجهرية التي أنشأ فيها يتغشى قريشًا في مجالسها، ويذهب إلى منتدياتها، ويحضر مواسمها، ويجلس إلى رجالاتها الكبار، ويتعرض للصغار والغلمان والعبيد والأحرار، كل هؤلاء يواجههم بقوله: ((قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ تُفْلِحُوا)) ويجعل هذه الكلمة ملء فِيْهِ، وهو يواجه قريشًا بصلفها وعنادها وعتادها، وهي تتأبى على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ.

ولا يعدم النبي ﷺ خيرًا من هذه الدعوة الجهرية، كما لم يعدل خيرًا من تلك الدعوة السرية، فأسلم له رجال من أهل مكة، بل وأسلم في هذه المرحلة رجال مما كانوا يَفِدُونَ إلى أهل مكة للحج تارة وللتجارة أخرى، ولسماع أخبار هذا الرجل الذي بدأ الناس يتسامعون بدعوته، ويتعرفون على حاله.

بهذا تكون الدعوة الجهرية قد بدأت، وبدأ النبي ﷺ في معالجة قومه، ومعاناتهم بهذا الشكل المباشر، والوحي يدعمه، وقريش تواجهه، وأصحابه { يحوطونه غير أنهم لا يقدرون أن يمنعوه من الأذى، ولا أن يمنعوا أنفسهم مما يلقون من عنتٍ وشدةٍ وبلاءٍ، ينزل على كلٍّ واحد منهم بحسب حاله وموقعه من أهل مكة.

موقف المعاندين من دعوة النبي ﷺ

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تكذيب المشركين بالدعوة	٥٠٣
العنصر الثاني :	صوَر من مواجهاتهم للدعوة المحمدية	٥٠٩
العنصر الثالث :	المقاطعة العامة ونتائجها	٥١٩
العنصر الرابع :	حادثة الإسراء والمعراج وحكمتها	٥٢٨

تكــذيب المــشركين بالــدعوة

بعد دعوةٍ سريةٍ امتدت لعامين ونصف العام؛ دعا النبي ﷺ الكفارَ إلى الإسلام جهرًا، وكان ذلك بعد أن أَذِنَ الله ﷻ لرسوله بالجهر بالدعوة؛ فلم يزل صوته ﷺ يرتجُّ دويُّه في أرجاء مكة بدعوته إلى الله -تبارك وتعالى- استجابةً إلى قول الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] فقام نبينا ﷺ يبذل نفسَه ونفيسَه في سبيل إقامة دين الله ﷻ.

ووقع منهم السؤال عن مدى صدق محمد ﷺ وصار لأبي لهب موقف من النبي ﷺ ورأينا مظاهر السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ وبُثَّت الدعايةُ الكاذبةُ عنه، وقيل عنه ما قيل...

انفجرت مكةُ بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار؛ حين سمعت صوت محمد ﷺ يجهر بتضليل المشركين وعُبَّادِ الأصنام؛ كان وقع صوته ﷺ وهو يدعوهم إلى "لا إله إلا الله" يدعوهم إلى نفي الألوهية عما سوى الله، يقع عليهم هذا الصوت موقع الصاعقة... موقع الريح القاصف... موقعًا شديدًا على نفوس أولئك الذين ألفوا الشرك، وجعلوا منه عقيدةً وعبادةً يتعبدون بها.

ورأينا كفار مكة يبحثون عن مطاعنَ يوجهونها جهة النبي الأمين... جهة من عَرفوه بالصدق والأمانة؛ فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألونهم عن مدى علمهم بصدق محمدٍ ﷺ بل ويسألونهم كيف يواجهون دعوته الفتية...

ما هي الوسائل والأساليب؟!

ما هي الحيل والدسائس؟!

ما هي الطعون التي يمكن أن توجَّه إلى رسول الله ﷺ؟!

سألوا الأحبار عن رسول الله، ووصفوا لهم أمره، وحكوا لهم بعض قوله؛ حتى روى ابن عباس:

"أن قريشًا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألوهم، فقالا فيما قالاه لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل؛ وإلا فرجل متقوِّل فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب! وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ ما كان نبؤه؟! وسلوه عن الروح؛ ما هي؟!

فإن أخبركم بذلك؛ فهو نبيٌّ؛ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوِّل؛ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم".

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد؛ قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور. وأخبروهم بها... فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن كذا وكذا... وسألوه عن الأمور التي حددها الأحبار؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: ((أخبركم غدًا عما سألتم عنه)) ولم يستثنِ... فانصرفوا عنه.

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحي ولا يأتيه جبريل # حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمدٌ غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، ولم يخبرنا بشيءٍ عما سألناه عنه...

وتألم النبي ﷺ لانقطاع الوحي عنه، وشق ذلك عليه؛ لكن بعد خمسة عشر يومًا جاءه جبريل # من الله ﷻ بالخبر وهو يتلو سورة الكهف، وفيها يعاتبه

الله تعالى على حزنه عليهم، ويخبره عما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

لما أخبرهم النبي ﷺ بنبأ ما سألوا عنه؛ رجعوا إلى أنفسهم فعلموا أن لا طاقة لهم بالنبي ﷺ أن يواجهوه مواجهة عقلية، أو فكرية، أو منهجية؛ لذا لجئوا إلى وسائل غير حضارية، لجئوا إلى العدوان والإيذاء البدني، ولجئوا إلى نشر الأكاذيب والافتراءات حول شخص النبي ﷺ وحول دعوته، لا يستثنَى في ذلك من أهل مكة أحد؛ حتى إن موقف أبي لهب منه كان غاية في النكارة؛ ذلك أن الله ﷻ لما أنزل على نبيه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج النبي ﷺ فصعد على الصفا فهتف: ((يا صباحاه)) وهو يدعو بذلك قومه؛ حتى اجتمعوا قائلين: "من هذا؟" فجعل النبي ﷺ ينادي: ((يا بني فهر، يا بني عدي...)) وهكذا يدعو بطون قريش جميعًا حتى اجتمعوا؛ فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما الخبر، فقال ﷺ: ((أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقِيَّ؟)) قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط. قال ﷺ: ((فإني نذير لكم بين يدَيْ عذاب شديد)) فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟! فنزل قول الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ [المسد: ١]، نعم، وقد تب وخسر وهلك.

لم يكتفِ أبو لهب وهو عم رسول الله ﷺ بهذا الموقف؛ بل أخذ في التصدي له؛ فكان يسير خلفه ويمشي وراءه حين يواجه النبي ﷺ الناس؛ فيقول من خلفه: إنه كاذب؛ وأنا أعلم خبره فهو ابن أخي! ولا يكتفي بذلك حتى يضع هو وزوجه الحطب... الشوك... أمام النبي ﷺ ليعجزه ذلك عن الخروج والدعوة، وفيه وفي زوجه أنزل الله -تبارك وتعالى- سورة "تبت" التي فيها ذكر

هذا الرجل وذكر زوجته، سورة المسد تناولت أبا لهب وزوجته بذكرٍ شنيع؛ يبين عاقبته وسوء منقلبه.

نعم، والله ﷻ إنما خص هذا الرجل بهذه السورة لخصائص كانت فيه؛ فقد كان رجلًا سِكّيرًا عربيدًا لا يكاد يفيق من سكره، وكان رجلًا شديدًا غليظًا عتلًّا يعادي الإسلام ورسوله وأهله عداءً شديدًا، واجتمع له مع ذلك: أن اجتمعت زوجه أم جميل على معاونته ومآزرته في الصد عن سبيل الله، وفي أذى رسول الله ﷺ حتى نزل عذابهما مخلدًا في كتاب الله ﷻ قال -جل من قائل-: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١- ٥].

وزاد الأمر بأن بلغت السخرية منتهاها والأذى برسول الله ﷺ غايته، وأخذ كفار مكة يستهزئون بالنبي ﷺ في حرب نفسية تهد القوى وتصرف عن الهدف، وما كان النبي ﷺ لتلين قناتُه، ولم يكن النبي ﷺ ليتوهن عزمه مع أنه ﷺ كان أشق شيءٍ عليه: أن يقال عنه: "إنه مجنون"، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] يصفونه بهذا، وربما رموه بالكذب، وربما رموه بالسحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

وكانوا يتبعون النبي ﷺ بنظرات حداد، وبألسنة شديدة، وبعواطف متهيجة، كل ذلك رغبة في أذاه ﷺ حتى قال -جل من قائل-: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، ولم يكن هذا خاصًّا بنبينا ﷺ بل كان له ولمن تبعه على الحق؛ قال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ

ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٣].

ولم يكتفوا بهذا، بل -كما قال ابن إسحاق-: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا؛ فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلِّي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًّا جميلًا؛ فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه.

لكن النبي ﷺ مضى في دعوته غير آبهٍ بقريش وكيدها، ومكرها، واستهزائها، وصار ﷺ يجهر بالدعوة لكل من لقيه؛ حتى إنه لم يمضِ عليه إلا أشهر معدودة حتى اقترب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم؛ فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن رسول الله ﷺ حتى لا يكون له أثر في نفوسهم؛ فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة المخزومي يناقشونه فيما ينبغي أن يقال في حق رسول الله ﷺ ماذا هم قائلون؟! وماذا هم فاعلون؟! كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤- ٥]، وقالوا أيضًا عنه من جملة ما قالوا من الدعاية المضللة والدعاوى الكاذبة: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧].

بهتانٌ ظاهر، وتوجهاتٌ مشبوهةٌ، وأقاويل مغرضة، يسوقونها للناس؛ بغية أن يصدوا عن سبيل الله ﷻ.

وفي هذا، حين أتوا الوليد بن المغيرة جعلوا يذكرون له ما وقع من رسول الله ﷺ وقد قيل: إنهم لما قالوا له: إنه ساحر، قال: لا والله ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم؛ فما هو بساحر. وقالوا: كاهن. فقال: لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم؛ فما هو بكاهن. ثم قالوا له: فهو شاعر. قال: لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه... وهكذا، جعل يرد عليهم حتى استحسن من مقالتهم ما استحسن من القول -والعياذ بالله تعالى- بأنه سحر؛ لأنه قال: وقلتم: مجنون؛ لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه...

وقد قيل: إنه ذهب إلى الحيرة بحثًا عن حلٍّ يريده؛ فتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، ووقف على أخبار رستم وإسفنديار؛ فكان إذا جلس رسول الله ﷺ يحدث ويذكر بالله ﷻ جعل يقول من خلفه: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، ثم يجعل يحدثهم أحاديث ملوك فارس وغير ذلك.

لكن استحسن في آخر الأمر أن يقال: إن هذا سحر؛ لماذا؟ قال: لأنه يفرق بين الرجل وزوجه، ولأنه يؤدي إلى هذه الفرقة بين قريش وبين عقيدتها ودين آبائها، وفي الوليد بن المغيرة نزل قول الله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ١١- ٢٥].

والنبي ﷺ مضى في دعوته غير مبالٍ ما تقول قريش، ولا ما تفعل قريش في صدها عن سبيل الله تعالى؛ لكنها لم تقف عن هذا الحد بل زادت فيه وتكلمت وقالت قولًا عظيمًا على نبينا ﷺ.

ومن ذلك أن أبا جهل بن هشام أتى النضر بن الحارث لَّما قال قولًا فيه ملاينة لرسول الله ﷺ حين قال: "والله لقد نظرت فيما قال محمد؛ فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وما أشك أنه سحر... فكأنه رق له؛ فلما بلغه ذلك جاءه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لم؟ قال: يعطونكه؛ فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قِبَلَه. - يعني: لما عنده، ﷺ، من مال- قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك منه أنك منكر لما قال وأنك كارهٌ له. قال: فماذا أقول فيه؟! فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا؛ والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أتفكر فيه. فلما فكَّر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره.

صور من مواجهاتهم للدعوة المحمدية

أ. إيذاء الكفار للنبي ﷺ:

امتدت صور مواجهة الكفار لدعوة النبي ﷺ حتى وصلت إلى حد المساومة وإلى حد التخليط، حاول الكفار في مرات عديدة أن يتعاون معهم رسول الله ﷺ في خلط الإسلام بالكفر وتقريب الشقة بين التوحيد والشرك؛ ليكونوا بذلك دينًا هجينًا... دينًا مخلوطًا... دينًا مدخولًا من كفر وتوحيد... من شرك وإيمان... وأن يجعلوا ذلك معبودهم الجديد وعقيدتهم التي بها يدينون؛ فيرضون هذا، ويرضون ذاك، فيقبلون أن يعبدوا الله يومًا وأن يعبد رسول الله ﷺ أصنامهم يومًا...

يروي ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي -وكانوا من ذوي السيادة في قومهم- اعترضوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة، فقالوا له: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد؛ فنشترك نحن وأنت في الأمر؛ فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد؛ كنا قد أخذنا بحظنا منه؛ وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت حظك منه؛ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١- ٦]؛ فكانت مفاصلة كاملة بين الإيمان والكفر، اختطها رسول الله ﷺ من أول دعوته، ومن أول نشأة هذه الدعوة إلى التوحيد؛ فإنها لا تعرف مجاملة في أمر العقيدة، ولا مداهنة في أمر الثوابت؛ لا تعرف هذا ولا ذاك؛ لأنها دعوة لله -تبارك وتعالى.

عندها اشتد الأذى على رسول الله ﷺ وكان أشد الناس إيذاءً لرسول الله: الأقربون... كان أشد الناس إيذاءً لرسول الله: عمه أبو لهب، يقول ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته: أبا لهب، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وكانوا جيرانًا للنبي ﷺ لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص فإنه أسلم فيما بعد؛ فكان أحدهم يطرح على النبي ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمَتِهِ إذا نصبت له؛ حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى فكان ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه ثم يقول: ((يا بني عبد مناف، أي جوارٍ هذا؟!))، ثم يلقيه ﷺ.

وهذا عقبة بن أبي مُعَيْط اشتد في عداواته لرسول الله ﷺ حتى روى البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهلٍ

وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؛ فانبعث أشقى القوم -وهو عقبة بن أبي مُعَيْط- فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر -والقائل ابن مسعود- لا أغني شيئًا؛ فجعلوا يضحكون ويميلُ بعضهم على بعضٍ مرحًا وفرحًا، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته ابنته فاطمة؛ فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: ((اللهم عليك بقريشٍ)) ثلاث مرات. شق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، وقد سمى الرسول ﷺ في دعائه فقال: ((اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط)) وعد السابع فلم نحفظه، قال ابن مسعود: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب: قليب بدرٍ...".

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، وفيه أنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، أما أخوه أُبَيُّ بن خلف؛ فكان هو وابن أبي مُعَيْط متصافيين، فجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ فسمع منه؛ فلما بلغ ذلك أُبيًّا أنَّبَه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل وأبي بن خلف خلفه ينظر ما يفعل، وهو نفس الرجل الذي فَتَّ عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله، ﷺ.

وكان الأخنس بن شريق من الذين ينالون من رسول الله ﷺ وهكذا كان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى النبي ﷺ يسمع منه القرآن؛ ثم يذهب فلا يؤمن ولا يطيع ولا يخشى ولا يتقي؛ بل ويؤذي رسول الله؛ ففيه وفي أمثاله أنزل الله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣١- ٣٥]، وكان -عليه لعنة الله- يمنع رسول الله عن الصلاة منذ

أن رآه يصلي في الحرم. ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟! وتوعده فأغلظ له رسول الله وانتهره، وقال: يا محمد، بأي شيءٍ تهددني؟! أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٧ - ١٨].

وقد أخرج مسلم عن أبي هريرة أن أبا جهل قال: أيعفر محمد وجهه بين أظهركم؟! فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأنَّ على رقبته ولأعفرنَّ وجهه في التراب. فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي... أتى رسول الله ليطأ رقبته؛ فما فجأهم إلا وهو ينكس على عقبيه مهرولًا ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟! قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: ((لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)).

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي ﷺ مع ما لشخصه الكريم من الوقار والجلال في نفوس العامة والخاصة، ومع ما له من منعة أبي طالب، وهو أعظم رجل يحترم في مكة.

ب- إيذاء الكفار للمسلمين:

أما بالنسبة إلى المسلمين؛ لا سيما الضعفاء منهم؛ فإن الأمور كانت أشد، والإجراءات كانت أقسى، والعذاب كان أنكى؛ ففي نفس الوقت، قامت كل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام ألوانًا من التعذيب؛ ومن لم يكن له قبيلة أجرت عليهم الأوباش والسادات ألوانًا من الاضطهاد يفزع من ذكرها القلب الحليم.

هذا أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعه؛ أنّبه وأخزاه وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال والجاه؛ وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به السفهاء...

عثمان بن عفان، ومصعب بن عمير:

عثمان بن عفان < كان عمه يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته. وأم مصعب لما علمت بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته وكان من أنعم الناس عيشًا.

بلال بن رباح:

وهذا بلال مولى أمية بن خلف الجمحي يضع أمية في عنقه حبلًا ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به في جبال مكة حتى يظهر أثر الحبل في عنقه، وكان أمية يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس يكرهه على الجوع، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة؛ فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا، والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول -وهو في ذلك-: أحدٌ أحدٌ. حتى مر به أبو بكر يومًا وهم يصنعون ذلك به؛ فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواقٍ أو بخمس من الفضة، ثم أعتقه، < .

عمار بن ياسر:

وهذا عمار يناله من الأذى ما يناله -وكان مولًى لبني مخزوم- هو وأبوه وأمه يسلمون جميعًا وأمه معهم؛ فكان المشركون -وعلى رأسهم المعاند الشديد أبو جهل- يخرجونهم إلى الرمضاء؛ فيعذبونهم بحرها... تعذب الأسرة بأسرها... يمر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون، فيقول: ((صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة))... مات ياسر في العذاب... وطعن أبو جهل سمية... طَعَن أمَّ عمار في قُبُلِها... في موضع العفة منها بحربة فماتت فكانت أول شهيدة في الإسلام...

شددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الذي احمرَّ على صدره أخرى، وبالتغريق في الماء أخرى، وهم يقولون: لا نتركك حتى تسب محمدًا أو تقول في اللات والعزى خيرًا؛ فوافقهم على ذلك مكرهًا؛ فلما فكوا أساره ذهب إلى النبي باكيًا معتذرًا؛ فأنزل الله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]...

خباب بن الأرت:

وهذا خباب بن الأرت مولى لأم أنمار الخزاعية، كان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل والتعذيب، يجذبونه من شعر رأسه، يلوون عنقه، يضجعونه مرات عديدة على صخور ملتهبة ويضعون عليه حجرًا؛ حتى لا يستطيع أن يقوم، ولقد كشف يومًا عن ظهره؛ فإذا به من آثار تلك الحروق؛ فيخبر أنهم أوقدوا حطبًا، ثم عرضوه لهذا الحطب؛ فما أطفأ هذا الحطب إلا شحم ظهره الذي ذاب فوق هذه الحطبات.

ج- محاولة قتل الرسول ﷺ:

أ- عتيبة بن أبي لهب يسلط الله ﷻ عليه كلبًا من كلابه:

ثم وصلت الكراهة لرسول الله ﷺ والضَّجر بأهل مكة أن حاولوا قتل رسول الله ﷺ من ذلك أن عتيبة بن أبي لهب أتى رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] و﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٨]. ثم تسلط على نبينا بالأذى وشق قميصه، وتفل في وجهه، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ فقال: ((اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك)) فاستجيب دعاء نبينا ﷺ فخرج

عتيبة مرة في نفرٍ من قريش حتى نزلوا في مكان من أرض الشام يقال له : "الزرقاء"، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ؛ فجعل عتيبة يقول : يا ويل أخي، هو الله آكلي كما دعا محمد عليَّ، قتلني وهو بمكة وأنا بالشام. فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه.

وفي رواية هشام عن عروة عن أبيه : "أنه لما طاف بهم الأسد تلك الليلة ؛ انصرف عنهم ؛ فجعلوا عتيبة وسطهم ؛ فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه".

ب- طغاة قريش يغمزون النبي ﷺ ويؤذونه :

أما طغاة قريش ؛ فلم تزل فكرة قتل النبي ﷺ تنضج في قلوبهم وتكبر في عقولهم وتفكيرهم ؛ حتى روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحج ؛ فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ! سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا ؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم...

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا، فغمزوه ببعض القول يقول : فعرفت ذلك من وجه رسول الله ﷺ فلما مر بهم الثانية ؛ غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك من وجه ﷺ ثم مر بهم الثالثة ؛ فغمزوه بمثلها ؛ فوقف ثم قال : ((أتسمعون يا معشر قريش ! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح)) ؛ فأخذت القوم كلمته ؛ حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ؛ حتى إن أشدهم فيه وصاةً ليرفؤه بأحسن ما يجد، ويقول : انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولًا. فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره ؛ إذ طلع عليهم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به ؛

فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلًا أن يقول: "ربي الله"؟!. ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط.

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ. قال: "بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة؛ إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيْط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: "أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟!". وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع، فخرج وهو يقول: "أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟!". فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر؛ فرجع إلينا لا نمس شيئًا من غدائره إلا رجع معنا".

لم تغادر فكرة قتله ﷺ عقولهم وبخاصة حينما رأوا الإسلام قد انتشر، والمسلمون قد اشتدت سواعدهم وصلب عودهم، وتأكدوا أن بقاء النبي ﷺ بين ظهرانيهم سوف يؤدي إلى القضاء على عبادة الأصنام، وعلى حرمانهم من السيادة والتسلط، وكانت آخر محاولاتهم ليلة أن هاجر ﷺ.

ج- محاولات الإيذاء والاضطهاد كانت سلبية للمشركين:

نتائج كل ما سبق من الاضطهاد وكل ما ذكرنا من التشويه والتشويش على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه كانت -بالنسبة لكفار مكة- سلبية:

فقد حاولوا مع النبي ﷺ شخصيًا، وأذاقوه ألوانًا من العذاب، وأغروه بألوان من المغريات، وجعلوا أصحابه في أشد عذاب وأنكى نكال؛ ومع هذا لم يفلح شيءٌ من هذا... هددوا أبا طالب وتوعدوه وبعثوا إليه بكلام شديد؛ فما كان هذا

ليفت في عضد رسول الله ﷺ حتى إن عمه حين أتاه قائلًا: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا؛ فأبقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. ظن النبي ﷺ أن عمه خاذله وأنه ضعف عن نصرته؛ فقال: ((يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه)) ثم استعبر وبكى، وقام؛ فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخي فقل ما شئت -أو قال له: فقل ما أحببت- فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا. ثم أنشد قائلًا:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ❖ حتى أُوسَّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ❖ وأبشر وقر بذاك منك عيونا

فلم يحصل قريش على نتيجة إيجابية من توعدهم أو تهديدهم لعمه أبي طالب؛ بل اشتد الأمر عليهم حين أسلم حمزة > فرأوا أصحاب رسول الله يكثرون ويزيدون ويمتنعون بإسلام حمزة؛ بل وبإسلام الفاروق، { .

د. قريش ترسل عتبة لمحاورة النبي ﷺ:

وما زلنا نذكر ذلك الموقف الذي قام فيه بعض أهل مكة يتناجون؛ حتى انتدبوا إليهم أحدهم ليحاور النبي ﷺ وهو عتبة بن ربيعة -وكان سيد قومه- فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت بهم جماعتهم، سفهت به أحلامهم، عبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت بما مضى من آبائهم؛ فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال النبي ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمعْ. قال عتبة: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا؛ وإن كنت تريد

بذلك شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك؛ وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه... فلما فرغ عتبة من حديثه؛ قال له النبي ﷺ: ((أو قد فرغت يا أبا الوليد)) قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: ((فاسمع مني)) قال: أفعل. قال ﷺ: ((﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾)) [فصلت: ١- ٥]، ومضى نبينا يقرأ السورة؛ فلما سمعها منه عتبة؛ أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها يسمع، ثم انتهى النبي ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: ((قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت؛ فأنت وذاك)).

فلما رجع عتبة إلى قومه رأوا فيه ما لا يرغبون ولا يريدون؛ فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟!. قال: ما ورائي؟! إني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه؛ فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب؛ فملكه ملكهم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به...

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم، وماذا أقول فيه؟! والله إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال ما قال من قولته التي سطرها عليه القرآن.

المقاطعة العامة، ونتائجها

أ. اتفاق بني هاشم وبني عبد المطلب على حماية النبي:

لما رأى أبو طالب أن الكفار والمشركين اشتدت عداوتهم لنبينا ﷺ وأنه لن ينتهوا عن مكائدهم إلا إذا تخلصوا من رسول الله ﷺ لما رأى ذلك جمع أبناء عبد مناف -وهم بنو أمية- وبنو عبد شمس، وبنو المطلب، وبنو نوفل، وبنو هاشم، وعرض عليهم خطورة الأمر، وعرض عليهم التكاتف الاتحاد في مواجهة عدوان كفار مكة على النبي ﷺ وهو في الذروة من بني هاشم ومن قريش حسبًا ونسبًا؛ فوافق بنو هاشم، وبنو المطلب، وأخذوا على أنفسهم الميثاق على حماية النبي ﷺ وعدم تسليمه للكفار أبدًا... اتفقوا على ذلك مسلُمهم وكافرُهم، ولم يشذ من هذين البطنين إلا أبو لهب؛ فإنه انحاز إلى كفار مكة ضد نبينا ﷺ ولذا قال نبينا ﷺ: ((كنا وبني المطلب معًا في الجاهلية والإسلام)).

في هذه الفترة وقعت أربع حوادث ضخمة بالنسبة للمشركين، وكان وقوعها خلال شهر واحد أو في أقل من ذلك: إسلام حمزة، ثم إسلام عمر } ثم إن النبي ﷺ عرضت عليه العروض، وألقيت بين يديه المساومات؛ فرفض ذلك كله، ثم أنه توافق بنو المطلب وبنو هاشم على حياطة النبي ﷺ ومنعه.

ب. مقاطعة عامة ضد بني هاشم وبني عبد المطلب:

أدى هذا إلى حيرة المشركين... ماذا يفعلون؟ إنهم عرفوا أنهم لو قاموا بقتل رسول الله؛ لنشبت في ذلك حرب عظيمة يسيل وادي مكة دونه بدمائهم، بل ربما أفضى ذلك إلى استئصالهم، عرفوا فانحرفوا إلى ظلم آخر دون القتل؛ لكنه أشد

مضاضة... ذلك أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة وأشد وقعًا على النفوس من السيوف...

اجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب ؛ فتحالفوا هم على بني هاشم وبني المطلب ألا ينكاحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل...

وكتبوا ذلك في صحيفة، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة ؛ فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، انحاز مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب وحبسوا في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبعٍ من بعثة النبي ﷺ في مقاطعة شديدة شنيعة استمرت بهم ثلاثة أعوام، اشتد فيها الأمر على بني هاشم وبني المطلب حتى أكلوا ورق الشجر وحوصروا في شعبهم لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم ؛ للتعامل مع وفود الحج والعمرة.

وكان أهل مكة لحرمانهم من كل خير؛ حيث منعوا أن يتصل بهم أحد من القبائل البعيدة عن مكة، وكانوا إذا رأوا تجارة قادمة سارعوا بشرائها قبل أن تصل إلى المحاصرين في الشعب مبالغين في ثمنها، وقطعوا عنهم الميرة والمادة.

ج- نقض نود الصحيفة التي تنص على المقاطعة :

ومضت على ذلك ثلاثة أعوام كاملة حتى بلغوا المحرم سنة عشر من النبوة ؛ فنقضت تلك الصحيفة، وفك ذلك الإصر والميثاق، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن لؤي، وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيًا بالليل... يصلهم

بالطعام ؛ فإنه ذهب إلى زهير بن أمية المخزومي ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير ، رضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وأخوالك بحيث تعلم. فقال : ويحك فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها ، قال : قد وجدت رجلًا. قال : فمن هو؟ قال : أنا. قال له زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا. فذهبوا إلى المطعم بن عدي ؛ فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع؟! إنما أنا رجل واحد. قال : قد وجدت ثانيًا ، قال : من هو؟ قال : أنا. قال : ابغنا ثالثًا. قال : قد فعلت. قال : من هو؟ قال : زهير بن أبي أمية. قال : ابغنا رابعًا. فذهب إلى البختري بن هشام ، فقال له نحوًا مما قال للمطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا؟ قال : نعم. قال : من هو؟ قال : زهير بن أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك. قال : ابغنا خامسًا. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : هل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال : نعم. ثم سمى له القوم...

فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير: أنا أبدؤكم ؛ فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعًا ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ؛ أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى ، لا يباع ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل -وكان في ناحية المسجد- : كذبت ، والله لا تُشق. فقال زمعة الأسود : أنت والله أكذب ؛ ما رضينا كتابتها حيث كتبت. قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به. قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك ، فقال أبو جهل : هذا أمر قضي

بليل، تُشووِر فيه بغير هذا المكان! وأبو طالب جالس في ناحية المسجد؛ إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على هذه الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة؛ فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله ﷻ فأخبر بذلك عمه.

فخرج عمه إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا؛ فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه؛ وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا؛ قالوا: قد أنصفت. وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها؛ فوجد الأرضة قد أكلتها إلا "باسمك اللهم"، وما كان فيها من اسم الله؛ فإنها لم تأكله، ثم نقضت الصحيفة، وخرج النبي ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته؛ ولكنهم كما أخبر الله عنهم: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢].

د- موت أبي طالب والسيدة خديجة بعد عشر سنوات من البعثة:

شاء الله تعالى أن يتعرض نبينا ﷺ لحزنٍ شديد؛ فبعد مضي عشر سنوات من بعثته يموت عمه أبو طالب وتموت زوجه الرءوم خديجة بعده بأيام قليلة، وكان النبي ﷺ يجد من كل منهما العون والمساعدة؛ فلقد قام عمه بحمايته والتصدي لأعدائه، وتحمل من أجل ذلك ومعه بنو هاشم وبنو المطلب مقاطعة قريش العامة وقد كان من ورائها كبير الضرر...

هـ- الاستعانة بغير أهل مكة:

وحاول نبينا ﷺ أن يستعين بغير أهل مكة؛ لا سيما بعد وفاة عمه فقام بمحاولتين داعيًا إلى الله:

الأولى: ذهب إلى ثقيف في الطائف مصطحبًا معه زيد بن حارثة مولاه > والطائف بلدة كثيرة الثمر معتدلة المناخ مرتفعة عالية على مكة، ذهب إليها رسول الله ﷺ ليجتمع بسادة ثقيف، يدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى- ويعرض عليهم نفسه؛ فما كان منهم إلا أن ردوه ردًّا منكرًا وأغروا بهم سفهاءهم وأطفالهم؛ فرموه بالحجارة حتى أدموا عقبيه ﷺ وقصته مع أهل ثقيف مشهورة معروفة.

الثانية: عرض نفسه على القبائل في المواسم في مواسم الحج، وفي ملتقياتهم، وأسواقهم، ومنتدياتهم، يدعوهم إلى الله، ويسألهم أن يمنعوه حتى يبلغ دعوة الله ﷻ وعلا- يفعل ذلك وقريش تتبعه... وقريش تؤذيه... وقريش تغري السفهاء به.. وذلك منه ﷺ في محاولة لكسر ذلك الطوق الذي فرضه أهل مكة على الدعوة إلى الله، تبارك وتعالى...

و. زواج النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة:

بعد وفاة خديجة > تزوج النبي ﷺ وهو بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة؛ فعقد على عائشة > ودخل بها في المدينة، وتزوج سودة بنت زمعة > ودخل بها في مكة، وأما أم حبيبة بنت أبي سفيان > فعقد عليها وهي في الحبشة ودخل بها بعد عودتها إلى المدينة بعد الهجرة.

عائشة وأم زمعة } :

والصحيح أن عائشة > تزوجها النبي ﷺ أولًا وإن لم يبنِ بها، وقد قال البخاري في باب تزويج عائشة: أن النبي ﷺ قال لها: ((أريتك في المنام مرتين؛ أرى أنك في سرقة من حرير ويقول: هذه امرأتك...)) والمقصود بقوله

((ويقول)): أي: الملك ((فأكشف عنها، فإذا هي أنتِ؛ فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يمضه)) والسرقة: هي القطعة من الشيء؛ فكأن النبي ﷺ أريها في المنام أنها زوجته...

وقد قال البخاري في باب نكاح الأبكار، قال ابن عباس لعائشة: "لم ينكح النبي ﷺ بكرًا غيرك" وعن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أُكِل منها ووجدت شجرة لم يؤكل منها؛ في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: ((في التي لم يرتع منها)) تعني: أنه ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، وهذا عند البخاري...

وقد روى البخاري أيضًا عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: ((توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ بثلاث سنين؛ فلبث سنتين أو قريبًا من ذلك، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين)).

وهذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ كان عقده عليها وهي ابنة ست وأن بناءه بها وهي ابنة تسع، وهذا مما لا خلاف عليه بين المؤرخين. وأما كون تزويجها كان بعد موت خديجة بنحوٍ من ثلاث سنين؛ ففيه نظر وتأمل؛ لماذا؟.

لأن عائشة > قالت: ((تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه من مكة، وأنا ابنة سبع أو ست سنين؛ فلما قدمنا المدينة جاءني نسوة وأنا ألعب في أرجوحة وأنا مجممة؛ فهيئنني وصنعنني، ثم أتين بي إلى رسول الله ﷺ وأنا ابنة تسع سنين)).

فقولها في هذا الحديث: ((متوفى خديجة)) يقتضي أنه على إثر ذلك قريبًا، وهذا يدل على أن العقد على عائشة > لم يكن بينه وبين وقت وفاة خديجة زمن طويل.

وقد ورد أنه: ((جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال: ومن؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: ومن البكر؟ ومن الثيب؟ قالت: أما البكر؛ فابنة أحب خلق الله إليك: عائشة. وأما الثيب؛ فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: فاذكريهما عليَّ))، وذكر هذا الحديث؛ ففيه بيان تقدمي خطبة عائشة على زواجه ﷺ بسودة بنت زمعة -رضي الله تعالى عنهن.

ولكن كان دخوله على سودة بمكة؛ أما دخوله على عائشة فتأخر إلى المدينة في السنة الثانية من هجرته، ﷺ.

وقد روى ابن إسحاق من طريق يونس بن بكير: أن النبي ﷺ تزوجها بعد خديجة ودخل بها في مكة قبل الهجرة ولم يصب منها ولدًا، وكانت عائشة > تقول: ما رأيت من امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة... ويورد ابن كثير قصة زواجه بسودة وعائشة، ويبين زواجه ﷺ من عائشة على زواجه من سودة } .

وفي هذا حديث الإمام أحمد: عن عائشة قالت: ((لما كبرت سودة وهبت يومها لي؛ فكان رسول الله ﷺ يقسم بي بيومها مع نسائه، قالت: وكانت أول امرأة تزوجها بعدي)).

وقد ورد: ((أن النبي ﷺ لما خطبها كانت مصبية)) أي: لها خمسة صبية أو ستة من بعلٍ لها مات، ((فقال رسول الله ﷺ: ما يمنعك مني. قالت: والله -يا نبي الله- ما يمنعني منك ألا تكون أحب البرية إليَّ، ولكني أكرمك أن يضغو هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشيًّا)) أي: يصيحوا ويضجوا، ((قال: فهل منعك مني شيءٌ غير ذلك؟ قالت: لا والله. قال لها رسول الله ﷺ: يرحمك الله إن

خير نساء ركبن أعجاز الإبل : صالح نساء قريش ، أحناه على ولدٍ في صغر ، وأرعاه على بعلٍ بذات يده)). وهي التي وهبت يومها > وذلك حين كبرت وتقدمت في السن.

ونفهم من رواية (الصحيحين) أنها كانت امرأة مع كبر سنها -فيما بعد- كانت كبيرة الجسم حتى أنها لتعرف وتميز بين النساء إذا مشت ، حتى قال عمر ذات يومٍ -وقد خرجت سودة ليلًا- : إنك والله -يا سودة- ما تخفين علينا.

وتصفها بعض الروايات بأنها كانت ثقيلة بطيئة الحركة ؛ ولهذا استأذنت النبي ﷺ ليلة مزدلفة في الدفع قبل ازدحام الناس ؛ فأذن لها ﷺ.

مكانة السيدة عائشة وفضلها :

وأما عائشة > فكانت بكْرَه ﷺ فهي الوحيدة من بين أزواجه التي تزوجها بكرًا ، وقد قدمنا ما كانت تظهره من فضلها على سائر نساء النبي ﷺ بأنها تلك الشجرة التي لم يُرتع منها ، يعني : لم يتزوجها أحد قبل رسول الله ﷺ. وقد مكثت عائشة > مع النبي ﷺ ومات عنها وهي بنت ثماني عشرة سنة ، > .

وفي فضلها قال نبينا ﷺ : ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)) وأخبرها النبي ﷺ أن جبريل كان يقرئها السلام.

وقد اختصها الله تعالى من بين سائر الزوجات بنزول الوحي على النبي ﷺ وهو في فراشها ، وقد قال ﷺ ذات يوم لأم سلمه : ((يا أم سلمة ، لا تؤذيني في عائشة ؛ فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها)).

والنبي ﷺ لم يكن ليخفي محبته لعائشة ولم تكن محبته ﷺ لعائشة لتخفى على المسلمين ؛ حتى إنهم كانوا يتحرون اليوم الذي يكون فيه النبي ﷺ عند عائشة ؛

فيتعمدونه ويتقصدونه بالهدية في يومها وفي ليلتها ؛ ليسروا قلبه ﷺ بهذه الهدية وهو عند أحب النساء إليه.

يدل على ذلك ما ثبت في (الصحيح) : أنه ﷺ "سئل عن أحب الناس إليه فقال : ((عائشة. قيل : من الرجال؟ قال : أبوها)). ثم إن الله ﷻ اختصها بخصيصة لم تكن لأحد من سائر الزوجات : وهي أن النبي ﷺ قُبض بين سَحْرِها ونَحْرِها كما كانت تقول > لأنه ﷺ لقي ربه وهو في حجرها وكان آخر عهده أن بل ريقُها ريقَه الشريف > .

أم حبيبة بنت أبي سفيان > :

أما الزوجة الثالثة ؛ فهي أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان ، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي ، وفارقته بعدما تنصر وارتدَّ فعقد عليها النبي ﷺ وهي بأرض الحبشة ، وأنكحها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ وأصدقها عنه أربعمائة دينار ذهبًا ، ودخل بها ﷺ في المدينة بعد أن عادت من هجرتها.

وهي > التي عرضت على النبي ﷺ الزواج بأختها عزة بنت أبي سفيان ؛ ((فعجب النبي ﷺ من ذلك وقال : أو تحبين ذلك؟ قالت : نعم)) ، ثم إنها عللت ذلك ((فقالت : لست لك بمخْلِية...)) أي : بتاركة ولا زاهدة ، ((وأحب من شاركني في الخير أختي)) فرد عليها ﷺ : ((إن ذلك لا يحل لي)) وإنما عقد النبي على أم حبيبة تكريمًا لها وتقديرًا لتمسكها بالإسلام وتعويضًا عما لحقها من الأذى بمفارقة زوجها بعد فراقه دين الإسلام.

بهذا نكون قد أتينا على ما يتعلق بزواج النبي ﷺ بعد خديجة وكان جميع ذلك قبل هجرته الشريفة ، ﷺ.

حادثة الإسراء والمعراج وحكمتها

أ- معنى الإسراء والمعراج:

يراد بالإسراء: تلك الرحلة التي صحب فيها جبريل # نبيَّنا محمدًا ﷺ ليلًا من البيت الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى -وهو بيت المقدس بإيلياء- حيث ركبا معًا البراق. ويراد برحلة المعراج: صعوده ﷺ مع جبريل من بيت المقدس إلى السموات العلى في معراج أحضره معه جبريل # .

ب- ثبوت الإسراء والمعراج بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة:

قصة الإسراء والمعراج ثابتة بكتاب الله -تبارك وتعالى- وبسنة النبي ﷺ وبما شهد به أصحاب نبينا ﷺ:

الكتاب: قول الله ﷻ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، وقال -جل من قائل-: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ [النجم: ١٠- ١٢].

السنة: الأحاديث كثيرة، من ذلك: ما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((أتيت بالبراق -وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافرة عند منتهى طرفه- قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء -والمقصود بتلك الحلقة باب مسجد بيت المقدس- قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر

وإناء من لبن ؛ فاخترت اللبن ؛ فقال جبريل : اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا ؛ فإذا أنا بآدم # فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا ؛ فإذا أنا بابني الخالة : عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا - صلوات الله عليهم- فرحبوا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة ؛ فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا فإذا أنا بيوسف # إذا هو قد أعطي شطر الحسن ؛ فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ؛ فاستفتح جبريل # قيل : من هذا؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قال : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا ؛ فإذا أنا بإدريس ؛ فرحب ودعا لي بخير. قال الله ﷻ : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ؛ فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا ؛ فإذا أنا بهارون # فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ؛ فاستفتح جبريل # قيل : من هذا؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا ؛ فإذا أنا بموسى # فرحب ودعا لنا بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه. ففُتِح لنا ؛ فإذا أنا بإبراهيم # مسندًا ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذُهِب بي إلى سدرة المنتهى؛ وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال؛ فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت؛ فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها؛ فأوحى الله إليَّ ما أوحى؛ ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى # فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال موسى # : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك! فإني قد بلغت بني إسرائيل وخبرتهم. فرجعت إلى ربي، فقلت: يا ربِّ خفف على أمتي. فحَط عني خمسًا. فرجعت إلى موسى فقلت: حُط عني خمسًا. قال موسى # : إن أمتك لا يطيقون ذلك؛ فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. يقول ﷺ: فلم أزل أرجع بين ربي -تبارك وتعالى- وبين موسى حتى قال الله تعالى: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر؛ فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها؛ كتبت له حسنة؛ فإن عملها كتبت له عشرًا؛ ومن هم بسيئة فلما يعملها لم تكتب شيئًا؛ فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى # فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)).

أقوال الصحابة: رَوَى حديث الإسراء والمعراج ثمان وثلاثون صحابيًّا وصحابية، بعضهم ذكره مطولًا، وبعضهم ذكره مختصرًا، وبعضهم زاد جوانب لم تذكر، وبعضهم وقع في كلامه اختلاف.

ج- القدر المجمع عليه في الإسراء والمعراج:

القدر المجمَع عليه هو أنه ﷺ أسري به من مكة إلى بيت المقدس؛ فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين،

ثم أوتي بالمعراج: وهو كالسلم ذو درج يرقى فيه؛ فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها...

سلم على الأنبياء كل بحسب منزلته ودرجته؛ حتى مر بموسى الكليم وإبراهيم الخليل في السادسة والسابعة، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراشٍ من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، وهناك رأى جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور يدخله كله يوم سبعون ألفًا من الملائكة، يتعبدون فيه ثم لا يعودون منه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار.

وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه تعالى ولطفًا بعباده، وفي هذا عظيم العناية بالصلاة.

ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها صلاة الصبح من يومئذ بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا فيخبره بهم، وكان الأنبياء أنفسهم يسألون جبريل # عن المصاحب له وعن بعثته.

والقول بأن الصلاة بعد العودة من العروج هو اللائق؛ لأنه ﷺ كان أولًا مطلوبًا إلى الجناب القدسي؛ ليتشرف بالمقام العلوي، وتُعرَف منزلته عند ربه؛ وحتى يفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به؛ اجتمع هو وإخوانه من النبيين، فأظهر الله تعالى شرفه، وبين فضله بتقديمه في الإمامة وائتمامهم جميعًا -صلوات الله عليهم- به، وذلك بوحي جبريل # لهم في ذلك، ثم خرج نبينا ﷺ من بيت المقدس؛ فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس -

والله تعالى أعلى وأعلم- هذا على ما نقله ابن كثير في تفسيره من الجزء الثالث، صفحة ثنتين وعشرين.

د- الغاية من رحلة الإسراء والمعراج:

الهدف من هذه المعجزة يتمثل في أمور، من أهمها:

أن الله -تبارك وتعالى- أراد أن يتيح لرسوله ﷺ فرصة اطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتى يملأ قلبه ثقة بربه واستنادًا إليه؛ حتى يزداد قوة ومنعة وشدة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض؛ كما حدث لموسى # فقد شاء الله أن يريه عجائب قدرته؛ فلما ملأ قلبه ﷺ بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه: ١٩- ٢٣].

أن الله -تبارك وتعالى- أطلع نبيه على هذه الآيات الكبرى، بلسمًا لقلبه، وشفاءً لجراح نفسه، وتوثيقًا وتثبيتًا لفؤاده وجنانه، في وجه هذا التكذيب الذي شق على نفس النبي ﷺ ولم يكتفوا بذلك؛ بل رموه تارة بالكهانة، وأخرى بالسحر، وثالثة بالشعر، وما هو في ذلك من قليل ولا كثير.

إن هذا الحديث كان بمثابة التهيئة لهجرة النبي ﷺ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [طه: ١٨].

في الإسراء والمعراج علومٌ وأسرارٌ ودقائق ودروسٌ وعبرٌ -كما قال الأستاذ أبو الحسن الندوي، رحمه الله تعالى-: لم يكن الإسراء مجرد حادث فرديٍّ بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى وتجلى له ملكوت السموات والأرض

مشاهدة وعيانًا ؛ بل زيادة إلى ذلك اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معانٍ دقيقة كثيرة، وإشارات حكيمة بعيدة المدى.

فقد ضمت قصة الإسراء وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأن تسمية الإسراء، وسورة "النجم": أن محمدًا ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث النبيين، وإمام الأجيال بعده؛ فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه؛ فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته، وخلود إمامته، وإنسانية تعاليمه، وصلاحياتها لاختلاف المكان والزمان.

وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم من بين الشعوب والأمم.

هـ- تحديد زمن الإسراء، وعلاقته بأحداث المستقبل:

اختلف أهل العلم في زمن الإسراء الذي وقع فيه اختلافًا كثيرًا، والتحقيق الذي ذهب إليه حذاق الأئمة: أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنة، ولم تكن آية الإسراء في أعاجيبها، وخرقها لنواميس الطبيعة، وما وقع فيها للنبي ﷺ من مشاهدة أسرار الكون والملكوت، وما تجلى له فيها من مكنون الغيب المحجوب بأنوار الجلال الإلهي عن خاصة المقربين - مجرد رحلة عجيبة وآية معجزة؛ وإنما كانت مكرمة فريدة أتحف بها قلب النبي ﷺ وكانت حفاوة من الألطاف الإلهية شرف بها الحبيب، وكانت درسًا تربويًّا لبيان معالم مسيرة الرسالة في مستقبلها بعد أن بلغت من التمحيص مبلغًا أعدها وهيئها للسير قدمًا في طريق الجهاد، بل

الجهاد القاهر الغلَّاب في مقدمة التلطف الرباني بفتح أبواب الفرج والخلاص من مشاق الأذى، وفوادح البلاء الذي لقيه النبي ﷺ ولقيه أصحابه معه في فترة الكفاح الصبور من أقوامهم في مكة من أحداث فردية وجماعية كان من أشدها ذلك الحصار الظلوم، وكان من ذلك الخروج إلى الطائف، واللقيا الصعبة الشاقة التي لقي بها أهلُ الطائف نبينا ﷺ والعودة من تلك الرحلة بأثقال آلام ووجيع جراح.

وفي محافل العرب وفي مواسمهم وأسواقهم ومضارب خيامهم والنبي ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده... يدعوهم إلى أن يفردوه تعالى بالعبادة والتقديس، وأن تُخلَع الأنداد التي عبدت من دون الله -تبارك وتعالى- من أصنام وأوثان وزعامات؛ فلا يلقى منهم ﷺ إلا صنوف الأذى، وإلا شديد الإيذاء وضروب التكذيب.

وكان الختام بعام الحزن الذي فقد فيه ﷺ أنس فؤاده، ووزير صدقه، وناصره، ووليه، وحفيه، وحاميه... فقد النبي ﷺ معانٍ كثيرة بوفاة زوجته الأمينة الصديقة: خديجة > فقد سيدة نساء العالمين، وفي وفاة عمه الذي ذاد عن عرينه، وحفظه، وحفظ له قرابته، وناصره في دعوته وإن لم يدخل في دينه...

كان هذا العام عام حزن عميق في حياته ﷺ لأجل هذا كان الإسراء تسلية، وكان المعراج تكريمًا، وكانت تلك الرحلتان تفريجًا لِهَمِّ النبي ﷺ وتثبيتًا لقلبه وجنانه.

و- تجلية التعارض الواقع بين ظاهر بعض الروايات:

بالتأمل في أحاديث الإسراء والمعراج؛ وجدنا ثمة تعارض يسير يحتاج إلى فهم وتفهم: فقد روي أن النبي ﷺ لقي إبراهيم في السماء السابعة، ولقي موسى في السادسة، وفي بعض الروايات: أنه ﷺ رأى إبراهيم في السادسة ولقي موسى في

السابعة -عليهما صلوات الله وسلامه- وفي رواية ابن إسحاق: ((أنه ﷺ أُتِيَ بثلاث أوانٍ في أحدهما ماء فقال قائل: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته))، وفي إحدى روايات البخاري: ((أنه أُتي بثلاث أوانٍ)) ولم يذكر فيها الماء.

وفي قول الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ما يدل على أن الرؤية كانت قلبية، وأن عين النبي ﷺ كانت نائمة، وأما في الآية الثانية فقال: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢]؛ فجاءت الرؤية بصيغة المضارع، ولم يقل "على ما رأى" كالآية الأولى، فدل ذلك على أن الرؤيا الثانية ليست هي الرؤيا الأولى. وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] ما يدل على أنها رؤية قلبية، وفي قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، دلالة على أنها رؤية بالعين؛ ولذلك رأى فيها من آيات ربه الكبرى؛ أما الآيات التي ترى في النوم؛ فليست بهذا القدر من العظمة والفخامة.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦]، قال بعض المفسرين في رواية: "يغشاها فراش من ذهب" وفي رواية أخرى قالوا: "ينتشر منها الياقوت وثمرها مثل قلال هجر".

كما جاء في أحاديث الإسراء: أنه ﷺ رأى عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين، ونهرين باطنين، وأخبره جبريل # بأن الظاهرين: هما النيل، والفرات، وذكر حديث أنس: أن هذين النهرين في السماء الدنيا، وقال له الملك: هما النيل والفرات أصلهما وعنصرهما، ولا شك أن هنا ثمة تعارض ظاهري يحتاج إلى أن يوفق بينه وأن يجمع بين هذه الروايات والآراء.

نظر العلماء إلى هذا التعارض الظاهري؛ فذهبوا إلى أن الإسراء وقع مرتين: مرة في المنام، ومرة أخرى في اليقظة، وقد جزم بذلك بعض أهل العلم كالبغوي

والنووي، وغير هؤلاء من العلماء؛ حيث قالوا: إنه قد رأى النبي ﷺ ذلك مرة في المنام؛ فكانت بمثابة التوطئة له والتمهيد له، وكانت بمثابة التيسير عليه؛ كما وقع له في بدء نبوته ﷺ من العلامات والأمارات؛ كالرؤيا الصادقة، وغير ذلك من المبشرات ومن الإرهاصات التي دلت على قرب نبوته، وكذا رأى الإسراء والمعراج منامًا قبل أن يتحقق له في عين الحقيقة.

وتلك حكمة الله -تبارك وتعالى- في تثبيته، وتسديده، وتقوية قلبه على عظيم ما سيلقى من الحقائق الكبيرة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨].

وعلى هذا؛ فإن حدوث الإسراء مرتين: مرة على صورة، ومرة أخرى على صورة أخرى، لا تعارض فيه؛ وبذلك ينتفي هذا التعارض الذي يُتوهم في هذه الروايات.

ز- كيفية وقوع الإسراء والمعراج:

وقع اختلاف بين العلماء أولًا في كيفية وقوع الإسراء والمعراج؛ حيث ذهبوا في تحديد كيفيته إلى ثلاثة آراء:

الرأي الأول: ويذهب أصحابه إلى أن الإسراء كان رؤيا لرسول الله ﷺ رآها وهو نائم، وقد قالت بذلك أم المؤمنين عائشة > ومعاوية بن أبي سفيان > واستدلوا على ذلك بما ورد في رواية أنس أنه ﷺ قال: ((واستيقظت من منامي وأنا في المسجد الحرام))، وذلك يدل على وقوع الإسراء في أثناء نومه ﷺ وقد قالوا: إن رؤيا الأنبياء وحي، وأن قلوبهم لا تنام، وأن النبي ﷺ قال: ((الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)) كما في (الصحيح)، وبذلك يتحقق في المنام ما

يقصد في اليقظة ؛ ولأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] ؛ فقوله تعالى : ﴿ ٱلرُّءْيَا ﴾ دليل على أنها كانت منام ؛ لأنها لو كانت يقظة لقال : "رؤية" وليس بالألف الممدودة ، وكان معاوية < إذا تحدث عن هذه القصة ، أو عن مسرى رسول الله ﷺ قال : كانت رؤيا من الله صادقة.

الرأي الثاني : إن الإسراء كان بالجسد ، وإما المعراج ؛ فقد كان بالروح ، ويذهبون إلى ذلك مستدلين بقول الله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١] ؛ حيث جعلت الآية المسجد الأقصى غاية الإسراء تشريفًا لرسول الله ﷺ ولو كانت غاية الإسراء إلى مكان آخر غير المسجد الأقصى ؛ لذكره تعالى لأنه أبلغ في التشريف والمدح.

ثم إن كفار مكة توجهت اعتراضاتهم على انتقاله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس والعودة منها في ليلة واحدة ، ولم يرد على لسانهم اعتراض على العروج إلى السماء السابعة حتى سدرة المنتهى مع أنه أدعى لإنكار الكفار لو كان بالجسد ؛ فدل ذلك على أنه كان بالروح في معراجه وبالجسد في إسرائه.

الرأي الثالث : أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح معًا ؛ فذهب جمهور علماء السلف والخلف من الفقهاء والمفسرين والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالروح والجسد معًا ، واستدلوا على ذلك بقول الله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، وذكرت الآية أن الإسراء كان بعبده ، والعبد مكون من جسد وروح ؛ فهما حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه الحقيقة ، ومن

المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى تأويل إلا عند استحالة حقيقة الظاهر، ولا استحالة في قدرة الله أن يسري بعبده روحًا وجسدًا؛ فلزم أن يكون الإسراء بهما.

أضف إلى هذا أن الله تعالى قال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]؛ ففي هذا إثبات للرؤية أنها كانت بصرية، ولما قال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾؛ دل هذا على انتفاء أن تكون الرؤية رؤية قلبية؛ ولهذا قال: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨]، أي: من رؤية بصرية؛ ما يدل على أن هذا كان بالجسد والروح معًا.

ولا يمنع أن يقال: إن رؤيا الأنبياء وحي، وأنها تثبت الحقائق، وأنها تأتي بالصدق والحق؛ لكن لا مانع أن يكون النبي ﷺ وقعت له رؤيا منامية كما وقعت له رحلة بالجسد والروح معًا، شهد فيها تلك الآيات، وعاين فيها تلك الحقائق العظيمة.

رد الجمهور لأدلة الرأي الثاني:

وقد رد الجمهور أدلة الرأي الثاني الذي قال بأن الإسراء كان بالجسد وإن المعراج كان بالروح، فقالوا: إن آية الإسراء ذكرت الغاية بالمسجد الأقصى مراعاة لحال المستمعين؛ حتى يؤمنوا بالإسراء لأنه الأقرب إلى عقولهم والأيسر لهم في التصور عن المعراج؛ لأنهم إذا صدقوا بالإسراء وسلموا بصدق محمدٍ ﷺ أخبرهم بعد ذلك بما هو أعظم منه وهو المعراج؛ ولذا نزلت آية المعراج في سورة "النجم" بعد آية الإسراء، وبهذا يدل السياق وتدل الأدلة على رجحان قول ومذهب الجمهور.

ويجب أن نشير مرة أخرى إلى أن ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: نحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء، فيه صورة ما وقع بعد ذلك؛ فإنه ﷺ ((كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح))، وقد تقدم من ذلك من حديث بدء الوحي: أنه رأى في منامه مثل ما وقع له يقظة بعد ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبيت والإيناس.

وهكذا كان الإسراء وكان المعراج رحلة علوية سامية، خففت عن نبينا ﷺ ما كان يعانيه من انصراف الناس عن الإيمان، واستهزائهم به وبقدره ومقامه الشريف ﷺ.

ح- تبيين كيفية الصلاة وأوقاتها:

ولما أصبح نبينا ﷺ من صبيحة ليلة الإسراء؛ جاء جبريل عند الزوال؛ فبين له كيفية الصلاة وأوقاتها، وأمر رسولَ الله ﷺ بالصلاة، وأمر رسولُ الله ﷺ أصحابه فاجتمعوا، وصلى به جبريل في ذلك اليوم إلى الغد، والمسلمون يأتمون بالنبي وهو يقتدي بجبريل، كما جاء في الحديث عن ابن عباس وجابر قال: ((أمَّني جبريل عند البيت مرتين)) فبين له الوقتين؛ فهما الأول والآخر وما بينهما الوقت الموسع، ولم يذكر توسعة في وقت المغرب، وقد ثبت ذلك في حديث أبي موسى وبريدة وعبد الله بن عمرو وكلها في (صحيح مسلم).

وفي (صحيح البخاري) عن عائشة قالت: ((فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر))؛ فلعلها > أرادات أن الصلاة كانت قبل الإسراء ركعتين ركعتين، ثم لما فرضت الخمس؛ فرضت حضرًا على ما هي عليه، ورخص في السفر أن يصلى ركعتين كما كان الأمر عليه قديمًا، وعلى هذا لا يبقى إشكال، بحمد الله تعالى.

ط- دروس وعبر من حادثة الإسراء والمعراج:

١- منحة بعد محنة:

لا شك أنه بعد كل محنة منحة، وقد تعرض نبينا ﷺ لمحنٍ عظيمة؛ فهذه قريش تسد الطريق في وجه الدعوة إلى الله في مكة تارة، وفي ثقيف تارة، وفي قبائل العرب تارة أخرى، وتحكم الحصار ضد النبي ﷺ ودعوته؛ بل وتعذب رجال هذه الدعوة، وتنكل بهم. وأصبح النبي ﷺ في خطر عظيم بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان من أكبر حُماته، ورسول الله ﷺ لم يكن ليثنيه هذا الكيد عن المضي في طريقه؛ فهو صابر لأمر ربه لا تأخذه في الله لومه لائم، ولا حرب محارب، ولا كيد مستهزئ؛ فإن النبي ﷺ مثبت من ربه -تبارك وتعالى- لكن قد آن الأوان بعد اشتداد المحنة، قد آن الأوان بعد اشتداد الظلمة أن يأتي الفجر الصادق، وأن يأتي فجر المنحة العظيمة؛ فجاءت حادثة الإسراء والمعراج على قدر من رب الأرض والسموات؛ فيعرج بنبينا ﷺ من دون الخلائق جميعًا، يعرج به إلى السموات العلى؛ إكرامًا له على صبره وجهاده.

٢- الاجتماع مع الأنبياء والرسل السابقين:

كما أنه كان ﷺ في هذه الرحلة يطّلع على عوالم من الغيب دون الخلق كافة، ويجتمع مع إخوانه الرسل والنبيين في صعيدٍ واحد؛ فيكون الإمام والقدوة لهم جميعًا، وهو خاتمهم وآخرهم، ﷺ.

٣- تخليص الصف من الضعفاء والمتمردين:

جعل الله -تبارك وتعالى- رحلة الإسراء والمعراج اختبارًا وتمحيصًا؛ ليخلص الصف من الضعاف المترددين؛ ليخلص الصف من المنافقين والذين في قلوبهم

مرض، ويثبت المؤمنون الأقوياء والخُلَّص الذين صدقوا برسول الله ﷺ جملةً وعلى الغيب، الذين لمسوا عيانًا صدق نبيهم بعد أن لمسوه تصديقًا، وشهدوا مدى كرامته على ربه؛ فكان من المناسب والنبي ﷺ يقدم على مرحلة جديدة: ألا وهي مرحلة الهجرة، ألا وهي مرحلة الانطلاق لبناء الدولة: أن تكون اللبنات الأولى في هذا البناء: لبنات قوية سمينه متراصة متماسكة؛ حتى يرتفع هذا البناء ويشيد في صروح قوية شديدة.

٤. تبليغ الحق، وإقامة الحجة على المشركين:

أن الداعية الأول لم يكن ليجبن عن أن يقف موقف الحق، ولا عن أن يجهر بكلمة الحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضده، وإن جندوا لحربه كل ما في وسعهم، كانت من حكمته ﷺ في إقامة الحجة على المشركين بأن حدثهم بإسرائه بأمر الله -تبارك وتعالى- بإسرائه إلى بيت المقدس، وأظهر الله علامات تلزم الكفار بالتصديق، ومن هذه العلامات: أنه ﷺ مع علمهم أنه لم يرد بيت المقدس يومًا، مع علمهم أنه ﷺ لم يرد أرض فلسطين، وصف لهم ﷺ المسجد الأقصى بعد أن كشفه الله له ورفعه له؛ حتى وصفه للمشركين. وقد أقروا بصدق الوصف وبمطابقته للواقع الذي يعرفونه.

ثم إنه ﷺ أخبرهم عن العير التي بالروحاء، وبالبعير الذي أضلوه، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح، وإخباره أيضًا عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل، وأنه ﷺ وصف جمالهم وصفًا دقيقًا لا يكاد يخطئه أحد ممن رأى تلك الجمال؛ فكان ذلك من الآيات الظاهرة والباهرة على صدقه ﷺ من جهة، وعلى شجاعته العالية من جهة أخرى.

وكان إخباره ﷺ عن العير الثالثة التي بالأبواء، ووصفه للجمل الذي يقدمها، وإخباره بأنها تتطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم، وقد تأكد المشركون من ذلك؛ فوجدوا أن ما أخبرهم به النبي ﷺ كان صحيحًا؛ فهذه أدلة ظاهرة مفحمة لهم لا يستطيعون لها ردًّا، ولا يملكون معها اتهامه ﷺ بشيء من الكذب.

٥. فضل أبي بكر < وتلقيبه بـ"الصِّدِّيق":

وقد أظهرت هذه القصة فضل الصديق < فقد ظهر إيمانه القوي في هذا الحدث الجلل؛ فعندما أخبره الكفار قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك؛ فقد صدق. ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة؛ ولذا استحق الصديق < هذا اللقب العظيم "لقب الصديق"، وهذا منتهى الفقه واليقين في دين الله، تبارك وتعالى.

٦. الدين الإسلامي دين الفطرة:

وفي شُربه ﷺ اللبن حين خير بينه وبين الخمر بشارة من جبريل # لنبينا بأنه هُدِي للفطرة، وتأكيد لأن هذا الدين دين الفطرة البشرية التي ينسجم معها ويلتئم معها؛ فالذي خلق الفطرة البشرية، هو الذي أنزل لها هذا الدين العظيم الذي يلبي نوازعها واحتياجاتها، ويحقق طموحاتها، ويكبح جماحها قال -جل من قائل عليمًا-: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

٧. شريعة الإسلام لها القيادة والسيادة على الشرائع السابقة:

وفي صلاته ﷺ بالأنبياء دليل... دليل ظاهر على أنهم سلموا له بالقيادة والريادة، وأن شريعة الإسلام نسخت ما سبقها من الشرائع، وأنه لا يسع أتباع هؤلاء

الأنبياء إلا ما وسع أنبياءهم: أن يسلموا بالقيادة لهذا الدين، وأن يسيروا خلف هذا الرسول العظيم، وأن يأخذوا بهذه الرسالة التي جاء بها بيضاء نقية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

إن الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وأن يدعوا إليها، عليهم ضرورة الانخلاع من الأديان المحرفة والإيمان بهذا الرسول العظيم ﷺ وعليهم أن يفهموا -كما على الأغرار أن يفهموا- أن تلك الدعوات المشبوهة لا تخدم وضعًا صحيحًا ولا نظامًا مستقيمًا؛ وإنما هي من أوضار هذه الجاهلية ومن أنظمة هذه الجاهلية.

وأي تقريب يمكن أن يقع بين عقيدة التوحيد وعقيدة التثليث؟ أي تقريب يمكن أن يقع بين من يعتقد أن لا إله إلا الله وبين من يعتقد أن المسيح ابن الله أو أن عزيرًا ابن الله أو أن الملائكة بنات الله؟!

إن الله واحد لا شريك له، ولا والد ولا ولد له، ولا زوجة ولا صاحبة له، تعالى الله عن الشريك وعن الولد وعن النظير وعن النديد، سبحانه وجل في علاه.

٨- أهمية المسجد الأقصى، وامتلاك المسلمين له ومسئوليتهم تجاهه:

الربط ين المسجد الأقصى والمسجد الحرام له من الحكم ما له، وله من الدلالات والفوائد ما له؛ فالمسجد الأقصى له أهميته خاصة بين المسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم الكريم ﷺ.

والربط يشعر المسلمين بمسئوليتهم العظمى نحو المسجد الأقصى يشعرهم بمسئولية تحريره من أوضار الشرك وعقيدة التثليث؛ كما يوجب عليهم تحرير المسجد من أوضار الشرك وعبادة غير الله.

الربط يشعر بأن التهديد للمسجد الأقصى هو تهديد للمسجد الحرام وأهله، وأن النيل من المسجد الأقصى توطئة للنيل من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصى بوابة

الطريق للمسجد الحرام، وزواله من أيدي المسلمين ووقوعه في أيدي اليهود يعني: أن المسجد الحرام والحجاز قد تهدد الأمن فيهما، واتجهت أنظار الأعداء إليهما.

والمتأمل في سورة الإسراء يرى أن الله -تبارك وتعالى- جاء في هذه السورة بذكر الإسراء، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وبين جرائمهم، ثم نبه بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم كما أشار إلى أن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الإنسانية؛ لما ارتكبوه من الجرائم التي لن يبقى معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأنه سيصير إلى النبي ﷺ وأن الله تعالى سيجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما.

وسورة الإسراء تعرضت لذلك الاستبداد الإسرائيلي، وكيف تهاوى بين مخالب القوى الدولية الكبرى في ذلك الزمان، أي: الفرس والروم؛ ولذلك من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله ﷺ وأمته: رؤية بعض آيات الله؛ فمن أوضح آيات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى: هي آياته التاريخية التي كان يعكسها الصراع الروماني الفارسي الإسرائيلي قبل الإسراء؛ قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: الآيات: ٢- ٧].

وأخيرًا؛ فإن هذا فيه بيان لأهمية المسجد الأقصى الذي أدرك الصحابة مسئوليتهم نحوه، وهو يقع أسيرًا تحت حكم الرومان؛ فحرروه في عهد عمر رضي الله عنه وظل ينعم بالأمن والأمان حتى عاث الصليبيون فيه فسادًا بعد خمسة قرون من هجرة

المصطفى، ومكثوا ما يعادل قرنًا يعيثون فسادًا؛ فحرره المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهودي لما يربو الآن عن خمسين سنة؛ فما الطريق إلى تخليصه؟ إن الطريق إلى تخليصه هو الجهاد في سبيل الله على المنهج الذي ارتضاه الله، وسار عليه أصحاب رسول الله ﷺ.

٩. أهمية الصلاة وعظيم منزلتها:

في حادثة الإسراء والمعراج بيان لأهمية الصلاة وعظيم منزلتها.

١٠. مخاطر الأمراض الاجتماعية وبيان عقوبتها:

تحدث النبي ﷺ عن مخاطر الأمراض الاجتماعية وبين عقوبتها -كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج- كما بين عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين، وعقوبة أكلة أموال اليتامى، وأكلة الربا، والزناة، ومانعي الزكاة، وخطباء الفتنة، والمتهاونين في أداء الأمانة، كل ذلك يذكره النبي، ﷺ.

١١. مكانة المجاهدين في سبيل الله:

كما يبين ثواب المجاهدين؛ فإنهم كما أخبر النبي ﷺ أنه ((مر على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم؛ كلما حصدوا عاد كما كان))، فأخبر جبريل ((فقال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيءٍ؛ فهو يخلف)).

مرحلة الدعوة الجهرية خارج مكة، وبيعتا العقبة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الدعوة الجهرية خارج مكة، وفي مواسم الحج	٥٤٩
العنصر الثاني :	بيعة العقبة الأولى وروافدها	٥٦٧
العنصر الثالث :	بيعة العقبة الثانية	٥٧٤

الدعوة الجهرية خارج مكة، وفي مواسم الحج

ظلام ينشق عنه نور الفجر:

في شوال سنة عشرٍ من النبوة خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحوًا من ستين ميلًا سارها نبينا ﷺ ماشيًا على قدميه، معه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام؛ فلم تجب إلى الإسلام واحدةً منها، فلما انتهى إلى الطائف؛ عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف -وهم عبد ياليل، ومسعود، وحبيب، أبناء عمر بن عمير الثقفي- فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: إنه يمرط ثياب الكعبة -أي: يمزقها- إن كان الله تعالى قد أرسل النبي ﷺ. وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا؛ إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام عنهم نبينا ﷺ قائلًا: ((إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني)).

وأقام نبينا ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج؛ تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به؛ حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين -أي: صفين- وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلماتٍ من السفه، ورجموا عراقيبه حتى اختضب نعلاه بالدماء ﷺ.

وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك؛ حتى ألجئوه إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميالٍ من

الطائف ؛ فلما التجأ إليه رجعوا عنه ، وأتى النبيُّ ﷺ إلى ظل شجرةٍ ليستريح ، وأخذ يدعو ربه ويستغيث به ، ويسأله ، ويستمطره رحمته تبارك وتعالى.

وبينا هو كذلك رآه عتبة وشيبة ؛ فرقَّا له ، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا يقال له عداس ، فقالا له : خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كل ؛ فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : ((بسم الله)) ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال النبي ﷺ : ((ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟)) قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال ﷺ : ((من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟!)) ، فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى؟. فقال ﷺ : ((ذاك أخي كان نبيًّا وأنا نبي)) ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه...

قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك يا عداس ، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي. قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه.

بهذا رأينا إسلام عداس في وسط المحنة التي لقيَ النبي ﷺ من بلائها ما لقي...

وإذا تأملنا ؛ فإننا وجدنا إسلام عداس كان ببركة تسميته ﷺ قبل الأكل ، وفي ذلك تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة ، وهذا من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التمييز يلفت أنظار الكفار ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك ، وهذا يقودهم إلى تفهم هذا الدين ويجذبهم إليه.

وكان يقين عداس بالنبي ﷺ قويًّا، يدل على ذلك موقفه من سيده عتبة وسيده الآخر شيبة، لما أراد الخروج إلى بدرٍ، وأمراه بالخروج معهما حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟! فوالله لا تقوم له الجبال! فقالا: ويحك يا عداس، قد سحرك بلسانه.

في قول عداس: "والله ما على الأرض خير من هذا" مواساة عظيمة لنبينا ﷺ فلئن آذاه قومه وآذاه أهل الطائف؛ فقد آمن به وافد العراق... آمن به رجل من نينوى؛ فأكب على يديه ورجليه يقبلهما، ويشهد للنبي ﷺ بالرسالة، وهذا قدر رباني ساقه الله تعالى من نينوى؛ ليؤمن بالله تعالى ورسوله، وليؤنس قلب المصطفى ﷺ.

وقد روي في ذلك أن النبي ﷺ لما أصابه ما أصابه من اللأواء والبأساء، وجنح إلى ذلك المكان الذي استظل بظله؛ قال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني؟ أم إلى عدوٍّ ملكته أمري؟! إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي؛ ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك". هذه كلمات رويت على لسان نبينا ﷺ في ذلك الموقف، أعقب ذلك إسلام عداس > .

والنصر الثاني: هو إسلام الجن؛ فإن النبي ﷺ حين انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة، حين يئس من أهل ثقيف، وحين أتى نخلةَ؛ قام من جوف الليل يصلي ويقرأ في كتاب الله -تبارك وتعالى- فمر به عند هذا الوادي -وادي نخلة- نفر من

جن نصيبين، وقد قيل: إنهم سبعة من جن أهل نصيبين، يستمعون تلاوة النبي ﷺ فلما فرغ من صلاته؛ ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا، فقص الله تعالى علينا خبرهم، وأعلم النبي ﷺ بأمرهم؛ كما ذكر الله ذلك في موضعين من كتابه في سورة الأحقاف، وفي سورة الجن، وفي سورة الأحقاف يقول الله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٠].

هبط هؤلاء الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ بباطن نخلة؛ فلما سمعوه قالوا: أنصتوا... أنصتوا لما لم ينصت إليه المشركون، واقبلوا ما رده أهل الأوثان... نعم، لما أبى أهل الطائف الإيمان؛ شرح الله تعالى قلوب الجان؛ فأقبلوا على هذا القرآن، يعظمونه ويعبدون الله -تبارك وتعالى- بتلاوته، ويتعبدون الله ﷻ ببلاغه، هذه الدعوة قالها الجن حين قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وأصبح اسم نبينا ﷺ تهتف به قلوب الجن، وتهفو إليه قلوب المؤمنين من الإنس والجن معًا، وأصبح من الجن حواريون يحملون راية التوحيد، ويوطنون أنفسهم إلى الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- وأنزل الله تعالى في حقهم ما أنزل في سورة الجن؛ كما قال -جل من قائل-: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٢].

سياق هذه الآيات وسياق الآيات التي وردت في حادثة الجن يبين أن النبي ﷺ لم يعرف أولًا بحضور ذلك النفر؛ وإنما عرف ذلك بعد أن أطلعه الله تعالى عليه بهذه الآيات.

وهذا -بلا شك- نصر ثانٍ أمد الله تعالى به نبيه من كنوز غيبه المكنون، بجنوده التي لا يعلمها إلا هو.

وأمام هذه النصرة، وأمام تلك البشارات العظيمة، انقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت تطبق على قلب النبي ﷺ حين خرج من الطائف محزونًا؛ حتى أراد العودة إلى مكة.

ولما خرج النبي ﷺ إلى الطائف؛ عزمت قريش على منعه من العودة إلى مكة حتى لا يجد مكانًا يؤويه أو أناسًا يحمونه؛ ومع ذلك عزم النبي ﷺ على أن يعود إلى مكة تارةً أخرى، وحينئذٍ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ -يعني: قريشًا- قال: ((يا زيد: إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه)).

سار النبي ﷺ صوب مكة حتى وصل حراء، فمكث بها وأخذ يبحث عن شخصٍ يجيره وينصره، فأرسل إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم... ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإني قد أجرت محمدًا... ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل. فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عديٍّ على راحلته، فنادى: يا معشر قريش؛ إني قد أجرت محمدًا، فلا يهجُه أحد منكم...

وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته، وقيل: إن أبا جهلٍ سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع؟ -يعني: مسلم- قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت...

حفظ النبي ﷺ هذا الصنيع لمطعم بن عدي، فقال في أسارى بدر: ((لو كان المطعم بن عديّ حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)) -أي: إكرامًا له على حسن صنيعه مع النبي ﷺ حين أجاره من مشركي مكة.

أضواء وسط ظلام القبائل:

في ذي القعدة سنة عشرٍ من النبوة عاد نبينا ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ولاقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالًا، وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق؛ ليقضوا فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم، وليذكروا الله ﷻ فانتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة، فأتاهم قبيلةً قبيلةً يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة.

يقول الزهري: وكان مما يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم، وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو النضر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة؛ فلم يستجب منهم أحد...

هذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنةٍ واحدة، ولا في موسمٍ واحد، ولا يمكن تسمية سنةٍ معينة لعرض الإسلام على قبيلة بعينها، هناك قبائل عرض النبي ﷺ الإسلام عليهم في موسم السنة العاشرة، وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض، وذكر ردودهم على النبي ﷺ وفيما يلي ملخص لهذه القبائل وما ردوا به على رسول الله ﷺ:

فبنو كلبٍ أتاهم النبي ﷺ فجاء إلى بطنٍ منهم يقال لهم "بنو عبد الله" ؛ فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم : ((يا بني عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أبيكم)) ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

ثم أتى بني حنيفة... أتاهم في منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ؛ فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًّا منهم.

وأتى إلى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ؛ أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال : ((الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)) ، فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله ؛ كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه.

ولما رجعت بنو عامرٍ تحدثوا إلى شيخٍ لهم لم يوافِ الموسم لكبر سنه ، فقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ؛ فوضع الشيخ يديه على رأسه ، ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلافٍ ، هل لذناباها من مطلب؟! والذي نفس فلان بيده ، ما تقوَّلها إسماعيليٌّ قط ، وإنها لحق ؛ فأين رأيكم كان عنكم؟! -وكان في هذا ينكر عليهم سوء ردهم على النبي ، ﷺ.

وكما عرض النبي ﷺ الإسلام على القبائل والوفود ؛ عرضه أيضًا على الأكابر من الأفراد والأشخاص وعلى العامة منهم ؛ فحصل من بعضهم قبول للإسلام ، ومنهم من رد ردًّا طيبًا صالحًا ، ومنهم من آمن به بعد هذا الموسم بقليل...

وهذا ملخص لما جرى ودار من بعضهم :

سويد بن الصامت كان رجلًا لبيبًا من سكان يثرب يسميه قومه بالكامل ؛ وذلك لعلو نسبه وشرفه وحسبه ، ولما كان عليه من قول الشعر ، ومن تعظيم البيت... جاء يومًا إلى مكة حاجًّا أو معتمرًا ؛ فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام حين سمع به ، فقال له سويد : فلعل الذي معك هو الذي معي. قال له رسول الله : ((وما الذي معك؟)) قال : حكمة لقمان. قال : ((اعرضها عليَّ)). فعرضها ، فقال له رسول الله ﷺ : ((إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى عليَّ ، هو هدى ونور)) ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ؛ فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن وأسلم ، ثم انصرف عن النبي ﷺ فلما قدم المدينة ؛ لم يلبث أن قتل يوم بعاث ، وكان إسلامه في أوائل سنة إحدى عشرة من النبوة.

ومنهم أيضًا إياس بن معاذ ، كان غلامًا حدثًا من سكان يثرب أيضًا ، وهو من بني عبد الأشهل ، وهم من الأوس ، كما كان سويد بن الصامت < أيضًا من بني عوف بن مالك من الأوس أيضًا ، جاء إياس بن معاذ ، وهو صغير مع قومه يلتمسون الحلف مع قريش ؛ لينتصروا بهم على الخزرج ؛ فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم وجلس معهم ، قال لهم : ((هل لكم في خيرٍ مما جئتم به -أو مما جئتم له- ؟!)) ، فقالوا : وما ذاك؟ قال : ((أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا ، وأنزل عليَّ الكتاب)) ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أنس بن رافع -وهو رجل كان في الوفد- حفنة من تراب البطحاء ، فرمى بها وجه إياس ، وقال : "دعنا عنك فلعمري لقد جئنا لغير هذا" ، وصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلفٍ مع قريش ، وبعد رجوعهم إلى يثرب ؛ لم يلبث أن هلك إياس أيضًا

كان يهلل، ويكبر، ويحمد الله، ويسبح عند موته؛ وكانوا لا يشكون أنه مات على الإسلام.

يقول محمود بن لبيب: "فأخبرني من حضره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى، ويكبره، ويحمده، ويسبحه حتى مات؛ فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا؛ لذا استشعر قلبه الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع".

وممن أجاب أيضًا في تلك الفترة: أبو ذر الغفاري > ذلك أنه لما بلغ يثرب خبر سويد وإياس } وأنهما سمعا محمدًا ﷺ وآمنا بدعوته؛ بدأ أهلها في التفكير في أمر النبي ﷺ وبخاصةٍ أهل الرأي فيهم، ومنهم أبو ذرٍ الغفاري...

أخذ أبو ذر يفكر في الإسلام وهو في يثرب، فقال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي؛ فأعلمني علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، ويزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني. فانطلق أخوه حتى قدم مكة، ولقي نبينا ﷺ وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذرٍ فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وقال كلامًا ما هو بالشعر. فقال أبو ذر: ما شفيتني مما أردت...

فتزود أبو ذر، وحمل شنةً له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد؛ فالتمس النبي ﷺ وكان لا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل، فرآه عليٌّ > فعلم أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، فلما أصبح أبو ذر؛ احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ينظر إلى النبي ﷺ والنبي يراه حتى أمسى؛ فعاد إلى مضجعه...

مر به عليٌّ في مضجعه، فقال له: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟! فأقامه عنده فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء؛ حتى إذا كان اليوم

الثالث؛ عاد على مثل ذلك فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟! قال أبو ذر: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدنني فعلت. ففعل، فأخبره. قال عليٌّ: فإنه حق وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني؛ فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك؛ قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت؛ فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل فانطلق يقفوه -أي: يسير خلفه- حتى دخل عليٌّ > على النبي ﷺ ودخل أبو ذرٍ معه، فسمع من قوله، فأسلم مكانه. فقال له النبي ﷺ: ((ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري)).

قال أبو ذر: "والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس، فأكب عليه، ثم قال: "ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟! فأنقذه منهم، ثم عاد أبو ذر من الغد بمثلها، فضربوه وثاروا إليه وعليه؛ فأكب العباس عليه مرة أخرى يحفظه ويحميه.

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي كان شريفًا شاعرًا لبيبًا ترأس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة للعام الحادي عشر لنبوة النبي ﷺ فاستقبله أهله قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية، وأكرم وفادة، وقالوا له: يا طفيل؛ إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئًا...

يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه؛ حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا -أي: وضع في أذنيه قطنًا-

خوفًا، أو فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة؛ فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله؛ فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني رجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؛ فإن كان حسنًا قبلته؛ وإن كان قبيحًا تركته؟!.

فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه؛ فعرضت عليه قصة مقدمي وتخويف الناس إياي وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض عليَّ أمرك. فعرض علي الإسلام، وتلا علي القرآن، فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه؛ فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية. فدعا، وكانت آيته < : أنه لما دنا من قومه؛ جعل الله نورًا في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجهي؛ أخشى أن يقولوا هذه مُثلة؛ فتحول النور إلى سوطه، < .

فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام؛ لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاءً حسنًا، ثم قتل الطفيل بن عمرو الدوسي مقدم قبيلة دوس قتل < شهيدًا يوم اليمامة.

ومن هؤلاء أيضًا الذين أسلموا: ضماد الأزدي؛ وكان رجلًا من اليمن، وكان ضماد من أزد شنوءة، وكان يرقي من الجن... قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمدًا مجنون. فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي. فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذا الريح؛ فهل لك؟ -يعني: يعرض

عليه أن يرقيه مما مسه من الجن- فقال ﷺ: ((إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد)). فقال ضماد من فوره: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال ضماد: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء؛ فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر؛ هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه > .

إسلام الأنصار:

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له؛ خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار؛ فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينا هو عند العقبة؛ لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: ((من أنتم؟)) قالوا: نفر من الخزرج. قال: ((أَمِنْ موالي يهود))، قالوا: نعم. قال: ((أفلا تجلسون أكلمكم؟))، قالوا: بلى...

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شركٍ وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، وقيل: غزوهم ببلادهم؛ فإن كان المعنى عزوهم -أي: قهروهم وغلبوهم- فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم...

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود؛ فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فيجمعهم الله عليك؛ فلا رجل أعز منك... ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا.

وكان هؤلاء النفر الذين لقوا النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة من النبوة، كانوا جميعًا من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غن بن مالك بن النجار، قال أبو نعيم: وقد قيل: إنه أول من أسلم من الأنصار من الخزرج، ومن الأوس: أبو الهيثم بن التيهان { وقيل: إن أول من أسلم: رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء، والله تعالى أعلى وأعلم.

وكان معه أيضًا: عوف بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وهذا من بني زريق، وكان أيضًا معه قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غن بن سلمة، وكان وهو خزرجي سلمي أيضًا ثم من بني سوادٍ، وعقبة بن عامر بن ناي بن زيد بن حرام بن كعب السلمي أيضًا، ثم من بني حرام: جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن كعب بن سلمة أيضًا، ثم من بني عبيدٍ، { .

وهكذا روى الشعبي، والزهري، وغيرهما: أنهم كانوا لَيْلَتَئِذٍ ستة نفرٍ من الخزرج، وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم تلك الدعوة من حلفائهم من يهود: أن نبيًّا من الأنبياء يبعث في هذا الزمان سيخرج

فيتبعونه، وأنهم سيقاتلون معهم الخزرج والأوس، فيقتلونهم قتل عادٍ وإرم؛ فلما بلغهم خبر النبي ﷺ كانوا أسرع الناس إلى إجابته، ﷺ.

ولعل هذا كان من توفيق الله تعالى للأنصار، ومن سبق السعادة لهم في علم الله -تبارك وتعالى- أن مهد لهم للإيمان عن طريق ما أخبرهم به يهود؛ حتى اشرأبت نفوسهم لقبول الإسلام، والالتحاق بالنبي العدنان ﷺ.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا المدينة -أي: إلى قومهم- ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام؛ حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا ودخلها الإسلام. فهذا أول موكبٍ من مواكب الخير، لم يكتفِ بالإيمان، وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ولرسوله ﷺ فإنهم حين رجعوا؛ نشطوا في الدعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم، فلم تبقَ دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر نبينا، ﷺ.

وهكذا عندما يأذن الله -تعالى- تأتي ساعة الحسم الفاصلة، فقد كان لقاء هؤلاء مع النبي ﷺ على غير موعدٍ؛ لكنه لقاء قد هيأه الله -تبارك وتعالى- ليكون نبع خير متجددٍ موصول، ونقطة تحول حاسمٍ في التاريخ.

ولا شك أنه قد كان... وكانت هذه الساعة ساعة أن أسلم الأنصار... كانت ساعة الخلاص المحقق من عبادتهم الأحجار؛ بل إنها على التحقيق كانت ساعة الحسم في مصير العالم كله وبأسره.

وانتقلت الحياة بذلك من الظلمات إلى النور، وسبحان الله تحول هؤلاء الوثنيون من متعصبين حاقدين مشركين، إلى أنصارٍ للدعوة متفتحين قابلين، ناصرين للحق ومخلصين، ودعاةً إلى الله ﷻ متجردين، يذهبون إلى أقوامهم وبين جوانحهم نور الإيمان، وعلى وجوههم نور اليقين، وإنهم بإذن الله -تبارك وتعالى- وأمره، وبهدايته وتوفيقه لعلى نور.

هذه مشيئة الله -تبارك وتعالى- التي هيأت للدعوة مجالها الخصب، وهيأت لها ذلك الحمى الأمين.

وأما السنوات العجاف التي قضاها نبينا ﷺ داعيًا، ومناضلًا، ومكافحًا، قضاها النبي ﷺ تطوافًا على القبائل، والتماسًا للحليف، وسؤالًا عن النصير، قد ولت بإسلام هذه الباكورة المباركة من الأنصار... ولت تلك الأيام إلى غير رجعة...

سيكون بعد اليوم للإسلام قوة قوية، وهيبة تردع من يحاول أن يروم جنابه، وتكون له من بعد قواته التي تحميه، وجيشه الباسل الذي سيلتقي في لقاءات متعددة مع الباطل؛ ليصفي معه حساب الأيام التي خلت، وكما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وستتوالى على مكة -منذ اليوم- مواكب الخير، وطلائع النور التي هيأها الله للخير؛ لتتصل بالهداية، ولتسبح في النور؛ ولتغترف من بحر الخير، وترجع إلى يثرب بما وعت من خيرٍ وبما حملت من نور.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن ننبه إلى أن هذه المقابلة التي حدثت عند العقبة في منى، وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبي ﷺ وأسلموا على يديه لم تكن فيها بيعة؛ لأنها كانت من نفرٍ قليل لا يروا لأنفسهم حقًّا في أن يلتزموا بمعاهدة أو أن يلزموا أقوامهم بمعاهدةٍ دون الرجوع إلى قبائلهم وعشائرهم في المدينة؛ لكنهم كانوا خير جندٍ في تبليغ رسالة الإسلام، وهذا يكفيهم؛ لأنهم كانوا بذلك طليعة النور، وباكورة الخير والسرور لأهل المدينة بأسرها.

وكثير من المؤرخين وكتّاب السيرة لا يعتبرون إيمان هؤلاء النفر بيعة، ويعتبرونه مقدمة للبيعتين بعد ذلك، إلا أن بعض المؤرخين كالشيخ محمد الشامي عدها بيعةً، وتحدث -لأجل هذا- عن ثلاث بيعاتٍ؛ لأنه عد اللقاء الأول اتفاقًا

متكاملًا بين النبي ﷺ وبين هؤلاء الستة نفر، واعتبر الذي تم عند العقبة اتفاقًا وتعاقدًا:

يقول عبد الله بن أبي بكر: لا أدري ما العقبة الأولى! يقول ابن إسحاق: قد كانت عقبة وعقبة. إشارة إلى اللقاء الأول والثاني؛ لأنهما كانا في مكانٍ واحدٍ، يجاور العقبة التي نسبة البِيَع أو البيعات إليها؛ لأن المبايعة كانت تتم بشعب يجاور العقبة يقع على يسار القادم من مكة إلى منى.

وقد أقيم في هذا المكان مسجد يعرف بمسجد البيعة، وموقعه في أول شعبٍ يعرف بشعب العقبة أو شعب الأنصار.

ومع صحة وجاهة ما يذهب إليه الشيخ؛ إلا أن أكثر المفسرين والمؤرخين وكتّاب السير يذهبون إلى أن هذا الاتفاق لم يكن إلا تمهيدًا للبيعتين بعد ذلك، وعلى هذا سنسير تبعًا لجمهور مؤلفي السير والتاريخ.

لكن من المناسب أن نعلق على بعض الفوائد والدروس والعبر التي استفدناها من دعوة النبي ﷺ لأهل الطائف، ومن إسلام من أسلم من أولئك النفر الذين كان النبي ﷺ يخصهم بالدعوة إلى الله على شكل ما يعرف باسم الدعوة الفردية، ونتأمل في عواقب ذلك كله، وما أعقبه من بدء إسلام الأنصار الذي كان -كما قلنا- كالتوطئة لدخول المدينة بأسرها في دين الله تعالى...

إننا نلحظ أن النبي ﷺ طلب النصرة من خارج مكة بعد أن بدأ الأذى يشتد عليه بحيث لا يستطيع النبي ﷺ أن يقوم بواجبه في حدود بلده مكة؛ حيث إن الأذى اشتد عليه بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه من قريش؛ ولأن من يحمل الدعوة لن يستطيع أن يتحرك التحرك الفعال والنشاط في حمل الدعوة وتوفير الاستجابة لها في هذا الجو من العنف والضغط والإرهاب والحصار.

وكان عرضه ﷺ لنفسه على القبائل يطلب منهم النصرة إنما هو بأمرٍ الله -تبارك وتعالى- ولم يكن هذا مجرد اجتهاد من قبل نفسه ﷺ اقتضت ذلك الظروف التي وصلت إليها الدعوة؛ وإنما فعل ذلك بوحي الله تعالى وتوجيهه.

ثم إن النبي ﷺ حصر طلب النصرة بزعماء القبائل، وذوي الشرف والمكانة ممن لهم أتباع يسمعون منهم ويطيعون لهم؛ لأنهم هم القادرون على توفير الحماية للدعوة ولصاحبها، ﷺ.

ونلحظ أيضًا -بخصوص طلب النصرة-: أنه ﷺ كان يطلبها لأمرين اثنين:

كان يطلب النصرة من أجل حماية تبليغ الدعوة؛ حتى تسير بين الناس محمية الجانب بعيدة عن الإساءة إليها وإلى أتباعها.

وكان ﷺ يطلب النصرة من أجل أن يتسلم النبي ﷺ مقاليد الأمور؛ حتى تقوم هذه الدعوة على أساسٍ من هذا الدين العظيم المبارك، وهذا ترتيب طبعي للأمور. رفضه ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم ضماناتٍ للدعوة... رفضه ﷺ أن يعد بني فلان، أو بني فلان بأن يكون الأمر فيهم، أو لهم من بعده ﷺ أو أن يكون لهم شيء في مقابل نصرتهم للنبي ﷺ من حكمٍ أو سلطان على سبيل الثمن، أو على سبيل المكافأة لما يقدمونه من نصرة وتأييدٍ للدعوة... سبب ذلك أن الدعوة إنما هي دعوة إلى الله، وهي دعوة الله.

فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها، ويستعد لنصرتها: أن يكون مخلصًا لله، وأما أن يطلب الجاه، والنفوذ، أو الحكم، أو السلطان على سبيل ذلك، أو يكون ذلك هو الغاية التي يسعى إليها من نصرته دين الله أو من تضحيته في سبيل الله؛ فهذا -والعياذ بالله- لا شيء في ميزان الله -تبارك وتعالى- لماذا؟.

لأنه لم يرد أن تكون كلمة الله هي العليا، وإنما أراد عرضًا من عرض الدنيا؛ فغاية الإنسان التي يضعها، والتي يسير لها ومن أجلها هي التي تكيف نشاطه، وهي التي تجعل هذا النشاط محمودًا مثابًا عليه، أو تجعله مذمومًا معاقبًا عليه.

وهذا -في ذاته- ضمان للمحافظة على الدعوة من الانحراف، وضمان لأقصى ما يمكن من بذل الدعم له، وتقديم التضحيات في سبيلها؛ فيجب على كل من أراد أن يلتزم بالدعوة إلى الله ألا يشترط على الدعوة منصبًا، أو عرضًا من أعراض الدنيا؛ لأن هذه الدعوة لله، والأمر كله لله، يضعه فيمن يشاء، وينزعه ممن يشاء؛ فمن كان همه المنصب، أو كان همه المال، أو الجاه؛ فهذه علامة سوء، ودليل على ما في دخيلة نفسه من الدخل والدخن؛ لذا قال يحيى بن معاذ الرازي: "لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة".

ومن صفة النصرة التي كان النبي ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل: أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، ولا الفكاك؛ ذلك لأن احتضانهم للدعوة -والحالة هذه- يعرضها لخطر القضاء عليها من قبل تلك القوى التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي قد تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها، وتهديدًا لمصالحها.

والحماية المشروطة، أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، وأن دين الله ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه... كان هذا رد النبي ﷺ على المثنى بن حارثة حين عرض على النبي ﷺ حمايته من العرب دون الفرس؛ فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامى ولا يجارى.

بهذا نكون قد ألقينا شيئًا من الضوء على تلك المرحلة التي هيأت ومهدت لبيعة العقبة الأولى، ولبيعة العقبة الثانية، والتي كان من جراء ذلك: أن جاء في الموسم

التالي -موسم الحج سنة اثنتي عشرة من النبوة- اثنتي عشر رجلًا من الأنصار، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر: هو جابر بن عبد الله- وسبعة سواهم؟

جاء هؤلاء النفر من الأوس ومن الخزرج... كان اثنين منهم من الأوس والبقية من الخزرج... جاءوا ليتصلوا برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى ليبايعوه بيعة النساء - أي: وفق بيعتهن التي نزلت عند فتح مكة.

بيعة العقبة الأولى، وروافدها

ذكرنا -فيما مضى- أن أولئك النفر من أهل يثربَ والذين أسلموا في موسم الحج سنة إحدى عشرة من النبوة، وعدوا رسولَ الله ﷺ أن يبلغوا تلك الرسالة إلى أقوامهم، وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي -موسم الحج سنة اثنتا عشرة من النبوة- اثنا عشر رجلًا، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق.

وفي هذا رَوَى البخاري، عن عُبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: ((تعالَوْا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فَمَنْ وفى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعُوقب به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فَأَمْرُه إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عَفَا عنه)). قال: "فبايعته". وفي نسخة: "فبايعناه على ذلك".

والذين حضروا اللقاء الثاني وبايعوا هذه البيعة -كما قدمنا- اثنا عشر رجلًا؛ هم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ومعاذ بن الحارث، وذكوان بن

قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويس بن ساعدة، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر. وبايعهم رسول الله ﷺ هذه البيعة التي عرفت بـ"بيعة النساء"؛ لخلوها من النصرة والجهاد، وأيضًا لأنها جاءت موافقةً لِمَا نزل القرآن الكريم به بعد ذلك، وهو يشرِّع للنبي ﷺ ما يبايع النساء عليه، وكان ذلك في "صلح الحديبية".

روافد العقبة الأولى:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم، بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين، أولَ سفير له إلى أهل يثرب؛ ليعلّم المسلمين فيها شرائعَ الإسلام، وليفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذا شابًّا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، هو مصعب بن عمير > .

نزَلَ مصعب بن عمير على أسعد بن زُرارة، وأخذَا يبثان الإسلامَ في أهل المدينة بجِد وحماسٍ، وكان مصعب يعرف بـ"المقرئ".

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعبَ بنَ عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

وقد روَى البيهقي -أيضًا- عن ابن إسحاق، قال: فحدثني عمرو، فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، أن رسول الله ﷺ: "إنما بعث مصعبًا حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم". وهو الذي ذكره غير واحد من أهل السير.

وقال ابن إسحاق: وكان عبد الله بن أبي بكر يقول: "لا أدري ما العقبة الأولى؟".

ثم يقول ابن إسحاق: بلى لَعَمْري، قد كانت عقبةً وعقبةً، قال كلهم: فنزل مصعب على أسعد بن زرارة، فكان يسمَّى بالمدينة "المقرئ". وكان يصلي بهم > ذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعضٌ، ولذا كان مصعب > هو الذي يصلي بهم ولهم أجمعين.

وقد ورَدَ في (السنة) عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: "كنت قائد أبي حين ذهب بصرُه، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الآذان بها، صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة، قال: فمكث حينًا على ذلك، لا يسمع الآذان للجمعة إلا صلى عليه، واستغفر له، قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز، ألا أسأله. فقلت: يا أبت، مَا لَكَ إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني، كان أول من جمَّع بنا بالمدينة في هزم النبيت من حَرة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضمات.

والهزم: ما اطمئن من الأرض. وقوله: "هزم من حرة بني بياضة، وهزم النبيت": هذه مواضع على بريد من المدينة. يعني: على موضع من المدينة. ونقيع الخضمات، ونبيت: وبطن من الأنصار، وبياضة أيضًا: بطن من الأنصار.

يقول: قلت: وكم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون رجلًا". وهذا الحديث أخرجه أبو داود وابن ماجه.

ومن أروع ما يُروى في نجاح مصعب في الدعوة إلى الله: أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل، فدخل في حائط من حوائطهم، وجلس على بئر عندهم، واجتمع إليهما رجال من المسلمين، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدَا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذٍ على الشرك، فلما سمعَا بذلك قال سعد لأسيد: اذْهَبْ إلى هذين الذين قد أتيَا يسفها ضعفاءنا، فَازْجرهما،

وَانْهَهما على أن يأتيَا دارينَا، فإن أسعد بن زرارة بن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا. فأخذ أُسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: ليجلس، أكلمه.

وجاء أسيد، فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا، تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَتجلس، فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره. قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن، قال: فوالله، لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسنَ هذا وأجملَه! كيف تصنعون إن أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادةَ الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبه، وتشهد، وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلًا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد في قومه وهم جلوس في ناديهم، فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلَمَّا وقف أسيد على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالَا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة؛ ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروه، فقام سعد مغضبًا للذي ذُكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنَّين، عرَفَ أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القَرابة ما رمتَ هذا مني، تَغْشَانَا في دارينا بما نكره، وقد كان أسعد قال لمصعب: قد جاءك والله سيدٌ من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد.

فقال مصعب لسعد بن معاذ: أوتقعد، فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفتَ، ثم ركز حربته، فجلس، فعرضَا عليه الإسلام، وقرأا عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتهلله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالَا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، ففعل ذلك، ثم أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله، لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أني فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبًا، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمةً، إلا رجل واحد، وهو الأصيرم، تأخر إسلامُه إلى يوم أُحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتِلَ، ولم يسجد لله تعالى سجدةً، فقال النبي ﷺ: ((عمِلَ قليلًا، وأُجِرَ كثيرًا)).

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر، وكانوا يطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة، وقبل حلول موسم الحج التالي -أي: حج السنة الثالثة عشرة- عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى النبي ﷺ بشائرَ النصر والفوْز، ويقص عليه خبر إسلام قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما بها من القوة والمَنعة.

ما أن وصل مصعب إلى مكة قبيل الموسم الثالث عشر من البَعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، وذكر ما أتيح له من قدراتٍ

وإمكانـاتٍ، وبـيَّنَ للـنبي ﷺ كيـف تغلغـل الإسـلام في جميـع قطاعـات الأوس والخزرج، وأن القوم غَدَوْ جاهزين لبيعة جديدة قادرة على حماية رسول الله ﷺ ومنعته. وكان من جراء ذلك اللقاء الذي غيَّر مجرى التاريخ في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، فلما قدِموا مكة جرت بينهما وبين النبي ﷺ اتصالاتٌ سرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشِّعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من مِنًى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلمة الليل.

يقول ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وقد خرج مَنْ خرج مِن الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدِموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبةَ من أواسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم من كرامته والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله.

فحدثني معبد بن كعب بن مالك، أن أخاه عبد الله بن كعب -وكان من أعلم الأنصار- حدثه أن أباه كعب حدثه، وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور، سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة، قال البراء: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأيًا، والله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البنية -يعني: الكعبة- مني بظَهر، وأن أصلي إليها، قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، فقال: إني لمصلٍّ إليها. قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل، قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلَّى هو إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة.

قال: وقد كنا عِبنا عليه ما صنع، وأبَى إلا الإقامةَ على ذلك، فلما قدمنا مكةَ، قال لي: يا بن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعتُ في سفري هذا. فإنه قد وقع في نفسي منه شيء؛ لِمَا رأيت من خلافكم إياي فيه، قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلًا من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله، قال: هل تعرفانِه؟ فقلنا: لا، فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قال: قلنا: نعم، وقد كنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجرًا، قال: فإذا دخلتما المسجد، فهو الرجل الجالس مع العباس.

قال: فدخلنا المسجد، وإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا، ثم جلسنا إليه، فقال الرسول ﷺ للعباس: ((هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟)) قال: نعم، هذا البراء بن معرور، سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: ((الشاعر؟!)). قال: نعم، فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، قد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية مني بظهرٍ، فصليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فَمَا ترى يا رسول الله؟ قال: ((قد كنت على قبلة لو صبرتَ عليها)) قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ فصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فَلَمَّا فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسولَ الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيدٌ من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، وقلنا له: يا أبا

جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَطَبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم، وشهِدَ معنا العقبة، وكان نقيبًا.

وقد روى البخاري: أن عطاء قال: قال جابر: "أنا وأبي وخاليَّ من أصحاب العقبة". قال عبد الله بن محمد: قال بن عيينة: أحدهما البراء بن معرور.

بيعة العقبة الثانية

وقال الإمام أحمد - فيما رواه عن جابر من حديثه الطويل -: "مَكَثَ رسول الله ﷺ بمكة عشْر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ، ومَجنَّة، وفي المواسم بمنًى، يقول: ((من يأويني، من ينصرني، حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟))، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مُضر، كذا قال فيه، فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلامَ قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا اللهُ إليه من يثرب. فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منَّا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فَيُسْلِمُون بإسلامه، حتى لم يبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رَهْط من المسلمين يظهرون الإسلامَ. ثم ائتمروا جميعًا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبالٍ مكة، ويَخاف، ويُخاف؟

فرحل إليه منَّا سبعون رجلًا، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا. فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: ((تبايعوني على السمع والطاعةِ في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومةَ لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمتُ

عليكم مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة)). فقمنا إليه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو من أصغرهم -وفي رواية البيهقي: وهو أصغر السبعين، إلا أَنَا- فقال: رويدًا يا أهلَ يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخذوه، وأَجْرُكم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفةً، فبينوا ذلك، فهو أعذرُ لكم عند الله، قالوا: أَمِطْ عنا يا أسعد -والمقصود: أنهم يقولون له: أمط عنا يدك، أي: نحها وأبعدها عنا فو الله، لا ندع هذه البيعةَ أبدًا، ولا نُسلبها أبدًا، قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ علينا وشَرَطَ، ويعطينا على ذلك الجنةَ".

وفي رواية كعب بن مالك -لِحَديث البيعة- بعضُ الفوائد المهمة. لذا نتناول القصةَ كما رواها كعب بن مالك قال < :

"فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسولَ الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمرَ ابنِ أخيه، ويتوثق له، فلما جلسا، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج، قال: وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار "الخزرج": خزرجها وأوسها، إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبَى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه

وبلده، قالوا: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: ((أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم))، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزُرنا -يعني بذلك: النساء والأهل تمنعهن بالأزر، أو أراد الأنفس، وقد يكنى عن الأنفس بالأزر أيضًا- فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناءُ الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، قال: فاعترض القولَ والبراء يكلم رسولَ الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنَّا قاطعوها -يعني: اليهود- فهل عسيتَ إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: ((بل الدم الدم، الهدم الهدم، أَنَا منكم وأنتم مني، أحارب مَن حاربتم، وأسالم من سالمتم)).

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: ((أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا، يكونون على قومهم بما فيهم))، فأخرَجوا منهم اثني عشر نقيبًا؛ تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس".

قال ابن إسحاق: وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة -المتقدم- وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس، وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان، وعبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غن بن كعب بن سلمة، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن خزيمة بن ثعلبة، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة، فهؤلاء تسعة من

الخزرج. ومن الأوس ثلاثة، وهم: أسيد بن حضير بن سِماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وسعد بن خيثمة بن حارث بن مالك بن كعب بن امرئ القيس، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف، وهؤلاء الثلاثة من الأوس.

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان بدل رفاعةَ هذا، وهو كذلك في بعض الروايات، واختار ذلك السهيلي وابن الأثير، وغيرهما من أهل العلم بالسير والتواريخ.

وقال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: ((أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم)). وفي بعض الروايات: أن العباس بن عُبادة الأنصاري -أخو بني سالم بن عوف- قالوا: يا معشر الخزرج، أتدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتل أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكة المال وقتل الإشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: ((الجنة))، قالوا: ابسط يدَك، فبسط يده، فبايعوه. وإنما قال العباس بن عبادة ذلك؛ ليشد العقد في أعناقهم.

قال ابن إسحاق فيما رواه عن كعب بن مالك: "فكان أول مَن ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم تتابع القوم يبايعون رسول الله، ﷺ.

فلما قضيت البيعة، طلب النبي ﷺ منهم الانصرافَ إلى رحالهم، وقد سمعوا عندئذٍ الشيطان، يصرخ منذرًا قريشًا، عندها قال العباس بن عبادة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منًى غدًا بأسيافنا، فقال ﷺ: ((لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم))، فرجعوا إلى رحالهم. وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ﷺ ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم، قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة، كأني أريد أن أشرك القوم فيما قالوا: يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعهما الحارث، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إليَّ، وقال: والله لتنتعلهما، قال: يقول أبو جابر: مَه، حفظت والله الفتَى، فاردد إليه نعليه، قال: قلت: لا والله لا أردهما، فَأْلٌ والله صالح، لأنْ صدق الفأل لأسلبنه.

لا شك أن هذه البيعة بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها، فَتْحُ الفتوح؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة منذ اكتمل عِقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرفَ الناس بقدر العهود والمواثيق، وكانوا أسمحَ الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية، مهما بلغت متطلبات هذه التضحية من أرواح ودماء وأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوًى هائلةً، تقف متألبة عليها، لم يغِب عن أنصار قدرها ووزنها في ميادين الحرب والقتال، وهي في آثارها تُظهِر ما ضَحَّى به أصحابها من كل غالٍ

ونفيسٍ، وما توسلوا به من وسائل الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبرٍ في الأرض؛ حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام.

والحقيقة أن الإيمان ذو أثر عظيم في تربية النفوس، وأنه يظهر أثر استعداد هذه القيادات الكبرى لِأَنْ تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله، ولا يكون لها غاية تنتهي إليها إلا رضا الله- تبارك وتعالى- ورأينا أن أبا الهيثم بن التيهان كان صريحًا عندما قال للرسول ﷺ: إن بيننا وبين رجال حبالًا، وإنا قاطعوها - يعني: اليهود- فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم النبي ﷺ وقال: ((بل الدم الدم، الهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم))، وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته، وكانت جواب سيد الخلق عظيمًا، فقد جعل نفسه جزءًا من الأنصار، وجعل الأنصار جزءًا منه، ﷺ.

ويؤخذ من اختيار النقباء بعض الدروس المهمة؛ منها: أن النبي ﷺ لم يعين النقباء، وإنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسئولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان مَن يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شوري، وأراد الرسول ﷺ أن يمارس الشورى عمليًّا من خلال اختيار نقبائهم.

ونحن نرى أيضًا أن التمثيل النسبي في الاختيار، ومن المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج كانوا أكثرَ من الذين حضروا البيعة من الأوس، فهم ثلاثة أضعاف الأوس، بل يزيدون، ولذا كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج، وجعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في المدينة، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر أهله والداخلون فيه. وأراد الرسول ﷺ أن

يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث أحدًا من غيرهم، وأنهم غدو أهل الإسلام، وغدو حماة الإسلام وأنصاره.

ولما تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة بين النبي -عليه الصلاة و السلام- والأنصار، خرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، فلم يستطيعوه، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنصل رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة، يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير. واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم؛ لأنه كان يجير تجارتهم ببلده، فقد أنقذته أعراف الجاهلية يومئذٍ. ولم تستطع سيوف المسلمين أن تنقذه، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وأنهم عاجزون عن حماية أنفسهم. وقد قيل في هذه الحادثة أول شعر في الهجرة بيتين، قالهم ضرار بن الخطاب، حيث قال:

تداركت سعدًا عنوةً فأخذته ❖ وكان شفاءً لو تداركتم منذرًا
ولو نلته طلت هناك جراحه ❖ وكان حريًّا أن يهان ويهدر

وكان حسان بن ثابت < بالمرصاد، فرَدَّ عليه بأبيات من الشعر، تناقلتها الركبان، حين قال:

ولست إلى سعدٍ ولا المرء منذر ❖ إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
فلا تكن كالوسنان يحلم أنه ❖ بقرية كسرى أو بقرية قيصرا
فإنا ومن يهدي القصائد نحونا ❖ كمستبضع تمرًا إلى أرض خيبرا

وفي قول العباس بن عبادة بن نضلة: "والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنًى غدًا بأسيافنا". وقوله ﷺ: ((إنا لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)). هنا درس تربوي بليغ، هو أن الدفاع عن الإسلام، وأن التعامل مع

أعداء هذا الدين، ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الله ﷻ الجهاد، فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك بعد ذلك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى، أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وأدت إلى إخفاء المخططات وتنفيذها عن العدو، وهو الكفيل -بإذن الله- بعد ذلك بنجاحها. ولذا قال: ((ولكن ارجعوا إلى رحالكم)).

وينبغي أن ننبه إلى أن البيعة بالنسبة للرجال كان ببسط النبي ﷺ يده، وقالوا له: ابسط يدك فبسط يده، فبايعوه.

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتَا الوقعة، فكانت قولًا، ما صافحَ رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته ﷺ حتى المرأتين بايعتَا بيعةَ الحرب، وصدقتا في عهدهما.

فأما نُسيبة بنت كعب أم عمارة، فقد سقطت في "أحد" وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم "أحد" مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سِقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحازت إلى رسول الله ﷺ فكانت تباشر القتالَ، وتذب عنه بالسيف، وقد أصيبت بجروح عميقة، وشهدت بيعة الرضوان > وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إربًا، فما وهنت، وما استكانت، وما ضعفت، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتى قُطعت يدها، وجرحت اثنا عشر جرحًا. وأما أسماء ابنة عمرو بن بني سلمة قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: هي ابنة عم معاذ بن جبل، } .

وعندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السير والتراجم، نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، ونلحظ أنه قد حضر المشاهد كلها ﷺ قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا

بجوار النبي ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر، فكانوا قرابة السبعين.

نعم، صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع رسول الله ﷺ وصدقوا من قبل في عهدهم مع الله، فمنهم من قَضَى نحبه، فلقي ربه شهيدًا سعيدًا حميدًا، ومنهم من بقي حتى أقام الله تعالى به الدولةَ المسلمةَ، وشارك في قيادتها، وحضر أحداثها الجسام بعد وفاة رسول الله ﷺ وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام. النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ولا ننسى أن نذكر خبر ذلك الشيطان الذي كان لهذه البيعة بالمرصاد، وكان مع حلفائه من مشركي مكة على عهد لا ينقضه ولا يرفضه، ذلك أنه لَمَّا تم إبرام المعاهدة -كما قدمنا- وكان القوم على وشك الانفضاض، اكتشفها هذا الشيطان الخبيث، وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة، لم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سِرًّا ليباغت المجتمعين في الشعب، عندها قام ذلك الشيطان على مرتفعٍ من الأرض، فصاح بأنفذ صوت سُمِعَ قط: يا أهل الأخاشب -يعني: المنازل- هل لكم في محمد والصباة معه، فقد اجتمعوا على حربكم. فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ قال: ((هذا أزب العقبة))، أو قال: ((هذا أزيب العقبة، أما والله يا عدو الله، لأتفرغنَّ لك)) ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم.

ونحن لا ننسى في هذا أن نشير إلى هذه الولاية التي بين الشيطان وبين أوليائه من المشركين، وفي هذا إخبار للنبي ﷺ وللصحابة، بأنهم إنما يواجهون مشركي الإنس، وشياطين الجن -والعياذ بالله تعالى- وأن الحرب هذه يتألب عليهم فيها

من الإنس والجن ما يتألب، ولذا كانت دعوة نبينا ﷺ دعوة عالمية، تشمل الإنس والجن معًا، فكان النبي -عليه الصلاة و السلام- يبلغ هؤلاء الجن كما بلغ أولئك الإنس، وكان يجاهد هؤلاء وأولئك معًا.

قال ابن إسحاق: فلما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية إلى المدينة، أظهروا الإسلامَ بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غن بن كعب بن سلمة، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة، وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنمًا من خشب في داره يقال له: مناه، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه، ويطهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة -ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل- كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه، فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عِذر الناس، منكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم، مَن عَدَى على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله، وطهره، وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك، لأخزينه!

فإذا أمسى ونام عمرو، عدَوا عليه ففعلوا مثل ذلك، فيغدوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفٍ، فعلقه عليه، ثم قال له: إني والله ما أعلم مَن يصنع بك ما أرَى، فإن كان فيك خير، فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا، فقرنوه به بحبلٍ، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس، وغَدَا عمرو بن الجموح، فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في

تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه مَن أسلم من قومه، فأسلم برحمة الله، وحسُن إسلامه، فقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، وهو يشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة، قال:

والله لو كنت إلهًا لم تكن ❖ أنت وكلب وسط بئر في قرن

أف لم ألقاك إلهًا مستدنًا ❖ الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمد لله ذي العلي المنن ❖ الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذي أنقذني من قبل أن ❖ أكون في ظلمة قبرٍ مرتهن

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة -وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته- عندها أُذن لرسول الله ﷺ وللمسلمين بأن يهاجروا إلى ذلك الوطن، وكان الإذن -أولًا- للمسلمين دون النبي ﷺ ثم أذن له ﷺ لم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالأنفس فحسب، مع الإشعار بأن ذلك المهاجر قد يُستباح، وقد ينتهك، وقد يهلك في أوائل الطريق أو في نهايتها، أو أنه يسير نحو مستقبلٍ مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، وبدأ المسلمون يهاجرون وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم بما كانوا يحسون من الخطر.

وهناك نماذج من ذلك، فإن أول المهاجرين أبو سلمة، هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق، وهاجر معه زوجه وابنه، فلما أجمع على الخروج، قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيتَ صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب عليه آل أبي سلمة لذلك الرجل، فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الغلام بينهم، فخلعوا يده، وذهبوا به، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وكانت أم

سلمة -بعد ذهاب زوجها، وضياع ابنها- تخرج كل غداة إلى الأبطح، تبكي حتى تمسي، مضَى على ذلك نحو سنةٍ، فَرَقَّ لها أحدُ زويها، وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وولدها؟ فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئتِ، فاسترجعتْ ابنَها من عَصبته.

وخرجت تريد المدينة في رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترًا، ليس معها أحد من خلق الله تعالى، حتى إذا كانت بالتنعيم، لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فسألها وعرف حالها، فلما علِمَ ما هي عليه من هذه الحال، شيَّعها حتى أقدمها إلى المدينة -يعني: مضى يسير أمامها وهي خلفه- حتى إذا نظر إلى قُباء، قال: زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

بهذا نرى تلك النماذج، هذا نموذج أبو سلمة. ومعه أيضًا نموذج أبو يحيى صُهيب الرومي > ذلك الذي اجتمع عليه أهل مكة حين أراد ما أراد من الهجرة، فضحَّى بما معه من المال بعد أن ترك لهم البيت والوطن، فلما قدم المدينة، ورآه النبي ﷺ قال له: ((ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى))، ذلك أنه اشترى هجرته إلى النبي ﷺ بأهله وماله.

بهذا تكون الترتيبات قد اكتملت، والمسيرة قد تأهبت؛ لتتحول هذه النبتة الأولى وتلك البادرة الأولى بمكة إلى أن تتكون من وراء ذلك دولة، تحمل شرف البناء العالمي للدولة الإسلامية التي تقوم على أساس "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ذلك الأساس الذي كوَّن مِنهاجَ تلك الدولة الفتية، فابتنت عليها أخلاقًا وتشريعاتٍ اجتماعيةً وعلميةً، مهدت لقيام الدولة الإسلامية الأولى. هذه طلائع الهجرة، وللهجرة حديث مستقل.

حادثة الهجرة وما صاحبها من أحداث

عناصر الدرس

العنصر الأول	: الهجرة: موطنها، أهميتها، وسببها	٥٨٩
العنصر الثاني	: الإعداد للهجرة، وطلائع المهاجرين	٦٠٢
العنصر الثالث	: مؤامرة قريش، وأحداث الهجرة	٦٠٧
العنصر الرابع	: دخول النبي ﷺ المدينة، واستقراره بها	٦٢٤

الهجرة: موطنها، أهميتها، وسببها

سبق الحديث أن المسلمين هاجر منهم نفر إلى الحبشة، وكان في هذه الهجرة تدريب لهم على ترك مكة، وكان في ذلك -أيضًا- اكتشاف لحياة الناس من حولهم، ومذاهبهم، وعقائدهم، وليعلم أهل الإسلام أن ترك الديار والأهل والمال والولد من أجل العقيدة والدين، أمرٌ مشروع، ولربما كان واجبًا حين لا يأمن المسلم على دينه وعقيدته، أو حين يأمره الله -تبارك وتعالى- بذلك فيمتثل، طاعةً لله، ونصرةً لرسوله ﷺ.

وقد بلغ عدد الذين هاجروا إلى الحبشة نحوًا من ثمانين مسلمًا ومسلمةً، ولذا فهي هجرة خاصة في عدد المهاجرين، وفي الأهداف المقصودة.

أما الهجرة إلى المدينة فإنها تعرف بالهجرة العامة؛ لأن جميع المسلمين كُلفوا بها كما تعرف هي أيضًا بالهجرة النبوية؛ لأن النبي ﷺ هاجر فيها مع المسلمين. ولما أشتد عنت الكفار، وغلُظ عدوانهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين معه، نزل أمره -تبارك وتعالى- بالهجرة والإذن بها إلى المدينة، فهاجر إليها المسلمون ومعهم النبي ﷺ.

وفي تحديد موطن الهجرة، يروي الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: "قال رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ بمكة للمسلمين: ((قد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخةَ ذات نخل بين لابتَيْن)). والسبخة: أرض ذات نَز وملح، فهاجر مَن هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ ورجع إلى المدينة مَن كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين". هذا الحديث رواه البخاري.

وقال أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرضٍ بها نخل، فذهب وَهْلِي إلى أنها اليمامة، أو هَجَر، فإذا هي المدينة، يثرب))،

وهذا الحديث أيضًا أسنده الإمام البخاري. وفي رواية: أن النبي ﷺ قال: ((إن الله أوحَى إليَّ: أي هؤلاء البلاد الثلاث نزلتَ، فهي دار هجرتك: المدينة، أو البحرين، أو قِنسرين))، قال أهل: ثم عزَمَ له على المدينة.

ولا شك أن ترك موطن الصِّبا والبعد عن الأهل والأحبة إلى مكان جديد، لهو أمر يشق على النفس، وتحتاج إلى أن تتفهم أسبابه، وأن تقتنع بأهميته، وأن تقف على غايته السامية التي تقتضيه.

وكان النبي ﷺ يعلم بصعوبة أمر الهجرة على أصحابه، لذا تدرج في أمرهم بها، وفي أخبارهم بمكانها، وجهتها.

ففي أول الأمر قال النبي ﷺ لأصحابه: ((أني أريت دار هجرتك ذات نخل بين لابتين)) -كما تقدم- فبدأهم بأنها رؤية منامية، ورؤيا الأنبياء حق على كل حال، إلا أنه لم يحدد لهم مكانَ الهجرة؛ لتنشغل نفوسهم بالبحث عنها، ولتتفكرَ في شأنهم معها، وليعلموا أنها حصينة، لوصفها بأنها بين لابتين، وبأنها أرض غنية؛ لأنها ذات نخل. وقد ظن الصحابة بعد أن أخبرهم النبي ﷺ بتلك الرؤية، بأنها أرض اليمامة، أو هجر، أو يثرب، أو قنسرين؛ لوجود الصفات التي أخبرهم بها رسول الله ﷺ فيها. ومع هذا الظن لم ينصرفوا إلى المدينة، ولم يتصرفوا من تِلقاء أنفسهم، وإنما تريثوا، وتلبثوا، وانتظروا، أن تحدد دار هجرتهم من قِبل النبي ﷺ ويبدو أن هذا التحديد كان بعد تمهيد.

ففي المرحلة الأولى أخبر النبي برؤياه، ثم حدث أبو موسى الأشعري كما سبق في قوله ﷺ أنه قال: ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة، يثرب)). وبعد ذلك نزل الوحي على النبي ﷺ يخبره بالهجرة، ويخيره بأن تكون إلى مكان من أماكن ثلاثة

ذُكرت في هذا الحديث، أو في غيره، إما أن يهاجر إلى المدينة، أو إلى البحرين، أو إلى قنسرين. فعن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن الله أوحَى إليّ إلى أيِّ هؤلاء الثلاث نزلت، فهي دار هجرتك: المدينة، أو البحرين، أو قنسرين)). ثم كان تحديد الهجرة بعد ذلك، كما روى الترمذي في سننه، أن النبي ﷺ بعد أن أخبر أصحابَه بالهجرة من مكة بأيام، خرج إليهم مسرورًا، وهو يقول لهم: ((قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج، فليخرج إليها)).

وإنما كان التدرج حول أمر الهجرة مراعاةً لحال المهاجرين؛ حتى يسهل عليهم ترك الأهل والدار. وربما كان لأحدهم ارتباط معين يحتاج إلى وقت؛ لينتهي منه وليؤدي ما عليه.

ولعل تأخير تحديد المكان يؤدي إلى صرف أذهان أهل مكة عن الهجرة، ويبعد ذهنهم عن خطورتها عليهم وعلى تجارتهم؛ لأنهم كانوا يخافون من دخول أهل المدينة في الإسلام، لتأثيرهم على أهل مكة، وبخاصة إذا انضم ﷺ إليهم، وقادهم بدينه الذي يدعو إليه. ولم يذهب أهل مكة إلى أن الهجرة هذه المرة ستكون شاملةً للنبي ﷺ وللمسلمين جميعًا، بل ظنوها -كسابقَيْها من الهجرة إلى الحبشة- على مرتين، ولذا لما بدأ المسلمون في الرحيل إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد، مع أنهم كانوا يخرجون جماعاتٍ إثر جماعاتٍ؛ ظنًّا من أهل مكة أن النبي ﷺ لن يلحق بهم كما فعل مع مهاجري الحبشة.

وقد رحلت عائلات بأكملها، فقبيلة بني غَنْ رحل منهم أربعة عشر رجلًا، وسبْعُ نسوة، كما تحرك عمر > ومعه أهله وعشيرته وحلفاؤه في عشرين رجلًا وامرأةً، واستمر رحيل المسلمون من مكة حتى لم يبقَ منهم إلا رسول الله وبنوه، وأبو بكر وبنوه، وعلي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، حيث أبقاهم

الرسول ﷺ بأمر الله تعالى، فلما علم أهل مكة بإعداد الرسول ﷺ للهجرة، خافوا من الأمر، وسُقط في أيديهم، فأخذوا في التخطيط لقتل النبي ﷺ حتى لا يقع ما يحذرون وما يخشون.

ولا شك أن المسلمين حين بدءوا في الهجرة، هاجروا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وهم يُدركون ما في الهجرة من تضحية بأموالهم، ومن تَرْكٍ لديارهم، ومن توجه نحو مستقبل مبهم بالنسبة لهم، لا يدرون ما يتمخض عنه هذا المستقبل من قلاقل أو أحزان؟ لكنهم حين أُمِروا بالهجرة أمروا بالتحول إلى المدينة وهم يرَوْن أن الله -تبارك وتعالى- لن يضيعهم، وأن هذه الهجرة كما تشمل ترك المحسوسات والمعنويات، فإنها تشمل -أيضًا- ترك الذنوب والمعاصي والسيئات، وتلك الأفكار الضالة التي يريدون أن يخلفوها وراء ظهورهم في مكة حين غادروها إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: لَمَّا أذِنَ الله تعالى في الحرب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، قال: فلما أذن الله في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له، ولِمَن اتبعه وأوَى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: ((إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها))، فخرجوا أرسالًا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة، فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله

بن عمر بن مخزوم، وكانت هجرته إليها قبل بيعة العقبة بسنة، حين آذته قريش مرجعه من الحبشة، فعزَمَ على الرجوع إليها، ثم بلغه أن بالمدينة له إخوانًا، فعزم إليها.

وقَبْلَ أن أغادر هذه النقطة وذلك العنصر، يتعين أن نسأل سؤالًا. وهو: لماذا اختيرت المدينة كدار للهجرة، وكعاصمة للدولة الإسلامية؟

لا شك أن الله -تبارك وتعالى- له حكمة بالغة في اختيار المدينة دارًا للهجرة، ومركزًا للدعوة، ونحن هنا لا نستطيع أن نحيط علمًا بالحكمة من ذلك على وجه التحديد، فإن لله -تبارك وتعالى- إرادةً نافذةً في إكرام أهلها، وله ﷻ أسرار لا يعلمها إلا الله في اختيارها دون غيرها، إلا أنها امتازت بتحصنٍ طبيعي حربي، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكان حَرَة "الوبرة" مطبقة على المدينة من الناحية الغربية، وحرة "واقم" مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المِنطقة الشمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة، وهي التي حصَّنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب، وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طُرق ضيقة، لا يتفق فيها النظام العسكري ولا يستقيم فيها ترتيب الصفوف. ولذا كانت خِفارات عسكرية صغيرة كافية بإفساد النظام العسكري، ومنعه من التقدم.

يقول ابن إسحاق: كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها، ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: ((إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخيل بين لابتين)) وهما الحَرتان. فهاجر مَن هاجر قِبل المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوةٍ، وإباءٍ، وفروسيةٍ، وقوةِ شَكيمةٍ، ألفوا الحرية، وخاضوا الحروب، ولم يخضعوا لأحد. يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر. وكان بنو عدي ابن النجار أخوال النبي ﷺ فأم عبد المطلب بن هاشم بن عدي بن النجار إحدى نسائهم، تزوج هاشم بسلمَى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، فولَدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها حتى صار غلامًا دون المراهقة، وتركه عمه عبد المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يُحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة، وكانوا الأوس والخزرج من قَحطان، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقام الأنصار بنصرته، اجتمع بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد، وكانت بينهم مفاضلة ومسابقة في الجاهلية، وبذا لم يجد الشيطان سبيلًا إلى قلوبهم؛ لإثارة الفتنة، والتعزي بعزاء الجاهلية باسم الحمية القحطانية أو العدنانية، فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة النبي ﷺ وصحابته، وأنفع مكان ليتخذوها دارًا وقرارًا، حتى يقوَى الإسلام ويشق طريقه إلى النصر، والفتح، والعز، والتمكين، وتُفتح الجزيرة، ثم يفتح بعد ذلك العالم المأهول بأسره، بإذن الله- تبارك وتعالى.

وهنا ينبغي أن ننبه أيضًا بأهمية المدينة، وفضائلها حين شرُفت المدينة بمقدم النبي ﷺ وهجرته، حتى فُضِّلت على سائر البقاع، حاشَا مكة المكرمة، ففضائل المدينة كثيرة جليلة شهيرة، منها ما نذكره في هذه العجالة على سبيل المثال لا الحصر.

ومن فضائلها التي تميزت بها: كثرة أسمائها، حتى قد بلغ بعض العلماء بأسمائها حوالي مائة اسم، ذكر هذه الأسماء الزركشي في (إعلام الساجد بأحكام المساجد)، والفيروزآبادي صاحب (القاموس المحيط)، وغيرهما من أهل العلم.

ومن أشهر هذه الأسماء: "يثرب"، وقد ورد ذكرها في كتاب الله ﷻ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]. وبعد هجرة النبي ﷺ إليها، جاء النهي عن تسميتها بهذا الاسم، وأن تسميتها في القرآن بـ"يثرب" فذلك حكاية عن قول المنافقين، وأما "طابة" فإن هذا من أسمائها التي ذكر النبي ﷺ في حديثه. فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن سمَّى المدينة يثرب، فليستغفر الله، فإنما هي طابة))، وفي رواية: ((هي طابة، هي طابة، هي طابة)).

ولا شك أن أشهر أسمائها المدينة، وهذا الاسم إذا أطلق أريدت به المدينة النبوية المنورة دون غيرها من مدن الدنيا. وقد جاءت الآيات كثيرة متضافرة بهذا الاسم، كقول الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١]، وكقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقد وصفت المدينة بالمباركة، والمنورة، والمشرفة، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة.

ومن فضائلها وخصائصها: محبة النبي ﷺ لها، ودعاؤه فيها برفع الوباء عنها، فإن النبي ﷺ قال: ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد))، وعن أنس:

((أن النبي ﷺ كان إذا قدِمَ من سفر، فنظر إلى جدران المدينة، أوضع راحلتَه، وإن كان على دابة حركها من حبها)). وذلك لأنه ﷺ كان يَحِنُّ ويشتاق إليها.

ومعنى: "أوضع راحلته" أي: حثها على السرعة، وقد دعا لها النبي ﷺ بضعفي ما في مكة من البركة، فعن أنس أن النبي ﷺ قال: ((اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة))، وعن أبي هريرة > قال: "كان الناس إذا رأَوْا أول الثمر، جاءوا به إلى النبي ﷺ فإذا أخذه رسول الله، قال: ((اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدنا، اللهم إن إبراهيم عبد وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك بمكة، ومثله معه))، قال: ثم يدعو أصغرَ وليدٍ له، فيعطيه ذلك الثمر".

ومن خصائصها -أيضًا-: أن الله -تبارك وتعالى- يحفظها ويعصمها من الدجال، فإن النبي ﷺ أخبر: "بأن الدجال لا يدخلها، فإذا جاء عندها أرفضت إليه بإخوانه من الكفار والمنافقين، ورفضتهم، فلفظتهم إليه، فخرجوا"، كما أن النبي ﷺ حين دعا لها بالصحة، ورفع الوباء، دعا ألا ينزل بها الطاعون كما أخبر بذلك المعصوم، ﷺ.

والنبي ﷺ ذكر فضيلة الصبر على شدتها، وضيق العيش بها، ووعد على ذلك الشفاعة يوم القيامة. فعن سعد بن أبي وقاص > قال: قال رسول الله ﷺ: ((المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبةً عنها، إلا أبدل الله فيها مَن هو خير منه، ولا يثبت أحدٌ على لأوائها وجَهدها، إلا كنتُ له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة)). والحديث في (مسلم).

وخص النبي ﷺ المدينة بفضيلة ليس لغيرها. فعن ابن عمر > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لَمن يموت بها))،

والحديث أخرجه أحمد بإسناد صحيح، وصححه ابن حبان. وكان عمر < يقول: "اللهم ارزقني شهادةً في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ"، وقد استجاب الله تعالى دعاءَ الفاروق، فاستُشهد في مِحراب رسول الله، ﷺ.

ومن فضائلها: أنها كهف الإيمان، وأنها تنفي خبثَها. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((إن الإيمان ليئرز إلى المدينة -يئرز أي: ينضم، ويرجع، ويجتمع- كما تأرز الحية إلى جُحرها)). وقال: ((والذي نفسي بيده، لا يخرج منها أحد رغبةً عنها، إلا أخلف الله فيها خيرًا منه، ألَا إن المدينة كالكير تُخرج الخبثَ، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد)). والحديث في (مسلم).

وهي كما تنفي خبث البشر، تنفي خبث الذنوب والأوزار. فعن زيد بن ثابت < قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنها -أي: المدينة- طيبة، تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة))، وهذا عند (البخاري).

والله -تبارك وتعالى- تكفَّل بحفظها كل من قصدها بسوء، وجعل عليه الوعيد الشديد، بل توعد النبي ﷺ من أحدث فيها حدثًا، أو آوى فيها محدثا، أو أخاف أهلها، توعده بلعنه الله وعذابه، وبالهلاك العاجل غير الآجل. فعن أبي هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماعَ -"انماع" أي: ذاب وسال- كما ينماع الملح في الماء)). وفي الحديث الآخر: ((المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف)). وهذا حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم.

وأخيرًا، فكما أن مكة حرم، فالمدينة حرم، قال ﷺ: ((إن إبراهيم حَرَّمَ مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت لها في

صاعها ومُدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة))، وقال: ((لا يُختلى خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمن أنشدها أو أشادها -بمعنى: أشاعها، ورفع الصوت بتعريفها- ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، ولا يصلح أن يقطع منها شجرًا، إلا أن يعرف رجل بعيرَه))، والحديث عند أحمد.

هذه فضائل جمة، جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، ويرغبون في المقام فيها، وبذا تجمع طاقات هذه الأمة نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله، والتفرغ لفتح مشارق الأرض ومغاربها؛ انطلاقًا من طَيْبةَ الطيِّبةِ من مدينة رسول الله ﷺ ومن مهاجره الذي اختاره الله -تبارك وتعالى- له على علم بالبُلدان، والقُرى، والأمصار.

أهمية الهجرة، وسبب هجرته ﷺ:

والهجرة: هي الترك مطلقًا، وتشمل ترك المحسوسات والمعنويات، ولذا فهناك ترك للمعاصي، وهناك ترك للأفكار الضالة. وهناك ترك الديار والرحيل عنها إلى مكان آخر، وكلاهما هجرة وترك، والفاعل لأحدهما تارك ومهاجر.

ومن الهجرة الحسية: ما تقوله الملائكة للمستضعفين الذين ظلموا أنفسَهم، وبقَوْا تحت سيطرة الطغيان أذلاءَ مستعبدين؛ ليقيموا عليهم الحجة، ويبينوا لهم أن الضعف معصية، وأن الضعف جريمة يعاقب مَن رضِيَ بها، وعمِلَ على البقاء في تلك الدار، وهو قادر على الخلاص، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

ومن الهجرة المعنوية: قول النبي ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرتها إلى ما هاجر إليه)).

هاجر المسلمون إلى الحبشة وقد تركوا مكة وما فيها من ضلال وشرك، فهذه هجرة حسية، وتركوا الذنوب والشرك معًا، فتلك هجرة معنوية.

والمهاجرون هم الذين قاموا بالهجرة، كما قال الله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ويندرج معهم كل مَن ترك موطنه أيًّا كان موقعه، ولحق برسول الله ﷺ في المدينة.

يقول ابن الأثير: والمراد بالمهاجر في الشريعة: مَن فارق أهله ووطنه وجاء إلى بلد الإسلام، وقصد النبي ﷺ رغبةً فيه، وإيثارًا له.

وهذا الكلام لا يقيد الهجرة بمكان خاص، وإنما يجعل الهجرة شاملة لأي مكان ما دامت تقصد اللهَ ورسوله، وما دامت تريد إيثارًا للتعلم، وابتعادًا عن أعداء الله الذين يبغونهم الفتنة والضرر، فَمَن ترك دار الشرك ولحق بدار الإسلام، فهو مهاجر. يقول ابن عباس: "كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر من المهاجرين؛ لأنهم هجروا دار الشرك إلى دار الإسلام". وكان من الأنصار مهاجرون تركوا المدينة يوم أن كانت دار شرك، وقصدوا رسول الله ﷺ عند العقبة.

وترجع أهمية الهجرة إلى المدينة المنورة، إلى أنها تمثل انطلاقة كبرى لانتشار الإسلام بعدما وقف أهل مكة من الإسلام والمسلمين موقفَ العَنَت والكبرياء، وأخذوا يصدون عن سبيل الله بكل وسيلة ممكنة، مهما كان فيها من الكذب والغلو، والبعد عن الحق والسداد. الرسول ﷺ يواجههم بالدعوة، وهم يعترضون عليه اعتراضاتٍ تتسم بالفوضوية، وباللجوء إلى السَّفه، والجهل، والطيش، وتبتعد حواراتهم ابتعادًا كليًّا عن مناقشة هادئة هادفة صحيحة، فالرسول ﷺ يدعوهم إلى دين الله تعالى، يدلل على الحق بالحسنى، ويبين

الإسلام بكافة الوسائل والأساليب، ومع ذلك يستمرون على عنتهم وغلوهم، متعللين بالحجج الواهية، والأجوبة الباهتة.

مرةً يبرزون تميزهم بالغِنَى المادي، والوجاهة الاجتماعية، والسلطان القوي. يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم: ٧٣]. ومرةً يطالبون الرسول ﷺ بتبديل الآيات والإتيان بغيرها، وفي ذلك يقول الله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥]. ومرةً يتعنتون في المناقشة، يطلبون من النبي ﷺ أن يعيد لهم آباءهم من قبورهم؛ ليشهدوا بصدقه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٥]. ومرةً ينكرون الحق، مستدلين بعدم الفَهم، وجنوحهم إلى الظن والخيال، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢].

هكذا وصل بهم الحال إلى أن يتآمروا على قتله أكثرَ من مرةٍ، والله -تبارك وتعالى- حافظاً نبيَّه، والله ﷻ عاصم رسولَه، فكان الله ﷻ ينجيه في كل مرة، واشتد الأذى لكل من أسلم؛ لمنعه من الإسلام، وإبعاده عن رسول الله، ﷺ.

لقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة أمرًا طبيعيًّا؛ لتنطلق الدعوةُ بعد حصار قد طال، وكانت انفراجة لا بد منها لنشر كلمة الحق بين القاصي والداني، والمسلمون قد استعصوا عليهم الانطلاق إلى غايتهم الكبرى، أن تغيير المكان والناس أصبح أمرًا ضروريًّا لتحقيق النجاح المنشود.

هيأ الله تعالى للهجرة أسبابًا، وجعل هذه الممهداتِ سببًا في تيسر هذه الهجرة. كان المطلوب أن يهاجر من مكة جميعُ القادرين على تركها؛ ليتخذوا المدينة مركزًا جديدًا للدعوة، وقد تحقق هذا، فَلَمْ يبقَ في مكة إلا من حُبس، أو فتن، أو لم يأذن الله تعالى له. خرج المسلمون من مكة غيرَ آسفين، وأقدموا على التضحية والبذل غيرَ هَيَّابِين ولا وَجِلِين، وكانوا بالحياة الجديدة من الآمنين ومن الراضين.

وبهذا انطلقت الدعوة انطلاقة جديدة، وانتقلت نقلة كبيرة في مواجهة الشرك وأهله، وفي نشر الحق ودحر الباطل في الجزيرة العربية ومن حولها.

ولا ينبغي لأحد أن يتصور أن الهجرة من مكة إلى المدينة، كانت من أجل راحة أو هدوء، أو إيثار للسلامة من اضطهاد يتعرض له المسلمون في مكة، أو ستر لضعفهم وقلتهم، كل ذلك غير صحيح، ولا يجوز أن يجولَ بخاطر أحد.

أين السلامة وسط السرايا والغزوات التي اشترك فيها المسلمون سريعًا، والتي لم تنقطع طوال الفترة المدنية؟ أين الهدوء وقد تحولت الحياة كلها إلى عبادة، ودعوة، وجهاد، وأمر ونهي، وأخذ ورد، وقتل وقِتال، ونحو ذلك؟ أين هذا الضعف في المهاجرين وقد تنوعت غزواتهم في كل الجهات والقبائل المحيطة بمدينة النبي ﷺ.

بقي النبي ﷺ ليكون آخرَ مَن يهاجر منها، ولعله كان يخشى على أصحابه إذا هاجر قبلهم، فنصحهم بالرحيل قبله؛ ليضمن لهم نوعًا من الأمن والسلام، وليكون خلفَ ظهورهم كالقائد التي اضطرته ظروف الحرب للانسحاب، فإنه يبقى مع آخر المتراجعين من جيشه؛ أملًا في سلامتهم، وتحقيقًا للغاية المطلوبة منهم.

ولعله ﷺ أخَّرَ مغادرته مكة ؛ لأنه كان يضلل أعداءه ببقائه بينهم ، ليوهمهم بأنه سيكون معهم ولو ذهب أصحابه إلى المدينة ، وبذلك تنتهي خطورته ، ويفقد أنصاره ، هكذا ظنوا أنه ستنتهي خطورته وأنه سيفقد أنصاره ، وأنه سيعيش معهم بعد ذلك صامتًا مداهنًا ؛ لأن القائد بمفرده لن يفعل شيئًا. ثم إن هذه تصورات جميعها قد تبددت وذهبت ذَهاب السراب بعد أن هاجر رسول الله ﷺ فَرَدَّ الأماناتِ قبل أن يهاجر ، ولحِقَ بأصحابه في المدينة ، وبدأت دولة الإسلام تتعالى وترفع راياتها ؛ لتكون ولتبقَى خفَّاقةً في العالمين.

الإعداد للهجرة، وطلائع المهاجرين

ذكرنا أن الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيد وإعداد وتخطيط ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى وترتيبه ، وكان النبي ﷺ تَنْقِلُ خطواتِه آياتُ الكتاب العزيز وهي تتنزل ، ورحمات الوحي وهي تتجلى على قلبه ﷺ.

وكان هذا الإعداد والتمهيد في اتجاهين ؛ إعداد في شخصية المهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجَر إليه. فلو أردنا أن نتأمل في إعداد المهاجرين ، فإننا نعلم أن الهجرة لن تكون نزهة أو رحلة يُرَوِّحُ فيها الإنسان عن نفسه ، وإنما هي فِراقُ الأرض والأهل ، وقطعُ وشائج القربَى ، وصِلات الصداقة والمودة ، وتغير أسباب الرزق ، والتخلي عن ذلك كله لا من أجل شيء من حُطام الدنيا ، وإنما من أجل العقيدة.

وقد نوه القرآن المكي بالهجرة ، ولفت النظرَ إلى ذلك في قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴾ [الزُّمَر: ١٠]، ثم تَلَا ذلك نزول سورة "الكهف" وتحدثت عن الفِتية الذين هجروا ما كان عليه قومُهم من الشرك وعبادة الأوثان.

وهكذا استقرت صورة من صور الإيمان في نفوس الصحابة، وهذه الصورة يُترجم أصحابُها عن الهجرة من أجل العقيدة. ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة "النحل"، كما قال -جل من قائل-: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢]، وفي أواخر السورة تأكيد لذات المعنى في قول الله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠]. فهذا إعداد أولي للمهاجرين.

ثم يأتي إعداد آخر، وذلك في المكان المهاجر إليه، وهي مدينة النبي ﷺ قد لاحظنا أنه لم يسارع بالانتقال إلى الأمصار من الأيام الأولى، وإنما أخر ذلك لأكثر من عامين، حتى تكونت تلك القاعدة المسلمة، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادُها في أجواء القرآن الكريم خاصةً بعدما انتقل مصعب بن عمير إلى المدينة، فبعد أن تأكد النبي من استعداد الأنصار، وأن الاستعداد قد بلغ ذُروته، وبلغ كماله، وهاجر إليهم النبي ﷺ ليكون في عِزة ومَنعة من إخوانه من المهاجرين والأنصار.

ولما أذن الله -تبارك وتعالى- بالهجرة، كان الأذى قد بلغ بالمهاجرين مَداه، لَمَّا صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه بهم، وجعل الله له منعةً وقومًا أهلَ حرب وعُدة ونَجدة، كما تقول عائشة > وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين بما يعلمون من الخروج، قالت: "فضيقوا على أصحابه، وتعبَّثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشَكَا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فأذِنَ النبي ﷺ لهم".

ثم إن قريشًا واجهت المهاجرين وهم يذهبون إلى المدينة، وعملت بأساليب شتَّى للحيلولة دون ذلك. فمن هذا: أنهم استعملوا أسلوب التفريق بين الرجل وزوجه وولده، وقد تناولنا قصة أم سلمة -هند بنت أبي أمية، < وقد حدثتنا عن قصتها، لما أراد زوجها الهجرة، وأرادت أن تصحب زوجها، وما كان من كَيْد المشركين الكفار لهما، ومع ذلك فما منعَ هذا الكيد أن يكون أبو سلمة أول المهاجرين، ثم تلحقه زوجه < بعد ذلك بأشهر متطاولة.

هذا مَثَل من أمثلة تلك الطرق القاسية التي سلكتها قريش؛ لتحول بين أبي سلمة والهجرة، رجل فرقوا بينه وبين زوجه عُنوةً، وبينه وبين فِلذة كَبِده على مرأى منه، كل ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة. ولكن متى ما تمكن الإيمانُ من القلب، استحال أين يقدِّم صاحبُه على الإسلام والإيمان شيئًا، حتى لو كان ذلك الشيء فلذة الكبد أو شريكة الحياة! انطلق أبو سلمة إلى المدينة لا يلوي على أحد.

وهكذا أثر الإيمان حين يخالط بَشاشةَ القلوب، أسرةٌ فرقت الهجرة شملها، وامرأةٌ تبكي شدةَ مصابِها، وطفلٌ خلعت يده، وحرم من أبويه، وزوجٌ وأبٌ يسجل أروعَ صورِ التضحية والتجرد، ليكون أولَ مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبًا في سبيل الله ما لقي، مصممًا هو وزوجُه على المضي في طريق الإيمان، والانحياز إلى كتيبة الهُدَى، فماذا عسَى أن ينال الكفر وصناديدُه من أمثال هؤلاء؟!

قال ابن إسحاق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي أسلمة، عامر بن ربيعة حليف بني عدي معه امرأته ليلى بنت أبي حفنة العدوية، ثم عبد الله بن

جحش بن ذئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن خزيمة، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد أبي أحمد -اسمه عبد كما ذكره ابن إسحاق- وقيل: ثمامة، وكان هذا رجلًا ضريرَ البصر، كان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعرًا، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغُلقت دار بني جحش هجرةً. غلقت هذه الدار، لم يبقَ فيها أحد، فَمَرَّ بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام، وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يَبَابًا -أي: خرابًا- ليس بها ساكن، فلما رآها كذلك، تنفس الصُّعداء، وقال:

وكل دار وإن طالت سلامتها ❖ يومًا ستدركها النكباء والحوب

ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها، فقال أبو جهل: "وما تبكي عليَّ من قُل بن قل، أو من ضُل بن ضل"، -وهذا مثل يُضرب لِمَن لا يُعرف هو ولا أبوه- ثم قال -يعني: للعباس- هذا من عمل ابن أخيه، فَرَّقَ جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

قال ابن إسحاق: فنزل أبو سلمة، وعامر بن ربيعة، وبنو جحش بقُباء على مبشر بن عبد المنذر، ثم قدم المهاجرون أرسالًا. قال: وكانت بنو غنم بن دَوْدان أهلَ إسلامٍ قد أوعبوا إلى المدينة هجرةً، رجالُهم ونساؤهم، عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد، وعكاشة بن محصن، وشجاع، وعقبة بن وهب... إلى آخر هؤلاء } ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وحَمْلة بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجُذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت

ثمامة، وآمنه بنت رقيش، وصخبرة بنت تميم. قال أبو أحمد بن جحش في هجرتهم إلى المدينة:

ولما رأتني أم أحمد غاديًا ❖ بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنتَ لا بد فاعلًا ❖ فيمم بنا البُلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها بل يثرب بمظِنة ❖ وما يشاء الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومَن يُقم ❖ إلى الله يومًا وجهه لا يُخيَّب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ❖ وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وترًا نأينا عن بلادنا ❖ ونحن نرى أن الرغائب نطلب

ثم إن النبي ﷺ ألهمه اللهُ أن يدعو ربه بهذا الدعاء: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾، [الإسراء: ٨٠]، أشهده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء؛ ليجعل له مما هو فيه فرجًا قريبًا، ومخرجًا، فأذِنَ له -تبارك وتعالى- في الهجرة إلى المدينة النبوية، حيث الأحبة والأنصار، فصارت المدينة له دارًا وقرارًا، وصار أهلُها له أنصارًا.

عن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ بمكة، فأُمِرَ بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾".

قال قتادة: ﴿ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ أي: المدينة، ﴿ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾: الهجرة من مكة، ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾: كتابُ الله، وفرائضه، وحدوده.

بهذا نكون قد أتينا على المراد من ذكر أهمية الهجرة النبوية، والإعداد والتهيؤ لها.

مؤامرة قـريش، وأحداث الهجرة

هاجر المسلمون من مكة وانتقلوا إلى المدينة، ولم يبقَ -كما تقدم- في مكة أحد من المسلمين إلا علي بن أبي طالب > وأبو بكر الصديق وأبناء أبي بكر وأسامة بن زيد وعامر بن فهيرة، بقوا جميعًا مع النبي ﷺ بأمره، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة...

لما بدأ أهل مكة يشعرون أن تجمع المسلمين في المدينة غَدَا خطرًا عليهم، وبخاصة إذا لحق بهم النبي ﷺ وأن ذلك سيعود بمردود قويٍّ عليهم؛ أخذوا يتآمرون على نبينا ﷺ وأرادوا أن يمنعوه من الانتقال إلى المدينة بشكل مباشر ونهائي.

يقول ابن إسحاق: لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعه؛ فحَذِروا خروج رسول الله ﷺ فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره ﷺ حين خافوه، وكان ذلك في شهر صفر من العام الثالث عشر للنبوة.

فلما غدَوْا في اليوم الذي تواعدوا فيه؛ اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل نجدي يتسم بالهدوء والوقار، ووقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له؛ فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحا. قالوا: أجل؛ فادخل. فدخل معهم...

وقد اجتمع فيها أشراف قريش؛ فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم؛ فأنا -والله- ما نأمنه على الوثوب علينا مع من اتبعه من

غيرنا؛ فأجمعوا فيه رأيًا. فقال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهير، والنابغة، ومن مضى منهم حتى يصيبه ما أصابهم...

فقال الشيخ النجدي: لا والله؛ ما هذا لكم برأي؛ والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه؛ فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره...

فتشاوروا ثم قال قائل: نخرجه من بين أظهرنا؛ فننفيه من بلادنا فإذا أخرج عنا؛ فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع. إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت؛ فقال النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي؛ ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقة، وغلبته على قلوب الرجال لما يأتي به؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب؛ فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم، دبروا فيه رأيًا غير هذا...

فقال أبو جهل: والله أن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قال: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شابًّا جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا؛ فلن يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا؛ فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم - أي: دفعنا لهم الدية- قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون على تنفيذه...

وقع اختيارهم على أحد عشر رجلًا من أكابر قريش: وهم أبو جهل بن هشام، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونبيه بن الحجاج، ومنبه بن الحجاج...

اجتمعوا -وفيهم أبو جهل بن هشام- عند بيت نبينا ﷺ لتنفيذ هذه المؤامرة التي اتفق على تدبيرها بليلٍ؛ فقال لهم أبو جهل بن هشام -عند بيت رسول الله ﷺ وهم على بابه: إن محمدًا يزعم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم؛ فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نارٌ تحرقون فيها...

استمرت هذه الفئة في حصارها للنبي ﷺ لتقتله فور خروجه إليهم؛ لكنه ﷺ خرج عليهم فأخذ حفنة من تراب كانت في يده وألقاها على رءوسهم وهم في عماية وغشاوة -وقد أخذتهم سنة- ثم قال ﷺ: ((نعم، أنا أقول ذلك، أنت أحدهم يا أبا جهل))، وأخذ الله تعالى على أبصارهم؛ فلم يروه ﷺ فخرج إليهم ينثر التراب على رءوسهم ويقرأ فيهم قول الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١ - ٩]

لما فرغ رسول الله ﷺ من قراءة هذه الآيات لم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه التراب، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ﷺ وفي هذا الموقف قال

-جل من قائلًا عليمًا-: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

نعم، إن قدرة الله -تبارك وتعالى- غالبة، وإن أمره تعالى نافذ، وإن قدرة الله -تبارك وتعالى- قد منعت النبي ﷺ من أن يناله هؤلاء بسوء أو بشر...

وفي تاريخ الهجرة حدث البخاري عن ابن عباس قال: "بُعث النبي ﷺ لأربعين سنة؛ فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين، وكانت هجرته # في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته، وذلك في يوم الاثنين، كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: "ولد نبيكم يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين".

وقال ابن إسحاق: وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله ﷺ فقال له: ((لا تعجل؛ لعل الله أن يجعل لك صاحبًا)) لما قال أبو بكر للنبي ﷺ ذلك فأجابه النبي بهذه الإجابة؛ طمع الصديق بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه...

قال: فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعدادًا لذلك. قال الواقدي: اشتراهما بثمانمائة درهم.

وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: ((كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية؛ حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة -والهاجرة: هي نصف النهار عند اشتداد الحر- في ساعة كان لا يأتي فيها؛ فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث... قالت:

فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره؛ فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله: أخرج عني ما عندك. قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك - فداك أبي وأمي؟! قال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة، يا رسول الله! قال: الصحبة! قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذٍ يبكي)) ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا...

فاستأجرا عبد الله بن أرقط -قال ابن هشام: ويقال: عبد الله بن أريقط- رجلًا من بني الديل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو، كان مشركًا يدلهما على الطريق، ودفع إليه راحلتيهما؛ فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما...

قال ابن إسحاق: ولم يعلم -فيما بلغني- بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق وآل أبي بكر؛ أما عليٌّ فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه وأمانته.

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجَا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته -الخوخة: هي باب صغير كالنافذة الكبيرة وتكون عادة بين بيتين وينصب عليها باب-.

بقي المحاصِرون لبيت النبي ﷺ ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة وظهر لهم الفشل؛ فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ورآهم ببابه ﷺ فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا. قال: خِبتم وخسرتم، قد والله مر

بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته. قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم؛ لكنهم تطلعوا من الباب فرأوا عليًّا، فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقاموا ببابه، ثم إن عليًّا قام عن الفراش فسقط في أيديهم؛ فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به.

خرج نبينا ﷺ من الدار إلى الغار، وقد دعا -عند خروجه من مكة إلى المدينة- فقال: ((الحمد الله الذي خلقني ولم أكُ شيئًا، اللهم أعنِّي على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام، اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى خلقي فقومني، وإليك ربي فحببني، وإلى الناس فلا تكلني)).

ثم إن النبي ﷺ وقف عند خروجه بالحزوَّرَة في سوق مكة وقال: ((والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله؛ ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)).

طريق الهجرة والغار:

قال ابن إسحاق: ثم عمد إلى غار ثور -وهو جبل بأسفل مكة- فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمَّع لهما ما يقول لهما الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامرَ بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحهما عليهما إذا أمسى في الغار؛ فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة؛ فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا

عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع ابن فهيرة أثره بالغنم يعفي عليه - يعني: يذهب أثر أقدامه.

وقد حكى ابن جرير عن بعضهم: أن النبي ﷺ سبق الصديق في الذهاب إلى غار ثور، وأمر عليًّا أن يدله على مسيرة ليلحقه؛ فلحقه في أثناء الطريق، وهذا خلاف المشهور من أنهم خرجا معا.

جاء نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم أسماء، فقالوا: أين أبوكِ يا ابنة أبي بكر؟ قالت > : لا أدري، والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده -وكان فاحشًا خبيثًا- فلطم خديها لطمةً طرح منها قرطيها ثم انصرفوا...

لما انتهيا إلى الغار، قال الصديق للنبي ﷺ: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك؛ فإنْ فيه شيءٌ أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به، وبقي منها اثنان؛ فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ: أدخل. فدخل رسول الله ووضع رأسه في حجره ونام؛ فلُدغ أبو بكر في رجليه من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: ((مالك يا أبا بكر؟)) قال: لُدغت؛ فداك أبي وأمي. فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده.

ثم إنهما مكثا في الغار ثلاث ليال: ليلة الجمعة، وليلة السبت، وليلة الأحد، وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما، قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف لقن. فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كالبائت؛ فلا يسمع أمرًا يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان -كما قلنا- يعود عليهما عامر بن فهيرة بالغنم فيحلبا ويأكلا.

قريش جن جنونها؛ فما كان منهم إلا أن اعتدوا ذلك العدوان على بيت أبي بكر > وحاولوا أن يقتصوا وأن يقتفوا أثر النبي ﷺ روى الإمام أحمد: أن المشركين اقتفوا الأثر حتى بلغوا الجبل -أي: جبل ثور- فاختلط عليهم فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج عنكبوت فقالوا: لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. وهذا قد لا يصح إسنادًا؛ لكنها رواية تدل على أنهما اقتص أثرهما، وأن المشركين حاولوا أن يصلوا إليهما؛ فما وصلوا إلى ذلك ولا ما خططوا له حققوا.

قررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة أن تستخدم جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين؛ فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة في جميع الجهات تحت مراقبة مسلحة شديدة. كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين كائنًا ما كان، وحينئذ جدت الفُرسان والمشاة وقصاص الأثر في طلب النبي ﷺ وصاحبه، وانتشروا في الجبال والوديان والوِهَاد والهضاب لكن بدون جدوى وبغير عائدة، ورأينا عناية الله -تبارك وتعالى- تحوط نبيه ﷺ لأنه قد كفاه ﷻ ما أهمه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

وبالرغم من كل الأسباب التي اتخذها النبي ﷺ لم يكن الله -تبارك وتعالى- ليجعله ليرتكن إليها مطلقًا؛ وإنما كانت الثقة كلها في الله -تبارك وتعالى- وكان الرجاء كامنًا في نصرة وتأييده، وكان النبي ﷺ دائم الدعاء بالصيغة التي علمها الله إياها قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

وعندما أحاط المشركين بالغار وأصبح منهم رأي العين؛ طمأن النبي ﷺ الصديق بمعية الله لهما؛ فعن أبي بكر > قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم

نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: ((ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)) وفي رواية قال: ((اسكت يا أبا بكر؛ اثنان الله ثالثهما))؛ بل سجل الحق -تبارك وتعالى- ذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

طريق الهجرة وما وقع فيه:

بعد ثلاث ليالٍ من خروج النبي ﷺ من بيته ودخوله في الغار خرج ﷺ من الغار وكان حين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثارات قريش بعد استمرار الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى؛ عندها تهيأ النبي ﷺ مع صاحبه للخروج إلى المدينة، وقد قدَّمنا بأن النبي ﷺ وصاحبه قد اتخذا عبد الله بن أريقط هاديًا خرِّيتًا يدلهم على الطريق، وكان على دين كفار قريش؛ لكنه كان مأمونًا على ما سلماه من الأمر؛ فسلما إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث.

فلما كانت ليلة الاثنين غرة ربيع الأول في السنة الأولى من هجرته ﷺ جاء ابن أريقط بالراحلتين، وحينئذٍ قال أبو بكر للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، خذ إحدى راحلتي هاتين، وقرب إليه أفضلهما فقال ﷺ: ((بالثمن)) وأتتهما أسماء بنت أبي بكر } بسفرتهما ونسيت أن تجعل لها عصامًا -يعني: ما تربط به السفرة- فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة؛ فإذا ليس لها عصام، فشقت

نطاقها باثنين؛ فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر؛ فسميت من وقتها بـ"ذات النطاقين".

ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر > وارتحل معهما عامر بن فهيرة وأخذ بهم الدليل عبد الله بن أريقط على طريق السواحل، وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن ثم اتجه غربًا نحو الساحل؛ حتى إذا وصل إلى طريقٍ لم يألفه الناس اتجه شمالًا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحدٌ إلا نادرًا.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال: لما خرج بهما الدليل؛ سلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أنج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديدًا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار، ثم سلك بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفة، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح، ثم سلك بهما مرجح محاج، ثم تبطن بهما مرجح ذي الغضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم، من بطن أعداء مدلجة، ثم العبابيد، ثم أجاز بهما الفاجة، ثم هبط بهما العرج، ثم سلك بهما ثنية العائل، حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما على قباء، وهذا بعض ما وقع في طريقه ﷺ إلى مدينته النبوية.

روى البخاري عن أبي بكر > قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق لا يمر فيه أحد؛ فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأتِ عليها الشمس فنزلنا عندها، وسوّيت للنبي ﷺ مكانًا بيدي ينام عليه وبسطت

عليه فروة، وقلت: نم -يا رسول الله- وأنا أنفض لك ما حولك. فنام، وخرجت أنفض ما حوله؛ فإذا أنا براعٍ مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة. قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم. فأخذ شاة فقلت: أنفض الضرع من التراب والشعر والقذى؛ فحلب في كعب كثبة من لبن، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه؛ فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله. فشرب، حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن الرحيل؟ قلت: بلى. قال: فارتحلنا.

وكان من دأب أبي بكر > : أنه كان ردفًا للنبي ﷺ وكان أبو بكر شيخًا يُعرف، ونبي الله ﷺ شابٌّ لا يُعرف؛ فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني الطريق. فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق، وإنما يعني به سبيل الخير. روى ذلك البخاري عن أنس > .

وتبعهما في الطريق سراقة بن مالك؛ قال سراقة: بينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي وهي من وراء أكمه؛ فتحبسها عليَّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم

لا ؛ فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ؛ ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ؛ فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها ؛ فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني -أي: لم يطلبا منه شيئًا من الزاد ولا من المتاع- إلا أن قال: أخفِ عنا -يعني: أخفِ عنا الخبر- فسألته أن يكتب لي كتاب أمنٍ ؛ فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

وفي رواية عن أبي بكر قال: ارتحلنا والقوم يطلبوننا ؛ فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك على فرس له: فقلت -أي: القائل الصديق-: هذا الطلب قد لحقنا. فقال -أي: النبي ﷺ: ((لا تحزن، إن الله معنا)) ورجع سراقة فوجد الناس في الطلب، فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما ها هنا وكان أول النهار جاهدًا عليهما وآخره حارسًا لهما.

ومر نبينا ﷺ في مسيره ذلك بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألاها هل عندها شيء، فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب، وكانت سنة شهباء ؛ فنظر النبي ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ((ما هذه الشاة يا أم معبد؟)) قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. فقال: ((هل بها من لبن؟)) قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: ((أتأذنين لي أن أحلبها)) قالت: نعم بأبي وأمي، إن

رأيت بها حلبًا فاحلبها. فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا، فتفاجت عليه ودرت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانية حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا...

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافًا يتسوكن هزلًا؛ فلما رأى اللبن عجب فقال: من أين لك هذا والشاة عازب ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إني والله أراه أو أراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد. فوصفته بصفاته الرائعة بكلام رائع؛ كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه...

قالت: رأيت رجلًا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه نحله - أي: دقة وهزول وضمور- ولم تزرِ به صعله -أي: صغر الرأس- وسيم، والوسيم: هو من كان حسن الهيئة له سمه، في عينيه دعج -والدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها- وفي أشفاره وطف -والوطف: الشعر النابت على الجفن- وفي صوته صهل -أي: كالبحة، وهو ألا يكون حاد الصوت- وفي عنقه سطع -أي: طول عنق-.

وفي لحيته كثافة، أزج -والأزج: هو دقيق شعر الحاجبين مع طولهما- أقرن - والأقرن: هو متصل ما بين الحاجبين من الشعر، أو هو مقرون الحاجبين- إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق فصل، لا هذر ولا نذر، أي: لا يقول الكلام الهذر الذي لا فائدةَ فيه، ولا يقول الكلام القليل؛ كأن منطقة خرزات نظم يتحدرن، ربع -والربع ليس بالقصير ولا بالطويل- لا بأس من

طول -أي: لا يجاوز الناس طولًا- ولا تقتحمه العين من قصر –يعني: لا تراه العين قصيرًا فتزدريه- غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، وله تبادروا إلى أمره، محفود، محشود -والمحفود: هو المخدوم، والمحشود: هو من يجتمع الناس من حواليه- لا عابس ولا مفند -أي: لا عابس الوجه ولا منسوبًا إلى الجهل وقلة العقل-.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلًا...

فأصبح صوت بمكة عاليًا، يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول:

جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائه ❖ رفيقين قالا خيمتي أم معبدِ
هما نزلا بالهدى واهتدت به ❖ فقد فاز من أمسى رفيق محمدِ
ليهنِ بني كعب مكان فتاتهم ❖ ومقعدها للمؤمنين بمرصدِ
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ❖ فإنكم إن تسألوا الشاة تشهدِ
دهاها بشاةٍ حائلٍ فتحلَّبت ❖ عليه صريحًا ضرةُ الشاةِ مزبدِ
فغادرها رهنًا لديها لحالب ❖ يرددها في مصدرٍ ثم في موردِ

قالت أسماء > : ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذا أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه؛ حتى خرج من أعلاها، قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا؛ حيث توجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدنية.

وفي الطريق لقي النبي ﷺ أبا بريدة، وكان رئيس قومه، خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر؛ رجاء أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التي كان قد أعلن عنها في قريش ولما واجه رسول الله ﷺ وكلمه أسلم بريدة في مكانه، مع سبعين رجل من قومه، ثم

نزع عمامته وعقدها برمحه فاتخذها راية تعلن عن إسلامه، وأن النبي ﷺ قد جاء ليملأ الدنيا عدلًا وقسطا.

ومر ﷺ وصاحبه في الطريق على راعٍ فاستسقياه اللبن؛ فاعتذر بأنه لا لبن في شائه إلا شاة جف لبنها قريبًا، وهنا مسح النبي ﷺ مرة أخرى على ضَرعها، ودعا فرزقهم الله الكثير من اللبن، وكانت هذه آية كافية لتحويل قلب الراعي من الكفر إلى الإيمان، وتوسم فيه ﷺ الكثير من الخير، فأخبره بأنه رسول الله، وطلب الراعي أن يسير معه؛ فطلب منه النبي ﷺ أن يتمهل؛ حتى يسمع بظهور أمره ﷺ وحينذاك يلحق بالمدينة ويهاجر إلى رسول الله.

عن قيس بن النعمان قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين؛ مَرَّا بعبد يرعَى غنمًا؛ فاستسقياه من اللبن، فقال: ما عندي شاه تحلب، غير أنها هاهنا عناقًا حملت أول الشتاء وقد أخدجت وما بقي لها لبن. فقال ﷺ: ((ادعُ بها)). فدعى بها، فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا؛ حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجنٍّ فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب ﷺ فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك قط؟! قال ﷺ: ((أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟!)) قال: نعم. قال ﷺ: ((فإني محمدٌ رسول الله)) فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. قال ﷺ: ((إنهم لا يقولون ذلك)) قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك. قال ﷺ: ((لا تستطيع ذلك يومك؛ فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا)).

ترك النبي ﷺ مكة وهي أحب البلاد إلى نفسه؛ ولذا رأيناه ﷺ حينما ابتعد عن مكة؛ نظر إليها وودَّعها بتلك الكلمات الخالدة، وقال: ((والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت))...

وعن ابن عباس { أنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى مكة ليلة الهجرة: ((ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)).

وقد كانت عناية الله بنبيه ﷺ عظيمه؛ إذ أنزل الله خلال رحلة الهجرة قول الحق تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]. يقول ابن عباس { : والمعاد هي مكة، وفي الآية بشرى لنبينا ﷺ في أنه سيعود إلى مكة ساعة أن يسلم أهلها وتكون دار إسلام.

ومما وقع له في طريقه إلى المدينة: أنه لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام؛ فكسا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياضٍ، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة؛ فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطالوا انتظارهم؛ فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم -والأطم: هو الحصن المبني بالحجارة- بأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب- أي: يلبسون البياض- فلم يملك اليهودي أن قال: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول؛ بل في الثامن من ربيع الأول سنة أربعة عشر من النبوة، وهي السنة الأولى من الهجرة.

نزل بهم ﷺ في بني عمرو بن عوف، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق مَن جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله يحيي أبا بكر؛ حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه؛ فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

لبث نبينا ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة.

ويجب أن ننوه بوجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام كما أمر بذلك نبينا ﷺ فقد كانت الهجرة مفروضة، وقطع بذلك العلماء؛ فإن هذه الهجرة كانت فرضًا في أيامه ﷺ وهي أيضًا باقية مفروضة إلى يوم القيامة؛ والتي انقطعت بفتح مكة إنما هي هجرته ﷺ وهجرة أصحابه؛ ذلك أن مكة لم تعد دار كفر كما كانت في أول الأمر؛ وإنما صارت دار إسلام، ودار أمن وأمان وليست بدار حرب؛ ومما استدل به على وجوبها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

وهذا أيضًا يفضي إلى أن نتحدث عن وجوب نصرة المسلمين بعضهم البعض، وبعضهم لبعضٍ، مهما اختلفت ديارهم ونأت بلادهم، ما دام ذلك مقدورًا؛ ذلك أن أهل العلم اتفقوا على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لم يفعلوا؛ فقد باءوا بإثم وذنب...

يقول ابن العربي: إذا كان في المسلمين أُسَرَاء أو مستضعفون؛ فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن، بأن لا تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك...

وكما تجب موالاة المسلمين وتجب نصرتهم لبعضهم؛ فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم، ولا يجوز أن يشيع شيء من الولاية أو التناصر أو التآخي بين

المسلمين وغيرهم، وهذا ما به صرح كلام الله ﷻ؛ إذ قال -جل من قائل-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣].

يقول ابن العربي أيضًا في كتاب (أحكام القرآن): قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين؛ فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم، ويتعاملون باعتقادهم، ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم وتلك الأوامر الإلهية هي أساس نصرة المسلمين في كل عصر وزمن. كما أن إهمالهم لها وانصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من كل حدب وصوب.

دخول النبي ﷺ المدينة، واستقراره بها

سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ نزل بقباء، وكان ذلك في الثامن من ربيع الأول في عام واحد من الهجرة، وكان ذلك يوافق الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ثنتين وعشرين وستمائة، وفي هذا اليوم تم عمر النبي ﷺ ثلاثًا وخمسين عامًا، وتم على نبوته ثلاثة عشرة عامًا كاملة عند من يقول: إنه أكرم بالنبوة في التاسع من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، أما مَن يقول: إنه أكرم بالنبوة في رمضان سنة واحد وأربعين من عام الفيل؛ فعنده يتم على نبوته في ذلك اليوم اثنا عشر عامًا وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، أو اثنين وعشرين يومًا -على خلاف بينهم.

لما خرج نبينا ﷺ إلى المدينة وعلم أهلها بخروجه، وسمعوا صوت ذلك اليهودي الذي لم يملك نفسه فأخذ يصيح: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون،

يقول ابن القيم وسمعت الرجة والتكبير -أو الوجبة والتكبير- في ديار بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدوم رسول الله ﷺ وخرجوا للقائه ﷺ والترحيب به؛ فأحاطوا به وأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه ﷺ والوحي ينزل عليه؛ قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

يقول عروة بن الزبير: تلقوا رسول الله ﷺ فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، ثم إن النبي ﷺ بقي معهم أربعة أيام: هي يوم الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وأسس ﷺ مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة.

فلما كان اليوم الخامس -وهو يوم الجمعة- ركب بأمر الله -تبارك وتعالى- له وأردف أبا بكر وأرسل إلى بني النجار، أي: إلى أخواله، فجاءوا متقلدين سيوفهم فسار ﷺ إلى المدينة يوم الجمعة؛ فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف؛ فجمع بهم ﷺ في المسجد الذي في باطن الوادي، وكانوا يومئذ مائة رجل، وهذه أول جمعة يقيمها ﷺ في الإسلام بعد هجرته في ديار بني سالم بن عوف وخطب فيهم ﷺ خطبته، عرفهم فيها بربهم، وحثهم على التقوى، وذكرهم بنعم الله ﷻ ونعيمه في الآخرة.

أورد ابن كثير نص هذه الخطبة وفيها يقول ﷺ: ((الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من

الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله؛ فقد رشد، ومن يعصهما؛ فقد غوى وفرط وضل ضلالًا بعيدًا... وصيكم بتقوى الله؛ فإنه خير ما أوصى به المسلم: أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله؛ فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر الستر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله؛ يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك: ﴿سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك؛ فإنه يقول سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية؛ فإنه -كما قال الله-: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]. وإن تقوى الله تعالى توقي مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين؛ فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة، ولا قوة إلا بالله؛ فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد الموت؛ فإنه من أصلح ما بينه وبين الله؛ يكفِه الله ما بينه وبين الناس...)). إلى آخر هذه الخطبة العظيمة المباركة.

ولما صلى نبينا ﷺ الجمعة خرج ؛ حيث اجتمع بنو عمرو بن عوف وقالوا : يا رسول الله ؛ أخرجت ملالًا لنا ، أم تريد دارًا خيرًا من دارنا؟ فقال ﷺ : ((أمرت بقرية تأكل القرى ؛ فخلوها فإنها مأمورة)). وخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة ؛ فوجد الناس قد ملئوا الطرق ومعهم الخدم والصبيان ، وهم يقولون : الله أكبر، جاءنا محمد ، جاءنا رسول الله ﷺ.

يقول أنس بن مالك : إني لأسعى مع الغلمان يقولون : "محمد جاء" ؛ فننطلق فلا نرى شيئًا ؛ حتى أقبل رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر ؛ فكنا في بعض جرار المدينة ؛ فبعث لنا رسول الله ﷺ رجلًا من أهل البادية ليؤذن بذلك الأنصار ؛ فخرج الأنصار واستقبلهما زهاء خمسمائة منهم ؛ حتى انتهوا إليهما ، فقالت الأنصار : "انطلقا آمنين مطاعين" ؛ فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم ، وخرج أهل المدينة ؛ حتى إن العواتق فوق البيوت يتراءيْنَه ويقولون : أيهم هو؟ أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيهًا به يومئذ ﷺ. وعن عائشة > قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ؛ جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا ❖ من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ❖ ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ❖ جئت بالأمر المطاع

وعن البراء > قال : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ. كما في (صحيح البخاري) ويقول أنس > : ما رأيت يومًا قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة...

ثم رأينا النبي ﷺ تلتف من حوله الأنصار ، كل يمسك زمام الراحلة يرجو أن يكون النزول عنده ؛ فكان ﷺ يقول لهم : ((دعوها ، فإنها مأمورة)) ؛ فلم تزل

راحلته تسير في فجاج المدينة، وفي سككها؛ حتى وصلت إلى مربد لغلامين يتيمين من بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري؛ فقال النبي ﷺ: ((هنا المنزل -إن شاء الله- وقرأ قول الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ -[المؤمنون: ٢٩]))، وجاء أبو أيوب فقال له رسول الله ﷺ: ((أي بيوت أهلنا أقرب؟)) فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، وقد حططنا رحلك فيها. قال ﷺ: ((فانطلق فهيئ لنا مقيلًا)) فذهب فهيأ لهما مقيلًا...

يروي الطبراني عن عبد الله بن الزبير: أنه كان هناك عريش يرشونه ويعمرونه ويتبردون فيه؛ حتى نزل فيه رسول الله ﷺ عن راحلته فأوى على الظل؛ فنزل فيه، فأتاه أبو أيوب، فقال: يا رسول الله، منزلي أقرب المنازل إليك؛ أأنقل رحلك إليه؟ قال ﷺ: ((نعم))، فذهب برحله إلى المنزل، فأتاه آخر؛ فقال: يا رسول الله، انزل عليَّ. فقال ﷺ: ((المرء مع رحله حيث كان)).

ثم نزل نبينا ﷺ في منزل أبي أيوب، وقر قراره، واطمأنت داره، ونزل معه زيد بن حارثة > .

يقول عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ انجفل الناس إليه؛ فجئت لأنظر إليه؛ فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب؛ فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال: ((يا أيها الناس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام)).

يقول أبو أيوب: لما نزل رسول الله ﷺ في بيتي؛ كان في السفل وأنا وأم أيوب في العلو؛ فقلت له: يا نبي الله -بأبي أنت وأمي- إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي؛ فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل؛ فقال ﷺ: ((إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت)).

قال أبو أيوب: فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن؛ وكنا نحرص على تحقيق ما يرضيه ويريحه... ثم إنه روى أنه: انكسرت جرة لهم فيها ماء، قال: فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا -ما لنا لحاف غيرها- ننشف بها الماء؛ تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه، فنزلت إليه وأنا مشفق؛ فلم أزل أستعطفه حتى انتقل إلى العلو... قال: وكنا نصنع له العشاء، ثم نبعث به إليه؛ فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده؛ فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة؛ حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه؛ وقد جعلنا له بصلًا وثومًا؛ فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثرًا؛ فجئته فزعًا فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أرَ فيه موضع يدك، وكنت -حينما ترد علينا فضل طعامك- أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك؛ نبتغي بذلك البركة! فقال: ((إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل مناجي؛ فأما أنتم فكلوه)). قال: فأكلناه، ثم لم نضع في طعامه شيء من الثوم أو البصل بعد.

وكان نبينا ﷺ لا يأكل وحده؛ وإنما كان يطعم معه أصحابه، وكان هذا العدد يتراوح بين خمسة إلى ستة عشر رجلًا، حسب كمية الطعام الذي كان يهدى إليه...

وتقوقع الكفار والمنافقون واليهود في المدينة، وأدركوا أن دولتهم قد انهارت بمقدم نبينا ﷺ حتى عبر بعض هؤلاء المنافقين عن حقده وغضبه وحسده على نبينا ﷺ حينما أراد النبي ﷺ أن ينزل على سيد الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، فقال له عبد الله: اذهب إلى الذين دعوك فانزل إليهم. ورفض أن ينزله عنده كراهية له..

لم يأبه نبينا ﷺ بهذه المعارضة من أهل الشرك والنفاق؛ لماذا؟.

لأن الأنصار كانوا كلهم على قلب رجل واحد، وقد اعتذروا له ﷺ عن موقف عبد الله بن أبي، وبينوا له أن سبب ذلك هو ذلك الحقد الذي وجد في قلبه؛ جراء ضياع المجد الذي كان يأمل فيه والتاج الذي كان يريد أن يتوج به...

ويلاحظ أن النبي ﷺ لم ينزل على أحد بطلب منه، ولم يطلب النبي ﷺ من أحد أن ينزل عليه إلا ابن أبي، ولعل هذا من حكمة الله تعالى التي قدر فيها أن يظهر نفاق هذا الرجل منذ أول لحظة؛ ليعلم بذلك النبي طبائع الناس وليتحسس طبيعة الدار التي سينزل فيها...

وأقام النبي ﷺ في بيت أبي أيوب نحوًا من سبعة أشهر؛ حتى أقام بيوتًا لزوجاته -رضي الله تعالى عنهن- وقد أسس النبي ﷺ تسعة أبيات حول المسجد في الجهة الجنوبية والشرقية والشمالية... أخذ النبي ﷺ في تأسيسها بعد الهجرة واحدًا بعد الآخر؛ فبنى أولًا بيتًا لسودة؛ ذلك أنها وصلت > بعد أيام، ثم إنه بنى لابنتيه فاطمة وأم كلثوم، وكذا بنى النبي ﷺ بيتًا ثانيًا لعائشة، وهما زوجتاه حين هاجر ﷺ وبعد ذلك كان كلما أحدث أهلًا بنى بيتًا واستمر هكذا حتى بنى سائر البيوت التسعة.

والأرض التي أقيمت فيها تلك البيوت كانت مملوكة لحارثة بن النعمان الخزرجي، وكان يتنازل لرسول الله ﷺ عن الأرض بقدر الحاجة؛ فكلما بنى النبي بزوجة تنازل الحارث لرسول الله عن أرض لإقامة بيت لها فيه.

إن أول البيوت تأسيسًا هو بيت سودة، وثانيها هو بيت عائشة الذي يلي الروضة مباشرة من جهة الشرق، وفي ذلك البيت المبارك دفن نبينا ﷺ وبعد بيت عائشة كان بيت سودة بنت زمعة > ملاصقًا لبيت عائشة من جهة الشرق، وقد بنى النبي ﷺ بيت فاطمة، وكان خلف بيت عائشة > وقد اتخذ رسول الله طريقًا

إلى بيت فاطمة يعرف بخوخة علي ؛ حيث كان يأتي بابها كل يوم ويأخذ بعاضدتيه ويقول : ((الصلاة الصلاة. ويتلو قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ -[الأحزاب : ٣٣])).

توزعت بيوت أزواج نبينا ﷺ حول مسجده ؛ فأقيم بيت زينب بنت خديجة الهلالية شرق بيت فاطمة وشمال بيت سودة، وأقيم بيت زينب بنت خزيمة وزينب بنت جحش إلى الشرق من بيت سودة وزينب الهلالية، وأقيم بيت حفصة بنت عمر أمام بيت عائشة من جهة الجنوب، وقد أقيمت الحُجَر الباقية خلف المسجد من الجهة الشمالية والشمالية الغربية المواجهة للقبلة.

وكان بيته ﷺ مكونًا من حجرة وفناء ؛ حيث حوائط الحجرة من جريد النخل المغطى من الخارج بالشعر والوبر والمطين من الداخل، وللحجرة باب يفتح على الفناء الموجود أمامها، وللبيت باب مرتبط بالخارج، وقد بلغت مساحة كل واحدة من الحجرة والفناء ثمانية أذرع طولًا وعرضًا، وبذلك بلغ الطول ستة عشر ذراعًا، أي : أن مجموعهما معًا كان مائة وثمانية وعشرين ذراعًا.

ويبدو أن مساحة البيوت لم تكن واحدة ؛ لأن خمسة منها كان مكونًا من فناء فقط، يقول عمران بن أنس : ترك النبي ﷺ أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد وخمسة أبيات مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر، أي : أنها لم تكن على مساحة واحدة.

وقد روى ابن سعد في طبقاته : أن حوائط بيوت النبي ﷺ كانت مكونة من جريد مطين بالطين، وسقفها من الجريد وأبوابها من خشب العرعر الذي كان ينبت في بلاد العرب، وللباب حلقة من ساج، واستدل بعض العلماء بما ورد من أن الصحابة كانوا ينقرون باب النبي ﷺ بأظافرهم على أن الأبواب لم تكن بها

حلقة، إلا أن الظاهر من قولهم: "بأظافرهم": أن الصحابة { كانوا يفعلون ذلك تأدبًا مع رسول الله مخافة إزعاجه إذا ضربوا بأيديهم على الحلقة.

وكانت الحجرة متوسطة الارتفاع، ينال الواقف فيها السقف بيده، وكانت بسيطة الفرش، وقد أعد النبي ﷺ مكانًا خلف بيت فاطمة من جهة الشمال وجعله لمبيت الفقراء، وهو المعروف بمكان أهل الصفة، وأمر الوليد بن عبد الملك واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بهدم حجر أزواج النبي ﷺ وضمها للمسجد فبكى أبناء الصحابة، وقالوا: ليتها تركت ولم تهدم؛ حتى يطلع الناس على البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده.

ولعل في هدم الحجرات أسبابًا من أهمها: عدم الحاجة إليها، والاستفادة بها في توسعة المسجد؛ وحتى لا يتخذها المسلمون مزارًا وعيدًا؛ ولذلك لم يؤثر عن أحد من التابعين إنكارًا، ولم يحدث أن عارض عمر بن عبد العزيز الأمر إليه بالهدم وهو من هو، فعمر > رضي بالهدم ولم ينكره.

وعن عبد الله بن زيد الهذلي قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز والي المدينة بأمر الوليد كانت بيوتًا باللبن، وبها حجر من جريد مطرورة بالطين، عددها تسعة بيوت، وهي ما بين بيت عائشة > إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ.

إذن أحاطت تلك البيوت بمسجد النبي ﷺ وكانت على تلك الحال التي تدعو إلى الزهد في الدنيا؛ قالت عائشة > : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبه، كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبحٌ في أهلهِ ❖ والموت أدنى من شِرَاك نعلهِ

وكان بلال إذ أقلع عنه يرفع عقيرته، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ❖ بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدَنْ يومًا مياه مَجَنَّةٍ ❖ وهل يبدون لي شامةٌ وطفيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك في صاعها ومدها، وانقل حماها؛ فاجعلها الجحفة)).

واستقر النبي ﷺ عند أبي أيوب ليتهيأ لبناء مسجده... قلنا: إن المسجد كان في مربد مملوك لغلامين يتيمين من بني النجار: هما سهل، وسهيل، أبناء رافع بن أبي عمرو، وكانا في حجر أسعد بن زرارة فدعاهما الرسول وساومهما على شراء المربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، واستمر معهما حتى ابتاعه ليكون مسجدًا؛ فلما اشتراه النبي ﷺ أمر بالنخل فقطع، وبالقبور فنبشت، وبالعظام فغيبت، وبالخرب فسويت، وبما فيه من مياه، فجففت وبذا أصبح المكان جاهزًا للبناء فيه، وشرع الصحابة { يعملون في ذلك والنبي ﷺ يرتجز وينقل معهم اللبن ويقول: ((اللهم إن الأجر أجر الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة)) رأى الصحابة رسول الله يضع رداءه ويحمل في بناء المسجد؛ حتى إن صدره اغبرَّ من التراب؛ فوضعوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون، ويقولون:

لئن قعدنا والنبي يعمل ❖ ذاك إذن العمل المضلل

وفي أثناء العمل رأى الصحابةُ عثمانَ بن مظعون < يحمل لبنة ويبعدها عن ثوبه؛ فإذا وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه؛ فإذا أصابه غبار نفضه؛ فنظر إليه عليُّ بن أبي طالب < فقال:

لا يستوي مَن يعمر المساجدا ❖ يدأب فيها قائمًا وقاعدًا
ومن يرى عَن الغبار حائدًا ❖ ....

سمع عمار بن ياسر مقالة عليٍّ فأخذ يرددها وهو لا يدري من يعني بها ؛ فسمعه عثمان بن مظعون ؛ فظن أنه يعرض به ، فقال له : يا ابن سمية ؛ ما أعرفني بمن تعرض؟! وكان مع عثمان جريدة ؛ فقال لعمار : لتكفن أو لأعرضن بها وجهك. أي : ليضربنه بها... سمعه رسول الله ﷺ وقال : ((إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عيني وأنفي ، ووضع يده بين عينيه)). فكف الناس عن عمار ، إلا أنهم قالوا له : إن النبي غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن. فقال عمار : أنا أرضيه كما غضب. فذهب عمار إلى رسول الله ﷺ وقال له : ما لي ولأصحابك؟ فقال ﷺ : ((ما لك ولهم؟)) قال عمار : يريدون قتلي ، يحملون لبنة لبنة ، ويحملون عَلَيَّ لبنتين لبنتين. فأخذ النبي بيده وطاف به المسجد وأخذ يمسح جلد رأسه بيديه من التراب وهو ﷺ يقول : ((يا ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ؛ تقتلك الفئة الباغية ، تدعوهم إلى الجنة ، ويدعونك إلى النار)) قال عمار : أعوذ بالله من الفتن...

وكان الرسول ﷺ يعلم ذلك مما يؤكد أن قول عمار لرسول الله ﷺ : إن أصحابك يريدون قتلي. هي من الدعابة مع رسول الله ليذهب عنه الغضب.

وقد حاول الصحابة أن يستريح النبي ﷺ ويترك العمل فأبى ؛ يقول أسامة بن زيد : إن رسول الله ﷺ خرج ومعه حجر يحمله على كتفه ، فلقيه أسيد بن حضير فقال أسيد : يا رسول الله ، أعطنيه. فأبى رسول الله وقال له : ((اذهب فاحتمل غيره ؛ فإنك لست بأفقر إلى الله مني)).

وكان ﷺ يكِلُ الأعمال التي تحتاج إلى خبرة إلى من يملكها ، وكانت سعة المسجد حين بناه النبي ﷺ أول مرة : سبعين ذراعًا في ستين أو يزيد ، وجعل جُدُرَهُ من

خشب ولم يسطح؛ فلما اشتكى الصحابة الحر والمطر؛ جعل ﷺ جُدُرَهُ من الخشب والسواري من جذوع النخل، وظللوه بالخوص والجذوع؛ فكان الظل، ثم طينوه بالطين فانقطع المطر، وأبقوا وسط المسجد رحبة بلا سقف، وقبلة المسجد كانت أولًا إلى بيت المقدس جهة الشمال، وأسسوا له ثلاث أبواب في مؤخرته: هي باب أبي بكر جنوب المسجد، وهي الآن جهة القبلة، وباب عاتكة، وهو باب الرحمة ويقع غرب المسجد، وباب النبي ﷺ وهو الباب الذي كان يدخل منه ﷺ ويعرف بباب عثمان.

وبعد فتح خيبر أعاد النبي ﷺ بناء المسجد مرة ثانية، وزاد مساحته؛ لأن أبعاده في البناء الثاني صارت مائة ذراع في مائة ذراع، وقام عثمان بن عفان بشراء المساحة الجديدة وأهداها لمسجد رسول الله ﷺ ثم إن النبي ﷺ استمر مسجده على ما تركه عليه إلى أن جاءت خلافة عمر؛ فزاد في مساحته وبناه باللبن والجريد؛ فلما كان عثمان زاد فيه مساحة كبيرة وبنى عُمُدَهُ وجدره بالحجارة المنقوشة وسقفه بالساج...

يروي البخاري بسنده عن ابن عمر: أن مسجد رسول الله ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله من جذوع النخل وأعلاه مظلل بجريده، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر؛ فبناه بجذوع النخل ولم يزد فيه، وزاد فيه عمر وبناه بمواده في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، وأعاد عُمُدَهُ خشبًا، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان؛ فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جُدُرَهُ بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عُمُدَهُ من حجارة منقوشة وسقفه بالساج، ونقل إليه الحصباء من العقيق.

واهتم الخلفاء بعده بمسجده ﷺ فبنوه ووسعوه وكبروه، وفعلوا به ما فعلوا من الزخرفة والنقوش التي تحاشاها رسول الله ﷺ وأعرض عنها خلفاؤه الأربعة }.

الثناء على المهاجرين:

نعم، خرج المهاجرون من أهليهم وأموالهم وأولادهم وبلادهم؛ رغبةً فيما عند الله -تبارك وتعالى- في الدار الآخرة؛ ولذا أثنى الله -تبارك وتعالى- عليهم أعظم الثناء، وذكرهم بإخلاصهم وصبرهم وصدقهم وجهادهم وتضحيتهم، ونصرتهم لله ولرسوله ﷺ فبين إخلاصهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وذكر صبرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢]. وذكرهم بالصدق فقال -جل من قائل عليمًا-: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

ذكر جهادهم وتضحيتهم وأثنى عليهم، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

وذكر نصرتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ في غير ما موضع من كتابه العزيز، وأثنى عليهم بتوكلهم عليه فقال -جل من قائل-: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وبين أنهم ما فعلوا ذلك إلا رجاء رحمة الله -تبارك وتعالى- قال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وبين أن الله تعالى تاب عليهم، ورضي عنهم وذكرهم بحالهم وحالتهم فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]. ثم ذكرهم بالسابقة في الإيمان والعمل فقال -جل من قائل-: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهكذا اختار الله -تبارك وتعالى- هذه الثلة السابقة من المهاجرين من تلك الفريدة النادرة التي اختارها الله ﷻ على عينه، ورباهم ﷺ بنعمه، وجعلهم أهلًا لتكوين قاعدة الإسلام الصلبة؛ ليكونوا مادة الإسلام ووقود الإسلام في صدره الأول، وليكونوا تلك الثلة المحيطة برسول الله ﷺ الناصرة لدين الله -تبارك وتعالى- التي تسن السنن الحسنة التي يبقى أجرها وثوابها، ويبقى ثواب من عمل بهذا إلى يوم القيامة؛ ولهذا ذكرهم الله -تبارك وتعالى- بالفوز فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

نعم... وعدهم الله تعالى وعودًا كثيرة: مغفرة الله تعالى لهم، ورزقه الكريم لهم؛ قال -جل من قائل-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وكما ثبتت فضائلهم، وكثرت مناقبهم، ورضي الله عنهم حيث هاجروا إلى الله وإلى رسوله؛ فإن الوعيد للذين تخلفوا عن الهجرة كان شديدًا، والعقوبة على ذلك كانت بليغة؛ قال تعالى للذين تخلفوا عن الهجرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

عن ابن عباس } قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكان يستخفون بالإسلام؛ فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم؛ فأصيب بعضهم؛ فقال المسلمون: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ الآية. قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون؛ فأعطوهم الفتنة؛ فنزلت فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

وصف الله تعالى الذين تخلفوا عن الهجرة بأنهم ظلموا أنفسهم، وأنهم بتركهم الهجرة حرموا أنفسهم من الإقامة في دار الإسلام، في تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة، وألزموها الحياة في دار الذلة ودار الكفر، تلك الدار الخاسئة المضطهدة التي توعدهم فيها ربهم -تبارك وتعالى-.

وفي هذه الآيات مع الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن ترك الهجرة ونكص عنها، ولم يستثن في ذلك إلا من استضعف؛ كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩].

من دروس الهجرة:

إن الفوائد والدروس والعبر من الهجرة لتجل عن الحصر وتستعصي على العدّ؛ ذلك أننا حيث وجهنا أنفسنا تجاه مروية من مرويات الهجرة، أو حدث من أحداث الهجرة، أو موقف من مواقف الهجرة؛ رأينا الدروس تترى من كل جانب:

الدرس الأول: أن الصراع بين الحق والباطل صراع باقٍ وممتد، وهذه سنة الله تعالى النافذة؛ قال -جل من قال-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

الدرس الثاني: إن مكر الأعداء بالداعية لا يقف ولا ينتهي، وهذا نراه في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، من مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة: أن استخدموا سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة للقضاء على الدعوة والدعاة؛ ولذا رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجِرَيْن حيًّا أو ميتًا.

ولذا فإن من الدروس أيضًا تحمل الأذى: وكان أبو سلمة أول من تحمل الأذى وهو في طريق هجرته إلى الله تعالى وإلى رسوله، وكذا زوجه أم سلمة } والنبي ﷺ وصاحبه لقيا في طريق الهجرة ما لقيا، والمهاجرون جميعًا، كل أولئك كصهيب الرومي وغيره من أصحاب نبينا ﷺ ضحى بتضحية معروفة مشكورة مذكورة... هذه التضحية كانت أيضًا سنة الله ﷻ في أوليائه أنهم يبذلون أنفسهم ونفيسهم في سبيل نصرة الله -تبارك وتعالى- وإعزاز دينه.

الدرس الثالث: أهمية الأخذ بالأسباب، والدقة في التخطيط، والنظر في مآلات الأمور؛ فإن النبي ﷺ خطط للهجرة تخطيطًا دقيقًا... أخذ بالأسباب من ابتدائها

إلى انتهائها، وعمل في مقدماتها ومؤخراتها إلى الوصول إلى ذلك، عندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ دقق في ذلك أعظم تدقيق، ونظم في ذلك أعظم تنظيم...

جاء إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحرب، أخفى شخصيته أثناء مجيئه للصديق، أمر أبا بكر أن يخرج من عنده، وكان الخروج ليلًا ومن باب خلفي في بيت أبي بكر... اتخذ هاديًا مشركًا، وسلك طريقًا غير مألوفة للقوم، وانتقى شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة، ودبر عليًّا لينام في فراشه، وعبد الله بن أبي بكر ليأتيه بالخبر الصادق، وأسماء لتحمل التموين من مكة إلى الغار، وعامر بن فهيرة ليقدم عليهم باللحم واللبن... إلى آخر هذا، وأن يزيل بآثار ما معه من الغنم آثار من يدخل إلى الغار من عبد الله بن أبي بكر وأسماء }.

الدرس الرابع: جواز الاستعانة بالكافر المأمون، ويظهر لنا بجلاء دور المرأة في نصرة الإسلام، وفي هجرة النبي ﷺ.

وفي الهجرة ظهرت معجزات حسية للنبي ﷺ فهذا النبي ﷺ في خيمة أم معبد، ونرى ما نرى من بركاته، ومن أمارات وعلامات ودلائل نبوته ﷺ وهو لا يترك الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- في طريقه؛ لأن بعض الصحابة إنما أسلم والنبي في طريقه حين لقيه ﷺ.

ونرى النبي ﷺ لا يرزأ أحدًا من أصحابه شيئًا -أي: لا يأخذ شيئًا من أموالهم- فأبو بكر يعد الراحلة فيقول له النبي ﷺ: ((آخذها بثمنها)). ويستقر الثمن دينًا بذمة النبي ﷺ. وهذا أيضًا ذلك المكان الذي أراد النبي ﷺ أن يتخذه مسجدًا، يتبرع به الغلامان اليتيمان سهل وسهيل؛ فيقول النبي ﷺ: ((آخذه بالثمن...)).

وهكذا نرى أن النبي ﷺ لم يكن ليرضَى أن يكون في اليد السفلى؛ بل كانت يده ﷺ دائمًا وأبدًا هي اليد العليا؛ فكان ﷺ يعف عن أموال الناس لا يتعرض لها أبدًا؛ بل كان ﷺ هو الذي يعطي ولا يأخذ.

الدرس الخامس: هذه الروح التي كان عليها الصحابة من الجندية الرفيعة؛ بل ومن البكاء فرحًا بالنبي ﷺ تظهر أثر التربية النبوية في جندية الصديق، في جندية علي > وأبو بكر عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة وقال له النبي ﷺ: ((لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا)) بدأ > في الإعداد والتخطيط للهجرة؛ فابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما استعدادًا لذلك، وكان > يدرك بثاقب بصره -وهو الذي تربى ليكون قائدًا- أن لحظة الهجرة صعبة، وقد تأتي فجأة؛ ولذلك هيأ وسيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة رسول الله ﷺ وبكى فرحًا حين أذن له النبي ﷺ بأن يسافر سفر الهجرة معه.

وعلي > يبيت في فراشه، وهو يعلم أن النبي ﷺ يراد للقتل -والعياذ بالله تعالى- فأي جندية أعظم من جندية علي؟! وأي شجاعة أقوم وأعظم وأرجى من شجاعته >.

ولا شك أن هذه الجندية وتلك الروح كانت أثرًا لفن قيادة الأرواح وفن التعامل مع النفوس الذي سُلِّم إلى النبي ﷺ فهو صاحب الريادة والسيادة والقيادة في هذا المجال؛ ذلك أن الحب العميق الذي سيطر على قلب الصديق كان ظاهر الأثر في تصرفاته وأفعاله؛ كما كان حب سائر الصحابة { لنبيهم ﷺ:

فإذا أحب الله باطنَ عبده ❖ ظهرت عليه مواهب الفتاحِ
وإذا صفت لله نية مصلحٍ ❖ مال العباد عليه بالأرواحِ

فما بالنا بنية رسول الله ﷺ؟! وما بالنا بقلبه ﷺ؟!

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء... تستطيع أن تعامل مع النفوس قبل غيرها؛ وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجند؛ وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجند؛ فقد كان ﷺ رحيمًا

شفوقًا بجنوده وأتباعه؛ فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضعفون والمفتونون ومن كانت لهم مهمات خاصة بالهجرة المباركة.

والنبي يعلم في طريق هجرته ألا يترك الإنسان دعوته، وألا يقصر في القيام بواجبه نحو عقيدته... يلقى بريدة الأسلمي في ركب من قومه فيبادئهم بالدعوة ويدعوهم إلى الله؛ فيسلم على يديه ﷺ ذلك الرجل بريدة الأسلمي، ويسلم معه سبعون من قومه، وهذه موعظة بليغة منه ﷺ لسائر الدعاة: أن الدعوة هي قضيته، وأن الدعوة هي رسالته، وأن الدعوة في كل وقت في أحلك الظروف على كل حال؛ لأنها عبادة وقربة إلى الله -تبارك وتعالى- لا يرغب عنها الداعية في وقت، أو مكان، أو زمان، أو في ظرف من الظروف.

الدرس السادس: أن النبي ﷺ ما كان يترك مكافأة أحد أحسن إليه؛ بل كان يبادر إلى الإحسان؛ حيث وجد إلى ذلك سبيلًا... أم معبد التي ذكرنا قصتها وروينا سيرتها، روي أنها كثر غنمها ونما حتى جلبت منها جلبًا إلى المدينة؛ فمر أبو بكر فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك. -يعني: رسول الله، ﷺ فقامت إليه فقالت: يا عبد الله، من الرجل الذي كان معك؟ فقال أبو بكر: أَوَما تدرين من هو؟ قالت: لا. قال: هو نبي الله. فأدخلها عليه -يعني: أدخل المرأة على رسول الله، ﷺ فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها، وفي رواية: "فانطلقت معي، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئًا من أقط ومتاع الأعراب؛ فكساها وأعطاها". قال: ولا أعلمه إلا قال: "وأسلمت". وذكر بعض أصحاب السير أنها هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها حبيش، واستشهد يوم الفتح.

الدرس السابع: الهجرة النبوية كانت خطة تحَوُّل في تاريخ الحياة الإسلامية... نعم، كانت الهجرة من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حول مجرى

التاريخ، وغير مسيرة الحياة، وطور مناهجها التي كانت تحياها وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق، وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات، وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم...

الدرس الثامن: الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا ﷺ بدعًا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر ﷺ من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظًا عليها، ولأجل إيجاد بيئة خصبة تتقبلها، وتستجيب لها، وتذود عنها؛ فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة؛ وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها؛ بل يعوق مسيرتها ويشل حركتها ويعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية؛ لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن مَن بعدهم إذا حِيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده، واعتُدِيَ على مروءته وكرامته.

دروس الهجرة كثيرة، وآثارها جليلة، ومنافعها عظيمة، وما تزال الهجرة تعلم المسلمين دقة الطاعة، وحسن التصرف، وتحمل الأذى، والبذل في سبيل الله - تبارك وتعالى- إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها...

تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، وسيطرة الدعوة في شبه الجزيرة، وتطلعاتها وبداية امتدادها للخارج

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، وامتداد الدعوة في شبه الجزيرة	٦٤٧
العنصر الثاني :	سيطرة الدعوة الإسلامية داخليًّا، وانطلاقها خارجيًّا	٦٦٩

تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، وامتداد الدعوة في شبه الجزيرة

أولًا: تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة:

المجتمع الإسلامي في المدينة:

قدم نبينا ﷺ المدينة بعد ما هاجر إليها المسلمون من مكة، ومن سائر الجزيرة، وأصبح النبي ﷺ أمام وضع جديد يختلف عن وضعه في مكة، ووجد النبي ﷺ مجتمعًا يُسلمُ أمره إليه مع اختلاف عناصره، وتنوع مذاهبه واتجاهاته، وتباين طبقاته المادية والاجتماعية والثقافية.

وجاء المهاجرون ليختلطوا بالأنصار، وليقيموا بينهم وفي دورهم، ووجد النبي ﷺ من الأنصار هذه الحالة التي ذكر الله ﷻ في كتابه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

بالإضافة إلى المسلمين من المهاجرين والأنصار، وُجِد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكان أكثرهم من اليهود كما بقي من المشركين بقايا من الأوس والخزرج، وكان لكل قبيلة نادٍ خاصّ يلتقون فيه.

ثم وجدت فئة أخرى بعد وصوله ﷺ وظهور شأن الإسلام وعلو نجمه، تلكم الفرقة هي فرقة المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام واستبطنوا الكفر. والعياذ بالله تعالى. أنشأ النبي ﷺ هذا المجتمع، وساسه ليكون نواة للدولة الإسلامية.

ومن الجدير بالذكر أن الدولة الإسلامية لم تكن غاية في ذاتها، وإنما كانت وسيلة، وكانت مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله، وكانت هذه الدولة تطلع بمهمات واضحة ظاهرة، منها:

أ. تطبيق أحكام الإسلام في الداخل، وإقامة الحياة الإسلامية على النهج الصحيح.

ب. حماية هذه الدعوة، وحملها إلى الخارج عن طريق البلاغ المبين، وعن طريق الجهاد العام لهؤلاء المشركين.

وعليه؛ فإن هذه الدولة -الدولة الإسلامية- كما أنها لم تكن غاية في ذاتها إلا أنها كانت واجبًا من الواجبات التي يراد منها ما يكون بعدها؛ إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ فمراحل الدعوة الإسلامية تؤدي إلى هذه المرحلة بصورة طبيعية مباشرة؛ إذ تتداخل المراحل في بعضها البعض، ولا غنى للمسلمين عن مرحلة من هذه المراحل، ولكن لكل مرحلة ما يناسبها من الظروف التي يحيا بها المسلمون، ويحيا بها دعاتهم.

بناء المسجد:

ولا شك أن النبي ﷺ أول ما بدأ، بدأ ببناء المسجد الذي يربط بين هذه القلوب، ويؤلف بين هذه الأنفس التي تباينت مشاربها، وضع نبينا ﷺ أساس مسجد قباء، ثم وضع أساسًا لمسجد بني سالم بوادي "رانوناء".

وفي المدينة اشترى ذلك المربد -الذي بركت فيه القصواء- من غلامي بني النجار بعشرة دنانير، وأخذ ﷺ يبني مسجده بناءً بسيطًا يشترك في بنائه بنفسه؛ فكان يحمل اللبنات في ثوبه، وعلى صدره فيحذو المسلمون حذوه، ثم بنى بعدئذ بيتًا له بجوار المسجد.

كان هذا المسجد عبارة عن ساحة مكشوفة إلى السماء تحيط بها جدران من اللبن، ثم سقف عليه ﷺ بالجريد على عمد من خشب النخل اتقاء للشمس، ومنذ ذلك الوقت وضعت أسس تخطيط المدن الإسلامية؛ المسجد أول ما يكون في هذه المدائن من الأبنية يتكون من صحن وسقف، ثم منبر، كان هذا المسجد مركزًا لصلاة المسلمين، ومنتديًا من أهم منتدياتهم، ومركزًا للتعليم، ودارًا للندوة، ومكانًا للتشاور، ومؤتمرًا تعقد فيه اللقاءات، ويلتقي فيه الوفود، ويقدم فيه القادمون إلى المدينة؛ لينهلوا من علم النبي ﷺ.

تنظيم الإخاء بين المسلمين:

تبع ذلك مباشرة: تنظيم الإخاء بين المسلمين -أي بين المهاجرين والأنصار- ولم تكن المؤاخاة فقط بين المهاجرين والأنصار، بل كانت المؤاخاة تتم قبل ذلك بين المهاجر والمهاجر، فقد آخى النبي ﷺ بينه وبين علي، وآخى بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن مسعود، وآخى بين عمه حمزة وبين زيد بن حارثة، وكل أولئك من المهاجرين. ابتدأت المؤاخاة في مسجد رسول الله ﷺ عند أول مجيئه، وكانت تتجدد كلما ظهر مسلم جديد، وجاء المدينة مؤمن مهاجر.

يقول ابن إسحاق: "آخى النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، تآخوا في الله أخوين، ثم أخذ بيد علي فقال: ((هذا أخي)) فكان رسول الله ﷺ سيدُ المرسلين، وإمامُ المتقين، ورسولُ رب العالمين الذي ليس له خطير، ولا نظير من العباد، وعليٌّ بن أبي طالب < أخوين".

وضرب المهاجرون والأنصار أعظمَ المُثُل في هذه الأخوة، وتحفظ لنا كتب السيرة: أن عبد الرحمن بن عوف لما قدم المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالًا؛ فأقسم لك نصف

مالي، وانظر: أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجها. فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق "بني قينقاع". قال: فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن ثم تابع الغدوة، فما لبث أن جاء عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة من زعفران؛ فقال رسول الله ﷺ: ((أتزوجتَ؟)) قال: نعم قال: ((ومن؟)) قال: امرأة من الأنصار.

فهكذا وجدنا عبد الرحمن بن عوف < يتزوج من هذه المرأة بعد قليل من مجيئه إلى المدينة، ثم إن النبي ﷺ سأله: ((ما أصدقتها؟)) قال: زنة نواة من ذهب - أو قال: نواة من ذهب- فقال ﷺ: ((أولم ولو بشاة)).

وهكذا نجد أن الفضل بين المهاجرين والأنصار دائر، وأنهم } كانوا على أحسن ما تكون الأخوة، بل لا يعرف التاريخ ما يشابه هذه الأخوة العظيمة.

عن أنس بن مالك < قال: مر أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار، وهم يبكون، وذلك في مرض رسول الله ﷺ الأخير فقالوا: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك فخرج النبي ﷺ وقد عصب رأسه بحاشية بُرْدٍ؛ فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي)) أي: بطانتي ((وعيبتي)) أي: خاصتي ((وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)).

وعن أنس قال: ((أن النبي ﷺ رأى صبيانًا ونساءً مقبلين من عرس فقام النبي ﷺ منتصبًا لهم، فقال: اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم من أحب الناس إليّ)) قال ذلك ثلاث مرات ﷺ.

أقام النبي ﷺ هذه الصورة الرائعة في ذلك الجيل المتفرد من حياة الأمة الإسلامية، أولئك الذين جعلوا حياتهم لله فساروا بأمره، واتبعوا منهجه، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، عاشت آمالهم وأحلامهم وأعمالهم كلها بفضل الله ورضوانه محفوظة بحفظ الله -تبارك وتعالى.

تحليل الوثيقة:

وهناك صورة أخرى -من صور الحياة في ذلك المجتمع الأول- هي صورة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن لفّ لفهم، ودار في فلكهم من الذين لم يسلموا من الأوس والخزرج، وادعهم النبي ﷺ وسالمهم، واعتبرهم رعايا في دولته الجديدة، وكتب كتبًا بينه وبينهم، واشترط فيها عليهم: ألا يمالئوا عدوه، وأن ينصروه على من دهمه، ومن ذلك الكتاب الذي أثبته ابن إسحاق في سيرته، ويعتبر هذا بمثابة الوثيقة -أو بمثابة الدستور- التي تحدد العلاقات بين رعايا الدولة الإسلامية في المدينة من مسلمين، ويهود ونصارى.

هذه الوثيقة تناولت بنودًا كثيرة في تنظيم العلاقات الداخلية والخارجية؛ ذلك أن هذه الوثيقة نصت على اعتبار المسلمين جميعًا بالإسلام أمة واحدة، وأن ذمتهم واحدة، وأن سلمهم واحد، وأنهم متساوون في الحقوق والواجبات، وأنه يجب عليهم أن يكون بينهم من التعاون التام والالتئام ما يقيم شأن هذه الجماعة، فالنبي ﷺ يقرر لهم أن ذمة المؤمنين واحدة، وأنه يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي لبعض، كما كفلت الوثيقة لمن يُسلم من اليهود أن يتمتع بما للمسلمين من حقوق وواجبات؛ فقالت: "أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصَرين عليهم".

قررت الصحيفة أيضًا حرية التدين لجميع رعايا الدولة الإسلامية ؛ فتركت لليهود حرية أن يدينوا بما شاءوا ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، وهذا تقرير بأن لكل أحد في هذه الدولة أن يعتقد ما شاء ، وأن يدين الله -تبارك وتعالى- من غير إكراه ولا إلجاء.

كما بينت الصحيفة وسيلة فض المنازعات والخصومات بين رعايا الدولة الإسلامية ، وتركت الأمر لله ولرسوله ؛ لأن الرسول ﷺ هو الرئيس العام لسكان المدينة ؛ تعرض عليه القضايا ، وتنزل بساحته الخصومات ليفصل فيها ﷺ ويصدر الناس عن هذا الحكم البات النهائي القاطع للنزاع.

خصت الصحيفة اليهود بحقوق وواجبات ؛ فاليهود تابعون للمؤمنين ينصرونهم ولا يُظلمون ، ولا يُتناصر عليهم ، واليهود عليهم النصح والنصيحة ، والبر دون إثم ، ولا يخرج أحدهم من المدينة إلا بإذن محمد ﷺ.

مواقف اليهود من الدعوة :

لكن اليهود لم يقبلوا هذه الوثيقة ؛ ذلك أن عقيدتهم مغلقة على نفسها ، تعاليمهم متشددة ، ورأوا أن الإسلام يهدد مصالحهم الاقتصادية ، ويقضي على زعامتهم في الجزيرة العربية ، وكانوا يطمعون أن يضموا النبي ﷺ إلى صفوفهم ؛ فيزدادوا به على النصارى قوة ومنعة ؛ فوافقوا على ذلك العهد ، لكن لما رأوا المسلمون يزدادون شوكة وقوة ، وأن بعض اليهود دخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- واعتنقوا الإسلام ، ورأوه الحق ؛ خشي أحبارهم أن يتسع انتشاره بين قبائلهم ؛ فبدءوا بشن حملات العداوة ضد الإسلام ورسوله ؛ ليحولوا دون إيمان كثير من اليهود ، وليعضدوا شوكة المنافقين ، وليقووا أثرهم في مجتمع المسلمين ، وانتصب جمع من يهود لمعاداة النبي ﷺ ولمعاداة دعوته.

وقد ذكر ابن إسحاق عددًا من مشاهيرهم الذين تولوا كبر مقارعة الدعوة الإسلامية، والرسول بغيًا وحسدًا، فذكر من يهود عددًا من بني النضير، ذكر: اثني عشر حبرًا، ومن يهود ثعلبة ذكر حبرين، ومن بني قينقاع: اثنين وثلاثين حبرًا، ومن بني قريظة: سبعة عشر حبرًا، ومن زريق: حبرًا، ومن بني حارثة: حبرًا، ومن بني عمرو بن عوف: حبرًا، ومن يهود بني النجار: حبرًا.

ولما أمر الله المسلمين بالتوجه إلى الكعبة في صلاتهم نشط اليهود مع المنافقين والمشركين في الطعن، وتشكيك المسلمين في دينهم؛ بأن أنكروا عليهم إذ ولوا وجوههم شطر البيت الحرام حتى قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] حاولوا أيضًا إيقاع الثارات وإثارة الفتن والخلافات بين الأوس والخزرج، كل ذلك والنبي ﷺ يقضي على هذه النعرات، وينهي هذه الخلافات، وينهى عن هذه المؤامرات؛ فتارة يقول: ((أبدعوى الجاهلية؟ وأنا بين أظهركم)) وتارة ينزل قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

الغزوات والسرايا الأولى:

وانتقل النبي ﷺ بعد وضع بذرة هذه الدولة الأولى إلى الغزوات والسرايات، وكانت الغزوات والسرايا الأولى بمثابة إعلان قوة لهذه الدولة الفتية، وكانت قريش ويهود المدينة من أشد هذه العقبات التي تعترض قيام هذه الدولة، وكما كانت تعترض قيام الدولة؛ فإنها كانت تعترض قيام الدعوة أيضًا؛ فكان من الأهمية بمكان أن تُقتحم تلك العقبات؛ وأن تزال تلك الحواجز، فالنبي ﷺ ما

إن استقرت أقدامه في المدينة حتى بدأ يرسل السرايا في مرحلة مبكرة من وصوله المدينة.

والسرية هي ما لم يخرج فيها النبي ﷺ بنفسه أو خرج ولم يحارب، بلغت السرايا في حياته ﷺ أربعًا وعشرين سرية.

وأما غزواته ﷺ فبلغت ثمانية عشرة غزوة، وكان من أهداف تلك السرايا في تلك المرحلة المبكرة تحصين المدينة، وتقوية شوكة المسلمين، واعتراض قوافل قريش لضربها في أهم مواردها الاقتصادية فتضعف، ويتمهد السبيل لضربها عسكريًّا، كما هدفت هذه السرايا إلى إرهاب أهل الكتاب خاصة، وبالأخص منهم إرهاب يهود المدينة حتى تسول لهم أنفسهم الطمع في المسلمين، خرج زعيم النصارى في المدينة -وهو أبو عامر الراهب- مغاضبًا إلى مكة يحرض قريشًا على قتال النبي ﷺ ومعه عدد من فتيان الأوس.

أجل حاول أهل الكتاب جهدهم إشعال نار الحرب بين المسلمين في المدينة، وبين قريش في مكة ظنًّا منهم أن الإسلام في فترة تأسيس دولته كان يمكن أن يُقضى عليه في المهد، وأن توأد دعوته، ولو انتقل بها النبي ﷺ من مكة، ومن بين قرش إلى المدينة في بيوت الأنصار.

هدفت تلك السرايا الأولى أن تستطلع أخبار قريش، وأن تستطلع أخبار القبائل العربية في الجزيرة، وأن تعقد بعض الاتفاقات مع تلك القبائل، ومعرفة موقف كل منها تجاه الإسلام، وتجاه نبيه ﷺ.

والمدقق في أمر هذه السرايا والغزوات الأولى يلحظ أن: النبي ﷺ كان يقصد من جهةٍ استثارة قريش، ومن جهة أخرى يعطل تجارتهم تمهيدًا لمهاجمة مكة، وهذا هو الغرض الاستراتيجي البعيد.

ورأينا النبي ﷺ يوادع بعض القبائل ؛ ففي غزوة "الأبواء" وادع بني ضمرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ، ولا يعينوا عليه أحدًا ، ووادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة في غزوة ذي العشيرة ، وكانت استراتيجيته ﷺ في سراياه وغزواته تعتمد الحذر الدائم والحرص على أن يعرف من أخبار القبائل ما يمكنه من تدبير أمره ؛ وذلك لإقرار هيبة دولته الفتية في نفوس البدو الذين يحيطون بالمدينة من كل جانب ، وهو أيضًا تأمين للمدينة من ما يمكن أن يقع من أولئك الأعراب من غدر ، أو عدوان ، أو خيانة.

الغزوات الكبار: كانت ثمانية : "بدر" ، و"أحد" ، و"الخندق" ، و"خيبر" ، و"الحديبية" ، و"الفتح" ، و"حنين" ، و"تبوك" ، وفي شأن هذه الغزوات أنزل الله ﷻ قرآنًا يتلى ؛ ففي بدر نزل من سورة "الأنفال" ، وفي أحد نزل من سورة "آل عمران" ، وهكذا نرى في قصة الخندق ، وقصة بني قريظة نزل صدر سورة "الأحزاب" ، وفي بني النضير نزلت سورة "الحشر" ، وفي قصة الحديبية وخيبر نزلت سورة "الفتح" وفي فتح مكة نزلت سورة "النصر" ، وذكرت "تبوك" في سورة "براءة" .

والنبي ﷺ قاتل في كل ، وجُرِح ﷺ في "أحد" فقط ، وقاتلت معه الملائكة في "بدر" و"حنين" و"أحد" -على اختلاف في الثالثة- ونزلت الملائكة يوم "الخندق" فزلزلوا المشركين وهزموهم ، ورمى النبي ﷺ بالحصباء في وجوه المشركين فهربوا ، وكان الفتح في غزوتين "بدر" ، و"حنين" ، وقاتل المسلمون بالمنجنيق في غزوة واحدة ، وهي "الطائف" ، وتحصنوا بالخندق في غزوة واحدة هي "الأحزاب" ، وهو ذلك الخندق الذي أشار به سلمان > .

أسباب وقوع تلك السرايا والغزوات قبل "بدر" : فقد أراد النبي ﷺ أن يقوي المدينة ، وأن يشد من أزر المسلمين ، وأن يقوي من جأشهم ومن ثباتهم والله -تبارك وتعالى-

ذكر حالتهم في مكة، وذكروا حالتهم لما هاجروا فقال -جل من قائل-: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] ولما شرع الله ﷻ وأذن فيه -تبارك وتعالى- أذن للمسلمين أن يتقووا بعد ضعف، وأن يتكثروا بعد قلة، وأن يزيلوا تلك القوة الغاشمة التي لا تقبل إلا بمنطق القوة، والسيف، ولهذا قالوا: "لا يفُل الحديد إلا الحديد"؛ فالضعيف لا يتعامل مع الجبابرة، والعاجز لا يقدر على المواجهة، والخائف لا يستمسك السيف بيده، وأما القوي إذا انضاف إلى قوة بدنه قوة التقوى؛ فإنه أقدر الناس على المواجهة، وأصبر الناس على القتال، والله -تبارك وتعالى- قد قضى لدينه أن ينتشر، وقضى للناس أن يسعدوا بهذا الدين؛ ولذا كان ضروريًّا أن ينطلق الإسلام بين الناس، والدعوة إلى الله، ولا يتحقق هذا إلا بإزالة العقبات التي تقف دونه ومن حوله في مختلف الأرجاء والأنحاء.

لذا كان النبي ﷺ يستبق الأحداث، ويبحث عن تلك الغنائم التي تقوي المسلمين، وتعوض المهاجرين عما فقدوه في بيوتهم وأموالهم التي خلفوا وراءهم بمكة، حتى كانت تلك القافلة التي خرج فيها جمع من رجالات قريش البارزين، وكانت سلامتها تهم كل مكة لصلتها بهذه القافلة بشكل أو بآخر، ورأينا النبي -عليه الصلاة، والسلام- يخرج لتلك القافلة مع جماعة معه لا يزيدون عن أربعة عشر وثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار } لم يروا أنهم يقاتلون، ولا أنه يكون هناك قتال إلا مع رجال تلك القافلة.

لما علم أبو سفيان بالأمر احتاط لنفسه، وأرسل إلى قريش يستنفرها، واتجه هو بالقافلة إلى طريق الساحل؛ فجعل بدرًا على يساره فنجا بالقافلة، ولما نجا أرسل إلى قريش ينهاهم عن المضي إلى بدر لمحاربة المسلمين لكن العناد، والصلف

النجس الذي اتصف به مشركو مكة جعل أبا جهل يصر على أن ترد قريش بدرًا حتى تسمع بهم العرب فيهابونهم إلى الأبد.

وهذا ما أرادوه ودبروه، وما قضى الله -تبارك وتعالى- سابق على ما أبرموه، ومضى الأمر على غير هوى من المسلمين ولا رغبة ولا استعداد، لكن الله -تبارك وتعالى- قد قضى وقدر أن يكون هذا اليوم أول أيام النصر، وأن يكون هذا اليوم هو ذلك الذي يفرق الله ﷻ فيه بين الحق والباطل؛ فكان يوم الفرقان كان يوم أن التقى الجمعان؛ فأعز الله الإسلام وأهله، وأذل الله ﷻ الشرك وأهله، وخرج المسلمون منتصرين مظفرين في هذه المعركة العظيمة التي كانت بمثابة النصر المبين.

ومن نتائج تلك السرايا والغزوات في أول الإسلام: أنها أدت إلى تغيير كثير من المفاهيم، وهاب العرب شأن المسلمين، وابتعدوا عن كثير من العدوان، وعن كثير من العصيان الذي كان يتصور أن يقع منهم، وحين نعلم أن السرايا والغزوات بدأت بعد الهجرة بسبعة أشهر، واستغرقت عشرة أشهر تقريبًا قبل بدر يظهر لنا -ولكل عاقل- مدى تلك الشجاعة التي اتصف بها المسلمون، ومدى ذلك الاستعداد الذي تحقق في نفوسهم، ومدى ذلك البذل وتلك التضحية، والطاعة لرسول الله ﷺ.

وقعت السرية الأولى في شهر رمضان من السنة الأولى، ووقعت الأخيرة في شهر رجب من العام الثاني، وحين نعلم ذلك ندرك مدى حيوية المسلمين، ومدى نشاطهم، وحركتهم التي أذهلت العرب جميعًا في الجزيرة العربية.

قد أدت هذه السرايا إلى تفتح أذهان الناس، وتطلعهم لمعرفة شيء عن الله الذي يدعو إليه محمد ﷺ بعدما كانوا عنه منصرفين، وأدى هذا إلى كثير من اتقاء الناس، وتقابلهم، وسماع بعضهم من بعض.

ولما نصر الله تعالى الإسلام في "بدر" تُوِّج ذلك بدخول عدد كبير من أولئك المتسائلين أو المتحيرين في دين الله -تبارك وتعالى.

ولقد اشترك المهاجرون في هذه السرايا، وكان هذا هو الغالب، وأما في غزوة بدر، وما بعدها فكان الأنصار مع نبينا ﷺ وذلك لأن المهاجرين وحدهم أصحاب الحق، وعليهم وحدهم أن يعملوا لاسترداده، ولم يكن مما عقد النبي ﷺ مع الأنصار أن يخرجوا معه خارج المدينة، وإنما كان عقده معهم: أن يحموه مما يحمون أزرهم ونساءهم وأطفالهم، يعني: كانوا لا يقاتلون خارج المدينة.

بهذا رأينا النبي ﷺ يحقق من وراء تلك السرايا والغزوات مصلحة عظيمة للإسلام ولجنده البواسل، ولكن رأينا في هذه المرحلة ظهور كثير من دسائس اليهود، وكثير من الفتن، فكانوا شوكة في ظهر المسلمين، وهكذا أدى انتصار المسلمين الحاسم في غزوة بدر الكبرى، واتساع مجال الدعوة الإسلامية إلى تهييج اليهود.

تطهير المدينة من اليهود:

وأول ما وقع كان من "بني قينقاع"، وكان نقضًا للعهد منهم بشكل جماعي، وقصة "بنو قينقاع" قصة شهيرة معروفة، بعد أن انتصر المسلمون في بدر- قالوا: لم يلقَ محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالًا لا يشبهه قتال أحد، وأظهروا نقض العهد فجمعهم النبي ﷺ في سوق الصاغة وحذرهم؛ فقالوا: "يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس".

يظهر من حديثهم أنهم كانوا مستعدين للحرب، وللقتال، وأنهم كانوا أصحاب حصون ومعاقل، وكانوا تجارًا وأهل مال وسلاح، وكانوا يعتمدون على

حلفائهم من المنافقين من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول إلى الخزرج، وهكذا بدأ تحرشهم للمسلمين إلى أن وقعت تلك الشرارة التي أشعلت الحرب بينهم وبين المسلمين، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في شوال من السنة الثانية من الهجرة فحاصرهم في دورهم، وأشرك معه عبد الله بن أبي ليكون تحت سمعه وبصره؛ فحال بينه وبين نصرتهم ونجدتهم، واستمر أمر الحصار وتلبث يهود، وانتظروا خمس عشرة ليلة حتى داخلهم اليأس، فنزلوا على حكمه ﷺ فجاء عبد الله بن أبي يشتد في طلبه من الرسول قائلًا: "أحسن في موالي؛ أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع؛ قد منعوني من الأسود والأحمر تحصدهم في غداة واحدة، إني والله لا آمن، وأخشى الدوائر" فقال ﷺ: ((هم لك)) وأمر بإجلائهم عن المدينة فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصاري -وقيل: بل عبادة بن الصامت- وألحقوهم بأذرعات من أرض الشام.

وهكذا جاءت أخبار تطهير المدينة من اليهود تترى؛ فهذا كعب بن الأشرف -كان أحد الرءوس الذي يحرك القبائل، وكان يشجعها على غزو المدينة -وكان شاعرًا فاجرًا- لما جاءته أخبار هزيمة قريش في بدر، ومقتل أشرافهم قال: "والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم؛ لَبطن الأرض خير من ظهرها"، وخرج إلى مكة ليؤكد الحلف الذي يربط اليهود بمشركي قريش، وجعل يحرض على رسول الله بالشعر، ويبكي أصحاب "القليب" من قريش الذين أصيبوا ببدر.

ولما عاد إلى المدينة جهر بعدائه، وشبب بنساء المسلمين كأم الفضل بنت الحارث وغيرها، فاشتد أذاه بالمسلمين وبرسول الله، فكان لا بد من إزالته من وجه الدعوة الإسلامية، وإزالة عدوانه على شخص رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ((من لي بابن الأشرف)) فقام بقتله محمد بن مسلمة مع أربعة من الأنصار على رأس خمسة وعشرين شهرًا من الهجرة النبوية، وكان لمقتله أبلغ الأثر، وقد خاف اليهود، وفزعوا.

وهكذا أجلى النبي ﷺ بعد هذه القصة بني النضير الذين حاولوا تشجيع القبائل الوثنية على مهاجمة المدينة، وقاطعوا المسلمين اقتصاديًّا، وفعلوا ما فعلوا حتى قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وفي غزوة بني قريظة تمكن يهود خيبر من تجميع الأحزاب لغزو المدينة، كما تمكن حيي بن أخطب من إقناع كعب بن أسد -زعيم بني قريظة- فضمه إلى الأحزاب بعد أن قال له: "جئتك بعز الدهر..." إلى آخر ما قال، ومع أن هؤلاء القرظيون ترددوا في نقل العهد بينهم وبين الرسول ﷺ إلا أنهم اندفعوا بعد ذلك عندما أيقنوا بالشدة التي واجهها المسلمون يوم الأحزاب، وبأن النصر لا محالة لأهل الشرك؛ فقال: لا عهد بيننا وبين محمد ﷺ ولا عقد فوقعت الدعوة الإسلامية في محنة هددتها بالزوال؛ فلما زالت الغمة وانكشفت، وارتحل الأحزاب عن المدينة، وارتحل النبي ﷺ حالا إلى بني قريظة لمعاقبتهم على خيانتهم، وردهم فأذن النبي ﷺ في الناس: ((من كان سامعًا مطيعًا؛ فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة)).

وهكذا اجتهد النبي ﷺ في إجلائهم وفي إزالتهم، وكان من ذلك ما كان مما قصه الله تعالى علينا في القرآن، قال -جل من قائل-: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وبهلاك بني قريظة لم يبق نفوذ لليهود في المدينة، ولا في أطرافها، ولم تبقَ لهم في الحجاز قوة إلا قوتهم في خيبر التي أصبحت ملجأ لكثير من الحانقين على الدعوة الإسلامية؛ فقام النبي ﷺ بإجلاء بقية اليهود من المدينة، كيهود "بني

حارثة" بعد أن سمع بتأهب بني النضير، ويهود خيبر بحملة يهودية خالصة اقترحها سلام بن مشكم لغزو رسول الله ﷺ في عقر داره، وبذا أمنت المدينة مكرهم، وأُفرد المنافقون، وجُردوا من قوات يهود، فتمكنت المدينة من أن تشع بالدعوة إلى الجزيرة بأسرها، ثم إلى العالم جميعه دعوة صافية نقية من كل شوب خالصة من كل كدر.

ثانيًا: امتداد الدعوة في شبه الجزيرة، وتطلعاتها إلى الخارج:

حاول أعداء الإسلام أن يقضوا عليه بكل سبيل، وجعلوا بعد "الخندق" و"قريظة" يحاولون محاولات كثيرة تارة بالدسائس وتارة بالهجمات، والنبي ﷺ يحول دون تجمعهم مرة أخرى كما فعلوا في الأحزاب لمهاجمة مركز دولة الإسلام؛ فيوجه الضربات للقبائل، ويشغل اليهود بأنفسهم عن محاولة غزو المدينة، ومع كل ضربة كان يوجهها إلى القبائل الوثنية كانت الدعاة إلى الله يكسبون الأنصار الجدد بالدعوة من داخل هذه القبائل.

وقد رأينا النبي ﷺ يضرب بني لحيان من هذيل بعد ستة شهور من بني قريظة؛ لينتقم لخبيب وأصحابه } الذين أوقع بهم ذلك الحي من العرب فقتلوهم واغتالوهم، وحاولت غطفان -حليفة يهود الكبرى- القيام بغارات على المدينة بزعامة عيينة بن حصن الفزاري، فقام عيينة بغارة على إبل للنبي ﷺ كانت ترعى في موقع يقال له: "الغابة" بالقرب من المدينة، وكان يرعاها ابن أبي ذر الغفاري، وامرأته "ليلى" فقتلوا الرجل، وأخذوا المرأة مع الإبل وهربوا، فاستنقذها النبي ﷺ فيما تسمى بغزوة "الغابة"، وقام بتوجيه الفدائيين باغتيال رءوس الكفر من اليهود ليشغلهم بأنفسهم ليتخلص المسلمون من بعض أولئك

الأئمة في الكفر؛ كابن أبي الحقيق من أولئك الزعماء الذين حاولوا الكيد للإسلام وأهله.

وابن أبي الحقيق هو سلام بن مشكم بن أبي الحقيق، يكنى بأبي رافع، ويعرف بعبد الله بن أبي الحقيق، والذي سماه عبد الله هو قاتله عبد الله بن عتيك، وهو أحد زعماء بني النضير الذين خرجوا إلى "خيبر" بعد "أحد" وكان من الأعداء الألداء للنبي ﷺ وقد بدت عداوته بعدما علم بمقتل مقاتلة بني قريظة حيث قال: "هذا كله عمل حيي بن أخطب، لا قامت يهودية بالحجاز أبدًا".

وصاح نساء "بني قريظة" وأقمن المآتم، وفزعت اليهود إلى سلام ليروا رأيه، فقال: عليهم بأن يسيروا معه، ومعهم يهود "تيماء"، و"فدك"، ووادي "القرى"، ولا يجلبوا معهم أحدًا من العرب حتى يغزوا محمدًا في عقر داره، فوافقوه على ما رأى، وأخذ يعد العدة لذلك.

يقول ابن إسحاق: لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف رغب الخزرج في قتل بن أبي الحقيق؛ لينالوا ثواب قتله، وحتى لا يسبقهم الأوس في فضل، ولأنه أشد عداوة لرسول الله من كعب، وحتى لا تستمر مؤامرته على محاربة المسلمين، فاستأذنوا رسول الله؛ فأذن لهم.

وقد روى البخاري قصة مقتله وبين في هذه القصة: كيف كانت شجاعة الخزرج في قتل ذلك الشيطان المريد، حتى إن عبد الله بن عتيك قال: فدخلت فكمنت - أي: له- داخل الحصن، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على وتد، فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر له، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه؛ فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقته عليّ من داخل، فقلت: إن القوم إذا نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله

فانتهيت إليه ؛ فإذا هو في بيت مظلم ، وسط عياله لا أدري أين هو من البيت فقلت : أبا رافع حتى أعرف مكانه من صوته ، قال : من هذا؟ قال : فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف ، وأنا أدهش فما أغنيت شيئًا ، وصاح ، فخرجت من البيت ، ومكثت غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت بصوت آخر : ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال : لأمك الويل إن رجلًا في البيت ضربني قبل بالسيف فعلمت أني ضربته ضربة أثخنته ، ولم تقتله فوضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة السلم فوضعت رجلي ، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض.

فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي ، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته أم لا ، فلما صاح الديك قال الناعي على السور فقال : أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء النجاء ؛ قتل الله أبا رافع. فلما انتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال لي : ((ابسط رجلك)) فبسطت رجلي فمسحها ، فكأنها لم أشتكها قط.

بهذا رأينا النبي ﷺ يؤمن الدولة ويطهرها ممن حولها من أهل الشرك من الأعراب تارة الذين مردوا على السلب والنهب ، ومن هؤلاء اليهود تارة الذين مردوا على الخيانة والغدر. وظهر النفاق جليًّا في هذه المرحلة ، ونزلت الآيات الكريمات تعلم المسلمين خطرهم ، وتنبه المسلمين على شرهم وفتنتهم.

هدنة الحديبية :

فكر النبي ﷺ في دخول مكة معتمرًا ليحقق عمليًّا شعيرة من شعائر الدعوة الإسلامية ، فبدأ الدعوة إلى العمرة ، ولم يقصد هذه الدعوة على المسلمين فقط ، بل شمل كل من شمل بذلك كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي

تشارك المسلمين تعظيم البيت، والسعي إليه فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه كفار قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها.

وكان النبي على يقين أن قريشًا ستمنعه من أداء عمرته فسعى على أن يظهر المشركين بمظهر المعتدي الذي يصدّ عن بيت الله من جاء معظمًا له. وفي الوقت نفسه تدرك العرب احترام الإسلام للكعبة وللبيت الحرام، وتعظيم النبي ﷺ للحج والعمرة.

لقيت دعوته ﷺ استجابة سريعة من جمع من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فخرج بهم، وبمن لحقهم من الأعراب حتى بلغ عددهم ألفًا وأربعمائة، ليس معهم سلاح إلا السيوف، وكانوا في هذا إنما جاءوا معظمين لبيت الله الحرام يسوقون الهدي كدليل واضح أنهم لا يريدون حربًا، وإنما جاءوا ليؤدوا العمرة، وأحرم بهم النبي ﷺ من "ذي الحليفة"، ولبى قائلًا: ((لبيك اللهم لبيك)).

فلما علم المشركون بذلك اشتد ذعرهم، وزاد خوفهم، ومنعوا النبي ﷺ من أن يدخل مكة بأي ثمن، واستنفرت قريش والأحابيش وحلفاؤهم، وجعلوا يرسلون مجموعة من فرسانهم يقودهم خالد بن الوليد؛ ليصدوا المسلمين وليعقوهم، فتحاشى المسلمون طريق خالد، وسلكوا مسلكًا آخر بعيدًا عن عيون القرشيين إلى أن وصلوا إلى ذلك الموضع الذي يقال له: الحديبية، فأقاموا به، وبدءوا يتعرضون لرسول الله ﷺ ويرسلون إليه الرسل، والنبي يؤكد: ((إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس؛ فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا)) أي: استراحوا ((وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره)).

وهذه محاولة من النبي ﷺ ليُكوّن رأيًا عامًّا يقبل السلم في قريش، والعرب فقد رجع الخزاعيون الذين جاءوا رسلًا من قريش إلى النبي؛ رجعوا إليهم ليعلموهم أنه ﷺ لم يأت بقتال، وإنما جاء معظمًا البيت الحرام زائرًا له، وكان مشركو مكة قد سدروا في غيهم، ولجُّوا في فتنتهم فاتهموا الخزاعيين وجبنوهم، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالًا فوالله لا يدخلنها علينا عنوة أبدًا، ولا يتحدث بذلك عنا العرب.

واستمرت الوساطة تنجح أو تفشل إلى أن جاء سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فأظهر سهيل رغبة قريش في الهدنة على أن يعود المسلمون هذا العام دون دخول مكة؛ مخافة أن يُعيّرهم العرب بذلك فوافق رسول الله ﷺ على هذا المبدأ، ومن ثم بدأت المفاوضات الشاملة، وتمت هدنة الحديبية، وقام عهدها على إيقاف أعمال العداء إلى حين.

وقد تضمن هذا العهد الشروط التالية:

١. أن يرجع المسلمون هذا العام دون دخول مكة، وإذا كان العام القادم دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا معهم سلاح الراكب سيوفهم في أغمادها.

٢. أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنوات، وهذا على رأي أكثر كتاب السيرة، ومنهم من يقول: بل تضع الحرب أوزارها لثلاث سنين، ولسنتين.

٣. أن من جاء لمحمد ﷺ مسلمًا من قريش دون إذن وليه فيلتزم برده، ومن جاء لقريش مرتدًا من المسلمين؛ فلا يلتزمون برده.

٤. من أراد من قبائل العرب أن يدخل في حلف محمد ﷺ فله ذلك، ومن أراد الدخول في حلف قريش فله ذلك؛ فأعلنت خزاعة الدخول في حلف رسول الله ﷺ وأعلنت بكر الدخول في حلف قريش.

وأظهر النبي ﷺ من الأناة، وحسن التصرف، وسعة الصدر، ولين الجانب في أثناء كتابة هذا العهد ما يتعلم منه، وما يتعجب منه فكان ﷺ غاية الحكمة، وغاية القوة، وغاية القدرة الدبلوماسية على حل ذلك الإشكال، وفي هذا الفتح أنزل الله -تبارك وتعالى- قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١- ٣]. سُر المسلمون بنزول هذه الآية، وإن لم يفتحوا بها مكة، وأقبلوا على النبي ﷺ يهنئونه، وقد اعتبروا صلح الحديبية فتحًا مبينًا.

من أهم النتائج التي ترتبت على عهد الحديبية، وحادثة العمرة:

١. أن النبي -عليه الصلاة، والسلام- توصل إلى إيجاد رأي عام يؤيد الدعوة الإسلامية عند العرب عامة، وفي مكة وبين قريش خاصة، وهذا قوى هيبة المسلمين، وأضعف هيبة قريش.

٢. أنه كشف عن ثقة المسلمين بالرسول ﷺ ودل على قوة إيمانهم، وشدة إقدامهم على المخاطر، وأنهم لا يخافون الموت في سبيل الدعوة حين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان.

٣. جعل المسلمين الذين ظلوا في مكة بين المشركين يشكلون جيبًا خطيرًا دخل معسكر العدو، ونمت ثقتهم بالدعوة؛ فأصبحوا إما دعاة في مكة أو محاربين لكفار قريش يعترضون قوافلهم.

٤. علمت المسلمين عمليًّا: أن الحرب السياسية هي من وسائل الدعوة الإسلامية الهامة التي لا يجوز تجاهلها بحال.

٥. بينت هذه الحادثة الطريقة في السياسة الإسلامية: بأنها من جنس الفكرة صدقًا ووفاء، ولا بد للوسيلة أن يتمثل فيها الدهاء، وهو إخفاء الوسائل، والغايات الحقيقة عن العدو.

٦. أعطت النبي ﷺ والمسلمين الفرصة للتفرغ لنشر الرسالة داخل الجزيرة وخارجها، وهو بمأمن ﷺ من حرب مشركي مكة ومن عداوة قريش.

رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء ورؤساء القبائل:

وقد رأينا النبي ﷺ يلتفت مباشرة بتبليغ الدعوة إلى الله، ويلجأ في سبيل هذا إلى كل سبيل مشروع، من ذلك: أنه كان يرسل الكتب والرسل، ويبدو أن إرسال الكتب والرسل بدأ مع بداية ظهور الدولة الإسلامية في المدينة؛ لكنه ﷺ اغتنم سنوات الهدنة مع قريش لنشر الإسلام داخل شبه الجزيرة، وخارجها فأخذ يراسل الملوك، والأمراء، ورؤساء القبائل، ويرسل إليهم الرسل.

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية أعظم دولتين في العالم القديم -آنذاك- اتخذ الروم النصارى عملاء لهم، واتخذ الفرس اليهود عملاء لهم، فأصبحت الجزيرة ميدانًا للصراع بين النفوذين الفارسي والروماني، وظهرت دولة الإسلام الناشئة، وظهرت مهمتها الجديدة، وهي نشر الإسلام، وحمل الدعوة فأرسل ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي في كتاب معه إلى كسرى يدعوه فيه إلى الإسلام، مزق كسرى الكتاب، وكتب إلى عامله في اليمن أن يرسل رجلين جلدين يأتيانه بمحمد ﷺ فبعث ذلك الرجل رجلين هما "قهرمانة بابويه"، و"خرخسر" بكتاب معهما إلى رسول الله يأمره فيها أن ينصرف إلى كسرى.

وأرسل النبي ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل -إمبراطور الروم- فرد ردًّا دبلوماسيًّا لا يعبر عن رأيه الحقيقي، وترك الأمر ليتروى فيه، وأوعز إلى عملائه من النصارى العرب على تخوم الجزيرة، وفي داخلها أن يجسوا نبض المسلمين، وأرسل ﷺ سليطة بن عمرو بن عبد شمس إلى صاحب اليمامة، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساو بن عبد قيس فأسلم، وأرسل عمرو بن العاص إلى جيفر، وعباد الأزديين صاحبي عمان فأسلما، وحاطب بن بلتعة إلى المقوقس -زعيم الإسكندرية في مصر- فرد ردًّا حسنًا، وأرسل هدية لرسول الله ﷺ وأرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فأجاب بأنه أسلم من قبل على يدي جعفر بن أبي طالب، واستجاب باذان في اليمن للإسلام.

وأما والي "مؤتة" الغساني شجاع بن وهب؛ فقد قتل الرسول الذي أرسله النبي ﷺ وكتب إلى قيصر يستأذنه في الخروج لمحاربة رسول الله ﷺ.

هذه حصيلة تلك الرسالة التي تحرك بها أولئك الرسل، منهم من لقي الترحيب، ومنهم من ردّ ردًّا حسنًا، ومنهم من ردّ ردًّا غليظًا، ومنهم من قتل، وكل ذلك في سبيل الله -تبارك وتعالى.

وواضح أن النبي ﷺ لم يرسل رسله في وقت واحد، وإنما كان يرسل رسله حسب الظروف والمناسبات، يتبع في ذلك ما يراه أوفق وأصلح، وينظر في ذلك إلى مصلحة الدعوة إلى الله، وينهج في ذلك منهج الدعوة الإسلامية من حيث الشمول والعموم، وينفذ المهمة الأساسية التي جاء بها عن الله، وهي تبليغ رسالة ربه بالدعوة إلى الله.

وقد استمرت اتصالاته ﷺ واستمر إرسال الرسل إلى أن توفي -عليه صلوات الله وسلامه- والرسل والرسائل من هذه الوسائل الفعالة في تبليغ الدعوة الإسلامية.

سيطرة الدعوة الإسلامية داخليًّا، وانطلاقها خارجيًّا

غزوة خيبر:

أصبحت خيبر -بعد جلاء اليهود عن المدينة- ملجأً لليهود، فأقاموا هناك يتطلعون للانتقام من النبي ﷺ ومن دولته، وأخذوا يناصرون كسرى أو نصارى الشام بعد أن تمكن النبي ﷺ من عزلهم عن قريش، وعن كثير من قبائل العرب، وجعل النبي ﷺ يعد العدةَ لغزو خيبر؛ ليقضي على شوكتها. وفي السنة السادسة من الهجرة أرسل عليًّا إلى "فدك" فأصاب عينًا من بني سعد بن بكر، فأقر للمسلمين أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر سنة.

ولا شك أن اليهود كانوا يتوقعون أن النبي ﷺ سيغزوهم، ولكن ليس بمثل هذه السرعة التي داهمهم بها نبينا ﷺ فدعوا غطفان؛ لنصرهم، وخرج ابن أبي الحقيق في أربعة عشر رجلًا إليهم، فدعوهم إلى نصرهم على أن تكون لهم نصف ثمار خيبر، وكانوا يُخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل وقوفًا، ثم يقولون: محمد يغزونا، هيهات هيهات!.

النبي ﷺ تجهز لغزو خيبر، وخرج في صفَر أو في هلال ربيع الأول من العام السابع من الهجرة بعد أن حال بين غطفان وبين نصرها لحلفائها اليهود؛ بأن عرض على زعيمها —عيينة بن حصن- ما عرضه أهل خيبر عليه، حيث عرض عليه نصفةً لخيبر لهذه السنة، إلا أن عيينة رفض، وقال: لست بمسلم حلفائي وجيراني، فنزل النبي ﷺ الرجيع، فأوهم غطفان بأنه سيهاجمها، فتراجع عيينة

بمن معه؛ خوفًا على أهلهم وأموالهم من المسلمين، فتمكن رسول الله ﷺ من الوصول إلى خيبر ليلًا وكان ذلك بغتةً، وبات بجيشه الذي بلغ ألفًا وأربعمائة رجل أمام حصونها، حتى إذا كان الصباح فوجئ أهل خيبر فقالوا: محمد والخميس معه.

وكانت وقعة خيبر من أكبر مواقع عهد النبوة، فقد كانت جموع يهودها من أقوى الطوائف بأسًا، وأوفرها مالًا، وأكثرها سلاحًا، وكانت لها آطام حصينة -أي: قلاع- وأدخل اليهود أموالهم وعيالهم في بعض هذه الحصون، وأدخلوا ذخائرهم في حصون أخرى، وأما المقاتلة فدخلوا حصنًا وجعلوا يستميتون في الدفاع عن خيبر؛ إدراكًا منهم بأن هزيمتهم أمام المسلمين هي القضاء الأخير على اليهود في بلاد العرب، وجعلت الحصون تسقط حصنًا بعد حصن، وما تسلَّمه ابن مشكم أثناء القتال حول حصن "نطاة".

وتولى الحارث بن أبي زينب قيادتهم، وقتل أثناء سقوط حصن "ناعم" -وذاك حصن جعلوا فيه ذخائرهم- ولقد قتل من زعماء اليهود ثلاثة وتسعون رجلًا؛ منهم الحارث أبو زينب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكِنانة بن أبي الحقيق، وأخوه، وكانوا من أشرافهم.

ولم يتطرق اليأس إلى نفوسهم إلا بعد سقوط حصن "الوطيح" و"السلالم" وكانا هذين الحصنين هما بمثابة الكتيبة التي تحمي نساءَهم وذراريهم، وعندئذٍ طلبوا الصلح بعد حصار دام بضع عشرة ليلة، فدفع النبي إليهم نخل خيبر وأرضها على أن يعتملوها من أموالهم، ولرسول الله ﷺ شطر ثمرها.

إذن النبي ﷺ وطد لنفسه ولدولته الأمرَ في جزيرة العرب، وقضى على آخر هذه الحصون، ففتحها عنوةً على أصحابها، ودخلها عليهم النبي ﷺ بعد أن حاصرهم، فطلبوا الصلح، فنزل النبي ﷺ على طلبهم.

وبذلك أصبحت تلك الأراضي مملوكة للمسلمين، وإن كانت خارج المدينة، تُجبَى منها العشور، ويدفع منها الخراج، وأصبح ضمن سلطان الدولة السياسي جماعات يهودية من أهل الذمة يستغلون أراضيهم وفق الشروط التي تؤخذ عليهم. حاول عيينة بن حصن أن ينصر حلفاءه بخيبر إلا أن الوقت كان قد فات ووقع ما وقع.

ومن نتائج سقوط خيبر: أن تهاوت بقية التجمعات اليهودية في شبه الجزيرة، فقد أرسل النبي ﷺ مُحيصة إلى أهل فدك، وعليهم يوشع بن نون، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية، فصالحوا النبي ﷺ على أن يحقن دماءهم ولهم نصف الأرض بتربتها، ولرسول الله ﷺ نصفها خالصة له؛ لأنه لم يوجفْ عليها بخيل ولا ركاب.

وبذلك دانت اليهود في الحجاز لسلطان الإسلام، وأظهر نبينا ﷺ من التسامح معهم ما كان مضرب المثل. فمن بين الغنائم التي غنمها المسلمون في خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها، سلمها النبي ﷺ وقد استوقف هذا الخبر اليهود والمستشرقين، فعلقوا على ذلك بكلام نفيس دل على إحسانه ﷺ وإكرامه لأهل الأديان.

ومن دلائل إحسانه ﷺ: أن تزوج بصفية بنت حيي بن أخطب، وقد غضب النبي ﷺ عندما مَرَّ بها بلال على مصارع قومها، وتغاضى عن رجوع بعض أفراد اليهود إلى المدينة، وصالَح بني غازية، وبني عُريض، ويهود البحرين، ويهود اليمن، وبقية شبه الجزيرة على أن لهم الذمة، وأن عليهم الجزية.

ولم يكن هذا ليثني يهود عن الدس والتآمر، فحاولوا أن يدسوا السم للنبي ﷺ في طعامه، فوضعت زينب بنت الحارث -زوجة سلام بن مشكم- السمَّ في أحب أجزاء الشاة إلى نبينا ﷺ أي: في ذراع تلك الشاة وأهدته إياه، فأكل منها وأكل

معه ناس من أصحابه، فيهم بشر بن البراء بن معرور الذي مات من أكلته تلك، وتجاوز الرسول ﷺ عنها، ولكنه قتلها ببشر بعد أن تُوفي، ثم إن النبي ﷺ بقي يساكنهم ويعاشرهم إلى أن مات والحال كذلك.

سرية مؤتة:

ومن أحداث ما بعد الحديبية سرية مؤتة؛ فإن النبي ﷺ أرسل الحارث بن عمير الأزدي إلى أمير بُصرى الغساني فقتله، ويظهر أن عداء نصارى الشام للدعوة الإسلامية كان بإيعاز من هِرَقل والروم؛ لإيقاع العداوة بين العرب، وخوفًا أن تجرف العصبية عربَ الشام؛ فيصبح عونًا للمسلمين على الروم، وقد أرسل النبي ﷺ كعبَ بن عمير في خمسة عشر رجلًا إلى حدود الشام، يدعون إلى الإسلام، فكان جزاؤهم القتل، ولم ينج إلا رئيسهم كعب.

أمام هذا الصد عن الدعوة، والوقوف في وجهها، اشتد الأمر على النبي ﷺ فندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث، فأسرعوا فكان من ذلك من أهم أسباب غزوة مؤتة على ما ذكره ابن سعد.

اجتمع ثلاثة آلاف من المسلمين أمَّرَ عليهم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، وأخذ النبي ﷺ يوصيهم بوصية دعيت "وصية الأمراء" نسَجَ الخلفاء على منوالها فيما بعد، فكان مما قال ﷺ: ((أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وستجدون رجالًا في الصوامع منعزلين للناس؛ فلا تعرضوا لهم، ستجدون آخرين في رءوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيف، لا تقتلن امرأة ولا صغيرًا ولا كبيرًا فانيًا...)) إلى آخر ما نصح به النبي ﷺ ووعظ وذكر جيشه ورجاله الذين ذهبوا في سبيل الله تعالى مجاهدين وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

سمعت العرب المتنصرة فتجمعت أوباشهم، ووقفوا بزعامة مالك بن رافلة، فأمدهم هرقل الذي كان في بيت المقدس آن ذاك عام تسع وعشرين وستمائة من الميلاد، أمدهم بجند فذكروا أن هرقل كان في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من العرب المتنصرة، وسارت جموع المسلمين حتى نزلت أرض معان في جنوب الشام أو في مشارفها، وهناك وصلتهم أنباء كثيرة عن عدد الروم والعرب الذين تنصروا فانحازوا جنوبًا إلى قرية مؤتة، ودارت رحى معركة غير متكافئة، أبدى المسلمون من ضروب الشجاعة البالغة؛ فقتل قطبة بن قتادة العذري مالك بن رافلة زعيم العرب المتنصرة، واستشهد قادة المسلمين الثلاثة، وتمكن خالد < من تدبير خطة انسحاب بارعة فنجا المسلمون من هزيمة محققة دون أن يخسروا أكثر من اثني عشر شهيدًا.

وبالرغم من فشل هذا الجيش وتراجعه إلا أنه كان لمؤتة من النتائج الباهرة ما تمثل في إعجاب القبائل العربية بالإسلام وبشجاعة المسلمين، فأسلم بعض الزعماء كفروة بن عمرو الجذامي الذي قتله الروم فيما بعد، ودخلت سليم وعلى رأسها العباس بن مرداس في دين الله تعالى، وغطفان، وأشجع؛ فازداد الإسلام عزة ومنعة، ووجدت الدعوة الإسلامية مجالًا جديدًا رحبًا انطلق فيه الدعاة يفتحون النفوس والقلوب والبلاد والعباد.

فتح مكة:

ومما تبع ذلك ووطأ له، وكان تمهيدًا لحصوله فتح مكة أو غزوة الفتح، والتي وقعت في السنة الثامنة من الهجرة، وقد مضى معنا أن النبي ﷺ أدى عمرة القضاء في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة بموجب شروط هدنة الحديبية، وأقاموا في مكة ثلاثة أيام أدوا خلالها مناسك العمرة، وعادوا إلى المدينة في ذي الحجة.

وبدأت بفترة السلم هذه تتضح معالم الدعوة الإسلامية، بل بدأ قادة من مكة يفكرون جديًّا في الإسلام فأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وكانت معاهدة الحديبية قد أباحت للعرب أن تتحالف مع النبي ﷺ دون أن تخشى قريشًا فحالفت خزاعة نبينا ﷺ وحالفت بكر قريشًا، وكان بين خزاعة وبكر ثارات، ثم كانت مؤتة وتراجع المسلمون فطمعت قريش في المسلمين باعتبار أن هزيمة مؤتة كانت هزيمة فتت في عضد المسلمين؛ فأعانت بكرًا على خزاعة بالمال والسلاح والرجال، واستنجدت خزاعة بحليفها -نعم الحليف- رسول الله ﷺ وأنشد شاعرهم عمرو بن سالم الخزاعي:

يا رب إني ناشد محمدا ❖ حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فانصر رسول الله نصرًا أبدا ❖ وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا ❖ إن قريشًا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ❖ وجعلوا لي في كَدَاءٍ رُصّدَا
هم بيتونا بالوتير هجدا ❖ وقتّلونا ركعًا وسجدا

فلم يزد نبينا ﷺ بعد أن سمع هذه الأبيات على أن قال: ((نصرت يا عمرو بن سالم)) وأرسل إلى قريش يخيرهم بين ثلاث: إما أن يدوا قتلى خزاعة، وإما أن يبرءوا من ذلك الحلف أو أن ينبذوا إليهم على سواء.

واختارت قريش أن ينبذوا إليهم على سواء، وعندها تواردت أنباء قوة المسلمين، ووقعة ذات السلاسل فندموا فبعثوا أبا سفيان ليجدد العهد ففشل، وترك الرسول ﷺ قريشًا تتخبط فلا تدري ماذا يبيت لها، وأمر النبي ﷺ أهله أن يجهزوه، ولم يعلم حتى أقرب الناس إليه بوجهته، وسأل الله أن يعمي على قريش خبرهم حتى يبغتهم في بلادهم، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي

تحرك بعض جهاز رسول الله ؛ فقال : أي بنية أأمركم رسول الله أن تجهزوه؟ قالت : نعم. فتجهز ، قال : فأين ترينه يريد؟ قالت : لا والله ما أدري. وبعد أن استنفر الجيش أعلمهم بوجهته وأنه سائر إلى مكة. وقال : ((اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)).

ورغم كثرة عدد جيشه ﷺ والذي بلغ عشرة آلاف فقد أحاط حركة هذا الجيش بالسرّيّة التامة ، وسمح للقادمين إلى المدينة بالدخول دون أن يسمح لمن يريد الخروج منها ، وعندما كتب حاطب كتابه إلى قريش يخبرهم بما أجمع عليه المسلمون ، وأعلم الله تعالى نبيه بذلك بعث رسول الله في إثرها علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ؛ فاستخرجا الكتاب وعفا نبينا عن حاطب.

ولما اقترب النبي ﷺ من مكة قسم جيشه أربعة أقسام على قسم منه جعل الزبير بن العوام ، وعلى الثاني خالد بن الوليد ، وعلى الثالث أبا عبيدة عامر بن الجراح ، وأما الرابع فجعل عليه سعد بن عبادة ثم ابنه قيس ، ثم دخل الجيش مكة من جهاتها الأربع في عشرين من رمضان في العام الثامن من الهجرة دون مقاومة ؛ إلا ما كان من جهة خالد الذي دخل من الجهة الشمالية الشرقية عبر الليط والخندمة ؛ فقد اصطدم ببعض فرسان قريش كان على رأسهم عكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وفروا بمن معهما بعد أن قتل من المشركين ثلاثة عشر رجلًا ، واستشهد من المسلمين رجلان.

وسار النبي ﷺ إلى الكعبة مطأطئًا رأسه متواضعًا لربه فطاف بالبيت سبعًا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، وكان حول الكعبة ستين وثلاثمائة صنم ؛ فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء: ٨١] فطهرت الكعبة من الأصنام ،

ووقف النبي ﷺ على باب الكعبة، وجمع قريش فقال: ((يا معشر قريش، الله الله، قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب)) ثم قال: ((يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)) بذلك أعلن العفو العام وكسِّرت تلك الأصنام واعتلى بلال ظهر الكعبة؛ فأذن للصلاة وارتفع النداء يهز أرجاء مكة والبيت الحرام، نداء التوحيد لله -تبارك وتعالى- من بعد عبادة الأوثان والأصنام، بل وأصبح القرشيون درع الدعوة الحصين؛ فلم يمض عام واحد على الفتح حتى امتد سلطان الدعوة إلى جميع بلاد العرب، وتنفيذًا لمبدأ إعداد العدة في سبيل الله وفي سبيل حماية الدعوة الإسلامية وتذليل الصعاب أمامها، أرسل النبي ﷺ بعد الفتح عروة بن مسعود الثقفي، وغيلان بن سلمة إلى جُرَشَ ليتعلما صنعة الدبابات والمنجنيق والدبور؛ فلم يشهدا حنينًا، ولم يشهدا حصار الطائف.

حنين والطائف:

كانت ثقيف معتزة بالطائف، وكان من حولها هوازن، ولما احتوت الدعوة مكة وزالت قوة قريش المشركة أدركت ثقيف وهوازن أن الضربة التالية إنما ستوجه إليهم؛ لأنهم ركن الوثنية الثاني في الجزيرة، وكانوا قد وقفوا في وجه الدعوة مع مشركي قريش منذ بداية الدعوة، وردوا نبينا ﷺ أسوأ الرد بعد أن أدموا قدميه الشريفتين، ولقي منهم أسوأ استقبال، لجأت ثقيف وهوازن إلى تكوين حلف وثني بعد فتح مكة؛ وهذا ليصدوا النبي ﷺ عن مقصوده ومراده فأمر النبي ﷺ بالمسير وأن يسوقوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم؛ ليكون ذلك حافزًا لهم على الاستبسال في الحرب، واصطحب النبي معه الشاعر دريد بن الصمة لينتفع الحلف بخبرته وتجاربه؛ إذ كان شيخًا كبيرًا مجربًا.

وجعلت ثقيف وهوازن ومن كان معها من الحلفاء في القيادة الشاب مالك بن عوف سيد هوازن.

ولما سمع النبي ﷺ بتجمع ذلك الحلف الوثني خرج إليهم في اثني عشر ألفًا، منهم عشرة آلاف الذين قدم بهم أولًا لفتح مكة، وجاء معه من مسلمة الفتح ألفان أيضًا، بعضهم على غير دين ينظرون لمن تكون الدائرة؛ فيصيبون من الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة لنبينا ﷺ وقد شعر المسلمون بالزهو والعجب بكثرة عددهم فقالوا: لن نغلب اليوم من قلة.

اختار مالك للمعركة أرضًا جبلية بها مرتفعات وعرة، ولها مسالك لا يعرفها أغلب المسلمين؛ فأكمن جنوده في شعاب وادي حنين، وجعلهم في جوانبه ومضائقه، وأمرهم أن ينقضوا على المسلمين أثناء مرورهم فيه، وحشد خلف رجاله النساءَ والأطفالَ؛ حتى يدرك المحارب أن هزيمته ستكون فناء لأهله وماله، وبذا يستميت في القتال حتى ينتصر.

سار المسلمون لمهاجمة هوازن وثقيف وفي الصباح الباكر والضوء لا يزال مختلطًا بالظلمة انقض العدو عليهم من كل ناحية؛ فاختلط أمر المسلمين، وأخذوا يفرون لا يلوون على شيء، وانحاز الرسول ﷺ ذات اليمين، وثبت معه عدد من أصحابه وهو يقول: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)) وأمر النبي ﷺ عمه العباس أن ينادي معشر الأنصار: يا أصحاب الشجرة، فأجابوه: لبيك لبيك. وجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك؛ فيقذف درعه عن عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤم العدو حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة ثم تتابع الأنصار والمهاجرون واجتمعوا من جديد، وكروا -من جديد- الكرة على هوازن وثقيف، وفر مالك بن عوف إلى الطائف، في حين لاذت طائفة من

هوازن بأوطاس، وفرت طائفة من الأحلاف من ثقيف إلى نخلة، بينما اعتصمت ثقيف بطائفها الحصينة الغنية، وتركوا أموالهم وذراريهم غنيمة للمسلمين، فأرسل النبي ﷺ من يتعقب الفارين، وأمر بجمع الغنائم في مكان يقال له: الجعرانة، وتوجه بمن معه لحصار الطائف في نفس الشهر من شوال عام ثمانية من الهجرة.

وفي حنين أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦، ٢٧].

وحاصر النبي ﷺ الطائف خمس عشرة ليلة؛ فحل شهر ذي القعدة فأمر النبي ﷺ برفع الحصار ورجع إلى الجعرانة لقسم السبي والغنائم؛ فأتته وفود هوازن مسلمين، وناشدوه الرحم قائلين: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن سردم يقول: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللائي كن يكفلنك، وقال:

امنن علينا رسول الله في كرم ❖ فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على بيضة قد عاقها قدر ❖ ممزق شملها في دهرها غير

فخيرهم النبي ﷺ بين الأموال والنساء والأبناء؛ فاختاروا نساءهم وأبناءهم، وأعلن النبي ﷺ تنازله وتنازل آل المطلب عن حصتهم من سبي هوازن، فاقتدى به بقية المسلمين، وأعادوا ما كان قد نالهم من السبي، ما عدا الأقرع بن حابس في بني تميم، وعيينة في بني فزارة؛ فاسترضاهما النبي ﷺ وردوا إلى هوازن نساءهم وأموالهم.

وقسم النبي ﷺ الأموال بين المسلمين، ومن نصيبه الخمس أعطى منه المؤلفة قلوبهم؛ ليجذب النفوس، ويستثير الطاقات الكامنة، ويوجهها نحو الخير، أعطى أشراف الناس يتألف قلوبهم لحاجة الإسلام إليهم في تلك الفترة.

وعاد النبي ﷺ إلى مكة فأدى العمرة وولى أمر مكة لعتاب بن أسيد، وأبقى معه معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري، أبقاهما يعلمان الناس ويفقهانهم في الدين، وعاد بصحبه إلى المدينة.

واستقبل رسول الله ﷺ بعد ذلك وفد ثقيف استقبالًا حسنًا لما جاءوا إليه في المدينة، وأنزلهم المسجد ليكون ذلك أرق لقلوبهم، فاشترطوا على رسول الله ﷺ ألا تضرب عليهم البعوث، ولا يعشّروا ولا يجبوا، ولا يستعمل عليهم غيرهم؛ فأجابهم رسول الله إلى ذلك، وطلبوا أن يعفيهم من الصلاة؛ فقال ﷺ: ((ولا خير في دين لا ركوع فيه)) وأخيرًا طلبوا أن يعفيهم من كسر أوثانهم بأيديهم فأعفاهم.

وأرسل المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان لهدم صنم اللات وعين عليهم عثمان بن أبي العاص؛ لأنه وجده أحرصهم على طاعة الله -تبارك وتعالى- ومع أنه كان من أحدثهم سنًّا إلا أنه كان يحرص على تعلم القرآن، والتفقه في دين الله -تبارك وتعالى- وغدا الثقفيون بعد ذلك من أشد أنصار الإسلام حماسًا وقدموا للإسلام عددًا من أشهر القادة ورجال السياسة. وتتابع مجيء الوفود إلى مدينة نبينا ﷺ.

غزوة تبوك:

اتسع مجال الدعوة الإسلامية، وغدا الدعاة يتجولون في أرجاء شاسعة من جزيرة العرب، وصل تأثيرهم إلى الأطراف في الشام، وجعل النبي ﷺ يرسل إليهم من يقوم عليهم وعلى دعوتهم، ووصل النبي ﷺ خبر مفاده أن الروم قد جمعت

جموعًا كثيرة بالشام ومعهم العرب المتنصرة من لخم وجذام وعامل وغسان، وأن هذه الجموع بدأت بالزحف وقدمت مقدماتها إلى البلقاء وعسكروا بها، وأن هرقل تخلف بحمص، وقد رأى المؤرخون أن ذلك لم يكن، وإنما كان شيء قيل لهم فقالوه، ولا يستبعد تجمع مثل هذا الجيش، فقد بدأ هرقل يحس بخطر المسلمين، ويعمل لهم حسابًا بعد مؤتة.

لما سمع النبي ﷺ تلك الأخبار جد في إعداد عدته للمواجهة ولم يطق صبرًا ولم يحتمل انتظارًا؛ فالدعوة يجب أن تستمر ولو واجهها ما واجهها من الصعاب، فأمر أصحابه بالتجهز لغزو الروم في زمن عسرة من الناس وشدة من الحرب وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار وأحب الناس الظلال، فالناس يحبون المقام حيث تثمر أشجارهم وتورف ظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها في ذلك الحال أو في ذلك الزمان، إلا أن النبي ﷺ يريد لهذه القلوب أن تخلص لله ﷻ ويريد لهذه الأبدان أن تفنى في طاعة الله -تبارك وتعالى- يريد لهذه القلوب ولتلك الأبدان أن تسعد بتحصيل رضوان الله -تبارك وتعالى- في العسرة، كما تحصل عليه في اليسرة، وتحصل على مرضاة الله -تبارك وتعالى- في المكره، كما تطلب هذه المرضاة في المنشط، فالنبي ﷺ أعلمهم جميعًا بما يريد من غزو تبوك، وكان من عادته أن يوري لكل غزوة إلا أنه في هذه الغزوة صرح ولم يكنِّ.

استجاب المسلمون وتجهزوا على ما في أنفسهم من استثقال ذلك الأمر لم يكن عدو أخوف عند المسلمين من الروم؛ لما رأوا وعاينوا منهم من العدد والعدة والقوة، ونشط في ذلك المنافقون بالتثبيط على عادتهم، واستثقال ذلك الأمر كما هي سيرتهم، وبرغم الصعاب تجهز المسلمون، وخرج النبي ﷺ بثلاثين ألفًا، وهو جيش جرار لم تشهد الجزيرة له مثيلًا في تاريخها، وتدافع المسلمون،

وتنافسوا في تجهيز الجيش، وضربت أروع الأمثلة في العطاء والإيثار والصبر وحسن البلاء في دين الله -تبارك وتعالى-.

وكشفت غزوة تبوك المنافقين وعرتهم وفضحتهم، فكانت صحوتهم أثناء الغزوة هي صحوة الموت، فقد قضي على كل أثر سياسي لهم بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة، وتوفي زعيمهم عبد الله بن أبي، وكان النبي ﷺ يعوده مدة مرضه، وطلب في مرضه قميص رسول الله فأعطاه إياه، فأسلم خلق كثير من المنافقين، ولم يبق على النفاق إلا عدد ممن تشرب قلبه بنصرانية أو يهودية.

الوفود: الدعوة الإسلامية تعم شبه الجزيرة:

ومن هنا تتابع مجيء الوفود إلى المدينة، فهذا وفد أحمس، وهذا وفد أزد شنوءة، وهذا وفد أزد عمان، ووفود تترى من كل جهة من جهات الجزيرة العربية، حتى سمي العام التاسع من هجرة النبي ﷺ بـ: عام الوفود.

وقد قدمنا أن وفد ثقيف كان أول الوفود في العام التاسع للهجرة قدومًا على رسول الله ﷺ وجاءت بعد ذلك الوفود تترى؛ فهذا وفد بني أسد، وهذا وفد أسلم، وهذا وفد أسيد، وهذا وفد أشجع، وهذا وفد الأشعريين وهذا وفد باهلة، وهذا وفد بني الكاني، وهذا وفد بني بكر بن وائل، وهذا وفد بارق، وهذا وفد الأشعث بن قيس.

وعلى رغم كثرة الوفود التي أمت المدينة تبايع النبي ﷺ وتدخل في دين الله؛ فإنه ظل في شبه الجزيرة فريق يحرص على دينه الوثني، فنزلت سورة التوبة قبيل موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، تضمنت البراءة من المشركين، وأمهلتهم أربعة أشهر لينضموا إلى المسلمين، أو يحاربوا. قال الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ

﴿وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ١، ٢].

واستثنى أصحاب العهود أن يوفى لهم بعهودهم كما في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

استمرت وفود المشركين تفد على رسول الله ﷺ وتعلن إسلامها، وكان وفد النخع هو آخر من انضوى تحت لواء الإسلام من اليمن؛ إذ قدم وفدهم إلى النبي ﷺ السنة الحادية عشرة، وفيهم زرارة بن عمرو بن الحارث، وكان نصرانيًّا بعد أن بايعوا معاذ بن جبل.

واتبع النبي ﷺ أسلوب الإقناع مع تلك الوفود والدعوة الحكيمة، وهو الطابع العام لأسلوب الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- وكان النبي ﷺ يستقبل الوفود في المسجد بالفرح والبشر قائمًا على رجليه، ولم يكن يزيده جهل الجاهلين إلا حلمًا، وكانت كلمته للوفود هي الضمان الذي ما بعده ضمان، كان ألد خصومه وأعرقهم في عداوته لا يتردد إذا تأكد أن محمدًا ﷺ أمنه أن يلقي نفسه في أحضان المسلمين ثقة منه أن كلمة النبي ﷺ ضمان لا يعدله ضمان.

وأسلم عدي بن حاتم، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهما ممن كانوا قد جفلوا أو نفروا من الإسلام عندما دخل النبي ﷺ مكة، وكان من عادة النبي ﷺ أن يكرم أولئك الوفود، وأن يستعد للقائهم، وأن يستمع لهم وأن يسمعهم، وأن يهيئ مكانًا لنزولهم حتى يقوم بحقهم، وحتى يؤلف قلوبهم على الإسلام.

هكذا وضع النبي ﷺ أتباعه على الطريق لتوصيل الدعوة إلى العالم، وبلغت غزواته ﷺ سبعًا وعشرين، وبلغت سراياه ثمانية وثلاثين سرية، على قول ابن إسحاق أو ثماني عشر غزوة وأربعة وعشرين سرية على قول الزهري.

وحج ﷺ واعتمر وعلم أصحابه، واهتم بأهله وبالمسلمين جميعًا؛ فسيرته حافلة شاملة تبين طريق الدعوة إلى الإسلام، ويوم الحج الأكبر من عام التاسع من الهجرة بلغ النبي ﷺ سورة براءة للمشركين، وأرسل علي بن أبي طالب يبلغه ما نصت عليه الآيات، فلحق علي بأبي بكر حتى إذا كان يوم الأضحى قام فأذن بالناس، وبلغ أمر الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وتوالت الوفود المشركة تعلن إسلامها، وانضمت العرب جميعًا للصف الإسلامي رغبة أو رهبة، ولم يكن يقبل من العرب المشركين سوى الإسلام، أما أهل الكتاب؛ فقد تحدد موقف الإسلام منهم في قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهكذا اتضحت معالم الدعوة لكافة البشر: المشرك والنصراني واليهودي والمجوسي، وكانت هذه الدعوة تراعي ظروف المسلمين وتراعي قدرتهم، وقد وضح القرآن الكريم وسنة النبي العظيم ﷺ ذلك أعظم توضيح وأجلى بيان.

انهار صرح الوثنية في شبه الجزيرة العربية، وانتصرت دعوة الإسلام والتوحيد.

حجة الوداع:

وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة صار الرسول ﷺ في جمع كبير من المسلمين بلغ تعداده ما يقارب مائة ألف حاج، ليس بينهم مشرك واحد بحمد الله؛ فأحرم ﷺ في ذي الحليفة في أبار علي، وأهَلَّ

بحج وعمرة، وتابعوا المسير إلى بيت الله الحرام، فصلى النبي ﷺ بذي الحليفة، ودعا بالهدي فأشعره في الجانب الأيمن بيده، ووجهه إلى القبلة، وقلده نعلين نعلين، ثم ركب ناقته فلما استوى بالبيداء أحرم، وساق مائة بدنة وأمر من كان معه هدي أن يهل كما أهل وسار وبين يديه وخلفه عن يمينه وعن شماله أمم لا يحصون كثرة، كلهم قد قدموا ليأتموا برسول الله ﷺ ومن والاه.

وحج النبي ﷺ طائفًا على راحلته راكبًا؛ فلما انتهى إلى الركن استلمه، وهو مطبع بردائه، وحج ﷺ البيت، وقد صار خلوًا من الأصنام والأوثان وهو يقول: ((باسم الله والله أكبر)) وهكذا عند كل شوط يسمي ويكبر، ﷺ.

وخطب النبي ﷺ في حجته ﷺ ثلاث خطب:

الأولى: قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة.

الثانية: يوم عرفة بعرفة بعد الظهر على راحلته القصواء.

الثالثة: يوم النحر بعد الصلاة وكانت خطبة يوم النحر أطولها وأهمها؛ لأنه ﷺ وضع فيها المعالم الكبرى في الإسلام، وهو يودع أصحابه عند الموقف العظيم.

وقد ذكر العلماء هذه الخطبة، فقال فيها ﷺ من هذا الكلام الحكيم العظيم وهو يخاطبهم: ((أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ أي عام هذا؟)) حتى إن الناس كان يداخلهم الشك هل سيسميه بغير اسمه، ثم إنه ﷺ عرض لأموال الجاهلية ودمائها فوضع ذلك كله، ونهى ﷺ عن ربا الجاهلية، وأمر بأداء الأمانات، وأمر ﷺ بأن يبلغ الشاهد الغائب، ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم ولا يحل مال امرئ مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس.

وهكذا تتابعت نصائحه ﷺ إلى المسلمين لتبقى فيهم على مر الأجيال وتعاقب الدهور، وتضمنت تلك الخطب من القضايا الشيء الكثير: تحريم العدوان على المسلم وضرورة المحافظة على كيانه الإنساني، توضيح إطار المسئولية الدينية، ضرورة الفصل التام بين ما كان في الجاهلية وما جاء به الإسلام، بيان أن المرأة صنو الرجل في المسئولية والجزاء ولها حقوقها في إطار خلقتها، وعلى الرجل أن يحترم في المرأة إنسانيتها، وعلى المسلمين أن يعلموا أن عدوهم الأكبر هو إبليس اللعين وهم مكلفون بمقاومته، وبالحذر من ألاعيبه.

وحمل رسول الله ﷺ المسئولية وحمّلها للمسلمين، وأشهد الله تعالى على أنه أدى الأمانة، وأشهد المسلمين على أنه بلغ الرسالة، وبذلك تمت رسالته، وكملت على المسلمين ببعثته النعمة، وتمت عليهم المنة باكتمال هذا الدين: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

آخر بعوث النبي ﷺ: بعث أسامة:

وكان من آخر أعمال النبي ﷺ أن أمر أسامة بن زيد أن يخرج على جيش لغزو الروم في أوائل العام الحادي عشر بتجهيز ذلك الجيش الضخم، الذي كان فيه أسامة قائدًا ولم يبلغ بعد الثامنة عشرة، وجعل في الجيش كبار الصحابة، وأمر النبي ﷺ أسامة أن يطأ أرض الروم ولا يتعمق في المسير ليحقق هدفًا واضحًا وهو إرهاب الروم، وأن يمنعهم من العدوان على المسلمين والتعدي على بلادهم.

وتم تجهيز الجيش، واستعد الجيش للرحيل، وشاءت إرادة الله أن تكون حركته في أول عهد أبي بكر > بعد ما لقي رسول الله ﷺ ربه في هذه الأثناء أسلمت الجزيرة وأخذ الفرس والروم في تفهم الإسلام، وفي التعامل معه، وتأكد حقائق

هذا الدين بكل جوانبه، وتمت على المسلمين تلك النعمة، وتحددت المعالم وجاء قول الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] مع قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]. كان فيهما نعي رسول الله ﷺ وإيذانًا بقرب انتقاله إلى ربه؛ لأن الرسالة هي غاية مجيئه ﷺ إلى الدنيا؛ فإذا ما كملت وتم الدين، ونزل ما رضيه الله تعالى للناس، بقي أن يعود النبي ﷺ إلى ربه وأن يرجع إلى الرفيق الأعلى.

وقد أعد الله الأمة لتقبل خبر رحيل نبيها فدارس النبي ﷺ القرآن مع جبريل مرتين في رمضان الأخير، وعلّم النبي ﷺ أصحابه وأعلمهم بذلك إيماء حين قال: ((إن عبدًا خيره الله بين الخلد في الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله)) فقال الصديق: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله. كان هذا من الإيذان بقرب انتقاله ﷺ إلى ربه -جل في علاه.

وتوفي النبي ﷺ والعرب قد أسندت ظهرها وولت وجهها إلى هذا الدين العظيم، دخل فيه أكثرها رغبة، ودخلت طائفة قليلة في هذا الدين رهبة، وجاءت الآيات تترى، والشواهد يتبع بعضها بعضًا من كل مكان بصحة رسالة الإسلام، وبصدق نبيه ﷺ وجاء وعد الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] بهذا وعلى هذا تحقق موعود الله -تبارك وتعالى- لهذه الأمة، وتحققت للدعوة غاياتها، وتمت على المسلمين النعمة على أكمل الوجوه.

ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المدنية :

الركيزة الأولى : ضرورة بناء الأمة الإسلامية قاعدة الدعوة :

لا شك أن الإسلام الذي أنزله الله تعالى على الناس ليسعدوا به كان رسالة، وكان أمانة، وقضية الدعوة لم تكن أمرًا سهلًا ولا هينًا، بل هذا أمر سار فيه النبي ﷺ بكليته وبجميع قوته، حتى انهدت قوته ﷺ وحطمه الناس في نهاية هذا الطريق وبذل من نفسه ومن أصحابه وإخوانه، ومن أهله ومن عشيرته، وبذل الصحابة من دمائهم وأشلائهم في هذا الطريق ما مهدوا به السبيل للإسلام ليقيم قاعدته الصلبة التي بقي إلى يوم الناس يتغذى على تراثها الذي تركه لنا أسلافنا الصالحون، ولا بد هنا من أن نؤكد على أنه لا بد من ضرورة بناء الأمة المسلمة، ضرورة إقامة قاعدة الدعوة القوية.

وأهم ما فعله الإسلام في الناس إيجاد خير أمة للناس وفق مراحل ومواصفات معينة

فبدأ أولًا بإيجاد الأمة القوية الفتية : التي تستطيع أن تواجه الدنيا بعد ذلك، فالنبي ﷺ ما ترك هذه الأمة إلا وقد أخرجها إخراجًا جديدًا وأنشأها إنشاء جديدًا، قال -جل من قائل- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال -جل من قائل- : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد بنى النبي ﷺ دولته على أساس من قاعدة المؤاخاة، وبنى المجتمع على أساس من قاعدة الترابط والاعتصام بحبل الله، هكذا.

وعمل ثانيًا على صبغ الأمة الإسلامية بالصبغة العملية: بأن الإسلام لا تهمه أمة فارغة القلب والضمير؛ لأنها تكون حينئذ ضعفًا ووهنًا، لا يسمن ولا يغني من جوع، الإسلام لا تعنيه أمة تعلن الإسلام ولا تعمل به، ترفع الشعار ولا تشعر به، تدعي الدين وهي تنقضه وتناقضه بسلوكها وعملها.

وحتى تصير الأمة سندًا لحماية الحق ونصرة الدين، كان لا بد لها من أن تقيم بنيانها على تقوى من الله تعالى، ولعل ذلك ما قصده رسول الله وهو يبدأ نشاطه في المدينة ببناء مسجده الشريف؛ ليكون مكانًا للتربية والتعليم تحولت المدينة إلى مستقر آمن للدعوة، ومنطلق رئيس للحركة بالإسلام، ولذا رأينا تماسك المهاجرين والأنصار، وتآخيهم تحت لواء الله تعالى في صورة متكاملة متوازنة.

رأينا التكافل في بيت النبوة والتكافل في استقبال الأنصار للمهاجرين والتكافل في تشريع الزكاة، والتكافل في صوم رمضان، وفيما يتبعه من صدقة الفطر رأينا التكافل حتى في صلاة الجمعة.

وعمل ثالثًا على صيانة ثوابت الأمة: لأن الأمة الإسلامية تعيش في إطار منهج تحددت معالمه، وتفصلت حقائقه، وأعداء الإسلام يعملون في كل زمان ومكان لهدم ثوابت هذا المنهج، والإساءة إليه، وتشويه صورته؛ ليتمكنوا من هدم كل ما تمثله الأمة من قيم وحياة؛ ولذا وجب حماية الإسلام مما يؤثر فيه، أو يؤثر في حماية تلك الأمة، منهج الله ينطلق من أوامر ونواه.

يقول الله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] ميزهم هذا المنهج بمعالم واضحة في حياتهم ومعايشهم، وبرزت الأمة

بخصائصها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وما تزال آيات القرآن تترى ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والمرء يسأل عن سر تفوق هذا الجيل الفريد من أصحاب النبي ﷺ وعن أسباب عجز المسلمين المعاصرين أن يكونوا مثلهم أو أن يلحقوا بركبهم، أو يحققوا بعض ما حقق أولئك السلف الصالح؟!

ولا شك أن عوامل تأسيس الجماعة الأولى موجودة حتى الآن، ولذا نحتاج إلى معرفة الأسباب التي ساعدت على التكوين والتنشئة، ولم تساعد سواهم أملًا في الاحتذاء بهم، والسير على طريقتهم.

ويبدو أن ذلك يعود إلى أمور منها:

١. أنهم حين دخلوا في الإسلام تيقنوا الواقع، وعلموا أن الإسلام بيعة منهم لربهم وهم طرف فيها، وعليهم بالإسلام أن يصدقوا الله تعالى فيما بايعوه به ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

٢. واستقبلوا وحي النبي الكريم، الوحي المنزل على رسول الله ﷺ بما يليق به من التقديس والتعظيم، فلم يوازنوا بينه وبين غيره ليتبينوا صدقه وأحقيته، وإنما استقبلوه استقبال الموقنين بأنه الحق.

٣. وأيقنوا أيضًا أن الوحي إنما أنزل للتطبيق والعمل، ولم ينزل لمجرد المعرفة والثقافة أو التعلم... ونحو ذلك.

٤. ثم إنهم بعد مجيء وحي الله التزموا به، وتركوا ما عداه، استدبروا ثقافات الأمم الأخرى، بل جعلوها تذوب في بوتقة الإسلام، فإذا علموا أن هذا الأمر من الله ومن عند الله فإنه لا يقف مع أمر الله تعالى شيء، ولا يعارضه شيء. نعم، لم يلتفت المسلمون إلى ما يأتيهم من شرق أو غرب أو من هنا أو هناك؛ لأن وحي الله تعالى يكفيهم، وهم به أقوياء.

٥. إنهم يشعرون بعزة الإسلام، وبقدرة الله، وتيقنوا أن الله اختارهم بالإيمان لإنقاذ البشر من عبادة البشر لعبادة رب البشر، وإنقاذ البشر من الخضوع لغير الله، فجهدوا لإزالة الطواغيت من على ظهر الأرض تكريمًا للإنسانية بأسرها، وهذا التيقن يفسر لنا سر تضحياتهم بالنفس والنفيس حين انساحوا في الأرض مجاهدين في سبيل الله يبغون نشر دينه وإحقاق الحق وإقرار الأمن والسلام

تلك من أهم الأسباب التي ساعدت الأمة آنذاك على الاستفادة من وحي الله تعالى، وتركت بذلك درسًا في الناس لمن شاء أن يستقيم، ومن شاء أن يسعد في هذه الدنيا وأن يلقى الله -تبارك وتعالى- في الآخرة، ويسعد بما عند الله -تبارك وتعالى- من الجزاء.

الركيزة الثانية: الاهتمام بمعرفة الواقع العالمي:

ما إن استقرت أقدام النبي ﷺ في المدينة وأسس دولته الأولى حتى بدأ يتعرف إلى واقع العالم كله، وبأسره ويدرك اتجاهات الأفراد، وكان معه ربه يعينه على الحق ويعرّفه به إن سها عنه، أو لم يدركه، لقد كان يعرف ما عليه الفرس والروم، ويعرف ما بينهما من حروب وأحقاد ويعلم أن الروم أهل كتاب وأن الفرس عبدة أوثان وأصنام.

وكان الله تعالى معه يؤيده، وقف على كافة أحوال اليهود والمنافقين، وحال القبائل وهو في مكة قبل الهجرة، وبعد استقراره في المدينة، وكان ﷺ يحدث أهل الكتاب عن رسلهم وكتبهم، ويحدث القرشي عن الخالق والمخلوق.

لقد عاش المسلمون وسط الناس بعيونهم، وبمن آمن منهم ولذلك كانوا على خبر دقيق بواقع الناس، معرفة الواقع المعاصر ضرورة؛ ليتحرك الدعاة وفق خطة عملية متكاملة ناتجة من تخطيط سليم، إن التخطيط السليم بحث وعلم بالواقع، وتحديد للعمل بالعمل والمنهج، ومتابعة للأعمال والنتائج، وهذا ما لا بد منه للدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر الحديث.

نرى أن النبي خطط لغزواته وأخذ الرأي والمشورة، وحدد لكل طائفة مكانها ودورها، وهكذا في سائر خطواته ﷺ.

الركيزة الثالثة: أهمية التطابق بين المسلم والإسلام:

إن المسلم لا بد أن يكون مثالًا يحتذى، إن المسلم يجب أن يكون نموذجًا يقتدى، إن الإسلام إنما جاء للتطبيق والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤] وقال جل من قائل: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] ونعى الله تعالى على الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، وبين أن هؤلاء من الخاسرين الذين أوبقتهم هذه الطرائق المنحرفة عن الصراط المستقيم.

لقد نشأ النبي ﷺ مجتمع المدينة على أسس راسخة من ذلك أساس نشر العدل؛ فإن النبي ﷺ جعل العدل قيمة عظيمة في هذا المجتمع ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

وكما يأمر الإسلام بالعدل ينهى عن الظلم تأكيدًا للعدل، وقد كتب الله على الظالمين لعنته، وسخطه بقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨] ورأينا النبي ﷺ يجعل العفو العام في مكان العدل؛ فيعفو عن أهل مكة، ونرى في هذا أن النبي ﷺ يغلب جانب العفو على جانب الانتقام أو الأخذ بالثأر، ويجعل من ذلك قيمة عظيمة أيضًا بين المسلمين، كما عود أصحابه الصبر والتحمل، جعلهم يصبرون على شهوات النفس تارة، وعلى شهوات الناس تارة، ويصبرون على جرأة الباطل تارة، وعلى قلة الناصر والمعين تارة، وعلى كيد المنافقين تارة، وعلى عدوان الأعراب تارة.

جعل أيضًا من الصبر قيمة عظيمة، ومن التحمل تحديًا عظيمًا يثبت أمامه المسلم في ذلك الميدان، وهناك الصبر في ميدان المعركة، والجهاد أمام استعلاء الباطل واستعدائه، تراجع المسلمون في غير ما معركة كأحد وحنين، ولم يتراجع رسول الله ﷺ وهو بموقفه هذا يجمع المسلمين مرة أخرى، ويحقق لهم النصر بعد هزيمة.

الركيزة الرابعة: ضرورة الفصل التام بين الإسلام وغيره:

نشأت هذه الأمة وسط عالم مليء بالمذاهب والعقائد والاتجاهات المختلفة، وحرص النبي على استقلالية الأمة بوحي الله واستقلاليتها في شرعها، حتى إنه حرص على استقلال المسلم في هديه الظاهر وفي حليته، وفي سمته وفي أدبه؛ ليتميز الحق عن الباطل.

إن العقيدة تعني امتلاء الباطن بحب الله والخشوع له، والتوجه الكلي نحو الخالق في كل همسة ولمسة، في كل فكرة وخاطرة، ومع كل اتجاه وسلوك، وبذا يعيش المسلم مؤمنًا بقدر الله مستسلمًا لأمره متوكلًا عليه.

كل ذلك من الركائز التي ظهرت في دعوة المصطفى ﷺ وفي دولته التي أقامها بالمدينة، ومن هنا وجب على المسلمين أن يمحصوا حياتهم، فيجعلوها خالصة لمنهج الله، وحينئذ تثمر حياتهم دولة الإسلام بما لها، وما عليها، وتتحمل كل ما عليه أن يتحمل فيها من إيجابيات وسلبيات، وأن يسعد بما يتحقق من الإيجابيات، وأن يعمل على تلافي السلبيات؛ إن المسلم مطالب حين يلتزم بالإسلام بأن يحقق ذاته، وأن يعتز بما التزم به، وأن يتمسك بكل ما يؤمر به، وأن يبتعد عن كل ما ينهى عنه، وبذا تبرز الإيجابية في حياة الفرد، وفي نشاط الجماعة المؤمنة، هذا الأمر الذي يؤدي إلى مساهمة هذه الإيجابية في حركة الدعوة إلى الإسلام.

نعم، حدد رسول الله ﷺ سبيل أمته بوضوح وجعلها بعيدة كل البعد عن سبيل المجرمين، وأخذ القرآن الكريم يوضح هذا التمايز ويفصله، وبذلك يعرف الإيمان ويتضح الخير؛ لأن الشيء بضده يتميز.

وهكذا، نسأل الله -تبارك وتعالى- أن ينفعنا بهذه الركائز التي استفيدت من دعوته ﷺ وأن يوفقنا للأخذ بها، وأن يمكن لنا ديننا الذي ارتضى لنا، وأن يبدل المسلمين من بعد خوفهم أمنًا، وأن يرزقهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

تعريف الجهاد وأحكامه، وموقف تلاميذ الاستشراق والفِرق الضالة الحديثة والقديمة منه

عناصر الدرس

العنصر الأول : التعريف بالجهاد ومراحله وأهدافه، وحكم جهاد المرتدين ٦٩٧
العنصر الثاني : موقف تلاميذ الاستشراق والاستعمار، والفرق الضالة الحديثة والقديمة من الجهاد ٧١٧

التعريف بالجهاد ومراحله وأهدافه، وحكم جهاد المرتدين

تعريف الجهاد:

"الجِهاد" -بكسر الجيم-: مصدر "جاهدت العدو مجاهدة وجهادًا"، وأصله "جيهاد" كقيتال فخفف بحذف الياء، وهو مشتق من الجَهد -بفتح الجيم- وهو التعب والمشقة؛ لما فيه من ارتكابها أو من الجُهد -بالضم- وهو الطاقة؛ لأن كل واحد منهما بذل طاقته في دفع صاحبه؛ وعليه فإن الجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق الإنسان من شيء.

والجهاد في اصطلاح علماء الشريعة: هو قتال الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى، وفسر ذلك نبينا ﷺ فيما رواه عنه الإمام أحمد في (مسنده) عن عمرو بن عبسة > قال: ((قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: أن يُسلِم قلبك لله ﷻ وأن يَسْلَم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال تهجر السوء. قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من عُقِر جواده وأهريق دمه)). قال ﷺ: ((ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما: حجة مبرورة، أو عمرة)).

وبمثل هذا التفسير للجهاد عن نبينا ﷺ فسر علماء الإسلام الجهاد:

فقال ابن حجر: هو بذل الجهد في قتال الكفار. وقال القسطلاني: قتال الكفار لنصرة الإسلام، وإعلاء كلمة الله -تبارك وتعالى- وقال صاحب (الدر المختار) من الحنفية: الدعاء إلى الدين الحق، وقتال من لم يقبله.

ولفظ "الجهاد" إذا أطلق ؛ فإن المراد به قتال الكفار لإعلاء كلمة الله ، ولا ينصرف إلى غير قتال الكفار إلا بقرينة تدل على المراد كما في الحديث السابق ، ولهذا قال ابن رشد : "وجهاد السيف قتال المشركين على الدين ، فكل من أتعب نفسه في ذات الله ؛ فقد جاهد في سبيله إلا أن الجهاد في سبيل الله ، إذا أطلق فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف ، حتى يدخلوا في الإسلام ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

حكم الجهاد:

الجهاد على نوعين:

١. **جهاد الطلب والابتداء:** وهو تطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام ، وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام.

وهذا النوع فرض على مجموع المسلمين يدل على ذلك قول الله : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة : ٥]، وقال تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦].

وقال : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [التوبة : ٤١]، ويدل عليه قوله ﷺ : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم)) أو قال : ((فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)).

وقد قال ﷺ لبعض أصحابه: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا؛ فلا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)).

وقد قال أيضًا ﷺ: ((من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق)) بهذا يتأكد عندنا القسم الأول من الجهاد وهو جهاد الطلب.

وجهاد الطلب -على الصحيح- هو فريضة محكمة غير منسوخة، وما نقل عن بعض الصحابة من أن جهاد الكفار ابتداء تطوع، إنما يريدون به: أنه ليس فرضًا عينيًّا على كل مسلم، بل هو فرض كفائي، ويستحب أن يجاهد المسلم تطوعًا إذا قام غيره بالفرض، ولا يجوز أن يحمل كلامهم على غير هذا.

ويقول ابن حجر: "إن جنس جهاد الكفار مُتعين على كل مسلم؛ إما بيده، وإما بلسانه، وإما بماله وإما بقلبه".

وابن القيم -رحمه الله- يقول: ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرمًا ثم مأذونًا به ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور، والتحقيق: أن

جنس الجهاد فرض عين؛ إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع، أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

هذه النصوص تدل على أن هؤلاء العلماء يرون: جهاد الابتداء والطلب فرضًا على القادر، ولكن الذي يترجح -والله أعلم بالصواب- هو مذهب الجمهور القائلين بأن: جهاد الابتداء والطلب؛ فرض كفاية إذا قام به جماعة من المؤمنين فيهم غناء لنشر الإسلام، والدعوة إليه؛ فليس على كل مسلم عندئذ أن يخرج معهم؛ وذلك لأن الله -تبارك وتعالى- قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

يقول ابن قدامة محتجًّا لمذهب الجمهور: "ولنا قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ وهذا يدل على أن القاعدين غير آثمين مع جهاد غيرهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] ولأن رسول الله ﷺ كان يبعث السرايا ويقيم هو وسائر أصحابه".

وقال الكاساني: "وعد الله المجاهدين والقاعدين الحسنى، ولو كان الجهاد فرض عين في الأحوال كلها لما وعد القاعدين الحسنى؛ لأن القعود يكون حرامًا".

وعن أبي سعيد الخدري > : أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان ليخرج من كل رجلين رجل، ثم قال للقاعد: ((أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج)) وقال ﷺ: ((فمن جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا)) ومعلوم أن السيرة ملأى بتلك الغزوات التي خرج فيها بعضهم وبقي فيها بعضهم.

٢. جهاد الدفع: وحكمه أنه فرض عين على المسلمين عمومًا؛ حتى يندفع شر الأعداء، وهذا بإجماع العلماء.

قال الجصاص: "ومعلوم في اعتقاد جميع المسلمين أنه إذا خاف أهل الثغور من العدو، ولم تكن فيهم مقاومة لهم فخافوا على بلادهم وأنفسهم وذراريهم: أن الفرض على كافة الأمة أن ينفر إليهم من يكف عاديتهم عن المسلمين، وهذا لا خلاف فيه بين الأمة، إذ ليس من قول أحد من المسلمين إباحة القعود عنهم حتى يستبيحوا دماء المسلمين وسبي ذراريهم".

وقال البابرتي في (العناية على الهداية): "وأما العينية في النفير العام فبالإجماع؛ لأنهم من إغاثة الملهوف والمظلوم".

فجهاد الدفع فرض عين، نقل الإجماع على ذلك غير واحد، ولا يوجد في كتاب من كتب الفقه أو العلم المعتبرة خلاف لهذا الإجماع، على أن أحكام الجهاد المتقدمة هي إذا كان للمسلمين دار وسلطان، وكان بهم قوة على الجهاد، وأما إذا لم يكن؛ فهذا ما يبحث في حكمه في مراحل تشريع الجهاد.

غني عن البيان: أن الإسلام دين جاء به نبينا ﷺ لإنقاذ الناس من ظلمات الجهل، ومن عبودية الهوى، ومن طغيان القوة المادية إلى عبادة رب البرية حتى يعيش البشر حياة آمنة مستقرة بالعدل، والحق والخير والسلام، ولم يبدأ الإسلام

بتشريع الجهاد والقتال، وإنما بدأ بالكلمة الصادقة، والدعوة الآمنة، والحوار الجاد؛ يناقش العقول، ويحرك العواطف، ويثبت للناس صدق الإسلام وصدق نبيه بالبرهان والدليل.

أعلن الإسلام غايته بوضوح، وهي تنحصر في: تحقيق السعادة للناس أجمعين، ونشر السلام في العالم كله، ومع هذا أبى جبابرة الأرض أن يواجهوا الدعوة بالدعوة، أو الحجة بالحجة، وإنما مالوا إلى أساليب البطش والاضطهاد والتنكيل والقتل، حتى إن منهم من قتل الرسل الذين أرسلهم إليهم نبينا ﷺ وأما المشركون فقد مضى معنا ما فيه كافٍ من البيان، وما فيه غنى للإنسان عن إدراك هذه السنة من سنن الله تعالى في خلقه وعباده، إذ مضت سنة الله أن يقع هذا التدافع وذاك الصراع بين الباطل والحق، بين الهوى ودين الحق، وذلك حكمة لله -تبارك وتعالى.

وبتحقق هذه الأمور في عالم الواقع يظهر أن مشروعية الجهاد، إنما جاءت بعد استنفاذ الوسائل الكافة، والتي تتصور عقلًا لصيانة الحقوق، وضمان الخير للخلق، شُرع الجهاد لرد العدوان، ومنع الأذى، وتحقيق وضع يحقق الاستقرار، وإزالة العوائق عن الناس والتي تعوق عن الدخول في دين الله صيانة للكرامة وحماية للحقوق، وهو أمر تدعو إليه المواثيق الدولية قديمًا وحديثًا، ولو لم يشرع الله الجهاد وتركهم مسلمون لتمكن المشركون من كل مسلم، ولقضوا على المسلمين وعلى دينهم، ولو لم يشرع الجهاد لاستمرت البشرية في ظلمات الجهل وسوءات القهر والاستعباد.

ومن هنا ندرك أن تشريع الجهاد ضرورة، وأن هذا كان سببًا من أسباب الإبقاء على الدين، ومشروعية الجهاد إنما كانت بعد موسى # في تاريخ النبوات؛

فإن الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى هم الذين طلبوا أن يجعل الله -تبارك وتعالى- لهم نبيًّا يقاتلون معه وبه لإقرار الحق، ونشر العلم، ودحض الباطل وأهله، قال -جل من قائل-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والجهاد يحمي حرية الإنسان: ذلك أن الإسلام فكرة تقوم على بعض المعاني التي لا بد من فهمها قبل الإيمان بها والعمل بمقتضاها، ومن المعلوم: أن حركة الأفكار تحتاج إلى الحرية؛ لتظهر الفكرة قولًا يُسمع، ومعنى يُتدبر، واتجاهًا يتحول إلى سلوك وعمل.

وبدون الحرية تجد الأفكار مجالًا تعيش فيه، وتتحرك من خلاله، وإذا فقد الإنسان الاختيار الحر؛ فإنه يتصرف ويعمل بلا اقتناع أو رضا، وهذا شأن يأباه الإسلام ويمنعه، ومن الحقائق المؤكدة تشريعيًّا وعمليًّا أنه لا إكراه في اعتناق الإسلام، فالله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وهو -جل في علاه- ما جعل علينا في الدين من حرج، ولذلك قال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

إذًا: هذا جانب ينبغي أن يكون مفهومًا، والجانب الباطني في الإنسان لا يعلمه إلى الله، وارتباط الإيمان في الإسلام بهذا الجانب تأكيد واضح على ضرورة الحرية للاقتناع والإيمان، النفاق لا يغني من الحق شيئًا، والمنافق خطر على الإسلام، وخطورته أكثر من خطر الكافر؛ لأن المنافق عدو خفيٌّ، والكافر إنما هو عدو ظاهر، والخفي ضرره أكثر وإيذاؤه أبلغ.

ويوم أن ظهر المنافقون في المدينة حذر الله منهم، وبين للنبي ﷺ مظاهرهم ومواطن الخطر من قبلهم.

ونرى أيضًا: أن الجهاد يبرز إيجابية المسلم: فالمسلم يسلم باطنه وظاهره لله تعالى، وليست الحياة الدنيا في مفهوم المسلم مغنمًا يحرص عليه؛ وإنما هي مجال يطيع الله تعالى فيه ومن خلاله؛ ليغنم رضوان الله وجنته بعد هذه الحياة.

الجهاد يبرز أعلى درجات الاستسلام والطاعة لله؛ لأن المجاهد يدفع روحه لله، ويقبل بالموت راضيًا في سبيل الله؛ ليفوز برضوانه -تبارك وتعالى- وسائر العبادات ترقى بالمسلم في طريقه، وتستمر في تطهيره، وتعظم عنده حجر الذنوب، وتؤكد عليه البذل في سبيل الله -تبارك وتعالى.

الجهاد بذل للمال وللنفس، وترك للدنيا من أجل إعلاء كلمة الله -تبارك وتعالى- وذلك هو ذروة سنام الإسلام، والمجاهدون هم صفوة الخلق، وأكرمهم عند الله -تبارك وتعالى- وجدد الله لهم الحياة بعد استشهادهم، وضعف لهم رزقهم، وأحاطهم بالسرور من كل جانب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

لقد قام المجاهدون بما تعلموه من رسول الله؛ فلم يبدءوا بعدوان، وإنما كانوا يبدءون بعرض الإسلام، وشرح أعماله ومراميه، ودفع ما يثار حوله من شبه وافتراءات، وكانوا يعرضون الجزية يدفعها من يأبى الإسلام؛ ليكون له العهد، ولتكون له الذمة، لم يتعد المجاهدون على شيخ أو امرأة أو صغير أو راهب في صومعة.

إن الجهاد في الإسلام له غاية معلومة، وسبيل مفهومة من خلال تشريعه الصريح، وتطبيقاته عبر التاريخ، المجاهد لا يطلب مجدًا شخصيًّا، ولا سلطانًا قوميًّا، ولا استعلاء أمميًّا، وإنما غايته تحقيق العبودية للمعبود الحق -سبحانه- وإعلاء سلطان الله -تعالى- في خلقه أجمعين، وبذلك يكون المسلم المجاهد إيجابيًّا يفيد الخلق أجمعين.

مراحل تشريع الجهاد:

إن الجهاد بنوعيه جهاد الطلب، وجهاد الدفع مرا بعدة مراحل قبل أن يصل إلى حكمه النهائي، من هذه المراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الكف عن المشركين، والإعراض عنهم، والصبر على أذاهم، مع الاستمرار في دعوتهم إلى دين الحق، يدل على هذه المرحلة قول النبي ﷺ: ((إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا)) وهذا منصوص عليه في كتاب الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

ولما استأذن أهل يثرب ليلة العقبة نبينا ﷺ أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم، قال: ((إني لم أؤمر بهذا)) وفي قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤]، قال ابن كثير: أي: يصفحوا عنهم، ويحملوا الأذى منهم.

وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب؛ ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله

للمؤمنين الجلاد والجهاد، هكذا روي عن ابن عباس وقتادة، وقال ابن حجر: فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقًا.

وقال القرطبي: ولم يؤذن للنبي ﷺ في القتال مدة إقامته بمكة.

المرحلة الثانية: إباحة القتال من غير فرض، ومن أدلة هذه المرحلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠]. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية -وقال غير واحد من السلف-: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد: وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا؛ فلو أمر المسلمين، وهم أقل من العُشر بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفًا وثمانين، قالوا: يا رسول الله!! ألا نميل على أهل الوادي -يعنون أهل منى ليالي منى- فنقتلهم؛ فقال رسول الله ﷺ: ((إني لم أؤمر بهذا)).

فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر؛ فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام، ومعقلًا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك.

المرحلة الثالثة: فرض القتال على المسلمين لمن يقاتلهم فقط، ومن أدلة هذه المرحلة قول الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩٠، ٩١]، يقول ابن تيمية عن هذه المرحلة: ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم، بل قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ﴾ الآيات. وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدًا جائزًا غير لازم.

ويدل على هذه المرحلة أيضًا سيرته ﷺ فمن المعلوم من سيرة النبي ﷺ أنه لما قدم المدينة لم يحارب أحدًا من أهل المدينة؛ بل وادعهم حتى اليهود خصوصًا بطون الأوس والخزرج، فإنه كان يسالمهم ويتألفهم بكل وجه، وكان الناس إذ قدمها على طبقات منهم المؤمنون -وهم الأكثرون- ومنهم الباقي على دينه، وهو متروك لا يحارب ولا يحارب، وهو والمؤمنون من قبيلته وحلفائهم أهل سلم لا أهل حرب حتى حلفاء الأنصار أقرهم النبي ﷺ على حلفهم.

المرحلة الرابعة: قتال جميع الكفار على اختلاف أديانهم وأجناسهم ابتداء، وإن لم يبدءوا بقتال حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وهذا على خلاف بين العلماء، وهذه المرحلة على كل حال بدأت من انقضاء أربعة أشهر من بعد حج العام التاسع من الهجرة، ومن بعد انقضاء العهود المؤقتة، وتوفي النبي ﷺ والعمل على هذه المرحلة الأخيرة، وعليها استقر حكم الجهاد. ومن أدلتها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

هذه المراحل ذكرها علماء الإسلام؛ في مؤلفاتهم من كل مذهب، يقول السرخسي: وقد كان رسول الله ﷺ مأمورًا في الابتداء بالصفح والإعراض عن المشركين: قال تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ [الحِجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحِجر: ٩٤]، ثم أمر بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ ﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١]، ثم أمر بالبدايات بالقتال؛ فقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ [التوبة: ٥]، وقال النبي ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)) فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين، وهو فرض قائم إلى قيام الساعة.

وقال الشافعي: وأنزل الله ﷻ فيما يثبته به، إذا ضاق من أذاهم: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحِجر: ٩٧ - ٩٩]، ففرض عليه إبلاغهم وعبادته، ولم يفرض عليه قتالهم، وأبان ذلك في غير آية من كتابه، ثم أذن الله ﷻ لهم بالجهاد، ثم أذن لهم بأن يبتدءوا المشركين بقتال.

قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩]، وأباح لهم القتال بمعنى: أبانه في كتابه، فقال: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ولما مضت لرسول الله ﷺ مدة من هجرته أنعم الله فيها على جماعة باتباعه حدثت لهم بها مع عون الله ﷻ قوة بالعدد لم يكن قبلها؛ ففرض الله ﷻ عليهم الجهاد بعد إذ كان إباحة لا فرضًا؛ فقال -تبارك وتعالى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال ابن رشد: وأول ما بعث الله نبيه # بالدعاء إلى الإسلام من غير قتال أمره به، ولا أذن له فيه، ولا جزية أحلها له، فأقام رسول الله ﷺ على ذلك عشر سنين، وهي التي أقام بمكة، وحينئذ أنزل الله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وما أشبه ذلك من الآيات؛ فلما هاجر إلى المدينة أذن الله تعالى له وللمؤمنين بقتال من قاتله، وأمرهم بالكف عن من لم يقاتلهم. فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] وقال: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]

وقال: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

قال -رحمه الله-: فكانت هذه سيرة رسول الله والمسلمين منذ هاجر إلى المدينة إلى أن نزلت سورة براءة، وذلك عبد ثمان من الهجرة قاموا لله -تعالى- فيها بقتال جميع المشركين من أهل الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال ﷺ: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب".

إلا من كان له عهد عن النبي ﷺ فإن الله أتمه له إلى مدته؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ

﴿إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] وفرض الله ﷻ الجهاد حينئذ على جميع المسلمين كافة؛ فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

أهداف الجهاد وغاياته:

وللجهاد حكم بالغة وأهداف جليلة، شرع ذلك العليم الخبير، والهدف الرئيس هو تعبيد الناس لله وحده، وإخراج الخلق من العبودية للعباد إلى عبودية رب العباد، وإزالة هذه الطواغيت من الأرض جميعًا، وإخلاء العالم من الفساد، وذلك أن خضوع البشر للبشر هو من أعظم الفساد.

وتقديم أنواع العبادة لهم من الدعاء، والنذر والتعظيم والتشريع، والتحاكم هو أس فساد الأديان المتعاقبة من لدن نوح # إلى يومنا هذا، وهو انحراف بالفطرة السوية عما خلقها الله عليه من التوحيد، كما قال ﷻ على لسان نبينا ﷺ: ((إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن هم أتتهم الشياطين؛ فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا)) إذًا: هدف الجهاد الأكبر هو إرجاع البشر إلى الأصل، وهو العودة إلى الملة الحنيفية التي بها يخضعون لرب العالمين.

والأدلة على أن هذا هو هدف الجهاد الأكبر، قول الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال ابن كثير: ثم أمر الله تعالى بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة -أي: شرك- قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، وزيد بن أسلم، ويكون لله، أي: يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان، والنبي ﷺ: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)) ويقول: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)) وكان يقول: ((بُعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذل والصغار على من خالف أمري)).

وهناك أهداف وحكم للجهاد كلها تابعة للهدف الرئيسي الذي تقدم آنفًا، ومن ذلك على سبيل المثال:

١. رد اعتداء المعتدين على المسلمين، قال -سبحانه-: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

٢. إزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد من غير عائق، وحتى يروا نظام الإسلام مطبقًا؛ ليعرفوا ما فيه من عدل وصلاح وإصلاح.

٣. حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار، ومن الأدلة على هذا الهدف العظيم ما رواه أحمد في (مسنده) بسنده عن ابن عباس بن عبد الله بن

أنيس، قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: ((إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة، فأته فاقتله)) قال: قلت: يا رسول الله، انعته لي حتى أعرفه، قال: ((إذا رأيته وجدت له قشعريرة)).

قال: فخرجت متوشحًا بسيفي حتى وقعت عليه وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلًا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدته ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة؛ فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الركوع والسجود؛ فلما انتهيت له، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا، قال: أجل. أنا في ذلك.

قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته؛ ثم خرجت، وتركت ظعائن مكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: ((أفلح الوجه)) قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: ((صدقت)) قال: ثم قام معي رسول الله؛ فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: ((امسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس)).

قال: فخرجت بها على الناس؛ فقالوا: ما هذه العصا. قال قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله؛ فتسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: لمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: ((آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المنحصرون، يومئذ يوم القيامة)) فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فصبت معه في كفنه ثم دفنا جميعًا، ومن ذلك أمر الرسول ﷺ بقتل كعب بن الأشرف

اليهودي وسلام بن أبي الحقيق؛ فإنهما كانا مصدرًا خطر على الدولة الإسلامية؛ فأرسل لهما النبي من يقتلهما، وقد مضى معنا ذلك.

٤. إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم وإغاظتهم، قال -جل من قائل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال -جل من قائل-: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

ولا تقتصر تلك الحكم، وتلك الأهداف السامية، والمصالح الكريمة، والفوائد العظيمة على ما يتحقق في أنفس الكفار من الرهبة، وإنما تتحقق مصالح للمسلمين في ذوات أنفسهم إذا مارسوا الجهاد، منها على سبيل المثال:

١. كشف المنافقين؛ فإن المسلمين في حال الرخاء والسعة ينضاف إليهم غيرهم ممن يطمعون في تحقيق مكاسب مادية، وهم لا يريدون رفع كلمة الله على كلمة الكفر.

٢. تمحيص المؤمنين من ذنوبهم؛ فإن المجاهد المسلم إذا أخلص النية لله وحضر المعركة فقتل الكفار نال ثوابًا عظيمًا؛ كما جاء في الحديث: ((لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدًا)).

٣. تربية المسلمين على الصبر والثبات والطاعة، وبذل النفس، وغير ذلك من الفوائد التربوية؛ فإن الركون إلى الراحة والدعة وعدم ممارسة الشدائد

والصعاب تورث العبد ذلًّا وخمولًا، وتشبثًا بمتاع الحياة الدنيا، وخوض المعارك، ومع مقارعة الأعداء وخوض المعارك ومقارعة الأعداء والتعرض لنيل -رضا الله- في ساحات الوغى يسكن النفوس ويهذبها، ويذكرها بمصيرها ويوجب لها استعدادًا للرحيل.

٤. تلك الغنائم التي كانت تمد دولة الإسلام وتقويها، وإن لها لموقعًا في النفس البشرية إلى غير من الفوائد والحكم التي تجل عن الحصر، وتفوق على العد بحمد الله تبارك وتعالى.

حكم جهاد المرتدين:

قدمنا أن الردة والنفاق من أخبث أنواع الكفر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] والردة -والعياذ بالله-: الرجوع عن دين الإسلام، فكل من دخل في الإسلام ثم خرج منه إلى دين النصارى أو اليهود أو أي دين من الأديان الوضعية كالبوذية أو إلى غير دين كالملاحدة أو نقض إسلامه بناقض، وإن لم يرد الخروج من الإسلام بالكلية؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكل من تلبس بنوع من أنواع الشرك والكفر والنواقض الآتية بعد دخوله في الإسلام يجاهد بالسيف بعد قيام الحجة الرسالية عليه.

وأنواع الشرك كثيرة: فمنها: شرك الدعاء، وشرك النية، والإرادة، والقصد، وشرك الطاعة، وشرك المحبة. ومن الكفر: كفر التكذيب، والإباء والاستكبار، والشك والظن، والإعراض وإنكار ما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة، كوجوب الصلاة والزكاة، وكحرمة المحرمات، وغير ذلك، ومنه أيضًا كفر

التشريع من دون الله بما يخالف حكم الله، وغير من أنواع المُكفرات التي تؤدي إلى الخروج من الإسلام بالكلية.

وقد لخص الشيخ محمد بن عبد الوهاب نواقض الإسلام في عشرة، فعد من ذلك: الشرك في عبادة الله، وأن يجعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، وأن يترك تكفير المشركين الأصليين أو أن يشك في كفرهم أو أن يصحح مذهبهم واعتقادهم، أو من دعا أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غير النبي ﷺ أحسن من حكمه وأن يبغض شيئًا مما جاء به النبي ﷺ ولو عمل به، أو من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه أو من فعل من فعل السحر الذي يتضمن الكفر أو الشرك أو من ظاهر المشركين وعاونهم على المسلمين أو من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ﷺ وأنه يسعه الخروج من شريعته، كما وسع الخضر أن يخرج عن شريعة موسى أو أن يُعرض عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به. ونحو ذلك من المسائل التي ذكرها أو من رءوس المسائل التي يحكم على صاحبها بالردة كل هذه المكفرات أسباب للخروج من الإسلام والعياذ بالله تعالى.

ومعلوم: أنه بعد موت النبي ﷺ وفي آخر حياته، ارتد بعض الناس، وادعى بعضهم النبوة في زمنه ﷺ وبمجرد وفاته ﷺ وقع شيء من الردة عظيم، وتصدى له الصديق > وأرضاه- واستدل بقول النبي ﷺ: ((من بدل دينه فاقتلوه)).

وقد روى البخاري في (صحيحه) عن أبي هريرة > قال: "لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله))؟.

قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها، قال

عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق". وخاض الصديق < غمار حروب الردة، وخاض معه أجلة الصحابة هذه الحروب، فدرأ الله تعالى فتنة المرتدين، وأبطل سعيهم، وأذهب كيدهم، وأعز الله تعالى هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، فكان طودًا شامخًا ثبت الله به الإسلام في الجزيرة.

الترغيب في الجهاد وبيان فضائله:

ومما ورد في الترغيب في الجهاد وبيان فضائله، ذلك الركن من أركان الإسلام الذي لا قوام للإسلام ولا قوام لشرائعه إلا به قول الله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] وقال -جل من قائل-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣]

وفي (صحيح البخاري) من حديث أبي هريرة أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد؛ قال: ((لا أجده)) قال: ((هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك؛ فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر)) قال:

ومن يستطيع ذلك. قال أبو هريرة: "إن فرس المجاهد ليستن في طِوَله فيكتب له حسنات". وعن أبي سعدي الخدري < قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال ﷺ: ((مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)) الحديث.

وفي الحديث الآخر من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله يقول: ((مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالمًا مع أجر وغنيمة)). وعن عبد الله بن أبي أوفى } أن رسول الله ﷺ قال: ((واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)) وقال: ((ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار)).

وعن سهل بن سعد الساعدي < أن رسول الله ﷺ قال: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع صوت أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها)).

موقف تلاميذ الاستشراق والاستعمار، والفرق الضالة الحديثة والقديمة من الجهاد

أولًا: موقف تلاميذ الاستشراق من أحكام الجهاد:

مر معنا أن الأمة لما قامت بالجهاد الإسلامي الذي كفلها الله تعالى إياه، وكلفها به أعزها وأذل أعدائها، ونشر الإسلام من أقصاها إلى أقصاها، وحكم القرآن أقطار الأرض التي خضعت لسلطان الإسلام وقانون التوحيد، فلما رأت الأمم الكافرة: أن سلطان الإسلام يسير حثيثًا لفرض سيطرتها، على العالم أجمع، وأن عقيدة المسلمين هي التي تدفعهم لإزالة الكفر بجميع الأنواع، وإخلاء العالم من الفساد، ونشر توحيد رب العباد؛ فكروا، وخططوا على نشر هذه الحرب

الضارية التي كانت -وما تزال- متقدة مستعرة لحرف المسلمين عن هذه العقيدة -عقيدة الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى-.

وقد ابتدع تلاميذ المستشرقين -ومن سار على نهجهم- بدعة منكرة، تخالف نص القرآن ونص السنة الصحيحة، وتخرق إجماع السلف الصالح، هذه البدعة: هي أن الجهاد في الإسلام ما كان إلا دفاعًا فقط، وأن المسلمين لا يجوز لهم أن يغزوا كفار لأجل إخضاعهم إلى سلطان الإسلام وإعلاء كلمة الله على كلمتهم إلا إذا سبق الكفار بالاعتداء على المسلمين، وهذه إنما ظهرت على يد تلاميذ المدرسة العقلية الحديثة، وتلاميذ هذه المدرسة أعجبوا بما عند الغرب من مفاهيم في الحياة الاجتماعية، والسياسية والفكرية، فبذلوا قصار الجهد ليوضحوا للناس أن هذه المفاهيم موجود مثلها وأفضل منها في الإسلام، ولقد كان أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين يحملون على الإسلام حملة شعواء، قوامها: أن الإسلام إنما انتشر بالسيف، وإنما انتشرت المسيحية بالمحبة والسلام.

فأراد هؤلاء أن يدفعوا عن أنفسهم وعن الإسلام هذه التهمة، فقالوا: إن الإسلام لا يستخدم السيف إلا للدفاع فحسب، وقد غاب عن أذهانهم الفرق بين أهداف الجهاد في الإسلام، وأهداف الحروب الأخرى التي يعرفها الناس في جاهلياتهم، والتي عرفتها أوربا في تاريخها كله -سواء منه القديم والمعاصر.

والسبب الذي لأجله غاب عنهم، وعن غيرهم من كثير من أعداء الإسلام، ومن أبنائه: الفرق بين الجهاد الإسلامي، وبين حرب الكفار، وضحه بعض أهل العلم، فقال: لكنا إذا أمعنا النظر في المسألة من وجهتها العلمية، ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة الجهاد في سبيل الله، واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم؛ فضلًا عن غير المسلمين لاح لنا: أن مرجع هذا

الخطأ إلى أمرين مهمين لم يثبروا غورهما، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة:

فالأول: أنهم ظنوا الإسلام نحلة بالمعنى التي تطلق عليه النحلة عامة.

والثاني: أنهم حسبوا المسلمين أمة بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال، في الحقيقة: أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين، وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين، هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن، وعاقهم عن إدراكهم مغزى الجهاد الإسلامي.

والحق أحق أن يُتَّبع: إن هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين بأسره، وقلب الأمر ظهرًا لبطن، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجًا ضيقًا لا يرضاه الإسلام وتعاليمه الخالدة.

فالنحلة على حسب الاصطلاح الشائع عندهم: لا يراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر، ولا جرم أن النحلة بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية، فأنت حر فيما تختار من العقيدة، ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت ما رضيت به ربًّا لنفسك، وإن أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها؛ فلك أن تخترق الأرض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعيًا إلى عقيدتك، مدافعًا عن كيانها بالحجج والبراهين.

مجادلًا من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام، أما السيف وآلات الحرب والقتال؛ فما لك ولها في هذا الشأن؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك؟ وإن كان الإسلام كنحلة من نحل العالم على حسب

الاصطلاح الشائع عندهم كمنا يزعمون، فالظاهر: أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب كما قالوا.

ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر -كما زعموا ووصفوا- لما كان فيه مساغ للجهاد، ولم يكن من الإسلام في ورد ولا صدر، لكن الأمر على خلاف ذلك كما سوف يظهر من البيان.

وكذلك كلمة الأمة؛ فما هي إلا عبارة عن: طائفة من الناس متوافقة فيما بينها اجتمعت وتآلفت، وامتازت من بين طوائف أخرى، لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية؛ فالطائفة التي تكُوِّن أمة بهذا المعنى لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران، إما أن يُعتدى عليها، وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة، ففي الصورة الأولى: منهما لها سعة في الأمر، وهي لا تخلو من وازع خلقي يلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها، وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضًا.

أما الصورة الثانية: الاعتداء على حقوقها أو على حقوق غيرها والإغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب؛ فلا يبيحها غير بعض الجبابرة المسيطرون، فإذا كان الإسلام نحلة كالنحل الأخرى، والمسلمون أمة كغيرهم من أمم العالم، فلا جرم أن الجهاد الإسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات، ودرة تاجها.

ولكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم، بل الأمر أن الإسلام فكرة أو عقيدة انقلابية ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره، ويأتي بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي.

ومن هنا تعرف: أن لفظ المسلم وصف لهذه العقيدة الانقلابية العالمية، التي يكون الإسلام وينظم صفوفها؛ ليكون أداة في إحداث ذلك البرنامج الانقلابي الذي يرمي إليه الإسلام، ويطمح إليه ببصره، والجهاد هو عبارة عن ذلك الكفاح عن تلك الحركة الدائمة المستمرة التي يُقام بها للوصول إلى هذه الغاية، وإدراك هذا المبتغى، فالإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية، وجملة من المناسك والشعائر كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام.

بل الحق أنه نظام كلي شامل، يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم، ويقطع دابرها ويستبدل بها نظامًا صالحًا، ومنهاجًا معتدلًا يرى: أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى، وأن فيه نجاة للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان، وسعادة له وفلاحًا في العاجلة والآجلة معًا.

غاب عن تلاميذ مدرسة "العقلية الحديثة" هذا المفهوم للجهاد، أو أرادوا صرف المسلمين عن هذا الهدف؛ فكان ما كان مما كُتِب من هذه الكتابات التي فيها من الإغضاء على الإسلام، والغض من عقيدة الجهاد بشكل يتوافق مع ما عند هؤلاء المستشرقين، وما عند أجيال أولئك المستشرقين.

ثانيًا: موقف الدعوات والأفكار الحديثة من الجهاد:

أ- الدعوة إلى القومية:

حين تُذكر الدعوة إلى القومية يرتبط بها تلاميذ الاستشراق والاستعمار، وهذه الدعوة هي الدعوة إلى القومية العربية، وهي: حركة ودعوة فكرية، وسياسية متعصبة تدعو إلى تمجيد العرب وإقامة دولة موحدة لهم على أساسٍ من رابطة الدم، والقربى، واللغة، والتاريخ، وإحلال هذه الرابطة محل رابطة الدين.

وهي صدى للفكر القومي الذي سبق وأن ظهر في أوروبا، والمطلع على نشأة القومية العربية، والعوامل المؤثرة في نشأتها، وعلى تصريح دعاتها يدرك خطورة الكيد الذي يمارس لتحريف دين المسلمين، كما حُرفت اليهودية والنصرانية من قبل.

يقول أبو الحسن الندوي -رحمه الله- شارحًا الأسباب التي أدت إلى ظهور القوميين وموقفهم من الدين الإسلامي: "وبقي العرب يعيشون بالإسلام وللإسلام، وبقي تاريخ كل منهما متصلًا بتاريخ الآخر متداخلًا بعضه في بعض، وبقي الوضع هكذا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وقد بدأت في الأتراك الذين كانوا يحكمون الشام والعراق والحجاز الكبرياء القومية.

وبدا كثير من حكامهم يعاملون الشعوب العربية واللغة العربية معاملة تشبه أحيانًا كثيرة معاملة المستعمر للمستعمر، وبدت منهم القسوة والجفاف والغطرسة في مناسبات كثيرة، رغم إغداقهم الأموال الكثيرة على الحجاز، وتقديس الحرمين الشريفين ومن يسكنهما، رغم النظر إلى الشعب العربي نظر إجلال ديني وروحي، ولم يظهر منهم من التسامح وسعة الأفق ورقّة الذوق، واحترام حرية الرأي، وتشجيع الثقافة والميول والرغبات البريئة في الشعوب العربية، ما كان يتوقع من شعب حاكمًا يعيش في هذا العصر القلق المتطور، وما كان يستحقه.

وما كان يستحقه العرب بصفة خاصة كشعب ممتاز، وكشعب كان مصدر الدعوة الإسلامية، وحاول بعض حكامهم السفهاء الغلاظ القضاء على الشخصية العربية. كل ذلك أثار في العرب النقمة والنخوة العربية، وظهرت بدايات ذلك الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، متمثّلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية.

ثم في حركة عالمية في جمعية أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول، الذي عقد في باريس سنة اثنتا عشرة وتسعمائة وألف من الميلاد.

وفيما يلي الإشارة إلى أهم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي:

أ. الجمعية السورية أسسها نصارى منهم بطرس البستاني، وناصف اليازجي سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف في دمشق.

ب. الجمعية السورية في بيروت: أسسها نصارى أيضًا منهم سليم البستاني ومنيف خوري سنة ثمان وستين وثمانمائة وألف.

ج. الجمعية العربية السرية، والتي ظهرت سنة خمس وسبعين وثمانمائة وألف، ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا وغير ذلك.

د. جمعية الوطن العربي، وجمعية رابطة الوطن العربي، وكلتاهما كانتا في باريس سنة أربع وتسعمائة وألف، وخمس وتسعمائة وألف.

ه. جمعية العربية الفتاة: أسسها في باريس طلاب عرب، منهم محمد البعلبكي سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف.

ونلحظ أن كل هؤلاء الذين أسسوا هذه الجمعيات كانوا من النصارى لم يكن منهم مسلمون، حتى جاءت جمعية: العربية الفتاة.

وظلّت الدعوة إلى القويمة العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها ولم تصبح تيارًا شعبيًّا عامًّا إلا حين تبنّى الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، حين

سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات دولته، ويمكن أن يقال: إنها الآن تعيش فترة انحسار أو جمود على الأقل.

ويعد ساطع الحصري المولود سنة ثمانين وثمانمائة وألف، والمتوفى سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف يعد داعية القومية العربية، ويعد من أهم مفكريها وأشهر دعاتها له مؤلفات كثيرة تُعد الأساس التي تقوم عليه الفكرة العربية، ويأتي بعده في الأهمية النصراني ميشيل عفلق.

أفكار ومعتقدات الفكر القومي:

يُعلي الفكر القومي رابطة القربى والدم، على حساب رابطة الدين، وإذا كان بعض كتاب القومية العربية يسكتون عن الدين، فإن بعضهم الآخر يصرّ على إبعاده واستبعاده عن كل رابطة تقوم عليها الأمة، وذلك بحجّة أن ذلك يمزّق الأمة بسبب وجود غير المسلمين فيها، ورغم أن رابطة اللغة والجنس أقدر على جمع كلمة العرب من رابطة الدين.

وفي تقييم علماء الإسلام لهذه الدعوة وتلك الفكرة يصفها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله-: "بأنها جاهلية إلحادية تهدف إلى محاربة الإسلام، والتخلص من أحكامه وتعاليمه"، ويقول عنها: "وقد أحدثها الغربيون من النصارى لمحاربة الإسلام، والقضاء عليه في داره بزخرف من القول، فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام، واغترّ بها كثير من الأغمار ومن قلّدهم من الجهال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان" ويقول أيضًا: "هي دعوة باطلة، وخطأ عظيم، ومكر ظاهر، وجاهليّة نكراء، وكيد سافر للإسلام وأهله".

ذلك أن هؤلاء إنما نبذوا الأديان كافة وراء ظهورهم، وجعلوا الولاء والبراء في الوطن، أو في التراب، أو في الدم على حساب رابطة الدين، وكثير ما تمثلوا قول الشاعر القروي:

هبوني عيدًا يجعل العرب أمة ❖ وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا ❖ وأهلًا وسهلًا بعده بجهنم

والعياذ بالله تعالى.

أو يقول الآخر:

وَهَل أنا إلّا مِن غَزيَّةَ إن غَوَت ❖ غَوَيتُ وَإِن تَرشُدْ غَزيَّةُ أرشَدِ

طبعًا هذا ممّا يُنكر ولا يقبل، ويردّ على قائله مطلقًا. كما يرى دعاة القومية أن الحدود بين أجزاء هذا الوطن هي حدود طارئة، ينبغي أن تزال، وينبغي أن تكون للعرب دولة واحدة، وحكومة واحدة تقوم على أساس من الفكر العلماني.

يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديان جملة وعلى حدّ سواء، لذا يتبنّون شعار "الدين لله والوطن للجميع".

والهدف من هذا هو إقصاء الإسلام عن أن يكون له وجود فعلي من ناحية، وجعل أخوّة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى، ويرى الفكر القومي: أن الأديان، والأقليات، والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلّص منها من أجل بناء مستقبل الأمة.

حتى قال بعض قائليهم: نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- ويقرّر القوميون أن الوحدة العربية حقيقة، أما الوحدة الإسلامية فهي حلم. وهذا لا يحال بحال.

يقول بعضهم الآخر: إن العروبة هي ديننا نحن العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين؛ لأنها وجدت قبل الإسلام، وقبل المسيحية، ويجب أن نغار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي، والمسيحيون على إنجيل المسيح، ويقرّر بعضهم الآخر أن المرحلة القومية في حياة الأمة هي مرحلة حتمية، وهي آخر مراحل التطور كما أنها أعلى درجات التفكير الإنساني.

يوجد كثير من الشباب العربي، ومن المفكرين العرب الذين حملوا هذا الفكر كما وجدت عدة أحزاب قومية منتشرة في البلاد العربية مثل حركة الوحدة الشعبية في تونس، وحزب البعث بشقّيه في العراق وسوريا، وبقايا الناصريين في مصر وبلاد الشام، وفي ليبيا.

وكثير من الحكّام كانوا يتبارون فيما مضى في ادّعاء القومية، وكان كل منهم يفتخر بأنه أحد روّاد القومية العربية، ويدّعي أنه الأجدر بزعامتها، ثم تراجع هؤلاء، وأولئك إلى ماذا؟ إلى لا شيء، إلى انحناء أمام الفكر الليبرالي، وخضوع أمام الرأسمالي، وخنوع أمام الاستعمار الصريحي المعلن غير المستتر.

وهذه الدعوة الهدّامة رأينا أنها تصرف معنى الجهاد الحقيقي، ورأينا أقوال دعاتها تعارض الإسلام بصراحة مكشوفة حينًا، وبعبارات مغلفة حينًا آخر. وهي التي أنشأت جامعة الدول العربية من أجلها؛ لكي تتبنّاها الدول وتنشرها بما لها من هيمنة، ونفوذ على الشعوب، وعلى مناهج التعليم، ووسائل الإعلام. وقد أوعزت بريطانيا بإنشاء جامعة الدول العربية، ولا توعز بريطانيا إلا بما يخدم مصالحها.

يقول بعض الباحثين: يقول جورج كيرك مؤلف كتاب (موجز تاريخ الشرق الأوسط): "إن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني طار إلى

القاهرة أنتوني إيدن وزير الخارجية البريطانية عام ستة وأربعين وتسعمائة وألف، ودعا الملوك والرؤساء العرب للاجتماع به هناك، وعرض عليهم في الاجتماع فكرة إنشاء الجامعة العربية في القاهرة لتتبنّى قضايا العرب.

ولتدافع عن مصالحهم، وورثت أمريكا بريطانيا وفرنسا بعد الحرب، وبسطت نفوذها على الشرق الأوسط، وأقامت أمريكا عن طريق الانقلابات العسكرية زعامات كاملة، تدافع عن القومية العربية في الوقت الذي تحارب فيه الإسلام والمسلمين، وقالت الدعاية التي أقامتها أمريكا وإسرائيل: إن أمريكا وإسرائيل تخشيان شيئًا خشيتهما للقومية العربي، ولا تخشيان أحدًا خشيتهما لزعيم القومية العربية.

وفي ظلّ القومية العربية التي أقامتها الصليبية العالمية مع اليهودية العالمية توسّعت إسرائيل، وتوسعت حتى توشك أن تبتلع فلسطين كلها، وتتطلّع إلى المزيد.

لقد كانت القومية التي صُدّرت إلى العالم الإسلامي هي القومية المأكولة، لا القومية الآكلة التي قامت في أصلها هناك.

ب- الدعوة إلى الوطنية:

الدعوة إلى الوطنية هي شقيقة الدعوة إلى القومية، وإذا كانت راية القومية رُفعت أولًا؛ فإن راية الوطنية رُفعت بعد ذلك بقليل، والوطنية هي تقديس الوطن؛ بحيث يصير الحب فيه، والبغض لأجله، والقتال من أجله، وإنفاق الأموال من أجله حتى يطغى على الدين، وعلى حبه، وحتى تحلّ الرابطة الوطنية محلّ الرابطة الدينية؛ فالوطنيون يحبون أبناء وطنهم وإن كانوا على غير ملّتهم أكثر من محبتهم لمن كانوا على ملتهم إذا لم يكونوا في وطنهم؛ بل قد يصل الأمر

بالوطنيين إلى اجتماعهم على محاربة المسلمين مع الكفار؛ لأن الكفار من أبناء وطنهم، وإذا وصل الحال بالإنسان إلى هذه الدرجة، فقد عبد الوطن من دون الله، والعصبية للوطن من جنس العصبية للقوم. كل ذلك من دعاوى الجاهلية في العصر الحاضر التي نسمع الدعوة لها في ديار الإسلام، بضاعة مستوردة كغيرها من المستوردات.

لما قامت الثورة المصرية عام تسعة عشر وتسعمائة وألف، وذلك بمصر، واشتدّت، وعجزت بريطانيا عن إخمادها غيرت مندوبها في مصر، وأرسلت بدلًا منه اللورد أللنبي، ومكث شهرًا يتحرى الأوضاع، ثم أرسل برقية إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيها: الثورة تنبع من الأزهر. وهذا أمر له خطورته البالغة أفرجوا عن سعد زغلول، وأرسلوه إلى القاهرة، جاء سعد وقرّت به أعين الإنجليز فصرف الثورة من ثورة دينية تنبع من الأزهر، وتنادي بجهاد الكفار إلى ثورة وطنية تنادي بتحرير التراب، يشترك فيها النصارى المصريون مع المسلمين لمحاربة النصارى الإنجليز، وقال قولته المشهورة "الدين لله والوطن للجميع"، مغزى العبارة أننا غير معنيّين بالدين وبنشره، فهو لله يتولّى نشره والدفاع عنه. أما الوطن فهو لنا جميعًا نحن والأقباط، فلنبذل جهادنا وجهدنا لأجل ترابنا لاستنقاذه.

إن الدين لله والوطن لله، ولا خير في وطن بلا دين، ثم قال سعد زغلول للمصريين مرة أخرى: لا تنادوا بشعارات إسلامية لكي لا يغضب إخواننا الأقباط المشاركون لنا في الثورة، وقد كان اشتراكهم مقصودًا ليكون لهم في الحكم نصيب، ثم ألف سعد حزب الوفد، ونص في لائحته على تحريم الخوض في أي نقاش ديني، وأخذ القسس النصارى يدخلون الأزهر ويخرجون في

المظاهرات، ومن مصر سَرَت العدوى للأقطار العربية الأخرى، فصار شعار الوطنية تلوكه الألسنة، وتنشره وسائل الإعلان، ومناهج التعليم، ويربى عليه التلاميذ في المدارس، ويقدّم على الدين، ويغرس في الجنود حبّ الفداء له لا للدين.

ولا شك أن الجهاد من أجل الوطن إذا لم يكن هدف أصحاب الوطن هو نشر الإسلام، وتحكيمه في الحياة، وإعلاء كلمة الله تعالى؛ لتكون كلمة الله تعالى هي العليا، كما تقدم؛ فالمفهوم من هذا الحديث أن من قاتل لكي لتكون كلمة الوطن هي العليا، فقتاله في سبيل الشيطان، وميتته عندئذٍ ميتة جاهلية.

يقول الأستاذ محمد قطب عن هدف تصدير الكفّار بشعار الوطنية إلى الأمة الإسلامي يقول: وقد كانت دعاوى القومية والوطنية المصدرة عن عمد إلى العالم الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري الذي استخدمه الصليبيون المحدثون في الغارة على العالم الإسلامي، كما سمى شاتلييه كتابه السالف الذكر، والهدف من ذلك واضح، ولا شك. فطالما كان المسلمون مسلمين فسيصعب على الغزاة ابتلاعهم مهما كانوا عليه من الضعف والتخلف.

ذلك أن العقيدة الإسلامية عقيدة جهاد، وقد ذاق الفرنسيون في الشمال الإفريقي، وذاق الإنجليز في الهند وغيرها من أقطار أفريقيا وأسيا من عقيدة الجهاد هذه ما لا يزال عالقًا بنفوسهم. وبرغم كل الضعف والتخلف الذي كان عليه المسلمون؛ فاقتلاع هذه العقيدة واستبدال غيرها به أمرٌ ذو أهمية بالغة، سواء من جهة النظر الصليبية، أو من وجهة النظر الاستعمارية البحتة.

وبالفعل بذرت بذور الوطنية أولًا في العالم الإسلامي، ثم جاء دور القومية بعد ذلك فحقّقوا أكثر من هدف في وقت واحد.

فالهدف الأول: هو تحويل حركات الجهاد الإسلامي ضدّ الاستعمار الصليبي إلى حركات وطنية، كما فعل سعد زغلول في مصر وغيره من الزعماء الوطنيين على اتساع العالم الإسلامي.

والهدف الثاني: تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلى حركات سياسية عن طريق تحويلها إلى حركات وطنية. فالعدو غير قادر على التفاهم مع الحركات الإسلامية؛ لأنه لا سبيل إلى التفاهم معها في الحقيقة إلا بإخراج ذلك العدو خارج البلاد، ومن ثمّ فلا سبيل إلى استعمال السياسة من جانب العدو.

أما الحركات الوطنية فالتفاهم معها سهل وممكن، وهنا وعد من المستعمر بالجلاء، ويأتي الوقت الموعود فيتذرع المستعمر بشتى المعاذير لتأجيل جلائه، ويعطي وعودًا جديدة يعتذر عنها بدورها إذا جاء دورها والساسة الوطنيون يغضبون، أو يتظاهرون بالغضب لإرضاء الجماهير.

والهدف الثالث: هو تيسير عملية التغريب من خلال تحويل حركة الجهاد إلى حركة وطنية سياسية. فحين تقوم حركة الجهاد على أساس إسلامي يكون الباب موصدًا تمامًا بين المجاهدين وعدوهم لا يأخذون شيئًا من فكره، ولا اعتقاده، ولا عاداته، ولا تقاليده، ولا أنماط سلوكه. أما حين يتحوّل الجهاد إلى حركة وطنية سياسية فالحاجز أرق يسمح بالأخذ، ومعاذير الأخذ كثيرة.

فقد قال أستاذ الجيل لطفي السيد: "إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر، وليس السبيل أن نحاربهم بل السبيل أن نتعلم منهم ثم نتفاهم معهم". وبهذا العرض عن أهداف الدعوة إلى الوطنية يظهر مدى خطورتها على الجهاد وتفريغها لمحتواه.

جـ- الدعوة إلى الإنسانية:

كثيرًا من المبادئ المنحرفة التي تحول بين المسلمين وبين الجهاد؛ بل بينهم وبين الإسلام أحيانًا، ومما تُلُقِّفَ من تلك الدعوات الهدامة: الدعوة إلى الإنسانية وهي إنتاج يهودي. ذلك أن اليهود يعتبرون جميع الأجناس البشرية من غير اليهود هم الحمير التي خلقها الله ليركبها الشعب اليهودي المختار، وهم يخططون لإقامة مملكة عالمية يحكمها يهودي من نسل داود.

وكان من تخطيطهم الخبيث أن انقسموا فريقين؛ فريق يساعد على إنجاح الثورة الفرنسية التي يسير على مبادئها العالم الرأسمالي أوروبا، وأمريكا، ومن يسير في الفلك، وفريق يشعل الثورة الشيوعية التي تشمل روسيا، والصين، ومن يسير في الفلك. وإذا بحثنا في حقيقة معاني تلك المبادئ التي رفعوها، وتلك الأوضاع التي أشهروها فإننا نصطدم أول ما نصطدم بشعار الحرية، والمساواة، والإخاء. هذه المبادئ التي تبنّتها الشعوب الغربية على أساس أنها أم المبادئ التحررية في العالم.

وإذا تأملنا فيها نرى إلى أي مدًى ضللت تلك الشعوب، فإذا أخذنا كلمة الحرية وتقصينا معناها المحدد، أو المعنى الذي يبلور قانونًا أو تشريعًا ينفذ عمليًّا في واقع الحياة لا نستطيع أن نصل إلى هذا القانون، أو التشريع؛ لأن الكلمة عامة ومطلقة. فهي تعني الحرية الفكرية، أم السياسية، أم الاقتصادية، أم الصحفية، أم الاجتماعية.

وإذا افترضنا جدلًا أنها تعني جميع هذه الحريات، ولكن الذي يحدّد نسب هذه الحريات وحدودها هل الشعار، أم السلطان، أم الشعب، أم من أطلق ذلك الشعار، والكلمة الثانية وهي المساواة، هي أيضًا عامّة مطلقة لا يمكن أن تُحدث

قانونًا، أو تشريعًا يُطبق في واقع الحياة، فهل هي المساواة السياسية، أم الفكرية، أم الاقتصادية، أم الاجتماعية.

وإذا فرضنا أنها جميعًا، فمن الذي يحدّد نسب المساواة، وهل يمكن تحقيقها في واقع الحياة؟ الجواب على هذا السؤال ما برح الغرب يحاول الإجابة عليه، ولكن دون جدوى، وأنه يعيش إلى الآن مشاكل عويصة بسبب هذا الطرح، ونحن نقول: إنه لا يمكن أن تتحقّق هذه المساواة إلا في الناحية السياسية. وهذا يعني أن يكون جميع الناس متساوين أمام الشريعة، أو القانون فقط.

أما أن تتحقق مساواة اقتصادية، أو اجتماعية، أو فكرية، وذلك في مختلف المناحي؛ فهذا أمر غير مقدور؛ لتفاوت مقدرات وطاقات وعقول الناس، وإذا طبقت هذه المساواة كما هي موجودة في الدول الشيوعية فإنها تُفضي إلى ظلم، وبغي، وتحقير لإنسانية الإنسان. والكلمة الأخيرة، وهي الإخاء هي مثل الكلمتين السابقتين، وإلى الآن لم يصل الغرب إلى تحديد عملي لهذه الكلمات الثلاث، ومن العجب أن تقول برتوكولات حكماء صهيون: كنا أول من اخترع كلمات الحرية، والمساواة، والإخاء التي أخذ العميان يردّدونها في كل مكان دون تفكير، أو وعي، وهي كلمات جوفاء لم تلحظ الشعوب الجاهلة مدى الاختلاف بين التناقض الذي يشيع في مدلولها.

إن شعار الحرية والمساواة والإخاء الذي أطلقناه قد جلب لنا أعوانًا من جميع أنحاء الدنيا، وأساءت هذه الكلمات إلى الرخاء السائد لدى المسيحيين، وحطمت سلمهم ووحدتهم، هذا منقول عن البرتوكول الأول.

إذًا هذه أضاليل اليهود التي تعوّدوا أن ينشروها، ويروّجوا لها بوسائل إعلامهم، وذلك لضرب أمم الجوييم وهم الأمميّون، والسؤال المطروح الآن هل كان لليهود يد، أو تأثير على تلك الثورات التي قامت هنا وهناك؟

نعم. إن الثورة الفرنسية بدت روح التلمود تسري فيها، وذلك بشكل واضح جليّ، كما يقول الأستاذ محمد عنان.

وكذا نلحظ أن الثورة الشيوعية كما يقول الحاخام "لويز برونس" عن مؤسس العقيدة، والفكر الماركسي: إن كارل ماركس حفيدٌ لحاخام مردخاي ماركسيًّا كان في روحه، وفي اجتهاده، وعمله، ونشاطه، كان أشدّ إخلاصًا لإسرائيل من الكثيرين ممّن يتشدّقون اليوم بأدوارهم في مولد الدولة اليهودية.

وفي الشرق استطاع اليهود إلى حدّ كبير أن يصرفوا المسلمين عن عقيدتهم التي تأمرهم بمحبة المؤمن، وموالته، ومناصرته، وبغض الكافر ومعاداته، ومنابذته، وأن يأمروا الناس بالتعامل مع الناس على أساس الرابطة الإنسانية فقط.

وتجاهلوا أن المسلم أمره الله تعالى أن يتعامل مع البشر على أساس الرابطة الدينية؛ فالإنسان إما مهتدٍ وأما ضالّ، والمسلم صديق للمهتدي عدو للكافر، هذا من ناحية الولاء القلبي والمحبة. أما التعامل بالبيع والشراء ونحو ذلك؛ فلا يدخل في هذا، بل يبتاع المسلم من أي كافر، ويبيع له ما لم يكن هذا البيع محرمًا.

وسائل التي محاها اليهود في هذا الصدد ما يُسمى بالجمعيات الماسونية، ووسائل الإعلام، والمنظمات الدولية، يقول بعض الباحثين: الإنسانية أو العالمية كما يدعونها أحيانًا دعوة برّاقة تظهر بين الحين والحين، ثم تختفي لتعود من جديد.

يا أخي، كن إنساني النزعة، وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء. دع الدين جانبًا فهو أمر شخصي علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب، ولكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين، فإنه لا ينبغي للدين أن يفرق بين الناس، ولا ينبغي للدين أن يفرّق بين البشر أصحاب

الأخوة في الإنسانية، فتعالى نصنع الخير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس، أو لون، أو وطنٍ، أو دين.

ثم انظر إلى تلك العبارة الماسونية اخلع عقيدتك على الباب، كما تخلع نعليك. ألا ترى شبهًا بين هذه الدعوة وتلك، أما ترى أنهما قريبتان بل شقيقتان، اخلع عقيدتك على الباب -أي: عند دخولك الماسونية- كما تخلع نعليك، وادخل بلا عقيدة، فهكذا يريدك الشياطين ليستعبدوك، ليسخروك لمصالحهم.

وعند نَشرك للدعوة؛ فإيّاك أن تتحدث في هذا عن الجهاد، فإن هذا فضيحة، هناك اليوم وسائل إنسانية لنشر الدعوة فاسلكها إن شئت، هناك الكتاب، والمذياع، والتلفاز، والمحاضرة، والدرس.

إياك ثم إياك أن تتحدث عن الجهاد؛ فتكون مضغةً في أفواه المتحضرين، ولا نقول لهؤلاء: أين الهيئات الدولية في قضية فلسطين، والفلبين، وكشمير، وأفغانستان، والعراق، وفي كل قضية كان المسلمون طرفًا فيها، أين هي الحقوق التي تردّ بالطرق الدولية، أو العدوان الذي يصدّ بالطرق الديبلوماسية، لا نقول لهم ما قيمة هذه الهيئات الدولية، والقانون الدولي، وما أهمية كل تلك الإجراءات الدولية.

إذا كان هذا القانون يعترف رسميًّا بأن هناك جبابرة خمسة في الأرض لهم الحق الشرعي في أن يوقفوا أي إجراء لا يُوافق أهواءهم، ومطامعهم العدوانية مهما يكن عادلًا في ذاته، عن طريق ما يُسمى بحق الاعتراض الفيتو.

الإسلام دين الله صريح غاية الصراحة حاسمًا كلّ الحسم، لا يُداور، ولا يناور، ولا يتاجر بالشعارات، والإسلام يفرق في صراحة حاسمة بين المؤمنين، وغير المؤمنين ﷻ خلقنا فمن كافر، ومنا مؤمن، وهو سبحانه الذي قال: ﴿وَمَا

﴿ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]

وهو الذي قرّر أن ولاء المسلم لله ولرسوله والمؤمنين، ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: ٢٨]. إن الذي يرسم السلوك المثالي هو مبادئ الإسلام لا غير؛ لأنها من عند العزيز الحكيم. أما الجهول الظلوم الهلوع المنوع إنه لا يصلح أن يكون مشرّعًا، ولا حاكمًا، ولا مؤسّسًا، ولا مؤصلًا من دون وحي الله تبارك وتعالى.

د. الدعوة إلى زمالة الأديان:

هذه دعوة خبيثة رَوّج لها صنفان: خُبثاء، ومغفلون، هدف هذه الدعوة تخدير مشاعر المسلمين تجاه الكفّار في كل مكان، فلا يستشعر المسلم وجوب جهاد، ولا إلزام أحدٍ من الناس بجزية، ولا غيرها، ولا يستشعر المسلم وجوب عداوة، ولا براء في الله؛ لأن هؤلاء لا يُنظر إليهم على أنهم مخالفون في الدين، ولا ينظر إلى أنهم كفار، بل يظن أن هؤلاء المخالفين في ديننا من اليهود والنصارى من الناجين يوم القيامة؛ لأنهم أتباع دين سماوي بزعمهم، وبهذا تصبح الدعوة إلى زمالة الأديان دعوة إلى اشتراك في النجاة في الدنيا والآخرة، وهذه دعوة تناقض كتاب الله -تبارك وتعالى- وتناقض حديث نبينا ﷺ فإن الله -تبارك وتعالى- ذكر الكفّار من أهل الكتاب فذكرهم بوصف الكفر ونبذهم ودمغهم بوصف الكفر ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢]

والنبي ﷺ قال في (صحيح مسلم): ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٍ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يُؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)) تولّى كبر هذه الدعوة أصحاب المدرسة العقلية الحديثة بدءًا من جمال الدين الأفغاني الذي قال: "وجدت بعد كل بحثٍ، وتنقيب، وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في واحد منها شيءٌ من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني.

وعلى هذا لاح لي بريق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها، وأصلها، وغايتها، وأنه بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة.

وأخذت أضع لنظريتي هذه خططًا، وأخط أسطرًا، وأحبر رسائل للدعوة. كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب، ولا كتب، ولا تعمّقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد، وتفرقهم فرقًا، وشيعًا، وطوائف".

فأي رائحة لجهاد الكفار تبقى عند مسلم جاهل يسمع هذا الكلام من عالم نحرير بزعمهم، وهذا فيه اعتراف صريح بأنه لا فرق بين الأديان الثلاثة في المبدأ والغاية، وأن الشيخ ساعٍ بجدّ واجتهاد لخلطها، واستخراج دين واحد منها، وكذا قال، ونحا نحوه الشيخ محمد عبده الذي ألف جمعية سياسية دينية سرية في بيروت إثر عودته إليها من أوروبا بعد تعطيل مجلة العروة الوثقى، وكان هدف هذه الجمعية التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها، وإحلال التعاون بدل الفرقة والفصام.

وكان محمد عبده صاحب الرأي الأول في إنشائها ونظامها، وميرزا باقر، والناموس، أو السكرتير العام لها، وقد انتسب إليها بعض المسلمين، والإنجليز، واليهود.

أما المسلمون فمنهم برزاده وعارف أبي تراب تابع جمال الدين الأفغاني، وجمال بك نجل رامز بك قاضي بيروت، ومؤيّد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية في الآستانة. أما الإنجليز فمنهم القس إسحاق تلر في لندن وجي دبلتدورنيز مفتي المدارس في الهند.

أما اليهود فمنهم الدكتور شمعون مويال في يافا، وقد كان مرزا باقر سكرتير الجمعية إيرانيًّا مسلمًا تنصّر، وصار داعية للنصرانية مع جمعية للمبشرين، وتُسمى بمرزا يوحنا، ويظهر أن هذه اللوثة لوثة التقريب بين الأديان بقيت تفعل في ذهنه مَنْ عمل فيها، وانتسب إليها حتى إن محمد عبده استضاف كرستفارس جبارا، وهو شخص أمريكي دعا إلى توحيد الأديان السماوية في معرض شيكاغو، وغيره حتى وصل إلى مصر وتُوفي فيها.

حقيقة كانت هذه الدعوة دعوة تُخفي كثيرًا من التلاعب بمفاهيم الإسلام، وتزيل كثيرًا من صفاء أفكاره، وهي أمنية راودت أعداء الإسلام كثيرًا، ولا تزال، وتفتّقت أذهانهم عن حيل عدّة كانت البهائية أحدثها، وهم يقصدون أن يُسَاوُوا في ذلك بين الإسلام من جهة، وبين اليهودية والمسيحية اللتين طالتهما الأيادي بالعبث، وعاثت فيهم بالفساد من جهة أخرى.

ويبقى قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحِجر: ٩]، ويبقى قول الله -جل من قائل-: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

إن الحديث عن الدعوة إلى زمالة الأديان، أثر من آثار الاستشراق والاستعمار، فلم تعرف في العالم الإسلامي قبل أن يستعمر ويتحكم فيه أعداؤه الظاهرون

والمستترون. وهي جزء من الحملة المسعورة على عقيدة المسلمين؛ لكي تفقد صفاءها، ونقاءها، وتميزها، وأنى لهم ذلك؟ فإن الله -تبارك وتعالى- ناصرٌ دينه ومعز أوليائه. ولا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.

ثالثًا: الفرق الضالة القديمة وموقفها من الجهاد:

١- المرجئة:

وهم الذين يُخرجون العمل من دائرة الإيمان، وهم أصناف شتّى، منهم من يزعم أن الإيمان هو المعرفة، أي: معرفة القلب فقط، ومنهم من يزعم أنه قول اللسان، ومنهم من يزعم أن إيمان أفسق الفساق من بني آدم كإيمان الملائكة والأنبياء؛ لأن الإيمان عندهم شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، وعقائد المرجئة لها تأثير بالغ على إزالة فريضة الجهاد بالكلية، أو إضعافها، وزعزعتها في النفوس.

فمن اعتقد أن الإيمان هو المعرفة فقط، كيف يتصوّر منه أن يجاهد الكفار من اليهود، والنصارى، والمشركين. وهل يتصوّر عاقل أن هناك من يضحي بماله، ونفسه، وولده، ووقته، وهو يستطيع أن يكون إيمانه كإيمان جبريل # بدون تلك التضحيات، بل بمجرد كلمة ينطق بها وهو مستلقٍ على فراشه لا تكلفه جهدًا ولا عملًا.

ومن يعتقد أن من يعلن الإسلام بلسانه لا يخرجه عن دائرة الإيمان مهما عمل من الأعمال، هل يتصور منه أن يجاهد المرتدين، والزنادقة، والمنافقين الذين يعلنون الإسلام بأقوالهم، ويهدمون أصوله، وفروعه بأفعالهم.

إن الله -تبارك وتعالى- أمر المؤمنين بأن يجاهدوا الكافرين، فإذا حصل لبس في مسمّى الإيمان والكفر، فأعطيت صفة الإيمان لمن لا يستحقّها، أو نزعت صفة الكفر عمّن استحقّها، فكيف ينفذ أمر الله، وكيف تقام حدوده، وهي غير معروفة.

إن عقائد الإرجاء وسّعت دائرة الإيمان حتى أدخلت فيه أصنافًا كثيرة من الكفار، والمرتدين، والزنادقة، وبالتالي رفعت عنهم سيف الحق الذي أمر الله تعالى بإنزاله عليهم، فخُربت البلاد، والعباد، وطبقت أصناف الكفر بلادًا كثيرة باسم الإسلام.

ونحن نرى، ونشهد، ونلمس آثارًا مُرة، وآثارًا غير مرضية لهذه العقائد الفاسدة التي فرت في الأمة الإسلامية فريًا عظيمًا، وخدرتها على مدار التاريخ، وجعلتها نهبًا لكل طامع، ولقمة سائغة لكل مستعمر، وضرر أهل الإرجاء على الأمة الإسلامية ليس بالأمر الهيّن، فكم من مصلحٍ مجاهدٍ ظهر يدعو لإزالة الشرك، وإقامة شرع الله فوقف دونه أهل الإرجاء.

٢ـ الصوفية:

وهي فرقة قديمة تعود نشأتها إلى أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث، انحرفت عن هدي النبي ﷺ لا سيما في أدوارها، وأطوارها الأخيرة، وكانت لهم مقولات حرّفوا بها وجه السنة، وغيّروا بها طريقة الملّة.

وبإلقاء نظرة على فرق التصوف التي ذكرها الملطي، والرازي يتّضح أن من هذه العقائد عقائد إلحادية أحدثت في المجتمع الإسلامي حدثًا تقضي بها عليه، ولم تكن نتيجة اجتهادات علماء المسلمين، وإنما كانت مبنيّة على شبهٍ أحدثها اليهود

في دين الرافضة تارةً، وأحدثها النصارى في دين أولئك الذين تأثروا بهم، وقرءوا فلسفتهم مرة أخرى، ولذلك يقول بعض المعاصرين، وهو الشيخ محمد الصباغ: إن التصوف انحدر إلينا من أصول أجنبية، وقد دخل علينا ليؤدّي مهمّات تخريبيّة في التصور والسلوك.

يقول الملطي -الفقيه الشافعي المتوفى عام سبعٍ وسبعين وثلاثمائة-: ومنهم -أي: من الزنادقة العبدكية- وقد زعموا أن الدنيا كلها حرام محرم لا يحلّ الأخذ منها إلا القوت، من حين ذهب أئمة العدل، ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل، وإلا فهي حرام، ومعاملة أهلها حرام، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان. وإنما سُمُّوا العبدكية؛ لأن عبدك وضع لهم هذا، ودعاهم إليه، وأمرهم بتصديقه.

ومنهم الروحانية -وهم أصناف- وإنما سُمّوا: الروحانية؛ لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السموات، وبها يعاينون الجنان، ويجامعون الحور العين، وتسرح في الجنة، وسُموا أيضًا: الفكرية؛ لأنهم يتفكرون بزعمهم في هذا حتى يصيروا إليه، فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم، ومنتهى إرادتهم ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية، فيتلذّذون بمخاطبة الله لهم ومصافحته إياهم.

ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار؛ لكان مستقيمًا، وأما هذه الفكرة فبوّبها لهم الشيطان؛ لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة.

وهناك صنف من الروحانية زعموا أن حبّ الله يغلب على قلوبهم، وأهوائهم، وإراداتهم حتى يكون حبّه أغلب الأشياء عليهم، فإذا كان كذلك عندهم كانوا عنده بهذه المنزلة، ووقعت عليهم الخلة من الله، فجعل لهم السرقة، والزنا،

وشرب الخمر، والفواحش كلها على وجه الخلّة التي بينهم وبين الله ما على وجه الحلال، ولكن على وجه الخلة، كما يحل للخليل الأخذ من خليله بغير إذنه. منهم رباح، وكليب كانوا يقولان بهذه المقالة، ويدعوان إليها.

وهناك صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة من تضمير أنفسهم، وحملها على المكروه؛ فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما تشتهي، وتتمنّى، وإن أكل الطيبات كأكل الأراذل من الأطعمة، وكان الصبر والخبيص عنده بمنزلة، وكان العسل والخل عنده بمنزلة. فإذا كان كذلك؛ فقد بلغ غاية السبقة، وسقطت عنه تضمير الميدان، وأتبع نفسه ما اشتهت.

قال ابن حبان: ومنهم صنف يقولون: إن ترك الدنيا إشغال للقلوب وتعظيم للدنيا، ومحبة لها، ولمّا عظمت الدنيا عندهم تركوا طيب طعامها، ولذيذ شرابها، ولين لباسها، وطيب رائحتها، فأشغلوا قلوبهم بالتعلّق بتركها، وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها، ويعظم عنده ما ترك.

ويلخص الرازي فرق المتصوفة في ست فرق وهي:

١. أصحاب العادات: وهم قوم منتهى أمرهم، وغايته تزيين الظاهر كلبس الخرقة، وتسوية السجادة.

٢. أصحاب العبادات: وهم قوم يشتغلون بالزهد والعبادة مع ترك سائر الأشغال.

٣. أصحاب الحقيقة: وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبادات، بل الفكر وتجريد النفس عن العلائق الجسمانية، وهم يجتهدون ألا يخلو سرّهم وبالهم عن ذكر الله.

٤. النوريّة: وهم طائفة يقولون: إن الحجاب حجابان نوري وناري. أما النوري: فالاشتغال باكتساب الصفات المحمودة كالتوكل، والشوق، والتسليم، والمراقبة. أما الناري: فالاشتغال بالشهوة، والغضب، والحرص، والأمل؛ لأن هذه الصفات صفات نارية، كما أن إبليس لما كان ناريًا فلا جرم وقع في الحسد.

٥. الحلولية: وهم طائفة من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون في أنفسهم أحوالًا عجيبة، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول، أو الاتحاد، فيدعون دعاوى عظيمة، وأول من أظهر هذه المقالة في الإسلام الروافض، فإنهم ادعوا الحلول في حق أئمتهم.

٦. المباحية: وهم قوم يحفظون طامات لا أصل لها، وتلبيسات في الحقيقة وهم يدعون محبة الله تعالى، وليس لهم نصيب من شيء من الحقائق؛ بل يخالفون الشريعة، ويقولون: إن الحبيب رفع عنهم التكليف.

ويراجع في هذا (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) للرازي.

أما اليوم فالتصوف بحرٌ لا ساحل له تعدّدت فرقه، وطرقه كالشاذلية، والرفاعية، والنقشبندية، والقادرية، والتيجانية، والبريولية، والأحمدية، وغير ذلك. يجمع هذا قاسم مشترك: هو الابتداع، وتنقب طريق الكتاب، والسنة، وبعضها أخفّ من بعض، ولكن يبقى أن هذه الفئة انحرفت عن الجادّة ما انحرفت، وغابت عن الشريعة ما غابت، وتنكّبت طريق السنة ما تنكبت.

إن عقيدة الصوفية المنحرفة في التوكل والرضا بالقدر جعلت نفوسهم راضية مطمئنة، ولو وطئ الكفار على رقابهم؛ فالتوكل عندهم عدم ممارسة الأسباب، والرضا معناه: أن ترضى بما يحصل لك، ولو كان استيلاء الكفار على بلاد

المسلمين، وسبي ذراريهم، وإن أبديت مقاومة، فأنت معارض للقدر غير متوكل على الله.

فالذي يسافر في البراري الخالية بغير زاد، كما مرّ هل يتصوّر منه أن يلبس لأمة الحرب، ودروع القتال، وليته إذ لم يفعل ذلك غمس نفسه في القتال حاسرًا، ولكن ما له ولفرقعة السلاح، ولخرير الدماء، ونحو ذلك. إنه مشغول بحلق الرقص، وطقطقة المسابح. ذلك أن هذه الحلق، وتلك الطقطقة كفيلة بإنزاله منازل الصديقين على زعمه، أي انحراف أصاب الأمة، وأي فرحة للكفار تحصل لهم أشدّ من فرحتهم بهذه النحلة؟!

يقول الأستاذ عبد الرحمن الوكيل -رحمه الله-: "ويزعمون أن الصوفية جاهدت حتى نشرت الإسلام في بقاع كثيرة، ولقد علمت ميادين الصوفية، فما نشروا إلا أساطير حمقاء، وخرافات بلهاء، وبدع بلقاء شوهاء، ما نشروا إلا وثنية تؤله الحجر، وتعبد الرمم، ما نشروا دينهم إلا في حماية الغاصب المستعمر، وطوع هوى الغاصب المستعمر، فعدو الإسلام يوقن تمامًا أن البدع هي الوسيلة التي تصل إلى الهدف دائمًا؛ لكي يقضوا بها على الإسلام وأهله، فعلوا ذلك قديمًا ويفعلون ذلك حديثًا".

يقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل: "أروني صوفيًّا واحدًا جالد الاستعمار، أو كافحه، أو دعا إلى ذلك، إن كل ما نسب إليه من مكافحة المستعمر وهم قلة لم يكافحوه إلا حين تخلّى هو عنهم، فلم يطعمهم السحت من يديه، ولم يبحْ لهم جرع الفتات من تحت قدميه، وإلا حين قهرت فيهم عزة الوطنية ذلّ الصوفية، فقاتلوا حمية لا للدين، ثم يقول: اقرءوا ما كتب الزعيم مصطفى كامل في كتابه (المسألة الشرقية) يقول: "ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان أن رجلًا فرنسيًّا دخل في الإسلام، وسمى نفسه سيد أحمد الهادي، واجتهد في

تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية، وعُيّن إمامًا للمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنساوية من المدينة، واستعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل سيد أحمد الضريح، ثم خرج مهولًا لهم بما سينالهم من المصائب، وقال لهم: بأن الشيخ ينصحكم بالتسليم؛ لأن وقوع البلاد صار بختًا فاتبع القوم البسطاء قوله، ولم يدافعوا عن القيروان أقلّ دفاع؛ بل دخلها الفرنساويون آمنين".

وحين أغار الفرنجة على المنصورة قبيل منتصف القرن السابع الهجري اجتمع زعماء الصوفية أتدري لماذا؟ لقراءة رسالة القشيري، والمناقشة في كرامات الأولياء.

من أجل ذلك يجب أن لا نستغرب، إذا رأينا المستعمر في القديم والحديث يغدق على الصوفية الجاه والمال، فربّ مفوّض سامٍ لم يكن يرضى أن يستقبل ذوي القيمة الحقيقية من وجوه البلاد، ثم تراه يسعى إلى زيارة حلقة من حلقات الذكر، ويقضي هنالك زيارة سياسية تستغرق الساعات.

أليس التصوف الذي على هذا الشكل يبطل عنصر المقاومة في هذه الأمة، ثم إن كل من نسبت إليه الصوفية أنهم جاهدوا في سبيل الله، وعملوا على نشر الإسلام ليسوا صوفيين، وإنما حشرتهم الصوفية في زمرتها زورًا وبهتانًا، وأستاذها في ذلك الشيعة.

لقد سمى الصوفية رسول الله ﷺ صوفيًّا، ومثله الخلفاء، وكل بطل عبقري فذٍّ من المسلمين زعموا أنه صوفي، هذا ليخدعوا المسلمين بهؤلاء، عن زعمائهم من طواغيت الصوفية، وليفتنوا المسلمين بزعمهم أن أولئك الإبطال كانوا بعض أئمة الصوفية، والتاريخ يذكر أن لقب صوفي لم يبتدع إلا في منتصف القرن الثاني الهجري، وأن أول من لُقب به هو أبو هاشم الكوفي".

بهذا العرض عن موقف الصوفية من الجهاد ندرك لماذا تهتم الصليبية والصهيونية بالصوفية، وتخصّص علماء، وكتّاب يبرزون فكرهم، ودعاتهم، وفرقهم، ويمجدونهم، ونرى الآن تلك اللوثة تعود من جديد، وأخشى ما يخشاه المسلمون اليوم أن يعود بذلك الفكر الصوفي صولته وجولته التي عاث فيها أيام الاستعمار، والتي خدم فيها أولئك الغزاة.

٣. الشيعة الإمامية "الاثنا عشرية":

هم الذين قالوا: بأن الإمامة موروثة في أهل البيت، قدّموا في ذلك عليًّا على سائر الصحابة، وطعنوا في أصحاب رسول الله، وساق الاثنا عشرية الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى، وقطعوا إمامة موسى، وزعموا أن الإمام بعده سبط محمد بن الحسن، الذي هو سبط علي بن موسى الرضا، ويقال لهم: "الاثنا عشرية".

بدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثاني عشر من نسبه إلى علي بن أبي طالب، واختلفوا فيه وهو عندهم محمد بن الحسن العسكري نزيل سرداب سامراء، الذي دخل فيه ولم يخرج، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري.

وللإمامية الاثنا عشرية في الجهاد أقوال ظاهرة السقوط والبطلان منها أنهم يقولون: "إن الشيعة شهداء لو ماتوا على فرشهم"، ومنها أنهم يقولون: "لا يجاهد إلا مؤمن قد اكتملت فيه شرائط الدين"، ومنها قولهم: "إنه لا يجاهد إلا مع إمام عادل". ومنها قولهم: "إن جهاد الابتداء، وغزو الكفار في ديارهم لا يكون إلا مع الإمام المعصوم الذي ينتظرونه".

وهذا باطل من القول لا يمكن قبوله بحال من الأحوال، وقد قال الخميني الهالك في كتابه (تحرير الوسيلة): في عصر غيبة ولي الأمر وسلطان العصر عجل الله

فرجه، يقوم نوابه العامة، وهم الفقهاء الجامعون لشرائط الفتوى والقضاء في إجراء السياسات، وسائر ما للإمام # إلا البداءة في الجهاد، وقسموا على كل حال الجهاد إلى نوعين: جهاد غزو في سبيل الله، وجهاد دفع عن الإسلام، وبلاد المسلمين، واشترطوا في ذلك أن يكون هذا الدفاع بإذن الإمام الخاص أو العام.

٤. الجبرية الجهمية:

وهي تلك الفرقة التي تجعل العبد مجبورًا على أفعاله، فهو عندهم كالريشة في الهواء، وهم أتباع جهم بن صفوان، وهو الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها. وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان. وزعم أيضًا أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وقال: لا فعل، ولا عمل لأحد غير الله، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز.

وهذه الفرقة -والعياذ بالله تعالى- لا قيام لسوق الجهاد عندهم، ولا معنى لإقامة الحدود، ولا للثواب والعقاب، بل ولا إلى إرسال الرسل والكتب إلا التكليف في غير وسع، وتحريم ما لا يطاق، والظلم الذي حرمه الله تعالى على نفسه، وجعله بين عباده محرمًا، فأقاموا عذر إبليس اللعين، وعذر فرعون وهامان، وقارون، وسائر الأمم العصاة الممقوتين المقبوحين المغضوب عليهم، المخسوف بهم، المعد لهم جهنم وساءت مصيرًا. وهذه الفرقة من أسوأ الفرق اعتقادًا، ومن أخبثها، ولا يتصوّر فيمن هذا اعتقاده أن يجاهد الكفار؛ لأن مجاهدة الكفار لا معنى لها، بل هي ظلم وعدوان.

فكيف يجاهدون على عمل أحبه الله، وأراده منهم، ولم يمكنهم من غيره. وهذه عقيدة خبيثة تسعى إلى اقتلاع عقيدة الجهاد من قلوب المؤمنين، بل إلى اقتلاع الإيمان كله.

وقد كان لهذه العقيدة الخبيثة غاية التأثير في أكثر الصوفية ؛ لأن أكثر المتصوفة جبرية، ووضوح بطلان قول هذه الفرقة أظهر من الشمس في رابعة النهار ؛ فإن الإنسان يحس بنفسه باختيار العمل، ولو لم يكن للإنسان اختيار في انتهاج العمل الذي يريد ؛ لكانت بعثة الرسل عمومًا، وإنزال الشرائع من العبث تعالى الله ﷻ عن العبث، ولو ضرب صاحب هذه العقيدة ضربًا مبرحًا لغضب ودافع عن نفسه، ولم يرضَ بالقدر على حدّ زعمه.

رابعًا: الفرق الضالة الحديثة وموقفها من الجهاد:

١ـ البابية والبهائية:

حركة نبعت من المذهب الشيعي سنة ألف ومائتين وستين برعاية الاستعمار الروسي، واليهودية العالمية، والاستعمار الإنجليزي، وكان الهدف منها إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسية.

ومن أشهر معتقدات القوم: اعتقادهم أن الباب هو الذي خلق كل شيء بكلمته، وهو المبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء، ويقولون بالحلول، والاتحاد، والتناسخ، ويقدسون العدد تسعة عشر، ويجعلون عدد الشهور تسعة عشر، وعدد أيام الشهر تسعة عشر، ويقولون بنبوة بوذا وكونفشيوس وبراهما وزرادشت، وأمثالهم من حكماء الهند، والصين، والفرس.

ويوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح، وينكرون معجزات الأنبياء، ويحرمون الحجاب، ويؤوّلون القيامة بظهور البهاء.

ويحرمون الجهاد، وهذا بيت القصيد، ويحرمون حمل السلاح وإشهاره ضد الأعداء ؛ خدمة لمصالح من أسسهم، ومن أنشأهم وهم الاستعمار.

٢. القاديانية:

فحركة نشأت سنة ألف وتسعمائة بتخطيط أيضًا من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم عامة، وعن فريضة الجهاد بشكل خاص حتى لا يُواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية.

كان مرزا غلام أحمد القادياني هو مؤسس هذه النحلة الباطلة، وقد بدأ غلام أحمد نشاطه كداعية إسلامي حتى يلتف حوله الأنصار، ثم ادّعى أنه مجدّد وملهم من الله، ثم تدرج أخرى فادعى أنه المهدي المنتظر والمسيح الموعود، ثم ادّعى النبوة، وزعم أن نبوته أعلى وأرقى من نبينا ﷺ.

فهم يعتقدون أن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ واعتقد القادياني بأن إلهه إنجليزي؛ لأنه يخاطبه بالإنجليزية، ويعتقدون أنهم أصحاب دين جديد مستقلّ وشريعة مستقلة، وأن رفاق الغلام كالصحابة، ويعتقدون أن مدينة قاديان كالمدينة المنورة ومكة المكرمة؛ بل وأفضل منهما، وأرضها حرم، وهي قبلتهم، وإليها حجهم.

نادوا بإلغاء عقيدة الجهاد، كما طالبوا بالطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية؛ لأنها بحسب زعمهم وليّ الأمر بنصّ القرآن.

كل مسلم عندهم كافر حتى يدخل القاديانية كما أن من زوّج أو تزوج من غير القاديانيين فهو كافر، يبيحون الخمر، والأفيون، والمخدرات، والمسكرات، والعياذ بالله تعالى، يدّعون نسخ فريضة الجهاد وما قالوا ذلك، ولا فعلوه إلا خدمة للاستعمار.

الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول :	الدعوة في عهد الصديق، والفاروق، وعثمان رضي الله عنهم	٧٥١
العنـــصر الثـــاني :	الدعوة في عهد علي <	٧٨٦

الدعوة في عهد الصديق، والفاروق، وعثمان {

أولًا: الدعوة في عهد الصديق > ١١-١٣هـ:

كيف بويع أبو بكر بالخلافة:

مضى معنا في سيرة النبي ﷺ أنه نعى نفسه في غير مرة للمسلمين، وفي مرضه الذي استمر أربعة عشر يومًا، نبأ المسلمين بقرب أجله ﷺ فأصاب الجميع دهشة عظيمة، وهذا أمر جلل وقع بأصحاب النبي ﷺ حتى تزلزل منه عمر > على شدته وقوته، لما بلغه خبر وفاة النبي ﷺ.

إلا أن الصديق > كان أثبت الصحابة } مع أنه كان أشدهم حبًّا لرسول الله، وكان أقربهم منه منزلة > حين بلغه خبر وفاة النبي ﷺ ودخل بيت عائشة حين وصله الخبر والنبي ﷺ مسجى فكشف عنه وجهه وقبله، ثم قال: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أطيبك حيًّا وميتًا". هكذا رأينا كلمات الصديق > على هذا النحو من الثبات، وقال: "أما الموتة الأولى التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا".

خرج إلى الناس فأفاقوا على صوته > وهو يقول: "أيها الناس من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]" هكذا كان ثباته > ومعلوم أنه ﷺ قبض وأنه لم يثبت أنه أوصى لأحد من بعده بالخلافة، وإنما ترك المسلمين لإيمانهم ولما

رباهم عليه من الأخذ بالشورى. ولو كان النبي ﷺ ترك نصًّا بالخلافة لأحدٍ - كما ادعاه الشيعة الرافضة- لسارع جميع الصحابة إلى بيعته.

وكان من أمر السقيفة التي اجتمع فيها المهاجرون والأنصار: أن اجتمع زعماء المسلمين من الأنصار، ومن المهاجرين، ثم جرى في هذه السقيفة أول بيعة في المسلمين، تمت البيعة لأبي بكر بإجماع الصحابة } وكانت عن رضًا واختيار، ولم يختلف عليه المهاجرون والأنصار، وأما ما كان من حديث السقيفة، يوم وفاة الرسول ﷺ؛ فكان ذلك لحرص الأنصار على تولية من يذود عن المسلمين، خاصة أن المدينة بعد وفاة النبي ﷺ سوف تصبح هدفًا للأعداء من كل اتجاه؛ فهناك قبائل أسلمت عن خوف، وهناك أناس أظهروا الردة في أواخر حياة النبي ﷺ.

ولم يحضر علي بن أبي طالب اجتماع السقيفة لاشتغاله، وأهل بيته في جهاز الرسول ﷺ وهنا أثار دعاة الفتن الشبهات حول موقف علي > من بيعة الصديق؛ فقد خرج > عندما جاءه أن أبا بكر جلس للبيعة في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلًا كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه ثم جلس إليه، وبعث إلى ثوبه فتجلله ولزم مجلسه، وهذا هو الأقرب لخلق علي > ولجلالة قدره، ولمنزلة الصديق في نفسه، وهذا فيه رد بليغ على أولئك الذين أثاروا الغبار حول موقف علي > وهذه المصادر الشيعية التي وضعت ذلك الكذب المصنوع التي تحاول فيه النيل من إجماع الصحابة على خلافة الصديق > .

ولما حاول أبو سفيان استثارة علي نهاه، فقال: "ويحك أبا سفيان! إن المسلمين نصحة بعضهم لبعض وإن نأت دارهم وأرحامهم، وإن المنافقين غششة بعضهم لبعض وإن قربت ديارهم وأرحامهم؛ ولولا أنا رأينا أبا بكر أهلًا ما خليناه وإياها" هذا يعني به الخلافة.

وعلي > لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عن الصلاة خلفه في صلاة من الصلوات، وخرج معه إلى كل موقع وغزا بأمره كل ميدان، لم يتخلف عنه بل خرج شاهرًا سيفه يريد قتال أهل الردة تبعًا لأبي بكر > .

سياسة أبي بكر > :

ولما تلقى الصديق البيعة في يوم السقيفة قام فخطب مبينًا سياسته الراشدة المقتبسة من سياسة النبوة فقال: "أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني؛ الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه -إن شاء الله- والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه -إن شاء الله- لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله؛ فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله". رحم الله أبا بكر رحمة واسعة، ورضي الله عن خليفة رسول الله، وأجزل له المثوبة عن الإسلام وأهله.

تسيير بعث أسامة:

كان أول شيء قصد إليه الصديق هو تنفيذ وصية رسول الله ﷺ ((أنفذوا جيش أسامة)) وكان ﷺ قد ضرب قبل وفاته بعثًا على أهل المدينة ومن حولهم، وفيهم عمر > وأمّر عليهم أسامة، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض النبي ﷺ فوقف أسامة بالناس، حتى يرى كيف تسير الأمور بعد وفاة رسول الله، وما أن تم الأمر لأبي بكر حتى أصدر أوامره لينفذ بعث أسامة، ولما كانت وجهة الجيش بعيدة عن المدينة فكان مقصوده بلاد قضاعة على أطراف الجزيرة العربية من

ناحية الشمال الغربي ؛ حيث كان رسول الله يريد أن يؤدب تلك القبائل الموالية للروم، والتي بدأت تهدد الدولة الإسلامية، فضلًا عن رد اعتبار المسلمين هناك في مؤتة.

ولعل الحكمة في اختياره ﷺ أسامة قائدًا على الجيش هو أن تأخذه الحمية الإسلامية لاستشهاد المسلمين عامة ولأبيه خاصة في غزوة مؤتة، فيثأر لهم من هؤلاء المناوئين للإسلام، ولا شك أن النبي ﷺ كان يقصد أيضًا إلى شن الغارة لتكون طليعة لفتح الشام ؛ إذ أمر النبي ﷺ أن يقلل اللطف فيهم.

وشاء الله أن يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وأسامة لا يزال معسكرًا بالجرف، وقف الصديق وقفة عظيمة حين خرج أسامة بجيشه، وشيعه أبو بكر وهو ماش وأسامة راكبًا، ولما خاطبه أسامة في ذلك قال: "والله لا تنزل ولا أركب ما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله".

وكان تسيير هذا البعث سياسة حكيمة من الصديق وطدت أمر الإسلام، وأرهبت أهل الردة الذين قالوا: لو لم يكن أبو بكر على بصيرة من أمره وقوة من جيشه وكثرة من جنده ؛ لما بعث هذا البعث في مثل هذا الظرف، وقد حاول بعث الصحابة ومنهم عمر أن يستأنوا بإرسال ذلك الجيش، فأشاروا على الصديق بعدم بعثه إلا أنه > ما كان ليحل عقدة أبرمها رسول الله ﷺ فقال: "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حولنا -أي: من حول المدينة- ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين". وتأمل هذه القوة في الحق ترى الصديق قد تحول من ذلك الشخص الذي يُرى فيه من الهدوء والسكينة والدعة واللين، إلى هذا الأسد الهصور الذي لا يبالي في الحق.

أثرت هذه الغارة على هرقل ومتنصرة العرب ؛ فقد بلغ الخبر هرقل، وكان بحمص فاستشار بطارقته فأشار عليه أخوه أن يبعث رابطة أن تكون بالبلقاء، لم

تزل هذه الرابطة مقيمة في البلقاء حتى قدمت جحوف المسلمين لفتح الشام، وبذلك أثرت هذه الحملة في الروم بأن أوقعت الارتباك في خططهم مع من تنصر من العرب.

محاربة المرتدين:

وأما أعظم أعمال الصديق في ولايته المباركة: فهي حروب الردة؛ فقد ارتد عرب شبه الجزيرة بعد وفاة رسول الله، إما ردة عامة أو خاصة من كل فرقة، وظهر النفاق واشرأبت اليهود وتطلعت النصارى، كل أولئك أن ينال من الإسلام نيلًا، وقالت الأعراب آمنا، والله -تبارك وتعالى- قال لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤] وكان من الأعراب من ينتظر أن يكون الغلب للمشركين على رسول الله ﷺ فكانوا مذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء ومنهم من بلغ به العناد في الكفر أن جاءوا للنبي ﷺ يظهرون أنهم يطلبون الهداية؛ فأرسل إليهم من يحفظهم القرآن ويعلمهم الإسلام؛ فغدروا بهم وقتلوهم كما حصل في بئر معونة وفي يوم الرجيع؛ فقال تعالى واصفًا حاله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧] وكان هذا النوع من النفاق الأعرابي متغلغلًا في الصحراء وحول المدينة ذاتها. قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

قسم الله تعالى الأعراب إلى قسمين: منافق جلي النفاق يحسب الزكاة والصدقات مغرمًا، ومؤمن بالله واليوم الآخر يتخذ ما ينفق قربات عند الله -تبارك وتعالى- وهكذا نجمت الردة في عصره > وإن كانت بوادرها قد ظهرت في أيام الرسول؛ إذ تنبأ الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة وغيرهما

إلا أنهم لم يجرؤوا على إعلان ذلك ولو فعلوه لقاتلهم رسول الله ﷺ آنذاك كما فعل مع طليحة الأسدي الذي ارتد عن الإسلام وادعى النبوة في حياته ﷺ فوجه إليه الرسول ضرار بن الأزور، ولما ضربه نبا عنه السيف، ربما لما كان يلبسه من أشياء تقيه؛ فكان ذلك سببًا في شيوع أمره وكثرة أتباعه، وفي عهد أبي بكر تتبعه وأرسل إليه خالد بن الوليد على رأس جيش ففر إلى الشام، ثم أسلم ووفد على عمر وحسن إسلامه وبلاؤه في الفتوح، ثم استشهد في نهاوند، غفر الله له ورحمه ورضي عنه.

كان من أولئك المرتدين من منع الزكاة محتجًّا بالآية الكريمة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣] فقالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا، فشابه ذلك قول اليهود والعياذ بالله ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] حتى قال قائلهم:

أ َطعنا رَسولَ اللَّهِ إِذ كانَ بيننا ❖ فَيا لعباد الله ما لأبي بَكرِ

يعني: ينكرون أن يدفعوا لأبي بكر > ما كان يدفعون لرسول الله ﷺ واختلف الصحابة حول قتال هؤلاء؛ إذ كيف يستبيحون دماء من قال لا إله إلا الله، والتبس عليهم فهم الحديث الشريف: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)) فجعلوا يناقشون الصديق في هذا وكان من بينهم أبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وعمر بن الخطاب { فقال عمر قولته لأبي بكر: كيف نقاتلهم وقد قال الرسول ما قال يقصد الحديث السابق، فقال أبو بكر > : "والله لا أقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال".

ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل في مثل هذه الظروف الحالكة، التي زلزلت فيها الأرض بالردة والنفاق، قال عمر: "يا خليفة رسول الله، تألف الناس

وارفق بهم. فأجابه أبو بكر رجوت نصرتك وجئتني بخذلان ؛ أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام، إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين أوينقص وأنا حي؟!" ثم بين أبو بكر فقه الحديث الذي التبس على الصحابة فهمه، فقال: أليس قد قال رسول الله: ((إلا بحقها)) ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي، وما هو إلا أن شرح الله تعالى صدر عمر، وصدر سائر الصحابة } لقتال المرتدين.

انتصارات جيوش أبي بكر الصديق:

جعل الصديق على منافذ المدينة من جهة الأعراب رجال يحرسونها وينبئون المسلمين بأي خطر داهم عليهم من قبل الأعراب.

وكان ما توقعه أبو بكر من طبع بعض القبائل في الغارة على المدينة ؛ إذ أقبلت غطفان ومن تابعهم ذات ليلة يريدون أن يبيدوا المسلمين، ويأخذوهم على غرة بليل، وما إن أحس رقباء النافذ بذلك حتى أخبروا الصديق ؛ فخرج إليهم بجند المسلمين المرابطين -أين كان هؤلاء يرابطون؟ كانوا يرابطون في مسجد رسول الله- فالتقوا بالعدو وهزموهم وتابعوهم يريدون أن يمعنوا فيهم، ولكن العرب قد جعلوا وراءهم ردءًا -أي: عددًا منهم- فأخافوا إبل المسلمين بالأنحاء، ووقع النفرة الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة.

على أن أبا بكر لم يلبث أن خرج إليهم في آخر تلك الليلة فصبحهم في ديارهم، وأخذهم على غرة، فولوا الأدبار، وتركوا ديارهم، فحماها أبو بكر بخيل المسلمين وإبل الصدقة. وكان لهذا النصر على غطفان ومن تابعها أثر كبير في رفع الروح المعنوية في المدينة، ولدى مسلمي القبائل الأخرى فتثبتوا.

ثم كان نصر ثان حين وصل إلى المدينة أموال الصدقات من عدة جهات في هذه الأوقات العصيبة، فجاء صفوان بن صفوان بصدقات بني عمرو، وذلك في أول الليل من جهة النقب الذي عليه سعد بن أبي وقاص، وجاء الزبرقان بن بدر في وسط الليل بصدقات بني عوف من جهة النقب الذي عليه عبد الرحمن بن عوف، وجاء عدي بن حاتم الطائي بصدقات قومه من جهة النقب الذي عليه عبد الله بن مسعود. وتأمل إن الذين حموا المدينة، وكانوا على أنقابها هم أجله الصحابة } فسعد بن وقاص من جهة، وعبد الرحمن بن عوف من جهة، وعبد الله بن مسعود من جهة. والثلاثة من المهاجرين الأوائل.

ثم كان النصر الثالث وهو وصول جيش أسامة سالمًا غانمًا، فدعاهم الصديق إلى الراحة، وقال لهم: أريحوا ظهوركم، ثم بدأ يخطط للضربة القاضية على فلول أهل الردة، ومانعي الزكاة.

قسم > جيشه وجنده وعقد الألوية للقواد، فبلغت أحد عشر لواءً وكلف كل قائد بطائفة من المرتدين؛ هذا خالد بن الوليد يقاتل طلحة ومن معه من بني أسد؛ فإذا فرغ منهم قصد إلى مالك بن نويرة ومن معه من بني تميم، وكلف الصديق عكرمة بن أبي جهل بقتال مسيلمة الكذاب الحنفي في اليمامة، وكلف شرحبيل بن حسنة فأرسله دعمًا وعونًا لعكرمة بن أبي جهل على حرب مسيلمة وأمره أن فرغ من ذلك أن يذهبا إلى قضاعة معينًا لعمرو بن العاص، وكلف المهاجر بن أبي أمية بقتال الأسود العنسي ومن معه في اليمن، فإذا فرغ منهم مضى إلى المرتدين في حضرموت.

وكلف عمرو بن العاص بقتال قضاعة في الشمال، وكلف خالد بن سعيد بن العاص بقتال القبائل التي على مشارف الشام، وكلف حذيفة بن محصن بقتال

أهل دبا، وهي عمان قديمًا وكلف عرفجة بن حرثمة الأزدي بقتال مهرة ثم يلتقي مع حذيفة، وكلف طارفة بن حاجز وأمره بقتال بني سليم ومن معهم من هوازن وكلف سويد بن مقرن وأمره بقتال القبائل المرتدة في يمامة اليمن، وكلف العلاء بن الحضرمي ووجهه لقتال المرتدين في بلاد البحرين. وانطلقت تلك الجيوش باسم الله كل إلى ما وجه إليه بعد أن وصاهم خليفة رسول الله بأن لا يبدءوا بقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام، ويأمروهم بالدخول فيما خرجوا منه من دين الله، فإن أجابوا قبل منهم وأعطوهم ما لهم من الحق أيضًا، وأن أبوا قاتلوهم بلا هوادة حتى يفيئوا إلى دين الله ويعودوا إلى الإسلام.

تحركت الجيوش يقودهم أبطال عظام من خيرة المهاجرين والأنصار، وبعد أن أوصاهم الصديق وأبلوا البلاء الحسن في قتال المرتدين استشهد منهم عدد ليس بالقليل ولا سيما في حرب اليمامة؛ فقد ثبت بني حنيفة للمسلمين ومعهم قائدهم، فهزموهم؛ لكن عكرمة تعجل ولم ينتظر المدد، ثم رماهم أبو بكر بخالد بن الوليد فجال وصال هو وخيرة أصحاب رسول الله أمام بني حنيفة وثبتوا لهم حتى أزالوهم عن مواقعهم وقتلوا مسيلمة، وفتحوا عليهم حصونهم حتى أخضوعهم لسلطان الله وهم كارهون.

واستشهد في هذه المعارك عدد كبير من الحفظة فأشير على أبي بكر بجمع القرآن وكان مترددًا في ذلك حتى شرح الله صدره فعمد لهذه المهمة كما سنبينه فيما بعد.

لم ينقض عام أحد عشرة من الهجرة حتى عادت دولة الإسلام قوية، كما كانت في عهد النبي ﷺ لتستأنف مهمتها في تبليغ دعوة الإسلام، وكانت حروب الردة درسًا للمرتدين وللمسلمين معًا؛ فقد أثبتت تلك الحروب أن الدين الإسلامي كل لا يتجزأ، وأن العقيدة يجب أن تحترم من جميع جوانبها وأن التهاون في

جانب منها لا بد أن يؤدي إلى التهاون فيها جميعًا وكان أبو بكر > رجل الساعة بالفعل حين كشف عن نصاعة تصوره وسلامة عقيدته وكمال توكله وقوته في دين الله -تبارك وتعالى- وقام في هذه الأمة مقام النبي ﷺ في حياطة دينها وحفظ ثوابتها وعقيدتها.

جمع القرآن في مصحف واحد:

ومن أهم أعمال الصديق بعد ذلك: جمع القرآن في مصحف واحد؛ فقد خشي المسلمون أن يلبس أهل الكتاب -بعد تظاهر بعضهم بالإسلام، وقتل عدد كبير من حفاظ القرآن- على المسلمين كتابهم فيضعوا في القرآن ما ليس منه؛ لأنهم لفراغهم وانشغال المسلمين في حركة الجهاد أكثر صلة بالعامة، وأكثر اشتغالًا بالعلم، فربما دسوا ما يريدون أو سربوا ما يخشى أن يكون من غير كتاب الله؛ ففكر عمر بن الخطاب، وأوجس خيفة على القرآن؛ فعرض على أبي بكر أن يجمعه فتردد، وما زال عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر؛ فأرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري كاتب وحي النبي ﷺ وتداول الأمر معه إلى أن شرح الله صدر زيد؛ فكلفه أبو بكر بتتبع القرآن وجمعه. قام زيد بالمهمة خير قيام، واعتمد على تحرير نسخة من القرآن مكتوبة في مجموعة من الصحف، على المصدرين اللذين حفظا النص القرآني حتى الآن وهو الحفظ المشافه من الحفظة الأقوياء والكتابة المدونة في عهد رسول الله ﷺ.

يقول زيد > : "فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال".

جمع القرآن في نسخة كاملة في صحف وسميت بالمصحف؛ لتكون أصلًا محفوظًا يصون الكتاب، الذي سمي كتابًا قبل أن يتم ظهوره في صورة كتاب، قال

تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ [البقرة: ١، ٢] واستغرق الجمع نحو سنة واحدة، وهذا الأصل وقى النص القرآني من الزيادة أو النقصان، وذلك مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

تسيير الجيوش للفتوحات الإسلامية:

وكان من أهم أعمال أبي بكر الجليلة التي نشر الله بها الإسلام، وأعز الله بها الدين تسيير تلك الجيوش للفتوحات الإسلامية، وهذه من أعظم حسناته < وهو أول من ابتدأ هذا الغزو والجهاد بعد رسول الله ﷺ وعلى منواله نسج بقية الراشدين وبقية الحكام الأمويين والعباسيين، بل والعثمانيين أيضًا لم تكن بدعًا في حياة هؤلاء وإنما كانت تتميمًا لما ابتدأه رسول الله؛ فقد جاء النبي الخاتم بدعوة عامة، أمر بإبلاغها إلى العالمين، وقام النبي بهذه المهمة فكاتب الملوك والأمراء شرقًا وغربًا يدعوهم إلى الإسلام، وقاد الجيوش وسيرها إلى أطراف الجزيرة، حتى تتعرف على الإسلام ورأينا أن الصديق < واصل طريق النبي ﷺ.

وصدمت الجيوش الإسلامية بدولتي فارس والروم فعن طريق تتبع جيوش الإسلام للمرتدين في البحرين والشمال الشرقي من شبه الجزيرة اصطدم خالد بن الوليد بالعرب المتنصرة الخاضعة للفرس في العراق؛ فكان ذلك إيذانًا بالمد الإسلامي في تلك الجهة، أما النصارى على مشارف الشام فقد كانوا من أتباع الروم البيزنطيين، وكانت وفودهم إلى المدينة للتجسس واستطلاع قوة المسلمين على الأغلب، أو خوفًا من القوة الإسلامية بعد أن عجز الروم عن حمايتهم، وكان القليل منهم من آمن بالعقيدة وحمل الدعوة إلى الله كتميم بن أوس الداري < وفروة بن عمرو الجذامي من معان؛ فأرسل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص

إلى شمال الجزيرة لحماية الدولة الإسلامية من تجمعات العرب المتنصرة، وكانت مرابطة الروم لا تزال بالبلقاء؛ فكان ذلك يعني الاصطدام بالروم البيزنطيين، وبذلك تكون الفتوحات الإسلامية قد بدأت بالفعل مع حركة القضاء على أهل الردة. عقد الصديق < ألوية الفتح لبلاد الشام، ولبلاد فارس والعراق، وجعل يرسل إرساليات لتلك البلاد:

فالأول: لشرحبيل بن حسنة وأمره بالتوجه إلى الأردن، وألحق به الوليد بن عتبة.

والثاني: لعمرو بن بن العاص بن وائل السهمي ووجهه إلى فلسطين وألحق به علقمة بن مجزز.

والثالث: ليزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى دمشق وألحق به معاوية بن أبي سفيان، ومعه جماعة من المجاهدين.

والرابع: لأبي عبيدة عامر بن الجراح، ووجهه إلى حمص، وجعل له القيادة العليا في حال اجتماع الجيوش الأربعة، وكان الرسول ﷺ قد دعا أبا عبيدة بأمين الأمة. وكان الصديق قد أمر كل أمير أن يسلك طريقًا غير طريق الآخر، لما لحظ في ذلك من المصالح، وكان بعثه لهذه الجيوش في أول سنة ثلاث عشرة. وقد خرج أبو بكر ماشيًا ويزيد بن أبي سفيان راكبًا، فجعل يوصيه ويودعه.

وفاة أبي بكر < :

وبينا هذه الجيوش في طريقها للقيام بتلك المهام العظيمة، والقيام بتلك الفتوحات الكبيرة؛ إذ بدأ الصديق يتجهز للقاء ربه -تبارك وتعالى- حيث استمر المرض بأبي بكر، وأتته الحمى خمسة عشر يومًا، كان في أثنائها يحمل هم المسلمين، كلما دخل عليه صحابي سأله عن عمر بن الخطاب، حتى شملت استشاراته كل

ذي رأي في الإسلام، وكانت أسئلته < أسئلة لها مغزاها؛ فإنه قد أضمر في نفسه أمرًا أفصح عنه قبل موته ذلك أنه كان يريد أن يعهد بالخلافة لعمر من بعده، أجمعت الآراء لدى الصديق على أن عمر هو أصلح الناس للخلافة من بعده؛ فلما تم له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد: ...". ثم أغمي عليه < فكتب عثمان: "فإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيرًا"، ثم أفاق فأعلمه بما كتب فقال له: "جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله" وأمره أن يكتب تتمة الكتاب: "فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا؛ فإن عدل فذلك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته؛ فقال لهم: أترضون لمن أستخلف عليكم فإني والله ما آلوت من جهدت الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وكان هذا بمثابة ترشيح لعمر بالخلافة وبعد أن توفي < تلقى عمر بن الخطاب البيعة العامة، وأصبح خليفة أبي بكر على المسلمين يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جماد الثانية سنة ثلاث عشرة، وأعطى الصديق بذلك المثل الأعلى للقائد المسلم، وللداعية المسلم؛ فهو يعالج سكرات الموت وهو على فراشه؛ إذ قدم المثنى بن حارثة الشيباني وطلب المدد؛ فقال أبو بكر: عليك بعمر، فجاء فقال: "اسمع يا عمر، ما أقول لك ثم اعمل به، إني لأرجو أن

أموت من يومي هذا -وذلك يوم الاثنين- فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، أي: يندب الناس للخروج في الجهاد مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل؛ فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم". رضي الله عن أبي بكر وأرضاه وجعل فيه قدوة صالحة لأمراء المسلمين وحكامهم في كل زمان ومكان.

وجاء علي بن أبي طالب يوم وفاة الصديق؛ فوقف بالباب فقال: "رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم يقينًا، وأعظمهم غناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام، وأحناهم على أهله وأشبههم برسول الله خُلقًا وخَلقًا وهديًا وسمتًا؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيرًا، صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وكنت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقًا فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] كنت والله للإسلام حصنًا وعلى الكافرين عذابًا..." وجعل يذكر مناقب الصديق > حتى انتهى إلى قوله: "ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله، متواضعًا في نفسك عظيمًا عند الله، جليلًا في الأرض كبيرًا عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة؛ فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى ترد الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك". وصدق عمر حين قال: "لقد أتعب أبو بكر من جاء بعده" فرحمة الله الواسعة وجزاه الله عن صحبه النبي، وعن النصح للمسلمين وعن الإسلام خير ما يجزى به الصادقون المحسنون اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

ثانيًا: الدعوة في عهد الفاروق > ١٣-٢٣ هـ:

البيعة لعمر بن الخطاب:

ما إن انتهى المسلمون من دفن الصديق حتى أقبلوا على عمر؛ فبايعوه البيعة العامة، وتم الإعلان العام عن الخليفة، والرضا التام من الأمة، وأعطته الأمة العهد على أن تسمع له وأن تطيع، وأن تؤازره وتناصره ما دام قائمًا فيهم بكتاب الله وسنة رسوله، كما أعطى عمر العهد من نفسه للأمة على أن يسير سيرة من سبق، وهما رسول الله وأبو بكر، وأوضح عمر منهجه في الحكم وسياسته في الرعية من أول يوم فقال: "إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق".

وإذا كانت مدة خلافة أبي بكر يسيرة؛ فإن مدة خلافة "عمر" بورك فيها فكان من أطول الخلفاء الراشدين عهدًا بالأمة، وبورك للأمة في عهده أعظم البركة فجمع الله تعالى شئونها، ونشر أعلامها، واتسعت رقعتها وتحققت بشارة النبي ﷺ فقد أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينما أنا على بئر أنزع منها؛ جاءني أبو بكر وعمر؛ فأخذ أبو بكر الدلو فنزع ذنوبًا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب من يدي أبي بكر فاستحالت في يده غربًا؛ فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه فنزع)) وفي رواية أبي هريرة: ((بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو؛ فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبًا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غربًا فأخذها ابن الخطاب فلما أر عبقريًّا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن)).

يقول ابن حجر في شرحه للحديث: وقد ذكر الشافعي في تفسير هذا الحديث في (الأم)، فقال بعد أن ساقه: ومعنى قوله: ((وفي نزعه ضعف)) قصر مدته وعجلة موته، وشغله بحرب أهل الردة عن الافتتاح والازدياد الذي بلغه عمر في طول مدته، وفيه إشارة أيضًا إلى طبيعة أبي بكر إلى اللين والرفق بالرعية، وأما قوله ﷺ: ((فلم أر عبقريًّا من الناس يفري فريه)) فالمراد به أنه بلغ النهاية والغاية القصوى في نزعه حتى روى الناس وضربت الإبل فناخت واستراحت، وذلك إشارة أيضًا إلى طول مدة خلافة عمر وإلى تمام الأمر في عهده، حيث استقرت الأمور، واستقامت الرعية، وبلغت الفتوحات مبلغًا عظيمًا في الشرق والغرب. وتحقق العدل بين الناس، وصار حال الأمة على أحسن نظام، وأبلغ ترتيب عرف في عهد من العهود بعد رسول الله ﷺ.

عمر > عاش خمسًا وستين سنة أمضى منها ثلاثين سنة في الهجرة، وكان موكلًا بالسفارة لقريش، فكانوا إذا وقعت الحرب بينهم، وبين غيرهم بعثوه سفيرًا للمفاوضة عنهم، وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به مفاخرًا ومنافرًا. وقف عمر بشدة في وجهة الدعوة الإسلامية، وعندما اهتدى أصبح أسلوبًا وحده في إسلامه ونسيجًا وحده في هجرته، وكان أمة وحده في شدته في الحق، وفي رحمته بأهل الإيمان، ولقد كان الحق على لسان عمر وفي قلبه كما وصفه رسول الله ﷺ بالفاروق.

منهج عمر في الحكم:

حمد الله في أول ما تولى الخلافة وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وذكر صاحبه الصديق وبين فضله ثم قال: "أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم ولولا إني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله، ما تقلدت أمركم" ثم توجه بنظره إلى السماء فقال: "اللهم إني غليظ فليني اللهم إني ضعيف فقوني، اللهم إني بخيل فسخني"، ثم

قال: "إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزل والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، وإن أساءوا لأنكلن بهم".

زاد سياسته إيضاحًا للمسلمين في قوله: بعد أن بين أن رسول الله ﷺ توفي وهو راضٍ عنه وكذا الصديق توفي وهو راضٍ عنه. قال: "ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا ولا يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، ولكم علي -أيها الناس- خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم علي ألا أجتبي شيئًا من خراجكم، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم -إن شاء الله تعالى- وأسدد ثغوركم، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال، فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النصيحة فيما ولاني الله من أمركم". هذه سياسته > .

اهتمام الفاروق بأمر العراق:

وأول ما ابتدر من أعمال: أن اهتم بفتح العراق، والعراق هو ذلك الجزء الشرقي من الهلال الخصيب، يجري فيه نهرا دجلة والفرات فسميت العراق: أرض الرافدين، أو بلاد ما بين النهرين واشتهرت بخصبها نظرًا لما يحمله النهران معهما

من رسوبات كونت مع الزمن سهلًا خصبًا في جنوب العراق، وقد ضمت هذه البلاد عددًا من القبائل العربية قبل الإسلام، منها إياد وبكر وبنو وائل والنمر وابن قاصد وتغلب، وكلب وقضاعة وأسد.

وقد تنصرت تلك القبائل مع سكان الحيرة من العرب من قبائل طيئ وكلب وتيم والأزد ولخم وغسان وكندة، وحمير ومذحج وبني الحارث بن كعب وسليم وتنوخ، وكانت نصرانيتهم على المذهب النسطوري، وأطلق عليهم اسم العباد، وجعل عمر > يرسل الجيوش جيشًا بعد جيش ويلحق الجيوش جيشًا بجيش لافتتاح العراق، أرسل عمر مددًا بقيادة جرير بن عبد الله البجلي قوامه أربعة آلاف، وسيرهم إلى العراق لنجدة إخوانهم هناك حيث سار أبو عبيدة بمن معه من المجاهدين قبل ذلك إلى أرض العراق، وأمر عمر أن يتقدم المثنى فيلحق بجيش أبي عبيدة، وهكذا صار المسلمون جندًا كبيرًا وجيشًا جحفلًا مسيرين جميعًا إلى العراق. كما كتب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح في الشام: أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد بن الوليد إلى العراق، فسيرهم أبو عبيدة بعد فتح دمشق، بإمرة هشام بن عتبة بن أبي وقاص { .

معركة النمارق:

وبعث رستم جيشًا لقتال أبي عبيدة؛ فالتقى الطرفان في النمارق فكسرهم الله - تبارك وتعالى- وولى أولئك الفرس الأدبار ففروا إلى المدائن.

معركة الجسر:

ثم لما علم رستم بهزيمة الجيش في النمارق، جهز جيشًا عظيمًا تحت قيادة بهمن جاذويه ومعه الراية العظمى لفارس، والتقى الجيشان على نهر الفرات، وانتصر

المسلمون في هذه المعركة، وإن كانت شدة الفرس قد ظهرت، ووطأتهم على المسلمين قد بانت، حيث فر بعضهم وغرق البعض في نهر الفرات.

وسارع المثنى فأصلح الجسر وأخذ يقاتل حول الجسر حتى عبر مع من بقي مع المسلمين، ولكن عددًا كبيرًا تفرق ورجعوا إلى ديارهم استحياءً من هذه الهزيمة، وبقي المثنى جريحًا في قلة من الجيش، ولما علم عمر بخبر الهزيمة حزن، وقال: يرحم الله أبا عبيد، لو كان انحاز إلي لكنت له فئة، ثم أمد عمر المثنى بعدد كبير، ووصل إلى المثنى كما قدمنا جرير بن عبد الله البجلي ومن معه وأصبح بالمسلمين قوة.

معركة البويب والقادسية:

ووقعت معركة البويب فكانت بمثابة المقدمة للقادسية، التي بسط الله فيها كلمة الإسلام، وأعلى فيها راية التوحيد، ورزق الله تعالى فيها المسلمين النصر، وهزم الله تعالى فيها الفرس؛ فكان ذلك كسرًا لرستم وليزدجرد الذي أرسله من خلفه، وقصة القادسية شهيرة مذكورة والإطالة بها ليس من مقصودنا.

فتح المدائن:

ولا شك أن النصر يغري بالنصر، فقد طمع المسلمون بغزو الفرس في عقر دارهم، واستقر في نفس عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من أهل الرأي من المسلمين: أن المسلمين لن يكسروا شوكة الفرس، إلا إذا غزوهم في عقر دارهم فقهروهم وغلبوهم على عاصمتهم المدائن، وأيأسوهم من العراق مطلقًا. وسار سعد بجيشه إلى المدائن فافتتحها على بركة الله وبسم الله.

معركة اليرموك:

وما إن استتب الأمر في بلاد فارس والعراق، حتى ولّى عمر وجهه شطر بلاد الشام والأناضول ومصر، وفي بداية القتال العنيف على الجبهة الغربية بين المسلمين والرومان في معركة اليرموك، والتي دارت أحداثها في أوائل شهر رجب من السنة الثالثة عشرة للهجرة، نصر الله المسلمين بقيادة خالد على الروم نصرًا مؤزرًا، وفر الروم من اليرموك.

معركة فحل:

وانتقلت إمرة الجيش من خالد إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح بأمر من عمر > ولما بلغ أبا عبيدة أن فلول الروم لحقوا بمدينة "فحل" وأن مددًا عظيمًا من قبل الروم أتى دمشق، كتب إلى أمير المؤمنين عمر يستشيره بأي البلدين يبدأ، فكتب إليه عمر أن ابدأ بدمشق؛ فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيول تكون لقاءهم؛ فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فتحت دمشق فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق؛ فإن فتح الله عليكم "فحلا" فسر أنت وخالد إلى حمص، واترك عمرو بن العاص وشرحبيل على الأردن وفلسطين. وفتح الله عليهم فحلًا.

فتح بيت المقدس:

ثم فتحت دمشق ثم حمص ثم أجنادين وبيت المقدس، وكان ذلك بفضل الله تعالى ومنته، فعزم عمر على السفر إلى الشام ليتسلم بيديه مفاتيح المسجد الأقصى، وخلف على المدينة المنورة علي بن أبي طالب وكتب إلى عماله أن

يوافوه بالجالية بدمشق، وجاءه أهل إيلياء وهو بالجالية، جاءوه مستأمنين فصالحهم عمر على الجزية، وكتب لهم أمانًا أمنهم فيه على كنائسهم وأموالهم وأنفسهم، ودخل عمر مدينة بيت المقدس وابتنى مسجدًا فوق الصخرة اشتهر فيما بعد بمسجد عمر بن الخطاب، رجع بعدها إلى المدينة فائزًا منصورًا مظفرًا وكانت هذه أول مرة سافر فيها إلى الشام.

فتح مصر:

ثم استأذن عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر في فتح مصر، وزين له فتحها، وذكر له خيرها وخبرها، وأنها قوة عظيمة لمملكة الروم، وكانت إذ ذاك تابعة لهم، وعليها وال من قبلهم يقيم بالإسكندرية خاصة، وأن المسلمين قد انتهوا من فتح الشام، وانتهى عمرو نفسه من فتح فلسطين، فاستجاب عمر بن الخطاب لطلب عمرو فسار إلى مصر؛ فأمده بالزبير بن العوام ومعه بسر بن أرطاة وخارجة بن حذافة وعمير بن وهب الجمحي، فالتقوا عند باب مصر ولقيهم أبو مريم ومعه أسقف أبو مريان، وقد بعثه المقوقس من الإسكندرية، فدعاهم عمرو إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وأخبرهما بوصية رسول الله بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل، ومارية القبطية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ قد ذكرنا من قبل ما رواه مسلم في (صحيحه) أن رسول الله قال: ((إنكم ستفتتحون مصر، وهي أرض فيها يسمى القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحمًا)) أو قال: ((ذمة وصهرًا)).

فقال: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، فأمّنّا حتى نرجع إليك، فقال عمرو: مثلي لا يخدع، ولكن أجلكما ثلاثًا لتنظروا، فقالا: زدنا، فزادهم يومًا

فرجعا إلى المقوقس عظيم القبط، ومعه أرطبون الوالي من قبل الروم، وكان الوالي من قبل الروم، وكان قد فر من بلاد الشام، فأخبرهما خبر المسلمين فأما أرطبون الروم فأبى وعزم على الحرب وقتال المسلمين؛ فهزموه هو وجنده ثم فر إلى الإسكندرية وحاصر المسلمين عين شمس وهي "المطرية" وبعث عمرو بحصار الإسكندرية عوف بن مالك، وراسله أهل البلاد، وانتظروا ما يفعله المسلمون بعين شمس وبعد مدة من حصارها رضي أهلها بالصلح على إعطاء الجزية، وأجروا ما أخذوا قبل ذلك عنوة، مجرى الصلح وشرطوا رد السبايا؛ فأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين بذلك، فأجاب وكتب لهم عمرو بذلك كتابًا أمنهم فيه على كنائسهم وأموالهم وأنفسهم، شريطة أن يعطوا الجزية والخراج، ودخل في ذلك الصلح أهل مصر كلهم.

ثم نزل المسلمون على الفسطاط الذي ضربه عمرو، واختطوا حوله خيامهم، وأسس عمرو بمدينته المسجد المشهور الآن بمصر القديمة، ويعرف بمسجد عمرو بن العاص.

وبفتح مصر انتهى ما فعله المسلمون { مع الروم في مدة عمر > وأخذوا من الروم ولايتين عظيمتين هما الشام ومصر، وجزءًا مهمًّا من جنوب بلاد الروم وهو الأناضول، وقد أضعف المسلمون شوكة الرومان بذلك، وأدالوا دولتهم، وعلا صوت الإسلام في بلاد فارس والروم، وقُضي على أسطورة الفرس والروم وأنهما لا تقهران، وأصبحت الكلمة العليا لله ولرسوله وللمؤمنين. وأصبح المسلمون في عهد عمر هم القوة العليا والأولى في العالم آنذاك، وأصبحت لهم الهيبة في نفوس الأمم، ومعهم العدل والنور ينشرونه في كل مكان.

اجتهاد عمر في أمر الرعية:

اجتهد عمر في أمر الرعية، فنظم بيت المال، وأرخ بالتاريخ الهجري، ودون الدواوين وجعل للجند ديوانًا، وأقام للحسبة رجالًا ومارس ذلك بنفسه < فكان يعس بالليل، ويتفقد الرعية ويرسل العسس، يبحثون له عن كل محتاج ويصلون ويغيثون كل ملهوف، وجعل للعطاء ديوانًا، وأسس ونظم المدن ونظم الأمصار، واختار الولاة بنفسه، وحاسبهم بنفسه، وكان يمنع كبار الصحابة من الولاية على الأمصار، مخافة أن يفتتنوا بالدنيا وزهرتها، وكان إذا رأى افتتان الناس بقائد أو وال عزله، حتى لا يسلمه إلى الغرور بنفسه من جانب، وحتى لا يفت في عضد الرعية إذا انقادوا لغيره من جانب آخر.

وكان يرعى الآداب العامة < ويحافظ على النظام العام، ولا يقبل أن يخدش بخادش ولا أن تشوبه شائبة، ويحرص على سد الذرائع، وسد أبواب الفتن، ويعنى بشئون الدين والتشريع، ويعنى بشئون الإمامة في الصلاة والحج، وعني عناية خاصة بالقضاء والفتيا، وكان يقضي هو بنفسه في شئون المختصمين بالمدينة، وكان يرسل القضاة بنفسه ويرسلهم إلى الأمصار، ونظم عمر القضاء في الأمصار، ودفع القضاة إليها، ولى أبا الدرداء قضاء المدينة معه لكثرة انشغاله بالجهاد والفتوحات والسياسة العامة.

ولى أبا موسى قضاء الكوفة، ولى شريحًا قضاء البصرة، ولم يكتف < بتعيين من يراه كفؤا لذلك، وإنما كان يضع لهم الدستور، ويخط لهم المنهج، وكتابه المشهور لأبي موسى الأشعري يعتبر وثيقة نادرة وأساسية يقوم عليها نظام القضاء، وكانت الفتيا في عهده مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، وكان مطلبها في الناس قليلًا حيث كانت أنوار النبوة تسطع على الأمة، والناس قريبو

عهد برسول الله، ولم يكن بينهم للجدال والخوض في الفرعيات والمسائل الجادة المستحدثة والمستجدة التي تعد من باب الترف العقلي، أو الجدل الفكري.

وكان الفقه والتعليم مبذول في الأمصار المفتوحة يرسل إليها معلمين ليقرءوا الناس القرآن، ويعلموهم شرائع الإسلام. وعمم عمر هذا النظام في عهده وكان يتخير من بين الصحابة من هو كفؤ لهذه المهمة وهو لم يكن مبتكرًا ولا مبتدعًا، وإنما كان متأسيًا برسول الله ﷺ حين كان يبعث فقهاء الصحابة وعلماء الصحابة إلى الأمصار، حيث أرسل معاذًا إلى اليمن، ومصعبًا إلى المدينة، وقد كان عمر < حريصًا على أن يقفوا أثر النبي ﷺ وصاحبه في الرعية.

فجيعة المسلمين في عمر وذكر وصاياه:

ثم إن تلك الفتوحات العظيمة، وتلك الأعمال الجليلة، استنفرت أهل الشرك من كل جانب، وحركت أهل الحقد من كل ميدان، وجعلتهم يتكأكئون على عمر < ويحيكون المؤامرات حول حياته الجليلة فكانت الطعنة النجلاء التي خرجت من يد الكافر أبي لؤلؤة المجوسي، الذي أراد أن ينتقم لمجوسية فارس، ولنارها التي أطفئها عمر < فلما وصل إلى المدينة وكان غلامًا للمغيرة تآمر على عمر فطعنه طعنة الموت التي كانت بخنجر مسموم وهو يصلي بالمسلمين في صلاة الفجر.

وما إن وقعت فيه هذه الطعنة حتى أوصى الخليفة من بعده بتقوى الله وكتب ما نصه: "أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله، وأوصيه بالمهاجرين الأولين خيرًا: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨] أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه

بالأنصار خيرًا، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم، وأن يشركهم في الأمر، وأوصيه بذمة الله وذمة محمد أن يوفي لهم بعهدهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، وأن يقاتل من ورائهم".

وقال لابنه عبد الله: "انظر ما علي من الدين؛ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم، فقال: إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل بني عدي، فإن لم تف أموالهم فاسأل قريشًا ولا تعدهم إلى غيرهم، وأرسل إلى أم المؤمنين عائشة < يستأذنها بأن يدفن في بيتها إلى جانب صاحبيه، فأذنت فقال: يا عبد الله بن عمر، انظر فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري، ثم قف بي على الباب فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي وإلا فردني إلى مقابر المسلمين".

رحم الله أبا حفص، رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب < وأجزل مثوبته وأوسع له في الأجر جزاء وكفاء ما أدى لأمة محمد ﷺ من الأمانة، وما قام به من حمل الخلافة.

ثالثًا: الدعوة في عهد عثمان < ٣٤-٣٥هـ:

الشورى واختيار عثمان للخلافة:

لما طعن عمر طعنة الغدر والخيانة على يد أبي لؤلؤة المجوسي، تردد في استخلاف أحد من المسلمين، فأتاه بعض الصحابة فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت فأحجم، ثم قال: مَن أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة عامر بن الجراح حيًّا

لاستخلفته، فإن يسألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: ((إنه أمين هذه الأمة)) لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: ((إن سالمًا شديد الحب لله)) فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني -يعني: أبا بكر- وإن أترك فقد ترك من هو خير مني -يعني: الرسول ﷺ ولن يضيع الله دينه.

ثم إن عمر دعا النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وهم علي، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وقال لهم: اختاروا واحدًا منكم، وأحسنوا مؤازرته وأعينوه، وأحضروا مجلس مشورتكم عبد الله بن عمر دون أن يكون له من الأمر شيء. ثم قال لأبي طلحة الأنصاري: اختر خمسين رجلًا من الأنصار، واستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلًا منهم، كما أمر صهيب بن سنان الرومي أن يصلي بالناس مدة الثلاث أيام؛ حتى يختاروا أحدهم للخلافة.

لما دفن عمر > جمع المِقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت عائشة عدا طلحة الذي كان غائبًا عن المدينة، وأمرهم بالتشاور واختيار أحد الستة، وجعلوا يتناقشون فلا ينتهون إلى شيء، وأخيرًا خلع عبد الرحمن بن عوف نفسه من الخلافة بشرط أن يفوض لاختيار مَن يراه الأفضل، وأعطى الجميع موثقًا ألا يتبع الهوى، وألا يخص ذا رحم، وألا يألو الأمة، واتصل بأهل الشورى، فحصل الاختيار في شخص علي وعثمان، وخرج يتلقى الناس في أنقاب المدينة ملثمًا لا يعرفه أحد، يستشير الناس ويجمع رأي المسلمين برأي رءوسهم وأقيادهم جميعًا وأشتاتًا، مثنى وفرادى، سرًّا وجهرًا حتى خلص إلى المخدرات في حجابهن، وسأل الولدان في المكاتب، وسأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، لا

يغتمض بكثير نوم ولا قليله إلا صلاةً، ودعاءً، واستخارةً، وسؤالًا، فلم يجد أحدًا يعدل بعثمان.

ولما انتهى الأجل الذي ضربه عمر اجتمع عبد الرحمن بالمسلمين في المسجد وقت صلاة الصبح، وقد لبس العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ وكان بعض الصحابة لا يعدلون بعلي أحدًا من القوم؛ منهم المقداد بن عمرو، وأبو ذر، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، فصعد عبد الرحمن منبر رسول الله ﷺ ووقف وقوفًا طويلًا، ودعا دعاءً طويلًا لم يسمعه الناس، ثم قال: أيها الناس، إني سألتكم سرًّا وجهرًا عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إما علي وإما عثمان، فقُمْ إليَّ يا علي، فقام إليه فأخذ بيده، وقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر، قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، فأرسل يده ودعا عثمان، وأعاد عليه ما قال لعلي، فقال: نعم، فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان.

فبايعه، وازدحم الناس بالمبايعة، وبايعه علي بن أبي طالب أولًا -ويقال: آخرًا- وبذلك وافقت الأمة على اختيار عثمان للخلافة.

ولا صحة لِمَا ورد من المهاترات في كثير من كتب المؤرخين والقصاص المخالفة لِمَا ثبت في الصحاح، فهي مردودة على قائلها وناقلها.

وأصبح عثمان خليفةً للمسلمين باتفاق الجميع من يوم الاثنين مستهل المحرم عام أربع وعشرين من الهجرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : عثمان لم يصل إمامًا باختيار بعضهم، بل بمبايعة الناس له، وجميع المسلمين بايعوا عثمان لم يتخلف عن بيعته أحد. قال الإمام أحمد: ما كان في القوم أوكد من بيعة عثمان، كانت بإجماعهم.

إلا أن المحاورات والمهاترات التي زخرت بها كتبُ التاريخ التي وُضعت فيما بعد، والتي تدخَّل في صياغتها وفي دس أخبارها بعضُ الرافضة؛ ليشنعوا على الإسلام وأهله، وينالوا من رواده وقواده، ويأخذوا في تلك الأقاويل المختلقة، وفي تلك الروايات المكذوبة؛ للنيل من صحابيٍّ على حساب آخر، هذه المحاولات والمهاترات والمهاوشات كلها مردودةٌ عليهم، لا تليق بواحد من عامة الصحابة، فضلًا عن خاصتهم } الذين قال فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. إن الأعمال الكبيرة لا ينجزها إلا الكبار، وقد كنتم -أي: يا هذه الأمة- خير أمة أخرجت للناس في العالمين كافةً، إن أمة الصحابة هي المخاطبة بقول الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

تولي عثمان الخلافة وإعلان سياسته:

تحمل عثمان > أثقال الخلافة، وهو يوشك أن يستقبل السبعين من عمره، وقد تلقى البيعة وهو يرتجف من تبعات هذا الأمر في ذلك الوقت العصيب من حال هذه الدولة الفتية، توجه إلى المنبر وعلى مُحياه ما علاه من الاكتئاب والخوف والقلق، ذلك من جَلال تلك المسئولية التي أمسكت لسانَه عن الإفاضة في أول خطبة ألقاها، فكان على ما ذكره السيوطي -رحمه الله تعالى- أن قال: "أيها الناس، إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أيامًا، وإن أعِشْ تأتِكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء، وسيعلِّمنا الله".

أعطى عثمان العهد والميثاق على أن يسير بالأمة على سنة رسول الله، وعلى نهج صاحبيه أبي بكر وعمر. وقد ذكر الطبري في تاريخه قال: خطب عثمان الناس بعدما بويع، فقال: "أما بعد، فإني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدعٍ، ألا وإني لكم عليَّ بعد كتاب الله ﷻ وسنة نبيه، ثلاثًا؛ اتباع مَن كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنوا سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا مَن تركها".

الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان والأسطول الإسلامي:

وبدأ أول ما بدأ بنشر الدعوة إلى الله، ودعم حركة الفتح والجهاد في سبيل؛ ففي المشرق طورد "يزدجرد" آخر ملوك الفرس إلى أن قُتل عام واحد وثلاثين، وفي الشمال أعاد المسلمون فتح أذربيجان وأرمينية عام أربع وعشرين على يد الوليد بن عقبة، ولما انتفضت عام ستة وعشرين أعاد الوليد بن عقبة الكَرة على أذربيجان وأرمينية، واشتدت غارات المسلمين على الروم في نواحي ثغور الشام والجزيرة طيلة حكم عثمان > فشَنَّ حبيب بن مسلمة الفهري الغارات عام أربع وعشرين، وغزا معاوية مضيق القسطنطينية بنفسه، ومعه زوجته عاتكة سنة ثنتين وثلاثين، ودخل أرض الروم من ناحية ملاطية عام ثلاث وثلاثين. أما في مصر فقد انتقضت الإسكندرية -كما ذكرنا- وجاءت الروم عليهم منويل الخَصي في المراكب، حتى أرسوا بها، فأجابهم مَن بها من الروم، ولكن المقوقس لم يمكث، فاستعادها عمرو بن العاص عام خمس وعشرين.

وغزا عبد الله بن أبي السرح -والي مصر بعد عمرو- أرضَ النوبة، فخضعت للحكم الإسلامي على غير جزية.

وفي الغرب فُتحت إفريقية، فكان حاكم إفريقية البطريك "جرجوريس بن نقياس" فانفصل عن الإمبراطورية البيزنطية، وتلقب بالإمبراطور بموافقة الشعب المغربي، وعندما اغتصب "فوقاس" عرشَ الإمبراطورية في القسطنطينية ورأى "جرجوريس" فتحَ المسلمين لبرقة وطرابلس، لم يستطع التدخل، ولكنه أخذ الاحتياطات اللازمة؛ ليحول بين المسلمين وامتداهم.

وكان عمر < قد أذِنَ في أثناء غزو إفريقية أن يبادروا إلى المغرب العربي، وكان عمرو قد استأذن أثناء ذلك في غزوها، فكتب له: إنها مفرقة، ولا يغزوها أحد ما بقيت. فلم يأذن له استنادًا إلى خطته في عدم إبعاد المسلمين عن قواعدهم كثيرًا، فلما تولى عبد الله بن أبي السرح مصر، استأذن عثمان بن عفان في غزو إفريقية، فاستشار الصحابة وذوي الرأي، فأجمعوا على موافقته، وكانت "سرت" و"برقة" قد أصبحتا من قواعد الإسلام الهامة، فمن السهل أن يُنطلق منهما لمد الإسلام غربًا.

أعظم ما تميز به عهد عثمان من الناحية الحربية:

أن أصبحت دولة الإسلام دولة بحرية، ولم تعد دولة برية فقط، فقد كان الروم يعولون على قوتهم البحرية، وكانت هذه القوة تغريهم بمهاجمة السواحل الإسلامية وخاصة الإسكندرية، وشمال إفريقية، فكان أول مَن ركب البحر للفتح من المسلمين: العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد عمر بن الخطاب، فقد أحب أن يؤثر في الفرس أثرًا يُعز الله به الإسلام، فندب عام سبعة

عشر أهلَ البحرين لفتح بلاد فارس، وحملهم في السفن من غير إذن عمر، وعبَرَ بهم الخليج، وغرقت سفنه التي عبر بها وعاد من طريق البصرة، فشق ذلك على عمر، وعزل العلاء، وأتبع البحرين لسعد بن أبي وقاص.

ولما فشا الإسلام وخفقت أعلامه على سواحل الشام ومصر، فَكَّرَ معاوية بن أبي سفيان والي الشام بغزو البحر، شجعه على ذلك وجود الأحراج الكثيرة في لبنان، وجبال سوريا الأخرى، وقبلية أهل السواحل الشامية الملاحية التي ورثوها عن أجدادهم، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو الروم بحرًا، فلم يأذن له؛ تبعًا لسياسته في التحفظ في الخطوات الجديدة، حفاظًا على أرواح المسلمين، تفاديًا من التغرير بهم، وقال: وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم.

ولما توفي عمر استأذن عمر عثمان في الغزو بحرًا وألح عليه، فشاور الصحابة ووافقوا، بشرط ألا يحمل مسلمًا على ركوب البحر والغزو فيه إلا بمحض إرادته واختياره، فأنشأ معاوية بالتعاون مع عبد الله بن أبي السرح أسطولَ الإسلام الأول، وغزا بنفسه جزيرة قبرص عام ثمانٍ وعشرين، وبصحبته عدد من الصحابة؛ منهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان التي توفيت بقبرص، وكانت قد بشرها النبي ﷺ أن تكون من الأولين في غزو البحر، فكانت هذه الغزوة، وماتت بها، > .

واتخذ معاوية عكة مركزًا لبناء الأسطول الإسلامي، كما اتخذ عبد الله بن أبي السرح الإسكندرية لنفس الغرض، فزادت الوحدات البحرية الإسلامية، وأصبح للمسلمين أسطول كبير، واشتبك المسلمون مع جيش الروم البحري، وكان ذلك بقيادة عبد الله بن أبي السرح بمائتي سفينة، انتصر المسلمون فيها على

سِتمائة سفينة رومية، وسميت تلك المعركة بـ"ذات الصواري"؛ لأن المسلمين تمكنوا من ربط سفنهم بصواري سفن العدو؛ ليقاتلوهم على سطح واحدة كأنهم يقاتلون على الأرض المنبسطة، فكان من جراء ذلك أن استولى المسلمون على عدد كبير من السفن، وكان ذلك عام واحد وثلاثين من الهجرة، أو عام أربع وثلاثين من الهجرة.

نظرة فاحصة للفتوحات في عهد عثمان:

وبالنظر المتأمل في فتوحات عهد عثمان > رأينا أن عثمان عُني بتأديب المتمردين في أكثر المناطق التي فتحت في عهد عمر، وأن هذه الانتفاضات لم تكن كرهًا في الإسلام من أبناء تلك البلاد المفتوحة، فطالما انتظرت تلك الشعوب المغلوبة على أمرها الفتح الإسلامي لبلادها، وتشوقت إليه، وإنما كانت حركات التمرد من الأشخاص ذوي السلطان والرئاسة في القديم، وأن عهد عثمان > قد شهد شيئًا جديدًا في فنون الحرب وهو ميلاد البحرية الإسلامية ولأول مرة في تاريخ المسلمين، لقد أثبتت كفاءتها في معركة "ذات الصواري" وفي فتح قبرص، ولم تكن حركة الجيوش في عهد عثمان قاصرة على قمع حركات التمرد فقط، ولكنها تحركت نحو الأطراف وواصلت مسيرة الفتح الجديد في إفريقية وقبرص وأرمينيا، وأضافت بقعًا جديدة إلى حدود الدولة الإسلامية في بلاد السند، وكابُل، وفرغانة، ورأينا كيف تحرك ابن أبي السرح حتى وصل إلى جنوب غربي القيروان، وتقدمت الجيوش الإسلامية في عهد عثمان شرقًا حتى وصلت إلى حدود الهند والصين، وشمالًا إلى ما وراء بحر الخزر، وغربًا إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس، وجنوبًا إلى السودان وبلاد الحبشة.

أثمرت تلك الفتوحات قوة المسلمين، وأظهرت شدة بأسهم أمام أعدائهم، وقضت على حركات التمرد، وأعادت الأمنَ والاستقرار في ربوع دولة المسلمين، وانهمرت الغنائم، وتدفقت الأموال على المسلمين من كل صوب.

عوامل الفتنة، وظروف استشهاد عثمان > :

وكما انشغل عثمان > بالجهاد المتواصل وبالغزوات المتلاحقة، فإنه انشغل أيضًا بالمهام الداخلية، وتنظيم شئون الدولة، وعلاج المشاكل، وحسم القضايا التي تواجه المجتمع في الداخل. كان أول شيء واجهه على صعيد الجبهة الداخلية حادثة قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة، وقد فعل عبيد الله ذلك عندما أخبر أن الخنجر الذي قتل به عمر رآه رجل مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز وهو أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة. والحادثة التي قتل فيها عمر هي جريمة سياسية كاملة اشتركت فيها أطراف متعددة من المجوس واليهود والنصارى، بعضهم كان يظهر الإسلام، وبعضهم لم يكن يظهر الإسلام، إلا أن الجميع كان له دور في التخطيط والتنفيذ، وهذا أمر صار مفوضًا إلى الخليفة، فليس من حق أي فرد أن يتولى القصاص بنفسه، وإلا انقلبت الأمور فوضى، فإقامة الحدود من اختصاص الحاكم، وليس ذلك إلى الأفراد مهما كان شأنهم وعلا قدرهم.

فما كان من عثمان إلا أن أخذ عبيد الله بن عمر وحبسه، فمات في الحبس، فغضب ابنه وصار سبئيًّا، خرج علَى عثمان، لقد كان بجوار هؤلاء الموتورين رجل ملأ الحقد على الإسلام والمسلمين قلبَه، وهو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي كان من أهل اليمن، أمه سوداء، فأطلق عليه "ابن السوداء". تَصنّع هذا الرجل وتظاهر بالإسلام، ثم انطلق كالسهم في ربوع المجتمع يتنقل بين الأمصار،

يريد أن يفسد في الدين، وأن يؤلب المسلمين على الخليفة، ويوغر عليه صدورَ الناس، فيتحقق له مراده من تقويض دعائم الدولة التي أذاقته هو وبني جنسه الهوان، فأخذ يجوب الشام ومصر والبصرة والكوفة، ويلتقي بهؤلاء وأولئك، وينفث فيهم السموم حتى أشعلها نارًا تحرق. هذا فضلًا عن إضلاله الناس في أمر دينهم، وتخريبه لمعتقداتهم. فقال برجعة النبي ﷺ وقال للناس: عجبًا، وأي عجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمدًا يرجع، وقد قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] قبلها منه بعض الجهلة والأغرار.

ثم قال بعد ذلك بالوصية لعلي، وأظهر التشيع لآل البيت، وقال للناس: إن لكل نبي وصيًّا، وعلي وصي النبي، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله، فوثب عَلَى علي، فأخذ منه حقه يقصد بذلك عثمان بن عفان، عليه من الله ما يستحق.

تجمعت تلك القوى الشريرة، ونسجت خيوط المؤامرة على عثمان، وتحركوا إلى المدينة، حيث تحرك من مصر ستمائة على رأسهم عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر، وعمرو الخزاعي، وتحرك من الكوفة مائتان، على رأسهم مالك الأشتر النخعي، وقدِمَ من البصرة مائة رجل على رأسهم حكيم بن جبلة العبدي، أقبلوا جميعهم وكانوا يدًا واحدةً في الشر، يريدون عزل الخليفة أو قتله، فكان الحصار، ثم كانت الفجيعة التي كانت سببًا في ثَلْمِ صف المسلمين، واستباحة دم أمير المؤمنين.

أوسع السبئيون المدينة ضد عثمان بالقالة والإشاعة الباطلة، وأصبح الرأي العام إلى جانبهم فيما أشاعوا وتناقل عملاؤهم، واستغلوا الفرصة، ودخلوا على

عثمان دراه، وكان معهم أبو قرة عبد الرحمن بن الأسود من "سبي عين التمر" ابتاعه عثمان من فاتح الأسدي، وجعله يحفر القبور، فلما وثب الناس كان معهم عليه، فقال له: رد المظالم، فقال عثمان: أنت أولها، ابتعتُك من مال الصدقة؛ لتحفر القبور، فتركت ذلك، ثم قتلوه. واخترعوا قصصًا عن تأليب الصحابة على عثمان، واخترعوا كتابًا فيه فصاحة وأمثال، كتب به عثمانُ مستصرخًا علي بن أبي طالب؛ ليوغروا قلوب المسلمين على أسلافهم الماضين، والخلفاء الراشدين.

وقعت المأساة، واحتمل الصحابة ما تمخضت عنه من عبء ثقيل، فقد قال علي حين بلغته إشاعات السبئية: "والله ما قتلتُ، ولا أمرتُ، ولكن غُلبتُ" يقول ذلك ثلاث مرات، وقالت عائشة عندما بلغها ادعاؤهم أنها كتبت لهم: "لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء، حتى جلست مجلسي هذا".

مات عثمان < يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين بعد العصر، ودُفِنَ ليلة السبت بين المغرب والعشاء، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة على الأرجح، وتقدم للصلاة عليه جبير بن مطعم، وحمله إلى قبره نيار بن مكرم، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، وكانت معهم نائلة بنت الفرافصة، وأم البنين، وأنزلوه القبر، فألحدوه < وتفرقوا عنه.

فرحمةُ الله على ذي النورينِ، على مجهزِ جيشِ العسرةِ، عَلَى مَن اشترَى بئرَ رومةَ، ومَنْ جعلها تفيضُ على المسلمين ماءً عذبًا فُراتًا، حرموك الماءَ وأنت محصورٌ، ألا رحمةُ على عثمانَ، مَن كانت تستحي منه الملائكةُ، ألا رحمةُ اللهِ

على مفرِّجِ كربِ المسلمين حينما وقعتْ لهم المَسْغَبَةُ بقافلةٍ كاملةٍ، ساوَمَك عليها التجارُ، فأبيتَ إلا أن تأخذ ثمنَها مِن اللهِ، فجعلتها وأحلاسها وأقتابَها وما حملت فوق ظهورها صدقةً للمسلمين، فرحمة الله على شهيد الأمة وعلى ضيف الجنة، وعلى صاحب رسول الله ﷺ الذي قال له: ((اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راضٍ)). ألا فاخرجي أيتها الروح الشهيدة الزكية في جوار ربك راضية مرضية: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧: ٣٠].

الدعوة في عهد علي >

أولًا: الدعوة في عهد علي > ٣٥-٤٠هـ:

ظروف تولي علي الخلافة وأسباب قبوله:

ذكرنا أن الأمةَ فُجعت في مقتل عثمان > وكان محل الفجيعة حقًّا أن يقتل عثمان محصورًا في داره وسط أصحاب رسول الله ﷺ فلم يؤخذ على غِرة كما أخذ عمر، وإنما قتل على مسمع ومرأًى من أهل المدينة، وكانت شواهد هذا المصير واضحة جلية أمام ولاته على الأمصار في كل مكان، وخرج الثوار من مصر ومن الكوفة ومن البصرة يريدون عثمان، لقد قتل الشيخ بأيد أثيمة بلا شك مهما كان ادعاؤها في حماية الأمة ووجوب تغيير المنكر، ومهما لبسوا من مسوح الدين والرهبانية.

بقيت الدولة الإسلامية بعد مقتله > خمسة أيام بدون خليفة، يسيطر على عاصمتها الغوغاءُ من أهل الأمصار، وكان علي يختبئ منهم ويلوذ بحيطان

المدينة، فإذا لقوه باعدهم، وتبرأ منهم، ومن مقالتهم، وكذلك طلحة والزبير، وحمل الأشتر تهديد زعماء الأمصار الثلاثة بقتلهم إن لم يبايع لأحدهم، فاستجاب علي، وأحضر طلحة مكرهًا فبايع، واعتبروا قبول علي الخلافة في مثل هذه الأوضاع تضحية كبيرة؛ لأنه في واقع أمره كان أسيرًا لدعاة الفتنة يسيرونه ولا يسيرهم، وذلك واضح عند تتبع أحداث الفتنة بعد استشهاد الخليفة عثمان.

جاء السبئيون إلى علي قبل أن يلي الخلافة وهددوه بإلحاقه بعثمان، وقالوا: لتنصبن لك نفسك أو لنبدأن بك، وكانت سياسته > أن يعزل زعماء السبئية عن الجند والجماهير، وكان يظن أن القوم سيتفرقون، ولم يكن يدرك أن قوة خفية تجمعهم وتسوقهم، ويتضح ذلك من الأحداث التي توالت فيما بعد. فعلي > الذي طالب الصحابة الهدوء في أمر مقتل عثمان، لم يطالب نفسه بالتريث في عزل ولاة عثمان حتى يستقر الأمر، وكانت أول خطبة خطبها بعد الاستخلاف بعد حمد الله والثناء عليه، أن قال: "إن الله ﷻ أنزل كتابًا هاديًا بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمًا غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب.

فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله في عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ﷻ ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض".

وبرغم أن الأمر في هذه الآونة كان يحركه الثوار -أو قُلْ بمعنى آخر: هم الذين فرضوا الخليفة- إلا أنه بموافقة أهل المدينة من المهاجرين والأنصار على بيعة علي بالخلافة، فقد أصبح -وإن رفض البعض البيعة أو بايعوا كرهًا- من حقه أن يمارس أعمال خلافته، وأن يوجه سياسة الأمة كما يرى، وأن يتخذ من القرارات ما يراه محققًا لإعادة الأمن والأمان في ربوع الأمة وسائر الأمصار، فيعزل من يشاء، ويولي من يشاء، ويتصرف في بيت المال كما تطلبه تبعات الخلافة وكما يرى هو، لا كما يحلو للناس.

وبدأ يباشر مهام الخلافة، فأرسل على الفور ولاته الجدد إلى الأمصار: عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن حسان إلى الكوفة، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن، وقيس بن ساعدة بن عبادة إلى مصر، وسهيل بن حنيف إلى الشام، وكلهم تسلم عمله إلا سهيل بن حنيف والي الشام، فما إن وصل إلى تُخوم الشام حتى استقبلته فرقة من جيش معاوية، فحالت دون دخوله البلاد.

ومن هنا بدأ الصراع بين علي ومعاوية { حيث فوجئ الخليفة كذلك بأن الذي شرد عليه ليس معاوية فقط، وإنما خرج طلحة والزبير ومعهما عائشة أم المؤمنين بجيش إلى البصرة، يتتبعون قتلةَ عثمان بدون إذن ولا مراعاة لأمر الخليفة، فقد شردوا كذلك على الخليفة، وأعلنوا العصيان، وأصبح الأمر يتطلب من عليٍّ وقفة حاسمة مع هؤلاء، وإلا انتقلت الزمام من يده، وضاعت هيبة الخلافة، وسقطت دولة المسلمين كما فُعِلَ بعثمان، وكان لعلي > مع هؤلاء ما سنوضحه فيما هو آتٍ في مبحث الفتن التي كانت في عهده، > .

موقعة الجمل:

كانت سياسة علي تنصبُّ على عزل السبئية الوالغين في دم عثمان؛ حتى لا يجدوا مددًا من الغوغاء، فيستطيع الثأر منهم، ولما عزم على الخروج إلى الشام لم يول ممن خرج على عثمان أحدًا، فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية، وولى عبد الله بن عباس على ميمنته، وعمر بن أبي سلمة على ميسرته، وأبا ليلى بن عمرو بن الجراح على مقدمته، واستخلف قثم بن العباس على المدينة. فهال الأمر السبئية، وحركوا الفتنة بين علي وطلحة والزبير وعائشة، ونقلوا إلى علي: أن طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة قد تمالئوا على أن يسخطوا إمارته، وأن يدعو الناس إلى الإصلاح، فكان جوابه لهم: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني عنهم.

في ذلك الحين كان طلحة والزبير وعائشة قد قرّ رأيهم على السير إلى البصرة وقتال السبئية، والانتقام لعثمان، فانتشر السبئية بين الفريقين يشعلون البغضاء، ويشيعون الإشاعات الكاذبة؛ ليزداد كل فريق خوفًا من الآخر، وتمكن حكيم بن جبلة أن يدفع الجماعات الإسلامية إلى القتال في البصرة باستثارة العصبية ضد قريش، لكن الصحابة تمكنوا من عزل السبئية، فقتل من زعمائهم زريح، وابن المحرش، وحكيم بن جبلة، ونجا حرقوص بن زهير الذي لجأ إلى تميم.

ولما رفض معاوية أن يدخل في طاعة الخليفة أيقن علي بما يريده معاوية، فغادر المدينة إلى العراق قائلًا: إن لأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبًا منها، وهو في طريقه إلى العراق متجهًا إلى الكوفة، جاءته الأنباء بخروج طلحة والزبير، ومعهما عائشة على رأس ذلك الجيش من الصحابة، وانضم إليهم في الطريق عدد كبير من الأعراب والقبائل يريدون البصرة؛ حتى يتعقبوا قتلة عثمان، ويستعينوا

بصالح أهل البصرة وغيرهم من أهل العراق؛ ليتم لهم ما خرجوا من أجله وهو الثأر لعثمان من قتلته في كل الأمصار. وقد سار هذا الجيش الذي وصل تعداده إلى ثلاثة آلاف إلى ماء "الحوأب" حيث نبحتهم كلابه، فأناخت عائشة > وقالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب، ردوني، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: ((ليت شعري، أيتكن ينبحها كلاب الحوأب؟))، فقالوا لها: ما هو بالحوأب، فسارت > .

وكانت وقعة الجمل المعروفة المشهورة بين علي من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى، واندفع الزبير وطلحة إلى القتال حتى خرج علي إلى الصفوف، فقال: إلي يا طلحة إلي يا زبير، فخرجَا إليه، فقال: يا طلحة، أخبأت عرسك في البيت وجئت بعرس رسول الله تقاتل بها، وأنت يا زبير، أتذكر يوم كذا عندما رأيتني مقبلًا على رسول الله، فضحكتَ لي، فسألك رسول الله ﷺ: ((أتحبه يا زبير؟)) فقلت: نعم، فقال لك: ((أما إنك لتقاتلنه وأنت له ظالم))، وصاح الزبير: أجل، ولقد ذكرتني بما كنتُ قد نسيت، وأغمد سيفه وغادر هو وطلحة أرضَ القتال، خاصة بعد أن علِمَا أن عمار بن ياسر يقاتل في جبهة الإمام علي > وتذكرَا قول الرسول لعمار: ((تقتلك الفئة الباغية)).

وتجمع الغوغاء حول الجمل بعد انصراف القائدين عن القتال، ولما رأى الإمام أنهم يتخذون من الجمل كعبةً لهم يلتفون حوله حتى قتل أمامه سبعون رجلًا، فأمر بعقر الجمل، وحمل السيدة عائشة بهودجها دون أن تصاب بسوء، وبعقر الجمل انفرجت المعركة، وهزم أهل البصرة، وكانت فاجعة أليمة ذهب ضحيتها كما ذكر المؤرخون نحو عشرة آلاف من جيش البصرة، وخمسة آلاف من جيش

علي، هذا فوق قتل الزبير وطلحة. فأما الزبير فقتل غيلةً، تربص به عمرو بن جرموز في الطريق فقتله، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم، فأنهى حياته.

الذي يعنينا ويهمنا هنا هو أن الحرب قد انتهت، ولكن كيف انتهت؟

إن خروج عائشة لم يكن للنيل من علي > وإنما اجتهاد أخطأت فيه في أمر قتلة عثمان، ولم تكن مستريحة بعد الخروج لهذا العمل، بدليل أنها لما سمعت كلاب الحوأب أرادت أن ترجع، ولكنهم دلسوا عليها الأمر. حينما دعا طلحة والزبير وعائشة إلى الصلح وبين لهم القعقاع صوابَ رأي علي في شأن قتلة عثمان، وأن التريث في شأنهم هو الحل حتى يتمكن منهم اقتنعوا، خاصة بعد أن حصل ما حصل من تعصب القبائل لقتلاهم، وطلبوا الإمام للصلح معه في البصرة، وحينما ذكر علي > الزبير بما قاله ﷺ تذكر وندم، وانسحب من المعركة.

ولما جاء عمرو بن جرموز بسيف الزبير وحضر إلى الإمام علي فرحًا مزهوًا بأنه قتل خصم الإمام، وظن أن الإمام عليًّا يهش له ويحسن استقباله، فوجئ بأن عليًّا يصرخ في وجهه قائلًا: أهذا الذي تحمله سيف الزبير؟! قال: نعم هو، سلبته منه بعد أن قتلته، فأخذه الإمام وهو يبكي، وقال: وسيف طالما فَرَّج به صاحبُه الكربَ عن رسول الله، ثم نظر إلى ابن جرموز، وقال له: أما أنت يا قاتل ابن صفية، فأبشر بالنار.

وزار علي عائشة بعد المعركة، وضرب مَن تكلم فيها بسوء، وشيعها مع أخيها محمد بن أبي بكر في غرة رجب إلى المدينة، وسيَّرَ في ركابها عددًا من النساء، وأعطاها مبلغًا كبيرًا من المال. إن خروج عائشة وطلحة والزبير كان اجتهادًا منهم، وكان غَيْرة على الحق الضائع، وإن عقيدة أهل السنة والجماعة: هي تعظيمُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ كافةً، وتوليهم جميعًا، وعدم الخَوْض فيما وقع بينهم } والكفُّ عن مسيئهم، والقَبولُ من محسنهم، والترضي عنهم

أجمعين. نسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر لمسيئهم، وأن يتقبل محسنهم، وما وقع بينهم من اجتهاد واختلاف في الرأي لا يغض ولا يحطُّ من عالي أقدارِهم، وكاملِ أوصافِهم، كلُّهم أصحابُ رسول الله، لهم مِنَّا الإجلالُ، ولهم مِنَّا حسنُ الظَّنِ، ولهم منا الدعاءُ بالرضوان، وبسؤالِ اللهِ تعالى أن يلحقنا بهم، غيرَ مبدلين، ولا مغيرين.

ثانيًا: النزاع بين علي ومعاوية:

قدمنا أن معاوية > تصدى للإمام الذي أرسله والوالي الذي بعثه علي إلى الشام، فمنعه من دخولها، وقاتله فئة من جيش معاوية، وكان قد وقع ما وقع بين علي وعائشة وطلحة والزبير، وتلكأ معاوية في أمر البيعة لعلي، خاصة وأنه يعلم علم اليقين أن عليًّا > لا يتجه إلى قتاله، إلا أن عليًّا > خبر الحال، وفهم ما ينتهي إليه أمر معاوية، فأراد أن ينهي الأمر بينه وبين معاوية بسلام؛ حتى لا يعرض أرواح الناس للخطر. فأرسل إلى معاوية جرير بن عبد الله ومعه كتاب من علي إلى معاوية، فلما التقى به سأله معاوية: ما وراءك يا جرير؟ فقال: لقد اجتمع لعلي أهل الحرمين: مكة والمدينة، وأهل المِصرين: البصرة والكوفة، وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مصر، وأهل عمان، وأهل البحرين، واليمامة، ولم يبقَ إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها "الشام" لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشد ويهديك، ودفع إليه كتاب علي، فإذا فيه الدعوة الصادقة إلى السلام، جاء فيه:

"أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنتَ بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إمامًا، كان ذلك

لله رضًا، فإن خرج من أمرهم خارج بعطن أو رغبة، ردوه إلى ما خرج منه، فإن أَبَى قتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، إن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضَا بيعتي، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما على ذلك، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إليَّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك، وقد أكثرتَ في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليَّ، أحملهم وإياك على كتاب الله، أما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، واعلم، أنك من الطلقاء الذين أسلموا بعد الفتح، وعفا الرسول عنهم الذين لا يتبوءون الخلافة، ولا يُعرض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايعْ، ولا قوة إلا بالله".

رد معاوية على رسالة الإمام ردًّا فيه إيغالٌ في اتهام الخليفة بدم عثمان، وفيه مطالبةٌ بتسليم القتلة كشرط للصلح والحال كما قال الإمام: "لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان". وما كلمة معاوية هذه إلا كما قال علي: خدعة الصبي عن اللبن.

ويبدو أن معاوية كان قد أعد للأمر عدةً، وجذب إليه قلوب العامة والخاصة، وانقادت له الرعية بدون قيد ولا شرط، حتى وجدناه يقول لرجل من أنصار علي: أبلغ عليًّا أني أقابله بمائة ألف رجل، ليس فيهم من يفرق بين الناقة والجمل، ومن ثَم رأى الإمام أنه لا بد منه، فزَحَف إلى الشام، وغادر الكوفة إلى معاوية، والتقى الجمعان في صفين، وسبق جنود معاوية إلى نهر الفرات، فقطعوا الطريق إليه على جند علي، حتى أعياهم الظمأ، وأرسل الإمام إلى معاوية يطالبه بأن يكون الماء حرًّا بين الطرفين، لكن معاوية رفض مما اضطر جند العراق

إلى النزال مع جند الشام حول الماء، فغلبوهم، وحاز جند العراق الماء، وأرادوا أن يمنعوا منه جند الشام كما فعل معهم من قبلُ، ولكن عليًّا وهو الحَرِيصُ على الوفاقِ والسلامِ، وهو ما عرف بشرف القتال أبَى، وقال: "لا تحبسوا عنهم الماءَ، فلا يزاد عنه زاهد، ولا يمنع عنه شارب".

فأقام الفريقان عدة أيام يلتقون حول الماء، وكأنهم إخوة -وهم كذلك- ولكنها الفتنة، وكان الإمام حريصًا على أن يرسل الرسل تلو الرسل إلى معاوية؛ لعله يرجع عن هذا الطريق، لكن كان ذلك دون جدوى، توقف القتال في شهر الله المحرم، لعل معاوية أن يراجع نفسه ولكن دون جدوى. وعاد الفريقان للمناوشة طيلةَ النصف الأول من شهر صفر، وأيقن عليٌّ أن التريث مع معاوية لا يفيد، فقرر الحملة العامة على جنود الشام، ولكنه لم يأخذهم على غرة، بل دعاهم كما أعلنهم بالقتال، ودعا الإمام مرثد بن الحارث وأمره أن يعلو أقربَ ربوة من معسكر معاوية، وأن يسمعهم هذه الكلمات: يا أهل الشام، إن أمير المؤمنين يقول لكم: "إني قد استدنتكم واستأنيت بكم، لتراجعوا الحق، وتثيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى الحق، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين".

والتقى الجيشان، ودارت المعارك، واستمر القتال ثلاثة أيام حتى ظهرت بوادر الهزيمة على جند الشام، وتقدم عمرو بن العاص ليكون مكان معاوية في مبارزة علي الإمام، وكاد الإمام أن يقضي عليه، إلا أنه ألقى بنفسه من على فرسه، واستقبل الإمام بسوءته، فأشاح عنه، وتركه ينجو بحياته. واستمر القتال ثلاثة أيام، حتى ظهرت بوادر الهزيمة على جند الشام كما قدمنا، وما هي إلا سويعات وينتهَى من معاوية إلى الأبد، وأخذ معاوية يحاور عمرو بن العاص: ما المخرج؟

فقال عمرو: لقد أعدَدت بحيلتي أمرًا ادخرته لهذا اليوم، ترفع المصاحف وتدعو إلى تحكيم القرآن، فإن قبلوا التحكيم اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا أيضًا، إنها حيلة أصابت المحزة في جند علي، فأمر معاوية جنده أن يرفعوا المصاحف على أسنة الرماح، وأدرك عليٌّ على الفور أنها خدعة، فحذَّر القوم منها، لكن الأشعث بنَ قيس ونفرًا من القراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله.

فقال لهم علي: "إنَّا أحق مَن يجيب إلى كتاب الله، ولكني أعرف بهم منكم، إنها كلمة حق يراد بها باطل، وإني ما قاتلتهم إلا ليدينوا بحكم القرآن، فكيف أرفض اليوم حكمه، إن القوم لم يرفعوا المصاحف؛ لأنهم يريدون حكم القرآن، إنما هي الخديعة والوهن والمكيدة، فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه" لكنهم أجبروا عليًّا على قبول التحكيم، وهذه مصيبة المصائب في جند علي، فكانوا أصحاب نزعات شتى، وقد هبطت كِفة الإمام بسبب جنده، وارتفعت كفة الجند الآخر، وكان للتحكيم نتائجه السيئة وسط جند علي، فقد ضيع أولًا حق علي في استمراريته في الخلافة، وأدى ثانيًا إلى التمزق في جيشه.

رفض قوم التحكيم وبالغوا في الأمر، فكفروا مَن قبِلَ التحكيم، وانحازوا إلى حروراء، وأخذوا يشكلون جبهة رفض بل جبهة مناوئة لعلي وأتباعه، ومن هنا ظهر الخلل الذي أصاب جيش علي، فتقاعس فريق عن القتال، وانقلب فريق عليه بحجة أنه قبل التحكيم.

إلقاء بعض الضوء على هذه الفتنة:

فسنجد أن الإمام حرص على طول هذه الفتنة أن ينتهي الأمر بينه وبين معاوية بسلام؛ حتى لا يكون الثمن مدفوعًا من دماء المسلمين، وأن معاوية اجتهد في أمره مع علي، فرأى أن بعض شيوخ الصحابة ولما يبايعوا في المدينة، وأن طلحة

والزبير وعائشة خرجوا عليه في البصرة، وأنه أهمل القَوَد من قتلة عثمان، وأن جند العراق وأنصار علي لا تكون منهم الطاعة المطلقة، وإنما هم أصحاب أهواء ونوايا مغرضة، وأن عليًّا لو نزعهم من إمارته بالشام، لانتهى أمره إلى الأبد، وأن كثيرًا من أهل الأمصار يطالبون بدم عثمان، وأن معه كثيرًا من الصحابة وأبناء الصحابة الذين نزحوا إلى الشام، فغمرهم برفده وعطاياه، إلى آخر ما رأى معاوية، فقرر ألا يسلم الأمر لعلي، وأن يتريث فيه.

وكانت بلوى علي في جنود العراق كبيرة، فكان منهم الغلاة والمتزمتون والمتشددون، وكان منهم أصحاب الفتاوى الذين يفترقون على عشرين وجهة في كل حركة من حركات علي.

ورغم هذه المأساة التي حدثت في صفين، إلا أننا نقول: إن عليًّا كان أقرب الفئتين إلى الحق، والله تعالى يغفر لمعاوية -رضي الله تعالى عن أصحاب نبينا أجمعين- فلو نزل على ما نزلت عليه الأمصار، لأراح الأمة وأخمد الفتنة.

ثم جاءت بعد ذلك فتنة النهروان، وانقلب المؤمنون به إلى أعداء له، وأصبح الذين حملوا السيف معه بالأمس يحملونه عليه، هكذا حينما اتفق الطرفان على التحكيم، أمَرَ علي جنوده بالرحيل إلى الكوفة، لم يدخل جيش علي كله إلى الكوفة، وإنما انحازت منهم جماعة إلى حروراء غير راضين بالتحكيم وغاضبين؛ لِمَا تم في صفين، ورتبوا أمورهم على الخروج على الإمام، ومناهضته، فجعلوا أمر الحرب بعد ذلك، ونصبوا أمرها بينهم وبين علي.

نفذ صبر الإمام عليهم بعد أن قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت هو وزوجته، فقابلوه هو وزوجته في طريق سفرهما، فسألوه أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من حديث رسول الله، فقال لهم: سمعت أبي: يقول سمعت رسول الله

يقول: ((ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي)) وسألوه عن الإمام فقال فيه خيرًا، فذبحوه، ثم تقدموا نحو زوجته هي الأخرى، فقتلوها وبقروا بطنها، ورغم استغاثتها وتوسلها إليهم قائلةً: إني حبلى، فاتقوا الله فيَّ. ولكن مَن يسمع؟! أولئك الخوارج قَوْمٌ طَمَسَ الله على قلوبهم وعقولهم، فلعنة الله على الظالمين.

ما إن بلغ ذلك عليًّا > حتى أيقنوا أنهم عثَوْا في الأرض فسادًا، فأرسل إليهم رسولًا، فقتلوه، وصاروا يسألون كل من يقابلونه عن رأيه في التحكيم وفي الإمام، فإن رضي بالتحكيم أو قال في الإمام قولًا حسنًا، قتلوه، فصح فيهم قول النبي ﷺ: ((أنهم يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإيمان)) ولذا خرج إليهم علي > ليقاتلهم، وليقمع فتنتهم، وليذهب بشرهم.

ثالثًا: شهادته > وأمر الخلافة مِن بعده:

بعد أن أجهز عليهم في النهروان، وقطع دابر أولئك الخوارج، رأى أن ينتظر بالناس قليلًا ليستريحوا من تعب القتال، وينسى كلٌّ مصابَه في النهروان، ثم أخذ يدعوهم إلى قتال معاوية ويحفزهم للنهوض معه إلى الشام؛ حتى يفصل الله بينه وبين معاوية، لكن تخاذل القوم وتفرق الكثير عنه، ونهض الأشعث بن قيس؛ ليخذل القوم عن النهوض مع الإمام، فقال: يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا، وكلَّت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا إلى مقرنا؛ لنستعد بأحسن عدتنا.

وفي هذه الآونة كان معاوية ينفذ البعوث والسرايا إلى كل موضع أنس منه غرة، وظن بزعمائه موجدةً أو سآمةً على علي، فأرسل عمرو بن العاص إلى مصر، واستطاع عمرو أن يدخل مصر، وبعد مقتل محمد بن أبي بكر والي عليٍّ عليها، ولَمَّا علم علي بذلك أرسل إليها الأشتر النخعي، ولكنه مات في الطريق، ودخل

عمرو مصرَ من قِبَلِ معاوية، وأصبحت ولاية مصر تتبع معاوية، وخرجت من قبضة علي، وأرسل معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي إلى البصرة، وأرسل النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وأرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وأرسل معاوية أيضًا يزيد بن شجرة الرهاوي أميرًا على الموسم؛ ليقيم للناس حجهم، ولكن الناس اختاروا عثمان بن أبي طلحة أميرًا للحج، وأرسل عام أربعين بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز في ثلاثة آلاف رجل، فدخل المدينة وخرج منها عامل علي، وهو أبو أيوب الأنصاري، وبايع أهل المدينة بسرًا، ثم سار بسرٌ إلى مكة، ثم إلى اليمن، وعلا نجم معاوية، وكانت عدته الأجناد المطيعين، يوجههم فيتوجهون حيث يريد، لا ينازعه أحد في رأي، ولا يرد له أمرًا.

ولم تنقضِ سنتان حتى كانت معه مصر ومكة والمدينة، فضلًا عن الشام، وأصبحت جيوشه تجوب الأقطار، حتى زادت أهل العراق خوفًا، وأصبحوا يتشوقون ويتشوفون إلى مسالمة معاوية، وإلى الصلح معه. وبقي علي رابضًا في الكوفة، بائسًا منعزلًا عن الناس، حتى وصل به الأمر إلى أنه كان يأمر فلا يُطاع من قِبل أهل الكوفة، وكذلك واليه على البصرة عبد الله بن عباس كان يَأمر فلا يُجاب، وأصبح وجود علي مجرد رمز للخلافة.

وبين هذه الأحداث المؤلمة قضَى علي < بقية عمره متشوقًا إلى ساعة الرحيل من هذه الدنيا، راغبًا فيما عند الله، وكان بين الفَيْنة والفينة يقول: متى يأتي أشقاها؟ يشير < إلى ما أخرجه الحاكم بسند صحيح، عن عمار بن ياسر، أن النبي ﷺ قال لعلي: ((أشقَى الناس رجلان؛ أحيمر ثمود الذي عقَرَ الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه -يعني: قَرْنه- حتى تبتل منه هذه -أي: لحيته-)).

وحانت ساعة الرحيل، وجاء أشقاها فباء بها:

يقول الطبري: كان من حديث ابن ملجم وأصحابه، أن ابن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذاكروا أمرَ الناس، وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر، فترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلالة، فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد، وثأرنا منهم لإخواننا. فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه.

فأخذوا أسيافهم فسموها -أي: وضعوا السم فيها- وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان، أن يثِب كل واحد على صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب، وانضم إلى ابن ملجم اثنان آخران؛ هما: وردان بن تيم الرباب، وشبيب بن بجرة من أشجع، وأخذ الثلاثة سيوفهم، وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي لصلاة الفجر، كان ذلك صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، فلما خرج علي ضربه شبيب بالسيف، فوقع سيفه بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف، وهرب وردان حتى دخل منزله، فدخل عليه رجل من بني أبيه، فأخبره بما حدث، فعلاه بسيفه فقتله، وهرب شبيب نحو أبواب كِندة، وشد الناس على ابن ملجم، فأخذوه، ثم قال علي: إليَّ بالرجل، فأدخل عليه، فقال له: "أي عدو الله، ألم أحسن إليك؟" قال: بلى، قال: "فما حملك على هذا؟" قال: شحذته أربعين صباحًا، وسألتُ الله أن يقتل به شر خلقه، فقال # : "لا أراك إلا مقتولًا به، ولا أراك إلا من شر خلقه".

وأما البرك بن عبد الله، فقد قعد لمعاوية في نفس الليلة التي قتل فيها علي، فلما خرج ليصلي الغداة، شد عليه سيفَه فوقع السيف في إليته، فأخذه وأمر معاوية بقتله، وبعث معاوية إلى الساعدي -وكان طبيبًا- فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين، إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منها الولد، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال معاوية: أما النار فلا صبرَ لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني، فسقاه تلك الشربة، فبرأ، ولم يولد له بعدها. وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورة وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد.

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة، فلم يخرج، وكان اشتكى بطنه فأمر خارجة بن حذافة -وكان صاحب شرطته- فخرج ليصلي بالناس، فشد عليه وهو يرى أنه عمرو، فضربه فقتله، فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة، فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو، قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة، قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك، فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة، وأمر بقتله.

كان الضحية إذن هو علي بن أبي طالب > الذي أراد الله له الشهادة، وبينا هو كذلك يعاني سكرات الموت؛ إذ دخل عليه جندب بن عبد الله، وسأله: "يا أمير المؤمنين، إن فقدناك ولا نفقدك، فنبايع الحسن، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر، ثم أوصى بنيه بتقوى الله، ومجامع الخير، وأوصاهم بشأن ابن ملجم، فقال: إن أنا مِت فاقتلوه كما قتلني نفسًا بنفس، وإياكم والمثلةَ، فإن رسول الله نهى عنها ولو كانت في كلب عقور، وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي". يا الله، ثم يا الله، من هذا الذي استباح ذلك الدم الزكي باسم الدين.

ثم إن عليًّا > كتب وصيته، فقال فيها: "هذا ما أوصَى به علي بن أبي طالب، أوصى أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله،

أرسله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي، بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: ((إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام))، انظروا إلى ذوي أرحامكم، فصلوهم، يهون الله -تبارك وتعالى- عليكم الحساب، اللهَ اللهَ في الأيتام، إلى أن ذكر > الوصيةَ بأصحاب نبيهم ﷺ ثم إنه أمرهم مرةً أخرى بالتعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان، واستودعهم الله، وقرأ عليهم السلام، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض > وأرضاه".

وكان ذلك في رمضان سنة أربعين من الهجرة، ضُرب ليلة الجمعة، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت، وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين، وهو ابن ثلاث وستين سنة، واستكمل بذلك سن الرسول وسن صاحبيه أبي بكر وعمر، { .

غسله الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، ودفن عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة بالكوفة، وكانت مدة ولايته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، > ، وغفر الله له لنا وله، وألحقنا به وإخوانه من الخلفاء الراشدين المهديين، وبأصحاب رسول الله أجمعين على خير ما يحب ربنا ويرضى.

خلافة الحسن، وتسليمه الأمر لمعاوية - عام الجماعة - ٤١هـ:

وبعد دفن علي > خرج الحسن إلى الناس، فبايعوه متحفظين ؛ لأنه اشترط عليهم أن يبايعوه على مسالمة من يسالم، ومحاربة من يحارب، وكانوا يميلون

لمبايعة الحسين الذي رفض أن يبايعه القوم في حياة أخيه، وبويع معاوية بالخلافة في الشام بإيلياء بعد موت علي، وأخذ يدس على عسكر الحسن من يتحدث أن قائده قيس بن سعد قد صالح معاوية وسار معه، ويوجه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه، ثم أشيع أن قيس بن سعد قتل، فأدى إلى وقوع الفوضى والاضطراب في صفوف جيش الحسن، وشد جماعة على فسطاطه، فدخلوه، وانتزعوا مصلاه من تحته، وانتهبوا ثيابه، وطعنه رجل في فخذه طعنةً شديدةً، وانصرفوا عنه إلى الكوفة في حين حُمِلَ إلى المدائن، وقد نزف نزفًا شديدًا، واشتدت به العلة، وافترق الناس عنه، وقدم معاوية العراقَ، فغلب على الأمر.

ولما رأى الحسن أن لا قوةَ به، وأن أصحابه افترقوا وتفرقوا، صالح معاوية وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "أيها الناس، إن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، قد سالمنا معاوية، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين".

وتم التنازل لمعاوية في الخامس من ربيع الأول عام واحد وأربعين، ودخل معاوية الكوفةَ، وبايعه الناس، فسمي هذا العام بعام الجماعة؛ لاجتماع الأمة ثانية على خليفة واحد، وهو معاوية، واستأنفت الدعوة الإسلامية مسيرتها، وصدق في الحسن بن علي > قول نبينا ﷺ: ((أيها الناس، إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)).

هذا آخر المقصود من الكلام على عهد الخلفاء الراشدين، وما تبعه يأتي بعد ذلك في المحاضرات الآتية من عُهود مسيرة الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- في ظل الدولة الأموية، وما يأتي بعدها من الدول الإسلامية، بمشيئة الله تبارك وتعالى.

الدعوة الإسلامية في العهد الأموي والعهد العباسي

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الدعوة في العهد الأموي: من خلافة معاوية < إلى مروان بن الحكم	٨٠٥
العنصر الثاني :	الدعوة في العهد الأموي: خلافة عمر بن عبد العزيز	٨٣١
العنصر الثالث :	الدعوة في العهد العباسي الأول، والثاني	٨٥٥

الدعوة في العهد الأموي: من خلافة معاوية < إلى مروان بن الحكم

أولًا: الدعوة الإسلامية في عهد معاوية < :

يدور الحديث في هذه النقطة حول العوامل التي أدت إلى انتقال الحكم من الراشدين إلى الأمويين، كما يتناول نظام الحكم في عهد معاوية، وسياسته، وولاية معاوية على الأنصار، ويتناول الدعوة في ذلك العهد.

لا شك أن التغير الذي حصل في أواخر دولة الراشدين كان تغيرًا كبيرًا حين قُتِلَ عثمان < وقتل من بعده < وحدث هذا التغير الذي أدَّى إلى تغير في صفة الحكم، وكان هذا التغير بسبب أمور كثيرة.

أسباب تغير الحال عما كان عليه في زمن الراشدين:

أولًا: تغيرت رقعة العالم الإسلامي نتيجة الفتوح الكثيرة بحيث صارت المدينة بمنأى عن ذلك المُلك الواسع الذي امتد شرقًا وغربًا، وأصبحت المدينة نائية عن هذه المملكة الواسعة المترامية الأطراف، وهذا رشح دمشق لتكون مقرًّا للعاصمة الإسلامية الجديدة.

ثانيًا: كذلك تغير مركز الثقل في اقتصاد الدولة، فالحجاز أصبح يعيش على ما تأتي به الأقطار المفتوحة من الغنائم وليس له أثر اقتصادي فيها، إلا أنه المكان الذي منه تُحكم هذه الرقعة العظيمة المترامية الأطراف، وهو أيضًا صاحب السلطان في توزيع دخل الدولة.

ثالثًا: ومن الأمور أيضًا التي كانت سببًا في انتقال الحكم ما انتقل إليه الناس من حياة توسعوا فيها، حيث تغيرت طبيعة الحياة؛ فانتقل الناس من حياة الزهد والتقشف التي عاشَوْا عليها في العهد النبوي وفي عهد صدر الإسلام وفي عهد الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر، إلى حياة فيها كثير من التوسع والترف، وهذا كان لا يتفق مع صفة الحكم واتجاهه.

رابعًا: وحدث أيضًا تغير في المجتمع له شأنه، فقد ظهرت طبقة الأعراب والمرتدين التي كانت منزوية عن المشاركة في شئون ذلك المجتمع الأول؛ حيث كان لوجود الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر ذلك الأثر العظيم في أحوال المجتمع.

خامسًا: وأيضًا وقع تغير أكبر ذلك، أن جيلًا جديدًا من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع وهو غير جيل الصحابة، جيل التابعين، وهو جيل يعيش في عصرٍ غير العصر الذي كان الصحابة يعيشون فيه، ويتصف بما لا يتصفون به، فهو جيلٌ فائر ثائر ليس على صفة الجيل الأول، وهو جيل الصحابة الذين رباهم النبي ﷺ.

من كل ذلك تكونت عقلية جديدة، ومفهوم جديد للحياة، مشاركات جديدة، ونفسيات، وممارسات ابتعدت شيئًا قليلًا عمَّا كان سائدًا في عصر الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر.

ولا شك أن حكم الراشدين كان حكمًا عظيمًا مباركًا سابقًا للزمان بشكل عجيب، كان فريدًا في ذلك العصر من مفهومه فهو حكم الشورى، وهو حكم المساواة والعدل، وهو حكم العلماء المجتهدين من خيرة أصحاب نبينا ﷺ وشكل الاقتصاد في ذلك الحكم الراشد كان عجيبًا أيضًا، فهو اقتصاد مبني على توزيع

مال الأمة على أفرادها جميعًا، مَن قاتل منهم في جبهات القتال ومن لم يقاتل، ولم يكن ذلك الاقتصاد مألوفًا في ذلك الوقت وفي تلك الظروف التي كان يعيشها المجتمع والناس في عهد الراشدين. هذا هو حكم الراشدين في زهده وتواضعه ما كان يستطيع أن يقف أمام المتآمرين على الخليفة، فليس بين يدي الخليفة جيش أو شرطة تدافع عنه، وقد رأينا أن عثمان > اختار ألا يحميه أحد، وأن يواجه الفتنة بصدره العاري > .

هذه ملامح وأسبابٌ أدت إلى أن يتغير الحال عما كان عليه في زمن الراشدين، وخَوَّل هذا الاتجاه الجديد أن يستلم هذا الحكم رجل من رجال أسرة كانت في الجاهلية مقاربة في عقليتها ومفهومها للصفة الذي كان يتطلبها ذلك المجتمع الجديد، فكان معاوية > هو الذي يمثل طليعة هذا الحكم الذي ابتدئ في بلاد الشام، واتخذ من دمشق عاصمة له ومركزًا لولايته، فأهلُها كانوا من العرب الغساسنة الذين يعيشون على أسلوب من الحضارة والتنعم، والحكم يشابه ما يطلبه الجيل الجديد، وهم في هذا أصلح من أهل الحجاز، وكذا هم أصلح من أهل العراق؛ لأنهم أعرق منهم في المدنية، فالعرب سكنوا الشام وعرفوا الحضارة منذ عهد بعيد، وكان الرومانيون يشركونهم حينًا في حكم الشام منذ أن استولوا على الشام، وما كان الأكاسرة يفعلون ذلك مع عرب العراق؛ لأن الأكاسرة كانوا يسكنون العراق، وما كان الرومان يسكنون الشام إلا فاتحين أو مهاجرين.

إذن، طبيعة الأمور كانت تقتضي بأن يتقدم أهل الشام للقبض على أزمة الأمور التي كاد أن يفلت من الراشدين أو بدأ يفلت من الراشدين.

وأتت الظروف ملائمة لذلك من وجود معاوية بينهم منذ عشرين سنة، ومن كونه وليًا لعثمان في أخذ الثأر مِن قتلته، ومن كونه قائدًا محنكًا، قديرًا نابغًا، ومن كونه أحدَ أصحاب النبي ﷺ.

على أن عام الجماعة وانتقال الخلافة إلى الأمويين لم يقضِ على كل المشاكل، فإن روح الخلافة الراشدة استمرت في شكلها الحقيقي متصديةً معارضةً، أيضًا استمر الخوارج في شكل مبالغ فيه بالغ التطرف، مسارعةً ومقاتلةً، ووقف العراق والحجاز يتحسران على ضياع الحكم منهما، فيحاولان إعادته، وتصدَّى العَلويون لبني أمية؛ لأنهم استخلصوا الحكم من أيديهم، وأحدثت آراءُ ابن سبأ -عليه من الله ما يستحق- هذا الأثر هنا وهناك، فوجدت مشاكل كثيرة للأمويين.

وهكذا نشأت الدولة الأموية معبرة عن العصر الجديد وعن حاجاته، ثم صادفت من المصاعب والمتاعب ما قدمته لها الأحداث التي أسلمتها الحكم، فهي مدينة لتلك الأحداث ببؤسها ونعيمها معًا.

نظام الحكم في عهد معاوية < وسياسته للرعية:

إن معاوية < تصدّى للحكم الذي لم يخفق فيه، واستمر على الخلافة عشرين عامًا، والمشاكل والعقد تُحل أمامه بسهولة مع الجُهد الذي كان يبذله والوقت الذي كان ينفقه، فكيف تيسر له < أن ينجح فيما أخفق فيه من سبقه؟

استلم معاوية < حَبْلَ الجماعة وهو منعقد في حين أن عليًّا < قد استلمه وهو منفرط، وهذا الظرف كان في مصلحة معاوية؛ لأن الحسن بن علي < آثَرَ أن يجمع كلمة المسلمين، وأن يجنبهم الشقاق والفتنة وسفك الدماء، كما رأى في آخر عهد والده علي < .

ثم إن معاوية < كان صاحب نفسية وعقلية تناسب ذلك الزمان، فهو رجل ذلك العصر، كان كفئًا بالإدارة؛ إذ عناها عشرين عامًا قبل أن يصبح خليفة،

فأحسنها وعرفها، ثم كان كفئًا بالحرب، فحارب الروم فغلبهم في مواقع كثيرة، وحارب عليًّا فغلبه تارة، وغلبه علي أخرى. وهو عارف بالرجال، يفهم نفسيتهم وأطوارهم، وهو بعيد النظر كل البعد، فهو لا يدرس مسائل الساعة وحدها، بل يرى من خلالها خطوط المستقبل، وعليها يرسم خطته التي يضعها موضع التنفيذ.

بهذه الصفات قابل معاوية > المشاكل التي اعترضته، مع ما تحلَّى به من معاني السيادة والعظمة، والهيبة، والفصاحة، والقوة في المعنى والمبنى والفكر، فلا يدع إنسانًا يسبقه في بلاغته إلا متغاضيًا عنه أو متواضعًا أو متساهلًا، وسياسته عملية فهو يعرف كيف يدير الأمور، وكيف يصلح شأن الرعية.

ومعاوية > وهو ملك وخليفة ذو سلطان واسع، في يده كل شيء، غير أنه سلطان يتساهل مع رعيته، ويظهر بمظهر الشورى، بالرغم من ذلك الإطار -الهيبة والعظمة- فهو سلطان يساس الناس ويسوسهم، ونرى أن ضعفًا ووهنًا ظاهرًا قد وقع في مبدأ الشورى عما عُرف عليه عند الراشدين، لكن عوضت الشورى بشيء آخر، فالناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم، يهتم الخليفة بها كل الاهتمام ويناقش فيها، ويحقق ما يمكن تحقيقه منها، والحكم يعتمد في سياسته وإدارته على مستشارين وكتاب؛ مستشارين أكفاء وكتاب قادرين.

أُطلقت يدهم في العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدهم بسلطانه، وكانوا عارفين بأمور الإدارة، ولم يكن الحكم مركزيًّا في شخص الخليفة، مملكته واسعة ولا يستطيع أن يطلع بكل أمر، لكن الولاة كانوا على درجة من الكفاءة، فكان ينتخبهم أقدر الرجال وأقواهم على أعمالهم، حتى إذا لم يجد بين يديه رجلًا عظيمًا، أرسل من يعهد فيه الكفاية إلى ولاية صغيرة، فإذا ظهرت منه مقدرة وموهبة رفعه إلى أكبر حتى يبلغه ولاية الأقطار المهمة.

وقسم الجند إلى فرقتين كبيرتين:

الأولى: للشرطة، وهي لحماية الشأن الداخلي، وحماية الخليفة والمدافعة عنه في الملمات، يختارها بنفسه أو يختارها له من يثق به.

والثانية: هي الجيش، والجيش للثغور والجهاد والرباط، وقد يوجه هذا الجيش ضد الثائرين إذا اقتضى الأمر.

هذا هو مجمل النظام الذي كان في زمن معاوية > .

الدعوة في عهد معاوية > :

وخلافة معاوية تتسم بما اتسمت به الخلافة الراشدة من الناحية الدينية، ذلك أن معاوية > هو أحد أصحاب النبي ﷺ فهو يفقه تمامًا أن مهمة الخلافة هي صيانة الأمة وإدارتها، وتوطيد الحكم فيها أكثر منها في توثيق الأحكام الفقهية، وإدخال تلك الأحكام في حياة الأفراد والإشراف عليها في أعمالهم الجزئية، الخلافة في نظره تخدم الفكرة الإسلامية عامةً لا الأحكام الشرعية خاصة، فهي حكم زمني أكثر منها حكم ديني. والدين في نظره > مبجل معظم، وهو يستفيد من هدوء الحال ومن سير الأمور سيرًا طبيعيًّا.

ولا يعني أن الخلافة الأموية كانت دولة مدنية كما يحلو لبعض المخالفين من العلمانيين وغيرهم وأذنابهم، بل هي دولة ترتكز على الدين، وتقوم على أسسه، وتقوم على رعايته من جهة أخرى، فهي تحميه وتحمي به الأمة.

والإسلام في حكمه > يتوسع ويتقدم، ويكسب مساحات جديدة، وهو لم ينِ > في عصره يومًا في نشر الإسلام، فاتخذ الجهاد له ديدنًا، وكان للإسلام في عصره تلك السيطرة وتلك الهيبة على العالم، وغاية الحكم عند معاوية >

هو رفْع مستوى الأمة بإجمالها، لا تحقيق العدالة الفردية فحسب، وهو > ينظر إلى مصلحة الدولة عامةً، وينظر إلى تفاصيل الأحكام الفقهية على حد سواء، وينظر في المصالح العامة كما ينظر في مصلحة الأفراد على وجه الخصوص.

وإن وُجد شيءٌ من الضعف أو النقص، فإن ذلك كان في القصور لا في حياة الناس عامة.

هذا تقريرٌ مجمل للوضع الذي كان عليه حكم معاوية > خاصة، وحكم آل سفيان عامة. والواقع أن الخلافة السفيانية اهتمت أولًا بالدولة ومصلحة الإسلام العليا، ثم ثانيًا بتفاصيل الفقه وتفاريق المسائل، ولا يوجد في الواقع اختلاف بين تلك المصالح العليا وبين التفاصيل الفقهية إلا في حالات معينة ودقيقة، وهي حالات قد تكون لها صفة سياسية حينًا، وحينًا تتدخل السياسة في بعض أمور الواقع، فتُقدم على اعتبار أو آخر.

ورأينا أن الخليفة الراشدي قاضٍ ينفذ الأحكام، والخليفة الأموي ملك يسوس الناس، وأن السلطة الشرعية في الخلافة الراشدية لها الكلمة العليا، وأن الحكم في الدولة السفيانية هو ما له الرتبة الأولى.

عني معاوية > ، كما قدمنا- بولاته، وكان > يعمل ليل نهار ليتوطد أمر هذه الدولة الفتية. كان يراقب كل شيء، وكانت تأتيه الأخبار من كل مكان، وكان يقظًا في كل ساعة من ساعات حكمه، يعمل كثيرًا ولا يفرغ من عمله إلا في أواسط الليل، وكان يعطي ولاته سلطات وصلاحيات كثيرة، ولا يتدخل في أمورهم، بل يوجههم بين الحين والحين، توجيهات عميقة لكنها -كما قدمنا- غير تفصيلية، ويوافقهم على ما يفعلون، وقد يظهر منهم حينًا اشتطاط عليه، فإذا رأى أن اشتطاطهم لمصلحة الدولة سكتَ، ولم يحر جوابًا، وهو في ذلك

مثال للقائد الحكيم، وللملك المدرب، والإداري العارف؛ إذ ليس الحكم والإدارة عنده بالضجة والمظاهر، بل بسير الأمور سيرًا طبيعيًّا لا شكوى فيه ولا تذمر ولا صراخ، وكان يمسك بيده الخطوط الكبرى، فيوجهها، ويشدها حين ترتخي، ويرخي لها حين تشتد. وهذا ما عبر عنه بشعرة معاوية > .

في العراق كان له المغيرة بن شعبة على الكوفة، وعبد الله بن عامر، ثم زياد بن أبيه، ثم ابنه عبيد الله على البصرة، وسلم زيادًا العراق عامة بعد وفاة المغيرة بن شعبة > وفي المدينة كان مروان بن الحكم يتناوب مع سعيد بن العاص، وهؤلاء جميعًا رجالٌ عظام أكفاء، ومعاوية يبحث عن شبيه له بين الولاة ممن يفهمون سياسته، ويدركون عقليته، ويسيرون خلفه فيها، ولا بأس أن يتشدد بعضهم أكثر منه أو أن يتساهل البعض الآخر أكثر منه، لكن الأصل فيهم أن يُعملوا اللسانَ والفكرة بدل السيف والسنان، فاللسان والفكر عند معاوية أنجح وأنجع من السنان.

وكان > يسير في البلاد المفتوحة سيرًا حسنًا، فكان إذا دخل بلدًا وطَّدَ الصلات والعَلاقات بسكانها الأصليين، وقد رأينا ذلك في الشام، فإنه استند بصفة خاصة من بين القبائل إلى بني كلب من اليمن الذين سكنوا بلاد الشام، فأحاطهم به، وعدوه صهرًا لهم، فتزوج منهم، وكان يحسن إلى قيس من العَدنانية، إلا أن جُلَّ اعتماده كان على كلب من اليمانية. وأما السكان الأصليون فكان يرعاهم ويعاملهم بالإحسان، حتى ظن بعض الناس أن سياسته كانت تتضمن تقريبًا للنصارى، لكن الواقع أن معاوية ينظر إلى النصارى كأشخاص يدافع عنهم، ويضعهم تحت ذمته، لكنه لا يطأطئ الرأس لهم، بل لا يعتبرهم مساوين له، هنا يُظهر العزة الإسلامية، فهو يفتخر بالإسلام أمامهم. أما الإسلام فهو يرى أن يخدمه بالفتوح، فَهُم في جهاد من بلد إلى بلد ومن ثغر إلى ثغر، وهو في الفتوح > قائد

كبير، له فيه يد طُولَى، فقد كان من سياسته وهو والٍ في الشام أن يسير الفتوح هنا وهناك، وأن ينشر الإسلام ويوسع رقعته، واستمر على ذلك بعد أن أصبح خليفة.

فأما الجهة الغربية فكان العرب قد وصلوا إلى جهة تونس -اليوم- وأخذوا يتقدمون نحو الغرب، لكن القبائل البربرية كانت تقاوم بشدة، وأقام معاوية رجلًا عظيمًا قائدًا لتلك الجبهة وهو عقبة بن نافع، فسار في الفتوح وأخضع عددًا كبيرًا من القبائل البربرية، فدخلوا في دين الله. وخير ما فعل هو حماية العرب من الهجمات الغادرة، إذ أسس لهم القيروان، ومنها كانت تسير الفتوح ثم تعود البعوث إليها.

وأما في الشرق فقد وجه البطل المبارك المهلب بن أبي صفرة يحارب الترك ويسير في بلادهم ويعود منها منتصرًا انتصارًا بعد انتصار.

والجهة التي كان معاوية يوليها العناية الخاصة هي جبهة الروم، فقد نظم أمره فيها تنظيمًا جيدًا، فأحدث الشواتي والصوائف وهي بعوث تسير إحداها للحرب في الصيف، والأخرى في الشتاء، ثم إنه < أولى الأسطولَ الذي سيره لفتح القسطنطينية من البر والبحر اهتمامًا خاصًّا، فأنشأ أسطولًا حربيًّا عظيمًا، بلغت سفنه ألفًا وسبعمائة سفينة، وهو أسطول ضخم فتح به كثيرًا من الجزر، وامتد الأسطول إلى القسطنطينية بعد أن استطاع أن ينتصر على الروم نصرًا مؤزرًا في معركة "ذات الصواري"، على أن الصعوبة كانت في تلك النار التي يَقذف بها الروم على السفن وتُعرف بالنار الإغريقية.

وقد حاول معاوية عام ثمانية وأربعين للهجرة أن يفتح القسطنطينية بجيش كان فيه عدد كبير من أصحاب محمد ﷺ منهم: أبو أيوب الأنصاري، وابن عباس، وابن

الزبير، وابنه يزيد بن معاوية، وسار الجيش حتى طرق أبوابَ القسطنطينية، وأبلى تحت أسوارها بلاءً حسنًا، وكان من أفراده مَن يطلب الموت لأجل الشهادة، على أن الجيش لم يستطع اقتحام المدينة من البر وهي محصنة خير تحصين، فاستشهد عدد كبير، وقد حفِظَ الأتراك قبور الشهداء وبصفة خاصة قبر أبي أيوب الأنصاري، وكانت ملوكهم تتوج بالخلافة في ضريح أبي أيوب > .

المهم أن الحملة فشلت في تحقيق أهدافها في زمن معاوية؛ لأن الله -تبارك وتعالى- كان قد ادخر هذا الفضل للدولة العثمانية ولمحمد الفاتح -رحمه الله تعالى- تحديدًا.

ثم إننا رأينا معاوية > ينظم الدولة تنظيمًا عظيمًا، ويرسي قواعدها إرساءً بالغًا وبليغًا، فنرى أنه نظم الدواوين، فقد أصبح لها أصحاب، وأصبح لها أختام، وهي مرتبة على الطريقة الرومية ويرأسها "سرجون بن منصور النصراني، ونظم البريد بأن جعله يسير بقوافل مرتبة تصل به القافلة إلى مركز فتجد أخرى في انتظارها؛ لتسير به، وهلم جرًّا. وكان مهتمًّا بالرسائل التي تردُ من أقطار الإسلام، فكانت تصل بانتظام على هذا الأسلوب. أنشأ المصانع على الطرقات وهي آبار المياه، فربط بين أجزاء المملكة ربطًا محكمًا.

أهم من ذلك كله أنه وضع نظام ولاية العهد، وفيها تفاصيل كثيرة نرى إرجاء الكلام عنها إلى وقت أوسع، وإلى فرصة أطول.

بهذا نكون قد ألممنا إلمامة عامة عن حياة معاوية، ودولته، وتأسيس الدولة الأموية خَلَفًا للدولة الراشدة، وما كان عليه معاوية > في حكمه وسياسته، وفي نظرته لأسلوب وإدارة هذه المملكة العظيمة المترامية.

ثانيًا: الدعوة الإسلامية بعد معاوية وإلى عهد مروان بن الحكم:

قبل أن نتناول العهد الذي كان بعد معاوية > فإننا علينا أن نتبين أن صراعًا بين التيارات المختلفة كان ناشئًا بالفعل في عهد معاوية > ونقصد الصراع الذي وقع بين الأنصار، فهو ينطوي على اتجاهات سياسية كثيرة، ويدلنا على تيارات محددة، بل نستطيع أن نحدد أسماء أفراد معينين كانوا على رأس تلك السياسة. فعبد الله بن الزبير مثلًا كان يمثل السياسة الحجازية النظرية، والحسين بن علي > يمثل السياسة العراقية العاطفية، أما الشام فغني عن القول أن معاوية يمثل سياسته العملية.

عمل معاوية خلال حكمه على أن يغلِّبَ وجهة النظر العملية في سياسته، وأن يوطد قواعد تلك السياسة العملية، وأن يمنع الخلاف، لكنه لم يستطع أن يستبعد نهائيًّا هذه الاتجاهات الثلاثة الأخرى بما فيها اتجاه الأعراب، وأولئك الخوارج الذين كانوا يناوئون الدولة والسلطة، وما دام هو على رأس الحكم فلم يكن من خطر في ظهور الصراع بين الاتجاهات المختلفة، على أنه كان يتحسس ذلك الصراع، ويشعر بأنه سوف يظهر بعد وفاته، وكان عليه أن يهيئ الفرصة لمنع حدوثه، فماذا يفعل؟

لقد أوجد معاوية أسلوبًا في استمرار السياسة العملية، وهذا الأسلوب استمده من وضعه وميوله، وعاطفته، وتمثيله لقطر معين هو بلاد الشام، أوجد معاوية نظامَ الوراثة في الخلافة، واعتقد أن هذا النظام سوف يحل المشاكل التي ستقع في العهود التي تأتي من بعده، ولعله تخيل أنه لو ترك الأمر لحين وفاته دون ولي للعهد، لظهر الخصام حالًا، ولتنافر المسلمون وتقاتلوا، فيجب عليه إذن أن يعهد بولاية العهد لشخص معين، وقيل: إن الذي أوحى إليه بهذه الفكرة هو المغيرة بن شعبة > .

وذكرنا من قبل أن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير كانَا يمثلان سياستين معينتين، ولم نذكر من الوجهاء والنبلاء ابن عمر، وابن عباس، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأمثال هؤلاء فهؤلاء تتجه الأنظار إليهم في شأن الخلافة، لكنهم إنما يمثلون نزعة مخالفة لنزعة معاوية في السياسة العملية، فابن عمر -كما هو معروف- يمثل نزعة ابن الزبير في السياسة الحجازية، وابن عباس كان لائقًا ليكون خليفة بالسياسة العملية التي يفهمها، لكنها غير سياسة معاوية، ثم إن ابن عباس لا شيعة له في الشام. وهكذا تخيل معاوية الأمر على الصفة التي ذكرناها وهنا رشح ولدَه يزيد بن معاوية.

ويُجمع المؤرخون على أن معاوية لما تمت له بيعة يزيد عند أهل الشام والعراق، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه، وكان ممن اعترض على بيعته عبد الرحمن بن أبي بكر، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وكان ابن الزبير أشدهم اعتراضًا وإنكارًا، فشكاهم معاوية إلى عائشة وهدد بقتلهم، فنصحته بالرفق والإحسان، فاجتمع إليهم وتكلم معهم بشأن البيعة، فقال ابن الزبير: نخيرك بين ثلاث خصال، قال معاوية: اعرضهن، قال ابن الزبير: تصنع كما صنع رسول الله، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر، قال: ما صنعوا؟ قال ابن الزبير: قُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدًا، فارتضى الناس أبا بكر، قال معاوية: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف، قالوا: صدقتَ، فاصنع كما صنع أبو بكر، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أمية فاستخلفه، وإن شئتَ فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة أنفار ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه، قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال ابن الزبير: لا، ثم سأل الآخرَيْن، فقال: وأنتم؟ قالوا: قولنا قوله.

قال معاوية: إني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر مَن أنذر، إني كنت أخطب فيكم، فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بما قاله، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمةً في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال له: أقِم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يُبتز أمر دونهم، ولا يقضى إلا عن شورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم انصرف معاوية إلى المدينة.

خلافة يزيد:

ولما مات معاوية بايع الناس يزيد بالخلافة، وقعد عن بيعته الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، فكتب يزيد إلى واليه على المدينة ليأخذ له البيعة من هؤلاء النفر، فبايعه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، أما عبد الله بن الزبير فإنه هرب إلى مكة، واستعاذ بالبيت، وأخذ يعمل على الدعوة لنفسه، ولكن وجود الحسين في طريقه كان يجعل نجاح دعوته شيئًا صعبًا وأمرًا شديدًا.

مقتل الحسين:

والحق أن ولاية يزيد على شئون المسلمين شهدت حوادث ثلاثة يندَى لها الجبين، وهي مقتل الحسين، ووقعة الحَرة، وضرب الكعبة، كل من هذه الحوادث يكفي أن يضع يزيد موضع التهمة.

على أننا قبل الحكم في أمره، ينبغي لنا أن نستعرض هذه الحوادث التي كونت تلك الفتنة، والتي أثرت بشكل مباشر على الدعوة في ذلك العصر.

الحادثة الأولى: تُجمع المصادر التاريخية على معلومات مؤلمة جدًّا بشأن مقتل الحسين بن علي > وعن أبيه، وينبغي أن ننوه أن كثيرًا من تلك المرويات تنقل عن رجل يقال له: أبو مخنف، وهو رجل متشيع، وكان للشيعة ما كان من هذا الغلو في آل بيت النبي ﷺ وكان منهم أيضًا ما كان من تلك العقائد الفاسدة الكاسدة. وقد رأينا أبا مخنف يقدم بعضَ الأخبار الصحيحة لكنها تبدو مبتورةَ التفاصيل، وربما حذف منها ما لا يهمه مما يعترض على رأيه، أو يخالف اتجاهه. ولذا نرى أن الطبري والذهبي هما أكثر إنصافًا وتدقيقًا وتحريًّا؛ لأنهما من أهل السنة، هذا من جهة، ولأنهما عُنيَا بنقض هذه المرويات من جهة أخرى.

والأمر بالجملة أنّ يزيدَ لما تولى الخلافة أرسل إلى عامله في المدينة الوليد بن عتبة يعلمه بوفاة والده وبتوليه الخلافة، وألحقَ بالكتاب الذي أرسله صحيفةً صغيرة، وصفت بأنها تشبه "أذن فأرة" قال فيها: أما بعد، فخذ حسينًا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة، حتى يبايعوا، والسلام. وقد رأينا أنهم لما طَلبوا البيعة ليزيد وأُحضِرَ الثلاثة، وطلب منهم البيعة، استمهله الحسين، وأراد الوليد أن يستبعد الفتنة فأمهله بالرغم من أن مروان بن الحكم نصحه بعدم الإمهال، فجهز الحسين نفسه وخرج من المدينة إلى مكة؛ فارًّا من البيعة. وأراد الحسين بعد أن انتقل إلى هذا المكان أن يذهب إلى الكوفة، وكان هذا أيضًا بتحريض من أهل الكوفة، فَهُم ما إن سمعوا بأنه غادر المدينة إلى مكة، حتى طفقوا يرسلون إليه كتبهم، يعلمونه فيها أنهم لم يلتزموا الطاعة للخليفة الجديد ولا لأميرهم في بلدهم، وأنهم بحاجة إليه، فليحضر إليهم ليبايعوه، ويسيروا خلفه، وتكاثرت الكتب عليه حتى بلغت وقر بعير.

وأراد الحسين أن يعرف حقيقة الأمر، فأرسل إلى الكوفة ابنَ عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب؛ ليرى هل ما كتبوه حق؟ وهل هم جادون في الأمر؟ حتى إذا كانوا جادين خرج إليهم، فلما قدم مسلم إلى الكوفة اجتمع الناس حوله، فبايعه اثنا عشر ألفًا من الرجال وهو عدد كبير، فكتب إلى الحسين بأن أهل الكوفة جادون في قولهم، فعزم الحسين على الخروج، وهنا نرى أصحابه وأقاربه ومَن بقي من الصحابة ينصحونه بعدم الخروج؛ منهم ابن عباس، وعبد الله بن جعفر، وأبو سعيد الخدري، وعدد كبير ممن بقي من أصحاب رسول الله ﷺ حتى إن أبا سعيد الخدري قال له: غلبني الحسين على الخروج، وقد قلت له: اتق الله، والزم بيتك، ولا تخرج على إمام، وكتبت إليه عمرة بنت عبد الرحمن تعظم ما يريد أن يصنعه، وتأمره بلزوم الجماعة، ويروي المؤرخون ما قاله ابن عباس وما لوَّح له عن أهل العراق، وأنهم سيخذلونه، فلم يجدِ كل ذلك معه.

فخرج بأهله وأبناء أخيه وأبناء عمه مَن رضي منهم قاصدًا الكوفة، وأسرع عبد الله بن جعفر إلى والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص، عله يستطيع أن يحصل له على كتاب أمان واطمئنان، فقد تخيل أن الحسين كان يخشى على نفسه في مكة، وكتاب الوالي قد يطمئنه على البقاء، ووافق عمرو بن سعيد بن العاص وقال له: اكتب كتابًا بما تشاء وأنا أوقعه، فكتب، وكان مما كتب: "بلغني: أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أعيذك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد، فأقبلْ إليَّ معهما، فإن لك عندي الأمان والصلة، والبر وحسن الجوار، لك الله عليَّ بذلك شهيد وكفيل، ومراعٍ ووكيل". هذا الكلام الذي بلغه لم يلق أذنًا صاغية، بل كتب مجيبًا: "خير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة مَن لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافةَ في الدنيا توجب لنا أمانة يوم القيامة".

كان هذا الكتاب من الحسين مؤذنًا بأنه يرى أن من واجبه نحو ربه ومن تقوى الله تعالى له، أن يؤمن نفسه ليوم القيامة بفعل يفعله كخروجه لقتال الفاسدين. ومجمل الأمر إذن في سبب خروج الحسين إلى الكوفة هو دعوة أهلها، ومبايعتهم له، ثم إيمانه بأن هذا هو حقه وذاك واجبه، وكان أهل الكوفة يعتقدون أنهم سيناصرونه وسيقفون بجانبه، وكان هو يعتقد ذلك.

على أن يزيد عرف من يرسل إلى الكوفة ليثني أهلها عن مناصرة الحسين، بل يسوقهم بالسوط إلى محاربته، فقد كان على الكوفة النعمان بن بشير، وكان محبًّا للعافية، وكانت رخاوته هي التي شجعت أهل الكوفة على إرسال الكتب التي أرسلوها، وعلم يزيد بحال النعمان هذه، فاستشار كاتبه النصراني "سرجون" فأشار عليه بأن يمضي رغبةَ والده، وأراه عهدًا كان حرره قبل وفاته في ضم ولاية الكوفة إلى ولاية البصرة لعبيد الله بن زياد، فأمضاه يزيد وأرسل إلى ابن زياد بهذا الأمر، وعبيد الله بن زياد ليس كوالده في قضائه للخصومات، وحله للمشكلات، ومجابهته للمعضلات، ولا في حسن تدبيره وإبعاد القتل وسفك الدماء، لكنه على كل حال داهية في تفريق الناس، وفي الضرب بينهم شديد البطش، شديد البأس.

وسار إلى الكوفة فدخلها ملثمًا، فظنه الناس الحسين بن علي، فسلموا عليه بقولهم: السلام على ابن بنت رسول الله، وسمِعَ كثيرًا من الناس يسلمون بهذا، فثارت ثائرته حتى دخل دار الإمارة، وجمع شُرطته ووجوه القوم، وأعلم أهل الكوفة بتدابيره الشديدة، وأحضر هانئًا وقتله، وكان قد اختفى مسلم عنده، فسار مسلم بجماعته إلى عبيد الله، لكنهم ما إن بلغوا دار الإمارة حتى تفرقوا عنه إلا عدد يسير؛ وذلك خوفًا من ابن زياد، ثم تمكن عبيد الله من

مسلم فأُحضِرَ إليه، فقتله، وأرسل رأسه إلى يزيد، فوافقه يزيد على ما فعل، لكنه كتب إليه يقول: بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر -أي: العيون- والمسالح -وهي جيوش تحمَى بها الطرقات- واحترس على الظن، وخُذ على التهمة، غير ألا تقتل إلا مَن قاتلك. وهذا واضح في أنه لم يأمره بقتل الحسين ولا بقتل أصحابه إلا إذا قاتلوه.

وقد بلغ الحسين في طريقه خبر مقتل ابن عمه مسلم، فأثناه ذلك واعتزم العودة إلى مكة، لكن إخوة مسلم قالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا، فقال: لا خيرَ في الحياة بعدكم. وسار فأشرف على العراق والتقى بطليعة لعبيد الله، فلزمته تلك الطليعة وهي ألف فارس حتى أتى الجيش الذي أرسله، وعدته أربعة آلاف فارس، فالتقوا في كربلاء على مسافة أميال من جنوبي بغداد. ويدل التقاؤهم في هذا المكان على أن الحسين كان متجهًا إلى طريق الشام، وقد عدل عن الكوفة، ولما التقوا خَيَّرَهم الحسين بين ثلاث، فقال: إما أن تدعوني فأنصرف من حيث جئت، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد، وإما أن تدعوني فألحق بالثغور، كان أمير الجيش عمر بن سعد بن أبي وقاص وكان عبيد الله قد هيأه ليرسله في حملة إلى "الدينمة" فقد عصا أهلها، ثم حوله إلى الحسين، فاستعفى عمر بن سعد بن أبي وقاص من هذه المهمة، فلم يعفه منها وهدده، فاستمهله إلى اليوم الثاني فأمهله، وقبل في اليوم الثاني أن يسير إليه.

لما سمع عمر بن سعد كلام الحسين استحسنه وأرسل إلى عبيد الله بذلك يحسِّن له أن يختار أحد هذه الاقتراحات الثلاثة، وكاد عبيد الله أن يفعل، لولا أن شمَّر بن ذي الجوشن -وهو من الطغاة الذين كانوا سببًا في إبراز الفتن وإظهارها- قال له: لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك، ليكونن أول محارب لك، وليكون أولى بالقوة والعز، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطيه هذه المنزلة،

ولكن لينزِل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبتَ فأنت ولي ذلك، وإن غفرت كان ذلك لك. وقد استثار شمر بكلامه هذا عبيد الله، فهو جبار لا يقبل أن يوصف بالوهن أو الضعف، وافق على كلام شمر وأرسله ومعه كتاب إلى عمر بن سعد، مضمونه أن الحسين إذا لم يستسلم ويأتي إلى عبيد الله، فليقاتل، وإذا لم يرد عمر أن يقاتله فليتنحَّ عن إمرة الجيش، وليسلمها إلى شمر.

لما ورد شمر على عمر بن سعد بن أبي وقاص وأفهمه رسالته، خاف عمر على نفسه من ابن زياد، ولم يقبل بأن يتنحى لشمر، بل استمر قائدًا للجيش، فطلب إلى الحسين أن يسلم نفسه، لكن هذا لم يفعل ونشب القتال.

نلحظ أن الحسين لم يبدأ بالقتال، بل إن موقفه كان عدم الاستسلام فقط، وقد وقع القتال بين فئة صغيرة لا تبلغ الثمانين رجلًا، وبين خمسة آلاف فارس وراجل، على أنه انضم إلى الحسين أفراد رأوا أن أهل العراق خانوا الحسين، وأن من واجبهم الاستماتة بين يديه، فانتقلوا إليه مع معرفتهم بالموت الذي ينتظرهم، وكانت الواقعة، فقُتل رجال الحسين عن بكرة أبيهم حوالي ثمانين رجلًا، وقُتِلَ الحسين معهم > ثم إنه أُرسل برأسه إلى عبيد الله بن زياد ومنه إلى يزيد، فلما أرسل رأسَ الحسين إليه؛ رجاءَ نواله وثوابه، انتهره يزيد ودمعت عيناه، فقال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية -يعني: عبيد الله- أما والله لو أني صاحبه -يقصد الحسين- لعفوتُ عنه، فرحم الله الحسينَ.

ثم أدخل يزيد أهل بيت الحسين إلى حرمه، فتلقاهم نساء يزيد بالبكاء الشديد، وكانت النساء تبكي على الحسين ثلاثة أيام، وكان يزيد لا يتغدَّى ولا يتعشَّى إلا دعا علي بن الحسين إليه، ثم إن يزيد سرَّح علي بن الحسين وأهله إلى المدينة، وأمر بحسن خدمتهم في الطريق، واستمر يوصي خيرًا بعلي حتى آخر خلافته.

ويظهر أن يزيد لم يكن يريد قتل الحسين، وأنه أسف لقتله وبكى عليه، وقد أورد خبر بكائه في كل كتب التاريخ حتى في رواية أبي مخنف نفسه، واسترحم يزيد علي بن الحسين، ولعن ابن زياد واتهمه، وأحسن وفادة أهل الحسين، لكنه لم يعمل شيئًا لتنحية عبيد الله الذي خرج عن أمره، ولم يؤنبه برسالة نقلت إلينا، واستبقاه على الكوفة، وهذا يدل على أن يزيد بن معاوية ليس بريئًا في النهاية من دم الحسين بن علي { .

وعلى كل حال لا يبعد أن يكون المسئول عن قتل الحسين الأول هو ذلك الرجل المسمى بشمر، والثاني عبيد الله بن زياد، عليهما من الله ما يستحقان.

وقعة الحرة:

الحادثة الثانية المؤسفة في عهد يزيد، هي وقعة الحرة، وهذه الوقعة كان سببها أن الناس أقبلوا على ابن الزبير يقولون: أما وقد هلك الحسين، فليس في الناس أحق بالخلافة منك، وصاروا يبايعونه سرًّا، ويدعي هو أنه لائذ بالكعبة، على أن خبره بلغ يزيد، فخاف من ذلك، وأقسم إلا أن يؤتى به موثقًا بسلسلة، ثم فَسَّر قسمه بأن أرسل إليه سلسلة من دراهم يضعها تحت ثيابه ليبر بقسمه، ولم يقبل ابن الزبير بهذه السلسلة، وتهرب من وضعها، وكان على مكة في ذلك الوقت والٍ متساهل، هو عمرو بن سعيد بن العاص، أقاله يزيد، وأقام مكانه الوليد بن عتبة، فشدد هذا على ابن الزبير، فأرسل عبد الله إلى يزيد ليرسل رجلًا ألين من هذا، فيتم الصلاح بين المسلمين على يديه، فأرسل يزيد فتًى غرًّا هو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وأراد هذا أن يظهر عملًا ما، فجمع وفدًا من أهل المدينة وأرسله إلى يزيد؛ ليقربه هذا ويصله، فيعود معلنًا رضاه عنه، وكان في الوفد عبد الله بن حنظلة الغسيل، وأخ لابن الزبير اسمه المنذر، فاستقبلهم

يزيد خير استقبال، وأوفر لهم، وأجزل في العطاء، وعاد الوفد إلى المدينة، فسار إليهم الناس يسألونهم عما رأوا.

فقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويطرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان، وإنَّا نشهدكم أنا قد خلعناه، فتابعهم الناس على خلع يزيد. وكانت آية ذلك أنهم ألقوا في الجامع بأرديتهم يخلعونها، ويعلنون معها خلعهم ليزيد، بلغ هذا يزيد، وسمع بصفة خاصة ما ذكره المنذر بن الزبير في حقه بما يشبه ما تقدم، فقال: اللهم إني آثرته وأكرمته، ففعل ما قد رأيت، فاذكره بالكذب والقطيعة، يعني بذلك: أن المنذر كذب عليه فيما قاله عنه من شربه الخمر، وعصيانه الله -تبارك وتعالى.

بايع الناس عبد الله بن حنظلة على خلع يزيد، وحاصروا عامل المدينة وبني أمية في دار مروان بن الحكم، فكتب بنو أمية إلى يزيد كتابًا يستغيثون: إنا قد حوصرنا في دار مروان، ومنعنا الماء العذب، ورمينا بالحبوب، فيا غوثاه يا غوثاه. ما إن قرأ يزيد هذا الكتاب حتى ثارت ثائرته، وأخذته الحمية، وندب لقتالهم مسلم بن عقبة، وهو رجل مخلص للحكم الأموي إخلاصًا عجيبًا، وهو أيضًا شيخ متمرس على القتال وعلى قيادة الجيوش، وساءه ما ساء يزيد، ونادَى في الناس: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطيتكم، وجعل لكل رجل مائة دينار تُوضع في يد الرجل من ساعته، فاجتمع له اثنا عشر ألفًا من الرجال، وساروا مجتهدين، فدخلوا إلى المدينة، قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: أرأيتَ إن رجعوا إلى طاعتك أتقبل ذلك منهم؟ قال: إن فعلوا فلا سبيل إليهم.

يا مسلم، إذا دخلت المدينة ولم تصد عنها، وسمعوا وأطاعوا، فلا تعرضن لأحد، وامضِ إلى الملحد ابن الزبير، فإن صدوك عن المدينة فادعوهم ثلاثة

أيام، فإن لم يجيبوا فاستعن بالله وقاتلهم، ستجدهم أول النهار مرضى وآخره صبرا، سيوفهم أبطحية، فإذا ظهرتَ عليهم فإن كان بنو أمية قد قتل منهم أحد، فجرد السيف واقتل المقبلَ والمدبر، وأجهز على الجريح وانهبها ثلاثًا، واستوص بعلي بن الحسين.

وصية شديدة في شطرها الأخير، ففيها نهب أموال المدينة ثلاثة أيام، وهذا أمر يأباه الإسلام، غير أنه وضع شرطًا لذلك وهو أن يكون أهل المدينة قد وضعوا السيف في بني أمية، وهذا يظهر تعصبه لقومه، ويظهر طيشه.

إذن همه بنو أمية وموقفه موقف فتًى يتعصب لقومه لا موقف خليفة للمسلمين عامةً.

انتهى الأمر بأن وقعت مقتلة عظيمة في وقعة يقال لها: الحَرة، أوقع فيها مسلم بن عقبة بأهل المدينة، وكان عدد القتلى من الأنصار ومن القرشيين الذين هم أبناء المهاجرين يربو على ثلاثمائة قتيل، وجعل مسلم بن عقبة يجمع وجوه الذين وقفوا في هذه الفتنة، فخيرهم بين أن يكونوا عبيدًا ليزيد يحكم فيهم بأمره، وبين أن يفعل فيهم الأفاعيل، فأبوا أن يدخلوا في حكم يزيد، فقتلهم جميعًا.

ثم انتهى الأمر إلى ابن الزبير، وقد بلغه عام أربع وستين موت يزيد بن معاوية، فأخبر قومه بذلك وجيش الشام، وفيهم الحصين الذي تولى بعد مسلم بن عقبة - أي: بعد وفاته - فدعاه الحصين إلى أن يذهب معهم إلى الشام، وأن يحقن الدماء، لكن ابن الزبير تثاقل عن الذهاب إلى الشام، ولا ندري السبب الذي منعه من ذلك، لكن يبدو أن ابن الزبير لم يكن واثقًا من مركزه ومن قَبول الناس به في الشام، وحتى في الحجاز نفسه كان عنده هذا التخوف.

وهل كان ابن الزبير يريد خلافةً على غرار خلافة أبي بكر وعمر، أو على غرار خلافة معاوية تمتد من المشرق إلى المغرب؟ أم أنه كان يريد خلافة متواضعة تشمل

الحجاز والعراق وفلسطين مثلًا تاركًا أهل الشام وشأنهم، لا يحرك نحوهم ساكنًا إن هم تركوه وشأنه؟ الجواب على هذا السؤال الخطير يبدو أن كثيرًا من المؤرخين لم يتعرض له.

المهم أن ابن الزبير أيضًا واجهته فتنة عمياء بكماء كانت في عهد ذلك الطاغية المسمى بالحجاج، وهذا الذي أنهى الصراع أو أنهى الحرب التي كانت بين عبد الله بن الزبير وبين الأمويين، كما سيظهر.

ضرب الكعبة:

انتهى الصراع بين الشام وبين معارضيه؛ إذ تغلب أهل الشام على الحجاز نهائيًّا في عصر عبد الملك، ومعلوم أنه أرسل الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير، فنصب منجنيقه على الكعبة، ورماها بالحجارة حتى هدم أجزاءً منها، وقاتل عبد الله بن الزبير قتالا شديدًا، وانتهى الأمر بمقتله < في قصة دامية شديدة الحلقات، عظيمة الوقع على قلوب المسلمين.

الدعوة الإسلامية في عهد عبد الملك بن مروان وابنيه: الوليد، وسليمان:

تغلب أهل الشام على الحجاز نهائيًّا كما بدا أن الشام تغلب أيضًا على أهل العراق، وقد بايع العراق للخليفة الأموي، غير أن الواقع أن العراق لم يخضع نهائيًّا للدولة الأموية، فقد كان الغيظ من الأمويين يغلي في العروق، واتجاه العراق وميوله لا تظهر إلا فجأة، والثورة تستعر فيه في النفوس، ثم تبدو مشتعلةً في حين لا يتوقعها إنسان.

وقد حارب الحجاج ابن الأشعث حربًا طويلة انتهت بانتصار الحجاج، وكان العراق بحاجة كبيرة إلى ذلك التنظيم بعد القلاقل التي انتابته عشرين عامًا، وضَعَ

الحجاج أنظمة للعراق، لكنها كانت ذات أثر كبير في بلاد الشام نفسها وفي سائر الأقطار الإسلامية، فعمله من هذه الجهة عمل مهم في توطيد أركان الدولة الأموية. من ذلك أنه منع قيام ثورات جديدة في العراق، وعمل على تنمية موارد الدولة بعد أن تنقصت بسبب الفتن، وأعاد إلى سيرة الأمويين تلك الفتوح ونشر الإسلام بعد أن توقفت الفتوح بسبب الفتن أمدًا طويلًا.

وحين نتحدث عن أنه منع قيام ثورات جديدة في العراق، يجب أن نتذكر ما وقع منه من تجاوز وتعدي في هذا الباب، حتى إنه قتل أكثر من مائة ألف إنسان، وهذا لا ينبغي أن يُنسى، وإنما ينبغي أن يعد ويذكر، وإذا كان قد وطد هذا لبني أمية، فإن في عنق الحجاج ما في عنقه من المظالم، وأما تنمية دخل الدولة فقد كان أمرًا لا بد منه، ذلك أن موارد الدولة قد تناقصت تناقصًا كبيرًا جراء الحروب، وخفت اليد العاملة، وخف العمل، وتقوضت أركان الاقتصاد العراقي، فكان على الحجاج أن يصلح ذلك، ونرى في هذا الأمر ذكاءه وقسوته معًا، منظم لا ريب في ذلك، سريع في تنظيمه، وفي رفع موارد الدولة، لكن نزواته النفسية دخلت في وسائل تنظيمه، حيث نظر في أرض السواد فوجدها في حاجة إلى الفلاحين والمزارعين، ووجد أن الموالي قد تركوا تلك الأراضي وانتقلوا إلى البصرة والكوفة، وكان الموالي في نظره أعداء، ذلك أنهم اشتركوا مع ابن الأشعث في ثورته عليه، وكان اشتراكهم عنيفًا حادًّا حفظ لهم ذلك، وأمر بإعادتهم إلى أراضيهم للعمل عليها، ولم يكتفِ بذلك، بل ختم على أذرعهم ختمًا باسم المكان الذي يجب أن يبقوا فيه، وكان بينهم عدد من العلماء والصناع ونحو ذلك، فألحقهم جميعًا بالأرض.

ثم إنه رأى أن الجزية تناقصت، فأقبل على عدد كبير من الموالي على الإسلام، وقد دخلوا فيه وهو يعتبرهم أعداءً له، فأول دخولهم في الإسلام بأنهم يريدون

الهرب من الجزية، فألزم الداخلين مجددًا في الإسلام بدفع الجزية، فاضطروا إلى دفعها وهي في الأصل كما هو معلوم موضوعة على المشركين دون غيرهم.

وأما مسألة إعادة الفتوح فقد كانت الفتوح توقفت للشغب الذي حصل، والاختلاف الذي وقع بعد الانتهاء من تسوية الأمور عني الحجاج بالفتوح، كان له في ذلك السهم الكبير والقدح المعلى، ومن أول ذلك أنه أحسن انتخاب رجلين من كِبار القواد هما من حسنات الحجاج، محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، فتح الأول بلاد السند، وبلغ أماكن كثيرة في بلاد الهند، وفتح الثاني ما وراء النهر، فبلغ بعيدًا في شرق آسيا، وكاد يصل إلى الصين، وكان الحجاج يشرف بنفسه على تلك الفتوح، فيضع مخططاتها، وتعرض عليه تفاصيلها، ويتتبع أخبارها، يقدم نصائحه وأوامره، وكانت الفتوح تدر عليه المال الوفير، فكان ينفق هذا المال في الإصلاح. انتهينا من عرض إصلاح الحجاج في العراق والأقطاب التابعة له.

لكن علينا أن نقول: إنه كان يذلل العراق لبني أمية، فاعتقدوا أنه خدمهم في ذلك خدمةً كبيرةً، قد أصلح لهم حال العراق من حيث موارده، وتوزيع الزراعة في السواد منه، فشكروه على ذلك وتركوه على حكم العراق، حتى تُوفي عنها سنة خمس وتسعين من الهجرة.

اعتنى عبد الملك بن مروان بدواوين الدولة، وبالنقد، وبالولاة، وبالبريد، وظهر ذلك في تنظيماته للحكم الأموي، وقيامه على أسس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد، فالخليفة صاحب الأمر الذي لا يرد ولا خلاف عليه، فإن خالف أحد من الناس فالسيف على رقبته، وقد نصح ابنه الوليد وهو على فراش الموت، فقال له: إذا مِت، فشمِّرْ واتئزر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.

واعتنى عبد الملك بتعريب أسماء الأماكن، والأراضي، وأسماء الأفراد، وتعريب الأرقام، وتعريب ما يدخل في جمعها وتقسيمها، وإيجاد عدد من الكتاب يتقنون العربية والأجنبية؛ ليقوموا على هذا التعريب، وهذا عمل مجيد قام به عبد الملك بن مروان، لم يشأ أن يقصر هذا على الشام بل أرسل إلى الحجاج في العراق يأمره بتعريب ديوان الخراج، ووجد الحجاج من يقوم بهذا وهو صالح بن عبد الرحمن من سجستان، وقام صالح بتعريب الديوان من الفارسية إلى العربية.

ثم بعد عصر عبد الملك بن مروان تولى ابنه الوليد، وعَهْد الوليد كان عهدًا انتشر فيه كثير من الخلاف أيضًا، لكن الوليد كانت له السياسة نحو الخصوم، فقد كان يتنازع الوليد أيضًا في سياسته عاملان أيضًا؛ سياسة الحجاج العنيفة التي تريد قهر الخصوم وإذلالهم، وسياسة عمر بن عبد العزيز التي كانت تريد ائتلاف الناس، وتألف قلوبهم بالعدل والسيرة الحسنة، وقد أرسل الوليد عمر بن عبد العزيز عاملًا له على المدينة، فجمع عمر بن عبد العزيز فقهاء المدينة العشرة، جعلهم مجلس شوراه، وقال لهم: الأمر لكم، فأعينوني على ما أنا فيه، فَسُرُّوا به وسعدوا، وسارت الأمور سيرًا حسنًا، وساد العدل.

وأما سياسة الحجاج العنيفة فإنها كانت -والعياذ بالله- ما تزال مستمرة. عمر بن عبد العزيز كان يجتمع بالخليفة الوليد ويهدئ من جبروته، والحجاج من جهة يشعل من نيران هذه القوة وذلك البطش المستبد.

من حسن حظ عمر أن الحجاج وقف ضد سليمان بن عبد الملك في عهد الوليد، وكان سليمان وليًّا للعهد، فَحَضَّ الحجاجُ الوليدَ على خلعه، وعلى تولية ابنه مكانه، فحفظها سليمان على الحجاج، فلما مات الوليد قبل أن تُنزع الولاية من

سليمان، أفضت الخلافة إلى سليمان ونفسه مضطرمة على الحجاج، فوجد عمر بن عبد العزيز سندًا له في مخالفته لسياسة الحجاج، وزاد حقد سليمان على الحجاج أن يزيد بن المهلب -وكان واليًا للحجاج على خراسان- على خلاف مع الحجاج إذا عزله هذا عن ولايته وتتبعه، فلجأ يزيد إلى سليمان، وأثاره أكثر فأكثر على الحجاج، فاضطرم الخلاف بين الاثنين.

لكن الحجاج -على كل حال- توفي قبل أن يتولى سليمان، وكان يدعو الله بذلك، فاستجاب الله تعالى دعاءه.

بهذا رأينا أن سليمان قرَّب عمر بن عبد العزيز، وقواه فيما هو فيه من الخير، ثم إنه عهد بالخلافة إليه، فكان هذا العهد من أعظم حسنات سليمان بن عبد الملك، وشخصيته تظهر في هذا الاتجاه للعدل، والتحضر، والتمدن، وسائر المدنية في عصرٍ لم تقل عن عصر الوليد، بل إن سليمان كان على أمثل ما كان عليه حال بني أمية في هذه المسألة.

لكن كان -كما قدمنا- عصر سليمان عصرًا اهتم فيه بالفتوح الإسلامية، وأراد أن يتقدم على الوليد في هذا الباب، ويبقى أن أعظم أعماله -كما قدمنا- هو عهده إلى عمر بن عبد العزيز بالخلافة من بعده.

وقبل أن نغادر هذا العهد، فإن علينا أن نذكر فتح القسطنطينية، فإنه حاول مرة أخرى أن يحققه، وعزم أن يدخل هذا البلد فاتحًا، واستشار موسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك، وهما قائدان عظيمان، فأشارا عليه أن يتخذ لذلك أسلوبًا بعيد المدى، فعمِل على فتح الحصون التي تقع على طريق القسطنطينية حصنًا بعد حصن، ووفق العرب في أول سيرهم إلى القسطنطينية بعض التوفيق، لكن سرعان أيضًا ما عملت النار الإغريقية في سفنهم ما عملت، ساندها في

ذلك الريح والعواصف الشديدة، ومر الشتاء قاسيًا، فلم يتوصل المسلمون إلى كبير نجاح، وانتهت الحملة بالإخفاق.

ويظهر من هذا أيضًا أن المسألة بقيت لمحمد الفاتح -رحمه الله تعالى-.

بهذا نكون قد أتينا على ذكر المهم من ملامح عهد عبد الملك بن مروان، وابنيه الوليد وسليمان بكثير من الاختصار والإيجاز.

الدعوة في العهد الأموي: خلافة عمر بن عبد العزيز

أولًا: عمر بن عبد العزيز والخلافة:

نتحدث في هذه النقطة -إجمالًا- عن الظروف التي لابست استخلاف عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- وبيان منهج عمر في إدارة الدولة الإسلامية، ونتناول أيضًا الإصلاحات العامة والإصلاح المالي خاصة في عهده -رحمه الله تعالى.

ما من شك في أن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى من الهجرة وكان النبي ﷺ قد قال: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها دينها)) وكان المسلمون يتوقعون تحقيق قوله ﷺ في هذه الفترة التي ولي فيها عمر، وكان أيضًا عمر بن الخطاب كان قد تنبأ نبوءةً توقع الناس أن تنطبق على شخصية عمر بن عبد العزيز حين قال: "ليت شعري، مَن ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلًا كما ملئت جورًا". وقد حقق النووي هذا القول فأثبت صحته، فذكر بعد أن أورد حديث عمر أنه أراد بالشين "الشجة" التي كانت في وجهه -رحمه الله تعالى. وعن ابن عمر قال: "إنا كنا نتحدث أن هذا الأمر لا

ينقضي حتى يلي هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها بسيرة عمر، بوجهه شامة، قال: فكنا نقول: هو بلال بن عبد الله بن عمر، وكان بوجهه شامة، حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز".

ونلحظ: أن هناك ظروفًا لابست استخلافه > فإن وصوله إلى المنصب لم يكن وصولًا عاديًّا، ذلك أن الخلافة كانت قد ابتعدت عنه، وذلك نتيجة موت والده عبد العزيز الذي كان أبوه قد بايع له بعد أخيه بالمُلك، غير أن الخليفة سليمان بن عبد الملك خرج على نظام الخلافة الوراثي الذي التزم به بنو أمية، وعهِدَ بها من بعده لابن عمه عمر، ويرجع الفضل في ذلك إلى الدور الذي قام به رجاء بن حيوة وزير سليمان بن عبد الملك، إضافة إلى سليمان ذاته. لذا فمن المفيد أن نعرف أن هذا كان بسبب هاتين الشخصيتين المعروفتين في التاريخ؛ رجاء بن حيوة، وسليمان بن عبد الملك -رحمهما الله تبارك وتعالى.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ أن رجاء بن حيوة قال: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثيابًا خضرًا من خَز، ونظر في المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة، فلم يرجع حتى وُعِكَ، فلما ثقل كتب كتابَ عهدِه إلى ابنه أيوب وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح، قال سليمان: كتاب أستخير الله فيه وأنظر، ولم أعزم عليه، فمكَثَ يومًا أو يومين، ثم خرقه، ثم دعاني فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت؟ قال: يا رجاء، فمن ترَى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر مَن يذكر، فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز، فقلت: أعلمه والله فاضلًا، خيارًا مسلمًا، فقال: هو على

ذلك، والله لئن وليته ولم أولِ أحدًا من ولد عبد الملك، لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبدًا يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده.

وكان يزيد بن عبد الملك يومئذٍ غائبًا على الموسم، قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضَوْن به، قلت: رأيك، قال: فكتب بيده: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا الكتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا، فيُطمع فيكم. وختم الكتاب فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مُرْ أهل بيتي، فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء -بعد اجتماعهم-: اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي، ومرهم فليبايعوا مَن وليت، قال: ففعل رجاء. فلما قال لهم ذلك رجاء، قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال: نعم، فدخلوا، فقال لهم سليمان: هذا الكتاب، وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء، هذا عهدي فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب، قال: فبايعوه رجلًا رجلًا، قال: ثم خرج بالكتاب مختومًا في يد رجاء.

فلما تفرقوا جاء عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة، وكان بي برًّا ملطفًا، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليَّ من هذا الأمر شيئًا، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي، إلا أعلمتني إن كان قد أسند إلي من هذا الأمر شيئًا حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيه على ما أقدر الساعة، فقال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفًا واحدًا، قال: فذهب عمر غضبانَ، قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء، إن لي بك

حرمة ومودة قديمة، وعندي شكر، فأعلمني أهذا الأمر إليَّ؟ فإن كان إلي علمتُ، وإن كان إلى غيري تكلمت، فليس مثلي قصر به، ولا نُحِّي عنه هذا الأمر، فأعلمني فلك الله ألَّا أذكر اسمك أبدًا، قال رجاء: فأبيت، وقلت: لا والله لا أخبرك حرفًا واحدًا مما أسرَّ إلي، فانصرف هشام وهو مؤسٍ وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى، وهو يقول: فإلى مَن إذا نُحيتْ عني، أتخرج من بني عبد الملك، فو الله إني لعين بني عبد الملك.

قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك فإذا هو يموت، قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفته إلى القبلة، فجعل يقول وهو على هذه الحال: لم يأن لي ذلك بعد يا رجاء، حتى فعلتُ ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة قال: مِن الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئًا، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فحرفته ومات، فلما أغمضته سجَّيته بقطيفة خضراء، وأغلقت الباب وأرسلت إلى زوجته تنظر إليه، كيف أصبح؟ فقالت: نام وقد تغطى، فنظر الرسول إليهم وغطى بالقطيفة، فرجع فأخبرها، فقبلت ذلك وظنت أنه نائم، قال رجاء: وأجلست على الباب مَن أثق به وأوصيته ألا يريم حتى آتيه، ولا يُدخل على الخليفة أحدًا، قال: فخرجت فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين فاجتمعوا في مسجد دابق.

فقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع الأخرى، قلت: هذا أمر أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به ومَن سمَّى في هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلًا رجلًا. قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات، قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادَى هشام: لا

نبايعه أبدًا، قال: قلت: أضرب والله عنقك، قُمْ فبايع، فقام يجر رجليه، قال رجاء: وأخذت بضبعي عمر، فأجلسته على المِنبر وهو يسترجع لِمَا وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه -يعني: أمر الخلافة- فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أي: حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، قال: فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إليّ لكراهتي له.

وإذا كان ابن كثير قد تطابقت روايته في مجملها حول ظروف إعطاء ولاية العهد لعمر مع رواية ابن سعد والطبري، غير أنه علق على ذلك بقوله: وقد ذكرنا في ترجمة سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة، أراد أن يعهد إلى بعض أولاده، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن هذا، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز مِن بعده، وصوب ذلك رجاء، فكتب سليمان العهد في صحيفة وختمها، ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء. بهذا حصلت البيعة لعمر بن عبد العزيز -عليه رحمه الله تعالى.

ذكرنا أن رجاء بن حيوة قام فأخذ بضبعيه، فقال: "يا أيها الناس، إني والله ما سألتُها اللهَ في سر ولا علانية قط" ومن المرجح أنه -رحمه الله- لما وليها واضطر إليها أراد أن يطلب بها شرف الآخرة، فقرر أن يرجع بالخلافة إلى سيرة الراشدين، يُحيي سننًا كثيرة أماتها مَن كان قبله من الأمويين شاهدها بنفسه ولمسها بذاته، فأراد أن يصلح ما فسد، وأن يرفع الظلم عمن ظلم. فمنذ يوم خِلافته الأول بدأت التغييرات بل الإصلاحات التي خالف بها سيرة مَن سبقه من خلفاء بني أمية، فأذهل بذلك القاصي والداني، أغضب قرابته وأسر بها عامة رعيته وعلى رأسهم رجاء بن حيوة؛ لتحقق صدق فراسته فيه، وكان عهده أشبه ما يكون بعهد الراشدين } الأمر الذي جعل العلماء مثل سفيان الثوري

والشافعي يصفونه بالخليفة الراشد الخامس، ويُلحقون عهدَه بعهد الخلفاء الراشدين.

وكذا أحمد بن حنبل -رحمه الله- اعتبر عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى، كما نقل ذلك ابن كثير. قال: "إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى، وإن كان هو أولى مَن دخل في ذلك وأحق؛ لإمامته، وعموم ولايته، وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب، وكان كثيرًا ما تشبَّه به".

ومنذ اليوم الأول مع أمته صعد -رحمه الله تعالى- المنبر بعد استخلافه، فقال: "أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي كان مني فيه، ولا طِلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعة، فاختاروا لأنفسكم" فصاح الناس صيحةً واحدةً، قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فَلِ أمرنا باليُمن والبركة، وهنا شعر أنه لا مفر من تحمل مسئولية الخلافة، فأضاف قائلًا يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة، فقال:

"أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ ولكني منفذ، ألا إني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله، ألا إني ليست بخيركم ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملًا، أيها الناس، مَن صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فلا يقربنا؛ يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتبنَّ عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه".

واسترسل يقول: "أوصيكم بتقوى الله..." إلى آخر ما وعظ به. ثم رفع صوته أخيرًا حتى أَسْمَعَ الناسَ، فقال: "يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته،

ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعةَ لي عليكم".

ومن هذه الخطبة العامة نرى منهج عمر في الحكم، وأنه يلتزم كتاب الله وسنة رسوله، وأنه غير مستعد للاستماع إلى جدل في مسائل الشرع والدين على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع بين من حيث ما أحل الله تعالى وما حرم الله، وأنه يرفض البدعة، والآراء المحدثة، وأنه يطلب من رعيته أن يكونوا عَوْنًا له على طاعة الله، وأنه يلزمهم طاعته ما أطاع الله، ويرفع عنهم الطاعة إن هو عصى الله -تبارك وتعالى-.

ثم إنه أرسل كتبه إلى عماله في الأمصار، قد كانت كتبه على نوعين؛ كتب إلى العمال يبصرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به في مسلكهم الشخصي والخاص إزاء الرعية، وكُتُب إلى عماله تحدد سياستهم وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين ومن غير المسلمين ممن كانوا يسكنون دار الإسلام، وعمر في هذه الكتب -كما سيظهر- تكلم من موقفه كفقيه متبحر في دينه، وقد انفرد بعض كتاب التاريخ والسير بجمع هذه الكتب في كتب أفردت في سيرة عمر، ككتاب ابن عبد الحكم في كتابه (سيرة عمر بن عبد العزيز).

ومن هذه الأمثلة على تلك الكتب قوله -رحمه الله-: "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال، أما بعد: فإن مَن بلي من أمر السلطان بشيء فقد ابتلي في الدنيا ببلية عظيمة مع ما ابتلي به في خاصة نفسه، فنسأل الله عافيته وحسن معونته".

ثم إنه جعل يأمرهم بما يجب أن يكونوا عليه من الخُلق القويم، والطريقة المستقيمة، فهو ينصح فيقول: "اصبر على ما كرهت، واصبر على ما أحببت،

وقف نفسك في كل سر وعلانية عند الذي ترجو به النجاة حتى تفارق الذي أنت فيه، فإن ذلك لعله أن يكون إلى قريب وأنت محسن ومأجور، وتذكَّر مما سلف مما لا تحب، فأصلحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك، ولا يكبر عليك في ذلك قول الناس إذا علم الله أنك تجعل ذلك له، فإنه سيكفيك المؤنة في عاجل الأمر مع ما يدخر لك من الخير فيما عنده، وكُل من ولاك الله أمره ناصحًا فيما بعثتك إليه من أمورهم في دينهم وأعراضهم، واستر كل ما استطعت من عوراتهم، إلا شيئًا أبداه الله لا يصلح لك ستره، واملك نفسك عنهم إذا هويت وإذا غضبت، حتى يكون ذلك فيما استطعت مستويًا حسنًا، وإذا سبقك أمر أو سلف منك هوًى أو غضب، فراجِعْ أمرك فقد رأيت حقًّا أن أكتب إليك بالذي كتبت به مما استطعت، ونستعين بالله ونسأله أن يصلح لنا عملنا، ويكفينا مؤنة ما نحن فيه، ومؤنة ما نرجع إليه فيما بعد الموت بأحسن كفاية، والسلام".

هكذا كانت كتبه -رحمه الله تعالى- إلى ولاته عقب استخلافه.

ومن ذلك: أنه كان -رحمه الله- شديد القيام على السنة، شديد الحرب للبدعة: "فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسه، كان في الله يسيرًا".

وقال: "لولا أن أنعش سنةً أو أسير بحق، ما أحببت أن أعيش فواقًا" أي: مقدار حلب شاة.

طالب عمر بن عبد العزيز بني أمية برد المظالم، وهي الأموال والأملاك التي وضعوا أيديهم عليها بغير حق، وقطع من بني أمية كل عطاء لا يستحقونه من بيت المال، وسَوَّى بين الناس في العطاء، وكان -رحمه الله تعالى- شفوقًا رحيمًا يعطف على الضعفاء والمنكوبين، ويهمه أمر المسجونين، فأصلح السجون،

وفرق بين سجون الرجال والنساء، وأجرى الجراية على المسجونين في أكلهم وما يحتاجون إليه، وأمر بألا يقيد مسجون في السجن، وألا يقتل إنسان في حد أو تقطع يداه ما لم يوافق الخليفة على ذلك، وعمل الخانات في أقاصي بلاد الإسلام يأوي إليها المسافرون يومًا أو يومين، ويرتاحون من عَناء السفر، ويجدون غايتهم فيها، وتصدى لإصلاح خطأ بني أمية في عداوتهم لمن عادوه، وأول ما فعل أنه قطع السب عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب < واستطاع أن يُسكت الخوارج طيلةَ عصره فلم يخرجوا عليه، وأرسلوا إليه وفدًا، فناظرهم وأقنعهم، فسلموا له بأنه إمام عادل، ونظر في الموالي فعاملهم كما يقتضي الإسلام، وكان ينظر في كل شِكاية ترد إليه، فقد فتح بابه للمظالم.

ولم يكتفِ بما فعله عبد الملك بن مروان الذي أقام قاضيًا للمظالم، بل قعد عمر بنفسه للمظالم، وبلغه بقعوده أشياء كثيرة، فأصلحها سواء ما كان منها للأفراد أو للجماعات.

فنرى أن البربر الذين أسلموا في عصر بني أمية وكانت بناتهم تسترق في الإسلام، وبقينَ في الرق بعده، تظلموا إليه، فأمر بأن تُعاد إلى أهلهن البنات اللواتي لم يتزوجن، أو اللواتي لا يريد أسيادهن زواجَهن، وأعطى لكل مسلم عربيًّا كان أو غير عربي الحريةَ في التنقل يذهب أنَّى شاء، وكان الحجاج قد فرض على الموالي ألا يغادروا قراهم.

وتظلم إليه أهل سمرقند، فقالوا: إن مدينتهم لم تفتح فتحًا وإنه ليس للمسلمين حق فيها، فأرسل إلى واليه ليقيم قاضيًا ينظر في دعواهم، فأقام القاضي، ووجد القاضي أن الحق مع أهالي سمرقند، فكتب إلى الخليفة بذلك، وأشار عليه بأن العدل هو أن يخرج العرب من سمرقند، فأمر بأن يخرج العرب منها، وأن يعود

الأمر إلى ما كان عليه قبل دخولهم إليها. ومعنى ذلك: أن العرب لا يمكنهم العودة إلى سمرقند إلا بفتحها ثانية، ووجد سكان سمرقند أنه خير لهم أن يبقى العرب محتلين لبلدتهم.

تشكَّى إليه النصارى في دمشق من أن الوليد نقض كنيستهم، وأقام على أنقاضها جامع دمشق مع أنها سجلت من حقهم حين فتحت دمشق، فأجابهم إلى مطلبهم، وقال: ننقض جامعنا ونعيد كنيستهم، غير أنه ألفى أن المسلمين تركوا للمسيحيين كنيسة "تومة" الموجودة في الجهة الشرقية من دمشق مع أنها من حق المسلمين حين فتحت دمشق، فعزم على أن تنقض وأن يبنى مكانها جامع، وانتهى الأمر بأن قبلَ النصارى بأن يبقى المسجد الجامع في مكانه، وأن تبقى لهم كنيستهم في مكانها.

حط بعض الضرائب عن أهل قبرص وأيلة، وكان النصارى يعتبرونه ملكًا عظيمًا عادلًا، ويمتدحونه خير امتداح، وتظلم إليه أهل نجران، وكانوا في الأصل من اليمن، وكان الرسول ﷺ قد وضع عليهم جزية ألفي حُلة، يحتفظون بدينهم وهو النصرانية، وتعهدوا مقابل ذلك بألا يتعاملوا بالربا، فلما تعاملوا به أخرجهم عمر من اليمن، ونقلهم إلى النجرانية بأطراف الكوفة، وخف عددهم مع الزمن، وتقاسى عليهم الحجاج بصفة خاصة، فبعد أن كان الخلفاء قد أعفوهم من قسم من الجزية لنقصان عددهم، زاد عليهم الحجاج الضريبة، فلما تظلموا إلى عمر أنقص الضريبةَ عليهم بمقدار نقصان عددهم، فاعتبر الضريبة جزية عن رءوسهم، فمن بقي منهم دفع ما عليه من الجزية دون أن يكون مسئولًا عن جزية قومه.

وعلى هذا، فقد ساد العدل في عهد عمر وأخذ كل ذي حق حقه.

ثانيًا: الدعوة الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز:

ويدور الحديث في هذه النقطة حول عمر بن عبد العزيز الداعية، وحول إرساله الدعاة، وسياسته مع أهل الذمة، وعن دوره أيضًا في نشر الإسلام، وعن جهوده في مَيْدان العلم.

عمر بن عبد العزيز الداعية:

لقد أهَّلت التربية الإسلامية التي نشأ وشب عليها عمر بأن يكون من أقدر الدعاة، ومن أكفئهم في تبليغ دعوة الله إلى عباد الله، فاستطاع عمر أن ينشر الدين، وأن يبصر بالناس بتعاليمه؛ لأن غاية العلم التي يبتغيها عمر هي إعلاء كلمة الله، وتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الناس إلى طريق الحق، والنصيحة لهم بالخير، وقد كان هذا دأبه -رحمه الله تعالى- قبل أن يلي الخلافة. فلما وليها جنَّد من نفسه ومن لسانه ومن كتبه داعيةً إلى الله، لا يفتر عن ذلك مهما ثقلت عليه أعباء الخلافة، ومهما كثرت تكاليفها، فكانت أول خطبة له عقب توليه الخلافة، كان فيها حَثُّ الناس على طاعة الله وتقواه، فقال: "أوصيكم بتقوى الله، فإن تقواه خلف من كل شيء، واعملوا لآخرتكم، فإن من عمِلَ لآخرته كفاه الله ﷻ أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكْثِروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم".

وكان > في نصائحه ومواعظه مؤثرًا في النفوس، شاحذًا للهمم والعزائم؛ لأنها صدرت من قلب مخلص ونية صحيحة.

وقد خطَبَ مرةً بالقرآن فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢] حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ

أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٢، ١٣] بَكَى > فأبكى أهلَ المسجد، وارتج المسجد كله بالبكاء. وكان يعظ الناس ويذكرهم، حتى إذا رآهم قد أخذوا بقوله، وفتنوا ببلاغته، قطع كلامه؛ مخافةَ أن يطغى زين الكلام على معناه، ومخافة المباهاة، وكان شديد التحفظ في منطقة وكلامه. ولصدقه -رحمه الله- في قوله حسن أداؤه، حتى إنه ليفتن -رحمه الله- المسافر عن سفره، فيقيم ليسمعه، ومن أقام ليسمعه مرةً تلو المرة، ود ألا يرتحل، وقد سمعه رجل يقال له: عبس بن الفضل، وكان ممن يعجبه القول البليغ، والأداء الحسن، فسمع عمرَ يوم الجمعة وهو يخطب، وكان عبس مسافرًا، فأقام وما زال مقيمًا شهرًا ما به إلا انتظار الجمعة، وانتظار الفرصة للسماع إلى كلامه.

إن عمر بن عبد العزيز يعد مثالًا صادقًا للدعاة إلى الله الذين قَلَّمَا تجود البشرية بمثلهم؛ لِمَا اجتمع فيه من العوامل التي أهلته لهذه المهمة، ففضلًا عن خطبه وعظاته المختلفة، نجد رسائله التي كنا ذكرنا طَرَفًا منها، والتي وجهها إلى عماله وولاته على البلاد الإسلامية، وتجلت فيها قوة الإيمان، وصدقُه، وحماسته في نشره لدين الله -تبارك وتعالى.

إرساله الدعاة:

وكانت له تلك الرسائل الدعوية التي يظهر فيها أنه كان شديد الإنكار للمنكرات، شديد الحب للسنة وإقامتها، فمن ذلك أنه قال: "أما بعد، فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم، إلا أصابهم الله بعذابٍ من عنده، ولا يزال الناس معصومين من العقبات والنقامات ما قمع فيهم من أهل الباطل، واستخفي فيه بالمحارم، فإذا ظهرت فيهم فلم ينهاهم أهل الصلاح

نزلت العقوبات من السماء والأرض على أهل المعاصي، وعلى المداهنين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم، فإني لم أسمع من كلام الله تعالى فيما نزل في كتابه عن مُثلة أهلك بها أحدًا نجَّى أحدًا من أولئك إلا أن يكونوا ناهين عن المنكر".

ثم يقول: "ولعمري، إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله بالأيدي والألسن، والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر، وإنما سبيل الله طاعته، وقد بلغني أنه بطَّأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التداوم أن يقال: فلان حسن الخلق، قليل التكلف، مقبل على نفسه، وما يُجعل أولئك من أحاسنكم أخلاقًا، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلِمَ من كلفة لها، بل وقع فيها، إذ رضي لنفسه من الحال غيرَ ما أمر الله أن يكون فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

ثم يقول: "فتسلطوا على الفساق من كنتم، فادفعوا بحقكم باطلهم، وببصركم عماهم، فإن الله جعل للأبرار على الفجار سلطانًا مبينًا، وإن لم يكونوا ولاة أو أئمة، ومن ضعف عن ذلك باليد واللسان، فادفعوه إلى إمامه، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى، قال الله لأهل المعاصي: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [النحل: ٤٥، ٤٦]".

وهذه الرسالة العظيمة يظهر من خلالها فقهه -رحمه الله تعالى- بأمور الدين وشئون الأمة، حيث يرسم لمجتمعه الطريق الذي ينجيه من الوقوع تحت طائلة عقاب الله تعالى وغضبه؛ ولأنه -رحمه الله تبارك وتعالى- كان حريصًا على اختيار عماله الذين يلتزمون نفس السياسة التي تسير عليها دولته، وينصبون من

أنفسهم دعاةً إلى الله، ويعملون تحت الشعار الذي رفعه الخليفة الداعية الهداية لا الجباية، كان يأمرهم بالدعوة إلى الإسلام، وعمم عليهم كتابًا جاء فيهم: إن الله تعالى يبعث محمدًا ﷺ إلى الناس كافةً، فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فادع إلى الإسلام، وأمر به، قال الله: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن ثَمَّ نَشَطَ عماله في الدعوة إلى الإسلام مخلصين العمل لله، فكان التوفيق حليفهم، واستطاعوا أن يجذبوا قلوبَ الكثير من الناس إلى الإسلام، حتى إن الجراح بن عبد الله الحكمي -وكان عامل عمر على خراسان- أخذ يدعو الناس إلى الإسلام بأمرٍ من عمر، فأسلم على يده نحوٌ من أربعة آلاف شخص من أهل خُراسان، وكان حتمًا مقضيًا أن تدخل أفواجٌ كثيرة في دين الله على يد هؤلاء الدعاة والولاة.

ولم يقتصر نشاطه على هذا، بل أخذ يرسل الكتب إلى الملوك والأباطرة يدعوهم إلى الإسلام، فهذا البلاذري في (فُتوح البُلدان) يقول: كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن تبقى أموالهم وأملاكهم وإماراتهم بأيديهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه في الحكم والحياة، فأسلموا، وسموا بأسماء العرب، وأسلم ملك الهند سنة تسع وتسعين هجرية، وأهدَى إلى عمر هدية من المسك والعنبر والند والكافور.

كما دفع عمر برسائله ووفوده إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فاستجاب لذلك الكثير؛ تلبيةً لنداء عمر، فأمر ببناء الخانات -كما قلنا- وهي

دور الضيافة التي تكون بمثابة المحطات التي يأوي إليها الغرباء، والمسافرون، والمنقطعون.

وبلغت الرغبة من عمر في الدعوة إلى الإسلام أن أرسل إلى "ليون الثالث" إمبراطور الروم، يدعوه إلى الدخول في الإسلام.

سياسته مع أهل الذمة:

ثم إن عمر -رحمه الله- كانت له سياسة مع أهل الذمة، يرغبهم فيها في اعتناق الإسلام، وكانت معاملته الطيبة لهم من أعظم الأسس التي كانت سببًا في دخولهم الإسلام، فإنه أقام العَلاقة معهم على الاحترام والود، فلم يرهقهم، ولم يهدم لهم كنيسة، ولا بيعة، ولا بيت نار صولحوا عليه، وكَتَب بذلك إلى عماله: "لا تهدموا كنيسة، ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه" وكانت أول مظلمة ردها بعد توليته الخلافة لرجل من أهل الذمة عندما قال له: أسألك كتاب الله، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع، ورد إليه مظلمته.

ولذا رأينا عمر حريصًا على دخول أهل الذمة في الإسلام، فأسقط الجزية عمن أسلم، وعامل من أسلم معاملةَ المسلمين في جميع الحقوق والواجبات، وكتب إلى عماله يأمرهم بذلك، يقول له: فادعوا إلى الإسلام، وأمر به. فَمَن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم، فخالط عموم المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه، وأن يواسوه، وعليه مال الصدقة، ولا جزية عليه، وميراثه لذوي رحمه إذا كان منهم يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام.

ولم يقتصر نشاط عمر في نشر الإسلام بين أهل الذمة عند حد إسقاط الجزية عمن أسلم منهم، بل عمَدَ إلى تشجيعهم على الدخول في الإسلام بأنواع من

العطايا، فأعطاهم أموالًا يتألفهم بها إلى قبول الإسلام، فأعطى في إحدى المناسبات لقائدٍ نصراني يسمى "بطريق" ألف دينار، تألفه بها على الإسلام، وأعطى هذه الأموال؛ لأنه يعلم أن تأليف مثل هذا وأتباعه للإسلام يكون من ورائه الكثير من أهل الذمة، يتبعوه فيعتنق أكبر عدد منهم الإسلام، كما أن في ذلك أيضًا العمل على حماية الدعوة الإسلامية، وكَسْب التأييد الخارجي لها باصطناع الشخصيات الكبيرة من القواد، أو الزعماء، أو أصحاب الكلمة النافذة في أقوامهم وعشائرهم، وهذا من حسن فقهه وفَهمه في دين الله ﷻ فإنه ما كان يبتغي مُلكًا، أو كثرةَ أموال، أو ضياعًا، بل كان أمنيته أن تقوى عقيدته، وأن يرى الإسلام سائرًا في كل بلاد الأرض وفي بقاعها.

ولا شك أن في عصرنا الحاضر الذي تتصارع فيه المبادئ، وتتشاجر فيه المذاهب، وتكثر فيه المطامع، وتُدبر فيه المكائد، وتقوم فيه الحروب الباردة والساخنة، نحتاج إلى أمثال عمر الذي ضرب في كل مجالات الخير بسهم. فأصاب الهدف المرجو، فهو الداعية المؤثر في جماهيره بخطبه ووعظه، وهو الناصح الأمين في توجيهاته وكتبه إلى عماله وولاته، وهو الذي يحث على الدخول في الإسلام بقوله وفعله وماله.

دوره في نشر الإسلام، وجهوده في مَيْدان العلم:

وكان عمر -رحمه الله تعالى- آيةً في العلم، فقد حفِظَ القرآن على صغر، وانشرح صدره للتعلم والتفقه، فأخذ الفقه والحديث والتفسير عن أجلة التابعين، وعن بعض أصحاب نبينا ﷺ وتعلم العربيةَ وآدابها، ولم يشغله الثراء الذي تمتع به عن التعلم، بل كان دافعًا له على مواصلة الدراسة والتزود من العلوم المختلفة، وبلغ من استبحاره في العلوم أن شهد له الأئمة والعلماء بالتثبت

والسبق، قال أحمد بن حنبل -رحمه الله-: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز. قال الليث: رأيت سليمان بن يسار خارجًا من عند عمر، فقلت له: من عند عمرَ خرجتَ؟ قال: نعم، قلت: تعلمونه؟ قال: نعم، قلت: هو والله أعلمكم. وقال مجاهد: أتيناه لنعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه. وقال ابن مهران: عمر بن عبد العزيز معلم العلماء.

وهذه أمثلة تدل على أنه بلغ في العلم منزلةً عظيمةً.

فلم يقتصر نشاط عمر بن عبد العزيز على إصلاح نظام الحكم، وتحويل السياسة إلى الخلافة، بل تعدَّى ذلك إلى نواحٍ: فكان عمر هو الذي يرى ضرورة تقييد العلم بالكتابة؛ ليكون بذلك أثبتَ وأرسخ وأبقى لهذا، لذا رأيناه -رحمه الله تبارك وتعالى- يأمر بتدوين العلوم الإسلامية، وأول ما عني به بعد توليته الخلافة، تدوين السنة النبوية، لَمْ تدون السنة بشكل رسمي موثق في عهده ﷺ كما دُون القرآن، بل كانت محفوظة في الصدور نقلها الصحابة } إلى مَن بعدهم من التابعين مشافهةً وتلقينًا، وإن لم يخلُ عصره ﷺ من بعض التدوين لبعض الحديث، واستمر الحال بعده ﷺ فلم تكن الكتابة ممن يعتنَى به، بل كانت لأفراد يسيرين وفي حالات خاصة، ولكن الله - تبارك وتعالى- ادخر فضل السبق في تدوين السنة لعمر بن عبد العزيز، كما كان لعمر بن الخطاب شرف السبق في جمع القرآن.

إذ أجمعت الروايات على أن أول مَن فكر في تدوين السنة وفي جمعها هو عمر بن عبد العزيز، فقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث، وأوعية العلم في عصره، وهو أبو بكر محمد بن حزم عامله وقاضيه على المدينة، قال له: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب

العلماء. وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة بنت عبد الرحمن الأنصاري، والقاسم بن محمد بن أبي بكر لأهميتهما، ولم يكتفِ بأبي بكر بن حزم، بل كتب إلى عماله على الأقاليم: "انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه". وبذا حفظ عمر السنة من الاختلاف، ونفذ فيها رغبة جده عمر بن الخطاب التي جاشت في نفسه مدةً، ثم عدَلَ عنها؛ خوفًا من التباس السنة بالقرآن أو انصراف الناس إليها.

وقد حَرِصَ عمر على نشر العلم بين أبناء الأمة؛ حتى يكون الناس على بصيرة من دينهم، فأجرى الأرزاق على العلماء، وبوأهم مكانتهم اللائقة، ومهد لهم الظروف التي تساعد على نشر العلم بين أبناء الأمة. لذا رأينا أن عمر يضع ما يسمَّى بـ"قانون التفرغ" حيث تتولى الأمة كفالة عدد من العلماء كي تتيح لهم التفرغ الكامل؛ لإنجاز مشروعاتهم العلمية التي يعكفون عليها اختيارًا، أو بتوجيه وإرشاد من الأمة. وكتب عمر إلى والي حمص: "انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطي كلَّ رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله، والسلام".

وفي رسالة أخرى يزيد الخليفة مشروعه وضوحًا، فيقول: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم؛ لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن. ولم يكتفِ بذلك، بل أصدر منشورًا يأمر فيه العلماء أن يعملوا على نشر العلم في المساجد التي يوجدوا فيها؛ حتى لا تحدث عند الناس غفلة، وتُنْسَى قواعد الشرع والدين، وجاء في ذلك المنشور: فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت.

وهكذا عاش عمر -رحمه الله تعالى- يجدد لهذه الأمة أمرَ دينها. وقد قال الإمام أحمد في حديثه: ((إن الله يبعث على رأس كل مائة عام مَن يجدد لهذه الأمة دينها)) قال: "فنظرنا في المائة الأولى، فإذا هو عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المائة الثانية فنراه الشافعي" وقد جاء الحديث في [سنن أبي داود] بهذا النص: "عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها))، فكانت هذه الجهود الخيرة، والأعمال المباركة، على رأس المائة الأولى من الأمور التي جدد الله تعالى بها الدينَ، وخلَّد بها ذكر عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تبارك وتعالى".

عاش عمر بن عبد العزيز هذه الحياة التي حفلت بكفاح دائم، واجتهاد مستمر، وجهاد لا ينقطع، في تواضع جم، وفي خلق حسن، وفي أدب كامل، فأصلح ما فسد، وأقام ما اعوج، وفعل الخير ونشره بين ربوع هذه الأمة. فلم يبقَ بعد أن وصل إلى هذا كله إلا أن يتطلع إلى الدار الآخرة، فهو يقول: "إن لي نفسًا تواقة، كلما ذاقت شيئًا تاقت إلى ما هو أرفع منه، ولقد رأيتني وأنا بالمدينة غلامًا مع الغِلمان، ثم تاقت نفسي إلى فاطمة بنت عبد الملك، فتزوجتها، وتاقت إلى الإمارة، فوليتها، وتاقت إلى الخلافة، فأدركتها، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها، تاقت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة".

وكان عمر قد ذهب إلى قرية تسمَّى "دَيْر سمعان" فأصابه المرض، وظل يشكو عشرين يومًا، ثم ألحت عليه الشكوى تسعة أيام، ولما ثقل عليه المرض أُتي له بطبيب، فلما نظر إليه، قال: لقد سُقي السم ولا آمَن عليه الموت، ثم قال: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قد عرفته حين وقع في بطني، فقيل له: لو تداويتَ؟ قال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها، نعم المذهوبُ إليه ربي، فلم يلبث حتى مات -رحمه الله تعالى- وكانت وفاته يوم الجمعة،

وهذا من علامات حسن خاتمته لخمسٍ بقين رجب، سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسعٍ وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، وأيام.

آخر ما سُمِعَ من كلامه > قول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

ثالثًا: تدهور الحكم الأموي، ونظرات عامة فيه:

بعد وفاته -رحمه الله تعالى- جاء مَن جاء بعده بوصية وعهدِ سليمان بن عبد الملك، وبدأ الوقت بدخول عام مائة وعشرين للهجرة، يبدو على أنه وقت خصام وتهاجر وعبث بالمصالح، ووجدنا أن الخليفة الذي خلف هشام بن عبد الملك -وهو الوليد بن يزيد- رجل شاعر، لا يأبه بما يجري في شئون مملكته، هو محب للحياة وملذاتها، ذو نفس قلقة مضطربة، وقعت في قصور بني أمية مرة أخرى ما سبق في عهد ما قبل عمر بن عبد العزيز، واجتمع حول الوليد بن يزيد في عصر هشام بن عبد الملك فتية السوء، وكان وليًّا للعهد من بعد هشام، ولاه والده يزيد بن عبد الملك، وأسبقه بهشام؛ لأنه كان غلامًا وكان هشام يافعًا.

ووجد هشام ولي عهده الوليد مستهترًا ماجنًا خليعًا، معاشرًا للمستهترين، مقبلًا على اللذات معهم، فهاله ذلك، فنصحه فلم يرعوِ، فوجد في ذلك فرصة سانحة ليبعده عن ولاية العهد، ويعين ابنه مسلمة بدلًا منه، لكن مسلمة كان على شاكلة الوليد وشاكلة جيله. فلم يستطع هشام إلا أن يشدد على الوليد وعلى مسلمة، فهرب الوليد إلى البادية، فأقام فيها لا يتوقع من هشام إلا السوء، حتى أتاه خبر وفاته ومعه أمارات الخلافة، فوجد متنفسًا له، وانطلقت سجيته على كاملها، فازداد في لهوه وعبثه، وأقبل على خصومه ممن كانوا يشجعون هشامًا عليه، أو يؤيدونه في جفائه له، فصار ينتقم منهم.

وفي هذا التوقيت وجدنا هذا الضعفَ يسري في هذه الأمة من جديد، فيجدر بنا أن نقف قليلًا عند القدرية، وهم أناس قالوا بنفي القدر، وبحرية الإنسان في فعل ما يفعل، بخلاف خصومهم الجبرية الذين رأوا أن الإنسان مسير في عمله، مجبر على فعله، وأن الله قدَّر عليه أن يفعل كل ما يفعل، فلا يستطيع إلا أن يسير بقضاء الله وقدره، ورأينا أن هؤلاء القدرية كانت فتنتهم فتنةً، واستمرت، إلا أن هشام بن عبد الملك على ما كان عليه، قد اشتد على هؤلاء القدرية، فنفاهم، ونكَّل بهم.

وظهرت هنا وهنالك بدع لم تكن معروفة في عهد أصحاب نبينا ﷺ ولا في عهد شيوخ التابعين، وهذا يدل على أن الزمان قد بدأ يتغير، وأن الخنا قد بدأ يدب، وأن السنة قد وقع الانحراف عنها، وبدأ التآمر على الخلفاء، فقُتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة، وكان هذا بمثابة الإيذان بسقوط الدولة الأموية، وبالرغم من أن قاتله أعلن عن رغبته في أن يسير سيرةَ عمر، وأن يتتبع خطاه، فينفق خراج الأمصار في الأمصار، ولا يقيم أبنية ولا قصورًا ينفق فيها الأموال، ويأخذ بالشورى، بالرغم من هذا، فإن الناس لم يجمعوا على بيعته، واضطرب الحال. ولقد حاول يزيد بن الوليد -وهو يزيد الثالث- أن يقوم بالإصلاح كما وعد، فأخذ في التقشف، وأنقص أعطيات الجند التي كان زاد فيها سلفه، فأعادها إلى ما كانت عليه، فسماه الناس بالناقص، وبضغط من أصحابه القدرية أرسل إلى العراق منصورَ بن جمهور عاملًا عليها بدلًا من يوسف بن عمر بن هُبيرة، الذي ألقي القبض عليه، وعُذب، لكن يزيد هذا ما لبث أن خلع منصورًا لطيشه واضطراب حكمه، وأرسل إلى العراقيين رجلًا يرون فيه الصلاح؛ لأنه أحد أبناء عمر وهو عبد الله.

على أن خلافة يزيد هذا لم تطل إلا نحوًا من ستة أشهر، فقد مات في العام الذي ولي فيه وهو عام ست وعشرين، وذلك بعد أن استخلف إبراهيم بن الوليد بناءً على تدخل مِن فئة القدرية المبتدعة.

ومن العجيب أن آخر خلفاء بني أمية، كان رجلًا قويًّا، قديرًا محنكًا، محاربًا صبورًا، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعدي، وهذا الذي لقب بمروان الحمار. أو لقب بالحمار، وذلك لقوته وشدته وجلده، فهو حفيد مروان بن الحكم الذي انتقل إليه الحكم الأموي من بني سفيان، وتلك مرة أخرى تنتقل الخلافة المروانية إلى فرع جديد لأولاد مروان، كانت أول الأمر في يد أولاد عبد الملك، ثم انتقلت إلى ابن أخيه عبد العزيز وهو عمر، ثم انتقلت الآن مع مروان إلى ابن أخ آخر لعبد الملك، وهو محمد، فمروان بن محمد كان كأبيه عاملًا على منطقة الجزيرة وأرمينية، وكان هو الذي يقود الفتوح في جنوب القوقاز، وقد نجح نجاحًا باهرًا في قيادته الحربية، وكان النجاح صعبًا في هذه المنطقة.

وحاول مروان تنظيم الفرق الحربية التي كانت تدخل المعارك، وكان -رحمه الله- شيخًا محنكًا، حين توفي يزيد الثالث، فقد تجاوز الخامسة والخمسين من العمر، وكان يعد شيخ بني أمية، وكان رجلًا طموحًا قويًّا. على أن مروان كان قد ولي الأمر في حال من الهرج والمرج الشديد في ذلك الوقت، ولا شك أنه لا يَسلم من أن يكون قد أخطأ خطأً أو أكثرَ، ومن ذلك أنه لم يكن يثق بأهل الشام، ولم يكن يعرفهم، وما كان يثق إلا بأتباعه ورفاقه في الجزيرة وأرمينية، فترك دمشق ومعها الشام الجنوبية، وجعل مقر الخلافة في حَران بالجزيرة، فأثار عليه أهل الشام، وبدأ التألب عليه، وبالرغم أن مروان سلك سلوك الحكمة مع أعدائه في الشام، فعفا عنهم فلم يعاقب مَن ساهم في قتل ابني الخليفة الوليد إلا عددًا يسيرًا، ولم ينتقم ممن نبش قبر يزيد ونحو ذلك، إلا أن الثورات بدأت عليه تثور.

فابتدأت الثورة في فلسطين، وانتقلت إلى دمشق، فَحِمْص، فكان على مروان أن يقمع تلك الثورة، فسار إلى حمص، ثم إلى دمشق، وانتهى بتدمير الثورة من جذورها، ومع ذلك بقيت جبهة الشام تتألب عليه، وانتقلت العدوى إلى العراق، فلم يصف الأمر له، وظهر في العراق اضطراب وقلاقل أكثر مما كان في الشام، وعادت فتنة الخوارج تطل برأسها من جديد، وكان أهل العراق يخشون الخوارج ويحالفون أهل الشام في حربهم لهم، غير أن الخوارج ظهروا هذه المرة بعنفوان شديد، استطاعوا أن يستثيروا النعرات القبلية، وأن تقوى لهم شوكة، ويظهرون بأعداد ضخمة لم يظهروا بمثلها من قبل.

ويمكن تلخيص هذا الوضع المتدهور بكلمة، هي: أن الأمويين أضاعوا ثقة أهل الشام فيهم، وكان هذا من أكبر الأخطاء التي قلبت دولتهم، فبنو أمية إنما أقاموا حكمهم في الشام وعلى أهل الشام، وأهل الشام هم الذين كانوا يمسكون بقواعد الحكم الأموي ويثبتونها. وفي عام اثنتين وثلاثين ومائة سقط حكم بني أمية سقوطًا نهائيًّا، واعتلى الخلافةَ بنو العباس، وحاول المؤرخون أن يفسروا ذلك الانقلاب، فاتجهت آراؤهم أول الأمر إلى أن: هذا الانقلاب إنما هو من ثورة الفرس على العرب، وأخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين، لكن بعض المستشرقين في أوائل هذا القرن انتبهوا إلى أن هذا القول ليس بصحيح، فالثورة ليست من الفرس ضد العرب، وإنما هي ثورة على بني أمية خاصة، وهي قلب للحكم الأموي إلى حكم عباسي.

وهذا في الحقيقة قول للمؤرخين من العرب، على أن من قال بهذا الرأي، قد يتوقف أمام بعض الصعوبات تتعلق بدحض القول بأن الثورة فارسية؛ لأن أبا مسلم الذي قاد الثورة كان فارسيًّا، ومن قبله خداش، وموطن الثورة فارسي

أيضًا وهو خراسان، وعليه فإن من أكبر الأسباب ومن آخرها فعلًا وعملًا، وأكثرها تأثيرًا في هدم الدولة الأموية، هو بَدء هذه الثورات، وقيام هذا العدو الجديد الذي صارت عداوته لبني أمية من جهة بني العباس.

وبشكل عام، فإن هذا العهد - عهد بني أمية - كان له جملة من الركائز، يمكن أن نتناولها:

١. أن الإسلام كان بمثابة حجر الزاوية في حكم بني أمية، ولم يُشتهر منهم شخص بأنه تزندق أو كفر، بل كانوا يلاحقون الزنادقة والمبتدعة، وكانوا يقمعون هذه البدع التي ظهرت أو انتشرت، وكانوا -وإن وقع في قصورهم بعضُ الانحراف- لا يقبلون بذلك بشيء من العموم، ولا يستهينون بشيء من الحُرم، ولا يستبدلون شيئًا من الشرع، وإن وقعت منهم مخالفات في شأن الحكم والتحاكم.

٢. كان موقفهم من علماء الدين موقفًا قويًّا واضحًا، يقدِّرونهم، ويشجعونهم، وينصرونهم، ويؤيدونهم، يقصدون من وراء ذلك إلى نشر الإسلام إلى أبعد الأصقاع، ويقومون بالجهاد خيرَ قيام، ويرسلون البعوث إلى كل مكان، ويشارك فتيان بني أمية في مقدمة الجيش الفاتح، ولا ريب أن موقفهم في ذلك موقف يتدينون به الله ﷻ فالجهاد كان يمنع الناس من التفكير بالخلافات والشقاق. وكان الأمويون معتزين بإسلامهم كل الاعتزاز، يرفعون رايته في كل مكان، وكانوا أيضًا يبغون أن يكون حكمهم أعظم حكم في العالم آنذاك، وما كانوا يرضون أن يسبقهم في ذلك إنسان.

إلا إن هذه الدول كما أن لها ميلادًا، تُكتب لها شهادة وفاة، وتتسبب أحداث جسام وحركات وانقسام في ذَهاب دولة تلك الدول، وغياب شمسها، لتسطع

وتظهر في الأفق نجوم جديدة تُشرق على سماء المجتمع المسلم بما يتضمن ذلك من عز وكرامة ورِفعة لهذا الدين، فالدولة الأموية دولة إسلامية، والدولة العباسية التي وليت الدولة الإسلامية الأموية ما كانت أيضًا إلا دولة إسلامية تحتكم إلى كتاب ربها وسنة نبيها، وترعى الدعوة إلى الله تعالى في كل مَيْدان، فإلى هذه الدولة الفتية التي ستنشأ على أنقاض الدولة الأموية.

الدعوة في العهد العباسي الأول، والثاني

أولًا: العهد العباسي الأول وحال الدعوة الإسلامية فيه:

حقيقة لم يكن سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية مجرد تغيير في الأسر الحاكمة، وإنما شكل ذلك في حقيقة الأمر ثورة حاسمة في تاريخ الإسلام؛ وذلك إنما تحقق بتلك الدعوة السرية ثم الجهرية التي صنعها العباسيون.

وقد ادعى العباسيون الخلافة ومر ادعاؤهم هذا بمرحلتين مختلفتين، تميزت كل منهما عن الأخرى، ففي الدعوة السرية رفعت الدعوة شعارات عامة: كحق آل البيت أو حق بني هاشم في حكم المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ وبعد نجاح الثورة وقيام الدولة الجديدة نسي العباسيون روابطهم وبدءوا يؤكدون بأن حقهم في الخلافة يرجع للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله -صلى عليه وآله وسلم.

ويعتبر محمد بن علي العباسي تلك الشخصية التي أهّلت نفسها لقيادة ذلك الموقف، فأدرك بثاقب نظره أن الدعوة يجب أن تتخذ منطلقًا بعيدًا عن مركز الخلافة الأموية، وأن تتوافر لها من العناصر ما يقوي مقصدها بمناهضة الأمويين، وأدرك أهمية التزام السرية التامة لأهدافها البعيدة، حتى انتهى الأمر

إلى قيام هذه الدولة في عصرها الأول؛ ذلك أن العصر العباسي أو الخلافة العباسية تنقسم إلى دورين: العصر العباسي الأول، والعصر العباسي الثاني.

وقد رأينا العباسيين من سنة مائة إلى سنة مائة وسبع وعشرين يُعملون الدعوة السرية، وإن كان محمد بن علي -الذي تحدثنا عنه- قد توفي سنة خمس وعشرين ومائة إلا أن الدعوة في وقته وزمنه كانت قد قطعت شوطًا بعيدًا، استجاب لها عدد كبير من الناس، ولما مات أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم، وفي ذلك الوقت ظهر على مسرح الحوادث أبو سلمة حفص بن سليمان المعروف بالخلال وهو من الموالي، وكذا أبو مسلم الخراساني، وكان هذا في آخر عهد الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين.

وابتدأ الدور الثاني من سنة سبع وعشرين ومائة إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهو الذي انتهى بالمواجهة مع مروان بن محمد مواجهة عسكرية مسلحة.

انتهت تلك المعارك -لا سيما المعركة المشهورة وهي معركة الزاب، والتي وقعت سنة اثنتين وثلاثين ومائة- بقتل مروان بن محمد بعد مطاردة قاسية، حتى قتل -رحمه الله تعالى- في مصر ببلدة بني سويف في قرية تسمى "بوصير" من قرى مركز الواسطة، وهذا من مراكز وأعمال محافظة بني سويف بمصر.

أبو العباس "السفاح":

وكان أول خليفة ولي أمر هذه الدولة: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمه هريقة بنت عبيد الله الحارثي ولد بقرية الحميمة مقر أسرته، عام مائة وأربعة من الهجرة وصفه المؤرخون بأنه كان كريمًا حلومًا وقورًا عاقلًا كاملًا كثير الحياء.

والسبب في توليه الخلافة مع صغر سنه عن أخيه الأكبر أبي جعفر المنصور الذي ولد سنة خمس وتسعين أنه هاشمي وأمه من أصائل العرب فهي حارثية بخلاف أبي جعفر فكانت أمه بربرية تسمى سلامة.

وذكر المؤرخون أن أبا العباس كان ميالًا إلى الأدب، يشجع الأدباء، ويمنحهم الجوائز السنية ويجزل العطاء للشعراء، ويحب مسامرة الرجال من ذوي الأفكار والآراء، وكثيرًا ما كان يقول: إنما العجب ممن يترك أن يزداد علمًا ويختار أن يزداد جهلًا، يريد بذلك: مدح مجالسة العلماء، وذم مجالسة من لا نفع فيه من جلساء السوء.

هذا جانب من صفاته، وأما الجانب الآخر فإنه بعد توليه الخلافة قضى أكثر حياته في إخماد الثورات الداخلية في الشام والجزيرة، بل في كل ناحية وصقع من نواحي الخلافة العباسية.

وهذا اللقب الذي ألصق به -وهو لقب السفاح- ألصقه به بعض المؤرخين المتأخرين؛ لاختلاق لقبٍ ملكيٍّ لأمير المؤمنين العباسي الأول على غرار الألقاب التي اصطفاها من تلاه من خلفاء بني العباس لأنفسهم، وقد قصد أبو العباس أن تبقى سلطته في حدود الحد الأدنى تمشيًا مع ظروف مرحلة التأسيس.

وعلى كل حال فإن دولة العباسيين قد قامت مساء يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين ومائة من هجرة النبي ﷺ في مدينة الكوفة، وكان أبو العباس السفاح هو أول خليفة لهذه الدولة العباسية التي سبق أن مرت بطور سري ظلت خلاله تعمل لمدة عشرين سنة، ويزيد بطريقة سرية تحت شعار الرضا من آل البيت، وتحت شعار المطالبة بالخلافة لبني هاشم، ولا شك أن الدولة الأموية -التي كانت آيلة للسقوط- تناحرت داخليًّا فقدمت مساعدة كبيرة حتى تقوم الدولة العباسية.

أبو جعفر المنصور:

لم تدم خلافة أبي العباس السفاح كثيرًا، وإنما انتقلت إلى أبي جعفر المنصور، وأبو جعفر آلت إليه الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة، وهذا يعني أن خلافة السفاح لم تزد عن أربع سنوات، ولما آلت الخلافة لأبي جعفر استهل هذا العهد بتوطيد أركان دولته، إلا أنه في أول الخلافة خرج عليه عمه عبد الله بن علي، فندب أبا مسلم لقمع حركة عمه، وكان الميثاق بين أبي جعفر وأبي مسلم ما زال قائمًا، لكن لم تقع النفرة بينهما إلا بعد نجاح أبي مسلم في حملته هذه ضد عبد الله بن علي؛ إذ أرسل أبو جعفر لأبي مسلم يقطن بن موسى؛ ليحصي أموال الغنائم، وهذا ما رفضه أبو مسلم معتبرًا أن ذلك ليس من حق أمير المؤمنين ولا من سلطته، في الوقت نفسه رأى المنصور أنه لن يكون حاكمًا فعليًّا إلا إذا أزال من طريقه، بل ومن الوجود كله أبا مسلم الخرساني، وفعلًا تخلص أبو جعفر المنصور من أبي مسلم الخرساني عام سبع وثلاثين ومائة.

ظل المنصور طيلة حكمه يزاول سلطاته الأمنية بنفس أسلوب بني أمية، وفي عام خمس وأربعين قضى عيسى بن موسى -ولي عهد الخليفة المنصور- على ثورة قام بها العلويون بقيادة الأخوين: محمد النفس الزكية في المدينة، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن في البصرة، وقد قُتل الأخوان.

ويقترن اسم المنصور بمدينة بغداد التي شيدها عام خمس وأربعين ومائة ولا ننسى أنه كان الساعد الأيمن لأخيه السفاح؛ حيث كان يشد أزره في كل موقف عصيب خاصة فيما يتعلق بالأمور العامة وتدبير أمور الخلافة، ولا شك أن أبا جعفر يوم أن تولى الخلافة كان في أول سن الكهولة؛ إذ كان عمره قرابة أربعين سنة أو إحدى وأربعين سنة، وجلس على كرسي الخلافة إلى سنة ثمان وخمسين؛ يعني

تولى من سنة ست وثلاثين إلى سنة ثمان وخمسين، حوالي اثنتا عشرة سنة تقريبًا، فهو الذي وطد دعائمها ورفع من بنائها، وضرب على أيدي الخارجين والعابثين ومن تسول له نفسه بمنافسته في الحكم، حتى ركز السلطة وأقامها في يده، وقبض عليها بيدٍ من حديد.

وفي عهد المنصور غزا البيزنطيون بعض أراضي الشام سنة ثمان وثلاثين ومائة في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس واستولوا على "ملطية" وهدموا سورها، لكن المنصور تمكن من استردادها في العام التالي، وأقام فيها حامية عسكرية كبيرة، وفي عهده استقل عبد الرحمن بن معاوية وهو المعروف بعبد الرحمن الداخل بالأندلس عن الخلافة العباسية، فأراد المنصور أن يقضي على سلطاته وتوسعاته؛ فبعث العلاء بن مغيث اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن الداخل، ولكن عبد الرحمن تمكن من إيقاع الهزيمة بالعباسيين.

وتوفي المنصور على كل حال سنة ثمان وخمسين ومائة، بالقرب من مكة وهو في طريقة لأداء الحج.

المهدي:

تولى بعد المنصور ابنه المهدي، سنة ثمان وخمسين، وامتد حكمه إلى سنة تسع وستين ومائة من الهجرة، والمهدي هذا نعمت الدولة في عهده بالسلام، وكان قد عكف على الفنون وخاصة العمارة؛ فأقام سور الرصافة وبنى مسجدها، ووسع المسجد النبوي بالمدينة وجمله، وكان شديدًا على أهل الضلال والزندقة، ولم تأخذه في إهلاكهم لومة لائم. وتصدى للبيزنطيين فلم تنقطع الحروب البرية والبحرية بينهم.

وتوالت حملاته عليهم، ورد البيزنطيون على تلك الغارات، فأغاروا على بعض مدن وأراضي الخلافة، فجعل المهدي ابنه هارون في حلب لمهاجمة البيزنطيين، وعمل هارون على مقاتلتهم، فوصل جيشه إلى سواحل البسفور، وأرغم الإمبراطورة "ريني" الوصية على ابنها قسطنطين السادس على أن تدفع للمسلمين مبلغًا قدره سبعون ألف دينار سنويًّا، وعقدت الهدنة بين المهدي و"ريني" لمدة ثلاث سنوات.

الهادي:

توفي المهدي عام تسع وستين ومائة، وتولى ابنه الهادي الخلافة من بعده، وكانت ولايته سنة تسع وستين إلى سنة سبعين، وفي عهده القصير ضعفت الخلافة العباسية، قد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين والمتصلين بالخليفة من الشعراء وغيرهم، وبدأ نساء القصر يتدخلن في شئون الدولة؛ مما قلل هيبتها، وبدأت ظاهرة استقلال الأطراف في الدولة العباسية في الظهور، وقامت في الداخل ثورات العلويين والزنادقة. إلى أن تولى هارون الرشيد الأمور، وكان ذلك سنة مائة وسبعين.

هارون الرشيد:

هارون الرشيد هو أبو جعفر، هارون بن محمد المهدي، أعظم خلفاء الدولة العباسية، وأذكرهم في التاريخ لما اتصف به من كريم الصفات وجميل السجايا، ولما وصلت إليه الدولة الإسلامية في عهده من نهضة حضارية بلغت الأوج. فقد أصبحت بغداد في أيامه كعبة العلم والأدب، ومركز التجارة والصناعة.

وهارون الرشيد -رحمه الله- تولى سنة مائة وسبعين، وامتدت خلافته وحكمه إلى سنة ثلاثٍ وتسعين ومائة، وكانت مدة حكمه في الحقيقة عصرًا ذهبيًّا للخلافة

العباسية وعصرًا ذهبيًّا للدولة الإسلامية بعامة، فإن التاريخ يرصد أن الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- بلغت في هذه المدة مداها، وأن العلم الشرعي الشريف شهد حركة واسعة من التطور والتدوين والتعليم وتقريب العلماء ومجالسة الفضلاء، والإصغاء إلى أهل الرأي في الدولة ما لم يشهد في حقبة من الحقب التي أتت في خلافة بني العباس؛ ذلك أن هارون كان أميرًا صالحًا طائعًا دينًا يجاهد سنة ويحج أخرى، وكان يقرب أهل العلم، ويكفي أنه -رحمه الله تعالى- في عهده وعصره وجد الأئمة الكبار.

فالإمام مالك -رحمه الله توفي سنة تسع وسبعين ومائة- عاش أخريات حياته في الدولة العباسية، فالإمام -رحمه الله- عاش في الدولة الأموية، وفي الدولة العباسية، ولا يصح أن نقول: إنه في العصر العباسي لم يستفد علمًا جديدًا، فإن العالم الذي يطلب العلم لا يبتغي به سوى الله ﷻ ومالك كان من صفوة العلماء الذين أثروا في الأجيال، وكان يطلب العلم ويرى ذلك دينًا لا يطلبه إلا لله -تبارك وتعالى- فهو لم ينقطع عن مزيد من العلم والسؤال والتعليم، حتى بلغ الشيخوخة من عمره، وإذا كان مالك -رحمه الله- عاش في العصرين، إلا أنه يجب علينا أن نشير إلى أن الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت حياة في الطراز الأعلى، وفي الذروة من الحضارة التي كانت في ذلك الوقت.

ولقد وجد مالك في بني العباس سامعين لنصائحه مسترشدين بمواعظه فشجعه ذلك على الاتصال بهم وقبول هداياهم؛ ذلك أن الخلفاء العباسيين كان لصلتهم بالنبي ﷺ يحسبون لأنفسهم منزلة دينية تجب عليهم أن يكونوا على صلة بالعلماء، وأن تكون أعمالهم لها من الشرع اعتبار، وكانوا يجمعون بين عنايتهم بأمور الدنيا هذه النزعة الدينية، فهم يطلبون العلماء ويستمعون إلى مواعظهم، ويبكون عند سماعها، وقد وجدنا رسائل كثيرة من زهاد وعباد وعلماء كانت

ترسل للرشيد، ويذكر بعض المؤرخين أنه كان يبكي عند سماعها، ووجدنا الرشيد في جباية الخراج والضرائب يسترشد بأبي يوسف، ويستمع إلى حكم الدين، فيكتب ذلك الإمام له الأوامر الدينية فيها بشكل يجمع بين الحقيقة والكياسة، ويجعل الحقائق الدينية الثابتة مقبولة لدى الحاكم ومستساغة، ويذهب المنصور والمهدي والرشيد إلى الحج فيكون من عنايتهم بالعلم والعلماء والدين وحامليه أن يلتقوا بهم وأن يخصوا مالكًا باللقاء وينظرون إليه بعين الرضا والإكبار، حتى إن منهم من أراد أن يحمل الناس على (موطأ) مالك، ليكون كتاب الأمصار إلا أن مالكًا -رحمه الله تعالى- أبى ذلك لأن هذا العلم دين ولأن الصحابة تفرقوا في الأمصار وأنه سمع كل مصرٍ ممن وصل إليه من الصحابة ما تفقه به وتعلم.

ومعلوم أن هذا العصر -العصر العباسي الأول- اتجه فيه الناس إلى كتابة العلوم، فدونت الفنون في آخر العصر الأموي وفي أول العصر العباسي وبدأت تتمايز، وصار لكل علم علماء قد اختصوا به يتعمقون فيه، ويضبطون قواعده إذا أخذ الفقهاء والمحدثون في تدوين الحديث والفقه، فقد كان فقهاء الحجاز يجمعون فتاوى ابن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين بالمدينة، ينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرعون عليها، كما كان العراقيون يجمعون فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا علي وفتاويه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، فلما جاء العصر العباسي اتسعت الآفاق في الحديث فدرسوه مرتبًا ترتيبًا فقهيًّا، وكان هذا العصر أيضًا عصر دعوة ومناظرات، فمناظرات شديدة اللجب قوية بين الفرق المختلفة بين الشيعة وأهل السنة، بين الخوارج وغيرهم، وبين أهل الأهواء جملة وغيرهم، يرحل العلماء من أهل السنة لأجل هذه المناظرات، بعض أهل البصرة يرحلون إلى الكوفة

ليناظروا علمائها، وكذا يفعل علماء البصرة من أهل السنة، يغادرون أمصارهم ليناظروا أهل البدع والأهواء.

وكانت المناظرات الفقهية تكثر في موسم الحج، فنرى أبا حنيفة يتذاكر في المسائل الفقهية مع مالك، ويتناظر مع الأوزاعي، وكانت تلك المناظرات الفقهية أخصب وأكثر إنتاجًا من غيرها ومالك -رحمه الله- ينفر من الجدل العلمي الذي يكون الغرض منه السبق والفوز، وكان يعد الجدل في الدين لا ينتج شيئًا، وأنه يفسد أكثر مما يصلح، لكنه أثر عنه أنه ناظر العلماء المخلصين في كثير من الأحيان، فهو يناظر أبا حنيفة حتى يعرق من المناظرة معه، ويقول للّيث: إنك لفقيه يا مصري، ويناظر أبا جعفر المنصور أيضًا، ويرسل الرسائل لمن يخالفونه يدعوهم إلى رأيه ولعله ما كان يعتبر تلك المناظرات التي يقصد بها إلى طلب الحق المجرد من قبيل الجدل الذي نهي عنه، بل كان يقصد بها طلب الحق وهي خالية من المراء وتحري الغلط، بل تعمد إلى تحري الحق والحقيقة والإخلاص يسود ذلك كله.

وكما تميز عصر الرشيد بهذه النهضة العلمية والدعوية العظيمة تميز أيضًا بوجود عدد من الثورات: ثورات العرب في الشام ومصر والموصل، وفتنة الخوارج في الجزيرة، وخروج العلويين في طبرستان وإفريقية، وفي عصره أيضًا نكب البرامكة، وأساس هذه النكبة وما أدركه الرشيد ما يرجحه الواقع التاريخي من أن البرامكة كانوا يطبقون سياسات تستهدف في النهاية التسلط على الدولة والاستئثار بالنفوذ والسلطان، أو ما عبر عنه بعض المؤرخين بأن البرامكة كانوا يشكلون دولة داخل الدولة، وهذا ما تبرزه بوضوح عبارة بعض المؤرخين: إن في دولة الرشيد دولة أخرى ملوكها البرامكة. وفي بضع ساعات من إحدى الليالي في شهر صفر سنة سبع وثمانين ومائة نجح الرشيد في القضاء على البرامكة.

ولا ننسى في عصر هارون أنه غزا الروم، وقاد الحملات ضد البيزنطيين بنفسه، وخرج على رأس جيش ضخم إلى آسيا الصغرى، وافتتح حصن الصفصاف، كما غزا قائده عبد الملك بن صالح بلاد البيزنطيين في نفس السنة، فبلغ "أنقرة" واضطرت الإمبراطورة "ريني" إلى شراء سلم مهين لبيزنطة من العباسيين.

وبينا "ريني" تعاني المرض تزعّم "نقفور" -المسئول عن الخزانة- ومعه سبعة من الخصيان ثورة أجبرت "ريني" على التنازل، وفي اليوم التالي توج "نقفور" إمبراطورًا على عرش البيزنطيين، ولم يكد يمضي وقت طويل حتى رفض مواصلة دفع الجزية المفروضة على الروم، وأرسل إلى هارون الرشيد خطابًا قال فيه: من "نقفور" ملك الروم إلى الرشيد ملك العرب أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثاله إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قالوا: إن هارون حين قرأ هذا الخطاب سيطر عليه الغضب حتى خشيه الحاضرون، فأمر بدواة وكتب على ظهر الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى "نقفور" كلب الروم، أما بعد، فقد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه، والسلام.

وعلى إثر ذلك زحف هارون بجيوشه مخترقًا آسيا الصغرى حتى نزل على "هرقلة" ففتحها وغنم غنائم كثيرة، وانتصر على البيزنطيين في عدة مواقع، وأرغم "نقفور" على إبرام معاهدة صلح، تعهد له فيها بدفع الجزية من جديد، لكنهم نقضوا المعاهدة مرة ثانية وهاجموا الدولة العباسية وهارون في طريق عودته، فهزموا المسلمين في جنوبي آسيا الصغرى منتهزين انشغال الخليفة ببعض الفتن

الداخلية، فخرج الرشيد سنة تسعين ومائة مرة أخرى ففتح "هرقلة، والصفصاف ومنقوليا" وغيرها، وأسر من البيزنطيين ستة عشر ألفًا، وفرض عليهم جزية قدرها خمسون ألف دينار. توفي هارون وهو غازٍ بخراسان، فدفن بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة، وكان قد أوصى بولاية العهد لأولاده الثلاثة: الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن.

الأمين:

وعندما اعتلى الأمين عرش الخلافة لم يلتزم بوصية أبيه، فبايع ابنه موسى بالخلافة بدلًا من المأمون، فلما علم المأمون بما أقدم عليه أخوه الأمين كلف طاهر بن الحسين بمهمة محاربة محمد الأمين، وحشد قوات على حدود ولايته خراسان، وأمرهم بمنع أي فرد من العراق من الدخول إليه بخراسان دون استجوابه؛ وذلك خوفًا من الدعايات السيئة التي قد تثير الخراسانيين.

تدهور الموقف بين الأمين والمأمون، وقامت بينهما الحروب التي عرفت بحرب الأخوين، وامتدت هذه الحروب من عام ثلاث وتسعين ومائة إلى عام ثمان وتسعين ومائة. وانتهت هذه الحروب بمقتل الأمين، وانتهت خلافته التي دامت أربع سنوات حتى قال عن هذه الخلافة بعض المؤرخين: إنه في الجملة لم يوجد في سيرته ما يستحسن ذكره.

المأمون:

ثم ولي بعد ذلك المأمون، وبالرغم من أن البيعة تمت للمأمون عقب مقتل أخيه الأمين إلا أن الفوضى استمرت لسنوات عدة في أرجاء الدولة العباسية نتيجة تلك الحرب التي دارت رحاها بين الأخوين، ويتفرع عنها مشاكل أخرى عديدة مثل

ثورة إبراهيم بن المهدي كما قامت دولة مستقلة عن الخلافة العباسية هي الدولة الطاهرية، ودخل الأندلسيون مدينة الإسكندرية إلى أن تمكن عبد الله بن طاهر من إخراجهم، كذلك حاول والي مصر عبد العزيز الجروي الاستقلال بمصر إلى آخر تلك الأخبار.

هذه حالة البلاد في صدر خلافة المأمون التي ابتدأت سنة ثمان وتسعين ومائة، إلا أنه ما لبث أن وطد الأركان، وقويت شوكته واستقر واستتب الأمر له في آخر هذه الخلافة التي دامت نحوًا من عشرين سنة؛ حيث توفي المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين.

وقد اهتم المأمون بدرجة ظاهرة بالفلسفة من جهة وبالترجمة من جهة أخرى؛ فأدخل على المسلمين من الإشكالات ومن المثالب ومن العذاب ما الله تعالى به عليم. وفي عهده أيضًا قامت تلك الفتنة العمياء، وهي فتنة القول بخلق القرآن أو محنة خلق القرآن، كما اصطلح على تسميتها، وهي من مثالب المأمون التي تؤخذ عليه؛ حيث تبنَّى فيها موقف المعتزلة وتدرع وتدثر بهم في وجه أهل السنة والمحدّثين، الذين أبوا على المأمون هذه الفكرة، التي وصفت بأنها فكرة بدعية كفرية، رفضوا فكرة خلق القرآن، وأهان المأمون الإمام أحمد، وسامه سوء العذاب، إلا أن الله -تبارك وتعالى- رفع ذكره، وخلد أثره، ونصره على المأمون، وعلى من جاء بعده، حتى ظهر رجل السنة بريئًا من البدعة، سليمًا من كل شوب.

وفي عهده أيضًا قامت في الدولة البيزنطية ثورة يتزعمها "توماس الصقلبي" ضد الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل الثاني" وكادت تطيح بعرش الإمبراطور، وأيد المأمون ثورة "توماس" وأمدها بقوة إسلامية مقابل أن يتنازل له "توماس" بعد أن

يحقق هدفه عن بعض الحصون البيزنطية، ولكن ثورته فشلت بعد عامين سنة مائتين وثلاثة هجرية.

المعتصم:

تولى أبو إسحاق محمد المعتصم الخلافة بعد المأمون، وقد سار المعتصم على سياسة المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن فبالغ في أذى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- وتشدد مع العلويين والرافضة، وتخلص بالقتل من الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى في الخامس من ذي الحجة سنة تسع عشرة ومائتين، وقبض على محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين فسجنه ثم قتله، وكان شديد البطش، واعتمد كليًّا على الجيش، وأسقط العرب من ديوان العطاء وأهمل الفرس؛ فقويت شوكة الأتراك، وارتكب الكثير من أعمال الشغب ببغداد مما أثار عليه العامة، فاضطر المعتصم إلى تأسيس مدينة تتسع لجنده الأتراك، فأسس مدينة سامراء سنة إحدى وعشرين ومائتين، وانتهى من بنائها عام ثلاث وعشرين ومائتين، وفيها أقام مسجدًا جامعًا، وأفرد سوقًا لأرباب الحرف والصناعات.

وفي عهده ازداد خطر الزندقة الذي تولى كبره "بابك الخرمي" الذي لاذ بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية، ولكن المعتصم وضع كل الإمكانات العسكرية للقضاء عليه، وعهد بهذه المهمة إلى قائده "الأفشين" الذي نجح في القبض عليه، وسيره إلى الخليفة في سامراء؛ حيث قتل شر قتله.

والمعتصم على كل حال هو بطل عمورية؛ ففي عهده ساءت العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، أغار البيزنطيون سنة ثلاث وعشرين

ومائتين على مدينة عمورية ففتحوها بالسيف، وانتهكوا حرماتها وأغاروا على ملطية، وقتلوا ونهبوا وسبوا. فاستنفر المعتصم قواته، وبلغته استغاثة امرأة، فسير جيشه من الليل. وفي هذا قال القائل:

رب وامعتصماه انطلقت ❖ ملء أفواه الصبايا اليتم
لمست أسماعهم لكنها ❖ لم تلامس نخوة المعتصم

فكان يعرف بشدة نخوته وعظيم نجدته.

وفي هذا قال الشاعر:

السيف أصدق أنباء من الكتب ❖ في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ❖ في متونهن جلاء الشك والريب

يحكي فتح عمورية ودخول المعتصم -رحمه الله- على الرومان وفتحه إياها.

توفي المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين، وولي الأمر من بعده الواثق بالله.

الواثق بالله:

هو أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم، وأمه أم ولد وهي رومية اسمها "قراطيس" وكان الواثق يشارك أباه المعتصم في عقيدته وميوله وآرائه الفلسفية، فوقعت المصادمة بينه وبين أهل السنة، وتشدد هو معهم وألزمهم باعتناق آرائه، وانتصر للمعتزلة، وأثار بهذه السياسة مشاعر أهل بغداد سخطوا عليه، وأنكروا عليه عقيدته التي قال فيها بخلق القرآن، وتزعم هذه المواجهة أحمد بن نصر الخزاعي، سنة إحدى وثلاثين ومائتين، لكن الواثق توصل إلى القبض على زعماء تلك الحركة، وجلس لهم مجلسًا عامًّا فيه أحمد بن أبي دؤاد قاضي

القضاة، فناظر أحمد بن نصر في مشكلة خلق القرآن، فأنكر عليه ابن نصر ذلك، فقام إلى سيف يقال له الصمصامة وضربه على رقبته ثم طعنه بطرف سيفه في بطنه، وأمر بصلب رأسه عند باب الحزمي ببغداد.

وبوفاة الواثق سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ينتهي خلفاء العصر العباسي الأول.

ملحوظتان حول العصر العباسي الأول:

الأولى: أن هذا العصر الذي ينتهي سنة اثنتي وثلاثين ومائتين هو عصر زخر بوجود الأئمة الأربعة، فإن الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عاش فيه معظم حياته؛ لأنه توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وأما الشافعي -رحمه الله- فقد توفي سنة مائتين وأربعة، والإمام مالك توفي سنة تسع وسبعين ومائة، وأبو حنيفة -رحمه الله- كانت وفاته سنة خمسين ومائة، فهذا يدل على أن عامة الأئمة الأربعة عاشوا في هذه الدولة التي زخرت بالعلماء والفقهاء والمحدثين في كل صقع ومصر وبلد.

وهذا يدل على أن الحالة العلمية في هذا الزمان وفي هذا الدور كانت حالة متميزة حتى عُد هذا العصر هو العصر الذهبي للفقه وللتشريع الإسلامي.

الثانية: أن خلفاء هذه الحقبة التاريخية لم يتركوا أو يخلوا الجهاد؛ فكانوا مشاركين فيه قائمين به، معظمين له حريصين على حرمات الشرع، وإن وقعت من المثالب أو الخلافات أو الإشكالات أو التخوض في الدماء بغير حق ما وقع مما يستوجب أن ننصف هذا العصر وننصف رجاله الذين قاموا عليه، ونعرف لأولئك العلماء الذين عاشوا في ذلك الزمان حقهم، ونحفظ لهم فضلهم ومنزلتهم ودورهم في نشر الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى.

ثانيًا: العهد العباسي الثاني وحال الدعوة الإسلامية فيه:

يبدأ بوفاة الواثق العصر العباسي الثاني، وذلك سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، ويمتد إلى سنة تسعين وخمسمائة.

ولقد تميز هذا العصر بسيطرة ثلاث قوى متتالية على الخلفاء: أولًا الأتراك، ثم بني بويه فالسلاجقة، وخلال هذه الفترة التي تسلطت فيها هذه الفئات وقع التفكك الذي تكونت بسببه الدول المستقلة.

لقد اعتمدت الخلافة على التُّرك وعلى عناصر أخرى في الجيش والبلاط، ثم ازداد نفوذهم وسيطرتهم على مقاليد الحكم، وازداد اهتمام خلفاء بني العباس بالترك، إلى أن جاء المعتصم بالله فتوسع في استعمال الترك في الجيش لما تميزوا به من البأس والجرأة والشجاعة والإقدام، لكن كان من وراء ذلك ما كان من السلبيات التي أدت إلى تسلط الأتراك من جهة أخرى على الدولة العباسية.

وظهرت قوة الأتراك على المسرح السياسي العباسي، كما ظهرت قوتهم في المهام العسكرية الخاصة التي قاموا بها، وأسندت إليهم، ونحن نرى أن أهم القادة الأتراك في عهد المعتصم كـ"الأفشين، وإيتاخ، وأشناس، وبُغا الكبير" كل هؤلاء كانت لهم تأثيرات ظاهرة وبصمات واضحة في الخلافة من بعد.

وقد رأينا خلفاء هذا العصر على التتابع منشغلين بحل كثير من الإشكالات التي ورثوها وتفاقمت في عصرهم، وأول هؤلاء الخلفاء المتوكل، الذي عرف باتباع السنة ونصرتها، وهو الذي فرج عن الأئمة؛ لا سيما الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- في فتنة القول بخلق القرآن، وامتدت خلافته نحوًا من خمسة عشر سنة، ثم جاء بعده: المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي ثم المعتمد والمعتضد والمكتفي

والمقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي، وعاصر المستكفي آخر نفوذ عهد الأتراك، ومطلع نفوذ البويهيين.

صحوة الخلافة:

ومن أهم الأحداث في تلك الفترة صحوة الخلافة؛ حيث كانت المشاغبات والمؤامرات والفتن طابع هذا العصر، وتوالت انتصارات صاحب الزنج، والذي سنتحدث عنه فيما بعد، وكثرت الحركات الاستقلالية، واختل النظام، كما اختلت ميزانية الدولة؛ لذا اتفق الأتراك فيما بينهم على ترك قيادة الجيش لأحد العباسيين؛ ليكون له السلطان عليهم رغبة في تهدئة الأحوال، ومن هنا تركوا للخليفة المعتمد أن يختار قائد الجيش من أسرته، فاختار أخاه الموفق، واسترجع العباسيون بذلك السلطان من الأتراك.

وتعتبر هذه الفترة صحوة في الخلافة العباسية، وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد قيادة الجيش، فلما توفي عمه الخليفة نودي بالمعتضد خليفة للمسلمين، وكانت هذه الصحوة من سنة ست وخمسين ومائتين إلى سنة تسع وثمانين ومائتين، وعاد بنو العباس بعد المعتضد إلى ضعفهم، لكن السلطان لم يعد للأتراك فقد برزت سلطة نساء القصر، كما برز منصب أمير الأمراء الذي تركزت فيه السلطة، ولم يكن هذا خاصًّا بالأتراك، وإنما قفز له رجال من هنا وهناك.

ثورة الزَّنج:

وأما ثورة الزَّنج أو الزِّنج فقد بدأت في منطقة البصرة وواسط التي عجت بآلاف الزنوج من الأفارقة الذين كانوا أرقاء أو كانوا أجراء لدى كبار الملاك في هذه المنطقة، وتزعمهم رجل فارسي اسمه علي بن محمد، ادعى أنه رسول العناية

لتحريرهم، وبدأت معارك ضارية بينه وبين جيوش الخلافة العباسية، وقتل قائد تركي في إحدى هذه المعارك ضد صاحب الزنج، وكانت ثورتهم مدمرة، تحرق المدمن وتبيد الزرع.

وقد استولى الزنوج على مدن من مدن خراسان كالأهواز ومن مدن العراق كواسط والبصرة وعبادان، واتخذوا مدينة المختارة عاصمة لهم، ولجأ الخليفة المعتمد إلى أخيه الموفق ليحارب الزنج فابتنى قلعة تواجه مدينة المختار، وأقام كل فريق يرابط عليها.

وبهذا نرى أن الدولة العباسية في طورها الثاني وقعت متأثرة في أكثر من جهة، فمن جهة تأثرت بسلطان الأتراك، ومن جهة أخرى تأثرت بما نشأ من تلك الدول، كالدولة البويهية والتي انشقت عن الدولة العباسية سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وامتدت إلى سبع وأربعين وأربعمائة، فزادت عن مائة عام، وما تبعها أيضًا من الدولة السلجوقية التي بدأت سنة سبع وأربعين وأربعمائة وامتدت إلى سنة سقوط الخلافة العباسية سنة ست وخمسين وستمائة. وكانت هذه العوامل عوامل تفضي وتؤذن بسقوط هذه الدولة، وتؤذن بوقوع كثير من الفتن والمحن في هذه الفترة.

ثالثًا: حضارة العباسيين:

لا شك أن الخلافة التي أقامها العباسيون قد أنشأت حضارة عظيمة لها هويتها، وهي هوية إسلامية، بدرجة ربما أكبر مما كان في العهد الأموي، وفي هذا الصدد أفادت الدولة العباسية من المذاهب المتباينة ومن العناصر التي كانت حديثة عهد بإسلام، ورأينا أن العباسيين قد استطاعوا أن يسيطروا على الأمور، وأن يحكموا قبضتهم عليها لا سيما في الدولة العباسية الأولى، وقد أقاموا نظام الخلافة على

وجه متميز وأنشئوا نظام الوزارة، واقتبس العباسيون نظام الوزارة من نظام الإدارة الفارسية القديمة، وعملوا على اختيار وزرائهم من الفرس، وكان أبو سلمة الخلال أول وزير لبني العباس، وكان للوزراء اختصاص، وكانت الوزارة في عصر العباسيين تنقسم إلى نوعين: وزارة تنفيذ ووزارة تفويض، فوزارة التنفيذ هي وزارة القلم وسلطتها محدودة، وتقتصر مهمة الوزير فيها على تنفيذ أوامر الخليفة، وأما وزارة التفويض فهو أن يكل الخليفة الوزارة إلى شخص يثق فيه ويفوض إليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شئونها دون رجوع إليه.

وأنشئوا أيضًا نظام الكتاب، وكان عندهم نظام آخر هو نظام الحجابة، فالحجاب كانت لهم دواوين، وفي ذلك خطا العباسيون في إثر الأكاسرة؛ لأنهم أرادوا أن يحموا أنفسهم من الساخطين عليهم، وأنشئوا وتوسعوا في الدواوين بحكم اصطناعهم لنظم الإدارة الفارسية، فكلمة "الديوان" كلمة فارسية تعني: السجل الذي يكتب فيه ما يختص بشئون الإدارة، واعتنوا أيضًا بالنظام القضائي، فلم ينشئ العباسيون القضاء إنشاءً، بل استكملوه وقام الخلفاء شخصيًّا بتعيين القضاة حتى يمنعوا تحكم الولاة، وحتى يحسنوا رقابة كفاءتها أو رقابة ولاء هؤلاء القضاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنشأ العباسيون منذ عهد الرشيد منصب قاضي القضاة، وكان أبو يوسف هو أول من شغل هذا المنصب الذي لا يعني اختصاصًا قضائيًّا أعلى من اختصاص سائر القضاة، فهم جميعًا على قدم المساواة، يتولون إحقاق الحق ولا ينقض حكمهم إلا من قبل الخليفة أو الوالي الذي يحل محله، وإنما يعني هذا المنصب وجود حق الإشراف على الهيئة القضائية؛ لأن قاضي القضاة يمثل الخليفة.

كما عنوا بترتيب ما يتعلق بالشرطة وبديوان الحسبة، وعنوا بقضاء المظالم، ورتبوه بشكل جيد وجعلوا له والٍ أو عامل يقوم عليه ويختص به، ومما لا شك

فيه أن عناية خاصة صرفت إلى الجيش وإلى الحربية البحرية من الجيش في ذلك الوقت. وكانت العناية بالحياة الثقافية في بغداد قد بلغت أوجها، وقد اهتم الرشيد -كما قدمنا- بكثير من العلوم الشرعية واللغوية والأدبية وسار على خطاه من جاء بعده من الخلفاء، إلا أننا رأينا المأمون يتبنى بدعة خطيرة أدت إلى ثلم السُّنة في زمنه وفي أزمنة أتت من بعده.

ولا بد أن نذكر الفقه في هذا العصر فقد تضخم جدًّا ونهض نهضته الرائعة بعد عهده التأسيسي الذي كان في عصر بني أمية، ونشأ في هذا الدور مذاهب واجتهادات فقهية جمة، منها المذاهب الأربعة، وكثير غيرها، وفي دولة العباسيين ابتدأ تدوين الفقه تدوينًا علميًّا مذهبيًّا، ومن أقدم كتبه ما كتبه محمد بن الحسن الشيباني، تلميذ أبي حنيفة الذي جمع مذهبه، وكتاب "الموطأ" لمالك بن الأنس، وكتاب "الأم" للشافعي، وابتدأ تدوين أصول الفقه في رسالة الإمام الشافعي، وظهر علم قواعد الفقه أيضًا.

ويجدر بنا قبل أن ننهي الحديث عن هذه الدولة أن نقول: إنه مع هذا التجدد الذي ظهر وبرز في أول العصر العباسي في الفقه فإن تعصبًا مذهبيًّا قد نشأ في أواخر هذه الدولة، ناسب ما وقع فيها من الشقاق والافتراق ومن القيام بالثورات والنعرات، ومن انتشار البدع وظهورها وتغلغلها؛ فكان جراء ذلك أن يقع الضعف الذي يترتب عليه كثير من ذهاب الريح وانفلام الصف.

ولكن إن كان هناك من كلمة أخيرة، فإن هذه الدولة امتازت بكثرة المجتهدين، ومن كثرة العلماء المتحررين والقادرين على الإبداع والإنتاج، وكانت هناك جهود كبرى تنظم تلك المذاهب الفقهية، وتجمع شتاتها، وتذكر علل مسائلها، وتخرج الحوادث الجديدة على أصولها، وترجح بين الآراء والأقوال التي تختلف ضمن المذهب الواحد، واتسعت علوم شرعية، وامتدت الدعوة لتناظر غير المسلمين في مواقع شتى من تلك المواقع التي نزلها الإسلام، ووصل إليها رجاله ودعاته.

وكما هي العادة فإن أسبابًا للضعف قد بدت تدب في جسد الدولة العباسية مبكرًا من بدايات العصر الثاني للخلافة العباسية ؛ جعلت هذه العوامل تنخر في جسدها ، فكما قدمنا تلك الثورات على رأسها ثورة الزنج ، وذلك التغلغل التركي البويهي السلجوقي في جسد تلك الدولة ، مع ما قام أيضًا من دولة الأمويين في بلاد الأندلس ، كل ذلك مع ضعف بدا وظهر عند ذلك الخلفاء ؛ أدى إلى انهيار تلك الدولة.

وكان الانهيار بسبب آخر كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، وهو ما تسلط على الديار من غزو المغول والتتار ، واتخذ الخلفاء بذلك ما اتخذوا من الأسباب التي واجهوا بها التتار ، إلا أنها لم تكن لتفلح ؛ ذلك أن تلك الألقاب التي اصطنعوها لأنفسهم كانت في كثير من الأحيان بعيدة عن الواقع المأمول حتى قال القائل :

ومما يزهدني في أرض أندلس ❖ تلقيب معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ❖ كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

آلت الأمور إلى أن سقطت بغداد سنة ست وخمسين وستمائة على أيدي التتار ، الذين هاجموا الخلافة الإسلامية ليذيبوها وليذهبوا بها ؛ فكانت النتيجة أن آلت الأمور إلى أن أذاب المسلمون حضارة التتار ، وأدخلوهم في دينهم واصطنعوا منهم دعاة ورجالًا ومجاهدين في سبيله ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٥] سنة الله التي قد قضى الله -تبارك وتعالى- أن تجري : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]. وهذا نهاية القول في الخلافة العباسية بشقيها : الأول والثاني.

الدعوة الإسلامية في العهد العثماني وما بعده، والدعوات الإسلامية المعاصرة

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	الخلافة العثمانية	٨٧٩
العنصر الثاني	:	الدعوات الإسلامية المعاصرة (١)	٩٠٦
العنصر الثالث	:	الدعوات الإسلامية المعاصرة (٢)	٩٢٨

الخلافة العثمانية

أصل الأتراك العثمانيين:

ينسب الأتراك العثمانيون إلى إحدى قبائل الغز التركية، ومنشأها بلاد تركستان وأقدم زعيم معروف لهذه القبيلة اسمه سليمان، وكان يهيم بقبيلته في آسيا الصغرى باحثًا عن أرض يقيم عليها دولته، وقد قتل سليمان هذا عند مشارف حلب، وترددت القبيلة بين العودة إلى موطنها الأصلي أو مواصلة السير في الطريق، وانقسمت باحثة عن ملاجئ تأوي إليها.

لكن أرطغرل بن سليمان اختار أن يدخل آسيا الصغرى، وأن يلتحق بخدمة الأمير السلجوقي علاء الدين الثاني -الذي كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين- وساعده في هذا الجهاد فأقطعه السلطان السلجوقي مساحة من الأرض تقع غربي دولة السلاجقة على الحدود البيزنطية، وترك له فرصة توسيع مملكته على حساب البيزنطيين.

عثمان بن أرطغرل:

ولما توفي أرطغرل سنة سبع وثمانين وستمائة تولى بعده ابنه عثمان؛ فكان عثمان كأبيه في خدمة علاء الدين السلجوقي، وسار سيرة أبية في مساعدتهم وتأييدهم في حروبهم؛ فزاد علاء الدين في إكرامه ومنحه نوعًا من الاستقلال، وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها. واستمر في التوسع على حساب دولة الروم الشرقية، واتخذ بعض تلك المدن التي فتحها وهي قرة حصار اتخذها عاصمة له.

السلطنة العثمانية وجهودها في شرق أوروبا:

ما لبثت دولة السلاجقة أن زالت من آسيا الصغرى سنة تسع وتسعين وستمائة بمداهمة المغول، وتوفي السلطان علاء الدين في نفس العام، وبعد وفاته أعلن عثمان بن أرطغرل استقلاله التام مكونًا هذه السلطنة، معلنًا قيام الدولة العثمانية التي اتخذت تسميتها من اسمه، ومد نفوذه على معظم الأراضي والمقاطعات التي كان يحكمها السلاجقة، وجعل من مدينة "يكي شهر" الواقعة غربي "قونية" بالأناضول عاصمة له، كما اتخذ الراية التي لا تزال تمثل العلم التركي حتى الآن وهي "الهلال وبداخله النجمة" وجعل ذلك بمثابة العلم أو الراية لدولته. ودخل في سلسلة من الصراعات الطويلة ضد أعداء الإسلام من البيزنطيين والمغول، وقد ظفر في صراعاته بعدة انتصارات، ووضع يده على معقل هام في آسيا الصغرى هو "بورصة" الواقعة شمال غربي تركيا، والتي اتخذها عاصمة لدولته فيما بعد.

أورخان:

وانتقل الحكم إلى ابنه أورخان الذي جعل من "بورصة" عاصمة للدولة الجديدة وقوّى وضعها وحسن من أحوالها، لم يكتف بهذا حتى بدأ يغزو البيزنطيين، ويقتطع من بعض أراضيهم ما يضمه إلى مملكة آل عثمان. توفي أورخان عام واحد وستين وسبعمائة.

مراد الأول:

وخلف أورخانَ ابنه مرادٌ الأول الذي بسط نفوذه على غربي الأناضول، وكانت هذه المساحة تحت نفوذ حاكم "قرمان" بعدما عقد معه مصاهرة سياسية حيث زوج ابنه بايزيد من كريمة هذا الحكام فتدريجيًّا اتسعت أملاك العثمانيين في آسيا الصغرى، عن طريق الانتصارات التي حققوها على خصومهم.

اهتم مراد الأول بالتوسع في بلغاريا، اندلعت معركة حاسمة بين هذا السلطان وقواته من ناحية، والقوات الأوربية المتحالفة تحت إمرة ملك الصرب العتيد لازار من ناحية أخرى. وأنزل السلطان مراد الأول هزيمة ساحقة بهذا التحالف الصليبي أرهبت أوروبا كلها، بيد أنه لم يهنأ بنصره كثيرًا حيث غافله جندي صربي جريح بضربة قاتلة، أودت بحياته؛ ففقدت الدولة قائدًا مغوارًا محنكًا وكان ذلك سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، أي: أن حكم مراد الأول دام بنحو من واحد وثلاثين عامًا.

بايزيد الأول:

تولى بعده ابنه بايزيد الأول وكان ذلك عام اثنين وتسعين وسبعمائة، واصطنع بايزيد سياسة مرنة ضد خصومة، وانتقل بعد ذلك إلى الجانب الأوروبي حيث ضرب الحصار حول القسطنطينية، وحارب حاكم "الأفلاق" وهزمه وألزمه بدفع الجزية، وتألقت الدولة العثمانية على ربوع أوروبا.

وكان من الملاحظ أن المكائد الأوروبية أخذت تحاك ضد العثمانيين؛ فقد سعى ملوك أوروبا نحو استثارة وتحريض المغول لمهاجمة العالم الإسلامي من الجديد وبخاصة الدولة العثمانية. وذلك من خلال الأوروبيات اللاتي عملن في قصور حكام المغول ولدى الأمراء، واتبعن كافة الوسائل لإثارة عوامل الكراهية والعداء ضد المسلمين بصفة عامة، ولم يأبه العثمانيون لتلك الأخطار، وانصرفوا نحو توسعاتهم في صوفيا، وهي العاصمة البلغارية حاليًا، وسلانيك في اليونان، واضطر حاكم الصرب، وملك البلغار لدفع الجزية للسلطان العثماني، إلا أن نجاح العثمانيين في فتوحاتهم -كما قدمنا- أشعل كراهية الأوربيين؛ فأثاروا المغول، ووقعت الحروب بين العثمانيين والمغول بقيادة تيمورلنك.

ومما أشعل الموقف بين الطرفين ما أقدم عليه تيمورلنك من احتلال منطقة سيواس بآسيا الصغرى؛ فتقدم بايزيد مسرعًا إلى هذه المنطقة بعدما تيقن من مقتل ابنه على أيدي المهاجمين المغول، كانت قوات المغول تقارب ثمانمائة ألف مقاتل، بينما كانت القوات العثمانية نحوًا من مائة وخمس وعشرين ألف مقاتل، ورغم الفارق العددي؛ فإن السلطان بايزيد الذي كان يلقب بالصاعقة قد أدى من ضروب الشجاعة والإقدام ومهارة وسرعة الحركة والمناورة ما يذهل العقول، إلا أن القوات المغولية الكاسحة أحاطت به وبرجاله، بعدما أصاب التفكك جموع الجيش العثماني، ووقع في الأسر هو وابنه موسى، وفشلت محاولات السلطان الأسير في فك الأسر والنجاة وأطاح تيمورلنك بالأملاك العثمانية في آسيا، وأعاد العديد من الإمارات إلى حكم المغول مرة أخرى.

ولا شك أنها فترة كانت كالحة بالنسبة للدولة العثمانية، وتولى فيها سليمان بن بايزيد مكان أبيه، ووافق تيمورلنك على أن يحكم سليمان البلاد كتابع للسلطان المغولي، ولكنها لفترة كانت قصيرة؛ فقد مات تيمور لنك وتقاسم أبناؤه مملكته، ووقعت خلافات بين بعضهم البعض مما كانت في مصلحة العثمانيين؛ فعادت السيادة كاملة للعثمانيين مرة أخرى، وبدءوا يتخلصون من سلطان المغول.

محمد الأول:

ثم جاء أبناء بايزيد -محمد وعيسى وسليمان وموسى- حيث رجحت كفة السلطان محمد الأول؛ إذ استطاع أن يتغلب على أخيه عيسى ثم استدار لأخيه موسى فقتله، وآلت الأمور إلى محمد، وقد تحمل مسئولية عظيمة؛ فقد واجه أخطارًا متعددة في الداخل والخارج، وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة توفي السلطان محمد في أدرنه؛ فخلفه ابنه مراد الثاني.

مراد الثاني :

سلك مراد الثاني مسلك أبيه منذ عام خمسة وعشرين وثمانمائة حيث أبرم هدنة، واتفاقًا مع حاكم المجر ثم حاربه بعد ذلك عندما تحرش بالدولة، ورده إلى الطاعة، ثم إنه واجه تكتلًا صليبيًّا جديدًا من المجر وبولندا وفرنسا وألمانيا والبندقية وجنوة والأفلاق والبوسنة والصرب؛ فكانت جموعهم الكاسحة؛ فالتقى بهم في موقعة شهيرة هي موقعة "نيش"، بيد أنه لم يفلح في إخضاعهم ودارت الدائرة على العثمانيين، وهزموا في النهاية كان من الممكن لهذه الجيوش الأوروبية مطاردة وتعقب المهزومين لكنها لم تفعل؛ فكان ذلك لصالح العثمانيين.

وألمَّ الحزن الشديد بالسلطان مراد الثاني بعد وفاة ابنه علاء الدين؛ فآثر الاعتكاف والتفرغ للعبادة وتنازل لابنه الصغير محمد الثاني.

كان محمد هذا في الرابعة عشرة من عمره، الأمر الذي أطمع فيه ملوك أوروبا فهاجموا الأراضي العثمانية، ونقضوا الوعود والعهود؛ فعاثوا في الأرض فسادًا فأجبر الناس السلطان مرادًا ليعود إلى الحكم مرة أخرى، وذلك بعد حكم سابق عاد ليحكم إلى أن توفي فكانت مدة حكمه الأولى والثانية ما يقارب ثلاثين عامًا.

محمد الفاتح :

بعد وفاته تولى ابنه محمد الثاني فجاء محمد الثاني ابن مراد الثاني خليفة عثمانيًّا سنة خمس وخمسين وثمانمائة؛ فكان محمد هذا هو المتربع على العرش، وهو بذلك يعد سابع السلاطين العثمانيين شرع في إنجاز المهام، وواصل جهود سابقيه، وأخذ يخطط منذ توليه الحكم لأكبر عملية في تاريخ الدولة العثمانية،

وهي فتح القسطنطينية، تلك المدينة العريقة الحصينة ذات الموقع الإستراتيجي الهام التي تمثل عاصمة دولة الرومان والتي بقيت تواجه المسلمين وتسير منها الجيوش لافتتاح وغزو بلاد المسلمين.

هذه المدينة العريقة الحصينة التي تقع في ملتقى الاتصال بين أوروبا وآسيا على مضيق البسفور الذي يربط البحرين الأسود والأبيض على بحر مرمرة، كان - بحق - موقعها أنسب مكان لعاصمة عالمية.

لا شك أن محاولة السلطان محمد الثاني ابن مراد الثاني لفتح القسطنطينية كانت قد سبقتها محاولات ابتدأت من عهد معاوية بن أبي سفيان < إلى أن كانت آخر محاولةٍ محاولةَ بايزيد الصاعقة الذي لقب بسيد البلقان، ولكنها كانت إرهاصات على كل حال بحدث تاريخي ضخم كان بمثابة حجر الزاوية لتغيير مجريات الأحداث في تاريخ أوروبا، والعالم على حد سواء؛ ففي فجر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ألف وأربعمائة وثلاث وخمسين الموافق سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية، ومع نسمات الصبح الأولى كانت نقطة التحول وبدء ساعة الصفر، وإعلان الهجوم، وإحكام قبضة حصار عثماني صارم حول القسطنطينية الحصينة.

وكان قد اكتمل قرن من الزمان على وصول آل عثمان في عهد السلاطين الأوائل الذين عبروا إلى الجانب الأوروبي في شبه جزيرة غاليبولي، وبعد نصف قرن من محاولة السلطان بايزيد الصاعقة لفتح القسطنطينية، وقف الشاب محمد الفاتح، محمد الثاني ابن مراد الثاني وقف تحت أسوار القسطنطينية مدفوعًا بحديث رسول الله ﷺ مبشرًا ومشيدًا بفتح القسطنيطينية وبفاتحها وبجيشها، فجمعوا جموعهم من كافة أرجاء الدولة العثمانية، وكانت المدينة قد بلغ عدد سكانها، نحو مائة ألف نسمة تحيط بها الأسوار الشاهقة المتينة من جهة البر.

فبينما كانت المياه تدور حولها من ثلاث جهات، وكانت الأسوار الثلاثة المتوالية حولها تكسبها مناعة وحصانة لا مثيل لها، ويربض خلفها رجال القوات البيزنطية للدفاع عن عاصمة ملكهم، بينما استقر أسطول كبير في خليج القرن الذهبي، وقد أحكم إغلاق هذا الخليج بسلسلة ضخمة حديدية كان محمد الفاتح بجيشه الضخم يدعمه أسطول كبير يشمل عدة مئات من السفن الحربية، يأخذون في مراقبة مضيق البسفور، وتفتق ذهنه عن حيلة بارعة حين تمكن من تكوين ما يقرب من سبعين سفينة أخرى، نقلت على هيئة ألواح خشبية عبر جسر، وجعلها في أعلى القرن الذهبي المذكور.

وعلى هذا النحو صار الحصار العثماني يحيط بالمدينة من ثلاث جهات إحاطة السوار بالمعصم وكانت المهمة الأولى أمام المدافع الضخمة للسلطان الفاتح هي إحداث ثغرات في تلك الأسوار المذكورة خلال الأسابيع الأولى من الحصار، ثم تم نقل سفن الأسطول عبر التلال خلف ذلك الجسر إلى القرن الذهبي، ورغم أنه عقد المجلس الحربي لكبار مستشاريه، وكان رأي أحدهم وهو الوزير الأعظم "قرة خليل" هو ترك هذه العملية التي تتسم بالمغامرة، بيد أن السلطان الشاب الطموح عارض الرأي، وازداد إصرارًا وتمسكًا، وبعد منتصف ليلة الثلاثاء المذكور وبعد تباشير الصبح وانبلاج الفجر كانت ساعة الصفر، فتقدم المهاجمون بشجاعة وثبات، وتصدى المدافعون بصلابة لهذا الهجوم، وأنزلوا بالمهاجمين خسائر فادحة، إلا أن المهاجمين من الجند العثماني تمكنوا من إضعاف قدرات المدافعين واستنفاذ الذخائر.

وبعد أن وصل المدد للقوات العثمانية توالت الهجمات تلو الهجمات في الأيام التالية. وتخير السلطان من خيرة جنوده من الرماة والفرسان والإنكشارية قرابة

اثني عشر ألفًا، قاموا بشن هجوم كبير، وبعد محاولات عدة تمكن المهاجمون من إحداث ثغرة في الأسوار، تدفق جنود الجيش العثماني من خلالها؛ ففي وقت قليل جدًّا دخل عشرات الآلاف من الجنود المدينة بعدما تجاوزوا تلك الأسوار الشاهقة في هجوم كاسح كالسيل، بينما ارتفعت صرخات البيزنطيين من شدة الفزع والرعب، وما هي إلا ساعات معدودات ارتفعت بعدها أعلام العثمانيين، أعلام الدولة المسلمة، أعلام الخلافة، فوق أبراج القسطنطينية. واستمر المهاجمون في الإجهاز على بقايا المقاومة في نواحي المدينة، وكان قد قتل في الميدان آخر الأباطرة البيزنطيين، مدافعًا عن عاصمته وهو الإمبراطور دراغاسيس.

وهكذا دخل السلطان محمد الفاتح على جواده من باب "طب قبو" تحيطه الحاشية السلطانية وحراسه من الإنكشارية، وقصد الكنيسة الشهيرة آيا صوفيا، وتعني: الحكمة المقدسة، وهناك نزل من على جواده وترجل حتى دخل الكنيسة، ثم أمر الإمام بالصعود على المنبر وأعلن المؤذن آذان الإسلام، وبذلك تحولت الكنيسة إلى مسجد، وفي يوم الجمعة الأول بعد دخول العاصمة التي صارت تدعى استانبول، أدى العساكر وقائدهم صلاة الجمعة في آيا صوفيا ودعي للسلطان الفاتح لأول مرة على منبرها، وصارت مدينة الأباطرة آخر عاصمة للبيت العثماني.

وهكذا سقطت القسطنطينية معقل المسيحية في جنوب أوروبا، وهي تلك المدينة التي سيرت الحملات الصليبية إلى الشرق الإسلامي، وعلى حد قول أحد القساوسة آنذاك: سقط هذا المعقل المسيحي العريق، وتأسس على أنقاضه إمبراطورية الأتراك المجيدة. وفي أعقاب الفتح المذكور الذي أرهب أوروبا وأخاف

ملوكها وحكامها حتى جزع منه البابا في روما، أقبل السلطان محمد الفاتح في بقية مدة حكمه على خوض سلسلة من المعارك المتصلة، بهدف تدعيم الموقف العسكري العثماني، وتقوية الدولة العثمانية، وفي أوروبا أخضع الإمارات اليونانية المستبدة كما أنه أدخل صربيا والبوسنة في حظيرة الدولة العثمانية، مباشرة وأحكامًا كما أنه مد نفوذه على العديد من الجزر اليونانية.

وفي الأناضول أخضع سينوب وقرمان وطرابيزون ولم يسع للزحف تجاه الشرق أبعد من هذا، ورفض رغبة رجاله في التوسع أبعد من ذلك؛ فقد كان يرى أن تحطيم الأسرة الإسلامية الحاكمة العريقة التي خدمت الدولة الإسلامية ليس من الأعمال الحسنة التي يشجعها، إنما كان هدفه الأساسي هو الجهاد في أوروبا لنشر الإسلام في ربوعها.

بايزيد الثاني:

وبعد وفاته -رحمه الله- سنة ست وثمانين وثمانمائة، بدأ الصراع على وراثة العرش بين ولديه، بايزيد وأخيه، وبعد صراع دام سبع سنوات انفرد بايزيد بالحكم، ولم تحدث فتوحات هامة في عهده حيث اتجه إلى الزهد، وإنشاء المزيد من المساجد والتكايا والزوايا، ولقبه الأتراك بلقب الولي.

سليم الأول:

وفي آخر عهد بايزيد الثاني أوصى بولاية العهد لابنه أحمد؛ لكن الابن الثاني الأصغر واسمه سليم ثار في وجهه أبيه وأخيه، وقام صراع مرير انتصر فيه سليم سنة ثماني عشرة وتسعمائة، ويقال: إنه دس السم لأبيه ليتخلص منه.

دخول العثمانيين الشام:

توجه العثمانيون بعد ذلك جهة الشرق، فبسطوا سلطانهم على مدن الشام واحدة تلو أخرى بفوز العثمانيين في معركة مرج دابق على المماليك، سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، أصبح من اليسير أمامهم أن يفتتحوا مدن الشام، ففتح سليم الأول حلب بدون قتال، وتمكن رجاله من دخول دمشق بعد ترحيب أهلها بالعثمانيين الذين قاموا بقتل نائبها المملوكي ورجاله شنقًا على أبواب المدينة. وهكذا تتابع سقوط مدن الشام في قبضة العثمانيين دون عناء يذكر، وعين السلطان سليم الأول على كل مدينة نائبًا عنه، كما نصب قاضيًا يسهر على تطبيق أحكام الشرع الشريف.

دخول العثمانيين مصر:

وقد كان السلطان سليم الأول يقدر أهمية فتح مصر، وأمام هذا بادر بمفاوضة طومان باي الذي تولى حكم المماليك بعد مقتل قانصوه الغوري في معركة مرج دابق، ويبدو أنه كان يأمل دخوله في طاعته سلمًا، فلما رفض طومان باي ذلك كان من الضروري أن يعيد سليم الأول النظر في مسألة فتح مصر، فتشاور مع قادة جيشه، فاستقر الرأي على توجيه حملة عسكرية لفتح مصر، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة.

وعند الريدانية التقى الجيش العثماني بالجيش المملوكي بقيادة طومان باي، فلم تستغرق المعركة وقتًا طويلًا حتى انكسر الجيش المملوكي، وقد حاول طومان باي الثبات لكنه اضطر في النهاية إلى الفرار، ودخل الجيش العثماني القاهرة، وقد حاول طومان باي المقاومة لانتزاع القاهرة من أيديهم، لكن محاولاته المتكررة

فشلت فقبض عليه، وشنق على "باب زويلة" أحد أبواب القاهرة، وذلك في ثلاثين من يناير سنة ألف وخمسمائة وسبعة عشرة، الموافق سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وبذا صارت مصر ولاية عثمانية.

دخول العثمانيين اليمن:

بعد ذلك توجه العثمانيون إلى اليمن، فأقر السلطان سليم الأول الحاكم المملوكي إسكندر الجركسي حاكمًا عليها، على أن تكون الخطبة باسم السلطان العثماني، واستمر الوضع في اليمن على ما هو عليه بقية فترة حكم السلطان سليم الأول، الذي توفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة.

سليمان القانوني:

ثم تولى ابنه سليمان العرش، وهو المعروف بسليمان القانوني الذي اهتم بشئون اليمن وباقي شبه الجزيرة العربية، وأرسل حملة عثمانية لليمن بقيادة سليمان باشا الخادم، تضم عددًا من السفن التي أنشئت في السويس، تمكنت من تهدئة الأوضاع في اليمن.

دخول العثمانيين العراق:

وما لبث السلطان سليمان القانوني أن حارب الدولة الصفوية التي كانت موجودة في العراق، وذلك لتمردهم ولتشيعهم، وانحاز للسلطان سليمان القانوني حامل بغداد لأنه سني، وذلك ليحمي نفسه وأتباعه من السنة بالعراق من ضغط الرافضة؛ فجهز الشاه الصفوي حملة ضده فأخضعه فهب السلطان سليمان القانوني ليدافع عن حليفه؛ فانتصر سليمان الثاني السني على الرافضة

الصفويين، وتقدم حتى وصل عاصمتهم تبريز ولكنه رجع اكتفاء بسيطرته على العراق، ولحدوث تمرد في جيشه، وكان فتح سليمان العراق سنة إحدى وأربعين وتسعمائة.

دخول العثمانيين شمال أفريقيا:

ثم دخل العثمانيون شمال أفريقيا؛ حيث كانت مضطربة بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها، فانتهز العثمانيون هذه الفرصة فتدخلوا في شئون هذه البلاد، واستولوا على الجزائر في عهد سليم الأول سنة أربع وعشرين وتسعمائة؛ ثم تولى خير الدين بربروسا على تونس باسم الباب العالي عام واحد وأربعين وتسعمائة، واستولى سنان باشا على طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا المالطيين، وذلك عام ثمان وخمسين وتسعمائة، وهكذا دخل الشمال الإفريقي تحت سلطة العثمانيين ما عدا المغرب الأقصى فكان مستقلًّا بعيدًا عن أيدي العثمانيين.

وبذا تكون الدولة العثمانية قد بلغت أقصى مداها؛ فإذا أردنا أن نتحدث عن حكم العثمانيين في البلاد العربية؛ فإننا نقول: إنها أدت إلى إنشاء وحدة سياسية متكاملة، ضمت معظم البلاد العربية في إطار تلك السيادة العثمانية.

فيمكن أن نقسم الحكم العثماني للدول العربية إلى عصرين أساسيين:

العصر العثماني الأول: يشمل الفترة من أوائل القرن السادس عشر الميلادي حتى أواخر لقرن الثامن عشر. واعتمدت فيه الدولة على العصبيات المحلية في بعض الولايات العربية، بشرط تقديم الولاء والتبعية وإرسال الأموال المقررة للباب العالي سنويًّا. وفي هذا العصر انعكست أحوال الدولة العثمانية وظروفها

السياسية على مدى سيطرتها على الولايات التابعة لها؛ ففي النصف الأخير من القرن السابع عشر، ظهر بوضوح علامات التدهور في البناء السياسي للدولة العثمانية.

كما أن من خصائص الحكم العثماني أبان تلك المرحلة: السطحية التي عرف بها، وعدم التدخل المباشر في شئون العصبيات المحلية الحاكمة في الولايات. وهناك عديد من العوامل التي دفعت تلك العصبيات المحلية خلال القرن الثامن عشر لأن تقوم بأدوار متفاوتة للتخلص من السيطرة العثمانية بشكل فعلي رغم انتمائها لدولة الخلافة.

العصر العثماني الثاني: فيشمل القرن التاسع عشر حتى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرين إلى ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين هجرية، ويتميز هذا العصر بظهور اتجاهات جديدة في الشرق العربي، منها حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، الذي ولد عام ألف ومائة وثمانية هجرية، وخلاصة مذهبه: أنه يقوم على التوحيد الخالص لله، أي: توحيد الربوبية توحيد الإلوهية توحيد الأسماء والصفات، وترك التوسل بالأنبياء والأولياء وترك تعظيم أماكن قبورهم، وترك بناء القبور في المساجد، وبناء القباب على القبور للتبرك بها، وجملة من العقائد الصحيحة التي أرادوا أن يزيلوا بها ما وقع في الجزيرة العربية من أوضار الشرك والبدعة ونحو ذلك. وكان ممن يحاربون تلك البدع التي انتشرت نتيجة الجهل وقلة العلم.

المهم أن الدعوة الوهابية قد عظم أمرها في مطلع القرن التاسع عشر بمعاونة محمد بن سعود أمير نجد؛ فاحتلوا مكة والمدينة سنة ألف ومائتين وثمان عشرة، وكونوا بذلك خطرًا على الدولة العثمانية فطلب العثمانيون من محمد علي والي مصر

القضاء عليهم ؛ فانتهزها فرصة سانحة ليتخلص من الجنود الألبان الذين كانوا يثيرون المتاعب، ويتمردون من حين لآخر ؛ فأعد حملة كبيرة ووضع على رأسها ابنه طوسون فلما تعثر في الانتصارات خرج محمد علي بنفسه ؛ فألحق بهم هزيمة شديدة ثم عاد، وعقد طوسون صلحًا معهم، ثم مات طوسون بعد عودته إلى مصر.

بدا لمحمد علي أن أهل نجد قد نقضوا ذلك الصلح ؛ فأرسل محمد علي ابنه إبراهيم الذي استطاع أن يدخل الدرعية عاصمة الدولة الوهابية، وأن يدمرها وكان ذلك سنة ألف ومائتين وأربع وثلاثين، وجاء أميرهم عبد الله وسلَّمَ نفسه فأرسله إبراهيم إلى الأستانة حيث أعدم هناك، ولعل المروءة كانت تقضي بأن لا يفعل ذلك.

وظهر في هذا العصر بوضوح بدايات الضغط الأوروبي على المنطقة العربية ؛ فكانت الحملة الفرنسية على مصر والشام عام ألف ومائتين وثلاث عشر من الهجرة لتفتح بذلك الطريق للاستعمار في المنطقة وقام بها نابليون بونابرت لقطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند، كان أثر الحملة الفرنسية ملموسًا في مصر أكثر من غيرها ؛ لأنها وجهت إليها أساسًا كما استقرت بها الحملة خلال فترة وجودها.

وقد حاول نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية أن يوسع النشاط الفرنسي في الشام ؛ فقام بحملة إلى هذا الإقليم، لكن الحملة لم تأت بالنتائج المرجوة بسبب الدعاية الإنجليزية ضد الفرنسيين ؛ فقد صورتهم الدعاية بأنهم يهاجمون الدولة العثمانية وأملاكها في العالم الإسلامي، فكانت النتيجة على غير ما خطط بونابرت حيث تأكد النفوذ الإنجليزي في الشرق العربي بشكل غير مباشر، خاصة

بعد أن استولت إنجلترا على جزيرة بريم في مدخل البحر الأحمر سنة تسع وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية.

وعقدت مع سلطان "لحج" عام اثنين وثمانمائة وألف ميلادية معاهدة، وكان ذلك أيضًا مع سلطان مسقط، وأعلن السلطان العثماني الحرب على الفرنسيين في مصر، ودعا إلى الجهاد الديني وعملت بريطانيا على إجبار الفرنسيين على مغادرة مصر والشام حيث حاصرت الحملة الفرنسية بعد أن حطمت الأسطول الفرنسي في أبي قير، واتخذت من عكا مركزًا للأسطول البريطاني في شرق البحر الأبيض المتوسط، ودخلت بريطانيا في علاقات مع زعماء المنطقة كان ذلك له أثر في حصر مجال الحملة الفرنسية وإضعافها وخروجها من مصر عام ست عشرة ومائتين وألف من الهجرة الموافق عام واحد وثمانمائة وألف ميلادية.

خصائص الحكم العثماني:

عاش الحكم العثماني مدة قرون متطاولة، وكان حكمًا عسكريًّا في الجملة.

وبعد أن تم فتح مصر عام ثلاث وعشرين وتسعمائة ترك السلطان العثماني سليم الأول حامية من العسكر فانقسمت إلى أربع فرق، كان لكل منها مهمة إلا أن المصادمات كانت تقع بين هذه الفرق كثيرًا، وكان هذا له أثره البالغ على كراهية الشعب لهذه الفرق العسكرية الحاكمة.

وصف الحكم العثماني أحيانًا بأنه كان سطحيًّا؛ حيث كانت سياسة العثمانيون تقوم على أساس الإفادة من العصبيات المحلية في حكم الولايات، وذلك في إطار الولاء للسلطان العثماني كما هو الحال في جبل لبنان، فقد حكم المعنيون ثم الشهابيون، هذا فيما عدا الولايات الهامة في مصر ودمشق وبغداد.

وكان مفهوم العثمانيين عن واجبات الحكم ضيقة، فالواجبات من وجهة نظرهم هي الدفاع عن الولايات، ضد أي خطر أجنبي يتهددها، وإقرار الأمن بالداخل وقت السلم، بالإضافة إلى تطبيق أحكام الشريعة في المعاملات وشئون الحياة المختلفة، ويقوم بهذه المهام القضاة ورجالهم المعينون من قبل الباب العالي بتركيا.

كما وصفت النظم والقوانين الخاصة بالدولة العثمانية بعدم القدرة على الابتكار والتجديد ووقوعها في أسر الجمود. وظلت القوانين التي وضعت في عهد قوة الدولة العثمانية ومجدها على عهد السلطان سليمان القانوني دون كبير تغيير، وإن كان هناك نظام قد طبق في الولايات يقضي بأن تتولى كل ولاية الإنفاق على احتياجاتها من مواردها الخاصة، مع تخصيص جانب من دخل الولاية يرسل كإرسالية إلى الباب العالي سنويًّا، وهو ما يسمى بالمال الميري، وذلك دون إرهاق لأهل الولاية بالضرائب الباهظة كما كان الحال في عصر الدولة المملوكية.

حضارة العثمانيين:

ولا شك أن الأتراك العثمانيين كانوا مزيجًا من عناصر متنوعة؛ فقد أخذ العثمانيون عن الفرس كثيرًا من الأفكار الأدبية، كما أخذوا منهم بعض الأفكار السياسية، وكان منهم من منحته بداوة آسيا الوسطى النزعة للحرب والفتح والقتال، ومنهم من قر في تلك الحواضر والمدن؛ فعاش وبدا اقتصاديًّا اجتماعيًّا مدنيًّا.

ويُشهد لهم بحبهم للإسلام، ومقاتلتهم في سبيله في كل ميدان، وأخذوا أيضًا الحروف العربية للكتابة فظلت شائعة بينهم حتى عام سبع وأربعين وثلاثمائة

وألف، وانتقل إليهم من اللغة العربية ألوف الاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية، لكن لم يمنع هذا من أن يكون للسلطان ذلك الطابع الاستبدادي الذي أظهر حكم الفرد من خلال مظاهر كثيرة للاستبداد، وكانت للسلطان ألقابه التي لعلها اكتملت أبان العهد القوي عهد سليمان القانوني.

الجيش:

واعتنى العثمانيون بالجيش عناية خاصة وأنشئوا ما يسمى بالإنكشارية وهي فرقة من المشاة قوية في تأسيسها، ترجع في تكوينها للسلطان أورخان، ولكن هذه الفرقة كما كانت ذات إيجابيات، قد وقعت منها بعض السلبيات، وعني العثمانيون الأتراك بالأسطول البحري فقد خاضت تركيا العثمانية غمار الحروب مع اليونانيين والبنادقة كان على الأسطول أن يلعب دورًا هامًا في هذه الحروب، كما كان عليه أن يلعب دورًا هامًا في ضم الشمال الإفريقي للدولة، وقد بلغت القوة العثمانية غايتها في أواخر القرن السادس عشر، واعتنى الأتراك العثمانيون بقضية الإسلام فعليه أسسوا دعوتهم ودولتهم.

وكانوا يتدينون بنصرة دين الله ﷻ وكانوا يعظمون أهل الدين، وقسموا الهيئة الإسلامية إلى ثلاث فئات هامة: فئة الإداريين الدينيين، وفئة المفتين، وفئة القضاة. فأما الفئة الأولى: فلم يكن لها كبير النفوذ كما لم يكن تعليمها عظيمًا، وهذه الفئة تنقسم إلى خمس طوائف: الشيوخ والوعاظ والخطباء والأئمة والمؤذنون، وكل هؤلاء لهم دور في المساجد، وإلى هؤلاء أيضًا ينتمي من يسمون بالدراويش وهم ليسوا أعضاء في هيئة علمية أو في هيئة علماء، وإنما طرق كثيرة وأشياء مبتدعة.

المفتون:

ثم جاء بعد ذلك: المُفتون، فكانوا يعينون في المدن الهامة في صحبة القاضي، وكانوا بمثابة المستشارين للسلاجقة.

القضاة:

ثم فئة القضاة: وكانوا يتولون المحاكم للنظر في جميع القضايا سواء كانت خاصة بالجرائم، أو القضايا المدنية، وكان فيهم قاضي القضاة، وكان يسمى بالتركية بقاضي عسكر، ومهامه هي الإشراف على أعمال القضاة في أقاليم الدولة العثمانية، وترشيح ما يشغل وظائف القضاء، وإعداد التقارير الخاصة بقضاة الأقاليم. وفي المرتبة الثانية كان يأتي قضاة التخت وهؤلاء يمثلون قضاة إسلامبول وضواحيها، ومهامهم مساعدة الصدر الأعظم، في نظر القضايا وحضور جلسات السلطان العثماني مرة كل أسبوع، وكان هناك من القضاة من يسمى قاض في مرتبة مول كبير ويقوم شيخ الإسلام بتعيينه هؤلاء، ثم يوافق الصدر الأعظم، ثم يصدر فرمان من السلطان العثماني بشغلهم لمناصبهم.

ومفتشو القضاء ومهامهم في الإشراف على الأوقاف السلطانية والإنفاق من إيرادات الأوقاف على المؤسسات الدينية والخيرية، ومنهم النواب ومهامهم مباشرة القضاء في المدن الصغيرة، أو القرى الكبيرة، أو القيام بوظيفة القاضي عند غيابه بسبب مرض أو إجازة، وكان التعاون بين الهيئة الإسلامية وأولي الأمر العثمانيين على أحسن وجه إلى بداية الخلل في الدولة والمجتمع، حتى بدأ التباين والتفاوت يحصل في هذه العلاقة، وتجدر الإشارة إلى مواقف أخرى للعلماء والمصلحين ألفوا كتبًا ودونوا تقارير للسلاطين والحكومة عما يجب فعله

تجاه ظاهرة الانحلال والتدهور، فمثلًا ألف "قوجي بك" كتاب (نصيحت نامه) وقدم تقريرًا للسلطان عثمان الثالث، قال فيه: "إن تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها بقوة وعزم هو العامل الأساسي في وقف تدهور الدولة، وحفظ الأمن ووقف التمردات والفوضى في البلاد، ومن ثم تستطيع الدولة التقاط أنفاسها لتتفرغ لإصلاح نفسها، وإن المسلمين إذا استجابوا لدواعي الشرع بقوة سيرجعون إلى عهد الفتوحات".

ضعف الدولة العثمانية:

بموت السلطان سليمان القانوني سنة أربع وسبعين وتسعمائة انتهى عهد السلاطين الأقوياء الأكفاء، وانتهى أيضًا عهد الفتوح، وتعرضت الدولة العثمانية لهزائم عسكرية برية وبحرية، وبدأت مظاهر الضعف تظهر منذ عام ألف إلى ألف واثنين، أي: في عهد السلطان مراد الثالث الذي وقع تحت تأثير رجال حاشيته، كما خضع لسيطرة أربع سيدات؛ هن: والدته وزوجتاه وكبيرة وصيفات السراي "كتخذا الحريم" وبدأت هذه الفئات في التدخل في شئون الدولة العامة وتدخلوا في توزيع الزعامات على أتباعهن مما أدى إلى إضعاف الإمبراطورية وإفلاسها، تجرأ أيضًا الإنكشارية على مهاجمة سراي السلطان؛ فقاموا بثورتين خلال الأعوام الأربعة التالية، نجحوا في كل منهما على إجبار السلطان على تغيير الصدر الأعظم.

ويعتبر عهد السلطان مراد الثالث نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية؛ إذ ظهرت بوادر الضعف في السلطنة نفسها، وترك السلاطين مسائل الدولة العليا في أيدي الوزراء الذين وصلوا إلى مناصبهم عن جدارة واستحقاق.

عوامل ضعف الدولة العثمانية:

(١) اصطدامها بدول كبيرة في الشرق والغرب، وهي الروس والألمان، والصفويون وفي المياه الشرقية واجه العثمانيون قوة البرتغال.

في القرن السادس عشر بدأت أوروبا تتوسع جنوبًا وشرقًا نحو أرض الإسلام، ومنيت الإمبراطورية العثمانية بهزائم كثيرة فقدت جزءًا كبيرًا من أراضيها وأخذت حدودها تتقلص، وفي خلال القرن السادس عشر توقف الزحف العثماني في أوروبا، كما طوقت حركة الكشوف الجغرافية التي قام بها الغرب عبر المحيطات تقدم الدولة العثمانية بشكل كبير، وبذلك تحولت منطقة شرقي البحر المتوسط -حيث تقع الدولة العثمانية- إلى منطقة بحرية غير ذات أهمية.

(٢) ما أحدثه التدفق الهائل والمفاجئ لمعدن الفضة والذهب الأمريكي الرخيص آثارًا مالية سيئة في الدولة العثمانية؛ إذ كان الحكام العثمانيون قد تعودوا على أزمات نقص العملة؛ فإنهم لم يستطيعوا فهم أو مواجهة الأزمات الناتجة عن زيادة معدن الفضة، فُشلت حركة السلع واستنزف الذهب من خزانة الإمبراطورية العثمانية.

(٣) المستوى التكنولوجي للزراعة في الدولة ظل بدائيًّا؛ فكانت التجارة في وضع أحسن من الزراعة، فنتيجة الفتوحات سيطر العثمانيون على كل سواحل المنطقة الشرقية للبحر المتوسط، واشتملت دولتهم على مراكز برية بالغة الأهمية، وهي التي كانت تمر بها طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، إلا أن الصورة العامة للتجارة كانت في حالة تدهور منذ نهاية القرن السادس عشر إلى القرن الثاني عشر.

(٤) البعد عن منهج الإسلام وجوهر الإيمان حيث ظهر الخلل في الدولة والمجتمع، بعد وفاة سليمان القانوني أيضًا، وظهرت بعض العلل المستحدثة في الإهمال في العدالة، وتفويض الأمور لغير أهلها وتوسيد الأمور لمن لا يقوم بحقها، ومكابرة أهل الحكم والإدارة بعدم الأخذ بمشورة العلماء والحكماء. وظهور الرشوة وظهور جيل جديد في المجتمع العثماني عرف بـ"دورلاله" أي: عصر الزهو مثل اهتمام المجتمع ورجال الدولة بالمظاهر المترفة في الحياة.

ومن مظاهر البعد عن منهج الإسلام وجوهر الإيمان: بزوغ وظهور النزعة الصوفية الخرافية في المجتمع العثماني، وانحسار الجهاد في سبيل الله، ثم إن الحركات الباطنية المتكررة لعبت دورًا في إضعاف هذه الدولة الإسلامية، التي بدأت بإنكار المعتقدات الإسلامية، وانتهت بأمور تخرج بهؤلاء عن الإسلام أصلًا وفرعًا، كذا عداء الدولة الصفوية الشيعية الرافضية في بلاد فارس للدولة العثمانية، ذلك كله قد أسهم في إضعاف الدولة العثمانية مع مرور الزمان، يتجلى ذلك في وجود بقايا لكل حركة باطنية، وإنهاك الصفويين للعثمانيين بالهجوم المتكرر.

(٥) الغزو الفكري؛ فقد مهدت العلاقات العثمانية الفرنسية الحسنة منذ أواخر عهد السلطان القانوني في القرن العاشر للتسرب التدريجي للمؤثرات الفرنسية بخاصة، والأوروبية بعامة في المجتمع المسلم العثماني. استغل الأوروبيون إهمال العثمانيين وترخصهم في نظام الامتيازات الأجنبية في التمكين للكنيسة والجمعيات، فأنشأت المدارس الأجنبية في الدولة العثمانية، وأصبحت من أهم أسلحة الغزو الفكري المنظم إلى جانب الاستشراق، وكان أكثر المدرسين في هذه المدارس من الرهبان الذين قاموا بدور التنصير أو التشكيك في الدين الإسلامي،

ولعبت هذه المدارس دورًا بارزًا في محاولة طمس الهوية الإسلامية ووصفها بالجمود والتأخر. وفي المقابل لعبت دورها في تمجيد الحضارة الغربية وإبعاد أجيال من المسلمين عن لغتهم وثقافتهم بتعلمهم اللغات الأجنبية المختلفة، وخاصة الفرنسية والإنجليزية ليتمكنوا من تمثل الفكر الأوروبي.

ومن الآثار الاجتماعية والسياسية لهذه المدارس والإرساليات: تغيير القيم الإسلامية، وإيقاظ الحركة القومية، وإثارة الفتن، وتشجيع الأقليات على التحلل والتخلص من الحكم العثماني، وفي داخل الولايات العربية حدثت حركات تحرر وتفتت داخل المجتمع الذي كانت تحكمه تركيا الإسلامية، فكان محمد علي والي مصر الذي قام بإصلاحات وحصل أبناؤه من بعده على اعتراف رسمي به من السلطان العثماني، مثال ذلك: الأسرتان اللتان حكمتا لبنان على التوالي وهم المعنيون والشهابيون وكذلك السيادة المؤقتة الذي فرضها كل من الشيخ ظاهر العمر في الجليل، والشيخ همام من قبيلة الهوارة في مصر العليا. وفي مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أضحى للقبائل البدوية نفوذ كبير، وكانت هذه مصدر خطر على طرق المواصلات، وعلى حياة الناس، كما كانت مركزًا للمؤامرات المملوكية ضد السلطة القائمة في القاهرة، فوجهت إليهم ضربات قاصمة من علي بك والحملة الفرنسية ومن محمد علي فيما بعد.

وفي شبه الجزيرة العربية كان -آل سعود- يكونون دولتهم الأولى بزعامة محمد بن سعود، وانعكست مظاهر الضعف في الدولة العثمانية على مجريات الأحداث في الشرق العربي بأسره؛ فانقسمت مجتمعات الشرق العربي إلى عصبيات وأحزاب، مثال ذلك النزاع بين القيسية واليمنية في الشام.

تاريخ الولايات العثمانية في آسيا، إبان القرنين السادس عشر، والسابع عشر قد استغرقه إلى حد كبير صراع على السلطة؛ كما شغلوا الجهود العربية لاستعادة

التوازن إلا أن التكوين الطبيعي للإمبراطورية العثمانية حال دون ممارسة السلطة المركزية بطريقة أكثر فاعلية.

ولا شك أن العالم الذي عاش فيه موظفو الإدارة العثمانية كان منقسمًا إلى قسمين: حكامًا ورعايا، كان هؤلاء الحكام وظيفتهم أن يحكموا، والرعايا وظيفتهم أن يحكموا، فالباشا الصالح في نظرهم هو الذي كان يرسل كل المبالغ العينية التي تطلبها خزانة السلطان، وكانت هذه أول خطوة نحو الرشوة، وتكوين ثروة كبيرة فساد الاستهتار والإقطاع، وشجع عجز الباشوات على الخروج على القانون، وحدث التمرد فانتشر بالتدرج واتسم هذا الخروج بألوان مختلفة من العنف ومن السيطرة المذلة لهؤلاء المغلوبين على أمرهم.

دور يهود الدونمة في انهيار الدولة العثمانية:

ولا شك أن عهودًا متتابعة شهدت محاولات للإصلاح؛ ففي عهد السلطان سليم الثالث بدأت حركة الإصلاح الحديث؛ لكنه اتجه للأخذ من ثمار الحضارة الغربية، وكان هذا من جهة أخرى معولًا من معاول التقليد والتبعية التي عملت في إحداث الخلل في الدولة العثمانية، ولا ننسى دور يهود الدونمة في انهيار هذه الدولة. ويهود الدونمة هم فئة من يهود ظهرت بالتحديد في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ فقد رحل السلاطين العثمانيون باليهود المنفيين والمهاجرين، وعاشوا في ولاية الدولة العثمانية وبالأخص في سالونيك اليونانية وإزميل، لعبت هذه الفئة -فئة يهود الدونمة- دورًا مؤثرًا في التطورات التي شهدتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، وكذا في الانقلاب الذي وقع سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف من الهجرة.

وتضافرت جهود الماسونية مع جهود اليهود لإسقاط الخلافة العثمانية، وأبدى السلطان عبد الحميد -رحمه الله تعالى- قوة وصلابة في وجه اليهود وفي وجه هؤلاء الماسونيين والصهاينة إلا أن الأمر كان قد فلت من يده، وخرج عن قدرته.

ثورة الاتحاد والترقي:

وبدأت ثورة الاتحاد والترقي في السابع عشر إلى الثالث والعشرين من يوليو سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف، وكانت بدايتها من سالونيك واشترك فيها الجيشان الثاني والثالث بخمسين ألف جندي، وتدفق الأهالي على سالونيك هاتفين بالحرية ومعلنين تضامنهم مع جمعية الاتحاد والترقي الذين أرسلوا برقية إلى السلطان عبد الحميد يطالبونه بإعلان الدستور في ظرف أربع وعشرين ساعة وإلا تحرك الجيشان لاحتلال العاصمة، وعلى هذا وافق السلطان عبد الحميد على مضض، ثم كان منهم إلا أن أخذوه فنفوه مباشرة إلى سالونيك، وذلك بعد عزله فجمعوا له بعد العزل السجن إمعانًا في إذلاله، والتخلص منه حيث كان يمثل الدولة الإسلامية أو الخلافة العثمانية، ونقل إلى هناك وكان يرافقه بعض حريمه وحاشية صغيرة وسجن في "فيلة الاتيني" وهي تخص أحد أصحاب البنوك اليهودية الأغنياء في جمعية الاتحاد والترقي. وبعد العزل هللت الصحف اليهودية في سالونيك للتخلص من مضطهد إسرائيل السلطان عبد الحميد رحمه الله تعالى.

اشتعلت واندلعت الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها عقدت الدولة العثمانية معاهدة صلح في أغسطس عام ألف وتسعمائة وعشرين، وبموجبها انتهى وجود الدولة العثمانية من الناحية الواقعية، باعتبارها دولة أوروبية إلا أنها لم تستبق

سوى مساحة من الأرض أقل مما كانت في أيدي الدولة البيزنطية في آخر عهدها. وأفضت شروط هذه المعاهدة إلى تقليص سيادة ما تبقى من الدولة العثمانية، وتنازلت الدولة عن أملاكها ولم يبق للأتراك سوى الأناضول ذي الطابع التركي المميز.

ثم جاء أتاتورك بخطواته المشئومة لإلغاء الخلافة الإسلامية؛ فلم يكن أتاتورك أكثر من صنم ركبه الإنجليز للقضاء على كل أحلام الأتراك المسلمين العظيمة، وللقضاء على كل الوشائج التي تربط تركيا بالعالم الإسلامي، ولإلغاء الخلافة الإسلامية، وهكذا حتى تتحقق لهم إيراداتهم المشئومة نحو العالم الإسلامي.

حاول أتاتورك الاقتراب بكل قوة من السلطان حميد الدين الذي خلف أخاه السلطان عبد الحميد الثاني، وقد عرض أتاتورك كل خدماته على السلطان الجديد، ويذهب أكثر المؤرخين إلى أن السلطان وثق به وأعطاه بعض الصلاحيات ومما قاله أتاتورك للسلطان: إن كلمة واحدة من جلالتك كافية لتقوية الحماسة الوطنية، فاجعلني وزيرًا للحربية في حكومة قوية، وأنا كفيل بإنقاذ تركيا لكن هذا البرلمان يجب أن يحل فإن نصف النواب خونة وأعضاء في جمعية الاتحاد والترقي، ونحو ذلك.

وهكذا -كما اعترف أتاتورك بلسانه هو- فإنه باع نفسه للسلطان، وإن كان السلطان قد رفض هذه الصفقة، كما أنه -أي أتاتورك- تنكر للجمعية التي ينتمي إليها ما دام في ذلك مكسب له، ووصم أعضاء البرلمان بالخيانة. وهكذا جعلت الأحداث تمضي وتتمكن الجيوش الإنجليزية من زحزحة الجيوش التركية إلى الشمال، وكانت لا تزال بعيدة عن الانتصار. هنا يتفق مصطفى كمال أتاتورك سرًّا مع القائد الإنجليزي "اللينبي" على القيام من جانب أتاتورك

بانسحاب فجائي يحرم الجيش التركي من ذراعي الاستناد، ويؤدي بذلك إلى وقوع الجيش في يد الأعداء، وهذه حادثة ثابتة تاريخية!!.

الدول الأوروبية واقتسام أملاك الخلافة الإسلامية:

ولم تكد الحرب العالمية الأولى توشك على الانتهاء، حتى كانت الدول الأوروبية قد أتمت المسرحية الهزلية لاقتسام أملاك الخلافة الإسلامية الأخيرة، ولإبراز رجل ينفذ مخططاتهم وأطماعهم بحذافيرها. وفي يوم سبع وعشرين وأكتوبر سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف، دعت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في لوزان لتقسيم أملاك الرجل المريض -أي: الدولة العثمانية في ظل زوال حكومة استانبول الإسلامية- وتنفيذ حكومة أنقرة الكمالية المنسوبة إلى مصطفى كمال، وافتتح المؤتمر في عشرين نوفمبر سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف، سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية واستمر منعقدًا حتى الرابع من فبراير، سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف حين باء بالفشل وظل الحوار مفقودًا في العلن، وإن كان يجري من خلف "الكواليس" إلى أن تقدمت حكومة أتاتورك بمقترحات ظاهرية. وإن كان الأمر قد عولج باطنًا فأعيد فتح المؤتمر في ثلاثة وعشرين إبريل من نفس العام حيث لم يستغرق الأمر طويلًا؛ فاتفق المؤتمر على توقيع معاهدة لوزان في أربع وعشرين من يوليو سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف، ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية، وتضمنت المعاهدة سبع عشر وثيقة، كما تضمنت بعض الرسائل المتبادلة وبعض الملاحق.

وكانت معظم المواد تنص على تجريد تركيا من كل أملاكها خارج حدودها الحالية بالمعنى القومي الإقليمي، وتنص على بعض الالتزامات المالية، وبعد الاتفاق

على البنود السرية والعلنية والتي منها إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيًّا من تركيا، وأن تقطع تركيا الصلة الرسمية بالإسلام، وأن تضمن تركيا شل حركة جميع العناصر الإسلامية فيها، بعد ذلك كله انسحبت قوات الحلفاء من تركيا، وبعد انتهاء احتلال استانبول دخلتها القوات التركية في أكتوبر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف.

وما هي إلا لحظات -أو قل إن شئت: أيام- ففي أول مارس سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف الموافق لسنة ألف وتسعمائة وأربع وعشرين ميلادية قرر أتاتورك خلع الخليفة عبد المجيد وإلغاء الخلافة العثمانية والإسلامية بالكامل ونهائيًّا، والقضاء على الدولة والخلافة العثمانية التركية. ونفى أفراد آل عثمان من الأراضي التركية، بعد أن قضى أتاتورك على أعدائه ومناوئيه من أمثال علي شكري زعيم المعارضة ضد إجراءات أتاتورك الاستبدادية، وأعدم البطل ضياء الدين خورشيد وطائفة من أولئك الباشوات الذين كانوا يعملون على المحافظة على السياسة والخلافة الإسلامية. وقضى على عشرات من شيوخ الطرق الصوفية، وعشرات العلماء وعشرات من العسكريين، ومئات من البسطاء قضى عليهم كلهم أتاتورك الذي لم يتحمل كلمة نقد ضد إجراءاته المدمرة.

ولا شك أن ضعف المستوى التعليمي، ومناهج التعليم، وأن التعصب المذهبي، وغلق باب الاجتهاد، كل ذلك أفضى إلى حصول حالة من الضعف والركود، مع ما اجتمع إليه من الغزو الفكري، واستيراد المبادئ والنظم، والتأثر بأوروبا، وما وقع أيضًا من نشاط تنصيري في العالم الإسلامي، وما يقع أيضًا من هذه الدولة في حربها لحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي، كان كل ذلك من معاول الضعف والهدم التي أفضت إلى انتهاء وزوال خلافة بني عثمان.

وبهذا كتبت شهادة وفاة دولة الخلافة العثمانية الإسلامية، التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعد للمسلمين خلافة؛ فانقسمت بلادهم وظهرت النعرات القومية وتصارع بعضهم مع بعض حتى وهن أمرهم، وضعف حالهم والله وحده المسئول والمستعان أن يعيد للإسلام دولته، وأن يرد إليه خلافته، إنه جواد كريم بر رءوف رحيم.

الدعوات الإسلامية المعاصرة (١)

أولًا: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

التعريف:

إننا حين نتحدّث عن الدعوات والجماعات الإسلامية السلفية المعاصرة، ينبغي أن نتحدث أول ما نتحدث عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السّلفية: هذه الدعوة التي نَادَى صاحبها، ومؤسّسها الأول -رحمه الله تعالى- إلى العودة إلى هدي السلف الصالح؛ عقيدةً، وشريعةً، وأخلاقًا، وسلوكًا.

وحين نذكر الحركات السلفية المعاصرة، فلا بد أن نذكر بحقّ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فهي رائدة هذه الحركات الإصلاحية المعاصرة، والتي ظهرت مبكّرًا في أوقات سَادَ فيها الجمود، ووقع فيها التخلّف في العالم الإسلامي. وهي حين انطلقت -أول ما انطلقت- انطلقتْ من بيئة وقع فيها كثير من الشركيّات، وغلبتْ عليها كثير من الانحرافات، وألّحت هذه الدعوة على تنقية العقيدة من شوائبها، وإصلاح الأخلاق، والسلوك، والعبادات؛ ممّا شابها من شوائب المخالفات.

فهي دعوة بالجملة لترسّم خُطَى السلف الصالح، والسير على منهجهم، وامتثال طريقتهم؛ عملًا بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

التأسيس وأبرز الشخصيات:

هذه الدعوة الإصلاحية كان مؤسّسها -رحمه الله تعالى- تميميًّا نجديًّا هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفّى سنة ستّ ومائتين وألف. وعليه فهو ممّن عاش في القرن الثاني عشر الهجري، وتوفّي في مطلع الثالث عشر الهجري.

ولد الشيخ -رحمه الله تعالى- ببلدة العُيَينة، وهي بلدة قريبة من الرياض، وتلقّى علومه الأولى على يدي والده، وعلماء أهل قريته وبلدته، حفظ كتاب الله تعالى مبكّرًا، وذهب إلى مكة حاجًّا، ودرس على علمائها، ثم سار إلى المدينة ليتزوّد بالعلم الشرعي، والتقى فيها بالشيخ محمد حَيَاةَ السِّنْدي -رحمه الله تعالى- وتأثر به تأثرًا عظيمًا، وتتلمذ على عدد من المشايخ في ذلك الوقت.

ارْتَحَل إلى العراق سنة ألف ومائة وست وثلاثين هجرية ليزور البصرة وبغداد والموصل، وكان يلتقي في كل مدينة بأكابر علمائها ومشايخها، عاد إلى الإحساء، ثم إلى قرية أو مدينة حريملاء؛ حيث انتقل إليها والده الذي كان يعمل قاضيًا. وفيها -أي: في حريملاء- بدأ ينشر الدعوة إلى التوحيد مجاهرًا بذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف.

تآمر عليه السفهاء الذين أغاظتهم هذه الدعوة إلى التوحيد فأرادوا قتله، فتوجّه إلى العُيَيْنة مرة أخرى عارضًا دعوته على أميرها عثمان بن معمر، الذي قام معه

فهدم القباب التي كانت على القبور، وأعانه على رجم الزانية التي جاءت معترفة بزناها، وأرسل أمير الإحساء وقتها عُرَيْعِر بن لجين إلى أمير العيينة رسالة يأمره فيها بقتل الشيخ -رحمه الله تعالى- كما تألّب عليه علماء السوء في ذلك الوقت، وأرسلوا إلى ابن معمر هذا يحثونه على إخراج الشيخ من بلده، ويشكّكونه في دعوته.

فخرج الشيخ من العُيينة وتوجّه إلى الدّرعية، والدّرعية أيضًا بليدة صغيرة كانت مقرّ إمارة آل سعود، نزل فيها ضيفًا على محمد بن سويلم ذلك عام ثمانٍ وخمسين ومائة وألف. كان الأمير محمد بن سعود الذي حكم خلال الفترة من عام ألف ومائة وتسعة وثلاثين إلى عام ألف ومائة وتسع وسبعين قد علم بمقدم الشيخ، فرحّب به وأحسن وفادته، وعاهده على حمايته، وتأييده، وجرى بينهما عهدٌ، أو حلف. كان هذا بمثابة إعلان لتأسيس الدولة السعودية على مذهب، ومنهج، وطريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى.

وبوفاة الأمير محمد بن سعود خلفه ابنه عبد العزيز بن محمد؛ ليتابع نصرة الدعوة مع الشيخ الذي قام -رحمه الله تعالى- على الدعوة خير قيام إلى أن لقي الله -تبارك وتعالى-.

وشيخنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- كانت له مصنّفات كثيرة من أهمّها (كتاب التوحيد) وهو كتاب تناول فيه -رحمه الله تعالى- ما أوجبه الله ﷻ على العبيد؛ من إفراده تعالى بالعبادة، والبراءة من الشرك، وأسبابه.

وكان الشيخ -رحمه الله تعالى- قد أكّد على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة في دعوته، وإحياء ما اندرس من مذهب أهل السنة والجماعة في الأصول والفروع على حدّ سواء. وإن كان الشيخ -رحمه الله- حنبلي المذهب في دراسته

إلا أنه لم يكن يلتزم المذهب في فتاواه، إذا ترجّح لديه الدليل فيما يخالف. وعليه فإن دعوة الشيخ -عليه رحمه الله- اتّسمت باتّباع الدليل وِفْقَ فهم السلف الصالح -رضوان الله تعالى عليهم. كما عُني الشيخ بتنقية مفهوم التوحيد، ومطالبة المسلمين بالرجوع إلى ما كان عليه الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- وعُني فيما عُني بتجريد مفهوم العبودية لله -تبارك وتعالى- وتصفية العقيدة من شوائب المخالفات.

وكان الشيخ -رحمه الله تعالى- ممّن يجاهد بنفسه؛ ليزيل مظاهر الشرك التي انحدر إليه الناس، ووقع فيها كثير من الخلق، كما وجّه عنايته إلى القضاء على البدع، والخرافات التي كانت منتشرة آنذاك بسبب كثير من الجهل، وعلماء السوء، والعياذ بالله.

حارب الشيخ التوسّل البدعي، وتصدّى لبدع القبور، ووقف في وجه الطرق الصوفية التي أدخلت على الدين أشياء لم يأمر بها الله -تبارك وتعالى- كما عُني بمحاربة الطاغوت أيّما عناية. فعند الشيخ أن الطاغوت ما تجاوز به العبد حدّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع، وأن رءوس الطواغيت خمسة إبليس لعنه الله، ومن عُبد من دون الله وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة الناس أو إلى عبادة نفسه، ومن ادّعى شيئًا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله، ولا يصير الإنسان مؤمنًا بالله إلا بعد أن يكفر بما عُبد من دون الله.

والشيخ أصل فيما أصل أن الشرك ينقسم إلى قسمين: أكبر: وهو شرك في العبادة، والقصد، والطاعة، والمحبة. وأصغر: وهو الرّياء وما يُفضي إلى الأكبر من الأسباب. كما تناول الشرك الخفي: وهو ما يقع فيه المسلم من غير أن يعلم، كما قال ﷺ: ((الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاف سوداء في ظلمة الليل)).

عَمِلَتْ هذه الدعوة المباركة على إيقاظ الأمة فكريًّا بعد أن رانت عليها سدف التخلف، والتقليد الأعمى، كما اعتنى الشيخ -رحمه الله- بتعليم العامة، وتثقيفهم، وتفتيح أذهان المثقفين، ولفت أنظارهم إلى البحث عن الدليل، ودعوتهم إلى التنقيب في بطون أمّهات الكتب، والمراجع قبل قبول أيّة فكرة؛ فضلًا عن تطبيقها.

هذه الدعوة السلفية المباركة استوعبت القاعدة العريضة من أهل نجد، وبلغت قمة السلطة مع الحكم السعودي في البلاد التي فُتحت من قبل آل سعود. ولا شكّ أن هذه الدعوة كانت لها بصمات، وكانت لها آثار بدت واضحة على حركات الإصلاح التي قامت في العالم الإسلامي بعد ذلك؛ سواء كان ذلك بطريق مباشرة، أو بطريق غير مباشرة. وشأن هذه الدعوة شأن جميع الدعوات الإصلاحية، تعرّضت لكثير من الطعن، وكثير من العداء، تحوّل العداء إلى أشكال مختلفة؛ فمن الهجوم العسكري المسلّح إلى تشويه السّمعة والصورة، إلى رمي هذه الدعوة بما هي منه براء.

المآخذ:

ودعوة الشيخ -رحمه الله تعالى- وإن كانت دعوة إلى الرجوع إلى عقيدة التوحيد الخالص، والتمسك بهدي السلف الصالح معتمدةً على الكتاب، والسنة، بفهم سلف الأمة، وفتح باب الاجتهاد بشروطه وضوابطه، وتنقية التوحيد ممّا شَابَهُ من الشركيّات، وسدّ الذرائع المفضية إلى المخالفات. فإن شيئًا من المآخذ قد أُخذ على بعض أتباع هذه الدعوة: من اتّصاف أحيانًا بالشّدّة عند إنكار المنكر، أو التركيز على بعض القضايا مع إغفال جوانب أخرى لا تقلّ أهمية عن تلك القضايا. وهذا بطبيعة زمن التأسيس، وحال النشأة، والظروف التي نشأت فيها

تلك الدعوة كان لا بد من وجود مثل هذه المواجهات، التي ربّما أفضتْ إلى شيءٍ من الشدة، أو الحدّة التي ما كانت لتظهر لولا وجود تلك المخالفات الظاهرة في عقيدة التوحيد إبّان فترة تأسيس هذه الدعوة السلفية المباركة.

وبالنظر إلى هذه الدعوة الإصلاحية، فإننا نرى أنها الوحيدة في العصر الحديث التي استطاعت أن تؤسّس دولة، وأن تكون هذه الدولة حاكمةً بالإسلام في تشريعاتها وحدودها، وما يتعلّق بسائر أمورها.

بهذا نكون قد أعطينا فكرة عن هذه الدعوة المباركة، دعوة التوحيد، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى. هذه الدعوة انطلق تلامذتُها في العالم الإسلام بِأَسْرِهِ، ورأينا بصماتها على كثير من جماعات ودعوات الإصلاح، التي سَرَتْ روحها في جسد العالم الإسلامي من بعد: جماعة أنصار السنة، وغيرها من الجماعات، وجماعة أهل الحديث.

ثانيًا: جماعة أهل الحديث:

التعريف:

هي أقدم الحركات الإسلامية في شبه القارة الهندية، و بالجملة قامت على اتّباع الكتاب والسنة، والدعوة إلى ذلك، وفهم ما ورد من كتاب ربنا، وسنة نبينا في ضوء ما فهمه الصحابة، والتابعون - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وقد تصدّتْ هذه الدعوة المباركة لأنواع وألوان من الشركيّات، والبدع، والخُرافات في شبه القارة الهندية. وهم في أصل منشئهم يرجعون إلى أولئك العلماء الذين تفقّهوا بأهل الحديث، من علماء أهل السنة والجماعة من تَلَامذة الحافظ ابن حجر، والإمام السخاوي، وغيرهما من علماء منهج أهل التحديث.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

وهذه الحركة المباركة في الحقيقة تشكّلت رسميًّا برئاسة شيخ الإسلام أبي الوفاء ثناء الله، المتوفى سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف هجرية، كان بداية تأسيس هذه الجمعية في عام أربع وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق عام ألف وتسعمائة وستة ميلادية.

تشكّلت هذه الجمعية لأهل الحديث؛ لتقوم على نشر الدعوة على منهج الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، ومقاومة الحركات الهدّامة، ومواجهة تحدّيات العصر، تحت اسم "مؤتمر أهل الحديث لعموم الهند". وقام شيخ الإسلام أبو الوفاء ثناء بقَمْع الفتنة القَدْيَانِيّة، وكانت له التصانيف الكثيرة في الدّفاع عن الإسلام، ومقاومة الهندوسية، والنصرانية، والرّدّ على منكري السنة، وغيرهم من فرق، وملل الضلال، بالإضافة إلى أنه كان يملك مساهمات فعّالة، وأدوار قوية في الحركة السياسية، والوطنية، والمؤتمر الوطني العام.

ولذا انتخب أمينًا عامًّا للجمعية، بالإضافة إلى عضويته في ندوة العلماء، وجمعية علماء الهند، وانتخب المحدّث العلامة عبد الله الغازيفوري سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف رئيسًا للجمعية، فغطّت جهودهما الهند بأسرها. وفي عام سبع وأربعين وتسعمائة وألف انقسمت شبه القارة الهندية إلى الهند، وباكستان؛ فضعفت حركة أهل الحديث لفترة ما. وفقدوا بسبب ذلك أكبر مؤسّسة تعليمية لهم، وهي دار الحديث الرحمانية بدهلي. فسارعوا إلى تشكيل الجمعية من جديد في كلتا الدولتين، فاستعادتا قوّتهما من بعد أن بدأ الوهن يتسرّب إليها.

أسّسوا الجامعات، والمعاهد، والمدارس لتلبية حاجات العصر وتدريس علوم الكتاب، والسنة. ومن أبرز تلك الجامعات في الهند الجامعة السلفية، وكان

موقعها ببنارس أكبر جامعة عربية إسلامية في الهند، تأسّست عام ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف، بالإضافة إلى الجامعة الرحمانية، والجامعة الأحمدية السلفية، وجامعة دار السلام، والجامعة السلفية بالقرية السلفية في كيرلا، والجامعة الإسلامية في بومباي، وجامعة ابن تيمية، وجامعة الإمام البخاري، إلى غير ذلك من المدارس السلفية المباركة.

أما في باكستان فإن الجامعة السلفية بفيصل آباد تُعَدّ أول وأكبر جامعة إسلامية، تأسّست في باكستان بعد الانفصال في شعبان سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف. الموافق لإبريل عام واحد وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، بالإضافة إلى الجامعات الأخرى مثل جامعة العلوم الأثرية، وجامعة أبو بكر الصديق بكراتشي، إلى آخر هذه الجامعات التي احتوت عددًا من المكتبات، التي حوت آلاف المخطوطات، ونوادر الكتب. وفي عام خمس وثمانين وتسعمائة وألف اتخذ قرار بإنشاء جمعية شبان أهل الحديث في باكستان، بالإضافة إلى جمعية طلبة أهل الحديث، ومن ثَمّ تَمّ تعميم الفكرة على باقي جمعيات في شبه القارة الهندية.

وفي أكتوبر عام ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف شاركت الجمعية في باكستان في الانتخابات النيابية، وفاز عدد من مرشحيها بمقاعد في البرلمان الباكستاني، وانتخب أمير الجماعة البروفيسور ساجد مير عضوًا بمجلس الشيوخ الباكستاني.

لا شك أن هذه الجماعة إنما هي امتداد لأولئك العلماء المحدّثين، الذين تخرّج على أيديهم عددٌ من أعلام السنة والدعوة في العصر الحديث، مثل الإمام عبد الله الغزنوي المتوفى سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين وألف، وشمس الحق العظيم آبادي المتوفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وألف، وهو مؤلف كتاب (عون المعبود شرح

سنن أبي داود) وكذا العلامة عبد الرحمن المباركفوري المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف، وهو صاحب (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي) والعلامة محمد بشير السهسواني المتوفى سنة ستٍّ وعشرين وثلاثمائة وألف، والذي عُني بالرّدّ على ما يُسمّى بالشيخ دحلان الذي حاول أن يردّ على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- فألّف كتابه (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان) إلى آخر هؤلاء العلماء المباركين.

ومن أشهر أولئك العلماء الذين كان لهم دور بارز في جماعة أهل الحديث في ترتيبها المعاصر الشيخ محمد بن داود الغزنوي، والذي توفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف، وهو من المؤسسين لجمعية أهل الحديث بباكستان، وكان أول رئيسٍ لها، وشارك العلامة محمد إسماعيل في تأسيس الجماعة السلفية بمدينة فيصل آباد، يحمد للشيخ مواقفه في إقامة النظام الإسلامي، وتطبيق الشريعة الإسلامية في باكستان، مع جهوده العلمية في الرّدّ على منكري السنة والقاديانية.

وأما العلامة محمد إسماعيل السلفي المولود عام ألف وثلاثمائة وأربعة عشر هجرية في قرية دهونكي، ونشأ في ظلّ أسرة متدينة، وطلب العلم في مراحل مبكرة على يد أبيه، ورحل في طلبه على يد أفاضل علماء عصره؛ فكان -رحمه الله- من الرّواد الأوائل الذين أسسوا جمعية أهل الحديث في باكستان، وكانت لجهوده الدعوية والسياسية الأثر البالغ على البلاد، فتولّى الخطابة، وترأّس هيئة التدريس، وعيّن مشرفًا على مقرّ جمعية تنظيم أهل الحديث بالبنجاب. ثم انتخب أمينًا عامًّا للجنة العمل لجمعية أهل الحديث بمؤتمر دهلي سنة ستٍّ وأربعين وتسعمائة وألف.

وكان الشيخ -رحمه الله تعالى- صاحب كتب ومؤلفات في الحديث، منها (شرح وترجمة مشكاة المصابيح) كان هذا باللغة الأردية. ومنهم أيضًا العلامة أبو عبد

الله محمد بن فضل الدين الجندلوي، الذي خلف الشيخ محمد إسماعيل، السلفي في رئاسة الجمعية.

وكذا الشيخ العلامة إحسان الهي ظهير، خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وصاحب المؤلفات الذّائعة الصّيت في الرّدّ على الرافضة، والصوفية، والبابية، والبهائية، والقاديانية. ومن أبرز الشخصيات الأخرى العلّامة المحدث أبو محمد بديع الدين شاه الراشدي السندي، أحد كبار علماء السنة في العصر الحاضر، وصاحب الأسانيد المتصلة إلى النبي ﷺ.

وفي الهند نرى الشيخ عبد الوهاب الأروي أول رئيس لجمعية الحديث بالهند بعد التشكيل الجديد، الشيخ عبد الجليل الرحماني المتوفى سنة ستٍّ وثمانين وتسعمائة وألف، وهو أمين عام وصاحب (تفسير القرآن بالأردو) بالإضافة إلى إصداره مجلة "مصباح الأردية".

وكذا الشيخ عبد الوحيد بن عبد الحق السلفي المتوفى سنة تسعٍ وثمانين وتسعمائة وألف، والذي تولّى خلفًا للشيخ عبد الحفيظ السلفي في رئاسة الجمعية. وتعتبر جمعية "ندوة المجاهدين" بولاية كيرلا -والممثّلة في الجمعية المركزية لأهل الحديث بأربعة أعضاء- من أنشط الجمعيات السلفية في شبه القارة الهندية، فهي تمتلك ما يربو على ثلاثمائة مسجد، وثلاث جامعات، وأربعمائة مدرسة إسلامية وعامة.

ولا شك أن محدّث الديار الهندية الشيخ عبيد الله الرحمن المباركفوري مؤلف (مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) من أكبر هؤلاء العلماء المعاصرين في هذه الجمعية المباركة.

وكما كان لهذه الجمعية وجود في باكستان والهند، فقد وجدت في كشمير كان الشيخ مولانا محمد حسين شاه تلميذ العلامة نذير حسين المحدّث الدهلوي،

ورفيق دربه الشيخ مولانا أنور شاه شوبياني -العالم الفرضي- كان لهم جميعًا أكبر الأثر في نشر دعوة أهل الحديث في كشمير.

كما وجدت هذه الحركة المباركة أيضًا في بنجلاديش على يد الشيخ نعمة الله البردواني، مؤسس ورئيس جمعية أهل الحديث في منطقة آسام، وذلك عام أربعة عشر وتسعمائة وألف. وهذا تولّى بعده الشيخ عباس علي صاحب (ترجمة معاني القرآن بالبنغالية)، و(الأمانة العامة)، وفي عهدهما نشطت الجمعية في الدعوة للكتاب والسنة، ومحاربة الشرك والبدع. وأصدرت العديد من المجلات والرسائل الأسبوعية، والشهرية.

وهذه الجماعة بالجملة جماعة سلفية عُنيت بالحديث وعلومه، واهتمّت بالتوحيد ومراعاة جوانبه، وحماية جنابه من ما يشوبه من شوائب المخالفات، والشركيّات التي وقعت في تلك الديار الهندية، لا سيما والديار الهندية ملآ بالكثير بالعقائد، والأفكار المخالفة للدين الإسلامي الحنيف.

كما عُنيت بالتركيز على قضية الاتّباع، وتقديم النقل على العقل، والتحذير من البدع، والحرص على القيام بواجب الجهاد على ما يأمر به الله ﷻ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله. كما عُنوا بمحاربة الفرق الضالة المنحرفة مثل الرافضة، والقاديانية، والبريلوية، والبابية، والبهائية، وغيرها، والتصدّي لحملات الأفكار الهدامة المعاصرة، المعادية للإسلام، مثل: العلمانية، والرأسمالية، والشيوعية، وغير ذلك، وكان هذا كله باتخاذ كافّة الوسائل المشروعة.

وجماعة أهل الحديث تُعنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن القيم، وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى. كما نشروا كُتب أعلام

الدعوة السلفية المعاصرين كالشيخ الألباني، والشيخ عبد العزيز بن باز -عليهما رحمه الله تعالى.

ثالثًا: جماعة أنصار السنة المحمدية:

التعريف:

جماعة أنصار السنة المحمدية جماعة إسلامية سلفية قامت في مصر أولًا، ثم انتشرت في غيرها للدعوة إلى الإسلام على أساس من التوحيد الخالص، والسنة الصحيحة؛ لتطهير الاعتقاد ونبذ البدع والخرافات كشرط لعودة الخلافة ونهضة الأمة الإسلامية.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

ومرّ تاريخ تأسيسها بمرحلتين:

الأولى: حين تأسست جماعة أنصار السنة عام خمس وأربعين وثلاثمائة وألف، عام ستٍّ وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية بمدينة القاهرة، على يد الشيخ محمد حامد الفقي -عليه رحمه الله- وبمشاركة مجموعة من إخوانه كالشيخ محمد عبد الوهاب البنّا، وطائفة من هؤلاء الطليعة الذين بدءوا هذه الدعوة.

الثانية: فكانت بعد إيقاف هذه الجماعة. وتُعَدّ هذه المرحلة مرحلة إعادة إشهار؛ حيث عاد الشيخ محمد عبد المجيد الشافعي، المعروف بالشيخ رشاد الشافعي، الذي تولّى الجماعة بعد حلّها، وإيقاف نشاطه، فأعاد -رحمه الله تعالى- إشهارها بعد أن كان قد جُمّد عملها في عهد الرئيس المصري عبد الناصر. وتَمّ له ذلك في عهد الرئيس الذي تلاه، وذلك في عام ألف وثلاثمائة وتسعين هجرية.

وبعد ثلاث سنوات من إعادة الإشهار أصدر العدد الأول من مجلة "التوحيد"؛ لتكون بديل عن مجلة "الهدي النبوي"، وتولّى هو رئاسة تحريرها.

ذكرنا أن الشيخ محمد الفقي الذي وُلد عام ألف وثلاثمائة وعشرة هجرية، هو الذي ابتدأ هذه الدعوة، وكان الشيخ -رحمه الله- قد نشأ في بيت علم ودين؛ فكان والده زميلًا في الدراسة للشيخ محمد عبده، وبدأ الشيخ محمد حامد الفقي دراسته الأزهرية، وما بلغ سنّ الثمانية عشرة حتى نبغ، والتفّ حوله أقرانه، واتخذوه شيخًا لهم. وفي عام سبعة عشر وتسعمائة وألف حصل الشيخ على شهادة العالمية من جامعة الأزهر، وانطلق بدعوته إلى التوحيد الخالص، والدفاع عن السنة من خلال مسجد شركس بالقاهرة، الذي تولّى إمامته، ثم بمسجد هدّارة الذي ظلّ إمامًا له، حتى توفي -رحمه الله تعالى.

وبدأ التفكير بجدية في إنشاء جمعية، أو دار تحمل فكرته، وتنشر مبادئه، فافتتح في ديسمبر عام ألف وتسعمائة ستّة وعشرين: "دار جماعة أنصار السنة المحمدية"، واختير الشيخ -رحمه الله- رئيسًا لها فأخذت الدعوة تنتشر.

ذهب الشيخ إلى الحجاز فاتصل بعلمائه، وعاش معهم لمدّة ثلاث سنوات، عاد بعدها ليدبّ النشاط في الجماعة مرة أخرى. وشارك الشيخ -رحمه الله تعالى- في إنشاء مطبعة السنة المحمدية؛ لنشر كتب السلف الصالح فجمع الشيخ -رحمه الله تعالى- كثيرًا من العلماء المعروفين في ذلك الوقت، وعطف قلوبهم على هذه الجماعة، وعلى المشاركة في مجلتها، وأسّس مجلة "الهدي النبوي"؛ حيث عبر معه فيها وكتب: الشيخ أحمد شاكر، والأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ محي الدين عبد الحميد، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، وغير هؤلاء، وكذا الشيخ عبد المجيد سليم -رحمهم الله تعالى- وكان الشيخ عبد المجيد مفتيًا

للديار المصرية، وشيخًا للأزهر، وهو من الذين أيّدوا دعوة الشيخ الفقي - عليهم جميعًا رحمة الله.

واشتدّ الصراع بين الجماعة وأصحاب الطرق الصوفية من ناحية، وبين الجماعة وأصحاب دعوات التغريب والعلمنة من ناحية أخرى، فعلا صوت الشيخ في الإنكار، وعلا لسانه وقلمه على واضعي القوانين الوضعية في ذلك التوقيت.

تتابعت علماء هذه الجماعة إلى أن انتهى الحال الآن إلى أن تولّى هذه الجماعة الشيخ الدكتور جمال الدين المراكبي، وينوبه فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله شاكر الجنيدي.

وهذه الجماعة المباركة امتدّت فروعها، وامتدت مسيرتها إلى أنحاء كثيرة؛ فكان في مسيرة هذه الجماعة عددٌ من العلماء المشهورين أمثال: الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، إمام الحرم المكي، ومؤسس ومدير "دار الحديث الخيرية" بمكة. والشيخ عبد الرزاق حمزة عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة. والشيخ أبو الوفا درويش رئيس فرع الجماعة بسوهاج. والشيخ الدكتور محمد خليل هراس أستاذ العقيدة بجامعتي الأزهر وأم القرى. والشيخ الدكتور محمد جميل غازي -رحمه الله تعالى- وكان رئيسًا عامًّا للجماعة في فترة سابقة.

وامتد رواق تأثير هذه الجماعة إلى السودان، وإلى أريتريا، وإلى تشاد، وإلى عدد كبير من البلاد الإفريقية، قامت الجماعة بدور بارز في فضح أفكار وعقائد غُلَاة الصوفية. وكان للجماعة حضورها وتفاعلها في الحياة العامة في مصر والسودان، وشاركت في المطالبة بدستور إسلامي في السودان، وفي الانتخابات النيابية دعمت المرشحين الإسلاميين.

تعتبر الجماعة من أوائل من نادى بالجهاد في الجنوب ضدّ عصابة الجنوب الخارجة على الوحدة القائمة على الأراضي السودانية.

واشتهرتْ الجماعة بإقامة حلقات الدعوة في كل مكان، في المساجد، والأسواق، والساحات العامة، وأماكن التجمع في المدن والقرى على حدّ سواء، وكان لها دورها في مقاومة التنصير في إفريقيا، وكان لها دور مشهور مذكور في كل تلك البلاد مثل: أرتيريا، وأثيوبيا، وتشاد، وأفريقيا الوسطى، بواسطة أولئك الطلاب الأفارقة الذين درسوا في الجامعات السودانية، أو في أثناء إقامتهم بالأراضي السودانية مرورًا بها إلى الأراضي الحجازية، في أداء فريضة الحج.

والجماعة تتسم بوضوح الرؤية، وسلامة التصوّر، وصحة المنهج. فهي جماعة تقوم على فهم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، وتعتقد عقيدة أهل السنة والجماعة، وتنأى عن البدع بجميع أشكالها، وتُجافيها، وتُحاربها، وهي جماعة تدعو إلى الإسلام: دينًا، ودولة، وعبادة، وحكمًا، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

وفي مجال الفكر السياسي للجماعة نرى الدكتور جمال المراكبي في كتاب "الخلافة الإسلامية بين نظم الحكم المعاصرة" يقول: "فالنظام السياسي الإسلامي ليس نظامًا ديمقراطيًّا بحال، وهو يختلف مع الديمقراطية في الأسس والمبادئ خلافًا غيرُ يسير".

تتركز جماعة أنصار السنة في مصر؛ حيث أصبح لها في مصر قرابة المائة من الفروع والألف من المساجد، كما لها وجود قوي واضح في السودان، وأرتيريا - كما ذكرنا- وليبريا، وتشاد، وأثيوبيا، وجنوب أفريقيا.

وكذلك بعض الدول الآسيوية مثل تايلند، وسيرلانكا، وفي كل دولة تقريبًا يوجد للجماعة مركز تتبعه فروع موزّعة على المناطق والأقاليم. ويتّضح من كل

ما سبق أن جماعة أنصار السنة المحمدية أحد الأعمال الجماعيّة المنظمة التي تقوم على العقيدة السلفية الصحيحة، وأنه يُحمد للجماعة سعيها للتعاون مع الدعوات السلفية الإصلاحية عامة، وأنها تتّصف بصفات طيبة مكّنت لها في بلاد مصر والبلاد الإفريقية.

رابعًا: الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر:

التعريف:

الجبهة الإسلامية للإنقاذ من جهة فهي سلفيّة، ومن جهة أخرى فإنها عُنِيَتْ بالشأن السياسي عناية ظاهرة. وهذه الحركة الشعبية إسلامية سلفية في جوهرها نادت من خلال أدبيّاتها، ورسائلها، وبياناتها التي صدرت من قادتها - منفردين، ومجتمعين- إلى ضرورة تحكيم الشريعة الإسلامية، وإصلاح العقيدة والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية، وتحسين الاقتصاد المنهار في الجزائر، والنضال على المستوى الفكري والاقتصادي.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

وهذه الحركة إنما تأتي بعد إرهاصات كانت قد سبقتها.

فإن الشعب الجزائري المسلم بعد احتلال دام مائة واثنتين وثلاثين سنة فإنه يحاول العودة إلى إسلامه، وعروبته، وكان هذا ظاهرًا في مواجهة تيّارات التغريب والفرنسة، التي كانت قائمة. وما يزال كثير من آثارها ماثلًا في البلاد الجزائرية، حَفَز ذلك ثُلّة من العلماء الذين آلمهم تردّي الأحوال إلى التحرك لإثارة الضمير الجزائري، والاتجاه نحو الإصلاح الديني، والسياسي، والاجتماعي.

ومن إرهاصات هذا التأسيس أن جبهة الإنقاذ الجزائري: هي ما يمثّل ثمرة، وبلورة ما يمكن أن يُعتبر رابطة نشأتْ في الجزائر للدعوة إلى الله. ذلك أنه في نهاية السبعينات بدأ الظهور للشباب في الجامعات الجزائرية، وكانت هذه الجماعات، أو المجموعات من الإخوان المسلمين؛ سواء منهم الدوليين أو المحليين بقيادة الشيخ محفوظ النحناح، أو بقيادة الشيخ عبد الله جاب الله، وجماعة الطلبة، أو جماعة مسجد الجامعة المركزي، وهؤلاء من أتباع المفكر الإسلامي مالك بن نبي، بقيادة الدكتور محمد بوجلخة، ثم الشيخ محمد السعيد.

ثم بعد سنوات يسيرة، وفي نوفمبر سنة اثنين وثمانين ميلادية اجتمع مجموعة من العلماء، منهم الشيخ أحمد سحنون، والشيخ أحمد سحنون أحد تلاميذ الإمام عبد الحميد بن باديس، ومعهم الشيخ عبد اللطيف سلطان، والدكتور عباسي مدني، فوجّهوا نداءً من أربعة عشر بندًا يُطالبون بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية، ويشجبون تعيين النساء والعناصر المشبوهة في القضاء، ويدعون إلى اعتماد توجه إسلامي اقتصادي، يرفضون الاختلاط السافر في المؤسسات، ويدينون في هذا الفساد، ويطالبون بإطلاق سراح بعض الذين اعتقلوا، ويندّدون بوجود عملاء، وأعداء للدين في أجهزة الدولة، إلى آخر ما ذكروا.

اجتمع هؤلاء ومنهم من شارك في حرب التحرير ضد الاستعمار، ودعوا بعد الاستقلال إلى تحكيم الشريعة الإسلامية، إلا أنهم واجهوا خصومة الدولة؛ فمنهم من اعتقل ووضع رهن الإقامة الجبرية كالشيخ أحمد سحنون -رحمه الله- ثم إنه خرج بعد ذلك في عام أربع وثمانين، ومن ثَمّ تأسست رابطة الدعوة سنة تسعٍ وثمانين وتسعمائة وألف، برياسة الشيخ أحمد سحنون، ذلك لأنه أكبر الأعضاء سنًّا؛ حيث كان عمره آنذاك ثلاثًا وثمانين عامًا، وكانت الرابطة مظلّة للتيارات الإسلامية بأسرها الإخوانية وغير الإخوانية منها.

ثم دارت حوارات عدّة في رابطة الدعوة كانت من نتيجتها بروز تيارات متعددة منها: دعوة الشيخ الشاب علي بلحاج إلى تشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة، إلا أن الدكتور الشيخ عباسي مدني اقترح لها اسمًا آخر، فسمّاها الجبهة الإسلامية للإنقاذ؛ معلّلًا التسمية بأن الجبهة تعني المجابهة، والاتساع بآراء متعددة، وهذه الجبهة جبهة إسلامية؛ لأنه السبيل الوحيد للإصلاح، والتغيير، والإنقاذ مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ورفض آخرون هذا التأسيس، وهذا التشكيل، فانفصل محفوظ النحناح بفكرة الحزب، أو فكرة حزب، أو حركة المجتمع الإسلامي، كما أسس عبد الله جاب الله حركة النهضة الإسلامية. وتمّ الإعلان الإسلامي عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ في مطلع عام تسع وثمانين وتسعمائة وألف، وتولّى القيام عليها عددٌ من الدعاة المستقلّين منهم الدكتور عباسي مدني، والشيخ علي بالحاج، تولى الشيخ عباسي مدني، أو الدكتور عباسي مدني، تولّى قيادة ورياسة الحركة، أو الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ونابه، أو صار نائبًا له الشيخ علي بلحاج.

وعباسي مدني وُلد سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف في جنوب شرقي الجزائر، ودرس في المدارس الفرنسية من صغره إبّان الاستعمار الفرنسي، ثم درس في مدارس جمعية العلماء، وتخرّج من كلية التربية، وانخرط في جهاد المستعمر الفرنسي، واعتقل، وقضى في السجن سبعة أعوام. وبعد الاستقلال، وبعد خروجه من السجن أرسلته الحكومة إلى لندن سنة خمس وسبعين؛ ليحصل على الدكتوراه في التربية المقارنة. عاد الدكتور عباسي مدني سنة ثمانية وسبعين، وقد حصل على الدكتوراه في التربية المقارنة، ثم عاد إلى الجزائر ليقوم بالتدريس في الجامعة.

ثم إنه شارك العلماء في النداء الذي وجّهوه إلى الحكومة سنة اثنتين وثمانين، يُطالبون بالإصلاح، وتطبيق الشريعة، شارك في الأحداث في العام نفسه، فاعتقل، وسجن، وشكل مع بعض العلماء رابطة الدعوة، ثم الجبهة الإسلامية للإنقاذ كما قدمنا.

أما الشيخ علي بلحاج فقد وُلد في تونس عام ستٍّ وخمسين وتسعمائة وألف، ثم استشهد والداه في الثورة ضدّ الاستعمار الفرنسي، درس العربية ودرّسها، وشارك في الدعوة منذ السبعينيات، وسجن خمس سنوات عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين إلى عام ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين بتهمة الاشتراك وتأييد حركة المصطفى بويعلى الجهادية.

وتأثر بعلماء الجزائر ومنهم عبد اللطيف سلطان، وأحمد سحنون، وانتمى إلى التيار الإسلامي السلفي، ولذا لم يتحمّس للثورة الإيرانية، وانتقد كتابات الخوميني، واعتبر تشيع بعض الجزائريين خطرًا على الدعوة الإسلامية يجب التصدّي له، وقد أحسن فيما قال. انتخب نائبًا للرئيس في الجبهة الإسلامية، واعتقل بعد المظاهرات التي قامت في الجزائر سنة ثمانٍ وثمانين.

ثم أُطلق سراحه، ثم اعتقل مرّة أخرى بعد الإضراب العام الذي دعت إليه الجبهة، جبهة الإنقاذ الجزائري. خاضت انتخابات البلدية في عام ألف وتسعمائة وتسعين، وحقّقت فوزًا ساحقًا، وبعد هذا الفوز بدأ الحزب الحاكم في الجزائر، وهو جبهة التحرير يشعر بالخطر القادم المتنامي، وبدأت حكومة الجزائر تضع العراقيل في طريق تقدم الجبهة، وأصدرت نظامًا جديدًا للانتخابات.

على إِثْره قامت مظاهرات كبيرة تُطالب بالإصلاح، انتهت بمصادمات دامية بعد أن قابلت الحكومة هذه المظاهرات بإطلاق النار، واعتقل على إِثْر ذلك عباسي

مدني، واعتقل معه نائبه بتهمة التآمر على أمن الدولة. وعلى الرغم من اعتقال زعماء الجبهة خاضت الجبهة الانتخابات التشريعية لاختيار مجلس الشعب في الجزائر، فحصلت على مائة وثمانية وثمانين مقعدًا من أصل مائتين وثمانية وعشرين في المرحلة الأولى؛ بينما لم يحصل الحزب الحاكم إلا على ستة عشر مقعدًا فقط. هذا يدل دلالة ظاهرة واضحة على أن الشعب الجزائري المسلم لا يقبل بغير الإسلام دينًا، ولا بغير الكتاب والسنة حُكمًا ودستورًا.

عُدّ فوز الجبهة في الانتخابات التشريعية خطرًا يهدّد الغرب كلّه، وبدأت المؤامرات تُحاك في الخفاء ضدّ الجبهة من قبل القوى الصليبية، وبدأت وسائل الإعلام في حملة تشويه مركّزة على جبهة الإنقاذ، وكان من أهم أهداف القوى المعادية للإسلام عدم إتمام المرحلة الثانية من الانتخابات. اعتقل الشيخ عبد القادر حشاني الرئيس المؤقت للجبهة في رجب عام ألف وأربعمائة واثنتي عشرة.

وكان ذلك بتهمة تحريض الجيش على التمرّد، ثم بدأت اعتقالات موسعة في الجبهة؛ حيث تَمّ اعتقال الآلاف، ومنها دخلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في محنة وصراع مع القوى المعادية للإسلام في الجزائر، وخارجه، وبرز في إحداث هذه المرحلة الشيخ رابح كبير رئيس اللجنة السياسية، والشيخ محمد السعيد، وغيرهما من وجوه هذه الجبهة الإسلامية السلفية للإنقاذ.

وإذا أرنا أن نُناقش أفكار ومعتقدات الجبهة، فإننا نرى أن الجبهة ترى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وتُؤكّد أن حركتها ودعوتها تنبع من الكتاب والسنة. فهي تنحى منحى السلف في العقيدة والتشريع والحكم؛ لذا فإن النموذج الفكري لهذه الجبهة هو النموذج السلفي في التاريخ الإسلامي.

قدمت الجبهة مذكرة إلى رئيس الجزائري في بداية تأسيسها، وتشكيلها، حوت جملة بنود من أهمها ضرورة التزام رئيس الدولة بتطبيق الشريعة الإسلامية ما دام أنه يحكم شعبًا مسلمًا، واستقلال القضاء بغرض الحسبة، وإصلاح النظام التعليمي، وحماية كرامة المرأة الجزائرية، ورعاية حقوقها في البيت، ومراكز العمل، وتحديد مجالات للإصلاح، ووضع جدول زمني لذلك، وحلّ الجمعية الوطنية، والدعوة إلى الانتخابات في غضون ثلاثة أشهر.

ووقف عُنف الدولة ضدّ المطالبة الشعبية، وحماية المهاجرين الجزائريين، وضمان التعليم الإسلامي لهم، وتسهيل شروط عودتهم إلى بنود كثيرة، ومن أهمّها، ومن جملتها وضع خطة لدعم الانتفاضة الفلسطينية، ونجدة المجاهدين الأفغان، وتتّضح الأفكار التي تمثّل هذه الجبهة من خلال فكر الزعيم، والمؤسس الدكتور عباسي مدني الذي وجّه أيضًا نداءً للشعب في نوفمبر سنة تسعٍ وثمانين وتسعمائة وألف، أكّد وشدّد على تلك الأفكار التي ذكرنا، وأضاف أهمية المطالبة بالاستقلال الثقافي، والتنديد بتزوير مفهوم الثقافة، وإدانة إفراغ التربية والثقافة من المضمون الإسلامي، وشجب استخدام الإعلام من قبل الدولة في مواجهة الصحوة الإسلامية، ومعاقبة المعتدين، والمتعدين على العقيدة وفق إحكام الشريعة الإسلامية.

كما طالب بالعمل على وحدة الصف الإسلامي، والمحافظة على وحدة الأمة قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وقال ﷺ: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا)) والإنقاذ الشامل أسوة بالنبي ﷺ منقذ البشرية لقوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقفت الجبهة في وجه المصالح الغربية عامة، والفرنسية خاصة، وهذه المصالح تتمثّل في:

١. إبعاد الإسلام عن السياسة تمامًا.

٢. وفتح الأسواق للبضائع الأوروبية والأمريكية فحسب.

٣. جرّ المجتمع الجزائري المسلم نحو التغريب والإبقاء على الثقافة الفرنسية، واللغة الفرنسية.

ومن هنا كان فوز الجبهة في المجالس التشريعية خطرًا حقيقيًّا من وجهة نظر الغرب، وصرّح السيد أحمد غزالي عندما واصلته نتائج الاقتراع: إن الشعب صوت ضد الديمقراطية، فكانت من نتيجة ذلك إلغاء الانتخابات؛ لأنهم يريدون ديمقراطية بدون إسلام، وتدخل الجيش أيضًا وفرض الارتداد عن نهج تسليم السلطة سلميًّا للطرف الذي فاز بالانتخابات، ومنع تشكيل جهاز جديد للحكم، وتشكيل سلطة مدعومة عسكريًّا.

وبدأ اعتقال هذه الجبهة، واعتقال عناصرها القيادية، والشبابية، وإيداع الكلّ في سجون نائية في قلب الصحراء، واستقال الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد بعد الفوز الساحق للجبهة، وتولّى الحكم من بعده الرئيس محمد بوضياف، الذي اغتيل فخلفه بعده عدد من القادة والساسة الجزائريين، إلى أن وصلنا إلى الحال الذي أطلق فيه سراح عباس مدني، وعلي بلحاج، ووصولًا إلى عهد عبد العزيز بوتفليقة.

الجذور الفكرية والعقائدية:

تُعَدّ آراء جمعية العلماء في الجزائر منذ ابن باديس، وحتى الإبراهيمي تحمل جذورًا فكرية سلفية، وهي التي مثّلت المصادر والروافد لجبهة الإنقاذ من حيث الرجوع إلى كتاب الله تعالى، وسنة السلف الصالح. وقد مثّل العمل الشعبي الذي

قامت به هذه الجماعة، مثّل نموذجًا جديدًا شعبيًّا فيه مواجهة الحكم بغير ما أنزل الله، ومواجهة الديمقراطية التي لا تقصد إلا إلى تنحية الإسلام، واستبداله بغيره.

ما يُؤخذ على هذه الجماعة:

الاستعجال، وتصعيد الخطاب، والمواجهة المتسرعة، واستعجال المراحل التي تُفضي إلى تغيير حقيقيّ. الأمر الذي سرّع بالمواجهة، وعجل بالمنازلة بين الدولة وبين هذه الطائفة المباركة، وما تزال الأيام حُبَالَى بأحداث تتوالى في بلاد الجزائر نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يصلح الحال، والبال في بلاد المسلمين جميعًا، إنه جوّاد كريم، برّ رءوف رحيم.

الدعوات الإسلامية المعاصرة (٢)

أولًا: جماعة الإخوان المسلمون:

ويدور الحديث في هذه النقطة حول جماعة الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية، وحركة الاتجاه الإسلامي بتونس، وحماس حركةُ المقاومة الإسلامية في فلسطين.

التعريف: لا شك أن الإخوان المسلمين هي كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

وقد أسس هذه الدعوة الشيخ حسن البنا -رحمه الله تعالى- والذي وُلد عام ألف وثلاثمائة وأربع وعشرين من الهجرة، وتوفي عام ألف وثلاثمائة وثمانية وستين من الهجرة.

ولد -رحمه الله تعالى- في إحدى قرى البحيرة بمصر، نشأ نشأة دينية في أسرة تركت بصماتها واضحةً على كل حياته، درس دراسة دينية، وتلقى بالمساجد والمدارس حتى التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة، وكانت وقتها مدرسة تسمى بمدرسة "دار العلوم". تخرج فيها عام سبع وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية، وعُين مدرسًا في إحدى مدارس الإسماعيلية الابتدائية. وهناك بدأ نشاطه الدعوي بين الناس، وكان ذلك أول الأمر في المقاهي وبين عمال قناة السويس، حتى إذا كان شهر ذي القعدة من نفس العام، تم تأسيس النواة الأولى للإخوان المسلمين.

في عام اثنين وثلاثين وتسعمائة وألف انتقل الشيخ حسن البنا -رحمه الله- إلى القاهرة، وانتقلت قيادة الحركة معه إليها. وفي عام اثنين وثلاثين تم إصدار جريدة "الإخوان المسلمون" الأسبوعية، واختير الشيخ محب الدين الخطيب الذي ولد عام ألف وثلاثمائة وثلاثة، وتوفي عام ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين هجرية، مديرًا لها، ثم صدرت بعد ذلك "النذير" ثم "الشهاب"، وتوالت المجلات والجرائد والصحف والمطبوعات الإخوانية في الصدور.

تكونت أول هيئة تأسيسية لحركة الإخوان المسلمين عام واحد وأربعين وتسعمائة وألف، وكانت من مائة عضو، اختارهم الشيخ حسن البنا بنفسه.

تأثرت دعوة حسن البنا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، كما تأثرت بالدعوة السنوسية، ودعوة السيد رشيد رضا، وأغلب هذه الدعوات كانت امتدادًا لمدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- وهي المستمدة من مدرسة الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى.

أخذ الإخوان عن التصوف ما فيه من دعوة إلى تربية النفس وتهذيبها، والرقي بها على ما كان عليه أوائل المتصوفة من صحة في العقيدة، وعدم استكانة أو

سلبية. ومن الواضح أن مفهوم حسن البنا للتصوف هو أنه موازٍ للزهد، وليس هو التصوف المنحرف عقائديًّا أو سلوكيًّا.

ما يُؤخذ على هذه الجماعة:

ولا شك أن حسن البنا -رحمه الله تعالى- وهو يعبر عن جماعته التي أسسها بقوله: "إنها حقيقة صوفية" يعبر بهذا التعبير الذي أخذ عليه، وانتُقد فيه أو بسببه، كما أن طائفة أخذوا على كثير من جماعة الإخوان المسلمين وقوعًا في بعض هذه المخالفات التي تنسب إلى الصوفية.

وقد أخذ على بعض أتباع الحركة الغلو في إعجابهم بالشيخ حسن البنا -رحمه الله تعالى. وربما أخذ عليه هو أيضًا بعض المآخذ التي تتعلق بالعقيدة وبالقضايا المنهجية، كما هو الحال في موقفه من تفويض الصفات. وأيضًا من اعتباره البدع الإضافية خلافًا فقهيًّا.

ومهما يكن من أمر فإن جماعة الإخوان حركة إسلامية معاصرة، هدفت فيما هدفت إليه إلى تحكيم الكتاب والسنة، وإلى تطبيق الشريعة في شَتَّى مناحي الحياة، كما أظهرت حزمًا أمام سياسة فصل الدين عن الدنيا، ووقوفًا في وجه المد العلماني، وعملًا لإعلاء كلمة الله تعالى في الأرض، وذلك من خلال حركة عالمية تكون من خلالها الشباب عبر هذه الدعوة لإصلاح النفس والبيئة والمجتمعات، وهذا يهدف في الأخير إلى إعادة الكيان للأمة الإسلامية في شكلها وبُعدها السياسي.

ولا شك أن مآخذ أخذت على هذه الجماعة فيما يتعلق بمنهجها، أو فيما يتعلق بسلوكيات بعض المنتسبين إليها.

وهي بكل حالٍ حركة بدأت في مصر، ثم انتقلت إلى معظم بلاد العالم بعد ذلك، ويكفي أنه قد بلغ عدد شُعب الإخوان في أواخر الأربعينيات في مصر ثلاثة آلاف شعبة، وقبل أن يتعرض الإخوان إلى مشاكلهم مع النظام المصري، فقد بلغ تَعدادهم في تلك الشعب نحوًا من ثلاثة ملايين مصري.

انتقلت الحركة -كما قدمنا- إلى الأقطار العربية، فصار لها وجود قوي في بلاد الشام من سوريا، وفلسطين، والأردن، ولبنان، والعراق، واليمن، والسودان، ودول الخليج، وغير ذلك من بُلدان العالم، بل لا يزال للإخوان وجودهم القوي في أمريكا وأوربا على حد سواء.

يذكر أن الإخوان شاركوا في حرب فلسطين عام ثمان وأربعين، ودخلوا بقوات خاصة بهم، وقد سجل ذلك بالتفصيل الأستاذ كامل الشريف -رحمه الله- وهو من قادة الإخوان المتطوعين، وهو وزير أردني سابق، وعمِلَ أمينًا عامًّا للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة.

وباغتيال النقراشي عام ثمان وأربعين واتهام الإخوان بقتله، فقد بدأت اللحظات الأخيرة في حياة حسن البنا -رحمه الله- الذي اغتيل فعلًا في الثاني عشر من فبراير سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف. وفي عام خمسين أفرج عن الجماعة بناءً على حكم مجلس الدولة الذي نص على أن أمر الحل -أي: حل جماعة الإخوان- هو أمر باطل من أساسه، وفي عام ألف وتسعمائة وخمسين اختير المستشار حسن الهضيبي مرشدًا للإخوان، كان واحدًا من كبار رجال القضاء المصري، وقد اعتقل عددًا من المرات، وصدر بحقه عام أربع وخمسين وتسعمائة وألف حكم بالإعدام، خفف بعد ذلك إلى المؤبد، ثم أفرج عنه سنة واحد وسبعين وتسعمائة وألف.

وفي شهر أكتوبر سنة واحد وخمسين وتسعمائة وألف، اشتدت الأزمة بين بريطانيا ومصر، فشن الإخوان حربَ عصابات ضد الإنجليز في قناة السويس، وقد سجلها أيضًا الأستاذ كامل الشريف -رحمه الله- في كتاب آخر بعنوان (المقاومة السرية في قناة السويس).

في ٢٣ يوليو سنة اثنين وخمسين وتسعمائة وألف، قامت مجموعة من الضباط المصريين بزعامة اللواء محمد نجيب بثورة، آزرهم فيها الإخوانُ الذين رفضوا الاشتراك في الحكم بعد ذلك؛ إذ كان لهم رأي في مِنهاج الثورة، اعتبر جمال عبد الناصر هذا الرفض نوعًا من فرض الوصاية على الثورة، ثم دخل الطرفان في سلسلة من الجدل والخصومة، تطورت حتى قامت الحكومة سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف باعتقال الإخوان، وتشريد الألوف منهم، بحجة أنهم حاولوا الاعتداء على حياة عبد الناصر في مَيْدان المنشية بالإسكندرية، وأعدمت ستة من خيارهم، هم الشيخ عبد القادر عودة -رحمه الله- ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وهنداوي دوير، وإبراهيم الطيب، ومحمود عبد اللطيف.

وفي عام خمس وستين وتسعمائة وألف، تكرر اعتقالهم مرةً أخرى بتهمة تشكيل جهاز سري يهدف إلى قلب نظام الحكم، وقامت الحكومة بشن حملات السجن والتعذيب، وقد أعدمت في هذه المرة ثلاثة من أعضاء الجماعة، هم سيد قطب الذي يعد المفكر الثاني في الجماعة بعد البنا، ويوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل. وبقيت الجماعة تعمل بشكل سري حتى وفاة عبد الناصر سنة سبعين.

وفي عهد السادات تم الإفراج عمن سجنهم عبد الناصر على مراحل، وجاء عمر التلمساني مرشدًا عامًّا بعد الهُضيبي، وطالبت قيادة الإخوان في عهده بحقوق الجماعة كاملةً، وعودة جميع ممتلكاتها المصادرة في عهد عبد الناصر، وسلك

التلمساني طريقًا يجنب الإخوان المصادمات مع الحكومات، وكرر دائمًا أن الدعوة ينبغي أن تعمل بالحكمة، وأن تنبذ التطرف.

أصدرت الجماعة مجلات وصحفًا كثيرة، من آخرها "لواء الإسلام"، وقد أوقف صدور هذه الدوريات حاليًا عَدَا هذه المجلة الأخيرة.

خلف الأستاذ التلمساني الأستاذ محمد حامد أبو النصر، ثم كان من بعده الأستاذ مصطفى مشهور، ولا تزال هذه الجماعة يتعاقب على قيادتها عدد من هؤلاء الرعيل الأول، وانتهى الأمر الآن إلى الأستاذ محمد مهدي عاكف، مرشدًا عامًّا للإخوان.

يذكر أن الإخوان كان لهم شخصيات كبيرة خارج مصر، كالشيخ محمد محمود الصواف الذي كان مؤسسًا ومراقبًا عامًّا للإخوان المسلمين في العراق، والدكتور مصطفى السباعي أول مراقب عام للإخوان في سوريا. كما تأسست جماعة الإخوان في الأردن في رمضان سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف، وكان أول رئيس لها الشيخ عبد اللطيف أبو قورة، ومن بعده انتخب الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة مراقبًا عامًّا لهم بالأردن، ولا يزال -كما قلنا- لهذه الجماعة هذا الوجود الفاعل والمؤثر في كثير من بلاد المسلمين.

حرص الإخوان منذ نشأة الجماعة على توسيع دائرة عملهم؛ حتى تكون حركتهم عالمية النطاق، ويضمن لها الاستمرار بحكم تعدد المراكز. ولذا قال حسن البنا -رحمه الله- عن هذه الدعوة: "إن الإخوان المسلمين دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية وثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية" وهو بهذا الشمول والاتساع يؤكد عمق واتساع نظرته لقضية الدعوة. وقد رأى البعض في هذا شيئًا من التوسع الذي يخرج عن مقصود الدعوة، أو الذي يجعل الجماعة تجمع في ثنياتها بين المتضادات أو المتنافرات من الاهتمامات.

يؤكد البنا أن سمات حركة الإخوان هي البُعد عن مواطن الخلاف، وعن هيمنة الأعيان والكبراء، وعن الأحزاب والهيئات مع عناية بالتكوين والتدرج في الخطوات، ويذكر أن أخص خصائص دعوة الإخوان أنها ربانية، عالمية، إسلامية، ويقرر أن العمل المطلوب من المنتمي إلى هذه الفكرة هو أن يصلح نفسه، وأن يُكَوِّن البيت المسلم، وأن يرشد المجتمع، وأن يحرر الوطن، وأن يصلح الحكومة، وأن يعيد الكيان الدولي للأمة الإسلامية، وأن يصل إلى أستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه. فهو يقسم مراحلَ الدعوة إلى ثلاث: التعريف، التكوين، التنفيذ.

وقد سعت الجماعة للسيطرة على النقابات المهنية، وبَدا هذا واضحًا ظاهرًا في الساحات السياسية المختلفة، ولأن الحكومة المصرية لا تسمح بقيام أحزاب على أسس دينية، بحجة عدم إقحام الدين في السياسة، ولوجود أقليات غير مسلمة، مما يحرم الإخوان من الوجود الشرعي المعترف به، فقد اضطرهم ذلك للتحالف مع أحزاب المعارضة السياسية القائمة، وتشكيل تحالف يسمح لهم بدخول مجلس الشعب المصري، وهذا مما أثار على منهجهم كثيرًا من التساؤلات والغبار، بل وجهت إليهم نقوض كثيرة، وطعون عديدة من معارضي مثل هذه الممارسات التي لم توصف بالانضباط الشرعي.

والخلاصة:

فإن الإخوان المسلمين حركة إسلامية معاصرة، تعد أكبر الحركات الإسلامية الدعوية المعاصرة، هدفت إلى تحكيم كتاب الله وسنة نبيه، وتطبيق شريعة الله في شتى مناحي الحياة، وحققت من ذلك ما حققت، واكتسبت من المكتسبات شيئًا

كثيرًا، وأُخذ على هذه الحركة أو هذه الحركات المتعددة والمتفاوتة للإخوان في مختلف الأقطار والبلدان، بعض المآخذ فيما يتعلق بالمنهج أو سلوكيات بعض المنتسبين إليها.

ثانيًا: الجماعات المتأثرة بجماعة الإخوان المسلمون:

أ- الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية:

التعريف:

هي جماعة إسلامية معاصرة، كرَّست جهودها في سبيل إقرار الشريعة الإسلامية، وتطبيقها في حياة الناس، والوقوف بحزم ضد جميع أشكال الاتجاهات العلمانية التي حاولت السيطرة على المنطقة.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

أسسها أبو الأعلى المودودي المولود سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف، والمتوفى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وألف.

بدأ حياته الدعوية بالدخول إلى ميدان الصحافة عام ثمانية عشرة وتسعمائة وألف. وفي عام عشرين وتسعمائة وألف كون جبهة صحفية هدفها تبليغ الإسلام. وقد تنقل في عدد من الصحف كاتبًا ومديرًا ورئيسًا.

الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية الباكستانية جماعة قامت على معتقد صحيح، وكان لها دور بناء في الهند وباكستان وبنجلاديش. تولى المودودي -رحمه الله تعالى- رئاسة هذه الجماعة، وكان ذلك عام واحد وأربعين وتسعمائة

وألف. وفي عام اثنين وسبعين وتسعمائة وألف، أعفي المودودي من منصبه كأمير للجماعة، بناءً على طلبه لاعتلال صحته، فانصرف إلى البحث والكتابة، عاكفًا على إكمال كتابه (تفهيم القرآن) واختير ميام طفيل محمد أميرًا للجماعة بعده، منحت جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام للمودودي، وكانت الجائزةَ في سبعة وعشرين فبراير سنة تسع وسبعين وتسعمائة وألف. وقد تبرع -رحمه الله- بقيمة الجائزة؛ لإنشاء مجمع المعارف الإسلامية بـ"لاهور".

انتقل المودودي إلى رحمة الله تعالى سنة ألف وتسعمائة وتسع وسبعين ميلادية الموافق عام تسع وتسعين وثلاثمائة وألف هجرية، حيث أجريت له جراحة في أمريكا، وعلى إثرها تُوفي، فنقل جثمانه إلى "لاهور" مشيعًا برثاء العالم الإسلامي له. وخلّف وراءه دعوةً ورجالًا، ومكتبةً عامرةً من تأليفه، تُرجمت إلى لغات كثيرة، وطبعت عددًا من المرات.

أهداف الجماعة:

تلخصت في التأكيد على أن الإسلام هو النظام الشامل للبشرية كافةً وللمسلمين خاصة، والدعوة لكل مَن أظهر الإسلام أن يخلصوا دينهم لله، وأن يزكوا أنفسهم، والدعوة لكل أهل الأرض أن يستخلصوا الحكم الحاضر من الطواغيت المستبدة، ومن الفجرة الفسدة، وأن ينتزعوا الإمامةَ الفكرية والعلمية من أيديهم، وأن ينقلوها إلى أيدي المؤمنين المسلمين.

وركز المودودي جهاده ضد أربع جهات:

- ضد النظرية القومية الواحدة داخل الهند.
- ضد سيطرة وتحكم الحضارة الغربية.

- ضد القيادات التي تحمل أفكارًا تتعارض مع الفكر الإسلامي الصحيح.
- ضد الأفكار التي تحمل طابعَ الجمود الديني.

وعملت الجماعة في عهده وما بعده من العهود على إيجاد حركة طلابية إسلامية منظمة عرفت باسم "إسلام جمعية الطلبة" وهي جمعية مستقلة في نشاطاتها وإداراتها، ووقفت إلى جانب اللاجئين والمجاهدين الأفغان؛ إذ قدمت لهم المخيمات والمستشفيات وساندتهم، وما يزال هذا الأمر هو الشغل الشاغل للجماعة في الباكستان في مرحلة ما بعد الحرب.

ولا شك أن أبا الأعلى المودودي -رحمه الله- ابتدأ دعوته من كتاب الله وسنة نبيه، وتأثرت دعوته أيضًا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ إذ كان شديد الإلحاح على تنقية العقيدة من شوائب المخالفات. ولا يعني هذا أنه لم يتأثر بالفيلسوف الإسلامي "محمد إقبال" الذي تغنَّى بفكرة انفصال الباكستان المسلمة عن الهند الوثنية، وكان شديد الإعجاب به، وقد التقيَا ثلاث مرات فقط، كانت أفكارهما خلال ذلك متقاربة إلى أبعد الحدود.

لا شك أن هناك عملية تأثر وتأثير بين دعوة الإخوان المسلمين ودعوة الجماعة الإسلامية هذه، وكتب كل منهما تدرس في مناهج الأخرى، وقد وجد حسن البنا في كتاب (الجهاد في الإسلام) الذي ألفه المودودي، تطابقًا بينه وبين أفكاره التي يحملها عن الجهاد، فأَبْدَى إعجابه به.

تتركز الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية الباكستانية، ومركزها الرئيس هو مدينة "لاهور"، ولا شك أن لأفراد الجماعة قياداتٍ متعددة في كل من بنجلاديش، والهند، وسريلانكا، وكشمير، إلا أنها جميعًا ذات اتجاه وفكر واحد لا يختلف من منطقة إلى أخرى، وقد وجه نقاد الجماعة الإسلامية

للمودودي -رحمه الله- وللجماعة من بعده بعض النقد الذي قد لا يخلو من وجاهة أحيانًا.

ب- حركة الاتجاه الإسلامي بتونس، حزب النهضة:

التعريف:

حزب النهضة التونسي حركة إسلامية قامت على منهج وفكر الإخوان المسلمين، وقد ظهرت كَرَد فعل شعبي ضد التطرف العلماني المتمثل في الاستهتار بالإسلام وقيمه وأحكامه.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

وقد تأسس هذا الاتجاه عام تسع وستين وتسعمائة وألف بعد سلسلة من الأحداث، كان هدفها محو الشخصية الإسلامية لتونس، وقد أسس هذا الاتجاه الدكتور راشد الغنوشي المولود في مدينة "الحامة" بولاية "قابس" بالجنوب الشرقي لتونس، سنة تسع وثلاثين وتسعمائة وألف، قد درس في دمشق، وأتم دراسته العليا في فرنسا، اعتقل مرات كثيرة في أواخر السبعينيات، وحوكم في صيف عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف، وحكم عليه بعشر سنوات سجنًا، ثم أطلق سراحه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وألف، ثم أفرج عنه، وأعيد اعتقاله في مارس سبعة وثمانين، وعندما أفرج عنه خرج من البلاد ليعيش في الخارج.

ومن مؤسسي هذه الحركة: الشيخ عبد الفتاح مورو، وهو الأمين العام لهذه الحركة، وقد ولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف في تونس، والتقى مع راشد الغنوشي سنة تسع وستين وتسعمائة وألف، وتعاهدا على العمل والدعوة للإسلام، وقد تأثرا -كما قدمنا- بفكر الإخوان، وبفكر سيد قطب خاصةً.

من أهداف هذه الحركة:

بعث الشخصية الإسلامية لتونس حتى تستعيد مهمتها كقاعدة كبرى للحضارة الإسلامية بأفريقيا، وتجديد الفكر الإسلامي على ضَوْء أصول الإسلام الثابتة ومقتضيات الحياة المتطورة، واستعادة الجماهير لِحَقِّها المشروع في تقرير مصيرها، بعيدًا عن كل وصاية داخلية أو هيمنة خارجية، وإعادة بناء الحياة الاقتصادية على أسس إنسانية، وتوزيع الثروة بالبلاد توزيعًا عادلًا على ضوء المبدأ الإسلامي: الرجل وبلاؤه، والرجل وحاجته. واتخذت هذه الحركة وسائلَ لتحقيق هذه المهام، فكانت لها هذه المناشط الفكرية والثقافية، والمشاركات الصحفية، والمحاولات السياسية، ومنها: التقدم بطلب رسمي للترخيص القانوني بقيام الحزب.

وفي سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف، فتحت أبواب السجون لرجال هذه الحركة، وصدرت أحكام بسجن ما يقرب من مائتي شخص منهم بتهم ملفقة، وفي سنة ست وثمانين أعلن "بورقيبة" أنه سيُكرس العشر سنوات القادمة من حياته لمحاربة المد الإسلامي والاتجاه الإسلامي، ولذا أعاد في سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف رجالَ هذه الحركة إلى السجون التونسية من جديد. في نفس هذه السنة سقط "بورقيبة" ومات سياسيًّا على يد حركة الاتجاه الإسلامي. وجاء ابن علي خليفة "بورقيبة" فاستبشر به المسلمون خيرًا، إلا أنه لم يخالف سياسة "بورقيبة" بعد ذلك كثيرًا.

ما يؤخذ على هذه الحركة:

كما أخذ على هذه الحركة أنها تأثرت بمدرسة الإخوان، فقد أخذ عليها أيضًا أنها تأثرت بمنهج المدرسة العقلية الاعتزالية في التاريخ الإسلامي وفي العقيدة الإسلامية.

جـ- حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين "حماس":

التعريف:

حماس: حركة إسلامية جهادية فلسطينية باسلة، نشأت في مدينة غزة بفلسطين، ثم انتشرت في كافة أرجاء الأرض المحتلة المباركة، وكما جاء في ميثاق هذه الحركة الذي أصدر في محرم سنة ألف وأربعمائة وتسع، فإنها تعد جناحًا من أجنحة الإخوان المسلمين بفلسطين.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

أعلنت حماس في بيانها الأول الذي صدر في ديسمبر سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف، بأنها الذراع الضارب لجماعة الإخوان المسلمين في فلسطين المحتلة، وهددت العدو اليهودي بأنها ستقابله بعنف كلما اشتد عنفه أيضًا، مؤكدةً أن الإسلام هو الحل العملي لقضية فلسطين.

ومن أكبر أعمال هذه الحركة الباسلة هو تفجيرها لهذه الانتفاضة المباركة، والتي أطلق عليها "ثورة الحجارة" في ديسمبر سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف. وقدمت في هذا الطريق آلافَ الشهداء والسجناء، ولا زالت تقدم وهي في طريقها هذا لا تلوي على شيء حتى يتحقق لها موعود الله ﷻ بالنصر أو بالشهادة.

مؤسس هذه الحركة هو الشيخ أحمد ياسين -رحمه الله تعالى- ذلك الرجل المقعد الذي قَبض عليه اليهود عام أربع وثمانين في غزة؛ لوجود أسلحة في منزله كانت معدة للمواجهة العسكرية مع الصهاينة، فحكم عليه بالسجن عدة سنوات، ثم إنه أخرج ليلقى بعد ذلك مقتله ومصرعه على أيدي هؤلاء الصهاينة المجرمين.

الأفكار والمعتقدات:

تقوم أفكار ومعتقدات حماس -كما يظهر هذا في ميثاقها الأول الذي أعلنته كما قدمنا في المحرم سنة ألف وأربعمائة وتسع- على اعتماد الإسلام منهجًا تستمد منه أفكارها ومفاهيمها، وتصوراتها عن الكون والحياة، وهذه الحركة حركة تلتزم -كما في هذا الميثاق- بسماحة الإسلام، وترى أنه في ظل الإسلام يمكن أن يتعايش أتباع الديانات جميعًا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحقوقهم، وأن أرض فلسطين وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، لا يجوز التفريط فيها أو في جزء منها، أو التنازل عنها أو التنازل عن جزء منها، وأن جهاد اليهود في فلسطين فرض عين على كل مسلم ومسلمة، تخرج المرأة للقتال بغير إذن زوجها، ولا حَلَّ للقضية الفلسطينية إلا بالجهاد.

تقوم حركتهم على معارضة المبادرات، وما يسمى بالحلول السلمية للقضية الفلسطينية، ثم إنها اختارت الدخول إلى حلبة المعترك السياسي، فكسبت الجولة، وصارت تملك هذه الأغلبية التي مكنت من أن يترأس "إسماعيل هنية" رئاسةَ الوزراء في الدولة الفلسطينية.

أعلنت حماس أنها حركة إسلامية جهادية فلسطينية، وأنها ذات جذور وعقائد فكرية، تتخذ من سيرة السلف الصالح قدوةً ونبراسًا، وأنها جناح من أجنحة الإخوان المسلمين بفلسطين. ولا تزال هذه الحركة تقدم من الشهداء وتقدم من التضحيات، وتعاني من البلاء الذي يصب عليها كل يوم صبًّا بسبب هذه المعتقدات، وتلك المواجهات، وذلك القتال الدامي الذي يدور على أرض فلسطين على مرأًى ومسمعٍ من العالم كله بأسره.

نسأل الله ﷻ أن ينصرهم نصرًا عزيزًا مؤزرًا، وأن يعجِّل لهم بفرجه، وأن يرزقهم مما هم فيه مخرجًا، إنه جواد كريم، بر رءوف رحيم.

ثالثًا: الجماعات الجهادية، والجماعات الداعية لإعادة الخلافة:

تمثل الخلافة الإسلامية في وجدان كثير من المسلمين أملًا إسلاميًّا عظيمًا، ومعنًى وركنًا ركينًا، ويعني: الرجوع إليها -في نظر دعاة عودة الخلافة- عدة مفاهيم؛ منها: إصلاح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها مِن ربط بين الدين والدولة، وجعل إمام المسلمين قائدَ مسيرة حياتهم الإيمانية والعلمية، كما يعني: تأكيد صلاحية الإسلام كدين ودولة للتعامل مع مستجدات الحياة، بل وتأكيد انتصارات المسلمين، وبيان ذلك أن الفتوحات الإسلامية العظيمة لم تتم إلا في ظل الخلافة الإسلامية، كما أنها تؤكد على أن الإسلام بطابعه المتميز والمتفرد، يحتاج إلى سلطان يزع به الله ما لا يمكن أن يوزع بالقرآن؛ تحقيقًا لسياسة العقيدة، وارتفاعًا للواء الإسلام، وعلوًّا لشأن الدولة المسلمة.

وإذا كانت الخلافة تجسد هذه المعاني في ذهن أنصارها، فقد كان لزامًا أن نقدم بعضَ هذه الجماعات التي تبلورت حول هذا الاتجاه، وقد اخترنا لذلك مثالين؛ المثال الأول: الجماعة الإسلامية بمصر، والثاني: حزب التحرير.

أ- الجماعة الإسلامية بمصر:

هي جماعة إسلامية نشأت في أواخر السبعينيات بالجامعات المصرية، قامت أول ما قامت إلى الدعوة إلى الجهاد، على اعتبار أن الجهاد هو الفريضة الغائبة عن حياة المسلمين؛ لإقامة الدولة الإسلامية. وهي مع ذلك تدعو إلى الدعوة إلى الله، وإلى الأمر بالمعروف وإلى النهي عن المنكر، وقد أطلق عليها اسم "الجماعة

الإسلامية" وكانت هذه الجماعة تشمل معها تلك الطائفة الجهادية التي تُعنَى بالقضية الجهادية أكثر ما تعنى.

نمت هذه الجماعة الدينية داخل الكليات الجامعية، واتسعت قاعدتها، وتطور مفهومها ونظرتها للعمل للإسلام، فاجتمع نفر من هؤلاء القائمين على هذا النشاط، واتخذوا هذا الاسم "الجماعة الإسلامية". وفي أعقاب حرب أكتوبر سنة ثلاث وسبعين من رمضان، سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف هجرية، اتخذ العمل الإسلامي داخل الجامعات المصرية بُعدًا أوسعَ، واستطاعت الجماعة الإسلامية أن تقود الحركة الطلابية، وأن تفوز بثقة الأغلبية الصامتة من جماهير الطلاب في انتخاب الاتحاد الطلابي في الجامعة.

ومن هنا زادت وتعددت أنشطة الجماعة الثقافية والتربوية من اللقاءات والندوات والمعسكرات، وزاد الاهتمام بحلول المشاكل الاجتماعية للطلاب، وتعدَّى الأمر أسوار الجامعات، فزاد الاهتمام بمشاكل المجتمع اليومية.

تكونت هذه الجماعة من مجموعة من القيادات الطلابية: ككرم زهدي، ومحمد عبد السلام فرج، وناجح إبراهيم، وغير هؤلاء من شباب الخريجين، واختاروا الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن أميرًا للجماعة، كان أستاذًا للتفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين جامعة الأزهر فرع أسيوط، وكان قد سبق اعتقال الشيخ أثناء حكم جمال عبد الناصر، واتهم في قضية قتل السادات بتهمة إمارة هذه الجماعة، والإفتاء بحل دم السادات، إلا أن المحكمة برأته مما نسب إليه، وكذا برأته من قضية الانتماء لتنظيم الجهاد، ومن ثم أفرج عنه ليواصل نشاطه الدعوي، متنقلًا بين المحافظات، ومشاركًا في المؤتمرات والندوات، وعارضًا فكر هذه الجماعة، محمسًا الشباب على الجهاد، والخروج على نظام الحكم، مما أدى

إلى اعتقاله عددًا من المرات، ثم تحديد إقامته بمنزله بالفيوم، ثم خرج بعد ذلك إلى أمريكا؛ ليقيم في ولاية "نيوجرسي" حيث كثر هناك أتباعه، نسب إليه أنه أفتى بقتل "فرج فودة" الكاتب العلماني الساخر من الإسلام، وأفتى بضرب حركة السياحة في مصر، وتفجير مركز التجارة العالمي الذي أدين بسببه في أمريكا، وحُوكم بالسجن، ولا يزال هذا الشيخ يقضي مدة العقوبة الطويلة بتلك البلاد.

في بداية عام أربع وثمانين وتسعمائة وألف بعد أن أفرج عن الكثير من أعضاء هذه الجماعة من غير المتهمين في قضايا التنظيم، أعيد تنظيم هذه الجماعة مرةً أخرى، وبدأت تعمل في الدعوة إلى الله في المساجد والجامعات مرةً أخرى، إلى أن تعرضت إلى مزيد من الضغط والتضييق في أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، ثم كانت مواجهة شاملة أدت إلى اعتقال عامة مَن خرج من هؤلاء، ومن انضم إليهم في السجون المصرية، حيث بلغ تعدادهم في هذه السجون قرابة الثلاثين ألف معتقل.

ثم بعد مرور فترة من هذا الحبس الطويل بدأت أفكار هذه الجماعة في التغير والتحول التدريجي، إلى أن وصلت إلى حد الرجوع عن جميع أفكارها السابقة التي تعلقت بالدعوة، والأمر والنهي، والجهاد، والموقف من الحكام، وتبلورت معظم أفكار هذه الجماعة في كتب ورسائل داخل سجن "ليمان طرة" منها "ميثاق العمل الإسلامي" الذي نص على أن الغاية هي رضا الله تعالى بتجديد الإخلاص له، وتحقيق المتابعة لنبيه ﷺ وأن العقيدة هي عقيدة السلف الصالح جملةً وتفصيلًا، وذلك بِفَهم بفهم الثقات المتبوعين لسنة النبي ﷺ وأن هدف هذه الدعوة: هو تعبيد الناس لربهم، وإقامة الخلافة على مِنهاج النبوة، وأن الطريق يمر من خلال الدعوة والأمر والنهي، والجهاد في سبيل الله.

تحولت هذه الجماعة -كما قدمنا- عن عامة أفكارها، وألفت ترد على نفسها فيما وقعت فيه من أخطاء، وكان هذا منها تراجعًا عن كثير من مرتكزاتها الفكرية التي قامت أساسًا لاجتماع هؤلاء الشباب. والجدير بالذكر أن هناك مجموعات قد خرجت من المعتقلات بعد ذلك الاعتقال الطويل الذي زاد في الفترة الأخيرة عن عشر سنوات لكثير منهم، خرجت جماعات كثيرة ومجموعات كبيرة من هذه الجماعة بعد هذا الاعتقال الطويل؛ لتمارس حياة عادية بعيدة عن هذا العمل الإسلامي الذي ارتبطت فيه وبه، خاصة مع هذا الفكر الجديد الذي تغيرت فيه هذه الجماعة من النقيض إلى النقيض.

ب- حزب التحرير:

التعريف:

حزب التحرير: هو حزب سياسي إسلامي، يدعو إلى تبني مفاهيم الإسلام وأنظمته، وتثقيف الناس به، والدعوة إليه، والسعي لإقامة دولة الخلافة، معتمدًا الفكرة أداة رئيسة في التغيير، وقد صدرت عنه اجتهادات شرعية عديدة كانت محل انتقاد جمهرة علماء المسلمين.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

أسس هذا الحزب الشيخ "تقي الدين النبهاني" المولود سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف، والمتوفى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وألف، وهو فلسطيني الأصل، من مواليد قرية "إجزم" قضاء حيفا بفلسطين، تلقى تعليمه الأولي في قريته، ثم التحق بالأزهر، ثم دار العلوم بالقاهرة، ثم عاد ليعمل مدرسًا فقاضيًا في عدد من مدن فلسطين.

بعد وفاة النبهاني ترأس الحزب عبد القديم زلوم، وهو من مواليد مدينة الخليل بفلسطين، وهو من خريجي الأزهر أيضًا، له كتاب "هكذا هدمت الخلافة" وكتاب "الأموال في دولة الخلافة" كما تأسس لهذا الحزب فرع آخر في لبنان، وكذا فرع بالأردن، ووجدت مجموعة من الحزب في مصر ألقي القبض عليها في شهر أغسطس سنة أربع وثمانين وتسعمائة وألف، وقدموا للمحاكمة.

قام هذا الحزب على غاية هي استئناف الحياة الإسلامية عن طريق إقامة الدولة الإسلامية في البلدان العربية أولًا، ثم الخلافة الإسلامية، ويتم حمل الدعوة بعد ذلك إلى البلدان غير الإسلامية عن طريق الأمة المسلمة.

الميزة الرئيسية التي يتصف بها الحزب: هي التركيز الكبير على الناحية الثقافية، والاعتماد عليها في إيجاد الشخصية الإسلامية أولًا، والأمة الإسلامية آخرًا.

يفلسف الحزب طريق وصوله إلى تحقيق أهدافه بما يراه من أي مجتمع إنما يعيش الناس فيه داخل جدارين سميكين؛ جدار العقيدة والفكر، وجدار الأنظمة التي تعالج علاقات الناس وطريقتهم في العيش، فإذا أريد تغيير هذا المجتمع من قبل أهله أنفسهم، فلا بد أن يركز هجومه على الجدار الخارجي -أي: مهاجمة الأفكار- مما يؤدي إلى صراع فكري، حيث يحصل الانقلاب الفكري، ثم السياسي. ويصر الحزب في دعوته على قاعدة: "أصلح المجتمع يصلح الفرد، ويستمر إصلاحه".

ويقسم الحزب مراحل عملية التغيير إلى ثلاثة مراحل على النحو التالي:

المرحلة الأولى: هي مرحلة الصراع الفكري، ويكون بالثقافة التي يطرحها الحزب.

المرحلة الثانية: الانقلاب الفكري، ويكون بالتفاعل مع المجتمع عن طريق العمل الثقافي والسياسي.

المرحلة الثالثة: تسلم زمام الحكم، ويكون عن طريق الأمة تسلمًا كاملًا.

ويرى أنه لا بد له في المرحلة الثالثة من طلب النصرة من رئيس الدولة، أو رئيس كتلة، أو قائد جماعة، أو زعيم قبيلة، أو من سفير، أو ما شاكل ذلك.

حدد الحزب أولا مدة ثلاثة عشر عامًا من تاريخ تأسيسه للوصول إلى الحكم، ثم مددها ثانيًا إلى ثلاثة عشر عامًا من تاريخ تأسيسه للوصول إلى الحكم، ثم مددها ثالثًا إلى ثلاثة عقود من الزمان؛ مراعاةً للظروف والضغوط، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث على الرغم من مضي المدتين.

يغفل هذا الحزب الأمور الروحية، ويقصر كثيرًا في الأمور الشرعية، وينظر إليها نظرة فكرية بحتة، يحرم الحزب على أعضائه الاعتقادَ بعذاب القبر، أو بظهور المسيح الدجال، ومَن يعتقد هذا في نظرهم يكون آثمًا، ويرى زعماء هذا الحزب عدم التعرض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ذلك لديه من معوقات العمل المرحلي الآن.

للحزب دستور مؤلف من سبع وثمانين ومائة مادة، معد للدولة الإسلامية المتوقعة، وقد شرح هذا الدستور شرحًا مفصلًا، ورغم أن هذا الدستور لم يطبق تطبيقًا فعليًّا، فقد وجه إليه النقد بأنه لا يفي بتصور واحتياجات دولة الإسلام المعاصرة.

ما يؤخذ على هذا الحزب:

هذا الحزب تؤخذ عليه أمور كثيرة في مجالات عديدة سواء في المجال الدعوي، أو المجال الفكري، أو الانضباط بالأحكام الشرعية، كما رأينا لهذا الحزب فتاوَى غريبة، وأحكام فقهية عجيبة.

وعلى كل حالٍ، فإن حزب التحرير يُنسب إلى أنه حزب سياسي إسلامي، يدعو إلى إقامة دولة الخلافة الإسلامية، يؤخذ عليه -كما قدمنا- أنه يخالف عقيدةَ ومنهج أهل السنة والجماعة في تقديم العقل على النصوص الشرعية تارةً، وفي التسيب في ضبط الأحكام الشرعية تارةً أخرى، كما أنه يهمل الجوانب التربوية، ويتخلى عن جوانب الحسبة والأمر بالمعروف، وهي من قضايا السياسة الشرعية، كما أنه يصدر فتاوى غريبة بعيدة عن الحس الإسلامي، وعن الفقه الشرعي.

رابعًا: الجماعات الدعوية المتأثرة بالصوفية:

أ- جماعة التبليغ والدعوة:

جماعة التبليغ والدعوة جماعة إسلامية، أقرب ما تكون إلى الوعظ والإرشاد منها إلى الجماعة التي تقوم على فلسفةٍ وفكرٍ شاملٍ منظم، تقوم دعوتها على تبليغ فضائل الإسلام لكل من تستطيع الوصول إليه، تُلْزِمُ أتباعَها بأن يقتطع كل واحد منهم جزءًا من وقته؛ ليبلغ الدعوة ولينشرها بعيدًا عن التشكيلات الحزبية والقضايا السياسية، ويلجأ أعضاؤها إلى الخروج للدعوة ومخالطة المسلمين في مساجدهم، ودورهم، ومتاجرهم، ونواديهم، وإلقاء المواعظ والدروس والترغيب في الخروج معهم للدعوة، ينصحون بعدم الدخول في جدل مع المسلمين، أو في خصومات مع الحكومات.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

تأسست هذه الجماعة على يد الشيخ محمد إلياس الكندهلوي، المولود سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة، والمتوفى سنة ألف وثلاثمائة وأربع وستين هجرية، وهو من "كندهلة" وهي قرية من قرى "سهارنفور" بالهند. تلقى تعليمه الأولي فيها، ثم

انتقل إلى "دهلي" حيث أتم تعليمه في مدرسة "ديوبند"، التي هي من أكبر مدارس الأحناف في شبه القارة الهندية.

تأثر الشيخ -رحمه الله تعالى- بالصوفية في أول نشأته، وكان قد تتلمذ على الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وقد بايعه الشيخ محمد إلياس على الطريقة سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف، وجدد البيعة على الشيخ خليل أحمد السهارنفوري أحد أئمة الديوبندية، واتصل بالشيخ عبد الرحمن الرائفوري، واستفاد من علمه وتربيته. وأخذ بعض علومه عن الشيخ أشرف علي التهانوي الملقب بحكيم الأمة.

بعد وفاة الشيخ الكندهلوي -رحمه الله- تولاها الشيخ محمد يوسف، ثم عقبه تولى الشيخ إنعام الحسن، فهو الأمير الثالث لهذه الجماعة.

الأفكار والمعتقدات:

تدور أو تنحصر كما يظهر هذا في مؤتمراتهم وبياناتهم العامة، حول أسس ستة أو مبادئ ستة، يجعلون منها أساسًا للدعوة:

الكلام عن الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وإقامة الصلاة ذات الخشوع، والعلم، والذكر، وإكرام المسلمين، والإخلاص.

طريقتهم في نشر الدعوة:

وتقوم طريقتهم في نشر الدعوة على انتداب مجموعة منهم أنفسها لدعوة أهل بلد ما، فيأخذ كل واحد منهم فراشًا بسيطًا وما يكفيه من الزاد، على أن يكون التقشف هو السمة الغالبة. يصلون إلى تلك البلد التي يريدون الدعوة فيها،

وينظمون أنفسهم بحيث يقوم بعضُهم برعاية المكان الذي سيمكثون فيه، ويخرج آخرون يتجولون في أنحاء البلدة والأسواق والحوانيت، ويذكرون الله -تبارك وتعالى- ويذكِّرون الناس بالدعوة إلى الله، وبسماع الخطبة التي تلقَى في المسجد، أو ما يسمونه بـ"البيان". ثم يجتمعون للصلاة في هذا المسجد، ويأتون بمن جاءوا بهم من الأسواق والمنتديات والمقاهي؛ ليسمعوا هذا الذكر أو هذه الخطبة التي تقرب وتذكر بالله.

المآخذ عليهم:

يعتقدون أن التصوف هو من أقرب الطرق لاستشعار حلاوة الإيمان في القلوب، وترد على ألسنتهم أسماء أعلام المتصوفة، تقوم طريقتهم على الترغيب والترهيب، والتأثير العاطفي، وقد استطاعوا أن يجتذبوا إلى رحاب الإيمان كثيرًا من الذين انغمسوا في الملذات والآثام، فحولوهم إلى العبادة والذكر والتلاوة، وهم لا يتكلمون في السياسة، وينهون أفراد جماعتهم عن الخوض في مشاكلها. وهكذا لا يتكلمون فيما يسمى بأمراض الأمة أو بالخلافات الفقهية، والأفكار الأخرى، ونحو ذلك مما يُعرف من طريقتهم.

يلاحظ أنهم يتوسعون توسعًا أفقيًّا كميًّا لا نوعيًّا؛ لأن تحقيق التفوق النوعي يحتاج إلى رعاية ومتابعة وعلم، وهذا ما تفتقده هذه الدعوة؛ لأن الشخص الذي يدعونه اليوم قد لا يلتقون به مرة أخرى، إلا إذا كان سيخرج في سبيل الله ليلتقي إخوانًا آخرين.

ومما يؤخذ عليهم: أن بعضهم يئول أحاديث الجهاد على الخروج، مما يكاد ينسي الجهاد في سبيل الله، ويتسهلون في ضبط الأحاديث الضعيفة، والروايات التي لا

تصح، فيروونها عن رسول الله ﷺ مع إكثار من ذكر الكرامات التي تحصل لهم، ولأتباعهم، ولغيرهم من الصالحين.

وعلى كل حالٍ، فإن الجذور الفكرية والعقائدية لجماعة التبليغ تقول: إنها جماعة إسلامية، مصادرها الرئيسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعقيدة مؤسسيها، وكبار علمائها ودعاتها في شبه القارة الهندية، هي نفس عقيدة الماتريدية، على أن المذهب الفقهي السائد لديهم هو المذهب الحنفي. تأثروا بالمتصوفة وبخاصة الطريقة الجشتية والقادرية والنقشبندية والسهروردية في الهند، ويقيمون اعتبارًا خاصًّا لأعلام المتصوفة في التربية والتوجيه، وهناك مَن يعتقد بأنهم قد أخذوا أفكارهم عن جماعة النور في تركيا، وهذا ما سنتناوله عند الكلام على جماعة النور في تركيا.

انتشرت هذه الدعوة في الهند وباكستان وبنجلاديش، وانتقلت إلى العالم الإسلامي والعربي، وصار لهم أتباع في عامة البلاد الإسلامية، وانتشرت دعوتهم أيضًا في التعريف بالإسلام، ودعوة الناس إليه، وهذا الجهد يعرف فيشكر، ولا بد.

ب- جماعة النور في تركيا:

النور أو "النورسية": جماعة دينية إسلامية هي أقرب في تكوينها إلى الطرق الصوفية منها إلى الحركات المنظمة.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

ركز مؤسسها الشيخ سعيد النورسي -الذي تُوفي عام ستين وتسعمائة وألف- في تكوينها على الدعوة إلى حقائق الإيمان، والعمل على تهذيب النفوس محدثًا تيارًا

إسلاميًّا في محاولة منه للوقوف أمام المد العلماني الماسوني الكمالي الذي اجتاح تركيا عقب سقوط الخلافة العثمانية.

والشيخ سعيد النورسي -رحمه الله تعالى- ولد من أبوين كرديين في قرية "نورس" القريبة من بحيرة "وان" في مقاطعة "هزان" بإقليم "بتلس"، شرقي الأناضول، وفي الثامنة عشرة من عمره ألمَّ بالعلوم الدينية، وبجانب كبير من العلوم العقلية، وحفظ كتاب الله ﷻ وأخذ نفسه بالزهد والتقشف. عمل مدرسًا لمدة خمس عشرة عامًا في مدينة "وان" وهناك بدأ دعوته الإرشادية التربوية. وانتقل إلى "اسطنبول" لتأسيس الجامعة الزهراء؛ لتكون على شاكلة الجامع الأزهر بمصر، وصادف أن كان هناك الشيخ بخيت شيخ الجامع الأزهر الذي أبدى إعجابه بسعيد النورسي، الذي لقب بـ"بديع الزمان".

عين سعيد النورسي عضوًا في أعلى مجلس علمي في الدولة العثمانية، وهو دار الحكمة الإسلامية، وفي عام ثمانية وتسعمائة وألف، وبعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد، بتآمر من جمعية الاتحاد والترقي التي رفعت شعار "الوحدة والحرية والإصلاح"؛ لتخفي وراءه دسائسها ومؤامراتها على الإسلام والمسلمين، ألف بديع الزمان مع آخرين جمعية "الاتحاد المحمدي"، واستخدموا نفس شعارات الاتحاديين، ولكن بالمفهوم الإسلامي؛ كشفًا لخدعهم التي يتسترون خلفها، وتجليةً لحقيقتهم الماسونية. كان العلمانيون الذين حكموا تركيا بعد زوال الخلافة يخشون من دعوته، ويعارضونها أشدَّ المعارضة، فما كان منهم إلا أن استغرقوا حياته بالسجن والتعذيب، والانتقال من سجن إلى منفى، ومن منفى إلى محاكمة، وأصدرت المحاكم ضده أحكامًا بالإعدام عدةَ مرات، لكنهم كانوا يعدِلون عن تنفيذ هذا الحكم؛ خوفًا من ثورة أتباعه وأنصاره.

في عام سبع وعشرين وثلاثمائة وألف انتقل إلى سوريا، وأقام في دمشق، وألقى في المسجد الأموي خطبته والتي عرفت باسم "الخطبة الشامية"، ووضح فيها أسباب تقدم أوربا وتخلف المسلمين. عاش آخر عمره في "أسبرطة"، منعزلًا عن الناس، وقبل ثلاثة أيام من وفاته اتجه -رحمه الله- إلى "أورفا" دون إذن رسمي حيث عاش يومين فقط، فكانت وفاته في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية.

فكر هذه الجماعة:

هو ما كتبه المؤسس ذاته؛ حيث إنك لا تكاد تجد ذكرًا لآخرين تركوا إضافات مهمة على فكرها، قامت دعوة هذه الجماعة على إيقاظ العقيدة الإسلامية في نفوس أتباعها، ومع ذلك جمعت إلى التربية والزهد والتواضع التخلي عن السياسة، واعتبارها من وساوس الشيطان، قال بديع الزمان للمحكمة عندما كان مسجونًا: لقد تساءلتم: هل أنا ممن يشتغل بالطرق الصوفية؟ وإنني أقول لكم: "إن عصرنا هذا هو عصر حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة، إن كثيرين هم أولئك الذين يدخلون الجنة بغير طريقة، ولكن أحدًا لن يدخل الجنة بغير إيمان". وقال: "أقسم بالله أنني سأكرس نفسي للقرآن، باذلًا حياتي مهما كانت مكائد الوزير البريطاني القذرة".

وكانت التهم التي تواجه بديع الزمان في تلك المحاكمات: أنه يعمل على هدم الدول العلمانية والثورة الكمالية، وأنه يثير روحَ التدين في تركيا، وأنه يعمل على تأليف جمعية سرية، وأنه يتهجم على شخص مصطفى كمال أتاتورك. وكان -رحمه الله- يتصدَّى لهذه التهم بمنطق بليغ من الحجة والبرهان.

ما يؤخذ على هذه الجماعة:

أنهم لم يستطيعوا تأسيس عمل إسلامي منظم يستطيع التصدي للمكر اليهودي الذي كان متغلغلًا في معظم نواحي الحياة السياسية، ذلك أنه كانت لهم من السياسة هذا الموقف الذي شرحناه آنفًا.

يؤخذ على الشيخ: تخليه على مساندة الشيخ سعيد الكردي الذي قام بثورة ضد مصطفى كمال أتاتورك سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف، واقفًا إلى جانب الخلافة، وقد حدثت معارك رهيبة بينه وبين الكماليين في منطقة "ديار بكر" سقط فيها آلاف من المسلمين. ويأتي هذا الموقف انطلاقًا من فكره في وجوب جهاد النفس أولًا، ثم الدعوة إلى تنوير الأفكار، وقد نادت الجماعة بإصلاح القلوب وعدم الدخول في معارك داخلية مع المخالفين المسلمين، سواء كانوا حكامًا أم محكومين، والتزام طريق الدعوة السلمية، والتطور التدريجي، فلا يلجأ إلى الجهاد المسلح إلا ضد العدو الخارجي من الكفار والزنادقة.

اهتمت هذه الجماعة بالجوانب التعليمية، فأسست المدارس والجامعات والكليات، ونشرت ذلك في مختلف البقاع التركية حتى إنها خرجت عن ذلك إلى عدد من البلاد في آسيا وأوربا، بلغ أعداد المنتسبين إليها أكثر من مليون شخص، ولهذه الجماعة -كما قدمت- أتباع وأنصار في كل من الباكستان، والهند، وآسيا الوسطى، وكذا لها نشاط في أمريكا يتمثل في الطلاب الأتراك من أتباع هذه المدرسة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع العامة

١. **(تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة)**

جميل عبد الله المصري، المدينة المنورة ، مكتبة الدار، ١٩٨٧م.

٢. **(سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله)**

أحمد أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٣م.

٣. **(أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي)**

عبد الله بن محمد آل موسى، الرياض، دار عالم الكتب، ١٩٨٥م.

٤. **(أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية)**

علي بن نفيع العلياني، الرياض، دار طيبة، ١٩٨٥م.

٥. **(الرحيق المختوم)**

صفي الرحمن المباركفوري، المنصورة، ط ٣، دار الوفاء، ٢٠٠٠م.

٦. **(الدعوة الإسلامية في القرن الحالي)**

محمد الغزالي، القاهرة، دار الشروق ، ٢٠٠٠م.

٧. **(الدعوة الإسلامية في عهدها المكي)**

رؤوف شلبي، الكويت، دار القلم، ١٩٨٢م.

٨. **(دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي)**

محمد بن عبد الله بن سلمان السلمان، السعودية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٢هـ.

٩. **(فقه الدعوة)**

بسام العموش، الأردن، دار النفائس، ٢٠٠٥م.

١٠. **(محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر)**

محمد بهجت الأثري، جامعة الإمام محمد بن سعود ، إدارة الثقافة والنَّشر، ١٩٨٤م.

١١. **(منهج الدعوة النبويَّة في المرحلة المكيَّة)**

علي جابر الحزني، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦م.

١٢. **(نظرات حول العصر العباسي الأول)**

عبد المقصود نصار، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ١٩٧٥م.

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008